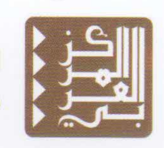
مجموعة مؤلفين

مئة عام على الحرب العالمية الأولى
مقاربات عربية

المجلد الثاني
مجتمعات البلدان العربية: الأحوال والتحولات

المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



هذا الكتاب

إذا كان المجلد الأول من كتاب **مئة عام على الحرب العالمية الأولى** قد اشتمل على الدراسات التي عالجت حقل الأسباب والسياقات والتداعيات ومن زاوية غلب عليها البعد السياسي ومنهج السببية والاستنتاج، فإن المجلد الثاني الذي حمل عنوان "مجتمعات البلدان العربية: الأحوال والتحوّلات" ضم المساهمات (24 دراسة) التي عالجت الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والنفسانية لدى الفاعلين المهمّشين وغير المرئيين على مسرح "الكبار" في هذه الحرب الضروس، ولا سيما الجنود والناس والمطارح المنسية في الذاكرة التاريخية.

هذه الذاكرة تجاذبتها صور ومشاهد وأماكن متعدّدة، ورهانات مختلفة بل أحيانًا متناقضة، فمن عثمانية ارتدت عباءة الخلافة في الحرب، إلى ليبرالية غربية ووعود باستقلالات وطنية إلى دراما الخيارات الصعبة وقلق المصير المتأرجح لدى الناس بين الرجاء واليأس وبين الحياة والموت.

المؤلفون المساهمون

أنس الصنهاجي
أيمن محمد أحمد عيد
بشير اليزيدي
جامع بيضا
حسن كيالي
سيمون عبد المسيح
صالح علواني
عبد اللطيف الحفّار
عبد الواحد المكني
عبد الوهاب القصاب
علاء الدين يحوي
علي محافظة
عوني فارس
فتحي ليسير
قاسم الحادك
مالك شريف
مايكل بروفنس
محسن محمد صالح
محمد الأزهر الغربي
محمد بكراوي
محمد عفيفي
محمد ماجد الحزماوي
مهند مبيضين
نور الدين ثنيو

تنسيق وإشراف
وجيه كوثراني

السعر: 20 دولارًا

ISBN 978-614-445-104-5

9 786144 451045



المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

مئة عام على الحرب العالمية الأولى
مقاربات عربية

المجلد الثاني

مجتمعات البلدان العربية: الأحوال والتحولات

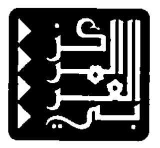
مئة عام على الحرب العالمية الأولى
مقاربات عربية

المجلد الثاني

مجتمعات البلدان العربية: الأحوال والتحولات

أنس الصنهاجي
أيمن محمد أحمد عيد
بشير اليزيدي
جامع بيضا
حسن كيالي
سيمون عبد المسيح
صالح علواني
عبد اللطيف الحفّار
عبد الواحد المكني
عبد الوهاب القصاب
علاء الدين يحوي
علي محافظة
عوني فارس
فتحي ليسير
قاسم الحادك
مالك شريف
مايكل بروفنس
محسن محمد صالح
محمد الأزهر الغربي
محمد بكراوي
محمد عفيفي
محمد ماجد الحزماوي
مهند مبيضين
نور الدين ثنيو

تنسيق وإشراف
وجيه كوثراني




الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
مئة عام على الحرب العالمية الأولى: مقاربات عربية/ إدريس محارتي ... [وآخ.]؛ تنسيق وإشراف وجيه كوثراني.
2 مج. ؛ 24 سم.
محتويات: مج. 1. الأسباب والسياقات والتداعيات، مج. 2. مجتمعات البلدان العربية: الأحوال والتحولات.
يشتمل على إرجاعات ببليوغرافية وفهرس عام.
ISBN 978-614-445-104-5
1. الحرب العالمية الأولى، 1914-1918. 2. الحرب العالمية الأولى - أسباب. 3. المنازعات الدولية - تاريخ - القرن 20 - مؤتمرات وندوات. 4. العالم - تاريخ - القرن 20 - مؤتمرات وندوات. 5. الحرب العالمية الأولى، 1914-1918 - أوروبا - مؤتمرات وندوات. 6. الحرب العالمية الأولى، 1914-1918 - البلدان العربية - مؤتمرات وندوات. 7. الأحوال السياسية - القرن 20 - مؤتمرات وندوات. 8. السياسة الدولية - القرن 20. 9. البترول - الجوانب السياسية - تاريخ - القرن 20. 10. الحرب العالمية الأولى، 1914-1918 - بريطانيا. 11. الحرب العالمية الأولى - العمليات العسكرية. 12. الحرب العالمية الأولى - معاهدات.
أ. محارتي، إدريس. ب. كوثراني، وجيه. ج. مؤتمر «مئة عام على الحرب العالمية الأولى: مقاربات عربية» (2 : 2015: بيروت - لبنان).
940.3

العنوان بالإنكليزية

World War I: A Century Later - Arab Approaches
Volume II
Arab Societies: Conditions and Transformations
by Multiple Authors

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات





شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى
بيروت، أيلول/ سبتمبر 2016

المحتويات

قائمة الجداول والأشكال والخرائط والصور والملاحق

الجداول

الأشكال

الخرائط

الصور

الملاحق

المساهمون

أنس الصنهاجي

باحث مغربي، حائز دكتوراه في التاريخ المعاصر في عام 2014 من جامعة سيدي محمد بن عبد الله المغربية. أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي في كلية الآداب والعلوم الإنسانية. شارك في عدد من الندوات التي تتناول الشأن المغربي. له عدد من الدراسات المحكمة، منها: «المغرب وأوروبا: دراسة في أشكال الشراكة والتعاون»، و«الدراسة المحتاجة لمعرفة تاريخ صنهاجة».

أيمن محمد أحمد عيد

باحث مصري في التاريخ الحديث والمعاصر، حائز الماجستير من قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة بنى سويف. متخصص في التوثيق والأرشفة في إدارة المشروعات الخاصة بمكتبة الإسكندرية – فرع القاهرة. شارك في عدد من الندوات والمؤتمرات الدولية والإقليمية والحلقات الدراسية في الجامعات ومراكز البحوث.

بشير اليزيدي

أستاذ محاضر في التاريخ المعاصر، وباحث قار في المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر في جامعة منوبة. مهتم بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي للبلاد التونسية في الفترة الاستعمارية، والجوالي الأوروبية ومدى تأثيرها في المجتمع التونسي. له نشاط علمي وتربوي في تونس وخارجها.

جامع بيضا

أستاذ التاريخ المعاصر في جامعة محمد الخامس في الرباط منذ عام 1982. تتركز اهتماماته العلمية على تاريخ الصحافة المكتوبة، والفترة الاستعمارية، وعلاقات المغرب بالغرب، والمنطقة المغاربية، وتاريخ الأقليات في المغرب. أسندت إليه في عام 2011 مهمة وضع لبنات مؤسسة «أرشيف المغرب» التي يتولى إدارتها حاليًا.

حسن كيالي

أستاذ في قسم التاريخ في جامعة كاليفورنيا في سان دييغو. تلقى تعليمه في جامعة هارفرد. تتمحور خبرته حول الشرق الأوسط الحديث عمومًا، والتاريخ العثماني المتأخّر خصوصًا. له أعمال تتناول الولايات العربية في زمن الإمبراطورية العثمانية، والتحولات التي شهدها الشرق الأوسط من الإمبراطورية إلى الدول القومية.

سيمون عبد المسيح

باحث لبناني، حائز دكتوراه دولة في التاريخ الاقتصادي، وإجازة في الحقوق. أستاذ التاريخ وطرائق تدريسه في كلية التربية في الجامعة اللبنانية. شارك في تأليف كتاب التاريخ المدرسي، وفي تقويم منهج مادة التاريخ في لبنان. مستشار تربوي في عدد من مراكز البحوث. له دراسات عدة وكتب في المعرفة التاريخية، وفي ديداكتيك التاريخ والتربية على المواطَنة. من مؤلفاته: **طواحين الرأسمالية**.

صالح علواني

باحث تونسي، نال دكتوراه في التاريخ في جامعة تولوز الفرنسية في عام 2004. باحث مشارك في التاريخ الوسيط في وحدة البحث المشترك في جامعة ليون الثانية الفرنسية منذ عام 2007. شارك في كثير من الملتقيات العلمية الدولية في المغرب العربي وخارجه. من مؤلفاته: ***L'exemple de la Grande Mosquée de Paris: une approche historique et patrimoniale.***

عبد اللطيف الحفّار

حائز دكتوراه في التاريخ المعاصر من كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة سيدي محمد بن عبد الله في فاس. أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي لمادة التاريخ والجغرافيا منذ عام 2008.

عبد الواحد المكني

حائز دكتوراه في التاريخ المعاصر، وهو نائب رئيس جامعة صفاقس في تونس. يعمل أستاذًا للتعليم العالي في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في صفاقس، ويرئس مخبر البحث في شأن الدراسات والبحوث المتقاربة والمتكاملة في الإنسانيات. شارك في كثير من الندوات الدولية.

عبد الوهاب القصاب

لواء بحري ركن سابق في القوّات المسلّحة العراقية، وباحث ومحلل سياسي وخبير في الشؤون العسكرية والتّسلح. عمل باحثًا مشاركًا في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. أسّس مركز الزّمان للدراسات الاستراتيجية في بغداد في عام 2003. درَّس علم الاستراتيجيا لطلبة الدراسات العليا في جامعة النّهرين في بغداد بين عامي 1997 و2005.

علاء الدين يحوي

باحث جزائري، حاصل على ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر من المدرسة العليا للأساتذة في مدينة الجزائر، ومرشح لنيل دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر.

علي محافظة

مؤرخ أردني، شغل وظيفة أستاذ في الجامعة الأردنية، وأصبح بعد ذلك رئيسًا لجامعة مؤتة، ثم لجامعة اليرموك، فجامعة جدارا. له مؤلفات كثيرة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر، من أهمها: **العلاقات الأردنية - البريطانية (1912-1957)**،

تاريخ الأردن المعاصر، عهد الإمارة (1921-1946)، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (1975-1987).

عوني فارس

باحث وكاتب فلسطيني، حائز ماجستير في التاريخ من جامعة بيرزيت. شارك في كتاب عن اللاجئين الفلسطينيين في الضفة الغربية (2013). له دراسات عن الريفيين في حيفا (1930-1948)، وأخرى عن شخصيات فلسطينية شاركت في الحياة الفكرية والسياسية الفلسطينية.

فتحي ليسير

أستاذ التاريخ المعاصر في الجامعة التونسية. له كثير من الكتب بين مؤلَّف ومترجَم، والمقالات بالعربية والفرنسية. من مؤلفاته: **معجم الثورة التونسية** (2008). آخر اصداراته: **تاريخ الزمن الراهن عندما يطرق المؤرخ باب الحاضر** (2012).

قاسم الحادك

حائز دكتوراه في التاريخ المعاصر في عام 2013 من كلية الآداب سايس في فاس. باحث في تاريخ المغرب المعاصر، ومتخصص بتاريخ المقاومة المغربية وجيش التحرير. عضو في عدد من الهيئات العلمية. شارك في ندوات وطنية ودولية عدة.

مالك شريف

نال دكتوراه في التاريخ العثماني من جامعة برلين الحرة في عام 2004، وهو باحث ملحق بالمعهد الألماني في اسطنبول حاليًا، يبحث في تاريخ الحرب العالمية الأولى. شارك في تحرير كتاب *The First Ottoman Experiment in Democracy* (2010)، وألف كتاب *Imperial Norms and Local Realities* الصادر في عام 2014.

مايكل بروفنس

أستاذ مشارك في قسم التاريخ في جامعة كاليفورنيا، سان دييغو. حصل على دكتوراه في تاريخ الشرق الأوسط الحديث من جامعة شيكاغو. عاش في سورية ولبنان ومصر وتركيا ودرّس فيها. مؤلّف كتاب **الثورة السورية الكبرى** الذي نُشرت ترجمته العربية أخيرًا، فضلاً عن مقالات كثيرة تناول فيها أواخر العهد العثماني والشرق الأوسط المستعمَر في مطلع القرن العشرين.

محسن محمد صالح

باحث أردني من أصل فلسطيني، حائز دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر (1993). أستاذ مشارك في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، متخصص بالدراسات الفلسطينية. يشغل منذ عام 2004 منصب المدير العام لمركز الزيتونة للدراسات والاستشارات في بيروت. من مؤلفاته: **التيار الإسلامي في فلسطين 1917-1948**، و**القضية الفلسطينية: خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة**.

محمد الأزهر الغربي

مؤرخ تونسي، حائز دكتوراه دولة من كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. أستاذ التعليم العالي في التاريخ المعاصر. له نحو 20 دراسة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلدان المتوسط. ساهم في ندوات عالمية عدة. له كتاب بالعربية عنوانه **تونس رغم الاستعمار** (2013).

محمد بكراوي

حائز دكتوراه دولة من جامعة إيكس إنبروفانس في فرنسا. متخصص في تاريخ المغرب المعاصر وتاريخ العلاقات الدولية. شارك في ندوات ومؤتمرات وطنية ودولية عدة. أنجز بحوثًا ومقالات باللغتين العربية والفرنسية نُشرت في مجلات متخصصة تصدر في المغرب وفرنسا.

محمد عفيفي

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، ورئيس قسم التاريخ في كلية الآداب

جامعة القاهرة. متخصص في التاريخ الاجتماعي والسياسي لمصر الحديثة والمعاصرة. له عدد كبير من المؤلفات في التاريخ المصري الحديث والمعاصر.

محمد ماجد الحزماوي

باحث فلسطيني، حائز دكتوراه من الجامعة الأردنية في عام 1993. عُيّن أستاذًا للتاريخ في جامعة الخليل حتى عام 1999، ثم درّس في جامعة القدس حتى عام 2013. يعمل أستاذًا للتاريخ الحديث والمعاصر في جامعة قطر. نشر أكثر من ثلاثين بحثًا في مجلات علمية محكّمة، كما شارك في نحو عشرين مؤتمرًا دوليًا.

مهند مبيضين

أستاذ مشارك في التاريخ العربي الحديث في الجامعة الأردنية. عمل أستاذًا مشاركًا في التاريخ والحضارة في جامعة فيلادلفيا منذ عام 2004. من مؤلفاته: **أهل القلم في دمشق في النصف الأول من القرن الثامن عشر** (2005)، و**فكرة التاريخ عند العرب في العصر العثماني** (2006)، و**أنس الطاعة: السياسة والسلطة والسلطان في الإسلام** (2012).

نور الدين ثنيو

أستاذ محاضر في جامعة الأمير عبد القادر في الجزائر. رئيس فريق يبحث في الحركات الإصلاحية الحديثة في بلدان المغرب العربي. شارك في كثير من المؤتمرات الدولية العربية والأجنبية، وصدر له **إشكالية الدولة في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية** عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

موجز الكتاب

ضمّ الجزء الأول «الأسباب والسياقات والتداعيات» من هذا الكتاب خمس عشرة دراسة من مجموع تسع وثلاثين دراسة قُدّمت وأقرت للنشر في مؤتمر «مئة عام على الحرب العالمية الأولى: مقاربات عربية» الذي عقده المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات (بيروت، 20-22 شباط/ فبراير 2015)، ويضم هذا الجزء الثاني «مجتمعات البلدان العربية: الأحوال والتحولات» مجموعة جديدة من الدراسات (24 دراسة) تبحث في أوضاع بعض المناطق والبلدان العربية في خلال هذه الحرب وكيف انعكست ويلاتها ونتائجها وآثارها عليها اجتماعيًا وسياسيًا وتنمويًا وجغرافيًا.

كشفت الدراسة الأولى «الاقتصاد المغربي خلال الحرب العالمية الأولى: دراسة في الأرشيف الفرنسي» لعبد اللطيف الحفار، عن توجهات فرنسا الاقتصادية في المغرب خلال تلك الحرب ووقفت عند مسارات التحول التي لحقت بالقطاعات الاقتصادية الثلاث الفلاحة والصناعة والتجارة، اعتمادًا على الأرشيف الاستعماري، مع غياب أرشيف مغربي يؤرخ لهذه المرحلة. واستطاع الباحث إظهار كيف أصبح المغرب خلال هذه المرحلة حاضرًا في تمثلات رجال الأعمال الأوروبيين (خصوصًا الفرنسيين)، كمجال يَعد بالثراء ويحق لهم استغلاله من دون قيود، ما انعكس على المغاربة الذين أُقحموا في منطق اقتصادي رأسمالي إمبريالي، بعيدًا عن منطقهم الاقتصادي المحكوم بالمرجعية الإسلامية، فحطّم هذا المشروع الكولونيالي الأنماط التي كانت سائدة من قبل، مثل الاختلال في دور البادية والمدينة في علاقتهما التبادلية التي تغيّرت إلى علاقة تبعية، فتأثرت بذلك البنية السكانية لمصلحة المدن، وبرزت أنماط إنتاج جديدة مرتبطة بالسوق

العالمية الخاضعة لقوانين الرأسمالية، وتناقضات الفلاحة التقليدية والعصرية، ما عكس ازدواجيـــة التعـامل عند صنّـاع القـرار وتأجيج المشكلة الاجتماعية وتعميق التناقضات وبروز فئة عريضة من الفلاحين الأجراء الذين لا يملكون أرضًا. الأمر الذي ساهم في نقل المغرب إلى مسار جديد، مسار السوق العالمية.

يفترض سيمون عبد المسيح في الدراسة الثانية «المجاعة الكبرى والاقتصاد الطرفي: من دراسات الحالة إلى بناء المفهوم»، أن عددًا من السرديات التي تناولت الوضع الاجتماعي - الاقتصادي في لبنان (المتصرفية والولاية) خلال الحرب العالمية الأولى، حاول أن يصف ما حدث، لكن لم يحاول فهمه وتفسيره، الأمر الذي يتطلب مقاربة جديدة، ترتكز أولًا على مفهوم «الزمن الطويل»، ترى ما حدث في لحظة الحرب من مآس، في ضوء قرن من الاندراج في «الاقتصاد - العالم»، وتحوّل الاقتصاد المحلي التقليدي الى اقتصاد طرفي مرتبط بشكل شبه كلي باقتصاد مركزي أوروبي. مضافًا إلى ذلك عائدات المهاجرين، حيث أضحى هذان العاملان محركين أساسيين للاقتصاد، وبالتالي ما ينتج من ذلك من تداعيات خطرة على المستويات. وينطلق الباحث في فرضيته هذه من تحليل قيود الوفيات في خلال الحرب في السجلات الدينية والمدنية، وتحليل الجداول في ضوء الاقتصاد المحلي لكل حالة.

في الدراسة الثالثة «منعرج العشرينيات: التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في البلاد التونسية بعد الحرب العالمية الأولى»، يُصوّب محمد الأزهر الغربي قراءة تاريخية لمرحلة مهمة من تاريخ تونس المعاصر، هي فترة ثلاثينيات القرن الماضي التي يُجمع كثير من المتخصصين باعتبارها مرحلة تمثّل تحوّلًا في تاريخ البلاد والعباد، استنادًا إلى تأثيرات الأزمة الاقتصادية العالمية التي ساهمت في نشأة «الحزب الجديد» بقيادة الحبيب بورقيبة الذي تزعّم الحركة الوطنية التي أفضت إلى الاستقلال في عام 1956. وجرى في هذا السياق الربط بين الحدثين على اعتبار أنّ هذه الأزمة أدّت إلى تضرّر الأهالي، الأمر الذي أفرز حراكًا اجتماعيًا وسياسيًا تمخّض عنه ظهور نخبة جديدة قامت ببعث «الحزب الحر الدستوري الجديد» الذي انشق عن «الحزب القديم» الذي تزعّمه الثعالبي. وبحسب الكاتب، يبدو أن هذه النظرة جانبت الصواب، إذ إنّها نشأت في سبعينيات القرن الماضي وثمانينياته لتضفي شرعية على الحكم البورقيبي في وقت بدأت فيه أركان هذا

الحكم تهتزّ تحت وقع المعارضة بشتّى أصنافها. ولعلّ من سلبيات هذه القراءة التي لا تزال سائدة إلى اليوم، أنها اقتصرت، في رأي الباحث، على المعطى الاقتصادي دون سواه لتفسير الحدث التاريخي وربطه ربطًا آليًا على الرغم من أن الواقع التاريخي أكثر تعقيدًا.

في الدراسة الرابعة «الدعاية الألمانية في المغرب خلال الحرب العالمية الأولى وردات الفعل المحلية»، يتتبع قاسم الحادك استراتيجيات هذه الدعاية الألمانية وأهدافها ونتائجها، وكيف وظّفت الإسلام والجهاد المقدس والجامعة الإسلامية ووصفت السلطان العثماني بالخليفة، كل ذلك من أجل استمالة زعماء حركات المقاومة في مناطق المغرب المختلفة ومدهم بالأموال والسلاح، وبالتالي إثارة الأوضاع في المغرب وشمال أفريقيا ضد الوجود العسكري الفرنسي؛ إذ ارتكزت هذه المخططات الألمانية على ربط الاتصال بهذه الزعامات المقاومة وحثها على تحقيق المصالحة بين القبائل والعشائر المقاومة بهدف إيجاد جو من الوحدة والتنسيق، إضافة إلى إذاعة الأخبار والإشاعات وتوسيع تداولها في الأسواق والتجمعات السكانية بهدف رفع معنويات رجال المقاومة. وبعد اندلاع الحرب ووقوف تركيا مع الألمان، انطلقت هذه الدعاية وزادت خطورتها وأصبحت شبحًا يخيف سلطات الحماية الفرنسية. لكن لم تقف السلطات الفرنسية في المغرب مكتوفة الأيدي أمام هذه الاستفزازات والتأثير سلبًا في الجهد الحربي الفرنسي في الجبهة الأوروبية، ما مكّنها من احتواء المخططات الألمانية، والاحتفاظ بالمغرب.

تعالج الدراسة الخامسة «الأسرى المسلمون في ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى 1914-1918: ذلك التاريخ المجهول» لعلاء الدين يحوي، موضوعًا مهمًا لم ينل مكانته البحثية بين اهتمامات الباحثين الذين كانوا يمرّون عليه مرور الكرام، ولم تتوافر عنه معلومات كافية، خصوصًا أن المادة التوثيقية في شأنه موجودة في ألمانيا. كان هؤلاء الأسرى الذين جنّدتهم فرنسا وروسيا وبريطانيا مشتتين في ألمانيا كلها، مع غيرهم من الأسرى الإنكليز والفرنسيين والروس ليتقرّر جمعهم في معسكر خاص (معسكر الهلال) ضم مسلمين عربًا، خصوصًا من شمال أفريقيا، وتتارًا وهنودًا ومسلمين من دول أخرى. بُني معسكر الهلال ليتسع لحوالى 5000 أسير، ووصل عدد الأسرى فيه في عام 1915 إلى

حوالى 3046 أسيرًا، عاملهم الألمان معاملة خاصة وحسنة، لكن السؤال الذي لم يجد الكاتب جوابًا عنه: ماذا حلّ بهؤلاء المساجين بعد الحرب؟

تبحث الدراسة السادسة «الحياة اليومية للجنود المغاربة في الجبهات الأوروبية خلال الحرب العالمية الأولى» لعبد الواحد المكني، حال آلاف المجندين والمتطوعين المغاربة (من الجزائر وتونس والمغرب) الذين التحقوا بالجبهات الأوروبية خلال الحرب الأولى، إذ شارك نحو 300 ألف جندي ومتطوع مغاربي في جبهات القتال والحرب الأوروبية. فكيف كانت حياة هؤلاء الجنود اليومية؟ هذا ما حللته هذه الدراسة التي أظهرت كم كابد الجنود المغاربة ضنك الحياة اليومية وعاشوا الاغتراب الروحي في بلاد ومناخ غير معروفين، كما عاشوا التقطع بين الولاء للوازع الديني (الخلافة) والاستجابة للواجب الحربي والشرف العسكري. وتناولت حياتهم اليومية ومفاصلها كتابات عدة مصدرها «يوميات» الجنود التي تُظهر حجم التضحيات.

تلفت الدراسة السابعة «الرأي العام التونسي والحرب العالمية الأولى: الجنود أنموذجًا» لبشير اليزيدي إلى حدث مميز وغريب في الحرب العالمية الأولى، هو تجنيد عدد كبير من التونسيين ونقلهم إلى الخارج. وأفرز هذا الوضع الخاص مستجدات كثيرة على الصعيد المجتمعي لما مثّله هذا الخروج وارتفاع عدد القتلى والمشوّهين، ضمن عناصر ما يُنعت بـ «التيرايور» أو «الرماة المناوشين» التونسيين، من نزيف بشري بالنسبة إلى الإيالة، فضلًا عن رحيل آلاف الأجراء التونسيين إلى فرنسا. ولعل أهم إفرازات هذا الواقع الجديد تحوّل جموع التونسيين هذه إلى عنصر فاعل في الرأي العام التونسي من خلال اطّلاعهم على المستجدات من الوقائع والأنباء، وزاد دور هؤلاء الذين كانوا جزءًا من مكوّنات الرأي العام التونسي، وأضفى عليهم وجودهم خارج الحدود صبغة التأثير في الرأي العام المحلي، فهُم عين الرأي العام عمّا كان يدور خارج الحدود، كما أنهم في الوقت نفسه جزءًا منه. فكيف عايش التونسيون هذا الحدث، وما هي القضايا التي أثارت اهتمامهم وكيفية تفاعلهم معها، وما هي الآثار التي خلّفتها الحرب في قطاعات عدة من المجتمع التونسي، وكيف تفاعل الرأي العام التونسي مع الجنود خلال فترة الحرب.

تكشف الدراسة الثامنة: «تداعيات الحرب العالمية الأولى على الوضع الصحي في المغرب» لأنس الصنهاجي، كيف كانت المغرب تصطلي بوطأة أنواع الأوبئة والأمراض المختلفة حتى قبل الحرب العالمية الأولى، وكيف ساهمت إدارة الحماية، نتيجة انتزاعها مدّخرات المغاربة من المؤن والمنتوجات الفلاحية في إطار مساندة فرنسا في الجهد الحربي، في تجويع فئة عريضة من المغاربة في البوادي والحضر، وفي عودة انتشار كثير من الأمراض الناجمة عن الفاقة والمَسَاغِب. وتُعدد الدراسة أنواع الأمراض المختلفة (الطاعون والتيفوس والجدري ...)، والمواقف والخطوات العملانية التي اتخذتها إدارة الحماية الفرنسية لمواجهة هذه الكوارث والحد من الأمراض التي تعتبرها معوّقة لمشروعاتها السياسية والأمنية والاقتصادية. فاستطاع الحاكم العسكري الفرنسي ليوتي كسب التهدئة السلمية وفرضها من طريق الدبلوماسية الطبية والسياسة الدينية لاحتواء الوضع، لذا، وإن لم تتمكن إدارة الصحة العمومية من تحقيق النجاح في الشكل المطلوب في القضاء على الجوائح الصحية التي كانت تنخر المغربي، فإنها أسست في الأقل لممارسة طبية جديدة اعتمدت على المنطق العلمي في التعاطي مع المرض، وذلك عبر وسائط وآليات طبية حديثة، خلخلت بشكل أو بآخر ثقافة المرض عند المغربي الذي صار مشدودًا إلى التداوي بالجديد على حساب التليد، لكن من دون القطع معه.

في الدراسة التاسعة «مشاركة المغرب في الحرب العالمية الأولى وأثرها في المجتمع المغربي» يتساءل محمد بكراوي: ما هو مصير المغرب وأهله الذي وجد نفسه مقحمًا في حرب أوروبية لا مصلحة له فيها ولا تعنيه في شيء؟ إذ لم يمضِ أكثر من عامين ونصف العام على فرض الحماية الفرنسية على المغرب حينما اندلعت الحرب العالمية الأولى، ولم تكن سلطات الحماية آنذاك قد انتهت بعد من إرساء هياكلها السياسية/ الإدارية والاقتصادية الجديدة. ففُرض على المغرب تزويد فرنسا بالمنتوجات الزراعية والمعدنية المختلفة، الأمر الذي أدى بالشعب المغربي إلى معـاناة شديدة بسبب نقص المواد الاستهلاكية الأساسية (الحبوب، السكر، الشاي ... إلخ) وتقنينها وارتفاع مهول في أسعارها، ما انعكس سلبًا على القدرة الشرائية للفئات الشعبية الفقيرة وعلى أحوال عيشها، وترتب عنه انتشار مجاعات خطرة وأمراض وأوبئة هلك في إثرها كثير من السكان، الأمر الذي

أدى إلى اندلاع تظاهرات واحتجاجات مطلبية في أنحاء كثيرة من البلاد، وفي المدن الكبرى خصوصًا. تزامنت هذه المعارضة السياسية مع بروز تحولات فكرية واجتماعية وسياسية عميقة غداة الحرب اجتاحت بلدان العالم ومن ضمنها المغرب، كان لها أثر بالغ في إذكاء الروح الوطنية وإيقاظها وبلورتها، توّجت بقيام الحرب التحررية الريفية.

في الدراسة العاشرة «الجزائريون في الحرب العالمية الأولى» يبحث نور الدين ثنيو كيف تعاطى الجزائريون مع الحرب الكبرى، وكيف حوّلوها في نهاية المطاف إلى مصلحتهم، وأعادوا بذلك تحويل مسار الاستعمار الفرنسي نحو وجهته النهائية. فإذا كانت مشاركتهم في بداية الأمر مبهمة، بلا عنوان ولا اسم طوال أعوام الحرب، لكنها قادتهم إلى استخلاص نتائج إيجابية على صعيد الوعي بضرورة تصفية الاستعمار. ومن وحي هذه الإشكالية تناول ثنيو الموضوع من جوانب مختلفة، مثل دور النخبة الجزائرية المتعلمة (الشبان الجزائريون) في امتلاك الوعي بأهمية التجنيد وصلته بالحقوق والحريات وتحقيق مركز اجتماعي جديد. ووضع الجنود الجزائريين في الحرب، بين فارٍّ من الجيش الفرنسي إلى صف ألمانيا، ومُخْلص للمؤسسة العسكرية ومنضبط بنظامها من خلال بعض الوثائق المنتقدة النظام العسكري الفرنسي وأخرى مؤيدة له. وكيف جرى التكفل بضحايا المعارك من ناحية تنظيم مراسم الجنائز والعناية بجثثهم وتوديعهم إلى مثواهم الأخير وفق التعاليم الدينية والتقاليد المتعارف عليها في أوطانهم الأصلية. وكيف برز اسم المقاتل الجزائري الذي سقط في ساحة الحرب والسعي إلى تخليد اسمه وذكر مآثره وجهده الذي بقي حيًّا بعد الحرب. وكيف اندرج الجزائريون، بعد الحرب، في صفوف اليسار الفرنسي كسبيل إلى امتلاك الوعي بالنضال النقابي في فرنسا والوطني في الجزائر والأممي.

بحثت الدراسة الحادية عشرة «المشهد الصحافي المغربي في غمار الحرب العظمى» لجامع بيضا، هذا المشهد الذي كان يكتسي أهمية خاصة نظرًا إلى عوامل شتى مرتبطة بالتحولات الخطرة التي كانت تعيشها البلاد في ذاك الوقت، ومنها المشهد الصحافي. ذلك أن فرض الهيمنة الاستعمارية على المغرب بموجب عقد فاس في 30 آذار/ مارس 1912 فتح الباب لتقنين الصحافة على مقاس النظام الجديد، فصدر أول ظهير منظّم للصحافة في 27 نيسان/ أبريل 1914،

وكان مبادرة تنم عن الأهمية التي يوليها الحكّام الجدد لهذا القطاع في إطار سياستهم العامة الرامية إلى تكريس الاحتلال. وسرعان ما خضع القانون المذكور لإكراهات الحرب العظمى التي انخرط فيها المغاربة بحكم تبعية البلاد لفرنسا، حين جمّد الجنرال ليوتي، المقيم العام الفرنسي في المغرب، مقتضيات هذا القانون وأسدل على المشهد الصحافي المغربي إكراهات مختلفة اتخذت أشكالًا متصلة بالجانب اللوجستي والبشري والمادة الصحافية وحقل الحريات العامة، فضلًا عن الضائقة التي شملت بعض الضروريات المادية لإنتاج الصحافة، وكان من تداعيات الحرب على الصحافة أيضًا أنها عانت نقص مهنيي الصحافة، وفي مقدمهم الصحافيون الذين التحقوا بجبهات القتال ولقي بعضهم حتفه، ما انعكس على المادة الصحافية التي فقدت جاذبيتها وتحوّلت الأخبار عن مجريات الحرب إلى بلاغات رسمية أو أنباء صادرة عن وكالات تخضع لرقابة عسكرية دقيقة.

تسلّط الدراسة الثانية عشرة «تأسيس مسجد باريس (1922-1926) إنجاز معماري وثقافي بعد الحرب الكبرى» لصالح علواني الضوء على بعض خصوصيات المعهد الإسلامي والمسجد الجامع الذي قررت الإمبراطورية الفرنسية بناءه في باريس في عام 1922، ومظاهر تميزه، خصوصًا أنه بُني في أرض غير أرضه التقليدية. وكان مشهدًا ثقافيًا حضريًا شرقيًا - مغاربيًا وتراثًا ثقافيًا حيًّا. وتركز الدراسة أيضًا على ما يميز هذا المعلم الباريسي، خصوصًا تاريخه، وعلى الأوضاع التي أحاطت بتأسيسه وتدشينه باعتباره حدثًا مميزًا وفريدًا من أجل نشر قيم الإسلام على النمط الفرنسي، أي إسلام متجذر في قيمه الإنسانية، منفتح على الحداثة الغربية. ومن ميزات هذه الدراسة أيضًا أنها تبيّن بوضوح الأسباب التي أحلّت هذا المعلم محل تجاذب و«صراعات خفية»، تعود أسبابها أولًا إلى نشأة جمعية أحباس الأماكن المقدسة الإسلامية والتطورات التي عرفتها الجمعية لاحقًا، والتي كانت المسؤول الوحيد عن الممتلكات الإسلامية، من خلال رئيسها الذي يشغل أيضًا منصب المشرف العام على المسجد والمعهد الذي فيه. ومن خلال عرض تاريخ هذه المعلم، يحاول علواني إبراز عناصر مميزة ذات رمزية عالية تحملها هذه المؤسسة الدينية والثقافية، خصوصًا قبل موجة حركات التحرر التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، والتي مسّت مستعمرات فرنسا كلها من دون استثناء تقريبًا.

تحاول الدراسة الثالثة عشرة « تداعيات الحرب العالمية الأولى في طرابلس الغرب: زمن التفاوض بين إيطاليا والزعامات المحلية 1916-1921» لفتحي ليسير الإجابة عن كيفية تعاطي إيطاليا مع الأوضاع في ليبيا في إثر اندلاع الحرب العالمية الأولى وبعد هزيمتها العسكرية أمام المقاومة الأهلية، خصوصًا بعد توظيف تركيا وألمانيا طرابلس الغرب قاعدةً لخلق المتاعب للدولة الإيطالية العدوة من ناحية، ولفتح جبهة على الحدود الغربية لمصر ضد إنكلترا، ثم إشغالها عن الحملة التركية - الألمانية على قناة السويس من ناحية أخرى؟ وكيف جهدت إنكلترا وإيطاليا وألمانيا وتركيا في استقطاب زعامات وطنية مؤثرة في طرابلس الغرب وضمّها إلى صفها؟ وماذا كان انعكاس هذا الاستقطاب الحاد على سيرورة حركة المقاومة بين عامي 1916 و1921؟ ولماذا تراجعت إيطاليا عن «سياسة الزعماء» ابتداء من عام 1921، وما الذي أملى عليها انتهاج سياسة جديدة في هذا الخصوص، عنوانها: «لا مع الزعماء ولا ضد الزعماء.. لكن من دون الزعماء»؟

أما دافع الدراسة الرابعة عشرة «صورة أوروبا عند المثقفين الليبراليين المصريين في الحرب العالمية الأولى» لمحمد عفيفي، وهدفها فهما التعرف إلى موقف التيار الليبرالي المصري من الحضارة الغربية وتجديد الفكر المصري الحديث في الأوقات الصعبة التي مرت بها مصر عشية الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها، وكذلك البحث في مدى انعكاس صورة أوروبا على موقف التيار الليبرالي المصري من الحضارة الغربية، خصوصًا أن التيار المنادي بالأخذ بالحضارة الغربية وجد أوروبا نفسها تدخل في حرب استعمارية ضروس لم تفلح أفكار هذه الحضارة في الحيلولة دون وقوعها، وبلدان هذه الحضارة يأكل بعضها بعضًا، فما انعكاس ذلك على صورة أوروبا عند أصحاب هذا التيار؟ هذا ما تحاول هذه الدراسة التعرف إلى ملامحه من خلال النظر إلى صحيفة السفور كدراسة حالة. لكن على الرغم مما جرى في هذه الحرب من ويلات ومآس، حافظ التيار الليبرالي المصري على تأييده المعنوي للحلفاء في أثناء الحرب، وتَباين موقفه من مواقف تيارات فكرية أخرى عرضتها الدراسة، وهكذا أيضًا لم تخدش الحرب العالمية الأولى الصورة الحضارية التي رسمها التيار الليبرالي المصري لأوروبا التي استمرت في نظرهم البلاد الحية في سلمها وحربها المملوءة بالأمل في سرّائها وضرّائها.

في الدراسة الخامسة عشرة «أثر الحرب العالمية الأولى في مجتمع شبه جزيرة سيناء»، يرى أيمن محمد أحمد عيد أن الحرب العالمية الأولى كانت نقطة تحوّل مهمة في تاريخ شبه جزيرة سيناء ومجتمعها بسبب التغيرات الكبيرة التي مرت بها خلال هذه الفترة وكان لها تأثير كبير في تاريخها اللاحق؛ إذ كانت منذ اندلاع الحرب مسرحًا مهمًا للعمليات العسكرية، ما أثّر فيها وفي مجتمعها القبلي، خصوصًا أن السلطات العثمانية والألمانية حاولت استمالة عدد من بدو سيناء من زعماء قبائل بالمال والرشوة والأوسمة والدعاية أيضًا عند الاستعداد لاحتلال سيناء وقناة السويس. وكانت الدعاية الألمانية تقوم على أن هذه الحرب هي حرب دينية وجب فيها الجهاد الإسلامي، الأمر الذي أثّر في بريطانيا ودفعها إلى إرسال خبرائها إلى سيناء ومنهم «لورانس العرب» لاستمالة القبائل. كما نجحت الدولة العثمانية أيضًا في تجميع هؤلاء البدو من مناطق مختلفة لخبرتهم بمسالك صحراء سيناء ودروبها وتشكيلهم ضمن فرقة غير نظامية في الحملة التي كانت طليعة الجيش العثماني ووعدتهم بأخذ غنائم الحرب ما عدا بعض المعدات العسكرية الثقيلة.

تسعى الدراسة السادسة عشرة «سورية في الحرب العالمية الأولى والتحالف الألماني - العثماني: إطلالةٌ نقدية على التأريخ» لحسن كيالي إلى إعادة تقويم الآراء السائدة حيال السياسة العثمانية في سورية وطبيعة التحالف العثماني - الألماني من خلال تأكيد محاولات العثمانيين، بعون من ألمانيا، إحياء الإمبراطورية والحفاظ عليها، وتتحرى لهذه الغاية حشدًا من العوامل التي حالت دون التقويم التاريخي الدقيق لهذا الموضوع في خلال مئة سنة من كتابة التاريخ؛ إذ على المستوى الأعم، ثمة تجاهل نسبي للإمبراطورية العثمانية باعتبارها عنصرًا فاعلًا في الحرب العالمية الأولى التي عُرفت باسم «الحرب الأوروبية». وأهمل البحث التاريخي الذي شهدته عقود القرن اللاحقة الشرق الأوسط باعتباره جزءًا من هذه الظاهرة «الأوروبية»، وعومل كمسرح جانبي، على الرغم من أنَّ الجيش العثماني قاتل على جبهات تفوق الجبهات التي قاتل عليها أي من المتحاربين وعانى أشد عواقب الحرب وأقساها. وعلاوةً على التجاهل الأوروبي المتسم بالتمركز على الذات، عوّقت المؤرخين ندرةُ المصادر التي توفَّر لدراسة القوى المتحاربة الأخرى.

في الدراسة السابعة عشرة «تركة العثمانيين بعد هزيمتهم في عام 1918» يرى مايكل بروفنس أن الإمبراطورية العثمانية كانت في العقود التي سبقت الحرب العظمى 1914-1918 دولةً إمبراطوريةً قيد التحديث، شأنها شأن الإمبراطورية الروسية وإمبراطورية آل هابسبورغ والإمبراطورية الألمانية. واختبر الناس في كلّ مكان ظهور الدولة الحديثة وادّعاءها الحقّ في مواردهم وأجسادهم ووعيهم. كذلك كانت الحكاية في النهاية واحدةً عند الأطراف المتحاربة المنخرطة في الحرب العظمى: التعبئة العامة والمواطنة والتعليم وتشرّب الدولة وسردياتها الجمعية، مما وَسَمَ القرن التاسع عشر الطويل. وبعد عام 1918 عمدت بريطانيا وفرنسا إلى تقسيم الدولة العثمانية إلى ما يزيد على دستة من الدول الجديدة المستعمرَة وشبه المستعمرَة. وهذا الحدث، بين نزاعات إقليمية أخرى شهدها القرن الماضي، هو أصل الشرق الأوسط الحديث والصراع على فلسطين. لم يقبل مواطنو الإمبراطورية العثمانية المهزومة التقسيم والاستعمار. وجرى استقبال التسوية في الشرق الأوسط بعد الحرب بالثورات والثوار. لكنّ ما ضاع في تفصيلات التأريخ الاستعماري والتأريخ القومي مابعد الاستعماري لهذه الحركات هو إرث الحداثة العثمانية في القرن التاسع عشر التي ربطت هذه الحركات معًا ويسّرت ظهورها.

تتناول الدراسة الثامنة عشرة «التأثيرات في خيارات ضابط عربي - عثماني قبل الحرب الأولى وخلالها» لمالك شريف، مذكرات عبد الله دبوس (بيروت) غير المنشورة التي تحتفظ ابنته بنسخة المخطوط الوحيدة، وقامت بطبع قسم كبير منه على الآلة الكاتبة وعنونتها «مذكرات عبد الله دبوس 1900-1963 ست وستون ليرة ذهبية»، ويشير بعض الدلائل في المخطوط إلى أن المؤلف دوّن مذكراته بين عامي 1943 و1963. ومن خلال قراءة المخطوط ضمن إطاره التاريخي، يحاول الباحث فهم قرار عبد الله دبوس التطوع في صفوف الجيش العثماني كتلميذ ضابط، ويحاول أيضًا عرض العوامل التي أثّرت في دبوس ليخطو تلك الخطوة طوعًا من دون إكراه. كما حاول إظهار أن تربية دبوس المدرسية والكشفية أثّرت في نظرته إلى الدولة العثمانية، وإلى دورها وأهمية عاصمتها في العالم الإسلامي وتاريخه، الأمر الذي دفعه إلى اتخاذ قرارات وخيارات مخالفة لما عُهِد في كثير من سير أصحاب مذكرات الحرب العالمية الأولى.

رأى علي محافظة في الدراسة التاسعة عشرة «الآثار السياسية والاقتصادية

والاجتماعية والثقافية للحرب العالمية الأولى في فلسطين والأردن»، أن فلسطين احتلت مكانة خاصة عند السلاطين العثمانيين لوجود الأماكن المقدسة للديانات السماوية الثلاث فيها ولاهتمام الدول الأوروبية الكبرى بها، والتنافس الشديد في ما بينها على فرض حمايتها على الطوائف الدينية المختلفة المقيمة فيها. أما شرق الأردن فاقتصرت أهميته على طريق الحج الشامي التي تخترقه من شماله إلى جنوبه، وتأمين حمايتها ذهابًا وإيابًا. ومع دخول القوات البريطانية إلى فلسطين أبدى المثقفون الفلسطينيون والسوريون المقيمون في مصر قلقهم وخشيتهم من أن يستغل الصهيونيون في فلسطين أوضاع الحرب القاسية لشراء مساحات واسعة من أراضيها وطرد سكانها منها بعد انتهاء الحرب. وكانت لجنة الشرق الأوسط التي قامت في وزارة الحربية في لندن لمعالجة شؤون فلسطين قد قررت في اجتماعها الذي عقد في 19/ 12/ 1917 إرسال بعثة صهيونية إلى فلسطين برئاسة حاييم وايزمان وممثل عن الحركة الصهيونية في فرنسا وممثل عن الحركة الصهيونية في إيطاليا والميجور أورمسبي - غور، من أجل تقديم مقترحات لأي خطوات يتطلبها التنفيذ العملي لوعد بلفور. في المقابل كان شرق الأردن، مع قيام الحرب العالمية الأولى، في حال من التخلف والجهل نتجت من الفوضى وعدم الاستقرار في الداخل والعزلة والإهمال.

تهدف الدراسة العشرون «الأوضاع العامة في القدس في الحرب العالمية الأولى وبعدها - يوميات خليل السكاكيني (1914-1920)» لمحمد ماجد الحزماوي إلى البحث في الأوضاع العامة في مدينة القدس منذ بداية الحرب العالمية الأولى حتى بداية عهد الإدارة المدنية (1920)، اعتمادًا على يوميات المربي والأديب المقدسي خليل السكاكيني (1878-1953) كمصدر رئيس لهذه الدراسة التي تبحث في النشاط الأدبي والعلمي والثقافي في مدينة القدس، إضافة إلى أهم الفاعليات السياسية التي تبلورت ردًا على سياسة الإدارة العسكرية البريطانية المتمثلة في الجمعيات الإسلامية المسيحية والنوادي والأحزاب السياسية التي شكلت أول مظهر للوعي الوطني والسياسي المنظم في فلسطين، وما قامت به هذه المؤسسات من دور في مقاومة المشروع الصهيوني والمخططات البريطانية الرامية إلى وضع وعد بلفور موضع التنفيذ. وتبحث الدراسة أيضًا في عقد أول مؤتمر عربي فلسطيني في مدينة القدس وأهم القرارات التي اتخذها المؤتمرون، إضافة إلى وفود لجنة كنغ كرين الأميركية والموقف الفلسطيني منها.

وتتناول أيضًا أول ردة فعل من أبناء فلسطين على السياسة البريطانية المتمثلة بالثورة المعروفة باسم ثورة القدس أو ثورة العشرين.

تسعى الدراسة **الواحدة والعشرون** «فلسطين في الحرب العالمية الأولى: قراءة نقدية ليوميات الفلسطينيين ومذكراتهم عن الحرب وحوادثها» لعوني فارس إلى تقديم قراءة نقدية لحالة فلسطين إبان الحرب العالمية الأولى كما عرضتها يوميات الفلسطينيين ومذكراتهم، وتركز على تحليل التوصيف «الفلسطيني» لواقع سكان فلسطين بين عامي 1914 و1918، وترصد مجموعة العوامل التي ساهمت في تشكيله، وتبيّن مفرداته الرئيسة وتناقش جملة الحقائق التي تبنّاها، فما الذي حوته هذه المذكرات واليوميات عن الحرب؟ وهل هناك نصوص متعددة قدمت قراءة واحدة حتى كأنها نص واحد وإن اختلف المؤلفون؟ أم هناك أكثر من قراءة على الرغم من تشابه النصوص؟ وهل حكمت النصوص مواقف قَبْلية ثابتة من مجريات الحرب وفاعليها الرئيسيين؟ وما مدى تأثير الجغرافيا في النصوص؟ وكيف أثّرت ثقافة الكاتب ووضعه الاقتصادي ومكانته الاجتماعية وموقفه السياسي في النص؟ وهل انعكست نتائج الحرب على النصوص؟ هل يمكن الحديث عن نصوص «فلسطينية» بالمفهوم الهوياتي أم عن نصوص «عثمانية»؟

أما إشكالية الدراسة **الثانية والعشرون** «أهالي شرق الأردن والحرب الكبرى» لمهند مبيضين، فتكمن في محاولة الكشف عن طبيعة موقف أهالي شرق الأردن من الحرب العالمية الأولى ودخول الدولة العثمانية فيها إلى جانب دول الوسط وانسجام موقفهم مع الموقف العام في بلاد الشام وفي طبيعة الاستجابة والمشاركة. وتبحث الدراسة في أثر أحوال ماقبل الحرب في موقف الناس، وفي نظرتهم إلى علاقتهم مع الدولة العثمانية أو مع «الوطن المقدس» الذي يجب الدفاع عنه في حروبه مع أعدائه، كما جاء في برقيات تلك الحقبة التي سبقت إعلان الحرب وأدبياتها. وتحاول الدراسة أيضًا الكشف عن موقف السكان والزعماء المحليين (مشايخ القبائل) والنخب والأفندية والعسكر من الثورة العربية ومن مسألة الانضمام إليها. فهل كان تأييدهم عامًا أم تأخر حتى تيقنوا من زوال الدولة العثمانية وانقضاء حكمها؟ وهل قامت مقاومة بوجه الثورة العربية؟ وكيف تأثرت المنطقة بوصول الملك فيصل إلى دمشق وإعلانه الحكومة العربية؟ وما طبيعة موقفهم من مؤتمر الصلح (1919)، وكيف كان الموقف العام بعد معركة ميسلون؟ وما المؤثرات التي أدت إلى صوغه وتشكّله؟

تغطي الدراسة **الثالثة والعشرون** «موقف أهل سنجق بيت المقدس من نهاية الدولة العثمانية وبداية الاحتلال البريطاني كما تعكسه الوثائق السرية البريطانية 1917-1918» لمحسن محمد صالح السنة الأخيرة من الحرب العالمية الأولى، أو الفترة بين احتلال سنجق بيت المقدس وبدء الحملة الثانية الكبرى للقوات البريطانية لاحتلال باقي شمال فلسطين وسورية والأردن ولبنان (بين منتصف أيلول/ سبتمبر 1918 وآخر تشرين الأول/ أكتوبر 1918). فكيف كانت مشاعر الناس وهم يرون نهاية الدولة العثمانية، وكيف استقبلوا الاحتلال البريطاني؟ وأهمية هذه الوثائق في هذا المجال أنها تلفت إلى أن هذه المناطق كانت في تلك الفترة تحت الحكم العسكري البريطاني، ويتولى إدارتها حكام عسكريون، وأن هذه الوثائق كانت تُكتب على شكل تقارير يومية، يكتبها ضباط الاستخبارات، ما سمح لها بأن تنقل الحوادث وتوفر تفصيلات تفتقر إليها مصادر أخرى، لكن يجب التنبه إلى أن هذه التقارير لا تعكس دائمًا وبدقة مشاعر الناس ومواقفهم، بل الرؤية البريطانية للأمور، أو الصورة التي أرادت الاستخبارات أن تظهرها، أو الشعور الذي ذكره الناس للبريطانيين أو عملائهم، وهو شعور يحتمل المجاملة أو المبالغة، خصوصًا في أحوال الحرب وعدم الاستقرار.

ناقشت الدراسة **الرابعة والعشرون** «الحملة البريطانية على العراق (1914-1918): الدوافع والتداعيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية» لعبد الوهاب القصّاب وضع العراق ومحاولات احتلاله من البريطانيين في أثناء الحرب العالمية الأولى، وكيف حُكم عسكريًا بشكل مباشر، حيث كان يتولى فيه القائد العام مهمات الحاكم العسكري العام يعاونه مكتب مدني يضم خبراء في الشأن العراقي تولّى متابعة الأمور المدنية والعلاقة بين القيادة العسكرية والمواطنين، وكان مكتب السكرتير الشرقي من المكاتب التي يعوّل عليها كثيرًا في إدارة علاقة السكان بالسلطة المحتلة. وبرزت مجموعة من الضباط والخبراء البريطانيين ساهمت كثيرًا في بناء كيان العراق الحديث. وبعد فرض الانتداب بقرار من عصبة الأمم، انتقل هؤلاء الضباط من الحكم المباشر إلى الاستشاري، وتضاءل عددهم شيئًا فشيئًا حتى حل محلهم عراقيون أُعدّوا بعد قيام كيان الدولة الحديث. لكن العراقيون لم يستكينوا، وكانت ثورة العشرين (30 حزيران/ يونيو 1920) ضد هذا الاحتلال ظاهرة فريدة في تاريخ نضالهم.

الفصل الأول

الاقتصاد المغربي خلال الحرب العالمية الأولى
دراسة في الأرشيف الفرنسي

عبد اللطيف الحفّار

شهد العالم في بداية القرن العشرين حربًا عالمية كبرى تراوحت نتائجها بين ما هو سياسي واجتماعي واقتصادي. وإذا كان التاريخ السياسي للحرب العالمية الأولى استأثر باهتمام الباحثين، لم تحظ دراسة التاريخ الاقتصادي، سواءً تعلق الأمر بمرحلة الحرب أم ما بعدها، بعناية كبيرة. وبناءً على ذلك، ومع مرور زمن طويل ابتعدنا فيه عن سخونة المرحلة المدروسة (1914-1918)، تتطلب الضرورة المرحلية التأسيس لإعادة قراءة التاريخ المعاصر، انطلاقًا من مرجعية تُحاول أن تجعل من الموضوعية والقراءة النقدية التأويلية مدخلًا لها للعبور نحو فهم أعمق وأفضل، يُمَكّن من ضبط التصور التاريخي القائم على استخلاص الاستنتاجات العامة والمضبوطة، الكفيلة بتوضيح صورة الفترة المدروسة في هذه الدراسة، خدمةً لهدف أساس هو إبراز البنية الاقتصادية في مغرب الحماية (خصوصًا مرحلة الحرب العالمية الأولى)، وكيف نسجت علائق ترابط وانفصال مع بنيات كانت موجودة قبلًا، فأصبحت بذلك ظاهرة اقتصادية متجذّرة في التربة المغربية، لها امتدادات في الشبكة الاقتصادية العالمية الرأسمالية عبر الهيمنة الاقتصادية الفرنسية، وما أحدثته من برامج واختيارات وسياسيات كان لها الأثر الكبير في المجتمع المغربي، وأدمجت المغرب في سوق عالمية بمقاييس رأسمالية تبعية.

يحيلنا هذا الأمر إلى أهمية الموضوع المدروس في البحث التاريخي، لأنه يمكّننا من قراءة الفعل الكولونيالي في صورته الاقتصادية وتتبع أهدافه الإمبريالية، خصوصًا أن الظاهرة الاستعمارية برمّتها جاءت استجابة للحاجات الظرفية الملحة التي وجدت في الاحتلال حلًا متعدد الوظائف لمشكلاتها الاقتصادية والاجتماعية ولطموحاتها السياسية (اعتبار الاستعمار معيارًا لقوة الدول وتنافسيتها).

هذا ما عكسه الأرشيف الفرنسي الذي لفت إلى الأهمية الاقتصادية المغربية وجدواها في المشروع الاستعماري الفرنسي في الشمال الأفريقي، خصوصًا بعد

الانتصار المعنوي للفرنسيين في الحرب، عبر توسيع دائرة النفوذ الاستعماري في المناطق العربية. وبالتالي، تكشف لنا الفترة المدروسة تناظرًا تاريخيًا بين استعمار فرنسي مرتبط بالنظام الرأسمالي ومستجيب لضرورات نموّه، ومغرب مستند إلى إرث تاريخي مثخن بمظاهر الانكسار ومواطن التوقف والضغط.

أولًا: تقويم عام للمادة الأرشيفية

لا يكتسب أي عمل أهميته إلا عندما نضعه في الإطار العام. وبذلك، تكتسي معرفة الأوضاع المحيطة بهذا العمل أهمية بالغة، خصوصًا في كل ما هو تاريخي، وذلك بسبب ما يصاحب تأليفها من ملابسات. تبرز أهمية هذه التقارير بالدرجة الأولى بحسب مصدرها، بمعنى أن هذه الأرشيفات التي تركتها سلطات الحماية تختزل تصورات واستراتيجية الفعل الكولونيالي في المغرب، الذي جرى تصريفه من خلال عدد من القنوات والمؤسسات والمصالح الجهوية والمركزية كتجلٍّ واضح من تجليات مأسسة مشروع الحماية، بما في ذلك برنامجها الاقتصادي.

في البداية، لا بد من الإشارة إلى أن التقارير المعتمدة تعتبر إصدارات للإدارات والمرافق العامة المختلفة في مؤسسة الحماية و«المتروبول»، التي تعمل في شكل تناسقي وتكاملي، تصبّ كلها في خدمة الحماية؛ حيث عملت فرنسا، منذ توقيع الحماية، على إدخال إصلاحات منوعة تشمل مجال إحداث المرافق العامة وتنظيمها[1] للقيام بمهمات ووظائف جديدة، خصوصًا الاقتصادية منها. وتبعًا لذلك، فإن الترسيخ والتجسيد للظاهرة الاستعمارية بتجلياتها كلها هو البعد الذي يحكم عمل هذه المصالح.

فرضت عذرية الاقتصاد المغربي وبنيته العتيقة على فرنسا أن تسعى وراء بلورة مشروع اقتصادي تستطيع من خلال جعل الاقتصاد المغربي مكملًا للاقتصاد الفرنسي، ومنفذًا لتصريف فائض إنتاجها وحلًا لمشكلاتها الاقتصادية، كما هو الحال بالنسبة إلى الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية في مرحلة لاحقة. وتبعًا لذلك، يرتكز التوجه العام لهذه المادة المرجعية على

(1) Daniel Rivet, *Lyautey et l'institution du protectorat français au Maroc: 1912-1925*, Histoire et perspectives méditerranéennes, 3 tomes (Paris: Éd. l'Harmattan, 1988), tome 3, p. 103.

الجوانب المشرقة، ويبرز إيجابيات اقتصاد الحماية بإرجاع الفضل إلى فرنسا التي استطاعت أن تنقل المغرب من نظام عتيق إلى دولة عصرية.

يتأمل الباحث في هذا التوجه فيجد نفسه أمام صعوبة التعامل مع المادة المرجعية. أصبح مفروضًا علينا عدم السقوط في هذا الاتجاه، من خلال إصدار الأحكام المسبقة أو التأويلات المتعسفة؛ أي إننا لن ننطلق من محاكمة مرحلة الحماية بمنطق الرفض ولا الانتصار لآراء الكولونياليين وتمجيد الدور الفرنسي وما أحدثه في مرحلة الحماية، وبالتالي تجاوز النظرة الرافضة للتعامل مع الفترة الاستعمارية التي تقر وتقتنع بأن فترة الحماية يجب أن تتأبد، حيث لم يكن ممكنًا الإقرار بأي شيء إيجابي فيها. وهو اختيار ربما يمكّن من الحفاظ على الموضوعية بنسب عالية في مقاربة أي موضوع يهم فترة الحماية بصفة عامة، كما هو أمر ساعد في تصنيف المادة العلمية المعتمدة وتحديد شروط التعامل معها بحذر وبرؤية نقدية، استحضارًا للوقائع والقضايا في سياقها الزمني، ومحاولة تمثلها وفق محدداتها الأصلية، بعيدًا عن أي إسقاطات.

لا تقدم هذه الوثائق الحقائق كما وقعت، وإنما كما أريدَ لها أن تُعرف بسياسات الآخر، ما يستدعي نقدها نقدًا علميًا رصينًا. فلا يُعتد بالوثيقة ولا تُقَدَّس إلا بعد أن تُفحص علميًا لتتأكد هويتها وأصالتها وصدقيتُها. وينبغي الحذر الدائم إزاء الوثيقة مهما كثرت الفحوص ونتائجها، كما ينبغي الميل إلى الشك فيها حتى يتم التأكد من صحة ما جاء فيها[2].

عكست وثائق الأرشيف الفرنسي الخاصة بالحرب العالمية الأولى حجم الجرم وأشكال النهب ومظاهر السرقة التي تعرض لها المغرب، كغيره من باقي المستعمرات. فبقدر ما كان الصراع العسكري والسياسي على أشده في الجبهات الأوروبية والآسيوية والشمال أفريقية، كان حجم الاستغلال البشري والمادي في المغرب في أبشع صوره، موثقًا بتقارير رقمية شملت معلومات متصلة بالتجارة والتعدين والنشاط الفلاحي ودخول الأسواق والمصادر المالية...؛ أي تلك الوثائق التي تمثل اليوم أرضية مصدرية قيّمة لبلورة تصور تحليلي، هو أقرب ما

(2) عبد الله العروي، مفهوم التاريخ، 2 ج (بيروت: المركز الثقافي العربي، 1992)، ج 1: الألفاظ والمذاهب، ص 115–117.

يكون إلى تحليل اقتصادي لمادة تاريخية. ربما تكون وثائق بريئة إذا سلّمنا بالغاية من إنجازها، لكنها - في المقابل - من الضخامة والتنوّع ما يجعلها أرضية متينة لإعادة استنطاقها وتوظيفها وفق منهجية تحليلية نقدية.

بالنظر إلى محتوى هذه الأرشيفات التي تهم الجانب الاقتصادي، نجدها صبّت اهتمامها بقطاع الفلاحة، فكان أكثر القطاعات دراسة واهتمامًا من الفرنسيين خلال مرحلة الحرب، ففرنسا كانت تعتبر المغرب بلدًا فلاحيًا بامتياز، في حين لم تحضَ الصناعة بالاهتمام نفسه، ما يعكس غياب طموح صناعي واضح لفرنسا في المغرب، نظرًا إلى غياب بنى تحتية تسمح ببناء قاعدة للصناعة الاستعمارية(3). على المستوى التجاري، ساهم اقتصاد مغرب الحماية، المرتبط باقتصاد السوق، في إصدار تقارير إحصائية عدة ترصد تطور الصادرات والواردات، وتواكب دخول المغرب في دائرة الاقتصاد الرأسمالي.

بناءً على ذلك، كيف كان وضع الاقتصاد المغربي خلال الحرب العالمية الأولى، على المستوى الفلاحي أم الصناعي أم التجاري؟ كيف استطاعت فرنسا جعل الاقتصاد المغربي مكملًا للاقتصاد الفرنسي ومستجيبًا لحاجاته؟ لفهم ذلك، سنقف عند مسارات التحول في القطاعات الاقتصادية الثلاثة: الفلاحة والصناعة والتجارة.

ثانيًا: مؤسسة الحماية والتوجهات الكبرى للسياسة الفلاحية في المغرب

لن يكتمل فهم متتبع مسار تطور القطاع الفلاحي في المغرب خلال الحرب العالمية الأولى لتجليات هذا التطور وأهدافه إلا إذا نظر إلى التحولات التي بدأ يعرفها القطاع الفلاحي في سياق أشمل، يخص تطور الاقتصاد المغربي بكامله. ففرضُ الحماية على المغرب جعل فرنسا تحاول تطويع مقرراتها وتأويلها وفق

(3) أجمع معظم تقارير الدارسين الاقتصاديين الفرنسيين على الغياب الشبه التام للبنى التحتية، وهذا ما اعتمدت عليه السلطات الفرنسية في بناء تصور عام لمشروعها الاقتصادي في المغرب، ودفعها إلى أن تسابق الزمن لرفع قدرة المغرب الإنتاجية، خلاصًا من النقص الذي تعانيه فرنسا في معظم المواد، خصوصًا مع حالة الحرب التي جعلت الاقتصاد المغربي من أولويات الفرنسيين.

رغباتها السياسية والاقتصادية. وكثيرًا ما نبّهت الدراسات الكولونيالية التي استهدفت مغرب ما قبل عام 1912 إلى غناه وإلى ما يتمتع به من إمكانات زراعية مهمة يمكنها أن تلبي حاجات الاقتصاد الفرنسي الأم[4]، الذي يتطلّع إلى المواد الأولية المغربية وإلى المنتوجات الزراعية والفلاحية. على هذا الأساس، تعمل الإقامة العامة على توجيه اهتمامها للمجال الفلاحي، لكن من دون أن يأتي هذا التدخل سافرًا كيما يُحدث ردات فعل غير منتظرة من المغاربة، خصوصًا أن سكان البوادي كانوا يشكلون 90 في المئة منهم.

1- الاستيطان الزراعي

كان يرى منظّرو الاستعمار والاقتصاديون والعسكريون أن الوجود الاستعماري يبقى مهزوزًا ما لم يقم على دعائم يمثّلها المعمرون الأوروبيون (الزراعيون) الذين سيشكلون ضمانة لرسوخ السلطة الاستعمارية تكون أقوى من الضمانة العسكرية.

بعد توقيع معاهدة الحماية، كان على المقيم الفرنسي العام لوي هوبير ليوتي أن يجد صيغة تمكّنه من فتح أبواب المغرب للاستيطان البشري، خصوصًا في القطاع الزراعي. فالفلاحة المغربية كانت مجالًا خصبًا لجذب الفرنسيين إلى تعمير المغرب. انطلاقًا من ذلك، وبعد استحداث ترسانة قانونية مهمة، تمكن المعمّرون[5] من الحصول على مساحة كبيرة من الأراضي الخصبة بعد أن طُرد المغاربة منها؛ حيث أصبحت جميع الأراضي الصالحة للزراعة في مناطق «الأمن»

(4) Charles René-Leclerc, *Le Maroc: Notice économique, Petit guide de l'immigrant* (Paris: P. Geuthner, 1911).

(5) يمكن تحديد هذه العناصر المعمرة في ما يأتي:

- معطوبو الحرب العالمية الأولى الذين حصلوا على أراضٍ زراعية بدعم من سلطات الحماية كتعويض مادي ومعنوي عن مشاركتهم في جبهات القتال.
- عناصر فرّوا من واقع الدمار والخراب الذي خلّفته الحرب، يبحثون عن فرص عيش خارج حدود مواطنهم الأصلية.
- مستثمرون زراعيون وأصحاب رؤوس الأموال، خصوصًا العناصر الفرنسية التي فاقت في الأغلب 60 في المئة من المعمرين الأوروبيين. انظر: أحمد تفاسكا، تطور الحركة العمالية في المغرب (1919-1939) (بيروت: دار ابن خلدون، 1980)، ص 13.

مليئة بالمعمّرين الزراعيين الأوروبيين الذين شرعوا يطالبون السلطات الفرنسية بالإسراع في إخضاع المغرب عسكريًا، فذلك يمنحهم استغلالًا مريحًا للأراضي، ويفتح لهم آفاقًا جديدة للاستيطان الرسمي والخاص[6].

سارعت إدارة الحماية إلى تعزيز الحضور الأوروبي في المغرب، فقامت في البداية بتشجيع هجرة أصحاب الرساميل الباحثين عن فرص الربح السريع، موضحة أن المغرب يفتح آفاقًا مهمة أمام المبادرات المستندة إلى رأس المال[7]. وبما أن تحريك عجلة الاستيطان تقتضي توفير الشروط والأوضاع الملائمة، أقرت سلطات الحماية مبدأ تحسين مناخ الاستثمار ضمن أولويات سياستها الاقتصادية[8]. فعملت بذلك على توفير الأوضاع الملائمة لاستقطاب العناصر الأوروبية، مانحة إياهم جميع الامتيازات والحوافز والضمانات العسكرية الممكنة. تعهدت إدارة الحماية بضمان:

- تجديد الإطار التشريعي والقانوني المغربي، خصوصًا العقاري، وتبسيط الإجراءات الإدارية التي تسهل عملية تمليك سريع للأراضي داخل المغرب[9].

- إيجاد بنيات تحتية وتجهيزات أساسية تنسجم مع تطلعات إدارة الحماية عبر إحداث شبكة من المواصلات والاتصالات[10]، خصوصًا تلك المتعلقة بالجانب الفلاحي.

- إرساء ركائز أساس على رأسها الدعم المالي والتقاني للمعمرين وضمان حماية عسكرية لازمة لهم[11].

---

(6) Direction de l'agriculture, du commerce et de la colonisation, «Situation agricole du 1er avril 1919,» 1919, Archives nationales de Rabat, carton C1985, pp. 2-3.

(7) Pierre Brien, «La Colonisation agricole européenne et l'évolution de la plaine de souss,» Archives nationales de Rabat, carton F279, p. 3.

(8) G. Boissière, *L'Essor économique du Maroc, les résultats acquis, les perspectives d'avenir: Conférence faite à la foire de Rabat le 27 septembre 1917* (Casablanca: Imprimerie rapide, 1917), p. 4.

(9) Mohamed Salahdine, *Maroc: Tribus, makhzen et colons: Essai d'histoire économique et sociale*, Bibliothèque du développement (Paris: L'Harmattan, 1986).

(10) *L'Œuvre de la France au Maroc de 1912 à 1947*, Service de commerce et d'agriculture (Rabat: Impr. de Perceval, 1948), Archives nationales de rabat, carton F 216, p. 86.

(11) المصدر نفسه، ص 4.

انطلاقًا من ذلك، كان لزامًا على الحماية اعتماد سياسة الترويج للاستثمار عبر إنشاء أجهزة[12] ومصالح إدارية، تعمل على تنشيط الاستيطان وتقديم خدمات الدعم الممكنة. وهذا دليل على رغبة إدارة الحماية في تسويق صورة المغرب على المستوى الأوروبي، والكشف عن مؤهلاته الاقتصادية الكفيلة بإحداث رغبة جامحة عند الأوروبي واستفزازه لولوج عالم الاقتصاد الفلاحي المغربي[13].

اعتمادًا على خريطة التعمير والدلائل الإحصائية المختلفة، يُلاحظ حتى حدود عام 1918 أن منطقة الغرب استأثرت باهتمام المعمرين، فاحتلت المرتبة الأولى بنسبة 30 في المئة، وتليها منطقة سايس من حيث الأهمية بنسبة 25 في المئة، ثم منطقة الرباط في المرتبة الثالثة بنسبة 16 في المئة، في حين تبقى نسبة 29 في المئة حصة باقي المناطق[14].

الجدول (1-1)

أنواع الاستغلاليات الزراعية الأوروبية في المغرب (1916-1919)[15]

	استغلاليات صغيرة		استغلاليات متوسطة		استغلاليات كبيرة		مجموع الاستغلاليات	
عام	مجموع المساحة	عددها	مجموع المساحة	عددها	مجموع المساحة	عددها	مجموع المساحة	عددها
1918-1916	202	37	1790	7	5615	4	7607	48
1919	1664	127	8364	35	2090	3	12118	165

(12) كان لزامًا وضع خريطة للجغرافيا الزراعية في المغرب تكون دليلًا، حيث أُحدثت مصلحة للتخطيط الجغرافي (société géographique) بالبيضاء في عام 1916، وكانت تعمل بتنسيق مع الأجهزة العسكرية، فهي التي تسهر على تحديد التوجه الفلاحي لكل منطقة جرى احتلالها. انظر: Henry Fazy, *Agriculture marocaine et protectorat*, Lettre-préface de L. Massignon (Guéret: Impr. de Lecante, 1947), Archives nationales de Rabat, p. 91.

(13) «أول مشاركة للمغرب في معرض كانْ في فرنسا، وهي تدخل ضمن رغبة إدارة الحماية في تشجيع الاستيطان في المغرب والكشف عن مؤهلاته الاقتصادية، خصوصًا الزراعية، حيث عُرض الكثير من المنتوجات الفلاحية (القمح والجلود والصوف...)»، انظر: الجريدة الرسمية (المغرب) (4 تموز/ يوليو 1913).

(14) René Hoffherr, *Quelques aspects de l'économie marocaine: Peuplement, ressources naturelles et crédit* (Rabat: Imprimerie du roi, 1931), p. 86.

(15) André Colliez, Notre *Protectorat marocain: La Première étape 1912-1930* (Paris: Librairie des sciences politiques et sociales, libr. Marcel Rivière, 1930), p. 413.

تبرز هذه الإحصاءات بجلاء حجم الاستغلاليات الممنوحة التي تسمح للمعمرين الزراعيين الأوروبيين ببناء فلاحة موجهة نحو التصدير. إذ اتجه المعمرون الزراعيون منذ البداية إلى التخصيص في إنتاج قابل للتصدير يضمن ربحًا سريعًا (الحبوب، خصوصًا القمح اللين) نظرًا إلى سابق معرفتهم بالحاجات الكبرى للأسواق الأوروبية لهذه المادة خلال الحرب[16]. وبصفة عامة، قام الاقتصاد الدخيل على ابتزاز الأرض والإنسان المغربي، ونما بفضل القروض والاعتمادات المالية الدائمة وأشكال الحماية المختلفة، التي تخصصها لها إدارة الحماية والمتروبول.

2- أشكال دعم الفلاحة الكولونيالية

لم يكن لسياسة الاستيطان الزراعي في المغرب أن تنجح ما لم تعتمد على ركائز أساس وضعت ملامحها إدارة الحماية، أهمها الدعم المالي الذي وفّر إمكان انطلاق المشروع الاقتصادي الفرنسي داخل المغرب بشكل يستجيب للحاجات الكبرى خلال الحرب.

بحسب التقارير الأرشيفية، ترتكز فلسفة الدعم الفلاحي عند إدارة الحماية الفرنسية في الأساس على تمويل المشروعات الفلاحية ذات الإمكانات الإنتاجية الكبيرة، أي على الملاكين الكبار (المعمّرين)، ورفضت تخصيص عروض مقنعة لصغار الفلاحين والمتوسطين الذين يعملون في فلاحة معيشية، وعلى مساحات فلّاحية ضيقة، ولا يمتلكون القدرة على سداد القروض[17]. وأمام مشروعها الفلاحي في المغرب، ووفاءً بتعهداتها وضماناتها المقدمة إلى المعمرين، وجدت إدارة الحماية نفسها مجبرة على دعم الفلاحة الكولونيالية بمشروعات اقتصادية مختلفة، في مقدمها البنية التحتية في قطاع السقي (الري)[18] كالسدود والآبار

---

(16) Direction Générale de l'aviation civile [D. G. A. C.], «Statistiques du blé,» 1918-1935, Archives nationales de Rabat, Carton C651.

(17) Centre des jeunes patrons du Maroc, «Session d'études sur l'économie marocaine,» Rabat, 1956, p. 75.

(18) ناقشت الترسانة القانونية الفرنسية المستحدثة، في المغرب من طرف إدارة الحماية، مسألة البنى التحتية الفلاحية، والمتمثلة أساسًا في قطاع الري، وأهم هذه القوانين تلك التي أعلن عنها الظهير الشريف ليوليوز (تموز/ يوليو) 1914، وحُددت من خلاله أملاك الدولة العمومية كلها وأقر بأن جميع مياه سطح الأرض في ملك الدولة العمومي. انظر: الجريدة الرسمية (المغرب) (10 تموز/ يوليو 1914)، ص 276.

والمدارات السقوية[19]، من دون إغفال المساعدات والإعانات المتمثلة في العتاد الفلاحي (المكننة) والتخفيضات الضريبية[20]، مسخرةً طاقاتها كلها من مهندسين وتقانيين وإداريين لوضع برامج مائية، أهمها تلك المتعلقة بتهيئة الأراضي الزراعية وإعداد المدارات السقوية وبناء السدود ومد القنوات والخطارات[21].

لم تغفل مؤسسة الحماية الجانب المتعلق بالقروض؛ إذ وضعت إدارة الحماية مخططًا للسلاسل الإنتاجية عبر برنامج تمويلي لكل سلسلة على حدة، تعنى في الأساس بعصرنة الإنتاج وتعزيز القدرة الإنتاجية وإنشاء وحدات إنتاجية جيدة وتوفير متطلبات دورة استغلال الأراضي الزراعية في ما يخص تمويل الموسم الفلاحي في كل مرحلة عبر منتج متكامل يتماشى ومراحل الإنتاج المختلفة[22]. وانسجامًا مع هذه السياسة، كان من الضروري أن تظهر مؤسسات مالية وبنكية عدة، كفيلة بمنح المعمرين قروضًا تفضيلية[23]، على الرغم من أن هذه المؤسسات لم تعر القطاع الفلاحي اهتمامًا كبيرًا مقارنة بالقطاعين الصناعي والمنجمي.

الجدول (1-2)

قيمة القروض العينية والمادية في موسمي 1917-1918[24]

الموسم الفلاحي	القروض العينية (الفرنك)	القروض العينية (الفرنك)	المجموع
1917-1916	46296.10	----------	46296.10
1918-1917	789855.76	297040	1086895.76

(19) Nacivet, «L'Eau au Maroc,» *France-Maroc*, no. 1 (Janvier 1918), p. 28.

(20) «Le Maroc économique et financier,» *France-Maroc*, no. 62 (Janvier 1932), p. 29.

(21) الخطارة قناة سردابية تحت الأرض، يراوح علوها مترين إلى ثلاثة أمتار، وهو أسلوب ري تقليدي في المغرب.

(22) حظيت الفلاحة الكولونيالية عمومًا بأشكال الدعم المالي المختلفة التي منحت في صيغ متعددة يراعا فيها الظرفية الزمنية ومصلحة المعمرين. كما عمدت إلى تقديم مكافآت عدة اتخذت أشكالًا وصيغًا متعددة، بدءًا بدعم الآلات الفلاحية، مرورًا بإصلاح الأراضي، وصولًا إلى تقديم مكافآت.
Service de commerce et d'industrie au Maroc, «Situation économique du Maroc,» Archives nationales de Rabat, 1917, p. 6.

(23) André Colliez, *Notre Protectorat marocain: La Première étape 1912-1930*, Préface de MM. Jérôme et Jean Tharaud (Paris: Librairie des sciences politiques et sociales, libr. Marcel Rivière, 1930), p. 334.

(24) Colliez, p. 347.

نلاحظ أن هذه القروض ركزت على منح أموال جزيلة كقروض بعيدة المدى. فبالنظر إلى تفاوت المحاصيل الزراعية بين موسم جيد وضعيف ومتوسط، اعتمد البرنامج التمويلي على المرونة في سداد القروض الممنوحة للاستثمار الفلاحي مع إمكان تأجيل السداد(25).

وقفت أوضاع الحرب العالمية الأولى وراء تعزيز مكانة الـ«كولونات» الزراعية في المغرب، إلى درجة أن يشنوا عصيانًا مقصودًا لرفض سداد ديونهم بإلقائها على كاهل الدولة. على الرغم من ذلك، واصلت سلطات الحماية منحهم القروض والأموال، ولم تكتف بذلك فحسب، بل ساهمت أيضًا في تعويضهم عن خسائرهم(26).

ساهم استيعاب فرنسا هذه الشروط والعمل وفقها في إرساء ثقافة فلاحية مهمة عند المعمر الأوروبي، تعتمد على المردودية الكبيرة التي تتيح تسويق المنتج. إذ تميزت الزراعة الأوروبية في المغرب بمردوديتها الكبيرة في الهكتار الواحد. ويمكن الكشف عن مدى اهتمام المزارع الأوروبي بتنويع إنتاجه والاهتمام بالمزروعات ذات القيمة التسويقية من خلال بنية الإنتاج الزراعي المغربي؛ حيث تؤكد لنا الإحصاءات(27) أن الأوروبيين يركزون اهتمامهم على الزراعة التي تخدم الصناعة الفرنسية، إضافة إلى الخضروات والحبوب(28) التي تستورد منها فرنسا حصصًا مهمة، فتُجمع التقارير على أن فرنسا كانت وراء رفع إنتاجية القمح المغربي(29) منذ الأعوام الأولى للحماية، عبر بعثات ممثلة للحكومة الفرنسية،

---

(25) Hoffherr, *Quelques aspects de l'économie*, p. 27.

(26) Service de commerce et d'industrie au Maroc, «Situation économique du Maroc, Décembre 1918,» Archives nationale de Rabat, 1919, p. 9.

(27) Service de commerce et d'industrie au Maroc, «L'Agriculture marocaine,» 1917, Archives nationales de Rabat, p. 14.

(28) على مستوى الحبوب، جاء اهتمام الأوروبيين بالقمح الصلب الذي شمل أكثر من نصف المساحات المزروعة من الحبوب. وإذا ما أضيف إليه المساحات الموجهة لإنتاج القمح الرطب، تصبح النسبة أكثر من ثلثي المساحة المزروعة حبوبًا. انظر: Service de commerce et d'industrie au Maroc, «L'Agriculture marocaine,» p. 15.

(29) Direction de l'agriculture, du commerce et de la colonisation, «Politique agricole du gouvernement marocain,» Rabat, 1933, Archives nationales de Rabat, carton G764, p. 4.

تحث على إنتاج القمح والشعير وضمان تسويق المنتوج إلى المتروبول، ما أدى إلى مردودية كبيرة.

دفعت الطبيعة التصديرية للزراعة الأوروبية في المغرب، وارتباطها العضوي بمصلحة الاقتصاد الرأسمالي الفرنسي، المعمرين الزراعيين إلى أن يكونوا بمنزلة الطفل المدلل عند الحكومة الفرنسية وإدارة الحماية، يتمتعون بقوة سياسية تقريرية من خلال مندوبيهم الرسميين في مجلسي الحكومة والنواب بفرنسا، وكذلك بوساطة أنصارهم في المواقع الحساسة في تنظيمات إدارة الحماية. إلا أن فرنسا استطاعت أن تتعامل مع هذه الوضعية عبر برامج توفيقية وتوليفية: محاولة إرضاء الأطراف جميعهم عبر إسكات الكولونات الزراعية، واحترام الخصوصية الفلاحية المغربية وإرضاء المتروبول ومطالبه، ما جعل القطاع الفلاحي قطاعًا هجينًا، يجمع جانبًا يساير التطور العالمي ويرتبط بالاقتصاد الدولي الرأسمالي، وجانبًا آخر يعيش بالأسلوب المعاشي التقليدي.

من هنا، يمكن الخروج بخلاصات أساس، تعتبر مؤشرات ملموسة إلى طبيعة التحول وعمقه الذي مس الفلاحة في المغرب انطلاقًا من الحرب العالمية الأولى، يمكن إجمالها في الآتي:

- تكسير البنية العقارية عبر صيغ قانونية نتج منها تفكيك للبنية الإنتاجية الفلاحية المغربية، رافقها تحول في الإنتاج والاستهلاك، وضرب العلاقة التبادلية التي كانت سائدة بين المدينة والبادية.

- إرساء نمط إنتاج قصري يقوم على الأساس التصديري في ارتباط تام بالسوق الرأسمالية، ما يكشف عن توجيه هذا القطاع لخدمة الرأسمال الفرنسي.

- احتكار الاستثمار في المجال الفلاحي لمصلحة الفرنسيين، على الرغم من الاتفاقات السابقة (الجزيرة الخضراء) التي تسمح للرأسمال غير الفرنسي بالتواجد في المغرب، ما جعل القطاع الفلاحي المغربي ملحقًا بالقطاع الفلاحي الفرنسي.

ثالثًا: مؤسسة الحماية وآليات تدبير القطاع الصناعي في مرحلة الحرب

كان نمو القطاع الصناعي في المغرب رهن حسن إرادة فرنسا[30]، خصوصًا أن ملامح الاقتصاد المغربي وخصائصه العامة بدأت تتضح منذ بداية القرن العشرين، وأخذت مسارًا جديدًا في اتجاه الاندماج داخل الاقتصاد الدولي، خصوصًا مع مجيء الحماية الفرنسية التي قضت فلسفتها ببناء اقتصاد جديد بمكوّناته الفلاحية والصناعية والتجارية العصرية، مشدود دائمًا نحو الأسواق الخارجية[31].

إن التأسيس لصناعة جديدة في المغرب في عهد الحماية لا يعني بالضرورة أن الصناعة كانت مغيبة. إذ عرف المغرب انتشارًا واسعًا لعدد من الصناعات، وأن بقيت أغلبيتها محصورة في الطابع التقليدي. كما لم تكن هذه الصناعات بالحجم الذي يمكن أن يُحدِث تغييرًا جذريًا في الهياكل الاقتصادية والاجتماعية. إضافة إلى ذلك، كان إشراف المخزن وتحكّمه بالاقتصاد دليلًا على هذا العجز الصناعي؛ حيث كان غيورًا على سلطته الاقتصادية والسياسية التي تسمح له بقطع الطريق أمام بروز أي قوة اجتماعية منافسة[32]. وما إن ارتفعت المؤامرات والدسائس التي أخذت أشكال ضغط سياسي وعسكري وتجاري حتى ضعفَ المخزن، وأصبح المغرب في وضعية «القابلية للاستعمار»، التي تمخّضت عنها الحماية الفرنسية.

لم تكن الصناعة المغربية خلال الحرب العالمية الأولى قادرة على تلبية طموح فرنسا وحاجاتها الكبرى، لأن المغرب بلد في طور النمو، وكانت بنيته

---

(30) إن استراتيجيا التصنيع على الخصوص، وتقدم البلدان المستعمرة سابقًا على العموم، مرسومة من الخارج، أي من الدول المتقدمة، التي ترى ضرورة الحفاظ على مسافة معينة من التقدم بينها بين الدول النامية.

(31) من الخطأ مقارنة الدول النامية والمستعمرة سابقًا بالحال التي كانت عليها الدول المتقدمة في مرحلة قيام الثورة الصناعية فيها، حيث لم تكن هناك احتكارات ولا قوات دولية تضغط على تقدم هذه الدول وتقف أمام تطورها. بل على العكس، كانت الظاهرة الاستعمارية أكبر مساعد في قيام هذه الثورة.

(32) إن مشروعات التحديث كلها التي أشرف عليها المخزن، مبادرات غير منتظمة ومحدودة في الزمان والمكان، ولم تكن تنصهر في إطار مجتمعي متكامل، يمكن أن يستبطن التطور والنمو التكنولوجي وأن تدمج فيه حركة صناعية، لأنها بقيت معزولة داخل بيئة اجتماعية رافضة لأي تجديد. انظر: محمد الخشاني، «المحاولات الصناعية الأولى في المغرب: المشاريع المخزنية خلال النصف الثاني من القرن 19 وأسباب فشلها،» مجلة القانون والاقتصاد (جامعة سيدي محمد بن عبد الله)، العدد 8 (1992)، ص 17.

الاقتصادية في فترة الحرب رهن التحديث والتجهيز، ما فرض نمو النشاط الصناعي بشكل تدرّجي ينسجم مع حجم تطور البنى التحتية.

شكلت هذه مرحلة محكًا حقيقيًا لمستقبل فرنسا في المغرب، وهي ظرفية وضعتها بين مطرقة الحرب العالمية وما تحتاجه من إمكانات مادية وبشرية كفيلة بالحد من زحف الألمان وحلفائهم، وسندان نجاح مشروعها الاستعماري في المغرب وما يطلبه من استراتيجيات وإمكانات مكلفة، بسبب ارتفاع وتيرة المقاومة الشعبية.

1 - الاستثمارات الصناعية في المغرب زمن الحرب

بعد عقد الحماية مباشرةً، ظهرت ملامح الصناعات الأوروبية مستغلة الإجراءات الإدارية المختلفة، والمؤسسات التي أُنشئت لإدارة الإقامة العامة، والتي مهّدت التربة المغربية لاستقبال الاستثمارات الأجنبية الصناعية.

الجدول (1-3)

جرد إحصائي للمؤسسات الصناعية الأوروبية في المغرب[33]

	1918	1919	1921	1922
عدد المؤسسات الصناعية	157	185	268	509

يعكس تطور عدد المؤسسات الصناعية حجم الاستثمارات الوافدة على المغرب وقيمتها. فبعد توقيع معاهدة الحماية، كان على الإقامة العامة أن تبحث عن طريقة كفيلة بإيجاد مناخ استثماري، ووضع الأرضية اللازمة لتحريك عجلة الاستثمارات الأوروبية منها والفرنسية[34]، تجلّت في إنشاء المكتب الشريفي[35] لتسويق صورة المغرب خارجيًا، إضافة إلى إحداث المجلس الاقتصادي المغربي،

---

(33) Evin Guy, *L'Industrie au Maroc et ses problèmes*, Avec une préface de M. Augustin Bernard, Collection des centres d'études juridiques; 7 (Paris: Libr. du Recueil Sirey, 1934), p. 181.

(34) François Malet, *L'Économie Marocaine avec Lyautey de 1912 à 1925* (Paris: Institut agronomique, 1936), p. 4.

(35) كما استهدفت مهمته فتح الأبواب أمام المعمرين والمستعمرين عبر تقديم كثير من الامتيازات الإدارية المهمة، إضافة إلى نشاط أخر، مثل إقامة معارض في المدن المغربية المختلفة. انظر: Guy, p. 181.

المؤلف من أهم رجال الأعمال والتجار الكبار أصحاب التجارب الاستعمارية في المغرب، لبعث الثقة في المستثمرين الجدد[36]، وتثبيت صدقية المجلس وأشغال المكتب الشريفي. إلا أن غياب عامل الاستقرار السياسي في المغرب نتيجة ارتفاع شدة المقاومة، على الرغم من الضمانات العسكرية التي كانت تقدمها فرنسا، كان عاملًا حاسمًا في نسبة تدفق الاستثمارات الصناعية[37].

تجمع التقارير الأرشيفية خلال الحرب الأولى على تدفق كثير من الاستثمارات، اقتصرت في أغلبيتها على الصناعات الأكثر حيوية[38]، مثل البناء وتحويل المواد الفلاحية وصناعة الزيتون والصيد والدقيق وصناعة الاستخراج؛ إذ شكلت الصناعة التحويلية وحدها ثلث الإنتاج الصناعي المغربي[39]، مثل المطاحن الكبرى ومعامل التصبير والتبريد وبعض الصناعات المرتبطة بالخمور، إضافة إلى صناعات أخرى، مثل السكر والشحوم، من دون إغفال الصناعة الاستخراجية التي تُعدّ أهم القطاعات استقطابًا للاستثمارات الخاصة في المغرب.

يتضح مما سبق، أن الإشكالات الكبرى التي واجهتها الصناعة المغربية خلال هذه الفترة تنحصر بين إكراهين: الإنتاج والتصدير، ما يستلزم توفير عوامل وشروط إنتاج ملائمة. إذ انطلقت سياسة التصنيع في المغرب من خلال الاهتمام بصناعات تنسجم مع إمكانات الدولة البسيطة[40] (طاقة، مواد أولية ذات أصل فلاحي، يد عاملة...)، وفي مرحلة لاحقة، الاهتمام بصناعات تخضع لمتطلبات السوق وتلبيتها.

2- مظاهر الإنتاج الصناعي في المغرب خلال الحرب العالمية الأولى

تقر تقارير أرشيف الحماية بصعوبة تحديد درجة أو وتيرة التصنيع في المغرب خلال هذه الفترة، إلا أنه من الممكن تمييز القطاعات التي تعرف أوضاعًا

---

(36) Rivet, p. 104.

(37) Malet, p. 7.

(38) Service de commerce et d'industrie au Maroc, «L'Équilibre économique du Maroc,» 1930, Archives nationales de Rabat, carton G589, p. 13.

(39) Service de commerce et d'industrie au Maroc, «L'Industrie au Maroc,» Archives nationales de Rabat, carton C 877, p. 5.

(40) «Le Merveilleux essor du Maroc et ses possibilités économiques,» Archives nationales de Rabat, Carton G204.

جيدة من تلك التي تواجه الصعوبات[41]. فجلّ الصناعات الجديدة في المغرب بقيت مرهونة بإكراهات صاحبت تأسيسها، منها غياب دراسة حقيقية للمشروعات المنجزة كلها، خصوصًا على مستوى الإنتاجية (القدرة على الاستمرار في الإنتاج)، لأنها تشكل إطارًا عامًا يجب أن تتطور في داخله الصناعات لتستجيب للطلب الداخلي والخارجي المتزايد[42].

أ- الصناعة الاستخراجية

رأت فرنسا في القطاع المنجمي في المغرب القاعدة الأساس لأي انطلاقة اقتصادية، خصوصًا قطاع الصناعة المرتبط في جزء كبير منه بثروات المغرب الباطنية، فالمغرب أغنى مستعمرة فرنسية في شمال أفريقيا على المستوى المعدني[43]، لذا أولت السلطات الفرنسية هذا القطاع اهتمامًا لافتًا، ووفرت الإمكانات الضرورية كلها لرفع مستوى الإنتاجية بشكل يسمح بقطع الطريق أمام أي منافسة أجنبية[44].

أكد تقرير الحماية أن عام 1915 هو عام انطلاق البحوث الجيولوجية وأشغال التنقيب، وهناك من اعتبر أن «المناجم هي الثروات الوحيدة التي يمكن لفرنسا استغلالها في المناطق الصحراوية المنعزلة، إذ ستتمكن من تثبيت الساكنة

(41) يمكن تحديد أهم الصعوبات في ضعف البنيات التحتية، إضافة على غياب سوق مالية (سياسة القروض محدودة) ما يحول دون التفكير في إيجاد، وعلى المدى القريب، صناعة ثقيلة ضخمة مستهلكة للطاقة بشكل كبير. كما أن قلة اليد العاملة وقلة خبرتها ربما تساعد في تطوير صناعات ذات تقنيات بسيطة لا تحتاج إلى عمالة كبيرة.

(42) Claude Fradin, *Les Industries marocaines, présentées par le Comité central des industriels du Maroc à la foire internationale de Casablanca, avril-mai 1938. [Le Rôle de l'industrie au Maroc, par L. Marchal. L'Industrie marocaine, facteur essentiel de l'activité économique du protectorat, par Claude Fradin.]* (Casablanca: Impr. réunies, [s. d.]), p. 7.

(43) Jacques Weygand, «Les Ressources minières du Maroc,» *La Revue hebdomadaire* (11 Novembre 1933), Archives nationales de Rabat, carton F279.

(44) أولت الدول التي وقعت في مؤتمر الجزيرة الخضراء اهتمامًا بالمناجم المغربية، ويؤكد ذلك في البند 112 من المعاهدة الذي يلتمس وضع قوانين وشروط إعطاء حقوق المناجم ومقالع الأحجار، ما دفع بالإقامة والحكومة المغربية في عام 1913 إلى إصدار ظهير يمنع سلطات الحماية من استغلال المعادن والابتعاد عن أي تحايل يسمح باستغلال محايد. انظر: الجريدة الرسمية (المغرب) (30 كانون الثاني/ يناير 1914)، ص 29.

العاملة والمزعجة»[45]، في إشارة إلى الهاجس الأمني الذي كان يصاحب عمليات البحث والتنقيب.

كان هاجس فرنسا الإسراع بنمو الصناعات الاستخراجية من خلال تنظيم القطاع المنجمي ضمن مؤسسات وإدارات تؤدي دورها الأساس في تنسق العمل المنجمي وتنشيطه، من دون إعاقة المبادرة الخاصة[46]. إلا أن تتبع مسار الحماية يبيّن أن مأسسة القطاع المنجمي تمت في مرحلة بعد الحرب، خصوصًا مع تأسيس مكتب البحوث والمساهمات المعدنية في 15 كانون الأول/ ديسمبر 1928، الذي نيطت به مهمة تنظيم التنقيب على المناجم واستثمارها، حيث يمثل الدولة الشريفة في شركات عدة، وتصل مساهمته في بعضها إلى 50 في المئة من رأس مالها[47]. واستطاع المكتب تحقيق نتائج مهمة في القطاع المنجمي، على مستوى نتائج التنقيب أم على مستوى الإنتاج والتصدير.

ب- الصناعة التحويلية

وُجّهت الصناعة التحويلية نحو إشباع الحاجات المستعجلة للقطاعات الاقتصادية الأخرى أو لتلبية بعض حاجات المجتمع الأوروبي الاستهلاكية. وإذا كانت التقارير الأرشيفية تجمع على أن الانطلاق الحقيقي للاقتصاد الصناعي في المغرب كان بعد الحرب العالمية الثانية، فإن المرحلة التي تلت توقيع الحماية شهدت تركّز بعض الصناعات التحويلية[48] التي شجعت الإقامة على الاستثمار فيها، بشكل يستجيب لأهدافها الأساس[49]، ومنها تشجيع الكولونات الأوروبية، وتوسيع دائرة استقرارها، والاستجابة لمطالب فرنسا المرحلية. تركزت أغلبية

---

(45) Pierre Despujols, *Note sur l'industrie Minière au Maroc* (Rabat: Imprimerie officielle, 1937), p. 5.

(46) الجريدة الرسمية (المغرب) (30 كانون الثاني/ يناير 1914)، ص 29.

(47) Weygand, «Les Ressources,» et G. Harmes, «Rapport transmis à Mr. le président général à Rabat, 14 Novembre 1929, Essor du Maroc et les possibilités économiques,» 1929, Archives nationales de Rabat, carton G 604.

(48) Service de commerce et d'industrie au Maroc, «Industries et transformations de produits agricoles,» 1935, Archives nationales de Rabat, carton G764.

(49) René Hoffherr, *L'Industrie marocaine*, Extrait de la science au Maroc (Casablanca: Imprimerie Réunier, 1934), p. 380.

هذه الصناعات في الدار البيضاء، باستثناء صناعة تصبير الأسماك التي توزعت على المدن الساحلية[50].

لم يكن متاحًا الحديث عن الصناعة كمفهوم إلا بعد دخول الفرنسيين إلى المغرب. فقبل عام 1912، كان مفهوم الصناعة المغربية، كما القطاعات الإنتاجية الأخرى، مقتصرًا على النشاط الحرفي الذي كان إنتاجه يلبي حاجات الفلاحة أو استهلاك المغاربة العام، ما جعل هذه الصناعات بسيطة بساطة حياة المغاربة التي تميزت بطابع الاكتفاء الذاتي وغياب المبادرة الاقتصادية.

أدخلت فرنسا أنموذجًا صناعيًا جديدًا يقوم على أسس الرأسمالية الصناعية، فأحدثت شبكة صناعية تتراوح بين أنواع عدة من المنتوجات التي ارتبط اختيارها أساسًا بتوجهات المتروبول، وهذا أمر أحدث تغييرًا عميقًا على مستوى مورفولوجيا الاقتصاد المغربي.

ضمن هذا الإطار، تتوضح عناصر السياسة الصناعية الفرنسية في المغرب، من خلال الاختيارات الكبرى والقوانين والجوانب التنظيمية، بتوافق مع إمكانات المغرب ومؤهلاته الصناعية.

رابعًا: القطاع التجاري في المغرب خلال الحرب العالمية الأولى

تتيح دراسة النشاط التجاري في عهد الحماية فهم الترابط الوثيق بينه وبين باقي القطاعات الاقتصادية، واستنتاج آثار الاصطدام بالاقتصاد الرأسمالي الاستعماري. فبعد انفراد فرنسا بالتحكم بمصير المغرب، كان لزامًا عليها وضع تشريعات وتنظيمات جديدة للتجارة تستجيب لنزعتها الاستعمارية وتجعلها الشريك التجاري الأول للمغرب، خصوصًا أنها اصطدمت، منذ أول وهلة، بنظام جمركي منظم للتجارة مستمد من معاهدة الجزيرة الخضراء يقيّد يدها في المغرب. إلا أنها محاولات بقيت محدودة[51]، إذ استمرت القوى الكبرى في كسب المزيد من الامتيازات التجارية، كما كانت دومًا تنادي بالحفاظ على مبدأ الباب المفتوح وحرية التجارة.

(50) Pierre Garin, «Les Usines de conserve de poisson au Maroc,» *Bulletin économique Maroc* (Janvier 1935), p. 36.

(51) Henry Marchat, *Le Régime économique de l'acte d'Algésiras* (Paris: Librairie générale de droit et de jurisprudence, 1958), Archives nationales de Rabat, carton G4, p. 18.

لم تكن القيود الجمركية لتقف عائقًا أمام المشروع الفرنسي الطموح في المغرب، حيث اقتضت مصلحتها إقامة بنى اقتصادية لاستغلال طاقات المغرب الهائلة كمصدر للمواد الأولية الكثيرة، وسوق للمواد الاستهلاكية، وجعلت من أسواقها وجهة حصص مهمة من المنتوجات المغربية، ما فرض عليها ضرورة توجيه الإنتاج من خلال حث المعمرين على الخروج من دائرة الإنتاج الواحد، خصوصًا على المستوى الفلاحي.

تبيّن التقارير الإحصائية لمؤسسة الحماية في مراحلها الأولى أن هاجس البنى التحتية كان كبيرًا عند ليوتي، فاصطدم مشروعه الاستعماري بإكراهين: التكلفة المرتفعة والحرب العالمية. إلا أن فطنة ليوتي وقدرته على الإقناع واقتناع المتروبول بالأهمية الاستراتيجية للمغرب جعلته يضخ الأموال في إطار ميزانيات عمومية غطت مشروعات مهمة.

1- فرنسا والجمرك المغربي: محاولات الإصلاح

كانت معاهدة الجزيرة الخضراء إطارًا قانونيًا منظمًا للتجارة الخارجية المغربية في عهد الحماية، وجاءت تتويجًا للمعاهدات التجارية الثنائية المبرمة بين المغرب وباقي الدول، فكانت خريطة طريق للنظام الجمركي المغربي الذي اقتصر نفوذه على التجارة البحرية. أما في خصوص الحدود المغربية الجزائرية، فانفردت فرنسا بأحقية مناقشة التعريفة الجمركية مباشرة مع المملكة الشريفة[52].

انقسم المغرب في عهد الحماية أربع مناطق جمركية: المنطقة الفرنسية الموجودة في المغرب الشرقي، المنطقة الفرنسية الموجودة في المغرب الغربي، المنطقة الإسبانية الموجودة في شمال المغرب، منطقة طنجة. على الرغم من هذا التقسيم، حاولت فرنسا المحافظة على الوحدة الجمركية عن طريق توحيد التعريفة الجمركية في جميع المناطق الحدودية للمملكة الشريفة[53].

استطاعت فرنسا، من خلال معاهدة الجزيرة الخضراء، الحصول على

(52) Bouillon Lapaut, «Politique économique suivie au Maroc (législation douanière 1926),» Services de commerce et d'industrie, 1926, p. 4.

(53) فاطمة الحمدان بحير، السياسة الجمركية المغربية وإشكالية المبادلات التجارية الدولية (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2005)، ص 55.

مكاسب سياسية مهمة، تمثلت في الانفراد - مع إسبانيا - بالقضية المغربية، في حين بقيت المكاسب التجارية بعيدة المنال، استدعى منها بذل جهد تنظيمي وقانوني يمكّنها من تحقيق هدفها الأسمى: إلحاق الاقتصاد المغربي بالاقتصاد الفرنسي.

اعتبرت سلطات الحماية أن التكوينة الضريبية (الجمركية) الموروثة من معاهدة الجزيرة الخضراء، تكوينة تقليدية لا يمكن الاعتماد عليها في دولة تنشد العصرنة والتنمية في مرافقها العمومية المختلفة، فعملت على استصدار سلسلة من الظهائر والقرارات الوزيرية المتعلقة بتنظيم الجمارك وموظفيها، والضرائب غير المباشرة، ما سيشكل إطارًا عامًا يحدد مصالح الدولة الحامية.

لم تستطع فرنسا احتكار التجارة المغربية إلا في نهاية الحرب العالمية الأولى؛ حين عمدت إلى تسخير الجمارك لخدمة مصالحها، وأعادت تنظيمها وظيفيًا وبنيويًا[54]، وعملت على وضع مجموعة من القوانين والتنظيمات المنقولة في أغلبيتها عن القانون الفرنسي والمستلهمة من المعاهدات والاتفاقات الدولية، خصوصًا معاهدة الجزيرة الخضراء.

وحّد أول هذه القوانين التعريفة الجمركية في جميع المناطق الحدودية بناءً على قرار توحيد التعريفة الجمركية في عام 1915، وكان قرارًا تمهيديًا للنيات الإصلاحية التي ستُقدِم عليها فرنسا في الجانب الجمركي، لتستكمل مسلسل الإصلاحات بدءًا من عام 1920، هدفه أساسًا رفع قيمة التعريفة الجمركية في المراكز الحدودية البرية والبحرية[55].

تجمع التقارير على أن تدخلات إدارة الحماية كانت حاسمة في عامي

(54) بقيت إدارة الجمارك الشريفة خارج تأطير ونفوذ إدارة الحماية لخمسة أعوام، إلى أن ضمت إلى مديرية المالية في عام 1918. وعملت الحماية منذ هذا التاريخ على استصدار الظهائر من السلطات الشريفة لإضفاء الشرعية على عملها. فأصدرت قرارات وزيرية في 26 نيسان/ أبريل 1918، تهدف إلى تنظيم إدارة الجمارك والضرائب غير المباشرة. وجرى تعيين أعوان إدارة الجمارك كموظفين تابعين لأسلاك الوظيفة العمومية، يتمتعون بحماية القانون ما يحول دون أدائهم مسؤولياتهم، كما أصبح من ضمن اختصاصهم بعض مهمات الشرطة القضائية. انظر: بحير، ص 54.

(55) Larbi El-Alaoui, «Evolution du droit douanier au Maroc de 1906 à nos jours» (Thèse d'Etat, Faculté Hassan II, Casablanca, 1992), p. 8.

1914 و1920، بإصدار عدد من الظهائر التي تمنع بعض المواد من الدخول[56]، ومنها:

- المنتوجات المزوّرة (ظهير 14 تشرين الأول/ أكتوبر 1914).

- الأسلحة وجميع المنتوجات المرتبطة بها من بارود وذخيرة (ظهير 29 آذار/ مارس 1915).

- الخمور (ظهير المنع، 26 نيسان/ أبريل 1915).

- بذور القطن ذات الأصل المصري المستوردة بطريقة مباشرة وغير مباشرة (قرار 29 آذار/ مارس 1918).

- المواشي والخنازير المستوردة من بلجيكا والهند ودول أفريقيا الغربية الفرنسية (AOF)، (ظهير 2 أيلول/ سبتمبر 1920 - ظهير 16 تشرين الأول/ أكتوبر 1920).

تؤكد إجراءات المنع هذه، وغيرها المرتبطة بالدخول الموقت ومشروط، أن لهذه المواد قدرة تنافسية كبيرة داخل السوق المغربية، ويلاحظ أنها تعلقت أساسًا بالمنتوجات الفلاحية، وهذا أمر طبيعي ينسجم مع التوجهات الأولى للإقامة العامة التي اتجهت نحو تطوير القطاع الفلاحي في المراحل الأولى للحماية[57].

خلاصة القول، دفعت المصالح الفرنسية في المغرب ومصالح جاليتها المقيمة فيه فرنسا إلى تبني مبدأ خفض أو إلغاء الرسوم على المنتوجات التي تَستوردها منه، قصد استغلال خيراته بشكل فاعل وإقصاء منافسيها التجاريين في المغرب، خصوصًا ألمانيا التي كان المغرب بالنسبة إليها أهم شريك تجاري خارج حدود أوروبا، إضافة إلى الولايات المتحدة الأميركية التي كانت ترغب في تعزيز استثماراتها التجارية في المغرب بعد الحرب العالمية الثانية.

---

(56) L. Achard, «Réglementation visant les importations et les exportations,» Service de commerce et d'industrie, Mai 1923, Archives nationales de Rabat, carton C1997, p. 2.

(57) همت بعض القرارات أيضًا منع تصدير الأبقار الأقل من 8 أعوام والنعاج الأقل من 5 أعوام بعد إصدار القرار الوزاري 7 آب/ أغسطس 1920: Services de commerce et d'industrie au Maroc, *Le Commerce au Maroc* (Casablanca: Imprimerie rapide, 1917), Archives nationales de Rabat, carton G430, p. 11.

2- رهانات التجارة الفرنسية في المغرب

شكل المغرب بالنسبة إلى فرنسا رهانًا اقتصاديًا تستطيع من خلاله الحصول على ما أرادته في مقابل جهدها لتطوير الدولة. وهذا وضع فرض على فرنسا ومؤسسة الحماية تحديد ملامح نظام اقتصادي قادر على معالجة حال عدم الاستقرار التي ربما تصيب الاقتصاد الفرنسي، ويزيد من امتيازاتها وينقص من الحضور الأجنبي القوي في الاقتصاد المغربي. فأي انخفاض في قيمة المعاملات التجارية بين فرنسا والمغرب يهدد بفقدان فرنسا اقتصادها في المغرب، ويحتم إرساء نمط جديد للعلاقات التجارية البينية[58]، تجنب فرنسا شرّ المنافسة الأجنبية.

إذا كان بناء المصالح التجارية هاجس فرنسا في المغرب، فإن ذلك استدعى منها القيام بدارسة واردات المغرب قبل صادراته: لتجاوز النظرة الفرنسية تجاه مستعمراتها بكونها زبونًا طبيعيًا لها. إذ تمثل المستعمرات المصدر الرئيس للمواد الأولية، إضافة إلى أن حاجاتها الكبرى تتحدد أساسًا بقدرتها الإنتاجية، ثم إن إدماج وتطوير هذه المستعمرات ضمن المنظومة الفرنسية، على مستوى نمط العيش أم الاستهلاك، يفرض ضرورة دراسة وارداتها وبنيتها الكبرى.

الجدول (1-4)

قيمة الواردات حتى عام 1918 (بالفرنك الفرنسي)[59]

عام	قيمة الواردات
1913	943 794 149
1914	200 215 104
1915	786 404 148
1916	198 989 177
1917	537 710 215
1918	981 579 257

(58) Charles René-Leclerc, *Le Commerce au Maroc: Conseils aux industriels et négociants de la métropole*, Résidence générale de la République française au Maroc, Service de commerce (Paris: Impr. Bourse du Commerce, 1915), Archives nationales de Rabat, carton C1951, p. 9.

(59) Services de commerce et d'industrie au Maroc, «Étude sur le commerce extérieur du Maroc en 1918,» Archives nationales de Rabat, carton G426, p. 7.

لم تتأثر واردات المغرب جراء الحرب العالمية. فباستثناء التراجع المسجل في عام 1914، سجل تطور مستمر في قيمة الواردات التي تجاوزت قيمتها 250 مليون فرنك في عام 1918 بنسبة زيادة فاقت 70 في المئة مقارنة بعام 1913. وهي نتيجة طبيعية لأن المغرب صار ورشات مفتوحة وحديثة.

أمام هذه الوضعية، تجد فرنسا نفسها بعد الحرب العالمية الأولى أمام تحديات المنافسة القوية داخل السوق المغربية، استدعت منها رفع أداء التجارة الخارجية عبر تأهيل النسيج الاقتصادي المغربي ومواكبته بإصلاحات على المستويين القانوني والمؤسساتي.

مع نهاية الحرب العالمية الأولى، عملت فرنسا على زيادة عدد الوكلاء والممثلين التجاريين في المغرب، كوسطاء بين الزبون المغربي والتجار الفرنسيين، وتسهيل المساطر الإدارية المختلفة وتبسيطها، ودراسة السوق المغربية وتحديد حاجاتها المختلفة[60]. كما أغرقت فرنسا السوق المغربية بالمنتوجات الصناعية الجديدة المختلفة، وبأثمان تفضيلية مقارنة بمنتوجات دول أخرى[61]. هذه الإجراءات جعلت المغرب الشريك التجاري الأول لفرنسا خارج حدودها الجغرافية.

بناءً على ذلك، ستعرف بنية الصادرات المغربية حتى عام 1918 ارتفاعًا كبيرًا وتنوعًا مهمًا، بعد انطلاق الصناعة المرتبطة بالصيد البحري والصناعة الاستخراجية وتطورها، خصوصًا أن التوجهات الاقتصادية الجديدة والمخطط الرامي إلى تجهيز المغرب سيرفع درجة التفاؤل داخل الأوساط الفرنسية بقدرة المغرب على أن يكون دعامة أساسية للاقتصاد الفرنسي، ومزودًا حقيقيًا لطاقته الاستهلاكية.

انطلاقًا من هذه الخلاصات، يمكن القول إن القطاع التجاري لم يخرج عن

---

(60) Service économique au Maroc, «L'Économie marocaine 1920,» archives nationales de Rabat, carton F180.

(61) Ministre de commerce et de l'industrie, «Les Informations françaises et étrangères de l'office national du commerce extérieur,» Supplément aux dossiers commerciaux au Maroc français, no. 5, Paris, 1920, p. 2.

الإطار العام الذي تحدده الاختيارات الكبرى للاقتصاد، وهي اختيارات بقيت مرتبطة بالرغبة الاستعمارية والمشروعات الإمبريالية وتعقيداتها الدولية. فأصبح المغرب نتيجة ذلك نقطة تجارية ترتبط أسواقها الداخلية بالأسواق الخارجية عبر قناة التجارة الفرنسية التي احتكرت مؤسساتها وشركاتها القطاع في المغرب. وهذا ما سيرسم كذلك طريق الاختيار التجاري في مرحلة الاستقلال؛ حيث لم يستطع الانفلات من شبكة التجارة الرأسمالية، ليسقط في مرحلة التبعية الاقتصادية، حيث ما زالت فرنسا الشريك التجاري الأول للمغرب، ما يفسر سيطرة المؤسسات الفرنسية على مجموعة من مجالات التصدير والاستيراد. وهذا أمر طبيعي نتيجة ما أحدثته 44 عامًا من التغيير والبناء والهدم في مؤسسات المجتمع المغربي كلها.

خاتمة

إن كنت قد أشرت في مقدمة هذه الدراسة إلى أهميتها وطبيعتها، فإن خاتمتها تفرض - من الناحية المنهجية والمعرفية - الخروج بخلاصات مركزية يمكنها الانفتاح على تساؤلات جديدة، خصوصًا أن الشأن الاقتصادي في العلاقات المغربية الفرنسية يجد صداه في أيامنا هذه، نظرًا إلى أن هذه العلاقة هي وليدة صيرورة من التراكمات تشكلت روافدها الأساس بشكل عميق خلال فترة الحماية، فبرز بشكل كبير العمق الاقتصادي في ارتباط البلدين.

على هذا الأساس، يبدو أن ما أحدثته فرنسا في المغرب على المستوى القطاعات الاقتصادية كلها، ساهم في نقل المغرب إلى مسار جديد، مسار السوق العالمية. وبالنظر إلى هذه التأثيرات، تتضح أهمية الفعل الاقتصادي والنظر من خلاله إلى المجال الاجتماعي والسياسي. فتبرز بذلك خلاصة مركزية مفادها أن تعديل البناء الاقتصادي خلال هذه الفترة لم يبق حبيس زمنها، بل امتد تأثيره إلى مراحل لاحقة، إلى ما يسمى بالزمن الراهن عند المؤرخين. ما يجعل هذه المساهمة محاولة في سياق التقعيد لتساؤلات بقيت معلقة، تفرض علينا الاستمرار في التحضير لمشروعات دراسات، يكون منطلقها ما استطعنا الإجابة عنه خلال هذه الدراسة، والامتداد بها إلى مرحلة بعد عام 1956، من أجل التعرف إلى حدود المتغيرات واستمرارها في الزمن.

المراجع

1- العربية

كتب

بحير، فاطمة الحمدان. السياسة الجمركية المغربية وإشكالية المبادلات التجارية الدولية. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2005.

تفاسكا، أحمد. تطور الحركة العمالية في المغرب (1919-1939). بيروت: دار ابن خلدون، 1980.

العروي، عبد الله. مفهوم التاريخ. بيروت: المركز الثقافي العربي، 1992. 2 ج.
ج 1: الألفاظ والمذاهب.
ج 2: المفاهيم والأصول.

دوريات

الجريدة الرسمية (المغرب): 4 تموز/يوليو 1913؛ 30 كانون الثاني/يناير 1914، و10 تموز/يوليو 1914.

الخشاني، محمد. «المحاولات الصناعية الأولى في المغرب: المشاريع المخزنية خلال النصف الثاني من القرن 19 وأسباب فشلها.» مجلة القانون والاقتصاد (جامعة سيدي محمد بن عبد الله): العدد 8، 1992.

2- الأجنبية

Books

Boissière, G. *L'Essor économique du Maroc, les résultats acquis, les perspectives d'avenir: Conférence faite à la foire de Rabat le 27 septembre 1917.* Casablanca: Imprimerie rapide, 1917.

Colliez, André. *Notre Protectorat marocain: La Première étape 1912-1930*. Préface de MM. Jérôme et Jean Tharaud. Paris: Librairie des sciences politiques et sociales, libr. Marcel Rivière, 1930.

Despujols, Pierre. *Note sur l'industrie Minière au Maroc*. Rabat: Imprimerie officielle, 1937.

Fazy, Henry. *Agriculture marocaine et protectorat*. Lettre-préface de L. Massignon. Guéret: Impr. de Lecante, 1947.

Fradin, Claude. *Les Industries marocaines, présentées par le Comité central des industriels du Maroc à la foire internationale de Casablanca, avril-mai 1938. [Le Rôle de l'industrie au Maroc, par L. Marchal. L'Industrie marocaine, facteur essentiel de l'activité économique du protectorat, par Claude Fradin.]*. Casablanca: Impr. réunies, [s. d.].

Guy, Evin. *L'Industrie au Maroc et ses problèmes*. Avec une préface de M. Augustin Bernard. Paris: Libr. du Recueil Sirey, 1934. (Collection des centres d'études juridiques; 7)

Hoffherr, René. *L'Industrie marocaine*. Casablanca: Imprimerie Réunier, 1934. (Extrait de la science au Maroc)

_________. *Quelques aspects de l'économie marocaine: Peuplement, ressources naturelles et crédit*. Rabat: Imprimerie du roi, 1931.

Marchat, Henry. *Le Régime économique de l'acte d'Algésiras*. Paris: Librairie générale de droit et de jurisprudence, 1958.

Malet, François. *L'Économie Marocaine avec Lyautey de 1912 à 1925*. Paris: Institut agronomique, 1936.

L'Œuvre de la France au Maroc de 1912 à 1947. Service de commerce et d'agriculture. Rabat: Impr. de Perceval, 1948.

René-Leclerc, Charles. *Le Commerce au Maroc: Conseils aux industriels et négociants de la métropole*. Résidence générale de la République française au Maroc, Service économique. Paris: Impr. Bourse du commerce, 1915.

_________. *Le Maroc: Notice économique, petit guide de l'immigrant*. Paris: P. Geuthner, 1911.

Rivet, Daniel. *Lyautey et l'institution du protectorat français au Maroc: 1912-1925*. Paris: Éd. l'Harmattan, 1988. 3 tomes. (Histoire et perspectives méditerranéennes)

Salahdine, Mohamed. *Maroc: Tribus, makhzen et colons: Essai d'histoire économique et sociale.* Paris: L'Harmattan, 1986. (Bibliothèque du développement)

Services de commerce et d'industrie au Maroc. *Le Commerce au Maroc.* Casablanca: Imprimerie rapide, 1917.

Periodicals

Garin, Pierre. «Les Usines de conserve de poisson au Maroc.» *Bulletin économique Maroc*, Janvier 1935.

«Le Maroc économique et financier.» *France-Maroc*: no. 62, Janvier 1932.

Nacivet. «L'Eau au Maroc.» *France-Maroc*: no. 1, Janvier 1918.

Weygand, Jacques. «Les Ressources minières du Maroc.» *La Revue hebdomadaire*: 11 Novembre 1933.

Thesis

El-Alaoui, Larbi. «Evolution du droit douanier au Maroc de 1906 à nos jours.» Thèse d'Etat, Faculté Hassan II, Casablanca, 1992.

Archives

Achard, L. «Réglementation visant les importations et les exportations.» Service de commerce et d'industrie, Mai 1923, Archives nationales de Rabat, carton C1997.

Brien, Pierre. «La Colonisation agricole européenne et l'évolution de la plaine de souss.» Archives nationales de Rabat, carton F279.

Centre des jeunes patrons du Maroc. «Session d'études sur l'économie marocaine.» Rabat, 1956.

Direction de l'agriculture, du commerce et de la colonization. «Politique agricole du gouvernement marocain.» Rabat, 1933. Archives nationales de Rabat, carton G764.

________. «Situation agricole du 1er avril 1919.» 1919, Archives nationales de Rabat, carton C1985.

Direction générale de l'aviation civile [D. G. A. C.]. «Statistiques du blé.» 1918-1935. Archives nationales de Rabat, Carton C651.

Harmes, G. «Rapport transmis à Mr. le président général à Rabat, 14 Novembre 1929, Essor du Maroc et les possibilités économiques.» 1929. Archives nationales de Rabat, carton G 604.

Lapaut, Bouillon. «Politique économique suivie au Maroc (législation douanière 1926).» Services de commerce et d'industrie, 1926.

«Le Merveilleux essor du Maroc et ses possibilités économiques.» Archives nationales de Rabat, Carton G204.

Ministre de commerce et de l'industrie. «Les Informations françaises et étrangères de l'office national du commerce extérieur.» Supplément aux dossiers commerciaux au Maroc français, no. 5, Paris, 1920.

Service de commerce et d'industrie au Maroc. «L'Agriculture marocaine.» 1917, Archives nationales de Rabat.

________. «L'Équilibre économique du Maroc.» 1930. Archives nationales de Rabat, carton G589.

________. «Étude sur le commerce extérieur du Maroc en 1918.» Archives nationales de Rabat, carton G426.

________. «L'Industrie au Maroc.» Archives nationales de Rabat, carton C 877.

________. «Industries et transformations de produits agricoles.» 1935. Archives nationales de Rabat, carton G764.

________. «Situation économique du Maroc.» Archives nationale de Rabat, 1917.

________. «Situation économique du Maroc, Décembre 1918.» Archives nationale de Rabat, 1919.

Service économique au Maroc. «L'Économie marocaine 1920.» Archives nationales de Rabat, carton F180.

الفصل الثاني

المجاعة الكبرى والاقتصاد الطرفي
من دراسات الحالة إلى بناء المفهوم

سيمون عبد المسيح

تصف سرديات عدة «مجريات» ما حدث في بيروت وجبل لبنان خلال الحرب الكونية الأولى، إذ كتب شهود عيان بعضَها بعد الحرب مباشرة بأسلوب المذكرات أو البحث الذي يتمتع بمواصفات السرد التاريخي، بينما كُتب بعضُها الآخر في فترات متعاقبة في القرن العشرين.

منذ البداية، واكب السرد الفني والأدبي[1] السرد التاريخي في محاولة «أنطولوجية» لإعادة رسم المشاهد المأساوية، في فترات متتابعة خلال الحرب، وفي أمكنة جغرافية متعددة حيث يعيش الناس أو حيث مراكز السلطة والقرار. لم تحاول أي عملية منهجية شاملة[2] تدوين الروايات الشفوية الجارية على ألسنة آلاف الناس الذين عاشوا تلك الفترة وشاهدوا وقائعها وعانوا ويلاتها، وربما طبعت شخصيتهم وشخصية أبنائهم وأحفادهم[3].

(1) تعددت الأعمال الأدبية والفنية التي تناولت مآسي الحرب العالمية الأولى، ومنها ما صدر مباشرة بعد الحرب: جبرائيل مجلي السرعلي اللبناني، رواية مجاعة لبنان والمطران أنطون عريضه البشراوي (طرابلس الشام: مطبعة الرقيب، طرابلس الشام، 1920)؛ توفيق يوسف عواد، الرغيف (بيروت: مكتبة لبنان، 1939)؛ يوسف الخوري يونس، «اليتيم،» الرقيب (1949)، وحنا طنوس، العقل اللبناني والدهاء العثماني، رواية تاريخية تمثيلية، نثرية، شعرية ذات خمسة فصول جرت وقائعها في الحرب العالمية الأولى 1914-1918 (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1981). كما صدر حديثًا: رمزي توفيق سلامة، الناجون (1914-1918): مئوية الحرب الكبرى، نقله إلى العربية ميشال أبو راشد وأنطوان سعد (بيروت: دار سائر المشرق للنشر والتوزيع، 2015)، و Eveline Bustros: «Sous la baguette du coudrier,» dans: *Romans et écrits divers*, Avant-propos par Takieddine el-Solh; Portrait par André Pautard; Réflexions sur les romans par Jad Hatem; Dessins de Georges Cyr et Moustapha Farroukh (Beyrouth: Éd. Dar an-Nahar, 1988). ومن الأعمال السينمائية، «سفر برلك» للأخوين رحباني، ومن الأعمال التلفزيونية «وأشرقت الشمس».

(2) من الدراسات التي تضمنت مقابلات مع معاصرين وشهود عيان لفترة الحرب في جبل لبنان وبيروت: Nicolas Z. Ajay, «Mount Lebanon and the Wilayah of Beirut 1914-1918: The War Years» (Ph.D. Dissertation, Georgetown University, 1972). ومن المذكرات المهمة التي نشرت: نجيب البعيني، ذكريات الأمير شكيب أرسلان عن الحرب الكونية الأولى وعن المجاعة في سورية ولبنان (بيروت: دار نوفل، 2001).

(3) Nayla Aoun Chkaiban, *Celle que tu es devenue: 1910-1920. Un destin libanais* (Paris: Tamyras, 2013). «لكن مفاجأة الرواية هو اكتشافنا أنها كتبت أساسًا بسبب اهتمام المؤلفة بمعرفة جذور سوء معاملة =

كتب الدراسات التي تناولت تاريخ القرى والبلدات والمدن من المحطات السردية التي استُعيدت فيها الوقائع المحلية للحرب الكونية، مؤرخون عاشوا تجربة الحرب، فجمعوا بين مشاهداتهم ورواية شهود آخرين - مكتوبة كانت أم شفوية - إضافة إلى اطلاعهم على قيود السجلات الدينية - وبعضهم قام بمهمة القيد بنفسه - لكن استثمار هذه السجلات لم يتجاوز حدود الوصف والتعداد، وجاء تناولهم فترة الحرب في سياق تاريخ طولاني يمتد لمراحل زمنية مديدة.

تجددت الدراسات المتعلقة بمأساة الحرب مع الديموغرافيا التاريخية، حيث فوجئت الأجيال الجديدة من الباحثين بحجم الموت وهول المأساة، خلال استثمارهم السجلات الكنسية، ومقارنتهم الإحصاءات الدينية منها والمدنية التي سبقت الحرب وأعقبتها، فتشكلت إرادة واعية لتسجيل تلك المأساة، أسماء وتاريخًا ووقائع.

يفترض الباحث أن في كل حالة من حالات السرد خصوصية ما، لكنه يُفاجأ باستنساخ اللوحات والمشهديات، مع استثناءات ضئيلة، فكأن مرجعية واحدة أملت قصتها على الإخباريين والمؤرخين والروائيين. ولا تخلو هذه السرديات من محاولة للفهم والتفسير، لكن يتراوح الأمر هنا بين الذاتية والموضوعية، وبين صعوبة معرفة الحقيقة والتوجهات الأيديولوجية، بحسب موقع الراوي وحدود معرفته واطلاعه واتجاهاته ومصادره وعلاقته بالنظامين: القديم (العثماني) والجديد (الانتداب الفرنسي)، وبحسب انتمائه الاجتماعي والطبقي. وما يحدد أيضًا أنماط التفسير ومستوياتها هو مدى قراءة مأساة الجوع والموت خلال فترة الحرب، في ضوء «التاريخ الطويل»، أي في سياق التطورات الاجتماعية - الاقتصادية للقرن التاسع عشر الطويل (1820- 1920)، وبالتالي مدى الوعي بشبكة العلاقات التبادلية ما بين الاقتصادات الطرفية (أي في المدى الجغرافي لمتصرفية جبل لبنان والولايات السورية - العثمانية)، وما بينها والاقتصاد العالمي.

= جدتها (ماري) لوالدتها. الأمر الذي بقيت نايلة عون تتبعه وتحاول أن تستجر اعترافات ماري تكرارًا، لندرك أن رواسب الحرب العالمية التي عاشتها الجدة، لم تغسلها الأيام، وأن ثمة ما بقي في النفس قويًا ينتقل من جيل إلى آخر». انظر: سوسن الأبطح، «الحرب العالمية الأولى تعود إلى الظهور في الرواية اللبنانية الجديدة: من توفيق يوسف عواد إلى نايلة عون شكيبان.. الإدانة ذاتها،» الشرق الأوسط، 16/ 8/ 2014.

يرتكز هذا البحث على استثمار مادة خام هي السجلات الكنسية المعروفة بـ «دفاتر الكتب الخمسة» (التي تدوّن فيها العمادات والتثبيت والخطبة والزواج والوفيات) في بلدات ومدن في بلاد جبيل والبترون تُعتبر الأكثر تعرضًا للمأساة ونتائجها، ويُستكمل المشهد بنصوص كتبها أصحاب مذكرات ورواة ومؤرخون عن مشاهداتهم وتاريخ قراهم وبلداتهم ومدنهم.

على المستوى المنهجي، جرى تحويل قيود الوفيات خلال الحرب إلى جداول بحسب الشهور والسنوات (1914-1918)، لتحليلها من منظور بداية المأساة ونهايتها، ومشاهدة منحنيات الموت صعودًا وهبوطًا بحسب الشهور، وتحليل أعمار الوفيات وأجناسهم وخلفياتهم الاجتماعية والاقتصادية، وأسباب الموت جوعًا أو مرضًا، وقراءة السلوك الجنساني والإنساني خلال هذه الفترة المريعة، والاستفادة من بعض التدوينات والملاحظات الإضافية لمعرفة أماكن الموت والدفن، واستنتاج تصورات الناس عن المدى الجغرافي والمراكز المدينية التي فتشوا فيها عن الغذاء.

أما المسار المنهجي الثاني فهو استكمال للمشهد عبر لوحات رسمها رواة ومؤرخون لواقع المأساة في قراهم وبلداتهم ومدنهم ومناطقهم، وهو مسار يمكن أن يتوسع ليشمل بعض الأدبيات الصادرة في هذا الميدان، بما يسمح برسم مشهدية شاملة، والمقارنة بين حالات متنوعة.

هكذا، يبدو المنهج مزيجًا من «دراسات حالة» ترتكز على التحليل الكمي لأعداد الوفيات في سياق زمني دقيق، وإعادة قراءة لنصوص وصفية وتفسيرية، في شأن أبرز الموضوعات، مثل تأثير السياسات العثمانية والدولية والمحلية والجراد والعوامل البيئية الأخرى، مثل الهزات الأرضية وقطع الغابات وتأثير الطقس في المواسم والأوبئة والأمراض وانهيار العملة والقدرات الشرائية والغلاء الفاحش والقروض المستحيلة وعمليات بيع أثاث المنازل والأراضي أو رهنها، ومشهد المجاعة والموت والدفن والسلوك الإنساني منه أو الإجرامي.

لكن هل نستعيد وفق هذا المنهج تاريخًا سرديًا؟ إنها استعادة هادفة في اتجاه صوغ نظرية وتاريخ مفاهيمي، حيث تتأكد العلاقة بين التاريخ المحلي والإقليمي

والدولي، ويتبادل السرد التاريخي والسرد الفني أدواتهما في تصوير الواقع، وتحل التعددية السببية محل التفسير الأحادي، وتبرز الحاجة إلى تعاون علوم وحقول معرفية عدة لفهم الإنسان في الزمان في فترة تاريخية استثنائية.

تُعتبر السردية - مُعبَّرًا عنها بدراسات حالة ونصوص وصفية - حلقة ضرورية لبناء «العناصر الجوهرية» للمفهوم العلمي، وهو هنا ثلاثي الأبعاد: الجوع والمرض والموت، ومعرفة مدى انسجامه أو تناقضه مع المفهوم البدهي أو «الحس المشترك» في تفسيره أسباب ما حدث. ولا يمكن هذا المفهوم أن يكون علميًا ومفهومًا إلا في إطار «شبكة مفاهيمية» يهدف هذا البحث إلى بنائها.

أولًا: دراسات الحالة

استثمرت سجلات كنسية عدة[4]، واستُفيد من دراسات أخرى قامت بدورها باستثمار مثل هذه السجلات[5]. تسمح العينات المدروسة باستنتاجات دقيقة

(4) من هذه السجلات دفتر الكتب الخمسة في كنيسة مار إسطفان الرعائية في مدينة البترون، دفتر المتقلين، سجل د.، ص 47-62. ودفتر الكتب الخمسة في كنيسة السيدة الرعائية في عمشيت، دفتر المتنقلين، ص 250-254. ودفتر الكتب الخمسة في بجه (بلاد جبيل)، دفتر المتوفين وقد نشره صقر يوسف صقر: صقر يوسف صقر، تاريخ بجة وأسرها في لبنان وبلدان الاغتراب (بيروت: دار عشتار، 1986)، ص 447-454، ودفتر الكتب الخمسة في كنيسة مار الياس الرعائية - حدتون (بلاد البترون)، كتاب المتنقلين، ص 153-158.

(5) من هذه الدراسات: سيمون عبد المسيح، «المسألة الزراعية ومأساة «حرب الجوع» في متصرفية جبل لبنان (من الفكر الاقتصادي إلى الدراسات المونوغرافية)،» في: لبنان في الحرب العالمية الأولى، جمعه ونسّقه أنطوان القسيس، 2 ج، قسم الدراسات التاريخية. منشورات الجامعة اللبنانية؛ 51 (بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، 2011)؛ شربل داغر، بين السلطان والمقاطعجيين والعوام: الحراك والأفق (بيروت: دار سائر المشرق، 2013)؛ يوحنا عبود، صفحات من تاريخ جاج الاجتماعي والاقتصادي والديني والعائلي، حققها رشيد عبود وجوزف السمراني (بيروت: مطبعة دكاش، 2008)؛ فادي توا، «السكان في بشري: الديموغرافيا التاريخية لبشري من أواسط القرن التاسع عشر حتى مطلع القرن العشرين من خلال بعض سجلات الرعايا،» ورقة قُدمت إلى: أعمال المؤتمر الثاني لتاريخ جبة بشري: (جبة بشري إبان الحكم العثماني)، 1516-1918، سلسلة تاريخ جبة بشري؛ 2 (بشري: لجنة جبران الوطنية، 2003)؛ إدمون بليبل، تقويم بكفيا الكبرى وتاريخ أسرها (بكفيا: مطبعة العرائس، 1935)؛ بطرس حبيقة، تاريخ بسكنتا وأسرها (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1946)؛ شكر الله شوفاني، تاريخ رميش (رميش: دير سيدة البشارة، 1996)، و May Davie, «Histoire démographique des grecs-orthodoxes de Beyrouth (1870-1939)» (Mémoire de maîtrise, Beyrouth, Université Saint-Joseph, 1987).

جدًا، إن لجهة تحليل جداول الوفيات داخل كل بلدة ومدينة، أو لجهة المقارنات في ما بينها، أي العمل على المتغيرات المتعلقة بالموقع الجغرافي وسماته الطبيعية وبيئته الزراعية والإيكولوجية، أو التمييز بين المدينة والريف، أو بين المراكز الإدارية والتجارية والمالية من جهة والقرى والبلدات التي تعتبر الزراعة فيها النشاط الاقتصادي الغالب من جهة أخرى، إضافة إلى متغيرات أخرى مثل الطبقات الاجتماعية والعمر والجنس.

نعرض أولًا نتائج التحليلات الأولية لتحويل قيود دفاتر الوفيات إلى جداول بحسب الشهور والسنوات، وتلك التي تتناول المتغيرات الاجتماعية الأخرى.

1- الوفيات في السجلات الكنسية

بلغ عدد الوفيات المسجلين في دفتر المنتقلين الخاص برعية مار إسطفان المارونية في مدينة البترون خلال سنوات الحرب 458 وفاة، ما نسبته 12 في المئة تقريبًا من السكان الموارنة في المدينة (الذين يشكلون قرابة 75 في المئة من عدد سكان المدينة)، وهذا مثبت في الجدول (2-1):

الجدول (2-1)

الموت في مدينة البترون بحسب الشهور والأعوام خلال الحرب العالمية الأولى (1914-1918)

	1914	1915	1916	1917	1918	المجموع
كانون الثاني/ يناير	3	4	4	31	13	55
شباط/ فبراير	4	2	5	25	9	45
آذار/ مارس	3	4	4	47	17	75
نيسان/ أبريل	4	2	4	22	7	39
أيار/ مايو	4	6	23	18	16	67
حزيران/ يونيو	3	1	8	11		23
تموز/ يوليو	4	4	12	7		27

يتبع

تابع

آب/ أغسطس	1	2	7	13		23
أيلول/ سبتمبر	2	3	3	11		19
تشرين الأول/ أكتوبر	-	1	12	7		20
تشرين الثاني/ نوفمبر	3	2	13	8		26
كانون الأول/ ديسمبر	6	3	21	9		39
المجموع بحسب الأعوام	37	34	116	209	62	458
النسبة المئوية	8.07	7.42	25.32	45.63	13.53	100

المصدر: دفتر الكتب الخمسة في كنيسة مار إسطفان الرعائية في مدينة البترون، دفتر المنتقلين، سجل د.، ص 47-62.

أما في بلدة عمشيت الساحلية الجبيلية، فبلغ مجموع وفيات الحرب 141 نسمة، ما نسبته 12.97 في المئة إلى عدد السكان المقيمين[6]، كما هو مبين في الجدول (2-2):

الجدول (2-2)

الموت في بلدة عمشيت - بلاد جبيل بحسب الشهور والأعوام خلال الحرب العالمية الأولى (1914-1918)

	1914	1915	1916	1917	1918	المجموع
كانون الثاني/ يناير			1	7	6	14
شباط/ فبراير			2	10	2	14
آذار/ مارس			16	6	8	30
نيسان/ أبريل		2	6	4	3	15

يتبع

(6) بلغ عدد سكان عمشيت في عام 1912، 1644 نسمة، منهم 557 مهاجرًا، وبحسب إحصاء 1922 بلغ عدد السكان 1647 نسمة موزعين بين 944 مقيمًا و703 مهاجرين. انظر: E. Kallab, «Étude humaine et économique du village d'Amchit» (Thèse de certificat d'aptitude professionnelle à l'enseignement secondaire [C.A.P.E.S.], Faculté de pédagogie - Université libanaise, [s. d.]).

تابع

أيار/ مايو			7	5	-	12
حزيران/ يونيو			11	6	-	17
تموز/ يوليو	1	2	2	4	1	10
آب/ أغسطس	1		5	2	-	8
أيلول/ سبتمبر	1		4	2	1	8
تشرين الأول/ أكتوبر			7	1	-	8
تشرين الثاني/ نوفمبر			2	-	-	2
كانون الأول/ ديسمبر		2	8	3	-	13
المجموع بحسب الأعوام	3	6	71	50	21	141
النسبة المئوية	2.12	4.25	50.35	35.46	14.89	100

المصدر: دفتر الكتب الخمسة في كنيسة السيدة الرعائية في عمشيت، دفتر المتقلين، ص 250-254.

في بلدة بشري وسط منطقة الجبه في شمال لبنان، «يمكن التحدث - من خلال السجلات المتوافرة - عن رقم يناهز 157 نسمة خسرتهم بشري خلال أربعة أعوام (1916-1919) (بمعدل 39 نسمة تقريبًا في السنة). ويمكن اعتبار هذا العدد متدنيًا مقارنة بالخسائر البشرية التي شهدتها تجمعات أخرى أقل عددًا من الناحية السكانية، كما في قرى البترون التي خسر بعضها في الفترة نفسها ما يزيد على 300 نسمة. والأرجح أن الثروة المائية التي تميّز منطقة بشري، والتي هي عماد الإنتاج الزراعي الأساسي، ساهمت في التخفيف من حدة الأزمة»[7].

أما في بيروت، وتحديدًا عند طائفة الروم الأرثوذكس التي تعتبر بشكل عام على جانب من اليُسر، فبلغ عدد الوفيات 1043 نسمة، أي ما نسبته 2.37 في المئة من عدد أفراد هذه الطائفة في بيروت (44 ألف نسمة تقريبًا) عشية الحرب[8].

(7) تو، ص 272.

(8) Davie, «Histoire démographique».

الجدول (2-3)

الجدول الشهري للعمادات والوفيات عند طائفة الروم الأرثوذكس في بيروت خلال الحرب العالمية الأولى (1914-1918)

	1914		1915		1916		1917		1918		المجموع
	عماد	وفاة	عماد	وفاة	عماد	وفاة	عماد	وفاة	عماد	وفاة	وفاة
كانون الثاني/ يناير	87	27	60	12	47	19	10	50	12	2	110
شباط/ فبراير	16	19	9	8	6	29	8	61	4		117
آذار/ مارس	19	15	7	9	6	15	6	79	-		118
نيسان/ أبريل	23	25	6	13	14	-	8	44	4		82
أيار/ مايو	35	14	26	6	18	-	4	44	4		64
حزيران/ يونيو	31	20	8	13	4	-	5	13	13		46
تموز/ يوليو	22	9	28	19	1	8	6	18	10		54
آب/ أغسطس	21	20	19	14	5	31	1	8	2		73
أيلول/ سبتمبر	9	6	14	23	1	35	7	13	3		77
تشرين الأول/ أكتوبر	8	14	15	13	12	40	22	31	6		98
تشرين الثاني/ نوفمبر	14	17	16	15	6	46	3	25	3		103
كانون الأول/ ديسمبر	8	22	5	19	3	13	1	59	2		113
المجموع		228		177		236		445		2	1086

المصدر: May Davie, و«Histoire démographique des grecs-orthodoxes de Beyrouth (1870-1939)» (Mémoire de maîtrise, Beyrouth, Université Saint-Joseph, 1987), p. 86.

في بسكنتا، أعالي منطقة المتن في جبل لبنان، يعطي حبيقة المعطيات الآتية: «قلنا إن الكثيرين في بسكنتا قد سطا عليهم الجوع فأماتهم، وقد نظمنا جدولًا بأسمائهم وأسماء الذين ماتوا بالأمراض السارية بقدر ما اتصلت إليه معرفتنا آنئذ، وأثبتناها في سجل كنيسة القديس يوسف في بسكنتا وهو محفوظ فيها تذكرة

وعبرة. ومن مراجعته عرفنا أن الذين ماتوا جوعًا في بسكنتا بلغ عددهم منذ 1916 إلى نهاية الحرب مائة وخمسين شخصًا بالتقريب؛ كانت تُرمى أجسامهم قبل أن يموتوا فيدفن الذين يموتون منهم في البلدة ضمن المدافن. أما الذين قضوا في الحقول فكانوا يدفنون هناك»[9].

لا يشكل هذا العدد القليل نسبيًا في بسكنتا إلا نسبة مئوية ضئيلة من عدد السكان الإجمالي. أما بليبل في «تقويمه» لبلدته بكفيا، فلم يذكر رقمًا معينًا لوفيات الحرب في هذه البلدة الغنية، ما يضمر عدم تعرضها بقوة لتأثيرات المجاعة والأمراض[10].

أما في القرى والبلدات الريفية من جبيل والبترون، فيبدو المشهد أكثر مأساوية. ففي قرية حدتون من بلاد البترون، بلغ عدد الوفيات 186 شخصًا من عدد السكان البالغ 400 نسمة، أي ما نسبته 58 في المئة من المقيمين (و47 في المئة من مجمل السكان)[11]. وفي بلدة جاج في بلاد جبيل، بلغ عدد الوفيات 306 وفيات، ما نسبته ثلث عدد السكان.

الجدول (2-4)
الوفيات في حدتون - بلاد البترون
خلال الحرب العالمية الأولى (1914-1918)

	1914	1915	1916	1917	1918	المجموع
كانون الثاني/ يناير		2	2	1	1	6
شباط/ فبراير			3	6	2	11
آذار/ مارس			11	18	4	33
نيسان/ أبريل			17	14	6	37

يتبع

(9) حبيقة، ص 31.

(10) يستنتج من رواية: عواد، الرغيف، التي تدور حوادثها في محيط بكفيا (بحرصاف وساقية المسك)، أن في «ضاحية» بكفيا يعلو قصر أحد كبار المتمولين الذين أقرضوا المال بفوائد عالية في مقابل رهن الملكيات العقارية، ما يعزز نظريتنا في شأن المراكز المدينية الريفية ودورها خلال الحرب، وهذا ما سنعرضه في سياق البحث.

(11) عبد المسيح، «المسألة الزراعية،» ص 541.

تابع

أيار/ مايو			14	9	8	31
حزيران/ يونيو			8	6	0	14
تموز/ يوليو		1	6	0	0	7
آب/ أغسطس			12	1	0	13
أيلول/ سبتمبر			12	0	0	12
تشرين الأول/ أكتوبر			6	1	3	12
تشرين الثاني/ نوفمبر	2		6	0	0	6
كانون الأول/ ديسمبر			3	1	0	4
المجموع	2	3	100	57	24	186

المصدر: دفتر الكتب الخمسة، رعية حدتون، دفتر المنتقلين، ص 153-158.

أما في العاقورة (جرد بلاد جبيل)، فيصف المونسنيور لويس الهاشم المشهد في عام 1916 بالآتي: «وما أقبل أيار [مايو] حتى تراكض الجياع إلى السهول ثم رجعوا فتهافتوا على أكل القضامة والفريك فلم تقو تلك الأجسام على هضم الأطعمة الضخمة فتسلطت عليها الأوبئة بأصنافها كالدوسنطاريا والجدري والكوليرا والحميات بأنواعها والإسهال، فكثر الموت حتى كنا نصلي يوميًا على ثلاث أو أربع جنازات، وكثيرًا ما كان الكهنة ينقلون الموتى إلى مدافنهم، فامتلأت دور الكنائس والمقابر. وقد مات في صيف تلك السنة نحو من مايتين وخمسين شخصًا لكن أكثرهم شيوخ وأطفال ونساء»[12]. لكن الهاشم لم يذكر العدد الإجمالي للوفيات طوال سنوات الحرب.

في بلدة بجه (وسط بلاد جبيل)، توفي أكثر من 372 شخصًا خلال أعوام الحرب، كما يبين الجدول (2-5)، أي قرابة ثلث عدد السكان. وتعكس صورة الخراب التي التقطها الأب ديلور للبلدة في عشرينيات القرن الماضي هذه المأساة المريعة[13]، فتظهر في هذه الصورة البيوت والأحياء الخربة بسبب موت ساكنيها

(12) لويس الهاشم، تاريخ العاقورة، 4 ج في 1 (بيت شباب: مطبعة العلم، 1930)، ص 141-142.

(13) تظهر آثار الجوع بوضوح في الصور الفوتوغرافية التي أخذها الأب ديلور اليسوعي للقرى المدمرة والمنازل المتروكة والخربة، حيث إن كاتالوغ الصور هذا يسمح بتفسير واقع لبنان الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والهندسي في فترة معينة، ويقدم معطيات جوهرية لفهم أفضل للماضي اللبناني. انظر:
= *Les «Petites écoles» du Mont-Liban: Joseph Delore, s.j. (1873-1944)*, Sous la dir. de Lévon Nordiguian;

(لأن البيوت في تلك المرحلة كانت مسقوفة بالأخشاب والأتربة التي كانت بحاجة إلى عمليات حدل مستمرة خلال الشتاء، وإلا تعرضت للسقوط مقدمة لانهيار جدرانها). أما في بلدة حاقل فاتخذت المأساة بُعدًا يشبه الإبادة الجماعية، بنسبة موت تجاوزت 80 في المئة من عدد السكان[14].

الجدول (2-5)
الموت في بلدة بجه (بلاد جبيل) بحسب الشهور والأعوام خلال الحرب العالمية الأولى (1914-1918)

	1914	1915	1916	1917	1918	المجموع
كانون الثاني/ يناير	0	0	0	15	6	21
شباط/ فبراير	0	0	1	37	11	49
آذار/ مارس	2	1	5	40	16	64
نيسان/ أبريل	2	1	23	20	13	59

يتبع

= Préface par Raoul et Christine Assaf (Beyrouth: Presses de l'université Saint-Joseph, 2003), p. 11.

لكن تبقى مسألة تفسير الصورة، كما في الأركيولوجيا، خاضعة لوجهات النظر المتعددة. فهذه الصور هي بالتأكيد لخدمة الرسالة، ألا وهي تمويل شبكة من المدارس الصغيرة التي افتتحها، باستخدام الصورة الفوتوغرافية بطريقة منهجية، متوجهًا بها إلى عمال الخير ممن يدعمونه، كاتبًا بيده على خلفية الصورة: «كنيسة القرية الصغيرة»، «مدرسة القرية الفقيرة»، وبتعليقات أقوى أحيانًا على الصور التي أخذت للقرى الخربة بعد موت أهلها جوعًا ومرضًا خلال الحرب الكونية الأولى: «في لبنان مات ثلث السكان جوعًا خلال الحرب. هناك بعض القرى خصوصًا في الجبل، مات أكثر من ثلثها. من هذه القرى «بجه» حيث افتتحتُ مدرستان قبل الحرب، حين كان عدد السكان قرابة 1000 نسمة، لم يبق منهم إلا 500: انظر بيوتهم الخربة». ويُحذر كاتب الصورة الفوتوغرافية في خدمة الرسالة من تعميم هذه الصور حيث نصف المنازل مدمرة، على قرى أخرى، لأن هذه الصور قد أخذت بوعي محدد. كتب الأب Louis Jalabert، وهو أيضًا مصور فوتوغرافي جيد، ومن أجل دعم الأب Delore من الجمعيات الخيرية، داعيًا إياه إلى التقاط صور أكثر جاذبية: «بالنسبة للصور، أترك هذه «اللوحات السوداء» تتكلم مع «شكرًا»... المطلوب هو صور لرؤوس مجموعات صغيرة ملتقطة عن قرب، تجذب الانتباه وليست اعتباطية». أثبتها: Lévon Nordiguian, «Le Photographe au service d'un apostolate,» dans: *Les «Petites écoles»*, pp. 39-46. ويقول «نورديغيان» في مقالته إن صور الجماعات والمشاهد تشكل مصدرًا توثيقيًا لا يقارن لتطور المشهد في جبل لبنان، وأن الأب «ديلور» يحتل مكانة مميزة في تاريخ التصوير الفوتوغرافي، بمعنى أن نظرته ليست «إكزوتيكية» كالمصورين الأجانب، إنما هي نظرة إنسان يعرف المشاهد والأشخاص موضوع الصورة».

(14) انظر: سيمون عبد المسيح، طواحين الرأسمالية: حالة حاقل (عمشيت: المركز الإقليمي للتوثيق والدراسات التاريخية والسياسية والتربوية، 2014)، ص 30.

تابع

أيار/ مايو	0	1	8	40	8	57
حزيران/ يونيو	0	0	10	12	3	25
تموز/ يوليو	0	0	17	6	0	23
آب/ أغسطس	1	0	13	2	0	16
أيلول/ سبتمبر	0	1	10	2	0	13
تشرين الأول/ أكتوبر	0	0	10	2	0	12
تشرين الثاني/ نوفمبر	0	0	10	1	2	13
كانون الأول/ ديسمبر	0	0	10	6=✽4+2	14=✽13+1	30
المجموع بحسب الأعوام	5	4	107	183	73	372
النسبة المئوية	1.34	1.07	28.76	49.19	19.62	100

المصدر: دفتر الكتب الخمسة في بجة، دفتر المتوفين، نشره صقر يوسف صقر: صقر يوسف صقر، تاريخ بجة وأسرها في لبنان وبلدان الاغتراب (بيروت: دار عشتار، 1986)، ص 447-454.

سُجّلت هذه الوفيات في نهاية قيود عام 1917 وفي عام 1918 باعتبار أن الوفاة حصلت بعيدًا عن البلدة واستُدرك تسجيلهم بعد وصول أخبار موتهم في هذين العامين.

أما في رميش - على الحدود اللبنانية الفلسطينية الحالية - وكانت تابعة لولاية بيروت، فيتوقف أحد الباحثين عند إشكالية عدد المتوفين في بلدته، حيث يتبيّن من قيود سجل الوفيات في كنيسة مارجرجس أن عدد الوفيات هو ثمانون نسمة، في حين أن مطالعة المطران عبد الله الخوري تفيد بأن عدد المتوفين لا يقل عن 300 شخص، مطالبًا خادمي الرعية بقيد المتوفين منذ أول شباط/ فبراير 1914 إلى نهاية عام 1920 بكل دقة. وبحسب إحصاء الخوري جريس العلم يتبيّن أن ثلثي الناس توفوا في رميش، حيث كان عدد السكان في عام 1906 نحو 860 نسمة وأصبح بعد نهاية الحرب 324 نسمة[15]. ويثبت الأب شوفاني لائحة بأسماء المتوفين بسبب الأوبئة خلال عامي 1915-1916، كما وردت في سجل الوفيات الموجود في كنيسة مارجرجس - رميش.

(15) شوفاني، ص 97.

2- تحليل وفيات الحرب بحسب الزمن

متى بدأت مأساة الموت؟ وما هي الأعوام الأكثر قساوة؟ وفي أي شهر وفصل من السنة كان عدد الوفيات أعلى؟

في تحليل جدول الوفيات في مدينة البترون بحسب الشهور والأعوام خلال الحرب الكونية الأولى (1914-1918)، يتبين من خلال الجدول (2-1) أن عام 1917 شهد النسبة الأعلى من وفيات المدينة خلال أعوام الحرب، بلغت 45.63 في المئة من عدد الوفيات الإجمالي. لكن مؤشرات المجاعة والموت بدأت في عام 1916، حين توفي 116 شخصًا، بنسبة 25.32 في المئة. هذا يعني أن المأساة حدثت فعلًا خلال هذين العامين، توفي خلالهما 325 شخصًا من أصل 458، بنسبة 70.95 في المئة.

ماتت النسبة الكبيرة من الناس خلال الشتاء والربيع، وتحديدًا بين كانون الأول/ ديسمبر وأيار/ مايو، فبلغ عدد المتوفين خلالهما في أعوام الحرب 320 شخصًا، ما نسبته 69.86 في المئة.

كما في حالات أخرى تمت دراستها، يعتبر أيار/ مايو 1916 (الشهر الذي عُلقت فيه المشانق في ساحة البرج وسط بيروت) تاريخ بداية الكارثة السكانية التي حلت بجبل لبنان، وتحديدًا في الحيز الجغرافي للحالات المدروسة. فحتى هذا الشهر، كان عدد الوفيات عاديًا يُدرج في إطار الوفيات الطبيعية، وتراوح عدد الوفيات شهريًا بين وفاة واحدة و6 وفيات. وفجأة ارتفع العدد إلى 23 وفاةً في أيار/ مايو 1916، لكنه عاد وانخفض إلى بين 3 و13 حالة وفاة خلال الشهور التالية، ليرتفع مجددًا خلال كانون الأول/ ديسمبر إلى 21 وفاة، واستمر ارتفاعه في الشهور الأولى من عام 1917 ليصل إلى ذروته في آذار/ مارس الذي سجل 47 وفاة. فالمأساة الفعلية حدثت إذًا بين أيار/ مايو 1916 وأيار/ مايو 1917.

في تحليل جدول المتوفين في بلدة عمشيت بحسب الشهور والأعوام خلال الحرب الكونية الأولى (1914-1918)، نتبين من خلال الجدول (2-2) أن الوفيات الناتجة من المجاعة بدأت في آذار/ مارس 1916، فمات في هذا العام 71 شخصًا، ما نسبته 50.35 في المئة من عدد الوفيات الإجمالي خلال الحرب.

أما النصف الثاني من الوفيات فتوزع بين 50 شخصًا في عام 1917 (35.46 في المئة)، و21 شخصًا في عام 1918 (14.89 في المئة). وتوزعت وفيات الحرب في عمشيت بحسب الشهور على الشكل الآتي: 115 وفاة بين كانون الأول/ ديسمبر وحزيران/ يونيو (81.56 في المئة)، أي خلال فصلي الشتاء والربيع، في حين توزعت النسبة الباقية على فصلي الصيف والخريف.

في تحليل جدول المتوفين عند طائفة الروم الأرثوذكس في بيروت، نجد أن دفتر الوفيات يعاني ثغرتين مهمتين في تسجيل الوفيات: **الأولى** هي النقص الذي يعتري قيد الوفيات في ربيع (نيسان/ أبريل وأيار/ مايو وحزيران/ يونيو) 1916، وهي الشهور التي عرفت نسبة موت مرتفعة في عيّنات أخرى؛ وثانية كبيرة جدًا في عام 1918، حين لم تُسجل إلا حالتا وفاة في بداية العام. وبسبب هاتين الثغرتين، لا يمكن تحديد العام الأكثر قسوة في بيروت، أهو عام 1916 بنسبة وفيات 20.81 في المئة وفق المعطيات المتوافرة التي يعتريها النقص، أم عام 1917 بنسبة وفيات 40.97 في المئة حيث يبدو القيد متسلسلًا وشاملًا، مع غياب كامل لقيود عام 1918.

كما يتبين من الجدول (2-3) للوفيات بحسب الشهور للأعوام الأربعة في بيروت - على الرغم من ثغرتيه - أن شهور الصيف عرفت وفيات أقل، تراوحت بين 54 و77 حالة، في حين تراوح العدد في الشهور الأخرى بين 98 و118 حالة. أما الشهر الأكثر عددًا في الوفيات فهو أيار/ مايو 1917، الذي شهد حدوث 79 وفاة، ويتفق هذا التوزيع مع العينات الأخرى.

3- تحليل وفيات الحرب بحسب الجغرافيا

هل تسير وتيرة الموت في المناطق الريفية وفق الروزنامة عينها؟ نجد في حدتون، بحسب الجدول (2-4)، أن عدد الوفيات تطور على الشكل الآتي: 100 وفاة في عام 1916 (54.25 في المئة)، و57 وفاة في عام 1917 (30.31 في المئة)، و24 وفاة في عام 1918 (13.29 في المئة). وبذلك، تكون أول أعوام المجاعة التهمت أكثر من نصف ضحاياها. زمنيًا، تبين أن آذار/ مارس ونيسان/ أبريل وأيار/ مايو وحزيران/ يونيو (فصل الربيع) شهدت وفاة 115 شخصًا بين عامي 1916 و1918، أي ما نسبته 61.82 في المئة من عدد الوفيات الإجمالي،

في حين لم يمت في الشتاء إلا 21 شخصًا، وانحسرت الوفيات في صيف وخريف 1917 و1918.

في بلدة بجه ببلاد جبيل، يبين الجدول (2-5) أن الموت حصل في الأعوام 1916 و1917 و1918. وتوزعت الوفيات على الشكل الآتي: 107 وفيات (28.76 في المئة) في عام 1916؛ 183 وفاة (49.19 في المئة) في عام 1917؛ 73 وفاة (19.62 في المئة) في عام 1918. وهكذا التهم عام 1917 قرابة نصف موتى الحرب في بجه الجبيلية. في قرى وبلدات أخرى في جبيل والبترون، بدأ مسلسل الموت في نيسان/ أبريل 1916 مع 23 وفاة (بارتفاع مفاجئ عن متوسطات الوفيات في الشهور السابقة)، واستمر خلال هذا العام بمتوسط 10 وفيات شهريًا، باستثناء تموز/ يوليو الذي ارتفع فيه عدد الوفيات إلى 17 حالة.

من زاوية توزع الوفيات بحسب الشهور، مات أكثر من 275 شخصًا (ما نسبته 73.92 في المئة من مجمل الوفيات خلال الحرب) في النصف الأول من الأعوام الثلاثة، بين كانون الثاني/ يناير وحزيران/ يونيو، ما يؤكد فرضية أن الجوع نتج من نفاذ المونة وتعطل شبكة التبادل المرتبطة تحديدًا بالقمح وبمواد غذائية أخرى، التي كانت تجري في الشتاء وأوائل الربيع بعد نضوب المخزون المحلي.

لا يعكس الرقم المرتفع نسبيًا في كانون الأول/ ديسمبر للأعوام الثلاثة، وهو 30 وفاة، حقيقة ما حدث فيه، ذلك أنه جرى استدراك قيد وقوعات وفيات حدثت في شهور أخرى في أماكن بعيدة، وسجلت في نهاية عامي 1917 و1918.

من الصعب فهم سبب اختلاف النسبة الأعلى من عدد الوفيات بحسب الأعوام بين عامي 1916 و1917. ففي حدتون وجاج وعمشيت وبشري، سجلت النسبة الأعلى في عام 1916، بينما سجلت النسبة الأعلى في البترون وبجه في عام 1917. أما سبب تركز الوفيات بحسب الشهور بين كانون الثاني/ يناير وحزيران/ يونيو، أي في النصف الأول من العام (هذا التركز ينسحب على العينات المدروسة كلها)، فيعود إلى نضوب مونة الصيف التي لا تخدم أكثر من 3 إلى 4 شهور، وتعطل الآليات الاقتصادية التي كانت أشد نقصًا عبر التبادل التجاري (استخدام المردود المالي لموسم الشرانق في شراء القمح من مدن المرافئ وعبر التجارة البرية، جفاف المردود المالي من جهة والحصار والتدابير الإدارية والعسكرية من جهة ثانية).

4- تحليل وفيات الحرب بحسب الجنس

يتبين من قيود الوفيات في مدينة البترون أن عدد الذكور المتوفين فاق عدد الإناث بنسبة تجاوزت 10 في المئة، فبلغ عددهم 240 ذكرًا بنسبة 55.68 في المئة من عدد المتوفين الإجمالي، وبلغ عدد الإناث 191، بنسبة 44.31 في المئة، كما يبين الجدول (2-6):

الجدول (2-6)

توزع وفيات مدينة البترون خلال الحرب العالمية الأولى بحسب الجنس

	عدد المتوفين الذكور	عدد المتوفين الإناث	المجموع
1914	26	12	38
1915	11	21	32
1916	49	37	86
1917	122	87	209
1918	32	34	66
المجموع	240	191	431
النسبة المئوية	55.68	44.31	100

المصدر: دفتر الكتب الخمسة في كنيسة مار إسطفان الرعائية في مدينة البترون، دفتر المتقلين، سجل د.، ص 47-62.

لتفسير هذا الفرق، نقترح فرضيات عدة، تحتاج كل واحدة منها إلى دراسات بيولوجية وسيكولوجية واجتماعية - اقتصادية وتحقيقات تاريخية. فهل تفوق قدرة الإناث البيولوجية قدرة الذكور عند نقصان الغذاء والوحدات الحرارية؟ أم حظيت النساء بعناية خاصة في بيوتهن بتضحية من الرجال أو المتنفذين والميسورين في مقابل خدمات معلنة ومضمرة؟ أم أن النسبة المرتفعة لموت الذكور نتجت من وجود أعداد كبيرة من الذكور المقيمين في المدينة أو الذين وفدوا إليها في فترة الحرب بحثًا عن عمل وقوت، في حين بقيت عائلاتهم في مواطنها الأصلية؟

لنبدأ من الفرضية الأخيرة، حيث يرتبط الجواب الإيجابي عنها - بمعنى أنها

فرضية صحيحة - بتحليل الخلفية الاجتماعية للمتوفين «المقيمين» (أي القاطنين حديثًا) في المدينة، وبنسبة الذكور والإناث بينهم. فإذا كانت نسبة الفرق بين الذكور والإناث المتوفين أعلى من 10 في المئة، تكون هذه الفئة المهمشة قد أحدثت الفرق المشار إليه، وإلا من الضروري البحث عن الإجابة في الفرضيات الأخرى.

بيّنت دراسة حالات أخرى لوفيات الحرب في قرى ريفية (حيث عامل وجود غرباء فيها شبه غائب) أن النساء أقدر على الصمود في وجه المجاعة والموت من الرجال. هذا لا يعني أنهن لم يمتن، إنما بقيت نسبة موتهن أقل من نسبة موت الرجال. ففي قرية حدتون في بلاد البترون، بلغ عدد وفيات الذكور 99 من أصل 186 وفاة خلال الحرب، ما نسبته 52.65 في المئة، وبلغ عدد وفيات الإناث 89، أي ما نسبته 47.34 في المئة، ما يعني أن تنازع البقاء لم يكن أبدًا لمصلحة الرجال. وربما يُدرج هذا الأمر في سياق الموت الطبيعي في الأعوام العادية، إذ تبيّن أن نسبة النساء اللواتي تجاوزن عمر 71 عامًا بلغ 72.58 في المئة في حدتون (بين الربع الأخير من القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين)، في حين انخفضت النسبة عند الرجال إلى 66.66 في المئة.

تحتاج فرضية العناية الخاصة بالنساء وقدرتهن على تلبية حاجاتهن بأساليب مختلفة إلى قرائن لا تحفظها الوثائق المكتوبة، بقدر ما هي وقائع كانت تحفظها الذاكرة الفردية والجمعية، وطواها النسيان[16].

يلاحظ أن نسبة الوفيات في بشري بين عامي 1916 و1919 هي 58.5 في المئة ذكور و41.4 في المئة إناث. وكذلك في بجه، يتبيّن من الجدول (2-7) أن عدد الذكور المتوفين هو أكبر من عدد النساء المتوفيات خلال الحرب، بنسبة 51.07 في المئة للذكور و48.92 في المئة للإناث.

---

(16) لا يخلو نص أنطون يمين من تلميحات وتصريحات في شأن دور النساء في شأن الاستحصال على قسائم خاصة أو تصاريح من الوالي التركي للحصول على إعاشة، وذلك بالطبع لقاء خدمات جنسية: Antoine Yammine, *Quatre ans de Misère: Le Liban et la Syrie pendant la guerre* (Le Caire: Imprimerie Emin Hindie, 1922). كما تتضمن رواية عواد، الرغيف، المشار إليها سابقًا مثل هذه الإشارات عن رغبة الضباط الأتراك في استغلال موقعهم.

الجدول (2-7)

توزع وفيات بلدة بجه خلال الحرب العالمية الأولى بحسب الجنس

	المتوفون الذكور	المتوفيات الإناث	العدد الإجمالي
1914	4	1	5
1915	4	0	4
1916	63	44	107
1917	91	92	183
1918	28	45	73
المجموع	190	182	372
النسبة المئوية	51.07	48.92	100

المصدر: دفتر الكتب الخمسة في بجه، دفتر المتوفين، نشره صقر يوسف صقر: صقر، ص 447-454.

5- تحليل وفيات الحرب بحسب الفئات العمرية

يقدم دفتر «المنتقلين» في مدينة البترون معطيات استثنائية تتعلق بأعمار المتوفين، لا تتوافر في عدد من السجلات الكنسية الأخرى، إذ ألزم الدفتر المطبوع الكهنة تحديد عمر المتوفى الذي نال «المشحة» الأخيرة عن يدهم. وعلى الرغم من أن تقديرات الكهنة لأعمار المتوفين لم تكن دقيقة تمامًا، وهم في الأغلب يستخدمون كلمة «نحو»، أي يقدرون تقريبيًا عمر المتوفى، فإن هذه التقديرات لا تُخلّ كثيرًا بعملية تصنيف الأعمار بحسب الفئات الواردة في الجدول (2-8).

الجدول (2-8)

أعمار المتوفين في مدينة البترون خلال الحرب العالمية الأولى

	الفئات العمرية						المجموع
	5-0	18-6	45-19	60-46	80-61	00-81	
1914		2	11	4	15	5	37
1915		2	8	7	11	2	30
1916	4	3	21	23	29	8	88

يتبع

تابع

1917	5	26	54	58	53	11	207
1918		3	15	20	25	3	66
المجموع	9	36	109	112	133	29	428
النسبة المئوية	2.10	8.41	25.46	26.16	31.07	6.77	100

المصدر: دفتر الكتب الخمسة في كنيسة مار إسطفان الرعائية في مدينة البترون، دفتر المنتقلين، سجل د.، ص 47-62.

يلاحظ أن موت الأطفال تراجع في عامي 1914 و1915، والسبب انعدام الحمل والولادات أساسًا خلال الحرب، لأسباب بيولوجية ونفسية مركبة. في عامي 1914 و1915، توزّعت نسب الموت بحسب الفئات العمرية على ما يبيّنه الجدول (2-9):

الجدول (2-9)

نسب الموت بحسب الفئات العمرية في عامي 1914 و1915

	الفئة العمرية						المجموع
	5-0	18-6	45-19	60-46	80-61	00-81	
1915-1914	0	4	19	11	26	7	67
النسبة المئوية	0	5.97	28.35	16.41	16.41	38.80	100

كما توزعت نسب الموت بحسب الفئات العمرية في عامي 1916 و1917 بحسب الجدول (2-10) أدناه:

الجدول (2-10)

نسب الموت بحسب الفئات العمرية في عامي 1916 و1917

	الفئة العمرية						المجموع
	5-0	18-6	45-19	60-46	80-61	00-81	
1917-1916	9	29	75	81	82	19	295
النسبة المئوية	3.05	9.83	25.42	27.45	27.79	6.44	100

ارتفعت نسبة الذين ماتوا قبل بلوغهم 18 عامًا من 5.97 في المئة في عامي 1914 و1915 إلى 13 في المئة في عامي 1916 و1917. وارتفع عدد الذين يموتون قبل بلوغهم 45 عامًا من 34.32 في المئة في عامي 1914 و1915 إلى 38.3 في المئة في عامي 1916 و1917. وارتفعت نسبة الذين يموتون قبل سن الستين من 50.73 إلى 66.75 في المئة، ونسبة الذين يموتون بين 61 و80 عامًا من 16.41 في المئة في عامي 1914 و1915 إلى 27.79 في المئة في عامي 1916 و1917.

في المقابل، انخفضت نسبة الذين يعمرون أكثر من 60 عامًا (إلى 80 عامًا) من 38.80 في المئة في عامي 1914 و1915 إلى 27.79 في المئة في عامي 1916 و1917. كما انخفضت نسبة الذين يعمرون أكثر من 81 عامًا من 10.44 إلى 6.44 في المئة للأعوام عينها.

هكذا لا تكون المجاعة (والمرض) سببًا لزيادة أعداد ونسبة الوفيات فحسب، بل هي سبب لزيادة نسبة الذين يموتون في سن مبكرة، مخفضةً نسبة الذين يعمرون ما فوق 60 عامًا بشكل كبير (من 49.24 في المئة في عامي 1914-1915 إلى 34.23 في المئة من عدد الوفيات في عامي 1916-1917).

في خلاصة لهذا التحليل، نجد أن المشكلة/ المأساة لم تعد في خفض عدد الناس في فترة محددة، والقضاء على تراكم ناتج من نمو مستمر منذ عقود عدة (لا بل قرون)، إنما الأخطر أيضًا هو القضاء على شروط النمو الديموغرافي للمستقبل، خصوصًا عندما تموت نسبة كبيرة من الناس من فئة 19-45 عامًا، أي الفئة المؤهلة للخصوبة والإنجاب. وإذا أضفنا إلى هذا الأمر توقف الولادات بشكل كامل خلال الحرب، بسبب توقف وظيفة الخصوبة عند النساء (توقف الدورة الشهرية وصعوبة استعادتها) وعند الرجال، فهذا يعني عقم مجتمع بأكمله، وزيادة حجم الثغرة الديموغرافية وصعوبة ردمها. وهذا ما بدا واضحًا في التاريخ الديموغرافي لمناطق عدة في جبل لبنان خلال القرن العشرين.

في بشري، يبدو أثر مأساة الجوع في البنية الديموغرافية وأفقها المستقبلي أكثر تفاؤلًا، حيث يستنتج أحد الباحثين عند تحليله معدل أعمار الوفيات أن أغلبية

ضحايا الحرب كانت من الشيوخ. والواقع أن أكثر ما يلفت قارئ سجل الوفيات (مار سابا) هو غياب تام لوفيات الأطفال وندرة وفيات الشباب. نستنتج من ذلك أن تأثير الحرب العالمية الأولى في القاعدة السكانية في بشري كان طفيفًا على ما يبدو، ولعلها من المدن القليلة في جبل لبنان الذي لم يطلها شبح الموت الذي حصد المئات من الأطفال والشبان في المناطق المجاورة لها. وفي استنتاج أخير، «وعلى الرغم من ارتفاع عدد الوفيات بشكل ملحوظ خلال الحرب (179 في المئة) يبدو أن بشري كانت من أقل المناطق تأثرًا بويلات هذه الحرب، ساعدتها في ذلك بلا ريب بيئة جغرافية محصنة هيدرولوجيًا. ففي حين تحفل السجلات الرعوية في المناطق الأخرى المجاورة بأخبار الجوع والموت والأوبئة التي حصدت المئات من الأطفال والشيوخ، ليس هناك في سجلات بشري (المتوافرة) ما يشير إلى تعرضها لمثل هذه المآسي. إن الأغلبية الساحقة من وفيات الحرب كانت بين الكهول، وهذا يعني أن البنية الأساس للسكان بقيت سليمة وبمنأى عن ويلات الحرب»[17].

6- تحليل وفيات الحرب الأولى بحسب الشرائح الاجتماعية

في مدينة البترون، يتبيّن من الجدول (2-11) أدناه أن أكثر من 140 حالة وفاة (32.71 في المئة من عدد الوفيات) تنتمي إلى قرى بلادي جبيل والبترون خصوصًا، ومن قرى وبلدات من خارجهما. اعتُبر هؤلاء المتوفون «مقيمين» في المدينة، أي لم تمر على إقامتهم فترة طويلة، وهم بالتأكيد الجيل الأول الذي وفد بعضهم مع عائلته. يؤشر وجود هذه الأعداد الكبيرة من الريفيين وغيرهم إلى دور استقطابي مهم لمدينة البترون في تلك الفترة، استوطنت فيها على سبيل المثال عائلة حلبية أو أكثر، ونُسبوا إلى مدينتهم، وبعضهم من عائلة الصائغ تيمّنًا بمهنتهم، لكن توفي منهم 6 أشخاص في خلال الحرب. ونُصّر علوي وسمّي حنا وانتسب إلى أخوية قلب يسوع، إلا أنه سقط عن عامود السرايا ومات في 19 أيار/ مايو 1914.

(17) تواء ص 273 و275.

الجدول (2-11)

وفاة «المقيمين» (القاطنين حديثًا) في مدينة البترون خلال الحرب العالمية الأولى

قرى بلاد جبيل	عدد المتوفين	قرى بلاد البترون	عدد المتوفين	مناطق أخرى	عدد المتوفين
جاج	10	كور	4	جبال العلويين	1
بجه	2	كوبا	1	مختلف	6
فغال	1	بجدرفل	2	روسيا	1
مشمش	1	عبرين	29	قنات	1
حصرايل	2	كفيفان	2	دير القمر	2
هابيل	1	بسبينا	2	بعبدا	1
إهمج	2	صغار	1	حصرون	1
غلبون	1	كفرخلوص	2	جونيه	2
سقي لحفد	2	تنورين	8	غزير	1
جبيل	1	عبداللي	7	حلب	1
كفركده	1	شبطين	11	دار بعشتار	1
حاقل	1	سمار جبيل	2	رشعين	1
شامات	1	راشانا	1	حدث الجبه	1
عين كفاع	1	كفرحي	2	غوسطا	1
حلتا	1	كفرعبيدا	1	جبيل	1
كفرحتنا	1	تولا	1	رام	1
نيحا	1	تحوم	1	إجدبرا	1
كفور العربه	2	إده	2	سلعاته	3
		جران	1	ضهر بو ياغي	1
المجموع	32		80		28
المجموع الكلي			140		

المصدر: دفتر الكتب الخمسة في كنيسة مار إسطفان الرعائية في مدينة البترون، دفتر المنتقلين، سجل د.، ص 47-62.

قامت المدينة في الأساس، منذ نهاية القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر، على عائلات وفدت إليها من ثلاثة مصادر أساس: قرى بلادي جبيل والبترون وكسروان ومناطق شمالية، خصوصًا رشعين وعكار. استمرت تلك العائلات تحمل اسم قراها مثل الشموتي والشاماتي والبجاني والغلبوني والفغالي والحاقلاني والجاجي والشبطيني والتولاوي والعبريني والحلتاوي والتحومي والمزرعاني والشننعيري والغزيري والزوقي والرشعيني والطرابلسي والعكاري والحلبي، لكن هذه العائلات وغيرها من العائلات الأصلية في المدينة كانت تملكت الأراضي الزراعية والمسقفات (دكاكين، مخازن، مقاهي، خانات، أفران، طواحين...)، وتؤمن مردودًا ماليًا من مصادر مختلفة، زراعية مثل تربية دودة القز واستثمار المنطقة السهلية المحازية لنهر الجوز في زراعات مختلفة، إضافة إلى مردود القمح والزيتون، ومن المصادر الأخرى كالتجار والخدمات. وشكل البحر مصدرًا مهمًا لعدد كبير من بحارة المدينة وصياديها، ليس على مستوى التجارة البحرية والمساحلة ونقل السلع والبضائع عبر المرفأ فحسب، بل من خلال استخراج الإسفنج الذي كان يؤمن مردودًا مرتفعًا لعدد من العائلات.

هناك أيضًا مصدران ماليان مهمان: **الأول**، الوظيفة العامة في أجهزة المتصرفية العسكرية والقضائية والتعليمية، اعتاش منها عدد كبير من عائلات المدينة؛ والثاني، عائدات المهاجرين من سكان المدينة إلى القارة الأميركية، خصوصًا إلى الولايات المتحدة الأميركية. ويقدر عدد المهاجرين من المدينة بنحو 1500 مهاجر عشية الحرب، شكلت عائداتهم نسبة كبرى من دخول المدينة المالية[18].

كان سكان مدينة البترون الأصليين بشكل عام أكثر أمانًا وقدرة على مواجهة الأزمة الاقتصادية والغذائية، من أولئك الوافدين الجدد الهامشيين والفقراء، وهذا ما يفسر النسبة المرتفعة لعدد الوفيات المنتمية إلى هذه الفئة الاجتماعية، ووفد أفرادها إلى المدينة للعمل بأجور مخفضة، زادت انخفاضًا خلال الحرب.

(18) يذكر Ruppin, p. 22 استنادًا إلى مقابلة أجراها مع رئيس القوميسيون البلدي في البترون أن دخل سكان المدينة يتوزع على الشكل الآتي: الزراعة 60.000 إلى 80.000 فرنك، التجارة 200.000 فرنك، عائدات من أميركا 200.000 فرنك، أي شكلت هذه الأخيرة 43 في المئة من دخل المدينة، وبالتالي فإن أي أزمة اقتصادية في أميركا تؤثر في اقتصاد متصرفية جبل لبنان. استخدمت عائدات المهاجرين في شراء الأراضي وتعمير البيوت الجميلة، وهذا ما أدى إلى ارتفاع أسعار العقارات في جبل لبنان. Arthur Ruppin, La *Syrie als wirtschaftsgebiet*, Traduit par Georges Schaib (Beyrouth: Bibliothèque Orientale, 1916), p. 22.

يبقى أن نعرف من هم فقراء المدينة من سكانها الأصليين والمستوطنين فيها منذ زمن؟ من الضروري أولًا أن نضع جانبًا نسبة مرتفعة من الوفيات التي تنتمي إلى فئة ما فوق 61 عامًا، وهي نسبة تقارب 38 في المئة. عجّلت المجاعة بموت قسم منهم، لكن بينهم أناس ماتوا بشكل طبيعي، وبعضهم ينتمي إلى العائلات الثرية جدًا (مثل أسعد يوسف ضو الذي توفي في 17 أيار/ مايو عن عمر 53 عامًا؛ ورشيد بك قبلان المتوفى في 2 كانون الثاني/ يناير 1917، وأمين توما الفغالي المتوفى عن عمر 55 عامًا في 20 حزيران/ يونيو 1917، وهند بنت ضاهر بك الزعني المتوفاة عن عمر 19 عامًا في 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917) أو المتوسطة الثراء.

لا بد من تحليل الوفيات التي تنتمي إلى الفئات العمرية ما دون 60 عامًا، وهم يشكلون قرابة 30 في المئة بعد طرح الفئة العمرية ما فوق 61 عامًا، والوفيات من خارج سكان المدينة الأصليين. فإلى أي العائلات تنتمي هذه الشريحة الفقيرة من سكان المدينة؟

يبين الجدول (2-12) عدد الوفيات (تحت ستين عامًا) خلال الحرب الأولى في كل عائلة من عائلات المدينة المستوطنة فيها منذ زمن.

الجدول (2-12)

وفيات عائلات مدينة البترون

في الحرب العالمية الأولى

العائلة	عدد الوفيات	العائلة	عدد الوفيات	العائلة	عدد الوفيات	العائلة	عدد الوفيات
يعقوب	2	العكاري	5	بولس	1	الزكره	3
أبي كنعان	3	غصن	5	عبدالله	1	الشاماتي	2
الهاني	2	الشموتي	3	شعيا	1	فتوح	1
ضو	4	الغلبوني	4	سعد	2	بوشبل	1
الحواط	4	الدرزي	2	الخباز	5	التحومي	1

يتبع

تابع

عيسى	3	الشنتعيري	1	بشاره	1	النقار	3
المهوس	1	غالب	1	الطرابلسي	1	بودبسي	1
ديب	1	الأرنوبي	3	جبرين	1	بو أنطون	1
الخوري	2	صهيون	1	بوفياض	1	الطوير	1
سركيس	2	فؤاد	1	الحلبي	2	المليس	2
شبشول	1	الزبيدي	1	بركات	2	البعيني	1
معيجين	1	مبارك	2	نجم	1	خليفه	1
الحكيم	1	قبلان	3	القبو	1	ناصيف	1
باسيل	2	العرم	1	السبع	1	منصور	1
الرشعيني	1	روحانا	1	الزيلع	1	الشلبي	1
الفغالي	2	بوشبل	1	الدالي	2	فياض	1
بو شاهين	1	الدنيس	2	راشد	1	بوعون	1
الكريدي	1	روكز	1	عبود	2	النمرود	1
زخيا	1	مرتينوس	1	الزعني	2	الشبطيني	1
كامل	1	الاكي	2	العجلتوني	1	رستم	1
القرنعوني	1	النسر	2	ليشاع	1	كنعان	1
شويح	1	الجني	2	الغزيري	1	الشدياق	1
البيان	1	مرشاق	2				

المصدر: دفتر الكتب الخمسة في كنيسة مار إسطفان الرعائية في مدينة البترون، دفتر المنتقلين، سجل د.، ص 47-62.

يلاحظ أن سمة البنية الاجتماعية لمدينة البترون مشكّلة من عدد كبير من العائلات الوافدة من أماكن مختلفة، ولهذا يقتصر وجود عائلات كبيرة وموسعة على بعض العائلات قديمة الحضور في المدينة، مثل الخباز وضو وباسيل. ويلاحظ أيضًا، أن عدد الوفيات في كل عائلة موسعة (فروع وبيوت عدة) لم

يتجاوز الخمسة، ونجد هذا الرقم في عائلات كبيرة مثل الخباز وضو والعكاري وغصن والحواط، وهي عائلات قديمة ومتفرعة. أما البيوت الأخرى فتراوحت فيها الوفيات بين وفاة واحدة وثلاث وفيات. يدل ذلك كله على أن البنية العامة للسكان في مدينة البترون لم تصب بالخراب كما حدث في القرى والبلدات الريفية من بلادي جبيل والبترون. فما تفسير ذلك؟

لا يختلف الوضع في عمشيت، حيث يتبين أن الفقراء كانوا الضحية التي وقعت في براثن الجوع وافترسها الموت. ويتبين من القيود أن نسبة كبيرة من المتوفين تنتسب إلى قراهم التي وفدوا منها خلال القرن التاسع عشر للعمل شركاء وأجراء عند «البيوتات الخواجية العمشيتية»، ويبدو أنهم استمروا الفئة الأكثر فقرًا في عمشيت. كما يلاحظ أن الفقراء الموزعين بين كفركخله وعيدمون (أي على أطراف البلدة وفي مزارعها) كانوا هم ضحايا الجوع والمرض، ينتمون إلى القرى الريفية في بلاد جبيل، خصوصًا من حصارات وحصرايل وحاقل ومشمش ولحفد وإهمج وبجه وغلبون والعاقورة، ونزحوا (وقبلهم أجدادهم) إلى عمشيت والمدن الساحلية الأخرى بعد عمليات تنفيذ عقاري اقتلعتهم من أمكنتهم التاريخية.

تؤكد مواقع المدافن التي استقبلت موتى المجاعة واقعة موت الفقراء والهامشيين. فهناك المدفن العمومي للسيدة الذي ترك لوفيات العائلات الأصلية. وتحظى الطبقة الخواجية في عمشيت بامتياز الرجال العظام في «البانتيون»، إذ سجل الخوري وفاة أديب بن يوسف بك لحود بكثير من التأثر والحزن لشبابه وتميّزه بصفات حميدة، ودفن في مدفن عائلته الخاص «بين صعود الزفات وسكب العبرات». والأمر عينه ينسحب على الكهنة، إذ خصصوا بمدفن خاص داخل الكنيسة أو خارجها.

أما المدافن الأخرى فالمخصصة لعائلة بنبينو في عيدمون قرب كنيسة مار روحانا جرن الراس أو داخلها، ومدافن خاصة بعائلة مرعب قرب القديسة برباره في جل الرمانة، ومدافن قرب مار يوحنا الحبيب كفركخله، ومدافن قرب كنيسة جميع القديسين. في كل مدفن مجموعة حُجَر (جمع حجرة) مخصصة كل واحدة منها لعائلة معينة. كما دفن بعض الأشخاص قرب بيوتهم (حالة لوسيا بنت فارس مخايل روحانا من عيدمون)، أو حيث ماتوا بعيدًا عن بلدتهم (حالة صابات

حرمة بشاره مرعي منصور في 16 أيلول/ سبتمبر 1917، حيث توفيت ودُفنت في الحريشه بين طرابلس والبترون).

في العاقورة، لا يخلو نص الهاشم - وهو ينتمي إلى عائلة سياسية عريقة وتملك نسبة كبيرة من الأرض - من بعد طبقي: «ولما هدأت وطأة المرض زال الجوع من العاقورة لأن الكسالى أخذوا يقتاتون من المزارعين. ثم أقبل عليها الناس من كل جانب، فكانت تضم من الجياع في سنوات الحرب الأخيرة نحوًا من أربعماية نسمة غريبة. وكانت الأسعار في تصاعد دائم حتى بلغ رطل القمح سبعين قرشًا ذهبًا في حلب كما قيل»[19].

أما في بسكنتا، فتتأكد العلاقة بين عائدات المهاجرين التي كانت تشكل قبل الحرب مصدرًا رئيسًا لبعض العائلات، وموت هذه العائلات بعد انقطاعها عن مصدر تمويلها خلال الحرب، إذ كتب: «والغريب في الأمر أن الكثيرين ممن ماتوا جوعًا كان لهم وراء البحار من يقدر على مساعدتهم فلم يتمكن من ذلك بسبب قطع المواصلات. فكم من الآباء الذين رجعوا بعد الحرب حاملين ثروات طائلة فلم يجدوا نساءهم ولا بنيهم وبالعكس»[20].

7- أنماط التفسير التي يمكن اعتمادها

من خلال التحليل الكمي والنوعي لعينات متنوعة، يمكن الخلوص إلى استنتاجين ثابتين: أولًا، نسبة الموتى إلى عدد السكان الإجمالي في المراكز المدينية - إدارية أكانت أم اقتصادية، ساحلية أم جبلية - (بشري، البترون، عمشيت، بيروت، بسكنتا، بكفيا...) هي أدنى بكثير منها في القرى والبلدات الريفية، خصوصًا في بلادي جبيل والبترون؛ وثانيًا، كان الفقراء والهامشيون وحديثو الإقامة في المدن أو الوافدون إليها بسبب الجوع هم أول ضحايا المجاعة والمرض، ويشكلون النسبة الأعلى من وفيات الحرب، مضافًا إليهم فقراء الريف، ممن لا يملكون أرضًا تكفي لإعالتهم مع عائلاتهم، وجفّت مصادرهم الناتجة من مزاولتهم عملًا يوميًا أو حرفة صغيرة، وأولئك الذين كانوا ينتظرون أموالًا من المهاجرين.

(19) الهاشم، ص 142.
(20) حبيقة، ص 31.

لماذا كانت نسبة الموت بين سكان المدن أقل منها بين سكان القرى الريفية؟ يتعلق الأمر بتحليل البنية الاجتماعية - الاقتصادية في هذه المدن، وهنا أنموذجان: مدينة البترون وبلدة بشري.

أ- مدينة البترون

انتشرت معلومة غير محققة، أثبتها المؤرخ فيليب حتي في كتابه لبنان في التاريخ، عن مدينة البترون في الأوساط البحثية وعبر كتب التاريخ المدرسي، تقول إن البترون فقدت 60 في المئة من سكانها خلال الحرب العالمية الأولى. وحرفية النص: «يدلك على هول الفاجعة التي ألمّت بلبنان أثناء الحرب العالمية الأولى أن بلدة مثل البترون كان عدد سكانها عند نشوب الحرب 5000 نسمة، فهبط عند انتهائها إلى ألفين»[21]. وبيّنت الإحصاءات والتقديرات والسجلات الكنسية أن هذه المعلومة لا ترتكز على أي مرجعية علمية (والمؤرخ لا يشير إلى مصدرها)، وأنها كانت أقرب إلى الإعلان التضخيمي، أو إلى «الحس المشترك». ولعل مصدر التضخيم نتج من احتساب المهاجرين ضمن وفيات الحرب.

في عام 1913، كان عدد سكان البترون 5000 نسمة (3500 مقيم + 1500 مهاجر)، فأضحى عددهم في عام 1921 نحو 4550 نسمة (3550 مقيمًا+ 1000 مهاجر)[22]، بينما بلغ عدد الوفيات 1200، أي إن عدد سكان المدينة كان 5750

---

(21) فيليب حتي، لبنان في التاريخ: منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، ترجمة أنيس فريحة؛ مراجعة نقولا زيادة (بيروت: دار الثقافة، 1959)، ص 592.

(22) مجموعة إحصاءات وتقديرات نشرها جان نخول: جان نخول، «الديموغرافيا في منطقة البترون من المتصرفية إلى لبنان الكبير (1867-1965)،» ورقة قُدمت إلى: دولة لبنان الكبير (1920-1996): 75 سنة من التاريخ والمنجزات، منشورات الجامعة اللبنانية. قسم الدراسات التاريخية؛ 44 (بيروت: منشورات الجامعة اللبنانية، 1999)، ص 203-245. وأعاد نشر الجدول الإحصائي المفصل لعام 1921 في بحثه: جان نخول، «بلاد البترون في الحرب الأولى: الجراد، الغلاء، المجاعة، الوفيات،» في: لبنان في الحرب، ج 2، ص 795-867. وكذلك يثبت ميشال أبي فاضل في كتابه: ميشال أبي فاضل، إبراهيم بك عقل: وجيه لبناني بارز في السياسة والإدارة والقضاء (البترون: [د. ن.]، 2013)، جدولًا عن نسبة النزف الحاصل من الهجرة والحرب في قضاء البترون، يرتكز فيه على سجل زيارة المطران بطرس الفغالي إلى نيابة البترون البطريركية في عام 1921 (وهو المصدر عينه الذي استند إليه نخول)، حيث بلغ مجموع سكان مدينة البترون 5750 نسمة في عام 1921، موزعين بين 3500 مقيم و1000 مهاجر و1200 وفاة. وهكذا فإن نسبة النزف بين هجرة وموت هي 38 في المئة.

نسمة، وهكذا تكون نسبة الموتى إلى عدد السكان الإجمالي في المدينة (مقيمون ومهاجرون) 20 في المئة، وهي النسبة الأدنى في بلاد البترون.

يبقى السؤال: هل عاد ثلث المهاجرين بعد الحرب فانخفض عددهم من 1500 إلى 1000؟ وما هي مرجعية الرقم 1200 لعدد الوفيات خلال الحرب؟ وما مدى صحة الرقم 5000 في إحصاء عام 1913؟

كانت مدينة البترون من بين المدن الست الأكثر أهمية في متصرفية جبل لبنان (زحله، دير القمر، عاليه، جونيه، جبيل، البترون)، يفوق عدد سكانها 5000 نسمة، وهي مركز قضاء يحتل المرتبة الثانية، بعد قضاء الشوف، مساحة. تضافرت عوامل عدة لتجعل من هذه المدينة مركز استقطاب مهمًا، يتمتع بدينامية عمرانية واجتماعية - اقتصادية وثقافية مهمة. فعلى مستوى شبكة الطرق، رُبطَت المدينة ببيروت (عاصمة الولاية) وببعبدا (عاصمة المتصرفية) عبر الطريق الساحلية (1906-1908)، كما شقت طريق نحو الشمال بمحاذاة قلعة المسيلحة، ثم عبر نفق رأس الشقعة (1909). كما ربطت المدينة بريفها عبر طريقين إلى كفرحي ودريا (1905). وجرى تحسين طرقها الداخلية بأعمال نفذها القوميسيون البلدي. ومن مؤشرات العمران في المدينة مجموعة من البيوت والحارات الفخمة، واستوجب النمو الديموغرافي توسيع كنيستها الرعائية (مار إسطفان 1879-1906) وكنائس أخرى.

تطلب موقعها السياسي، تحت ضغط الحاجات الوظيفية الحكومية وتلبية لحركة شعبية، بناء دار للحكومة، أي سراي (1896-1899) في وسطها، انتقلت إليها الدوائر الحكومية من مبنى قديم في حي البحر. كما أنشئ فيها مركز للتلغراف والبريد منذ بداية تسعينيات القرن التاسع عشر، ومؤسسات صحية من مستوصف (منذ السبعينيات) ومستشفى (1907)، ومدارس حكومية للصبيان والبنات (1873-1874)، ومدارس خاصة بالإرساليات (راهبات القلبين الأقدسين 1889، مار يوسف للإخوة المريميين 1904، راهبات العائلة المقدسة المارونيات 1909، المدرسة البروتستانتية، إضافة إلى مدرسة الوقف).

كان في المدينة مطبعتان (1905 و1910)، وأسست فيها الجمعيات والأندية الثقافية، وصدرت الجرائد والمجلات، وبنيت الخانات والفنادق والنزل والمقاهي.

أما السوق التجارية فكانت تضم في عام 1910 أكثر من 300 حانوت مليئة بالبضائع والسلع، أكثر من ثلثها يتدرج رأسماله حتى يبلغ 200000 قرش. وشهد مرفأ المدينة حركة تصدير واستيراد، إضافة إلى نشاط اقتصادي مهم يميز تاريخ المدينة، هو صيد الإسفنج. وفي عام 1908، كان العمل في الميناء الجديد على قدم وساق. وارتبطت بالمرفأ وظيفة الجمرك، وبعد تحوّله مرفأ رسميًا، أنشئت في قربه خدمات للمسافرين.

تنوعت المهن والحرف في المدينة بدءًا من طحن الحبوب في الطواحين بعد دراستها على البيادر، ثم صناعة الخبز في الأفران وصناعة الخمور وعصر الزيتون وأشغال القش والخياطه والموبيليا وأعمال الصباغة والدباغة وصناعة الأحذية والبيطرة والحداده وصيانة القوارب وصناعة الفخار وصناعة الدخان (السكاير)... هذا إلى جانب نشاط اقتصادي مرتبط بضمان (تلزيم) بعض المصالح الحكومية مثل الكيالة والخمارة والملح والسمك والإسفنج.

أنشئت محكمة في المدينة منذ بداية عهد المتصرفية، ما تطلّب اختصاصات مرتبطة بالحقوق والتحقيق والكتّاب والمأمورين والضابطية. وجذبت هذه المحكمة يوميًا عشرات المتقاضين، ما ضاعف الدينامية الاقتصادية في المدينة، فازدهرت أعمال الصرافة، خصوصًا بعد سفر عدد كبير من أبنائها، كانوا يرسلون الحوالات المالية من الخارج، ما تطلّب تأسيس بيوتات مالية للقيام بأعمال «الكامبيو»، أي صرف الحوالات من المصارف المحلية وتحويلها إلى أصحابها. وتحولت هذه البيوتات إلى مصارف صغيرة تمارس الإقراض بالفائدة.

بقي القطاع الزراعي مصدرًا مهمًا لعدد كبير من سكان المدينة والقاطنين فيها، خصوصًا في ميدان زراعة التوت وتربية دودة القز وحلالة الشرانق، كما في زراعة الحبوب والخضار، ثم زراعة الليمون والحمضيات والأشجار المثمرة الأخرى[23].

(23) عن الحياة الاقتصادية في مدينة البترون قبل الحرب العالمية الأولى، انظر: سيمون عبد المسيح، أسكلة البترون في القرن التاسع عشر: أصول البورجوازية البترونية الحديثة (دراسة في التاريخ الاجتماعي - الاقتصادي) (بيروت: المركز الإقليمي للتوثيق والدراسات التاريخية والسياسية والتربوية؛ المركز الثقافي البلدي - بلدية البترون، 2011)؛ أبي فاضل، إبراهيم بك عقل، وجوزيف الحكيم، تاريخ مدينة البترون (العقيبة: مطبعة دكاش، 1995).

يذكر الباحث الألماني[24]، استنادًا إلى مقابلة أجراها مع رئيس القوميسيون البلدي في البترون، أن دخل سكان المدينة عشية الحرب توزع على الشكل الآتي: من الزراعة 60.000 إلى 80.000 فرنك، ومن التجارة 200.000 فرنك، ومن عائدات التحويلات من أميركا 200.000 فرنك، أي إن هذه الأخيرة شكلت 43 في المئة من دخل المدينة، وبالتالي فإن أي أزمة اقتصادية في أميركا كانت تؤثر في اقتصاد متصرفية جبل لبنان. واستُخدمت عائدات المهاجرين في شراء الأراضي وتعمير البيوت، ما أدى إلى ارتفاع أسعار العقارات في جبل لبنان.

ب- بلدة بشري

يغيب عن التحليل الذي اعتبر أن الثروة المائية في بشري هي التي حالت دون حدوث المجاعة والموت في هذه المدينة الريفية، عناصر عدة - غير الواقع الإيكولوجي[25] - ساعدت في التخفيف من آثار المجاعة، وبالتالي خفضت نسبة الوفيات إلى عدد السكان الإجمالي. العنصر الأول هو المركز التجاري والحرفي والمالي الاستقطابي لمدينة بشري طوال القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى وبعدها. يشير عدد من المصادر والوثائق إلى تراكم رأسمالي كبير عند الإقطاع التقليدي كما عند الخواجية الصاعدة من سكان المدينة، ولهذا كانت بشري تؤدي دورًا مدينيًا مهمًا في ريف جبة بشري، كما كانت سوقًا تجارية (بندر) ومالية للإقراض وصرف الحوالات المالية الواردة من المهاجرين.

يخصص الخوري فرنسيس رحمه، في كتابه **تاريخ بشري أو مدينة المقدمين**، فصلًا عن الصناعات في بشري مستندًا إلى نبذة تاريخية كتبها يوسف بطرس الشدياق «حامل تقاليدنا والملم بمعظم تاريخنا»، فيقدر الشدياق عدد الأنوال بـ 750 (لم يحدد الفترة الزمنية) لنسيج الصوف والقطن والحرير، إذ كان كل بيت يملك نولًا، متحسرًا لو أن أهل بشري من معاصريه يتشبهون بالجدود، كما يشير إلى زراعة القطن وحلجه وغزله وحياكته. والبشرانيون «كانوا يُعنَون جدًا بتربية دود الحرير الذي كان من أعظم منتوجات بشري». ويعتبر رحمه أن لحرير

---

(24) Ruppin, p. 22.

(25) هناك بلدات لها المواصفات عينها من الناحية الطبيعية والإيكولوجية وتعتبر «محصنة هيدرولوجيًا» كما الحال في بلدة العاقورة، ولم تنج من مأساة الحرب، وتوفيت نسبة كبيرة من سكانها.

بشري ميزة تقبل كل الألوان. ولم يكن في بشري مناويل لنسيج الصوف والقطن والحرير فحسب، بل كان مثلها لحياكة وبر الجمال وشعر الماعز، فينسجون البلس والأعدال والجوالق والأخراج البسيطة والمزركشة للخيل المسرجة. أما الصوف فـ «معظمه كان للمشالح المقلمة والعباءات المزركشة التي كانت تسمى بالعباءات البشراوية».

ترتبط الصباغة بحرفة النسيج، ما يفسر مشتريات كميات كبيرة من «النيل»، إضافة إلى تقليد بشراوي في هذه الحرفة يتعلق باستعمال صباغات مستخرجة من النباتات المحلية وبعض صخور المنطقة (مسحوق حجر النيل)، على أنهم في ما بعد استعملوا المساحيق المعدنية. يذكر الأب رحمه ثماني مصابغ، منها مصبغة ميخائيل عريضه الشهيرة، تصبغ الألوان كلها ولصاحبها معرفة بفن التعقيم على الطريقة الأوروبية. كما تشير بعض الوثائق إلى وجود قطعان من الماعز والغنم والأبقار والجمال بشكل كبير، تعطي الألبان والأجبان، وتؤمن مصدرًا غذائيًا أساس للسكان، ومادة خام للحرف النسيجية.

من جهة ثانية، هناك إشارات عدة لم تدرس حتى الآن عن تراكم رأسمالي في مدينة بشري، حيث كانت مركزًا للإقراض خلال القرن التاسع عشر. وتبيّن الوثيقة الآتية الدور المالي لبشري، كمركز إقراض ناتج من توافر السيولة النقدية وما أصاب هذا التراكم من جفاف، أو العدوى التي وصلته بالتسليف بفوائد غير إنسانية.

تبيّن الرسالة التي وردت من مجيد حنا ضاهر من بشري في 4 آذار/ مارس 1917 إلى ابن الخالة الشيخ الياس مخايل الياس العشي من بلدة بشعلي في بلاد البترون دقة الوضع المالي - لا بل الغذائي أيضًا - لآل العشي، وموضوعها عدم قدرته على «تلبية طلبكم بالحاضر حيث إن بشري حاليًا أصبحت كسائر المحلات بحاجة شديدة لكافة ضروريات المعاش، وإذا وجد مع بعض الأهالي بعض دريهمات لا يقرضها إلا بشروط لا يقبلها الطبع حيث إنهم يعطون عملة بنكنوط (التي سعرها حاليًا خمسة وعشرين قرشًا) ويحتسبونها بمئتي قرش لمدة عام، ثم يطلبون تأمينات زايدة ومع ذلك قد وجد من رضي بهذه الشرط نظير بطرس بك نجم شبطين والمذكور من نحو خمسة عشر يومًا موجود في بشري وأمثاله كثيرون ولكن لم يحصلوا على نتيجة. على أنني أسعى بكل قواي على أمل أن أقدر أن ألبّي

لكنني غير واثق من النجاح...»[26]. والموقف عينه يتكرر في رسالة جوابية تاريخها 27 آب/ أغسطس 1917، من محمد سليم محمود أدهم، يتبيّن فيها أن الشيخ الياس مخايل العشي يطلب اقتراض 30 ليرة عثمانية لمرور شهر، حيث يعتذر أدهم عن تلبية الطلب بسبب عدم توافر «النقدية»، على أمل نزوله إلى طرابلس لتأمينها. يمكن التأكيد هنا أن هذه الدينامية الاقتصادية داخل مدينة بشري كان لها نتائجها الإيجابية لجهة انتشار الثروة إلى طبقة وسطى عريضة، استطاعت مقاومة ارتفاع الأسعار وتأمين حاجاتها الغذائية. وإذا اضفنا إلى هذا الواقع الاقتصادي الغني تفسيرًا خلدونيًا يفترض تكاتفًا وتضامنًا بين العصبيات العائلية، يمكننا أن نعثر على أسباب إضافية للانخفاض النسبي لوفيات المجاعة.

العنصر الثاني هو دور الأديرة في محيطها الريفي لجهة المساعدة وتأمين الغذاء للفقراء، وأكد بعض الدراسات حقيقة هذه المساهمة الإنسانية. ففي بشري، باع دير مار ليشاع التابع للرهبانية الحلبية المارونية (المريمية اليوم ومقرها دير اللويزه - كسروان) أراضي بمبلغ 431500 غرش، إلى كل من عزيز بك الضاهر والخوري أغناطيوس كيروز والخوري أنطونيوس جعجع وأولاد جبرائيل رحمه وبربر عيسى الخوري، بهدف مساعدة فقراء بلدة بشري بحسب الأب أوغسطين البستاني الرئيس العام للرهبنة[27]. تخبر هذه المعلومة ليس عن مساهمة الدير في إنقاذ الفقراء في بشري من الموت جوعًا فحسب، لكنها تؤكد وجود «الترسمل» بكميات كبيرة عند أبرز القوى المالية في بشري.

ثانيًا: التفسيرات وبناء الشبكة المفاهيمية

1 - التفسيرات

تساهم التفسيرات التي خطها الرواة والمؤرخون وأصحاب المذكرات في بناء الشبكة المفاهيمية للعلاقة بين الموت جوعًا ومرضًا، ومجمل العوامل التي أدت

(26) أرشيف بيت العشي - بشعله (بلاد البترون)، وثيقة رقم 1/ 1917، تاريخ 4 آذار 1917، المركز الإقليمي للتوثيق والدراسات التاريخية والسياسية والتربوية، عمشيت.

(27) بطرس فهد، تاريخ الرهبانية المارونية بفرعيها الحلبي واللبناني (من سنة 1693-1970)، 11 ج (جونية: مطبعة الكريم، 1967)، ج 8، ص 217 و231.

إليه. يتفق عدد كبير من هؤلاء على العناوين الكبرى لأسباب المجاعة والموت، ويقدم كل منهم مشاهد تتعلق بقريته أو مدينته بحسب موقعه وما تناهى إليه، ويهتم بهذا السبب أو يعطي أولوية لذاك، بعضهم يكتفي بالصورة العامة الكبرى، وبعضهم الآخر يدخل في التفصيلات من أرقام وأسعار وأسماء وأعداد موتى.

يتخذ البعد الكرونولوجي لشهور وأعوام الحرب أهمية مطلقة، حيث إن الأوقات والأزمنة القصيرة تؤدي إما إلى موت الآلاف أو إبقائهم على قيد الحياة، وحيث إن المراهنات على الانفراجات لا تؤدي إلى غايتها؛ كما أن الدورة الزمنية للطبيعة هي الأخرى عامل مركزي (ويؤكد ذلك تركز الموت في النصف الأول من أعوام الحرب 1916-1918). كما تحركت الأسعار ارتفاعًا مع ازدياد الندرة وانهيار العملة الورقية وارتفاع الفوائد بشكل جنوني... كل ذلك يتخذ بعدًا دراماتيكيًا بفعل الزمن[28]. وتأخذ العلاقة بين مجموعة عوامل متفاعلة بعدًا زمنيًا، مثل العلاقة بين القرارات العسكرية والإدارية ونتائجها على حركة التبادل وارتفاع الأسعار، ولم يغب عن التفسيرات العلاقة التتابعية بين ظواهر طبيعية مثل الهواء الأصفر الحار وموجات الجراد، وتأثير هذه الأخيرة في الاحتفاظ ببذار للموسم الآتي.

في منظومة التفسير، تُحمل السياسات العثمانية[29] المسؤولية، وتتحدث

---

(28) كنماذج عن دور الزمن، ما كتبه يمين: «تدهور الوضع الاقتصادي في لبنان بين يوم وآخر. استهلكت العائلات المونة كلها التي حفظتها للشتاء، وليس هناك من وسيلة لتعويضها لأن السلطة العسكرية منعت استيراد المواد الغذائية من ولايات الداخل، بهدف حفظها لصالح الجيش الذي يدافع عن وجود السلطنة»، أو ما أشار إليه عبود في: عبود، صفحات من تاريخ جاج: «لجأت الإدارة العثمانية إلى استعمال نظام الإعاشة (مع تفاقم الأزمة الاقتصادية واحتكار الحبوب المرتفعة الأسعار)، ووعدت بتقديم البذار للزراعة» فما كان من المزارعين إلا أن أكلوا ما يحفظونه من بذار لموسم عام 1916، وهنا حلت الكارثة. طلبت الإدارة ثمنًا فاحشًا للقمح، والجيوب فارغة، ففتك الجوع بأبناء جاج منذ مطلع عام 1916، وحلت في البلدة مأساة مفجعة إذ مات في تلك السنة 191 شخصًا بحسب سجلات الوفيات في الكنيسة».

(29) كنماذج عن هذه النصوص ما كتبه يمين: تدهور الوضع الاقتصادي في لبنان بين يوم وآخر. استهلكت العائلات المونة كلها التي حفظتها للشتاء، وليس هناك من وسيلة لتعويضها لأن السلطة العسكرية منعت استيراد المواد الغذائية من ولايات الداخل، بهدف حفظها لصالح الجيش الذي يدافع عن وجود السلطنة. وازداد الوضع سوءًا عندما قرر جمال باشا نقل كل السلع التجارية وكل الحيوانات ووسائل النقل (السيارات، الطنابر Charrettes) بعيدًا عن الشاطئ. وفي 11 آذار/ مارس، أحرق الطاغية كل ما لم يستطع نقله بعيدًا عن الشاطئ (انظر: Yammine, *Quatre ans de misère*).

في تفسير آخر يتحدث كنعان عن الحركات العسكرية في ربيع 1915 واستخدامها للسكك الحديد التي تعرقل شحن الحبوب إلى لبنان وبيروت، ومصادرة القيادة العامة للمنتوجات الزراعية من داخل البلاد =

نصوص عن إرادة سياسية للقضاء على اللبنانيين من خلال الجوع[30]، كما قضي على حركة الأرمن بالسيف. كان لهذه السياسات تأثيرها المباشر في انتظام الحياة

= لتخزينها، كما صادرت أصنافًا عدة من البضائع الأجنبية لخزنها احتياطًا، فارتفعت أسعار المأكولات وسائر المواد الغذائية، ولا سيما الحنطة: داود خليل كنعان وإبراهيم نعوم كنعان، بيروت في التاريخ، 2 ج (بيروت: مطبعة عون وحداد، 1963).

(30) أحدث المرافعات وأطولها دفاعًا عن عدم مسؤولية الأتراك عن المجاعة والموت في جبل لبنان كتبها عبد اللطيف الحارس. انظر: عبد اللطيف الحارس، «الأوضاع الاقتصادية والمالية في الدولة العثمانية والمقاطعات اللبنانية (1914-1918)،» في: لبنان في الحرب، ج 1، ص 117-190. فبعد مقدمات منهجية عن كيفية استخدام التاريخ لأسباب مصلحية وأيديولوجية، ينطلق في دفاعه من رؤية شاملة للتاريخ الاقتصادي العثماني، معتبرًا أن دخل الفرد في السلطنة متدن قياسًا إلى دخل الأوروبي، وفي تفسيره (مستندًا إلى إينالجيك) لتراجع أهميتها الاقتصادية، وخسارتها للمقاطعات، وضعف نموها الاقتصادي مقارنة بالاقتصاد العالمي. بقيت السلطنة دولة زراعية (56 في المئة من الدخل القومي في عام 1914) لكن التوسع الزراعي كان محدودًا غير مكثف، إذ لم يتم استغلال إلا نسبة قليلة من الأراضي الزراعية وبتقنية محدودة.

تراجع موقع القمح العثماني في التجارة لعدم قدرته على منافسة القمح الأميركي. ويعتبر الباحث أن الاقتصاد العثماني كان الأضعف، بسبب تبعيته للاقتصاد الأوروبي. فما أن دخلت الحرب حتى تأثرت البورصة في اسطنبول وأزمير، وأوقفت شركات النقل الأجنبية أعمالها، وانخفضت قيمة عائدات الجمارك، وتراجعت كميات المؤن بعد احتكارات التجار وتخزين سكان المدن لها، وبدأت الأسعار بالارتفاع.

كان وضع تأمين الغذاء في الإمبراطورية بشكل عام سيئًا، ليس بسبب نقص الموارد، إنما بسبب تخلف وسائل النقل وتوقف الإدارة وشللها. وتضررت الزراعة إما بسبب المواسم الرديئة، أو التجنيد الإجباري للفلاحين ومصادرة الحيوانات، خصوصًا الثيران، ما أثر في حراثة الأرض، وتراجعت مساحة الأراضي من 60 مليون دونم في عام 1914 إلى 30 مليون في عام 1916.

ينتقل الباحث إلى معالجة الوضع الاقتصادي والمالي في المقاطعات اللبنانية، فيعرض الدخول الأساس، ويناقش مسألة توقف التحويلات النقدية من المهاجرين اللبنانيين، معتبرًا أن هذه التحويلات استمرت بالتدفق عن طريق جزيرة أرواد (يستند إلى رواية: بشارة البواري، أربع سني الحرب (نيويورك: مطبعة جريدة الهدى، 1926)، ومن خلال اللجنة الأميركية للتحويلات المالية (دار الطباعة والنشر American Printing Press).

يواجه الباحث الاتهام الموجه إلى الأتراك، مؤكدًا «أن النقص في المواد الغذائية والمجاعة التي نتجت عنه لم يكونا بشكل رئيس نتيجة لسياسة الدولة ومصادرتها للمواد الغذائية المتوفرة، بقدر ما كانا نتيجة المضاربة على الأسعار، وصعوبات النقل، وانعدام المهارات التنظيمية ومصادر البنى التحتية الضرورية لعمليات توزيع المواد الغذائية» (ص 186). عانت مناطق أخرى في الإمبراطورية العثمانية مثل هذه المشكلات، إلا أن الوضع في لبنان كان أفدح «بسبب الحصار الصارم للسواحل من قبل الفرنسيين والبريطانيين (ص 186). ويعتبر أن الاتهامات التي سيقت ضد الأتراك تأتي في سياق الحملات الإعلامية المضخمة. ويعتبر أن السلطنة - كما غيرها من الدول المشاركة في الحرب - لم تكن مستعدة لحرب طويلة تحتاج إلى جيوش كبيرة. وخلال الحرب تدخلت الدولة التركية في الاقتصاد وفي ميدان تنظيم المواد الغذائية، ومنع ارتفاع الأسعار. لكن المشكلة أن الأنموذج الذي وضعه الألمان لتدخل الدولة لم يكن قابلًا للتنفيذ في البيئة العثمانية.

الاقتصادية، ومن الإجراءات المتخذة التجنيد الإجباري والمصادرات وفرض الضرائب تحت أشكال مختلفة[31].

تحتل موجات الجراد التي غزت لبنان اعتبارًا من 12 نيسان/ أبريل 1915 مكانتها في التفسيرات المباشرة لأسباب المجاعة، فالجراد هو «غضب الطبيعة»[32]، لكنه في العاقورة[33] أثار فضول الناس قبل أن يدركوا نتائج قدومه الكارثية على

---

(31) فرضت ضرائب تحت شكل «لوتو» (يانصيب) تعود أرباحه بحسب قول جمال باشا ووالي بيروت سامي بك إلى حاجات الجيش، وثمن كل بطاقة فرنك و25 سنتيمًا. وأصدر منها عشرات الألوف. وهذه ضريبة حقيقية فرضت على لبنان. قدر يمين عائدات هذا اليانصيب بـ 11 ألف ليرة تركية ذهب. ومن الذين ساهموا بالشراء البطريرك الماروني، إذ أرسل إلى والي بيروت 300 ليرة تركية. ويقول يمين إن هذه المبالغ لم تذهب إلى حاجات الجيش انظر: Yammine, *Quatre ans de misère*. ويشير المونسنيور لويس الهاشم في كتابه تاريخ العاقورة إلى توزيع أوراق يانصيب في 15 كانون الثاني/ يناير 1915 مرسلة من والي بيروت سامي بك.

من الضرائب العثمانية خلال الحرب: «بالإضافة إلى ابتزاز الأموال من خلال البدل العسكري (44 ليرة على الشخص)، كان يفرض على الأهالي تقديم صفائح البترول وأكياس الجفصين وعمد الخشب والحطب وطلب الدواب، وفرض على دولاب في معامل الحرير دفع ربع مجيدي، كما أتت صليما لجنة المغالق المستجدة ووضعت رسمًا على الدكان 5 قروش وعلى معصرة الزيت 10 وعلى كل دولاب حرير 20 باره. كذلك، فرضت الدولة على الأهالي تقديم الإعانات المختلفة لها، كالاشتراك في يانصيب الأسطول، وتقديم عشر الزيتون ونصف غلة الزيت والعنب والتين. كما فرضت الحكومة على كل مكلف من ابن 15 إلى 50 عامًا، قنطارًا من الحطب أو دفع 145 قرشًا، وقامت بقطع الأحراش في لبنان وسورية، وكانت قد أخذت من تجار الحرير في بيروت ولبنان معظم بالات حريرهم ودفعت ثمن البالة من 300 إلى 450 ليرة ورق، مع العلم أنه يمكن بيعها للتجار بقيمة سبعماية ليرة ورقية. وفي 12 حزيران/ يونيو 1918 فرضت الحكومة ضريبة جديدة سمتها القرض الوطني لإصلاح الطرق ولغيره من الأعمال العسكرية». انظر: مقتطفات من مذكرات البشعلاني: عصام كمال خليفة: «الخوري أسطفان البشعلاني: منهجيته وأهمية مذكراته،» في: شخصيات بارزة في تاريخ لبنان المعاصر، 2 ج (بيروت: عصام كمال خليفة، 1997)، ص 108.

(32) إميل يوسف حبشي، جهاد لبنان واستشهاده (بيروت: مطبعة طبارة، 1920).

(33) «.... ويوم الثلثا ثالث عشر نيسان 1915 الساعه الثالثة بعد الظهر وفدت طلائع الجراد فبش الناس لها لأنهم لم يكونوا رأوا جرادًا من أمس فما قبل لكن بئس ما افتكروا فظل يهطل نحوًا من ثلاثة عشر يومًا إلى أن غرز في الأرض... فلم ينكف الأهلون رغم وجوده عن زراعة البقول والخضر وسائر الحبوب الصيفية. لكن عندما نقف وزحف على الأرض كرمال البحار اشتغل الكثيرون بمكافحته عبثًا وبالكاد تمكن بعضهم من الاحتفاظ ببعض القمح بذارًا...». انظر: الهاشم، ص 140.

المزروعات والأشجار. يتحدث إخباري آخر كيف عرى الجراد الأشجار فبدت هياكل حزينة، وكيف خرجت الأفاعي من أوكارها وهربت الوحوش إلى أعالي الجبال الجرداء خوفًا من حفيفه وهو زاحف[34]. ينفرد شاهد عيان (يمين) بذكر حدث مناخي سبق مجيء الجراد، وهو الهواء الحار الذي استمر 20 يومًا أعقب توقف هطول الأمطار في نهاية شباط/ فبراير 1915. وفي بلدة بقسميا في بلاد البترون، دَون شيخ صلح القرية في يومياته تطور زيارة هذا الضيف الثقيل لبلدته، وصولًا إلى 11 حزيران/ يونيو: «الجراد في كامل القرية، زاحف ليس بقي شيء أخضر». وتحمل وثيقة مهمة في دير مار أنطونيوس حوب (منطقة تنورين في أعالي بلاد البترون) الجراد مسؤولية كبرى عن المجاعة والموت[35]. وفي أخبار بكفيا[36] والعاقورة وجاج وتنورين[37] سرد لمحاولات مكافحته، وربط بينه وبين

(34) كنعان وكنعان، بيروت في التاريخ.

(35) وصفت وثيقة رهبانية الجراد على الشكل الآتي: «أتى الجراد زاحفًا على البلاد في الثالث عشر من نيسان سنة ألف وتسعماية وخمسة عشر مسيحية، وحجبت جيوشه عين الشمس، وانتشر في البلاد شرقها وغربها. ولم يرحل هذا الضيف الثقيل عن الجبل إلا بعد أن جرده من كل عرق أخضر، فأتلف الكروم والمزروعات، وعرى الأشجار من أوراقها، ولم يبق من الأحراش، ونزع من يد الفلاح رأسماله الزراعي. فكان جوع عظيم في البلاد، أودى بحياة كثيرين، وحدثت من جرائه فواجعُ يقشعر لها البدن، فخلت القلوب من الحنان الطبيعي، فدفع الجوع بعض الأمهات إلى افتراس أولادهن، وترك الآباء بنيهم، وتشتت شمل العائلات في كل صقع، ونزح كثير من سكان الجبل إلى الولايات، كبيروت وطرابلس وبلاد بعلبك وحوران وجهات عكار، وخربت أكثر القرى، ولم يكن فيها من ساكن غير البوم» (صفحة 97 من الوثيقة). وتتحدث الوثيقة عن انعدام الأمن وتكاثر قطاع الطرق وعصابات الأشرار، كنتيجة لمفاعيل الجراد. وثيقة «دير حوب في سني المجاعة والحرب من سنة 1914 إلى سنة 1919» (محفوظات الرهبانية المارونية اللبنانية، جامعة الروح القدس - الكسليك، كانون الثاني/ يناير 1919).

(36) «واتفق للبلاد أن تحتمل فوق ذلك العذاب عذابًا آخر فهجم عليها الجراد في 12 نيسان/ أبريل 1915 والتهم الأخضر واليابس، وبقي فيها لغاية 20 تموز/ يوليو فقضى على الحبوب والأثمار والأزهار وسمم الأشجار فأمحلت مواسمها وزادت تلك الضربة في بلايا اللبنانيين الذين أصبحوا يحتاجون إلى البذار ولا مال لديهم لشرائه وتجديد المزروعات، فمات معظمهم جوعًا وتعرض بعضهم للأمراض التي فتكت بهم بعد ذلك فتكًا ذريعًا لضعف دمهم وانتشار الميكروبات من جهة وللفقر وعدم المداواة من جهة ثانية، وكانت نتانة جثث الأموات المنطرحة على الطرقات كالحيوانات تزيد الهواء فسادًا والروائح كراهة». انظر: بليبل، ص 39.

(37) «ظهرت القلة على الناس مع الحرب. في عام 1915 ظهر الجراد الأخضر في سماء تنورين بشكل غريب، وحجب أحيانًا نور الشمس، كما انتشر في الأرض انتشارًا فظيعًا. رحت أنا وأخي جرجس، نجمع الجراد، ونضعها فوق طاولة صغيرة، ما بلغ محمول قرطل، ثم قمنا بقتلها...»، تنورين خلال الحرب بحسب رواية الخوراسقف حرب، في: داغر، ص 196-197.

محل المواسم بالتأكيد، ويربط أيضًا بفقدان البذار للموسم الآتي. وفي بسكنتا إشارة إلى استيطانه وتوالده حيث «كانت النكبة به أشد من النكبة بالحرب»[38].

لم تهتم السرديات بشكل عام بتحليل العلاقة بين المجاعة والأمراض والموت بشكل علمي، إنما اكتفت بنقل الوقائع، وإن كان السرد أحيانًا لا يخلو من إشارات عابرة للربط بين عدم قدرة الأجسام على مقاومة الأمراض والأوبئة، أي فقدان المناعة والنقص في الغذاء، أو الحديث عن بيئة موبوءة بفعل انتشار الجثث وإفساد الهواء. ويتفق الإخباريون في تعدادهم أنواع الأمراض والأوبئة – مع تركيز بعضهم على نوع أو أكثر – مثل الدوسنطاريا والجدري والكوليرا والتيفوئيد والملاريا والتيفوس والحميات بأنواعها والإسهال... فيحدد صاحب كتاب **بيروت في التاريخ**، بدقة، الأمراض وضحاياها، مركّزًا على حمى التيفوس والهواء الأصفر والملاريا، أما يمين وبليبل فيربطان بين انتشار الأمراض في الجيش التركي وانتقاله إلى الأهلين ممن كانوا في خدمة الجيش، في مقابل الحصول على بعض الغذاء. يتميز حبشي بالقول إن الحمى فتكت بالأغنياء أكثر من الفقراء، مقدمًا معلومات عن محاولة مدير إدارة الصحة الطبيب حسني محيي الدين مكافحة الأوبئة عبر اختراعه آلة تعقيم. وفي تنورين وجاج وبسكنتا، اعتبر مرض الجدري هو الأخطر، والمسبب لموت عدد من الناس. وأشارت هذه المصادر إلى تدهور الوضع الصحي بسبب مصادرة الأطباء وفقدان الأدوية.

ارتقى بعض التفسيرات إلى مستوى التعددية السببية، ما سمح بتوزيع المسؤولية بين الإرادة التركية وبنية اقتصاد المتصرفية. فمن جهة، جرى تحميل الأتراك المسؤولية، إذ نفذوا حكم الإعدام بالشعب في متصرفية جبل لبنان «لاعتقادهم أنه الأشد ميلًا إلى الدول المعادية»[39]، واعتمدوا سياسة تساهم في

(38) «وهجمت مواكب الجراد على لبنان ومنه بسكنتا في 13 نيسان/ أبريل 1915 فالتهمت الأخضر واليابس وتفانى الأهلون في مكافحة الجراد عبثًا – وغرّز الجراد وتوالد وخرج زحافًا بعدد رمل البحار، فاجهز على جميع ما بقي من قوت الأهلين. فكانت النكبة به أشد من النكبة بالحرب». انظر: حبيقة، ص 30.

(39) لطف الله نصر البكاسيني، نبذة من وقائع الحرب الكونية، هذبه ونقحه القس مبارك تابت الديراني (بيروت: مطبعة الاجتهاد، 1922)، ص 357.

تنفيذ هذا الهدف[40]. من جهة ثانية، جرى توصيف وتحليل أسباب المجاعة: انقطاع موارد الرزق انقطاعًا يكاد يكون تامًا. فالتربة في لبنان قليلة الخصب، غُرست فيها أشجار التوت لتربية دود القز لاستنتاج الحرير وهو واحد من مصادر معاشهم، «ويحصلون الجزء الأخير وهو الأكبر من شغلهم بالأجرة أو من حرفة قليلة العائدة»، يضاف إلى ذلك عائدات أميركا من المهاجرين «فأصبح بعض سكان الجبل على شيء من اليسار». وعند اشتعال الحرب جفت هذه الموارد الثلاثة: «هبط سعر الحرير وقلّت غلاله وأشغلت الأرض بزرع الحنطة والشعير وذلك لم يشبع السكان. أتلف شجر التوت والكرم وامتص من الأرض خصبها، وأمسك الأغنياء ما في أيديهم من المال فجف الشغل وكسدت الحرف وأقفلت أبواب البحر فانقطع القوت من المهاجرين»[41].

تهتم أغلبية التفسيرات بمسألة انقطاع الأموال الواردة من المهاجرين إلى أهلهم، وكيف ساهمت في ازدياد المجاعة والموت[42]. وعبر الشعر الشعبي عن هذه الناحية[43].

(40) تقطع الحكومة العثمانية الحنطة وسائر الحبوب من أنحاء سورية وتساهم في أزمة وسائل النقل بمصادرتها الخيل والبغال والجمال والحمير، كما أن الجنود والسماسرة كانوا يأخذون من النساء ما حملوه من مسافات طويلة. وساهم الألمان في الغلاء الفاحش في الدولة العثمانية، إذ «أصبحت تبتاع كل ما استطاعت ابتياعه من حنطة البلاد بأثمان يعجز الوطنيون عن المشترى بمثلها ولكثرة ما تبتاعه كان لديها زهاء عشرين ألف سياره تنقل الحنطة إلى بلادها». واحتكر أرباب الحكومة الغلال وباعوها بأغلى الأثمان. انظر: البكاسيني، ص 360-361.

(41) المصدر نفسه، ص 358.

(42) يلاحظ أن عددًا من العائلات في بجه كان يعتمد في معيشته وتأمين قوته على عائدات المهاجرين من أفراده إلى الأميركيتين، وعندما انقطع هذا المورد - الوريد بسبب التدابير السياسية والعسكرية وأحوال الحرب، فإن النتيجة الحتمية هي موت المستفيدين منه. أن مضمون قصيدة المعلم سليم شاكر صعيبي عن «نداء المهاجرين وجواب المستوطنين» له دلالاته المعبرة عن أولوية هذا الجانب الذي يُدرج في سياق علاقة جبل لبنان بالاقتصاد - العالم، حيث إن نسبة كبيرة من القوى الحية كانت تعمل بعيدًا في المهاجر لتأمين معيشة أهاليها المقيمين.

(43) تقسم القصيدة قسمين: «نداء المهاجرين» (8 أبيات) و«جواب المستوطنين» (26 بيتًا). يختصر «نداء المهاجرين حنينهم ولوعتهم وندمهم ومحاولتهم عمل شيء ما دون نتيجة، وابتهالاتهم وتلهفهم لمعرفة حقيقة ما حدث في جبل لبنان»، مختتمًا بالإشارة إلى الموقف العسكري - السياسي: خروج الأتراك الظالمين وحلول الفرنسيين المنصورين. أما «جواب المستوطنين» فكان بمنزلة وصف للكارثة: «شقاء سدوم»، «خراب بابل»، بؤس، أبيات عدة (4 أبيات) خصصت للجراد، ما يعكس حقيقة =

حاولت الإرسالية الأميركية القيام بهذه الوساطة المتعلقة بتوزيع الأموال، لكن السلطات العثمانية حولت المهمة إلى البنك العثماني، وبشروط تجعل المساعدة من دون قيمة وفي غير أوانها[44]. وتوقفت تفسيرات أخرى عند تجربة فاشلة للإعاشة والتموين[45]، هي تجربة تعاونت فيها السلطة العثمانية مع كبار

= مساهمته في حدوث المجاعة: كان بمنزلة جيش احتلال آخر، تكدس كالجبال، وقضى على الزروع وأكل الغلال (لا حصاد) وحوّل الاخضرار إلى يباس... وعندما رحل كان الوباء والبلاء قد حلا، وجاء الشتاء ولا من يستجيب لنداء البائسين: «وباء مهلك عري وجوع». ثم ينتقل إلى تحميل المسؤولية للأتراك، وإرادة جمال باشا إفناء الشعب بعد اتهامه له بالخيانة والكفر والجحود. وتصور القصيدة مشاهد الاستغاثة التي أطلقها الفقراء والصغار والنساء، والغلاء الفاحش، واضطرار الناس إلى أكل لحوم الكلاب، وبيع الأملاك ورهنها للتجار والمسترهنين... وصولًا إلى المشهد الأخير: الموت والخراب. وتنتهي القصيدة بالموقف السياسي: هزيمة الأتراك ورحيلهم وترحيب بطلائع الحلفاء، مع تخصيص الرئيس الأميركي بلفتة خاصة:

ولا زال الرئيسُ الأمركاني حسام العدل في كف الزمان
فلولاه لـمـا نلنـا الأمانـي ألا فليـبـق مـرفـوع المكـان
وسـور عـدالـة للعالمينـا.

(44) في بداية عام 1916، أرسل المهاجرون اللبنانيون إلى أميركا بعض النقود إلى عائلاتهم في لبنان. قامت الإرساليات الأميركية في بيروت بتوزيع هذه الأموال لأصحابها. لكن، اعتبارًا من تشرين الأول/ أكتوبر 1916 أولجت المهمة بالبنك العثماني في بيروت. هذا البنك - وبأمر من الحاكم التركي - لم يدفع لمودعيه إلا بعد سنة من تاريخ الإيداع تحت شكل دفعات أسبوعية وبالعملة الورقية. وتم احتساب الليرة الإسترلينية بـ 80 قرشًا بدلًا من 137 قرشًا وهو سعرها الفعلي. انظر: Yammine, *Quatre ans de misère*.

(45) أسست «الشركة اللبنانية المغفلة للإعاشة» (Société Anonyme de Ravitaillement) بعدما نجح علي منيف بك في إلغاء «لجنة تغذية بيروت - لبنان»، معتبرًا أن هذه اللجنة غير مؤهلة للقيام بتموين آلاف الأشخاص. وكان هدفه من الشركة المغفلة وضع حد للبؤس العام المسيطر في لبنان. وطلب من كل القائمقامين في مناطق الجبل أن يقدموا إليه لوائح تتضمن أسماء الأشخاص الأغنياء، القادرين على تشكيل رأسمال الشركة، طالبًا من اللبنانيين خلال أسبوع مبلغ 25 ألف ليرة تركية كرأسمال يتشكل من 100 سهم باعتبار أن ثمن كل سهم 250 ليرة تركية. بدأت الشركة عملها في 8 حزيران/ يونيو 1916، وتحديدًا في حقل تأمين الحبوب، ولهذا السبب كان لا بد من تأمين مخازن في المناطق المختلفة في لبنان. وقام علي منيف بك برفقة اثنين من المساهمين في الشركة برحلة داخل سورية، من أجل شراء الحاجات الضرورية من الغذاء للجبل. لكن المواد الغذائية كانت بيد السلطات العسكرية، منعت تصديرها من ولاية إلى أخرى. وبأمر من جمال باشا استطاع علي منيف شراء 5 ملايين كلغ من القمح، وبضعة ملايين من الكيلوغرامات من الحبوب الأخرى مثل الذرة والشعير. وعندما عاد علي منيف إلى لبنان نظم طريقة البيع والتوزيع، فأعطى أولًا السلطات الإكليريكية والصناعيين من ملاكي حلالات الحرير، وذلك من مخزن صوفر. وتم البيع بوساطة Vessika وهي ورقة موقعة من علي منيف تحدد بموجبها كمية الحبوب التي يجب إعطاؤها لحاملها.
يلي الحاكم في هذه الشركة الدكتور نجيب أصفر وهو رئيسها، وأعطي كامل الحرية، وبدوره أحال =

التجار البيروتيين، وانتهت إلى التمييز بين الأغنياء والفقراء لجهة الكمية، ثم توقفت وتحولت إلى خدمة الموظفين والعسكريين.

لم تتطور التفسيرات التاريخية باتجاه رؤية كلية وشاملة، إلا مع الدراسات الاقتصادية الحديثة التي حللت بنية اقتصاد المتصرفية، وتناولت علاقاته مع الاقتصادات «المحيطية» الأخرى (السورية العثمانية) من جهة، ومع الاقتصاد العالمي «المركزي» من جهة ثانية.

= السلطة إلى رؤساء المخازن وموظفيها. اختارهم الأصفر من بين أقاربه وأصدقائه الحميمين. في البداية باعت الشركة رطل القمح بـ 5 قروش (فرنك و25 سنتيم)، ورطل الذرة (وحبوب أخرى) بأربع قروش. وللأسف عمل موظفو الشركة على التمييز بطريقة غير عادلة بين الطبقة الغنية من جهة والطبقتين الفقيرة والمتوسطة من جهة ثانية. وعلى سبيل المثال، كانوا يعطون 100 رطل لإقطاعي أو رجل ذي نفوذ، بينما الفقراء اللبنانيون لا يحصلون إلا على 3 إلى 4 أرطال. كان من المستحيل شراء المواد الغذائية من بائعي الحبوب، فالسلطات العسكرية منعت التجارة بهذه المواد، أي منعت شراءها من الولايات ونقلها إلى لبنان. باعت هذه الشركة الكميات إلى بعض اللبنانيين والبيروتيين بأسعار مرتفعة، وبمعرفة علي منيف. وملأ بعض الأغنياء مخازنه بالقمح والأنواع الأخرى من الحبوب، بينما الفقير الجبلي، وهو رب عائلة كبيرة، لم يحصل إلا على 20 رطلًا وهي كمية لا تكفيه 20 يومًا.

في منتصف تشرين الأول/ أكتوبر 1916، أوقفت الشركة كل عملية توزيع، وأضحت شركة في خدمة موظفي وعسكريي حكومة لبنان. وبعدها ارتفعت الأسعار بشكل كبير حيث بيع 125 غرامًا من الخبز بـ 25 غرشًا. وهذه أثمان لا يستطيع دفعها إلا الأغنياء. أما الطبقة الوسطى والفقيرة فكانت غير قادرة على شراء القليل من خبز الذرة والشوفان... وهي من نوعية رديئة ولا تؤكل... أما الذين حاولوا نقل الحبوب عبر الحدود فتكفل الجنود بتشليحهم وسلبهم.

عمّت المجاعة إذًا في لبنان في قرى وبلدات عدة، حيث تطورت الوفيات بشكل دراماتيكي، وامتلأت الطرق بالجثث، وفي الغابات حيث ذهب اللبنانيون المساكين يفتشون عن الأعشاب البرية لتغذية أجسامهم الهزيلة. حاول بعض الأعيان اللبنانيين مقابلة علي منيف بك لوضع حد لهذا البؤس العام، فأجابهم هذا عمل الحكومة وليس الخاصة.

كان الوضع في بيروت مماثلًا للوضع في جبل لبنان، لأن التجارة الحرة للحبوب منعت أيضًا، ولم يستطع البيروتيون الحصول من الداخل السوري على كمية قليلة من المواد الغذائية، إلا إذا كانوا مزودين بـ Vessika موقعة من الوالي عزمي بك. استطاع بعض الأعيان والتجار والجميلات من النساء (متزوجات وعازبات) الحصول من علي منيف على تصاريح لنقل الحبوب، فقاموا بذلك وباعوها بأسعار لا يستطيع دفعها إلا الأغنياء. ارتفعت أسعار المواد الغذائية في بيروت ولبنان 300 في المئة.

بسبب هذه التصاريح الصادرة عن عزمي بك وعلي منيف، اغتنى البعض بينما لم تحصل أغلبية السكان على أي غذاء، وماتت في الليل وفي النهار أمام المحلات الغنية وتحت شرفات القصور، وأمام الفنادق والمطاعم، في الوقت الذي كان فيه الضباط والحكام والأغنياء يلهون ويغنون ويرقصون. انظر:
Yammine, pp. 42-47.

برز هذا النمط من التفسيرات التحليلية لاقتصاد المتصرفية قبل الحرب وخلالها وبعدها بقليل، وانقسم بين رؤية الإدارة العثمانية التي كانت تعاني تداعيات التدخل الغربي عبر نظام الامتيازات، والنزف البشري عبر الهجرة، ورؤية لبنانية تدعو إلى تنمية السياحة والتجارة وتثني على فوائد الهجرة[46]. فالرؤية الاقتصادية العثمانية تحمّل الهجرة مسؤولية التأخر الزراعي والصناعي، حيث إن الاهتمام في هذين القطاعين كفيل بتعويض واردات المهاجرين أضعافًا[47]، على الرغم من اعترافه بأن مرد ثروة المتصرفية ومظاهر العمران فيها، أموال المهاجرة، لكن وقائع الحرب الجديدة تفرض التفكير من منظور الاكتفاء الذاتي.

يفسر باحث عثماني آخر سبب الإصرار على زراعة التوت وتربية دودة الحرير، على الرغم من أن ربحية دونم مزروع بالتوت أدنى من ربحية مزروعات أخرى، باستسهال النساء العمل في هذا القطاع بعد هجرة الرجال[48].

يتخذ تحليل أحد الموظفين اللبنانيين في الدائرة الزراعية في متصرفية جبل لبنان أهميته من تجربته الميدانية ومشاهدته المباشرة للعلاقة بين مشكلة الزراعة وظاهرتي الهجرة والمجاعة. فهو يلاحظ الكثافة المرتفعة للسكان، وانخفاض حصة اللبناني من العائد الكلي إلى 62 فرنكًا، أي أقل 10 مرات من حصة

(46) انظر عرضًا لأبرز سمات هذين الاتجاهين في التفسير الاقتصادي: عبد المسيح، «المسألة الزراعية،» ج 2، ص 521-560.

(47) حسين كاظم بك، «لمحة نظرية في الزراعة،» في: لبنان: مباحث علمية واجتماعية: وهو الكتاب الذي نشرته لجنة من الأدباء بهمة إسماعيل حقي بك متصرف جبل لبنان سنة 1334 مارتية (1918)، نظر فيه ووضع مقدمته وفهارسه فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية. قسم الدراسات التاريخية؛ 18، 2 ج (بيروت: الجامعة اللبنانية، 1969)، ص 367-379.

(48) جلال بك، «الأحوال الزراعية والتجارية والصناعية والاقتصادية في جبل لبنان،» في: لبنان: مباحث علمية واجتماعية، حيث يعرض جدولًا للمنتوجات الزراعية ومقدار محصولاتها السنوية (ص 458) وجدولًا آخر للحاصلات السنوية من الأشجار المثمرة (ص 459) واستنتج من خلال هذا الجدول أن ربحية دونم مزروع بالزيتون هي 426 قرشًا، والليمون والبرتقال والموز 520 قرشًا ثم الكرمة 270 قرشا، في حين أن ربحية دونم مزروع بالتوت هي 190 قرشًا. وعلى الرغم ذلك هناك ميل لغرس التوت: لماذا؟ «إن ذلك ناتج عن سفر الوف من الرجال اللبنانيين وتركهم وطنهم إلى أمريكا... وبقاء النساء اللواتي فضلن صناعتي القز والدبس المختصتين غالبًا بهن، لقلة كلفة التوت والخرنوب بالنسبة إلى غيرهما من الأشجار» (ص 459).

المواطن الفرنسي، 625 فرنكًا، ما يعتبر حصة غير كافية لتأمين قوت الفرد، حيث بدأ «البؤس الأسود» يدفع اللبنانيين إلى البحث عن مكان آخر، ما أدى إلى هجرة كثيفة وخطرة.

يركز التحليل على عدم قدرة الزراعة في جبل لبنان على منافسة الزراعة في الولايات المجاورة بسبب ارتفاع الكلفة وانخفاض المردودية، كما أن التشكيل الطوبوغرافي لا يسمح باستخدام الآلات الزراعية. انخفض الإنتاج بين عامي 1904 و1914 أكثر من 25 في المئة عما كان عليه في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. وهو إذ يتحدث عن انعدام القدرة الاستشرافية بسبب «طبيعتنا الشرقية»، ودخول المجتمع في جدالات وصراعات سياسية (في شأن المختار والناطور)، ما حال دون التفكير بالمسائل الاجتماعية والاقتصادية، ما عرّض البلد للزوال والخراب بالهجرة والموت[49].

في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، كشفت دراسات التاريخ الاقتصادي كيف أن اقتصاد متصرفية جبل لبنان هو واحد من أكثر الاقتصادات اندماجًا في التقسيم الدولي للعمل في العقود التي سبقت الحرب الكونية، من خلال تحليل بنية التجارة الخارجية (الواردات والصادرات)، حيث شكلت الواردات الغذائية 50 في المئة نتيجة التخصص القوي في أحادية إنتاج الحرير للتصدير.

في المقابل، تؤكد بنية الصادرات درجة التخصص القوي في جبل لبنان، حيث تشكل صادرات الشرانق والحرير 62.03 في المئة. أدى هذا التخصص إلى انهيار الزراعة الغذائية وتراجع الحلالات والصناعة النسيجية المحلية وإضعاف النشاط الحرفي والمانيفاكتوري[50].

لكن قطاع الحرير كان يواجه أزمة فعلية، بعد أن كان البؤرة الرئيسة للنشاط الاقتصادي بعد عام 1880. وفي التسعينيات، كان نصف الأراضي في الجبل

---

(49) أسعد بك يونس، «الزراعة في لبنان،» المجلة الفينيقية (1919)، وأعادت نشرها مجلة دراسات بترونية، العدد 2 (2004)، القسم الفرنسي، ص 50-56، وهي تصدر عن المركز الثقافي البلدي (البترون)، والمقالة بالفرنسية: Assaad Bey Younnes, «L'Agriculture au Liban (1919),» *La Revue Phenicienne*, 1919.

(50) Boutros Labaki, *Introduction à l'histoire économique du Liban: Soie et commerce extérieur en fin de période ottomane (1840-1914)* (Beyrouth: Université libanaise, 1984), pp. 357-368.

والمنحدرات المتاخمة مزروعة بالتوت، ويشكل الحرير 50 في المئة من قيمة صادرات بيروت[51]. ويؤكد نقاش[52] أن نحو 50 ألفًا من أسر الجبل تعيش بشكل مباشر من الحرير لجهة قوة العمل في المصانع، وتبلغ 14000 عامل يضافون إلى 165000 يعملون في رعاية أشجار التوت وتربية الشرانق. «لكل هذه الأسباب تصعب المبالغة أكثر من ذلك في تقدير الدور المحوري للحرير في الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الجبل»[53]. لكن هناك جوانب ضعف في تربية هذه الصناعة وتنظيمها في أعوام ما قبل الحرب.

تضاعف عدد أشجار التوت في التسعينيات، ثم تباطأ النمو، ووصل الإنتاج إلى ذروته في عام 1910، كما اتبع تصنيع الحرير الخام وتصديره خطًا مماثلًا. زاد عدد مصانع الحرير من 100 مصنع في أوائل الثمانينيات إلى ما يناهز 200 مصنع في العقد الأول من القرن العشرين، في حين أدى الانخفاض الحاد في الأسعار إلى توقف 30 إلى 40 مصنعًا منها. وواجهت صناعة الحرير مشكلات خطرة قبل عام 1914، مثل انخفاض الأسعار العالمية، والعجز عن منافسة المنتجين اليابانيين. وبحسب دوكوسو، هناك تخلف وانعدام كفاءة في كل مرحلة من مراحل العملية الصناعية. تخلى المستورد الفرنسي عن استيراد الحرير اللبناني، بمجرد أن المنتجين الآخرين مثل الصينيين واليابانيين نجحوا في تصنيع خيوط من نوعية أفضل وأرخص، ما عرّض الصناعة اللبنانية إلى ضغط خطر. ومن أسباب ضعف الصناعة اللبنانية أنها بقيت تحت السيطرة المحكمة لرأس المال الفرنسي، إن لجهة رأس المال العامل (نصفه يأتي من فرنسا)، وإن لجهة الشراء، حيث إن خمس دور فرنسية كانت تشتري ثلثي صادرات بيروت من الحرير.

كما استمر الاعتماد على البيض المستورد، ومنع مستوردو بيض القز الأجنبي قيام معهد باستير ثانٍ لإنتاج البيوض المحلية. كتب أوين: «صناعة الحرير

---

(51) Paul Saba, «The Development and Decline of the Lebanese Silk Industry» (B. Litt. Thesis, Oxford University, 1977), pp. 6-62, and Gaston Ducousso, *L'Industrie de la soie en Syrie et au Liban* (Beyrouth: Imprimerie catholique, 1913), p. 117.

(52) A. Naccache, «Moriculture, grainage, sericulture et filature au Liban,» Papier présenté à: Actes de la conférence technique séricicole international, Alès, France, 1955.

(53) روجر أوين، **الشرق الأوسط في الاقتصاد العالمي 1800-1914**، ترجمة سامي الرزاز (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1990)، ص 350.

اللبنانية مثال جيد على التصنيع الذي يحدثه ذلك التفاعل الخاص بين قوى السوق الدولية والمزايا النسبية المحلية، والذي ينهار عندما تكف هذه الشروط نفسها عن التوافر»[54].

تنحو الدراسات الاقتصادية المعاصرة في تفسيرها للمجاعة والموت خلال الحرب الكبرى إلى استثمار التاريخ الكمي، حيث يستفاد منها تلميحًا إلى تحميل طبيعة النظام الاقتصادي، المرتبط بحركية السوق التجارية النامية وآليات الاستيراد والتصدير وأثارها في الفلاحين في جبل لبنان، المسؤولية. فينطلق هذا النمط من التحليل من بنية الملكية العقارية المفتتة من جهة، ومن نظام الشراكة الزراعية في الملكيات الكبرى. ويتم تناول الموضوع من زاوية الطبقات الاجتماعية والإمكانات العقارية لكل من هذه الطبقات، على اعتبار أن شريحة واسعة من أهالي الجبل محدودة الدخل هي التي واجهت الحرب، أما الفئة الغنية فكان عندها ما يكفيها من فائض عقاري تصرفت به من أجل الحفاظ على مستواها الاجتماعي[55].

ما يميز مثل هذه التفسيرات دراستها القدرة الإنتاجية لدرهم المساحة (المزروع بالتوت والزيتون)، واستخدام مردوده لتأمين المواد الغذائية، بعد تقدير لمتوسط عدد أفراد الأسر وحاجتها اليومية إلى القمح والطحين. لا تغيب عن هذه الدراسات جداول ارتفاع أسعار المواد الغذائية، ومقارنتها بين منطقة وأخرى، لتحديد المتغير الجوهري في هذا الفرق (وإذا كان سياسيًا مقصودًا)، وسياسات المثلث الاتحادي (جمال وأنور وطلعت) في احتكار حاصلات البلاد قانونًا، وقبلهم احتكارات تجار المدن للحنطة والحبوب وبيعها بأثمان باهظة[56]. كما أن كبار الملاكين (بعد أن عينوا نواطير لحراسة أراضيهم ليلًا نهارًا) توقفوا عن العمل

(54) أوين، ص 353. انظر كذلك في شأن علاقة الاقتصاد اللبناني - السوري بالاقتصاد الفرنسي خصوصًا في مسألة إنتاج الحرير وسيطرة الرساميل الفرنسية على مجمل نشاط هذا القطاع: وجيه كوثراني، **بلاد الشام في مطلع القرن العشرين: السكان والاقتصاد وفلسطين والمشروع الصهيوني، قراءة في وثائق الدبلوماسية الفرنسية**، ط 3 (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).

(55) نايل أبو شقرا، «الغلاء وأثره في محنة الحرب العالمية الأولى،» في: **لبنان في الحرب**، ج 1، ص 17-52.

(56) المصدر نفسه، بالاستناد إلى: يوسف الحكيم، **بيروت ولبنان في عهد آل عثمان**، ط 2، ذكريات؛ 2 (بيروت: دار النهار للنشر، 1980)، ص 249.

في أراضيهم منذ عام 1915، ما حرم الفعلة والعمال من مورد مهم كان ينتج من العمل المأجور.

في السياق عينه، واستنادًا إلى أرشيفات خاصة، عرضت بعض التفسيرات لتطور أسعار العملات خلال الحرب، وكذلك لتطور الأجور والرواتب، وهي إذ انطلقت من مقطوعية الفرد السنوية من القمح (قرابة 200 كلغ) لدراسة العلاقة بين الأجور والقدرة الشرائية لكمية القمح، استنتجت أن تطور حركة الأجور بطيئة قياسًا على تطور حركة الأسعار، والنتيجة هي انخفاض القيمة الشرائية للأجور[57].

2- الشبكة المفاهيمية

تبدو الشبكة المفاهيمية المرتبطة بموت السكان في جبل لبنان وبيروت، على قدر من التعقيد، لأن فهمها على المستوى الزمني لا يقتصر على سنوات الحرب، بل يمتد قرنًا من التموجات السكانية، حيث تراجع مستوى الخصوبة منذ سبعينيات القرن التاسع عشر، وبدأت منذ هذا التاريخ مؤشرات للمجاعة نتجت من تصدع العلاقة في التبادل اللامتكافئ[58] بين اقتصاد جبل لبنان الطرفي والاقتصاد الفرنسي المركزي، كما بدأت موجات الهجرة المخيفة: إنها الرحلة الأولى إلى «العالم الجديد».

في المستوى المكاني – الجغرافي، تتداخل الدوائر، من الصغرى وهي القرى والبلدات المنتشرة في الأرياف، والمرتبطة بدوائر أكبر هي المدن (وبعض المراكز

---

(57) عبد الله سعيد، «تطور حركة الأسعار والأجور،» في: **لبنان في الحرب**، ج 1، ص 273-416.

(58) عن مفهوم التبادل اللامتكافئ والانتقال من التخصص إلى التبعية، انظر: سمير أمين، **التطور اللامتكافئ: دراسة في التشكيلات الاجتماعية للرأسمالية المحيطية**، ترجمة برهان غليون، ط 4، سلسلة السياسة والمجتمع (بيروت: دار الطليعة، 1985)، كتب: «....فالمناطق المستفيدة من نتاج تصديري هام نسبيًا من أجل تطور الرأسمالية في المركز، تمر بفترات لامعة من النمو السريع. لكن بما أن أي مجموع متكامل متمحور على ذاته لم ينشأ حول هذا الإنتاج، فإن المنطقة، بمجرد أن يفقد هذا الإنتاج من أهميته بالنسبة للمركز، تسقط في الانحطاط: فيُصاب اقتصادها بالركود بل يتدهور». وقياسًا، يمكن القول إن «المعجزة الاقتصادية» لجبل لبنان خلال القرن التاسع عشر كانت بلا مستقبل حين فقد اقتصاد الحرير أهميته، وهكذا سقط جبل لبنان منذ السبعينيات في سبات عميق قبل أن يتحول إلى منطقة مجاعات في الحرب الأولى، تمامًا كما حصل لاقتصاد السكر في البرازيل خلال القرن السابع عشر (ص 156-161).

الريفية التي تؤدي دورًا مدينيًا)، وشبكة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في ما بينها، وفي ما بين المدن في نطاق متصرفية جبل لبنان، وبين هذه الأخيرة والاقتصادات الخراجية الأخرى في الولايات السورية العثمانية، وبين المتصرفية والاقتصادات المركزية، خصوصًا الفرنسي (باعتباره المستورد الأكبر) والإنكليزي (باعتباره المصدر الأكبر). لكن هناك دائرة تمتد إلى القارة الأميركية بفعل الهجرة الكثيفة، وما نتج منها من عائدات مالية شكلت 40 في المئة من دخل المتصرفية.

في هذا المستوى المكاني الشاسع، يؤدي نظام المواصلات أهمية بالغة: حيوانات النقل في الأرياف، شبكة طرق مستحدثة تربط المراكز المدينية بعضها ببعض، وتربطها أحيانًا بأريافها، سكك الحديد التي تربط بيروت وجبل لبنان بالداخل السوري، والسفن البخارية عبر البحار. إن تقطيع هذه الشبكة في اقتصادات تبادلية، يماثل قطع أوردة الجسم الإنساني. ويُدرج النظام الإيكولوجي في هذا المجال، حيث الهواء الحار تتبعه موجات جراد، وتقلبات مناخية تؤثر في المواسم، وعمليات منظمة لقطع الغابات[59] تلت ارتفاع أسعار النفط والكاز، إضافة إلى زلزال وقع نهاية الحرب.

تحتل السياسات العثمانية، الإدارية منها والعسكرية والاقتصادية والمالية، موقعها الرئيس في شبكة التفسيرات: إلغاء النظام الأساسي للمتصرفية ودخول الجيش العثماني جبل لبنان وفرض التجنيد الإجباري أو دفع البدل العسكري والمصادرات وسلوك الجنود ومنع نقل الحبوب والأغذية بين الولايات والمناطق والاحتكارات والتخزين والضرائب الكثيرة والمنوعة، وإجراءات مالية مثل إصدار عملة ورقية سرعان ما تدهورت قيمتها الفعلية عن قيمتها الاسمية ووقف العمل بالكامبيو (الصرافة) وتأجيل تسديد الديون والندرة ومحل المواسم ونقل الحبوب إلى ألمانيا واستغلال تجار الحبوب في مراكز إنتاجه وتسويقه للأزمة وفشل سياسات الإعاشة والتموين وارتفاع الأسعار وانخفاض الأجور والنقص في السيولة النقدية والإقراض بفوائد خيالية وعمليات الرهن العقاري الظالمة.

---

(59) قُطعت أشجار لبنان بسبب انقطاع النفط وهو مادة أساسية لصيانة سكك الحديد، وتشكلت لجنة تحت اسم «مقاولي أخشاب التدفئة» (ومنهم جورج فيليب ثابت) وراحت تقطع الأخشاب بأثمان زهيدة، فانتهى لبنان إلى التصحر. انظر: Yammine, *Quatre ans de misère.*

لا يكتمل عقد شبكة التفسير لمجاعة الحرب من دون تحليل بنية اقتصاد المتصرفية وتوزع عائدات الدخل بين الزراعة والصناعة والاصطياف وأموال المهاجرين. تتوضح في هذا التحليل التبعية الاقتصادية المزدوجة: ارتباط جبل لبنان ببيروت وبالسوق الأوروبية من جهة، وازدياد اتكاله على الداخل السوري لتزويده بحاجاته من الحبوب واللحوم، وتبعية تنخر أسس الاستقلال الذاتي السياسي، ورصيد تناقضي فاجع. وزاد اتكال اقتصادي على الخارج يساهم في الازدهار الاقتصادي وفي النهضة الثقافية، إلا أن هذا الاتكال كان مسؤولًا عن موجات الهجرة المتتالية إلى «العالم الجديد»[60]، ما سميته الرحلة الأولى، كما كان مسؤولًا عن المجاعة خلال الحرب الكونية، وهي الرحلة الثانية إلى «العالم الآخر».

ينبغي في هذه الشبكة - من خلال تحليل الصادرات والواردات - تبيان كيف أن اقتصاد المتصرفية من بين الاقتصادات الأكثر اندماجًا في الاقتصاد الدولي، وبالتالي هو اقتصاد تنطبق عليه سلبيات «التبادل اللامتكافئ» كلها.

يبقى ألا نهمل الجانب الإنساني والقيمي والأخلاقي في أي منظومة تفسير وفهم. فجانب من المأساة نتج من انعدام العدالة والمساواة. وإذا كان الموت فتك بالفقراء، فهذا نتيجة سوء توزيع الملكيات العقارية في الأرياف، وسوء توزيع الدخول في المراكز المدينية (على الرغم من أن نسبة الموت في المدن هي أقل منها في الريف، ما يعني أن هذا الأخير كان الطرف الأضعف في النمط الرأسمالي السائد).

انهار النظام الأخلاقي والقيمي، وتوقفت السرديات بدهشة أمام الوحشية التي ميزت الحرب: امتناع الأغنياء عن تشغيل الفقراء، والإقراض بفوائد جنونية، والموت جوعًا على أبواب المتخمين، وأعمال تعدٍ وتشليح وقتل، وأكل جيف حيوانية وبشرية.

---

(60) فواز طرابلسي، تاريخ لبنان الحديث: من الإمارة إلى اتفاق الطائف (بيروت: رياض الريس، 2008)، ص 74.

الشكل (2-1)

الشبكة المفاهيمية للمجاعة والموت في جبل لبنان وبيروت خلال الحرب الكونية الكبرى (1914-1918)

المجاعة - الأمراض والأوبئة - الموت

المجال الجغرافي
- قرى وبلدات في الريف
- مراكز استقطاب ريفية
- مدن ساحلية
- نظام المواصلات : طرق وسكك حديد

النظام الإقتصادي
- بنية اقتصاد المتصرفية
- العلاقة مع الولايات السورية العثمانية
- العلاقة بالإقتصاد العالمي

السياسات الإدارية والعسكرية والإقتصادية والمالية العثمانية
- دخول الجيش الجبل ونقض البروتوكول
- التجنيد الإجباري (سفر برلك)
- المصادرات والإحتكارات
- إصدار العملة الورقية وفرضها
- وقف أعمال الكامبيو
- تدهور أسعار العملة

النظام الإيكولوجي
- الهواء الحار
- الجراد (1915-1916)
- الزلزال

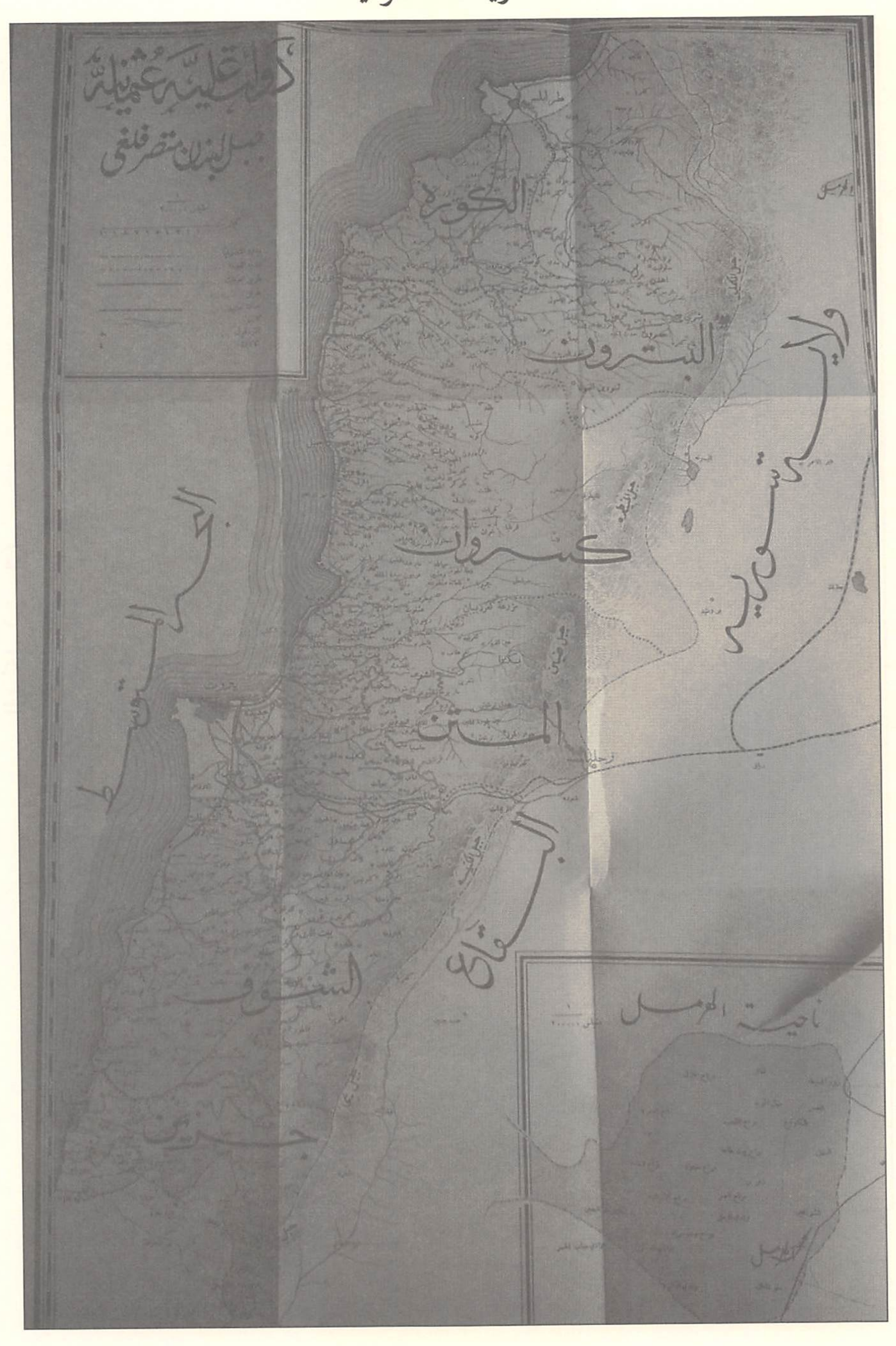
النظام الصحي
- مصادرة الأطباء
- نقص وفقدان الأدوية
- أنواع الأمراض والأوبئة

النظام الإجتماعي
- الطبقات الإجتماعية
- سوء توزيع للملكية العقارية
- تقسيم اجتماعي للعمل في المدن (حرف ورواتب واجور..)

النظام الأخلاقي والقيمي
- الإحتكار ورفع الأسعار
- حبس الأغنياء لأموالهم
- تناقضات في المشهد الإجتماعي
- الإقراض بفوائد جنونية
- أكل جيف الحيوانات والبشر
- أعمال قتل وتشليح

الخريطة (2-1)

خريطة المتصرفية



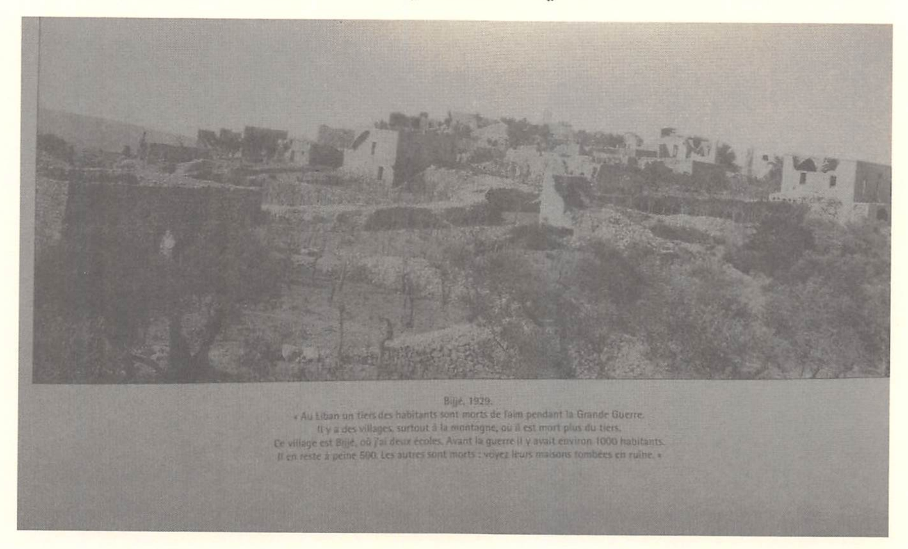
الصورة (2–1)

جمعية خيرية توزع الخبز على الفقراء في مدينة البترون
خلال المجاعة الكبرى في عام 1916



الصورة (2–2)

الخراب في بلدة بجه في قضاء جبيل



الفصل الثالث

منعرج العشرينيات
التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية
في البلاد التونسية بعد الحرب العالمية الأولى

محمد الأزهر الغربي

تعيش البلاد التونسية اليوم مرحلة تطرح نخبها السياسية والثقافية، فيها، تساؤلات عدة، تشبه إلى حد كبير مرحلة البحث عن الذات، وهي مرتبطة أشد الارتباط «بالثورة» التي قوّضت أركان السلطة وأربكت البنى الاجتماعية والثقافية السائدة، ودفعت إلى البحث عن قضايا تتعلق بالذاكرة والهوية المتصلة بنمط المجتمع المزمع إنشاؤه لبناء «الغد الأفضل».

في هذا السياق، تبحث الأطراف الفاعلة كلها عن مرجعيات فكرية وثقافية وسياسية تستند إليها. الأمر الذي يفسر عودة التاريخ إلى الفضاء العام بعد أن كان حكرًا على السلطة السياسية وفضائها الخاص، تطوّعه حينًا وتقصّيه أحيانًا.

رأى بعض النخب السياسية والثقافية أن الأنموذج الذي بناه الحبيب بورقيبة في مرحلة الدولة الوطنية يمثل حلًا لتونس المستقبل، فبدأت تبحث في تاريخ بورقيبة والبورقيبيين بالاعتماد على مقاربة «الزمن الراهن»[1]. وهناك من اعتقد أن الحركة الإصلاحية قاعدة لتونس الحديثة فسارع إلى النبش في تاريخ زعمائها – مثل خير الدين باشا – وأطوارها وتصوراتها التي حاولت التوفيق بين الشرق والغرب. حاول طرف ثالث تجاوز بورقيبة لارتباط حكمه بالشخصنة وبالتأسيس للدكتاتورية، فركز على دراسة الحزب الجديد ودوره في بناء الفكر الدستوري وقيادة الحركة الوطنية بشتى روافدها، بما في ذلك الحركة النقابية واليسارية انطلاقًا من ثلاثينيات القرن الماضي[2].

في الحقيقة، الفصل بين الشخصنة البورقيبية والمرجعية الدستورية مفتعل، إذ بُنِيَت دولة بورقيبة على هذه الثنائية التي حاول تحطيمها زين العابدين بن علي إبان

---

(1) أعمال المؤتمر العالمي الأول المنعقد بتاريخ 1-3 ديسمبر 1999: الحبيب بورقيبة وإنشاء الدولة الوطنية: قراءات علمية للبورقيبية، إعداد وتقديم عبد الجليل التميمي، السلسلة السادسة: البلاد العربية وتركيا وأفريقيا؛ 10 (زغوان: مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، 2000).

(2) عدنان منصر، «الحزب، الدولة، النقابة،» الكراسات التونسية، العددان 159-160 (1992).

حكمه، ففكر في إنشاء حزب مغاير بعد عام 1987، اختار له اسم «حزب التغيير» بغية استعماله لبناء ثنائية جديدة تجمع بين شخصه وحزبه. وبالتالي، يمكن أن نرى في هذا المنحى شكلًا من أشكال إعادة إنتاج البورقيبية.

مهما يكن، يكاد يجمع الجدل السياسي والثقافي الذي تعيشه البلاد التونسية - في ارتباط بتاريخها وثورتها ومستقبلها - ثلاث مرجعيات: الهوية العربية الإسلامية والحركة الإصلاحية والحركة الوطنية. وما زال الجدل قائمًا في شأن طبيعة الحركة الوطنية وزعمائها وتاريخ انبعاثها حيث ترسخ في ذاكرة التونسيين أنها أُسست خلال ثلاثينيات القرن الماضي مع ميلاد «الحزب الجديد» الذي كوّنه بورقيبة، والذي تولّى في ما بعد بناء الدولة الوطنية، ثم تونس الحديثة.

نحاول في هذه الدراسة البحث في هذه الجدلية التي هناك من اختزلها في الربط بين «زعيم وحزب وأمة»، حيث جرى هذا الانصهار المقدس في الثلاثينيات في أثر «الانشقاق المبارك»، وغايتنا في ذلك هي أن ندرك إن كانت هذه المسألة حقيقة تاريخية أم مجرد بناء ووهم خالٍ من الصحة. فهل الثلاثينيات هي المنعرج الذي دخلت البلاد التونسية من خلاله القرن العشرين؟ هل يمكن اعتبار العشرينيات في ارتباطها بنتائج الحرب العالمية الأولى مرحلة جديدة وحاسمة مكّنت البلاد التونسية من أن تطرق باب القرن العشرين؟

أولًا: أسطورة الثلاثينيات
استحواذ الدكتاتورية على التاريخ والذاكرة

شهدت البلاد التونسية منعرجًا حاسمًا غداة الاستقلال، تمثل أساسًا في وضع حد للنظام الملكي وإعلان الجمهورية في 25 تموز/ يوليو 1957، ما فسح المجال أمام الحبيب بورقيبة ليتولى رئاستها بعد أن كان رئيسًا للحكومة.

على الرغم من التفاؤل الذي ساد القاعدة العريضة من الشعب، اتّبع بورقيبة سياسة الإقصاء مع منافسيه وخصومه السياسيين، وصل حد الانتقام من بعضهم. فبعد التنكيل بالبايات والعائلات الحسينية والأعيان «البلدية»، جاء دور اليوسفيين الذين سجنهم ونفاهم ولاحقهم إلى حد اغتيال صالح بن يوسف في ألمانيا[3] في

(3) المنصف الشابي، صالح بن يوسف: حياة كفاح (تونس: دار الأقواس للنشر، 1990).

عام 1961. كما استغل بورقيبة «المؤامرة الانقلابية» وتحركات اليسار الطلابي لمصادرة حق التنظيم والتعبير الذي أفضى به إلى سياسة الحزب الواحد الذي تزعمه «المجاهد الأكبر».

منذ مطلع الستينيات، دخلت البلاد التونسية مرحلة الحكم الفردي الذي بدأ يؤسس للدكتاتورية، فاستعملت الوسائل كلها، مثل الصحافة والإذاعة والتلفزة من خلال حصة يومية سُمّيت «توجيهات الرئيس». وصار بورقيبة يروي التاريخ بنفسه خلال «محاضرات» قدمها في بداية السبعينيات في الجامعة التونسية، يعرض من خلالها «الملحمة البورقيبية» في مرحلة الكفاح الوطني، فيحط من شأن رفاقه مثل محمود الماطري والبحري قيقة والثعالبي وصالح بن يوسف وغيرهم. كانت عملية «تصفية» للتاريخ، الغاية منها إنشاء ذاكرة جديدة تعتمد على دور القائد الملهم الذي «خلق أمةً من شتات».

لعل الخطر في الأمر هو أن النظرة البورقيبية إلى التاريخ لم تقتصر على رواية «المجاهد الأكبر»، بل طوّعت الكتب المدرسية، خصوصًا في المرحلة النهائية، لتصنع مادة جديدة تسمى «تاريخ الحركة الوطنية»، تتمحور كلها حول دور بورقيبة وحزبه في مواجهة الاستعمار وصولًا إلى الاستقلال عبر «سياسة المراحل».

انخرطت الجامعة بدورها في هذه الرؤية البورقيبية لتعمق البحث وتنظر إلى هذه القراءة. ويمكن أن نختزل الكتابات الجامعية في هذا الشأن في ثلاث تيارات تلتقي كلها في نهاية الأمر:

- **المنهج الصياحي** وتزعمه محمد الصياح مدير الحزب الجديد. وظف بورقيبة انتماءه السابق إلى اليسار لاستعماله للتصدي لهذا الصنف من المعارضة بعد أن تخلّى الحزب عن تسمية الحزب الحر الدستوري ليصبح الحزب الاشتراكي الدستوري. جمع الصياح الوثائق والمعلومات المتعلقة بالنضال البورقيبي وحرر عددًا من المقالات والكتب[4] في الغرض نفسه، ساعيًا إلى توظيف بعض الأقلام

---

(4) *Le Néo-Destour face à la deuxième épreuve, 1938-1943: Cinq ans de résistance*, Histoire du mouvement national tunisien (Tunis: Centre de la documentation nationale [CDN], 1970); *Le Néo-Destour brise le silence, 1944-49: Pour préparer la troisième épreuve; 1*, Textes réunis et commentés par Mohamed Sayah, Histoire du mouvement national tunisien (Tunis: Centre de la documentation nationale [CDN], 1972), et *Le Néo-Destour face à la troisième épreuve, 1952-1956, 2: La Victoire*, Textes réunis et commentés par Mohamed Sayah, Histoire du mouvement national tunisien, Documents; 14 ([Tunis]: Dar El Amal, 1979).

الجامعية لخدمته. آل هذا الجهد إلى بعث المشروع الوطني للبحث في عام 1981، ويهدف إلى جمع الوثائق التاريخية المتعلقة ببورقيبة وحزبه والمودعة في الأرشيفات الفرنسية، ثم استنساخها وجلب نظائرها إلى تونس. لهذا الغرض، وظف بورقيبة صداقته مع شارل أندري جوليان، وتطور المشروع في مرحلة لاحقة ليصبح المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية الذي نظم ندوات عدة، بينها ندوة تناولت التحولات الاجتماعية في تونس في الثلاثينيات.

- **المنهج المحايد.** أنجز جامعيون لم يشتهروا بمناهضتهم للحزب ولبورقيبة بحوثًا أكاديمية بعيدة عن دائرة السياسة والأيديولوجيا، تتمحور كلها حول مرحلة الثلاثينيات وما تلاها. يمكن أن نشير - على سبيل الذكر لا الحصر - إلى أطروحة لطفي الشايبي عن الاشتراكيين الفرنسيين ومواقفهم من الوطنيين التونسيين[5]، وبحث حسن العنابي عن أزمة الثلاثينيات وتداعياتها في تونس[6]، وأطروحة عبد السلام بن حميدة عن الرأسمالية والحركة النقابية في تونس[7].

مع ظهور الـ «ماكروهيسطوريا» منهاجًا جديدًا في البحث، أنجز بعض الباحثين الشبان دراسات مونوغرافية تشمل بعض الجهات (مثل بنزرت والساحل والقيروان وباجة والكاف وغيرها)، تتناول جلها فترة «ما بين الحربين»، لتؤكد في نهاية المطاف انخراط هذه المناطق في المسار العام للحركة الوطنية الذي حدده بورقيبة وحزبه. كأني بهؤلاء أو بمؤطريهم يبحثون عن شرعية تاريخية لهذه الجهات عساها تنال حظها من التنمية التي استأثر بها الساحل الذي تنتمي إليه أغلبية الوزراء وإطارات الدولة، بمن في ذلك بورقيبة وبن علي. وبالتالي، يوظف هذا التيار غير المناهض لبورقيبة وحزبه التاريخ للدفاع عن ماضي هذه الجهات وحاضرها، ليلتقي أصحابه مع المؤرخين اليساريين الذين استعملوا التاريخ للتنظير والدعوة إلى العدالة الاجتماعية، معتمدين في ذلك منهج المادية التاريخية.

---

(5) Mohamed Lotfi Chaïbi, *Socialistes français et nationalistes tunisiens: Histoire d'une rencontre (1945-1956)*, Avant-propos de André Nouschi ([Tunis: s. n.], 1997).

(6) H. El-Annabi, «La Crise de 1929 et ses conséquences en Tunisie» (Dissertation pour le certificat d'aptitude à la recherche, Faculté des lettres et des sciences humaines, Tunis, 1974).

(7) Abdesslem Ben Hamida, *Capitalisme et syndicalisme en Tunisie de 1924 à 1956*, Faculté des lettres et sciences humaines de Tunis. 4e série, Histoire; 36 (Tunis: Université de Tunis, Faculté des sciences humaines et sociales, 2003).

- منهج المادية التاريخية. عُرف عن بعض المؤرخين الجامعيين مناهضته الفكرية والسياسية للحزب الحاكم، لكنه خصص جانبًا مهمًا من كتاباته للثلاثينيات ليبيّن العلاقة الجدلية بين تدهور أوضاع التونسيين المادية والمعاشية جراء الأزمة الاقتصادية العالمية من ناحية، ونشأة الحزب الجديد في عام 1934 من ناحية ثانية. يعتبر المؤرخ الفرنسي أندريه نوشي رائد هذه النظرة إلى الحوادث في مقالته المعروفة والمنشورة في الكراسات التونسية(8)، واتخذ علي المحجوبي في كتابه عن جذور الحركة الوطنية التونسية التوجه نفسه(9)، وحذت حذوه بحوث عدة ركزت على قضية التداين بالساحل وإعلان ميلاد الحزب في الجهة نفسها وبصفة أخص في قصر هلال. ومن المفارقات وصول أكاديميين تونسيين يساريين إلى نتائج تضفي الشرعية والصدقية على القراءة البورقيبية والصياحية للتاريخ، وبالتالي مهما اختلفت المناهج والمقاربات التاريخية تبقى النتيجة نفسها: تونس الحديثة بعثت مع بورقيبة وحزبه في الثلاثينيات. وبذلك، صار من مسلّمات النخب التونسية وعموم الناس أن القرن العشرين بدأ في تونس بحدثين تداخل بينهما العالمي والمحلي: أزمة الثلاثينيات وميلاد الحزب الدستوري الجديد، فغُيّبت الحرب العالمية الأولى وانعكاساتها على البلاد التونسية، ما يوحي بدخول التونسيين القرن العشرين متأخرين.

وباعتبار أن هذه القراءة ركزت على المعطى الاقتصادي، فإننا نتوخى المنهج نفسه لنصل إلى نتائج قد تكون مغايرة.

ثانيًا: الحرب العالمية والتحولات الاقتصادية في تونس خلال العشرينيات

لم يكتب الأكاديميون التونسيون - وهذا مستغرب - عن هذه الفترة وهذا الموضوع، وهذا يؤكد الرغبة في تغييب هذه الحقبة من تاريخ البلاد التونسية للتأسيس لمنعرج الثلاثينيات. ولسنا على علم بوجود بحث أكاديمي تونسي مستقل

(8) André Nouschi, «La Crise de 1930 en Tunisie et les débuts du Néo-Destour,» *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée*, vol. 8, no. 1 (1970).

(9) Ali Mahjoubi, *Les Origines du mouvement national en Tunisie 1904-1934*, Faculté des lettres et sciences humaines de Tunis. 4e série, Histoire; 25 (Tunis: Université de Tunis, 1982).

بذاته تناول فترة العشرينيات في علاقتها بالحرب العالمية الأولى باستثناء بعض المقالات أو رسائل الماجستير[10]، في حين خصص بعض الباحثين الفرنسيين دراسات لهذا الموضوع[11]. وما يزيد في الاستغراب أن الفاعلين التونسيين في خلال العشرينيات دوّنوا كتابات عدة تحوي مادة غزيرة تدل على زخم الفترة، نذكر منها كتاب محمد صالح مزالي تطور تونس الاقتصادي 1881-1920[12]، وكتاب عبد العزيز الثعالبي تونس الشهيدة[13].

كتب الفاعلون في ميادين مختلفة، لكننا نركز على أهم التحولات الاقتصادية في صلتها بالحرب لنخلص في ما بعد إلى التحولات الاجتماعية والثقافية، لنربط ذلك كله في نهاية المطاف بالمعطى السياسي.

أكدت الدراسات التي تناولت الحقبة الاستعمارية من تاريخ البلاد التونسية أن فرنسا كانت تهدف أساسًا إلى استغلال الثروات الفلاحية والمنجمية المنوّعة. ولئن خاضت أغلبية الباحثين في كنه الاستعمار وطبيعته، حصل شبه إجماع على طابعه الاقتصادي والاستغلالي[14]، ما دفع بعضهم إلى تأكيد علاقة «التبعية» التي هي في حقيقتها «تبعية اقتصادية» ناتجة من مرحلة هيمنة زراعية واكبت العشرية الأخيرة من القرن التاسع عشر، ثم مرحلة استغلال منجمي استمرت من مطلع القرن العشرين إلى الحرب العالمية الأولى[15].

فما حقيقة التحولات الاقتصادية التي حصلت في تونس غداة هذه الحرب؟

---

(10) سنذكر هذه البحوث عند الإحالة عليها لاحقًا. Daniel Goldstein, *Libération ou annexion: Aux Chemins croisés de l'histoire tunisienne (1914-1922)* (Tunis: Maison tunisienne de l'édition, 1978).

(11) François Arnoulet, «Les Tunisiens et la première guerre mondiale (1914-1918),» *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, vol. 38, no. 1 (1984).

(12) محمد الصالح مزالي، تطور تونس الاقتصادي 1881/ 1920، نقله إلى العربية الهادي التيمومي، تاريخ (تونس: بيت الحكمة، 1990).

(13) عبد العزيز الثعالبي، تونس الشهيدة، تعريب حمادي الساحلي؛ مراجعة محمد العروسي المطوي، ط 2 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988).

(14) Ben Hamida, *Capitalisme et syndicalisme.*

(15) Azzam Mahjoub, *Industrie et accumulation du capital en Tunisie: Du XVIIIè siècle jusqu'à la seconde guerre mondiale*, Bibliothèque de droit de sciences politiques et économiques; 7 (Tunis: Centre d'études, de recherches et de publication de la faculté de droit et des sciences politiques et économiques, 1983).

منذ بدء الاحتلال في عام 1881، خضعت العلاقة بين الاقتصادين الفرنسي والتونسي لجدلية ارتباط الأطراف للمركز، ارتباطًا اتخذ شكل التبعية، فكانت فرنسا هي الممول والمصدر والمورد للإنتاج التونسي الذي كان يدور في فلك السوق الفرنسية. ومع اندلاع الحرب، تغيرت المعطيات فولدت علاقات جديدة في عشرينيات القرن الماضي، على مستويات عدة:

- التزود بالإنتاج التونسي: تعطلت الآلة الفرنسية عن الإنتاج، وتغيرت صبغة بعض المصانع التي تحولت إلى إنتاج ما يحتاجه الجنود من سلاح وعتاد ومؤونة. كما ساهمت عوامل أخرى كانخراط الشبان والكهول في الحرب في تراجع الإنتاج الصناعي الفرنسي. وفي ظل هذه التحولات، أدت المستعمرات دور المنقذ، حيث زوّدت تونس السوق الفرنسية بالمنتوجات الفلاحية، وبكميات أوفر من المواد الخام التي احتاجتها مصانعها، فأنتج ذلك نمو نسق الإنتاج في قطاع المناجم - وأساسًا الفوسفات والحديد - وكذلك في المجال الفلاحي حيث ارتفعت المردودية بسبب تظافر عوامل عدة، بعضها طبيعي.

جدول (3-1)

تطور الإنتاج الفلاحي خلال فترة الحرب[16]

المواد	1910-1914	1915-1919
القمح	7 320 000 قنطار	10 890 000 قنطار
الشعير	7 220 000 قنطار	9 120 000 قنطار
القصية	2 224 000 قنطار	2 650 000 قنطار
الزيت	959 181 قنطارًا	1 437 987 قنطارًا
الخمر	1 580 000 هكتوليتر	2 059 263 هكتوليتر

كانت النتيجة أن تغيرت نظرة البلد الأم إلى المستعمرات بصفة عامة. فبعد أن كان هناك من يشكك في جدواها ويعتبرها بعض آخر «متنفسًا» للاقتصاد الفرنسي،

(16) مزالي، ص 11.

اقتنع الجميع بضرورة وجود المستعمرات وجدواها، وصار يُنظر إليها على أنها «مجال احتياطي» يفعّل عند الحاجة.

لم تقتصر هذه الحاجة على فترة الحرب التي جعلت الاقتصاد التونسي مرتبطًا بتزويد الـ «متروبول»، بل تواصل الأمر على الصعد كلها مع بداية العشرينيات، فمع عودة الملاحة البحرية إلى سالف نشاطها ارتفع نسق الصادرات التونسية مثل الحبوب والزيوت والمواد المنجمية.

ساهمت الحرب وتبعاتها الاقتصادية في وعي سكان البلاد التونسية بقدراتهم على الإنتاج، وبحاجة فرنسا الملحة إليه، بل تبعيتها لهم في هذا الشأن، ولم تقتصر هذه التبعية على الإنتاج الفلاحي والمنجمي بل شملت جوانب أخرى مثل الجانب المالي.

- **الدعم المالي التونسي**: تفاقمت حاجة فرنسا إلى أموال لمواجهة تكاليف الحرب، مثل صناعة الأسلحة أو شرائها والإنفاق على الفيالق العسكرية وغيرها من مقتضيات تمويل حرب مدمرة استمرت طويلًا. وبمجرد انتهاء العمليات العسكرية، برزت الحاجة إلى أموال جديدة لإعادة بناء ما دمّرته الآلة العسكرية ولتمويل الصناعات الاستهلاكية وإعادة تنشيط الاقتصاد والاستثمار. نتج من ذلك عجز مالي في خزينة الدولة دفعها إلى الاقتراض المكثّف من بنوك الإصدار الفرنسية (بنك فرنسا وبنك الجزائر)[17] التابعة لها، ما تسبب باضطراب في المعادلة بين احتياطي الذهب والعملة المتداولة، وآل الأمر إلى تخلي فرنسا عن معيار الذهب (Etalon-or) الذي اعتمده طوال تاريخها لتحديد قيمة العملة، ما أفرز واقعًا جديدًا في فرنسا ومستعمراتها، بما في ذلك تونس. وصارت فرنسا تابعةً لمستعمراتها على المستوى المالي، كي تنهض باقتصادها وتواجه أزمتها المالية والاقتصادية، فبمجرد الإعلان عن القانون الفرنسي المؤرخ في 3 نيسان/ أبريل 1918 الذي يمنع رؤوس الأموال الفرنسية من أن تستثمر في الخارج، صدر في تونس الأمر العلي المؤرخ في 24 من الشهر نفسه، يمنع استثمار الأموال الفرنسية الموجودة في تونس في مجالات تونسية، لأن الأولوية لفرنسا في ذلك.

---

(17) Mohamed Lazhar Gharbi, *Le Capital français à la traîne: Ébauche d'un réseau bancaire au Maghreb colonial (1847-1914)* (Tunis: Faculté des lettres de Manouba, Université de la Manouba, 2003).

لم تقف أنانية الـ «متروبول» عند هذا الحد، بل انتهجت سياسة الاقتراض لتمويل اقتصادها، ودفعت سكان المستعمرة التونسية إلى المساهمة في «الاكتتاب الوطني» لجمع الأموال لمعاضدة الاقتصاد الفرنسي، ولئن ساهم بعض الفرنسيين في هذه القروض، جرى تحفيز التونسيين على ذلك عن طريق أوامر أصدرها الباي، كما قامت السلطة الفرنسية في تونس بحملات عدة «لدعم الفرنك الفرنسي».

لئن كانت تبعية الاقتصاد التونسي للاقتصاد الفرنسي ثابتةً منذ مطلع القرن العشرين، أدت الحرب العالمية الأولى - على الأقل خلال العشرينيات - إلى تبعية جديدة هي ارتباط الاقتصاد الفرنسي بالمستعمرات في مستوى المواد الخام والمواد الفلاحية التي وفّرتها في أثناء انشغال فرنسا بالحرب التي تواصلت في ما بعد، ليُضاف إليها الدعم النقدي.

لم يكن هذا التحول في العلاقة بين الطرفين ليغيب عن أذهان الجوالي الأوروبية المستوطنة في تونس - بمن في ذلك الفرنسيون - وعلى أذهان التونسيين، فأصبح جميعهم يندّدون بـ «أنانية المتروبول»، وانفرد التونسيون بنوع من الوعي الجديد يرتكز على أسس نظرية وواقعية أهمها:

• لتونس شخصيتها الاقتصادية، وبإمكانها أن تعوّل على نفسها بسبب الثروات التي تزخر بها، والتي وظّفها الفرنسيون لفائدتهم. تأكد ذلك في أثناء الحرب عندما تراجع توريد البضائع الفرنسية حيث عادت الصناعات المحلية إلى سالف نشاطها.

• السعي إلى بديل اقتصادي «وطني». نشطت الصناعات المحلية خلال الحرب، إضافة إلى الصناعات التقليدية برزت غداة الحرب صناعات تونسية جديدة في مجال تحويل المواد الغذائية والنسيج، وقام بعض زعماء الشباب التونسي، مثل عبد الجليل الزاوش، بهذه التجربة[18]. في المجال المالي، خاض محمد شنيق غمار محاولة بعث «بنك التعاضد» التونسي الذي أنشئ في بداية العشرينيات لتمويل الصناعات الوطنية الناشئة. ولئن طرح البديل الاشتراكي غداة

(18) عبد المجيد بالهادي، الوعي بالمسألة الإقتصادية في فكر النخبة التونسية (1860-1956) (تونس: مركز النشر الجامعي، 2011).

الحرب في بعض البلدان، انفردت النخبة التونسية بتبني الأنموذج التعاوني منهاجًا لبناء اقتصاد تونسي موازٍ للاقتصاد الفرنسي. يتميز هذا الأنموذج بتعاون الرأسمال الخاص والدولة، وهي الطريقة التي توخّتها ألمانيا لتحقيق ثورتها الصناعية في أواخر القرن التاسع عشر.

تطور دور النخب الاقتصادية التونسية التي برزت في بداية العشرينيات لتتحول إلى فئات ضاغطة من خلال الندوة الاستشارية والمجلس الكبير، دفاعًا عن مصالحها كفئة فاعلة في الحقل الاقتصادي، لها طموحاتها وتطلّعاتها التي تختلف عن طموحات الفاعلين الاقتصاديين الفرنسيين[19]. وأدت الحرب والتحولات التي أفرزتها إلى تغيير هيكلي في البنى الاقتصادية في تونس. ولئن ركزت الدراسات التاريخية على تبعية الاقتصاد التونسي للمتروبول، أصبح الاقتصاد الفرنسي بدوره يعاني بعض التبعية للمنتوجات التونسية. ولعل الفارق يكمن في مجالات هذه التبعية المتبادلة وفي حجمها.

مهما يكن من أمر، جعل الحراك التونسيين يدركون أن بلادهم تمتلك مقومات «الاقتصاد الوطني» على المستويات التالية:

• وجود فئة جديدة فاعلة على المستوى الاقتصادي يمكن اعتبارها برجوازية ناشئة منفتحة على العالم الخارجي، تمتلك مقومات الفعل الاقتصادي.

• تشكّل طبقة عمالية لها كل مقومات القدرة على الإنتاج، غير أن المعمرين والشركات المنجمية الفرنسية سخرتها لفائدتها، ولعله من الأجدى تحويل هذه الطاقة الإنتاجية لمصلحة الاقتصاد التونسي.

• تشكل سوق وطنية مكنت التجهيزات التي أحدثها الاستعمار من موانئ وسكك حديد وطرق من توحيد المجال التونسي، ما ييسر نقل البضائع بين أجزاء هذا «المجال الوطني» الذي أصبح قاعدة لسوق وطنية منفتحة على البحر وعلى البلدان المجاورة بفضل شبكة المواصلات الجديدة.

---

(19) الهادي جلاب، النخب الاقتصادية التونسية، 1920-1956: ظروف نشأتها وأوضاعها المادية (تونس: المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، 1999).

يمكن أن نجزم أن الحراك الاقتصادي الذي أحدثته الحرب حوّل البلاد التونسية إلى بداية قوة اقتصادية صاعدة تملك مقومات الاقتصاد الوطني، وأدى وعي الفاعلين التونسيين إلى انطلاق النضال من أجل تحقيق هذه الاستراتيجيا المتمثلة في مواصلة إنجاز مشروعهم الاقتصادي الذي يحررهم من التبعية الاقتصادية لفرنسا.

ثالثًا: مشاركة التونسيين في الحرب وتبلور الوعي الوطني

لم تشمل الحرب العالمية الأولى - التي كانت في أصلها حربًا أوروبية - المستعمرات، إذ لم تشهد بلدان المغرب العربي عمليات عسكرية، ومع ذلك أثرت هذه الحوادث في سكان البلاد التونسية، خصوصًا المسلمين منهم. بصرف النظر عن الضرر الحاصل جراء صعوبة تزويد البلاد بما تحتاجه من معدات ومواد استهلاكية، استنفرت الحرب عددًا كبيرًا من التونسيين الذين جُنّدوا قسرًا ليُنقلوا إلى ساحة الوغى.

1 - تجنيد التونسيين وبروز ثقافة سياسية جديدة

أُعلنت التعبئة العامة في البلاد منذ 2 آب/ أغسطس 1914، وأصدر الباي والمقيم العام الفرنسي مجموعة أوامر نذكر منها:

- أمر صادر في 1 آب/ أغسطس 1914 لتجنيد الرديف الأهلي التابع للأعوام السابقة انطلاقًا من عام 1904.
- أمر صادر في 9 آب/ أغسطس 1914 سمح بتعبئة جنود في أعوام 1901 و1902 و1903.
- أمر صادر في 10 آب/ أغسطس 1914 خوّل التونسيين التطوع للحرب.
- أمر صادر في 1 آب/ أغسطس 1914 خوّل المراقبين المدنيين تكوين قوات احتياطية.

استنفرت السلطة الفرنسية طاقاتها كلها لتسخير البلاد والعباد لجهدها الحربي، ما دفع بعض الباحثين الفرنسيين إلى اعتبار أن «التجنيد بلغ أقصاه»[20]،

(20) Goldstein, p. 162.

فأنهك البلاد والعباد. وكانت عمليات التجنيد تتم عن طريق «القرعة» التي كانت بالنسبة إلى الأهالي يوم مأتم، فخلدت الذاكرة الشعبية أمثلة عدة تجسد بكاء النساء وحزنهن نقلها الشعر الشعبي[21]. وشملت عمليات التجنيد الفئات والجهات التونسية كلها، فلم يسلم من ذلك إلا اليهود وسكان الحاضرة وحاملي الشهادات العلمية. وتمكّن بعض المطلوبين للجندية من تعويض ذلك بمبلغ مالي لم يكن بمقدور السواد الأعظم من الأهالي تسديده.

ضبطت الإحصاءات الرسمية عدد المجندين التونسيين في خلال أعوام الحرب كلها، فبلغ 62.461 مجندًا، مع العلم أن عدد سكان الإيالة قُدّر خلال الفترة نفسها بنحو 1.686.533 نسمة. وبالتالي، تبلغ نسبة المجندين 3.70 في المئة من العدد الإجمالي للسكان. وهي أرفع نسبة في بلدان المغرب إذا قارناها بالجزائر، حيث بلغت النسبة نفسها 3.5 في المئة وفي المغرب 0.1 في المئة.

يتضح أن الحرب العالمية الأولى كلفت البلاد التونسية ثمنًا باهضًا على المستوى السكاني والديموغرافي أكثر من غيرها من المستعمرات، خصوصًا أنها فقدت بين عامي 1914 و1918 عددًا مهمًا من هؤلاء المجندين بلغ 10.723 رجلًا (13 في المئة من المجندين) بصرف النظر عن عدد الجرحى[22]. مكّنت مشاركة التونسيين في الحرب - على سلبياتها - من اطلاع هؤلاء المجندين بالبلاد الأوروبية وحضارتها وتنظيماتها، ما أوجد عندهم نوعًا من الوعي السياسي والحضاري على الرغم من محدودية مستواهم الثقافي.

كما ولّدت ويلات الحرب عندهم نقمة ضد فرنسا التي جنّدتهم عنوة أو حشرتهم في ساحة الوغى دفاعًا عن مصالحها، مع العلم بأن عددًا من هؤلاء - شأنه شأن جانب مهم من سكان البلاد التونسية - كان يميل إلى الدفاع عن المعسكر المقابل الذي تزعّمته ألمانيا وانخرطت فيه تركيا. لذلك، تنامت ظاهرة الفرار

---

(21) نذكر من ذلك: «يا قايد يقيّد قيدك ما وكي وليدي كي وليدك». كما نذكر مطلعًا لقصيدة شعبيّة: «ياعين نوحي بالدموع حزينة لولاد خذاتهم فرانسا ومشينا»، ذكرها: Mahmoud Abdelmoula, *De l'Umma aux «nationalismes à l'occidentale»: Les Émigrés politiques de Tunisie en terre d'islam, en Europe, et leur lutte anticoloniale (1906-1924)* (Paris: Editions Tiers-monde 1993), p. 364.

(22) عاطف غبشوق، «الفرار من الجندية وبوادر العمل الوطني المسلح بالبلاد التونسية (1914-1918)» (رسالة الدراسات المعمقة، كلية الآداب والفنون والإنسانيات منوبة، 2004-2005)، ص 46-48.

من الجندية معلنة بداية رفع بعضهم السلاح ضد فرنسا[23] أو الصدام مع بعض الفئات التونسية التي وقفت إلى جانب فرنسا مثل بعض أفراد الجالية اليهودية[24]، وتعددت حالات التمرد كالعصيان الكبير في بنزرت في خريف 1914، أو تمرد الكتاتنة بصفاقس في الفترة نفسها، أو انتفاضة الجنوب في خريف 1915، وكانت كلها ردات فعل ضد التجنيد القسري ومحاولة لحماية أبناء العشيرة الفارين من الجندية[25].

بعد الحرب، عاد الجنود المسرحون إلى البلاد التونسية ليبثوا في جهاتهم وعائلاتهم مواقفهم العدائية لفرنسا، وعبّروا عنها من قبل في مراسلاتهم، فتكوّنت حينئذ الأسس الأولى للوعي الوطني في دواخل البلاد، وجاءت لتغذي العمل السياسي الذي قادته حركة الشباب التونسي في المدن قبل اندلاع الحرب، والذي أخمد في أثنائها.

إلى جانب هذا التحول الذي أحدثته مساهمة المجندين في صلب المجتمع التونسي، حصل حراك آخر تمثل في هجرة اليد العاملة خلال الحرب، حيث كانت نسبة من الذين تقع تعبئتهم للحرب تشغل في الفلاحة أو في المصانع الفرنسية.

2- هجرة التونسيين إلى فرنسا غداة الحرب والآفاق الجديدة

قدر بعض الدراسات عدد العمال التونسيين في فرنسا في أثناء الحرب بـ 30.000 عامل[26]، ولم تقف هذه الظاهرة في أثر انتهاء الحرب، بل تزايد عدد هؤلاء العمال التونسيين الذين ساهموا في إعداد الدورة الإنتاجية للاقتصاد الفرنسي، فأوكلت إليهم أصعب المهمات، وكانوا يعملون في أوضاع قاسية،

---

(23) المصدر نفسه.

(24) فتحي العايدي، «قراءة في حوادث أوت - سبتمبر 1917 بين جنود التيرايور التّونسيّين والجالية اليهوديّة،» في: روافد (تونس: المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية، 2010)، ج 15، ص 149-161.

(25) محمد العادل دبوب، «الرأي العام التونسي والحرب العالمية الأولى: نماذج من خلال السلسلة الفرعية «الشؤون العسكرية» (شهادة الكفاءة في البحث في التاريخ، تحت إشراف الكراي القسنطيني، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1992-1993)، ص 82-94.

(26) M'Barka Hamed-Touati, *Immigration maghrébine et activites politiques en France de la première guerre mondiale à la veille du front populaire*, Publications de la Faculté des sciences humaines et sociales de Tunis. Série 4, Histoire; 23 (Tunis: Université de Tunis I, 1994), p. 28.

إضافة إلى تدهور أوضاعهم السكنية وسوء التغذية وأشكال العنصرية التي كانوا يلاقونها من الفرنسيين. كانت وضعية هؤلاء العمال شبيهة بأوضاع المجندين: إجبارهم على الخدمة لمصلحة فرنسا، والتعرف إلى حقيقة الممارسات العنصرية، واكتشافهم نمط حياة جديدًا يمكّنهم من التوق إلى أفق أرحب (الحصول على مرتبات، الاقتصاد الرأسمالي، ثقافة الحرية...).

إجمالًا ترسخ الوعي عند هؤلاء المجندين والعمال بتضارب مصالحهم ومصالح بلادهم مع فرنسا، وأصبح عندهم هاجس جديد هو الحفاظ على هويتهم والسعي إلى تخليص بلادهم من الهيمنة الاستعمارية.

ولئن اتسم هؤلاء المجندون والعمال بانتمائهم إلى فئات اجتماعية فقيرة وضعيفة الحال، دفعت هجرتهم إلى فرنسا بعض النخب إلى التفكير في هذا الأفق الجديد، ما يفسر - إلى جانب عوامل أخرى - هجرة بعض الطلاب الذين ينتمون إلى فئات ميسورة أو متوسطة إلى فرنسا ليواصلوا دراستهم في جامعاتها. لذلك، لاحظ بعض الدراسات المتخصصة في هذا الحقل أن الاقتحام الفعلي للجامعات الفرنسية من الطلاب التونسيين «بدأ مع مطلع العشرينات ليمتد إلى نهاية الثلاثينات»[27]. وبذلك، تكونت نخبة جديدة ستنهل من الثقافة السياسية الفرنسية (العمل الجمعياتي، الأحزاب، الدعاية، العمل السري...) لتوظفها لمصلحة العمل الوطني.

مكّنت الحرب التونسيين من اكتشاف أوروبا، فاقتنعوا بضرورة تحويل معركتهم ضد فرنسا إلى هذا المجال الخارجي بقصد التأثير في الفاعلين السياسيين.

3- النشاط السياسي انطلاقًا من أوروبا ومن فرنسا نفسها

التقت النخب والفئات التونسية المستقرة في فرنسا لتتخذ منها قاعدة لنشاطها السياسي الموجه ضد المستعمر. ونستدل على ذلك بأمثلة عدة:

---

(27) عادل بن يوسف، النخبة العصرية التونسية، طلبة الجامعات الفرنسية 1880-1956 (سوسة: كلية الآداب والعلوم الإنسانية؛ دار الميزان للنشر، 2006)، ص 91.

- **الدعاية الإصلاحية بأوروبا**: أخمد الاستعمار حركة الشباب التونسي في إثر حوادث الجلاز (1911) والترمواي (1912) ونُفي بعض زعمائها (علي باش حانبه في القسطنطينية) وهناك من اختار الهجرة إلى أوروبا مثل محمد باش حانبه الذي استقر قبيل الحرب في جنيف ليلتقي بزعماء الحركة الإصلاحية والجامعة الإسلامية ويقوم بالدعاية ضد الاستعمار الفرنسي الذي جثم على بلدان المغرب، فأصدر مجلة **المغرب** في أثناء الحرب، ونشر في عام 1918 كتاب **الشعب الجزائري التونسي وفرنسا** (بالفرنسية) وكان موجهًا إلى الرأي العام الفرنسي[28].

- **الدعاية الوطنية في فرنسا**: اعتقد التونسيون أن مساندتهم الفعلية لفرنسا في أثناء الحرب، بالزج بأبنائهم في ساحة الوغى، ستمكن هذه الأخيرة من الاعتراف بمطالبهم، واعتقدوا أن فرنسا تمثل خير مجال للتعبير عن هذه المطالب، فكان صدور كتاب **تونس الشهيدة** في عام 1920 في باريس، لعبد العزيز الثعالبي بالتعاون مع المحامي أحمد السقا الذي نقله إلى الفرنسية[29].

- **محاولات تنظم الطلاب والعمال التونسيين في فرنسا**: كان الطلاب والعمال التونسيون في فرنسا على صلة بوطنهم الأصلي وبقيادته السياسية التي شجعتهم على التنظيم للضغط على فرنسا بوجوه متعددة. حاول عبد العزيز الثعالبي في أثناء إقامته في باريس (من تموز/ يوليو 1919 إلى حزيران/ يونيو 1920) السعي إلى تأسيس جمعية الطلاب التونسيين في باريس[30]. من جهة أخرى، أسست في آذار/ مارس 1926 جمعية نجم شمال أفريقيا التي تضم أعضاء من البلدان المغاربية الثلاثة، وانضم طلاب تونسيون إليها، وتحول بعضهم إلى قادة فاعلين في صلبها، مثل الشاذلي خير الله وغيره.

أحدثت الحرب الأولى حراكًا اجتماعيًا وثقافيًا وسياسيًا جعل التونسيين يدركون طبيعة الهيمنة الفرنسية، ما أدى إلى تحول في تصورات النخبة التي كانت

---

(28) Mohammed Bach-Hamba, *Le Peuple algéro-tunisien et la France*, Réédition préparée et présentée par Mahmoud Abdelmoula, Bibliothèque culturelle maghrebine; 2000 (Carthage: Fondation Nationale «Beït Al-Hikma», 1991).

(29) *La Tunisie martyre: Ses Revendications* (Paris: Jouve, 1920).

(30) بن يوسف، ص 461.

تدعو قبل عام 1914 إلى سياسة المشاركة، فتجذرت مواقفها وصارت تؤمن بالهوية التونسية التي يُخشى ذوبانها بتأثير الاستعمار.

انطفأت نار الحرب العالمية لتتقد نيران العمل الوطني الذي اختارت له النخب الجديدة المجال الأوروبي عمومًا والفرنسي خصوصًا. لم تكن هذه الواجهة الأوروبية – أو الفرنسية – لتخفي واجهة أخرى لنضال التونسيين، ونعني بذلك المجال التونسي حيث تولد حراك آخر أفرز واقعًا اجتماعيًا وثقافيًا جديدًا متصلًا بالحرب وتأثيراتها المباشرة.

رابعًا: الحراك الاجتماعي وتشكل فئات جديدة في تونس غداة الحرب

ولد الاستعمار منذ دخوله تغييرات هيكلية، مثل هجرة جوالٍ أوروبية إلى تونس وإدخال الاقتصاد الرأسمالي وإقحام ثقافة جديدة (الصحافة، المدارس، المسرح...) ونمط حياة حديث. على الرغم من أن هذه التغييرات أنتجت اضطرابًا في صلب البنى السائدة، لم تغير من طبيعة المجتمع المحلي ومؤسساته وثقافته إلا بعد قرابة نصف قرن من الوجود الفرنسي الذي بدأ في عام 1881. جاءت الحرب العالمية الأولى لتربك هذا التأثير أو تؤجله كي يتجلى بصفة واضحة في أثر انتهائها.

لعل السلطات الفرنسية شعرت بذلك فحددت استراتيجياتها انطلاقًا من هذا الحراك الجديد. وتندرج في هذا السياق محاولات التعداد الذي قامت به السلطات الفرنسية انطلاقًا من عام 1921 الذي شمل جميع السكان، بعد أن اقتصر قبل ذلك على الفرنسيين، ثم اتسع ليشمل بعض الفئات الأوروبية الأخرى كالإيطاليين[31]، وليبيّن ضعف الجالية الفرنسية أمام الجالية الإيطالية التي اعتبرت بمنزلة «الخطر» نظرًا إلى وزنها الديموغرافي. ومنذ تعداد 6 آذار/ مارس 1921 الذي شمل البلدان المغاربية الثلاثة، أصبحت هذه العملية تقليدًا ينظم كل خمسة أعوام.

---

(31) انظر: Mahmoud Seklani, *Année mondiale de la population 1974: La Population de la Tunisie* (Paris: Comité International de coordination des recherches nationales de démographie, 1974), pp. 13-20.

الجدول (3-2)

تطور سكان البلاد التونسية (1921-1936)[32]

عام	التونسيون: نتائج التعداد	التونسيون: التعديلات بعد التعداد	الأوروبيون غير الفرنسيين	الفرنسيون	الإيطاليون	الأجانب المسلمون	باقي الأجانب (المالطيون)
1921	1.875.000	2.000.000	156.115	54.476	84.799	62.843	17.565
1926	1.919.000	2.120000	173.281	71.000	89.216	67.276	14.266
1931	2.143.000	2.260000	195.393	91.427	91.178	72.389	13.596

منذ عام 1921، تشكل هرم السكان في البلاد التونسية ليحافظ على الخصائص نفسها التي لن تتغير إلا بعد الحرب العالمية الثانية. ولعل أهم ما يميز هذه التركيبة هيمنة العنصر المحلي الذي زاد مقارنة بعام 1911 بنسبة 7 في المئة[33]. شعر الفرنسيون بضعف وزنهم الديموغرافي مقارنة بالإيطاليين والأهالي، فانتهجوا أسلوبًا جديدًا يعتمد تشجيع الفرنسيين على الهجرة إلى تونس وسياسة التجنيس، معتبرين أن الهيمنة الفرنسية لا يمكن أن تكون من دون تفوق سكاني. فبعد التشجيع على التجنيس الذي ضبطته قبل الحرب مجرد أوامر، صدر قانون 20 كانون الأول/ ديسمبر 1923 ليسهّل دمج الأوروبيين وبعض المحليين تحت غطاء الجنسية الفرنسية[34].

إلى جانب هذا الحراك الديموغرافي الذي حدد تركيبة البلاد السكانية مع مطلع العشرينيات، يلاحظ حصول حراك اجتماعي تمثل في تشكل فئات اجتماعية جديدة في أثر الحرب. فكما أسلفنا، كثفت السلطات الفرنسية استغلالها ثروات

(32) حاولنا أن نولف في هذا الجدول عناصر عدة ذكرها محمود السكلاني في جداول مختلفة، في دراسته المذكورة. وفي ما يخص عام 1921 تختلف الأرقام التي قدّمها هذا المؤلف شيئًا ما عن تلك التي ذكرناها في الصفحة السابقة، والتي استندنا فيها إلى دراسة منصر الرويسي الآتية: Moncer Rouissi, *Population et société au Maghreb*, Horizon maghrébin; 1 (Alger: Office des publications universitaires; Tunis: Cérès, 1983).

(33) المصدر نفسه، ص 81.

(34) Yahia El-Ghoul, *Naturalisation et nationalisme en Tunisie de l'entre-deux-guerres* (Tunis: Centre de publication universitaire, 2009), p. 26.

البلاد في أثناء الحرب وبعدها، فاعتمدت من جديد سياسة الاستحواذ العقاري التي مكّنت من افتكاك أراضٍ جديدة وضعتها في ذمة المعمرين، وسنّت قانون الثلث الاستعماري وأدى جميع ذلك إلى تفقير فئات عدة من الأهالي، فبرزت ظواهر جديدة مثل النزوح إلى المدن، أو ظاهرة العمَلة الفلاحيين من دون أن ننسى لجوء بعض آخر إلى العمل في المناجم. نجم عن هذه التحولات الهيكلية بروز طبقة عمالية مهمّشة استقرت في مناطق المناجم التي شغلت أيضًا جوالي أخرى، مثل الطرابلسية والمغاربة والقبايلية.

أدركت هذه الطبقة استغلال الرأسمال الاستعماري لطاقتها الإنتاجية، فانخرطت في النقابات الفرنسية، لكنها شعرت أيضًا بانتمائها إلى الوطن، فسعت إلى الدفاع عن هويتها إلى جانب الدفاع عن مصالحها المادية، لذلك برز كتاب الطاهر الحداد العمال التونسيون وظهرت أول نقابة تونسية، هي «جامعة عموم العملة التونسية»، التي أسسها محمد علي الحامي في 1 تشرين الثاني/ نوفمبر 1924، بعد سلسلة من الاضرابات بدأت من بنزرت لتتسع إلى مناجم الجنوب الغربي.

كونت هذه الفئة العمالية مع النخبة المثقفة والنخب الاقتصادية التونسية التي ذكرناها سالفًا أساسًا للمجتمع التونسي الجديد الذي بدأت ملامحه تبرز منذ أوائل العشرينيات، والذي تشكّل بصفة واضحة في مدينة تونس التي كانت قاعدة هذه التركيبة الاجتماعية الجديدة، والتي تعاظم دورها، حيث كانت قلب الإدارة الاستعمارية منذ صارت نقطة التقاء شبكة سكك الحديد التي اكتمل بناؤها قبيل الحرب، وعززتها في ما بعد شبكة الطرق التي أنجزت خلال العشرينيات[35]، فأصبحت بذلك منطقة عبور للبضائع والمهاجرين من داخل البلاد وخارجها.

توسّعت مدينة تونس بسبب حركة الوافدين إليها من الأوروبيين ومن المواطنين النازحين إليها بغية الاستقرار، فبرزت ظاهرة الضواحي الشمالية والجنوبية وامتد نسيجها، وبعثت خلال العشرينيات شركات وتعاونيات[36]

(35) محمد الأزهر الغربي، تونس رغم الاستعمار (تونس: نقوش عربية، 2013)، ص 204-219.

(36) وصل عدد المؤسسات من هذا النوع إلى حدود 14 مؤسسة منذ بعثها 1919 إلى 1929.

قامت بإنجاز أحياء أوروبية جديدة (ميتيال فيل، سان جرمان، بوسيت...). إضافة إلى ذلك، نشأت أحياء ضمت الفقراء والنازحين والمهمشين، مثل «الملاسين» و«الجبل الأحمر» و«لاكانيا» التي خُصصت لقدماء المحاربين من الأهالي.

شهدت مدينة تونس منذ نهاية الحرب ظاهرة «تعاظم الرأس»، وسكنتها جوالٍ مختلفة لكل منها مدينتها وأحياؤها ومدارسها وثقافتها، وحصل تثاقف بين هذه الفئات والأجناس، ما يفسر ظهور أول فيلم تونسي في عام 1922 بعنوان «عين غزال»، أنتجه ألبير شمامه وترجم إلى الفرنسية في عام 1924 تحت عنوان «بنت قرطاج» (La Fille de Carthage). منذ ذلك الوقت، وظّف التونسيون السينما للدفاع عن واقعهم ولإظهار مأساتهم مستفيدين من استعمال الصحافة - بما في ذلك الصحافة الهزلية[37] - كما استعملوا الأدب والشعر لتصوير واقعهم. برزت «جماعة تحت السور» التي كان علي الدعاجي أحد روادها، وظهر صراع فكري بين «القديم» و«الحديث» تجلّى بصفة خاصة في كتاب **امرأتنا في الشريعة والمجتمع** للطاهر الحداد.

لعل من أهم نتائج الحراك الاجتماعي والثقافي في مدينة تونس بروز الفرد فاعلًا أساسيًا؛ إذ تخلص عمال المناجم والطلاب الوافدون إليها من هيمنة القبيلة، وأصبح بعضهم يتقاضى مرتبًا - وإن كان ضعيفًا - ما زاد في شعوره بالحرية والمسؤولية.

كما أن تأكّل الهياكل الاقتصادية التقليدية داخل مدينة تونس دفع بعض أهلها إلى الاشتغال في الوظيفة أو في بعض المهن الحرة، ما أدى إلى تفكك عائلاتها الكبيرة، وبروز العائلة النووية، فتغيرت بنية مدينة تونس الاجتماعية، وأصبحت تضم - إلى جانب المتفوقين الأوروبيين وبعض العائلات المحلية التقليدية - قاعدة عريضة من النازحين والعمال والمهمشين وبعض الطلاب والمثقفين الذين

---

(37) أحمد خواجة، «الصحافة الهزلية في تونس سنوات العشرين: دراسة سوسيولوجية حول البنى الذهنية البارزة،» ورقة قُدمت إلى: **المغرب العربي في العشرينات: أعمال الندوة الدولية العاشرة المنعقدة بنزل السفراء أيام 5 و6 مايو 2000**، نسق أعمال الندوة وجمع النصوص وأعدها للنشر الهادي جلاب، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية؛ 10 (تونس: جامعة منوبة، المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، 2001)، ص 105-122.

وحّدت بينهم أحوال الحياة الصعبة، فكوّنوا فئة جديدة هي فئة «الشعب» التي تشكلت في العشرينيات لتتسع قاعدتها شيئًا فشيئًا في خلال الفترات اللاحقة. أصبحت هذه الفئة الجديدة قائمة بذاتها، وعبّر أبو القاسم الشابي عن طموحها بقصيدته «إرادة الحياة»، ومطلعها شهير:

إذا الشعب يوما أراد الحيـاة فلا بدّ أن يستجيـب القـدر

صارت هذه الفئة الجديدة فاعلة أكثر من غيرها، فجذبت إليها النخب الاقتصادية المحلية الجديدة التي أفرزتها محاولات الاقتصاد الوطني، ثم ضمت إليها لاحقًا بعض الفئات التقليدية.

أدى انصهار هذه الفئات في بوتقة فئة «الشعب» إلى بروز العمل الوطني بتشكيلاته المختلفة التي نشأت بعد انتهاء الحرب، ونتج منها ميلاد الحزب الحر الدستوري التونسي في 22 حزيران/ يونيو 1922.

تشكلت الوطنية التونسية، في أبعادها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، في بداية العشرينيات، الفترة التي برز خلالها رأي عام تونس[38] و«قضية تونسية». وأصبح الجميع يدافع عنها مستميتًا، وكادت هذه الحركية أن تؤتي أكلها، إذ اشترط بعض النواب الفرنسيين المصادقة على مشروع قرض تونسي موافقة فرنسا على سن دستور تونسي[39].

منذ منتصف القرن التاسع عشر، سعت الحركة الإصلاحية التونسية إلى التصدي للمشروع الاستعماري، لكنها فشلت في ذلك. وفي أثر غزو البلاد التونسية، حاولت القبائل والنخب مقاومة الهيمنة الاستعمارية بشتى الوسائل، لكن من دون جدوى.

تمخّض عن الحرب العالمية الأولى واقع جديد، مكّن من اكتمال المشروع الوطني التونسي بأبعاده الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. كان من تبعات هذا الواقع نشأة الحزب الحر الدستوري، ومن هنا يبدو أن البناء اكتمل في العشرينيات،

---

(38) دبوب، «الرأي العام التونسي والحرب العالمية الأولى».

(39) النائب Pierre Tattinger.

لكن أزمة الثلاثينيات الاقتصادية أحدثت رجّة في صلب هذا البناء من دون أن تقوّضه، ما مكّن بورقيبة وجماعته من الاستيلاء عليه في عام 1934 بحجة ترميمه، ثم تملّكه لاحقًا وإقصاء باقي الأطراف التي أسسته في العشرينيات. إنها عملية سطو وتملّك بالقوة حاول بورقيبة ومن اتبع نهجه من المؤرخين إضفاء شيء من الشرعية عليها لتبرير حكم بورقيبة ودكتاتوريته، ما يفسر تغاضيهم عن دراسة فترة العشرينيات التي دخلت تونس خلالها مرحلة النضال من أجل الاستقلال.

خاض بعض البلدان المغاربية الأخرى تجارب حكم محلية مثل تجربة الحكم الذاتي في ليبيا[40] أو تجربة عبد الكريم الخطابي في المغرب الأقصى، غير أن هذه التجارب لم تعمر طويلًا لأنها كانت ردة فعل فوقية وآنية، إذ اعتبرت أن القضاء على الاستعمار يمكن أن يكون عن طريق إنشاء أنظمة سياسية محلية أو وطنية في ظل الواقع الاستعماري. غير أن التونسيين لم يسلكوا هذا المنهج، معتبرين أنه يجب البدء بالعمل السياسي عن طريق الأحزاب ومنظمات المجتمع المدني لتأسيس دولة وطنية ربما يستغرق بناؤها عقودًا، مدركين أن إقامة هذه الدولة لا يكون إلا بعد خروج المستعمر.

الجدير بالملاحظة أن هذه الدولة الوطنية التي أنشئت على أنقاض الاستعمار الفرنسي تحولت في ما بعد إلى دكتاتورية مقنّعة، بدأها بورقيبة الذي استغل موجة التفاؤل التي غمرت التونسيين لحظة الاستقلال، وعمّقها بن علي الذي استغل توقهم إلى الديمقراطية. كأن الثورة اليوم هي استقلال ثانٍ يسعى من خلاله التونسيون إلى التحرر وتحديد الأسس الحقيقية التي ستقام عليها دولتهم، كالديمقراطية والكرامة والعدالة الاجتماعية.

(40) فتحي ليسير، «تجربة الحكم الذاتي في ليبيا 1918-1923: قراءة في حدود التجربة ومحددات إخفاقها،» ورقة قدمت إلى: المغرب العربي، ص 15-60.

الفصل الرابع

الدعاية الألمانية في المغرب خلال الحرب العالمية الأولى وردات الفعل المحلية

قاسم الحادك

مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، تحوّل المغرب محطةً لتنفيذ مخطط، تنظّم ألمانيا بموجبه حملة دعائية تحريضية ضد نظام الحماية الفرنسية، بهدف إثارة الاضطرابات في شمال أفريقيا كله، فتواصل الضباط ورجال الاستخبارات الألمان مع زعماء حركات المقاومة المغربية، وقدّموا إليهم الدعم المادي والمعنوي بغية تنسيق جهدهم والقيام بثورة عامة في المغرب ضد الفرنسيين.

ارتكز هذا المخطط الألماني على ثلاثة محاور رئيسة: دعم زعماء حركات المقاومة في مناطق المغرب المختلفة بالأموال والسلاح؛ ربط الاتصال بهذه الزعامات وحثها على تحقيق المصالحة بين القبائل والعشائر المختلفة المقاومة بهدف إيجاد جو من الوحدة والتنسيق وتشجيعها على انتخاب شيوخ للحرب قادرين على تعبئة هذه الجماعات المقاومة وتنظيمها لشن هجمات شاملة وواسعة في الوقت الملائم؛ إذاعة مجموعة من الأخبار والشائعات وتوسيع تداولها في الأسواق والتجمعات السكانية لرفع معنويات رجال المقاومة.

تعاظم خطر هذا المخطط الألماني، الهادف إلى إرباك الجهد الحربي الفرنسي في أوروبا عبر فتح جبهة موازية للجبهة الأوروبية، بعدما تمكن الألمان من نسج علاقات متينة مع زعماء حركات المقاومة المغربية، خصوصًا عبد المالك بن محيي الدين، حفيد الأمير عبد القادر الجزائري، الذي تلقف إعلان الجهاد من السلطان العثماني ووصل إلى ناحية تازة في المغرب في آب/ أغسطس 1915 على رأس قوات عالية التسليح. وقام هذا الأخير بدور محوري في النشاط الدعائي الألماني، فكان المنسق الرئيس بين الخبراء والضباط الألمان وباقي الزعامات المغربية.

زادت خطورة الدعاية الألمانية، وتحولت شبحًا يخيف سلطات الحماية الفرنسية، خصوصًا بعد الانتصار الكبير الذي حققته حركة المقاومة الزيانية في معركة لهري في تشرين الثاني/ نوفمبر 1914، التي تزامنت مع التقدم الكبير الذي حققته القوات الألمانية في الجبهة الأوروبية، حيث كثف الألمان اتصالاتهم

مع زعماء المقاومة لحثهم على استغلال هذا الوضع الحرج الذي كانت تمر فيه القوات الفرنسية، وتنسيق جهدهم وتكثيف عملياتهم ضدها. لكن، على الرغم من قوة الدعاية الألمانية التركية، ومن نجاحها في الوصول إلى زعماء حركات المقاومة المغربية ودعمهم ماديًا ومعنويًا، ومن اشتداد نشاط هؤلاء خلال هذه الفترة وتكثيفهم عملياتهم ضد المراكز العسكرية الفرنسية، وتحقيقهم انتصارات ميدانية ومكاسب سياسية، إلا أن التدابير والإجراءات العسكرية والسياسية التي اتخذتها سلطات الحماية الفرنسية مكّنت من الاحتفاظ بالمغرب.

فما هي تفصيلات نشاط الدعاية الألمانية والتركية في المغرب طوال فترة الحرب؟ وما طبيعة اتصالات الخبراء الألمان والأتراك بزعماء حركات المقاومة المغربية؟ وما حجم الدعم المالي واللوجستي الألماني الذي تلقوه وما حقيقة استفادتهم منه؟ وما مدى انعكاسه على مسار حركات المقاومة، أو بصيغة أخرى لماذا لم يترجم زعماء وقادة حركات المقاومة المغربية هذا الدعم الألماني التركي عبر تنظيم وتأطير جماعات المقاومة وقيادة حرب تحريرية شاملة مستغلين أوضاع اندلاع الحرب العالمية الأولى وعجز الحكومة الفرنسية عن تقديم الدعم لقواتها في المغرب، التي تقلّصت أعدادها بشكل كبير وأصبحت تتفادى الدخول في أي اشتباك أو مواجهة مع حركات المقاومة؟

أولًا: العلاقات المغربية الألمانية حتى بداية الحرب الأولى

1 – بداية الاهتمام الألماني بالمغرب

حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، بقيت العلاقات المغربية – الألمانية عرضية ولم ترق إلى المستوى الذي يمكن معه الحديث عن علاقات دبلوماسية ثنائية[1]، خصوصًا أن ألمانيا كانت منشغلة آنذاك ببناء إمبراطوريتها في أوروبا، وما كانت صناعتها قد وصلت إلى مرحلة متطورة تتطلب البحث عن أسواق خارجية لتصريف فائض إنتاجها[2].

(1) Pierre Guillen, *L'Allemagne et le Maroc de 1870 à 1905* (Paris: Presses universitaires de France, 1967), p. 3.

(2) عبد الحق دهبي، «العلاقات المغربية – الألمانية ما بين 1912 و1966: نموذج لعلاقات التعاون شمال–جنوب،» الحوار المتمدن، 19/ 6/ 2014. <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=55340>

ابتداء من عام 1817، دعت ألمانيا إلى ضرورة فتح قنوات للتمثيل الدبلوماسي في المغرب. لكن المغرب، وكان ينتهج آنذاك سياسة الاحتراز من القوى الدولية، لم يستجب لهذه الدعوة، ما دفع بالجانب الألماني إلى طرح الفكرة من جديد في عام 1852، إذ زار القنصل الألماني المقيم في إسبانيا والبرتغال طنجة للوقوف عن كثب على الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية التي يكتسيها المغرب بالنسبة إلى ألمانيا، وبحث سبل إقامة تمثيل دبلوماسي ألماني في طنجة. لكن هذه المبادرة لم تلق استجابة من المخزن المغربي، فغاب التمثيل الدبلوماسي عن العلاقات بين البلدين.

لم يبرز الاهتمام الألماني بالمغرب بشكل واضح إلا في عهد بسمارك، أي بعد أن حققت ألمانيا وحدتها، إذ ارتكزت السياسة الخارجية الألمانية في ظل الصراع المفتوح مع فرنسا على اعتبار المغرب ورقة لعرقلة السياسة الفرنسية انطلاقًا من الجزائر، وتحويل أنظارها عن قضية الألزاس واللورين[3]، ثم تشجيع هذه الأخيرة على توسيع مجالها الاستعماري بهدف إبعاد جيوشها عن الحدود الألمانية، ومساعدتها لتجد خارج أوروبا تعويضات عن خسارتها منطقتي الألزاس واللورين[4]. قال بسمارك: «أريد صراحةً أن أرى الشعب الفرنسي يمتلك ما يبحث عنه في الحوض المتوسطي منطقة توسعه الطبيعي»[5]، فيما تتفرغ ألمانيا في ظل الأمن الخارجي لبناء البلد على أسس متينة، تجعلها في مصاف الدول العظمى، وبالتالي لم تكن لها قبل هذا التاريخ أي مطالب ترابية بقدر ما كانت تركز على مصالحها الدبلوماسية والتجارية[6].

رأت الدوائر السياسية الألمانية في ظهور بوادر الصراع مع فرنسا إمكان

---

(3) Jean-Louis Miège, *Le Maroc et l'Europe, 1830-1894* (Paris: Presses universitaires de France, 1961-1963), p. 20.

(4) Guillen, p. 17.

لذلك باركت ألمانيا الاحتلال الفرنسي لتونس، انظر: Miège, p. 61.

(5) Guillen, p. 99.

(6) مارتن فورستنر، «الدراسات الألمانية حول المغرب خلال القرن العشرين،» ورقة قُدمت إلى: البحث في تاريخ المغرب: حصيلة وتقويم، سلسلة ندوات ومناظرات؛ 14 (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1989)، ص 176.

تسخير المغرب أداة إرباك للمصالح الفرنسية في الجزائر. كتب أحد الموظفين الألمان العاملين في مدينة طنجة في آب/ أغسطس 1867 إلى المستشار الألماني بسمارك، مؤكدًا أهمية المغرب السياسية لمجاورتها الجزائر، وأن مصلحة بلاده تستلزم تواجدها هناك[7]. كما أن التحول العميق في البنيات الإنتاجية الذي عرفته ألمانيا، والمتمثل في تحولها من دولة زراعية إلى دولة صناعية ذات رغبة قوية في الأسواق الخارجية، والأهمية الاستراتيجية والسياسية للمغرب المجاور الجزائر الفرنسية، كشفت للمستشار الألماني بسمارك غداة حرب 1870 وانتصار الجيوش البروسية على فرنسا[8] أهمية نسج علاقات دبلوماسية مع المغرب، وإيجاد موطئ قدم في هذا البلد خدمة للمصالح التجارية والسياسية لألمانيا[9]. وبناء عليه، أسست هذه الأخيرة مفوضية لها في طنجة في عام 1873، وعيّنت الدبلوماسي المحنك فون كوليتش قنصلًا لها[10].

تزامن تعيين كوليتش قنصلًا ألمانيًا في طنجة مع وفاة السلطان المغربي محمد بن عبد الرحمن، فقررت ألمانيا إبقاءه في جبل طارق مؤجلةً إرساله إلى طنجة في انتظار تولّي السلطان الحسن الأول الحكم في المغرب[11].

بعد خمس سنوات على تعيين ألمانيا ممثلًا لها في المغرب، تم تدشين سفارة مغربية في برلين بحفاوة بالغة، واتضح جليًا لباريس ولندن أن ألمانيا تريد أن يحسب لها حسابها منذئذ في المغرب. ومع ذلك، انصرمت سنوات أخرى قبل أن تترجم ألمانيا - على الصعيد العملي - إرادتها عندما دخلت مسرح الحوادث تحت ضغط الأوضاع الاقتصادية. ففي عام 1884، كانت قد أقامت في أفريقيا أولى مؤسساتها، ثم انتقلت إلى طور العمل في المغرب في العام الموالي[12].

---

(7) وليد عبود محمد، «النشاط الألماني في المغرب العربي (1933-1943)،» مجلة كلية الآداب (جامعة بغداد)، العدد 97 (2004)، ص 75.

(8) محمد القبلي، إشراف وتقديم، تاريخ المغرب: تحيين وتركيب (الرباط: منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، 2011)، ص 473.

(9) Guillen, p. 3.

(10) محمد، ص 75.

(11) Guillen, p. 30.

(12) جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب (الدار البيضاء: الشركة المغربية للناشرين المتحدين، 1986)، ص 225.

وجهت السفارة الألمانية في طنجة، عن طريق مبعوث خاص، رسالة في 29 أيلول/ سبتمبر 1885 لتسليمها إلى السلطان المولى الحسن، معبّرة فيها عن رغبة حكومة الإمبراطورية في إبرام معاهدة صداقة واتفاق تجاري مع المغرب. وفي 2 تشرين الأول/ أكتوبر، وجّهت رسالة ثانية في الموضوع نفسه[13].

اعتمد المغرب على المساعي الألمانية الحميدة في بداية عام 1888 لمساعدته في تسوية النزاع الذي قام بينه وبين الولايات المتحدة الأميركية عن طريق وساطة شبه رسمية، قام بها منصور ملحمة، مترجم السفارة الألمانية[14].

أدى ظهور ألمانيا المتأخر على الساحة المغربية إلى إضافة معطى جديد، ما لبث أن غيّر الكثير من السمات التي طبعت العلاقات المغربية - الأوروبية. تزامن ذلك مع وصول الحسن إلى الحكم وتعيين أول ممثل دبلوماسي ألماني في طنجة. لا تخفى أهمية هذا التطور المتلاحق لتنامي الحضور الألماني في المغرب، الذي لا شك في أنه سيزعج فرنسا أكثر من غيرها من باقي الدول ذات الاهتمام الكبير بمصير المغرب[15].

ابتداءً من عام 1892، وإلى ما بعد وفاة السلطان الحسن، يمكننا القول إن الصداقة الألمانية صارت نوعًا من قطب الرحى بالنسبة إلى السياسة الخارجية المغربية. إذ أصبح طاطنباخ، ممثل ألمانيا في طنجة منذ هذه الفترة، المستشار والرجل الذي لا غنى عنه لصوغ السياسة الخارجية المغربية. وفي ظل الأوضاع التي كان يعيشها المغرب، عُقدت الآمال على الألمان أكثر من أي وقت مضى للخروج من هذه الورطة، ويخيل إلينا أن ألمانيا لم تكن تفارق أذهان المسؤولين المغاربة، فلم يعد يشار إليها بذكر اسمها، وإنما أصبحت تعرف في الرسائل السلطانية بالدولة المحبّة، وصار طاطنباخ «النائب المحب»[16].

---

(13) عياش، ص 225.

(14) بقي ترجمان في طنجة حتى عام 1902 وساهم بشكل كبير في إنجاح مهمة الدبلوماسيين الألمان في المغرب وخدم المصالح الألمانية في المغرب بإخلاص وفاعلية، مستفيدًا من انتمائه إلى بلاد الإسلام، حيث نجح في ربط صداقات مع رجالات المخزن، انظر: Guillen, p. 68.

(15) القبلي، ص 473.

(16) عياش، ص 241.

من خلال بعض الرسائل السلطانية، تسترعي انتباهنا حرارة الشعور الذي عبّر عنه الوزير باسم السلطان الحسن، تجاه الدبلوماسيين الألمان أم تجاه حكومتهم، فلم يشر إلى الصداقة الألمانية - المغربية فحسب، وإنما إلى المبادرات الألمانية لمصلحة المغرب أيضًا. يقول الصدر الأعظم: «ودعا أيّده الله (أي السلطان) لكم بخير ولدولتكم المحبة بدوام الفخامة والثروة والضخامة...». إن هذه العبارات لم تكن تلائم البروتوكول المغربي العادي، حتى لو أدخلنا في الحسبان الضرورة الدبلوماسية لتفسير هذا الأسلوب[17].

غير أن المسؤولين المغاربة الذين أدركوا الهدف الذي تصبو إليه مطامع الدول العظمى في هذه الفترة الصعبة من تاريخ المغرب[18]، لم يكونوا يستثنون بتاتًا الدولة المحبة ألمانيا التي فطنوا أيضًا إلى نواياها، وبالتالي كانوا يدركون أن اللجوء إلى الألمان لم يكن بالنسبة إليهم إلا ضرورة، حيث كانوا يأملون عن طريق المطامع الألمانية تفادي المطامع الأخرى[19].

2- المغرب ورقة أساسية بيد السياسة الخارجية الألمانية

تميز الموقف الألماني منذ أعوام بالتحفظ والحذر. لم تدخل ألمانيا المسألة المغربية إلا تحت زاوية سياساتها العامة في أوروبا. وفي نهاية القرن تخلت بالتدريج عن هذا المفهوم، وأقرّت أن المغرب يشكل بالنسبة إليها مصلحة معينة[20].

بدأت الأوساط السياسية الألمانية تولي المغرب اهتمامًا كبيرًا، في الوقت الذي أصبحت فيه ألمانيا قوة استعمارية كبيرة بعد فرنسا وإنكلترا، بعدما بسطت نفوذها على التوغو والكاميرون وغرب جنوب أفريقيا وبعض الجزر في المحيط

---

(17) عياش، ص 241.

(18) لم تسلم العلاقات المغربية - الألمانية من مظاهر التوتر، وتكفي الإشارة هنا إلى أعوام 1894-1897 التي أثيرت بسبب مقتل مواطنين ألمانيين، أحدهما في الدار البيضاء والثاني في أحواز آسفي. وتخللها وصول قطع من الأسطول الألماني إلى المياه المغربية وانتهت بتسديد تعويضات مالية لأسرتي القتيلين، انظر: القبلي، ص 475.

(19) عياش، ص 241.

(20) Guillen, p. 551.

الهادئ، وإن كان هذا التوسع بقي محدودًا مقارنةً بالتوسع الفرنسي والإنكليزي[21]. وعلى الرغم من تأكيد المسؤولين الألمان أن سياستهم في المغرب لم تهدف إلى القيام بحرب وقائية ضد فرنسا أو استفزاز الفرنسيين، وأن هدفها الأساس كان الدفاع عن الهيبة الألمانية بمحاولة وضع حد للأطماع الفرنسية في المغرب. كان الهدف من منافسة فرنسا ومعارضة بسط نفوذها على المغرب، قبل كل شيء، صرف نظرها عن منطقتي الألزاس واللورين اللتين استولت عليهما ألمانيا بعد حرب عام 1870[22].

تغيرت الأمور في عام 1904، بعد توقيع الاتفاق الودي بين فرنسا وإنكلترا المتنافستين على السيطرة على دول عدة، بينها المغرب ومصر. اتفقا على أن تتصرف بريطانيا بحرية في مصر، وأن تبسط فرنسا يديها على المغرب، في اتفاق موجّه بطبيعة الحال ضد ألمانيا التي عبّرت خارجيتها عن قلقها، وعارضت خضوع المغرب للنفوذ الفرنسي[23]. إذ كانت الإمبراطورية الألمانية كذلك تريد زيادة توسعها في المستعمرات الأفريقية، خصوصًا في المغرب الذي كان استراتيجيًا لأي مستعمر.

في محاولة للخروج من دائرة التطويق التي سعى إليها التفاهم الوُدي الفرنسي - البريطاني (نيسان/ أبريل 1904) والمعاهدة الفرنسية - الإسبانية (تشرين الأول/ أكتوبر من السنة ذاتها)، جال الإمبراطور الألماني غليوم الثاني في الحوض الجنوبي الغربي للبحر المتوسط، فزار طنجة سريعًا في 31 آذار/ مارس 1905، وألقى كلمة أمام مندوب السلطان، جاء فيها: «هذه الزيارة موجهة إلى السلطان صاحب السيادة والاستقلال التام في بلاده، وآمل أن تفتح مراكش، في

(21) فورستنر، ص 176.

(22) المصدر نفسه، ص 177. سعى الألمان إلى إقامة علاقات تجارية مع المغرب وكسبه كسوق مهمة لتصريف منتوجاتهم. لكن، على الرغم من أن النشاط التجاري مع المغرب كان يمثل أهمية كبرى بالنسبة إلى عدد من الشركات الألمانية، مثل شركة مانسمان، فإنه لم يكن يمثل بالنسبة إلى الاقتصاد الألماني أهمية كبيرة. فالتبادل التجاري الألماني مع المغرب كان أقل من واحد من عشرة في المئة من مجموع حجم التجارة الخارجية الألمانية. وبالتالي، لم تكن التجارة مع المغرب ضرورية بالنسبة إلى ألمانيا. غير أن دراسات تبين أن معظم النشاط التجاري الألماني مع المغرب كان يتم بطريقة سرية في إطار التهريب، وبالتالي لا يتم إحصاؤه ضمن تقارير القناصل، انظر: Guillen, p. 60.

(23) فورستنر، ص 179.

ظل السيادة الكاملة، للمنافسة التجارية لجميع الأمم من دون احتكار أو استثناء، وأن ألمانيا مصممة على أن تحمي مصالحها»[24]. كما أكد أنه يزور بلدًا مستقلًا، ويأمل أن يبقى مفتوحًا للتنافس السلمي لجميع الدول من دون أي استعمار أو حماية من دولة أخرى، مهما كانت قوتها، وأن ألمانيا لن تسمح أبدًا باحتلاله[25].

خطاب لم يتجاوز الساعتين، لكنه أرسل الكثير من الإشارات إلى فرنسا التي كانت تعتقد أن المغرب سيسقط في فخها قريبًا، وهو حدث كان له الكثير من الأثر في تاريخ المغرب في تلك الفترة[26].

كان للمواقف التي عبر عنها الساسة الألمان، خصوصًا الخطاب الشهير للإمبراطور الألماني في طنجة في عام 1905، وقعًا إيجابيًا بين صفوف النخبة المغربية التي عدّت كلمة الإمبراطور الألماني إشارةً مشجعةً على مواجهة الأطماع الفرنسية والإسبانية وتحقيق استقلال المغرب، وأبدت ميلها وتقديرها له. ففي عام 1908، وصف محمد العابد بن سودة، أحد مثقفي مدينة فاس، خلال كلمته التقديرية للإمبراطور بأنه رجلٌ متفانٍ وأنموذجٌ في قضايا العدالة والإنسانية والسلام[27].

يمكن القول إن هذه الكلمة مثّلت تحولًا مهمًا في سياسة ألمانيا الخارجية، وأحدثت شرخًا جديدًا في العلاقات الفرنسية - الألمانية، وبدأت إرهاصات حرب آتية بين القوتين. ولرأب الصدع، اتفقت فرنسا وألمانيا على عقد مؤتمر دولي في مدينة الجزيرة الخضراء في جنوب إسبانيا في عام 1906، على الرغم من أن فرنسا لم تكن تنظر أبدًا بعين الرضا إلى هذا المؤتمر، ورأت فيه ضربًا لمصالحها، خصوصًا أنه أكد القوة الكبيرة التي صارت تمثلها الدبلوماسية الألمانية في القارة العجوز، ذلك بأن أعطت دولًا كالنمسا وبلجيكا وإسبانيا وإيطاليا والبرتغال موافقتها على الحضور.

---

(24) محمد، ص 76.

(25) القبلي، ص 507، و Guillen, p. 848.

(26) فسح ذلك المجال أمام أرباب العمل الألمان، في طليعتهم أصحاب شركة مانسمان، للحصول على حقوق التنقيب عن المعادن في 2027 موقعًا، فضلًا عن تمكّنهم حتى عام 1909 من تأسيس إحدى عشرة شركة في المغرب.

(27) محمد، ص 77.

على الرغم من أن نتائج هذا المؤتمر لم تأتِ في مصلحة ألمانيا، مع وقوف الولايات المتحدة والبرتغال وهولندا على الحياد، واصطفاف الباقين إلى جانب فرنسا ووقوف النمسا وحيدة مع حليفتها ألمانيا، وعلى الرغم من أن قرارت المؤتمر وضعت عمليًا إدارة المغرب وماليته تحت السيطرتين الفرنسية والإسبانية، خرجت ألمانيا من المؤتمر أكثر الدول استفادة بحصولها على حقوق مماثلة لباقي الدول التي كانت سابقة إلى ربط علاقاتها بالمغرب. فاعترف المؤتمر بحق ألمانيا في التدخل في الشؤون الخارجية المغربية، وأكد الحرية والمساواة الاقتصادية في المغرب، من دون تمييز دولة على حساب أخرى[28].

استنادًا إلى الفقرة الأخيرة من مقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء، وتأكيد الحكومة الفرنسية حفاظها واحترامها الأطماع الألمانية في المغرب، قال إمبراطور ألمانيا وليم الثاني في رسالته إلى وزارة الخارجية النمساوية في 13 نيسان/ أبريل 1906 عن الأوضاع في المغرب: «... لنا أطماع اقتصادية... ولنا أطماع باحتلال موقعنا المناسب في الاتفاقات الدولية على أساس من المساواة... وهي مسألة كرامة السياسة الألمانية التي لا مساومة عليها... ما يهمنا إذن هو المحافظة على تحقيق رغباتنا»[29].

تفاقمت المشكلات الداخلية في المغرب بعد تصاعد الثورة ضد السلطان عبد الحفيظ، فتدخلت فرنسا عسكريًا بدعوى إقرار الأمن والنظام وحماية جاليتها ومصالحها الاقتصادية والسياسية، واحتلت مدينتي الرباط وفاس، فاندلعت أزمة دولية في شأن المغرب، أقدمت خلالها إسبانيا على احتلال مدينتي العرائش والقصر الكبير في حزيران/ يونيو 1911، وعرضت ألمانيا من جهتها قوتها البحرية بساحل أكادير في تموز/ يوليو 1911 بذريعة حماية موظفيها ورعاياها، وهذا ما عرف بأزمة أكادير[30]، ما اضطر فرنسا إلى الدخول في مفاوضات دبلوماسية مكثفة مع ألمانيا، اتفق في خلالها على انسحاب الألمان من السواحل المغربية، وتخلّيها نهائيًا عن أطماعها في المغرب، واعترافها بحماية فرنسا وإسبانيا للمغرب في مقابل احتفاظها بحق التجارة فيه. في المقابل، تنازلت فرنسا عن جزء من الكونغو

---

(28) محمد، ص 76.

(29) المصدر نفسه، ص 77.

(30) القبلي، ص 512.

الفرنسية لمصلحة ألمانيا التي حصلت بذلك على منفذ بحري لمستعمراتها في الكاميرون[31].

هذه كانت جردة تاريخية للعلاقات الألمانية - المغربية قبل عام 1912، التي تميزت بكونها علاقات متضاربة الأهداف: كان كل طرف يسعى إلى خدمة مصالحه الخاصة، لذلك اتخذت ألمانيا من المغرب وسيلة لا غاية، وسيلة لتحقيق التوازن لسياستها وتأمين مصالحها الحيوية في المغرب. وعبّرت الدبلوماسية الألمانية على لسان المسؤولين السياسيين الألمان عن ذلك صراحة، وهذا ما يفسر سرعة تخلي ألمانيا عن المغرب قبيل توقيع معاهدة الحماية مع فرنسا[32].

ثانيًا: توظيف ألمانيا الإسلام في دعايتها في المغرب

اعتمدت ألمانيا في دعايتها في المغرب على رصيد سياسي كبير امتد لأعوام عدة، شمل المواقف الألمانية السابقة إلى جانب المغرب ضد المحاولات الفرنسية السياسية والعسكرية لبسط نفوذها فيه، وزيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني طنجة في عام 1905[33] وخطاباته في حينها، التي لا تزال عالقة في أذهان المغاربة. غير أن إلقاء نظرة فاحصة على مضامين الدعاية الألمانية يُظهر بوضوح توظيف ألمانيا مشاعر المسلمين المغاربة وعواطفهم الدينية وطموحاتهم وتطلعاتهم الوطنية في التحرر والتخلص من الاستعمار[34]، كتحالفها مع تركيا الإسلامية ومساندتها لها في صراعها ضد خصوم الإسلام[35]، وتعففها عن السيطرة على أي بلد مسلم خلافًا لباقي الدول الأوروبية. كما ركزت الدعاية الألمانية على أواصر الصداقة والود التي تجمع بين الألمان والمسلمين، وهدفت

---

(31) محمد، ص 77.

(32) دهبي، «العلاقات المغربية - الألمانية».

(33) Louis Barthou, *La Bataille du Maroc*, 9e éd. (Paris: E. Champion, 1919), p. 11, et

ميكل مرتين، الاستعمار الإسباني في المغرب (1860-1956)، ترجمة عبد العزيز الوديي (الرباط: منشورات التل، 1988)، ص 19.

(34) عبد الرؤوف سنو، «الإسلام في الدعاية الألمانية في المشرق العربي خلال الحرب العالمية الأولى،» في: بحوث تاريخية مهداة إلى منير إسماعيل، تنسيق محمد مخزوم وأحمد حطيط (بيروت: دار النشر للسياسة والتاريخ، 2002)، ص 22.

(35) Pierre Lyautey, *Lyautey l'africain: Textes et lettres du Maréchal Lyautey 1913-1915* (Paris: Librairie Plon, 1954), p. 225.

إلى إعطاء صورة مشرقة عن ألمانيا وأهدافها النبيلة من الحرب، وسعيها إلى مساعدة العالم الإسلامي على الارتقاء بعد الحرب.

تبلورت هذه السياسة الألمانية، التي تركزت على الاستفادة من قوة الإسلام، منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وبلغت ذروتها إبان الحرب العالمية الأولى عندما انضمت الدولة العثمانية إلى الحرب الأوروبية متحالفةً مع ألمانيا، وأصبح لهذه الحرب شقها الإسلامي المميز بعد إعلان السلطان العثماني الجهاد المقدس ضد دول الوفاق، أي بريطانيا وفرنسا وروسيا[36].

دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا وإعلانها الجهاد ضد أعدائها، وانتهاج ألمانيا سياسة إسلامية تقوم على استغلال هذا الجهاد لمصلحة أهدافها الاستراتيجية[37]، مسائل رسمت للحرب عنوانًا عريضًا: «الجهاد العثماني صنع في ألمانيا»، مع كل ما تحمله سياسة ألمانيا المتحالفة مع الإسلام من مواقف مؤيدة لها في ألمانيا وفي العالم الإسلامي[38].

أدى الإسلام دورًا رئيسًا في سياسة ألمانيا الخارجية وصراعاتها الإمبريالية مع القوى الأخرى، فتقاربها مع الدولة العثمانية والعزف على نغمة الجامعة الإسلامية وإظهار نفسها مدافعًا عن الإسلام عوامل دفعت كثيرًا من المسلمين إلى الاعتقاد فعلًا أنها حليف للإسلام يُتّكل عليه[39]. وبالتالي، تمكّنت ألمانيا - بفضل خطابها السياسي الداعم للإسلام وتطور علاقاتها بالدولة العثمانية في المجالات المختلفة - من أن تكون أمل المسلمين في التحرر من الاستعمار[40]، خصوصًا بعدما تأكدت قناعتهم أن ألمانيا دولة صديقة للإسلام تعمل على تحرير الشعوب الإسلامية المستعمرة، فساد الاعتقاد في البلدان الإسلامية إمكان أسلمة إمبراطور ألمانيا وشعبها، وبالتالي تقوية الإسلام تجاه دول الاستعمار المرتبطة به[41].

---

(36) عمر كوش، «مراجعة كتاب ألمانيا والإسلام في القرنين التاسع عشر والعشرين، عبد الرؤوف سنو،» المجلة التاريخية المغاربية، العدد 128 (حزيران/ يونيو 2007)، ص 2.

(37) Barthou, p. 38.

(38) سنو، ص 2.

(39) كوش، ص 3.

(40) سنو، ص 10.

(41) المصدر نفسه، ص 5.

من جهة أخرى، عملت ألمانيا على توظيف الإسلام والجهاد المقدس والجامعة الإسلامية ضمن مخططاتها لإثارة الأوضاع في المغرب ضد الوجود العسكري الفرنسي في المغرب خصوصًا، وفي شمال أفريقيا عمومًا[42]، جاعلة من الجهاد العثماني ركيزة لدعايتها الهادفة إلى استقطاب حركات المقاومة المغربية وراء أهدافها في الحرب، مستغلةً روابط الجامعة الإسلامية بين السلطة العثمانية والمغرب الأقصى، ولا سيما أن الدعوة إلى تأييد السلطان التركي محمد رشاد، بصفته مسلمًا، كانت منتشرة في المغرب آنذاك[43]. وبذلك، لم يتوانَ بسمارك عن استخدام المغرب حجر شطرنج في توازناته الأوروبية[44].

خلال الحرب العالمية الأولى، ركّزت المخططات الألمانية على استخدام الجامعة الإسلامية والجهاد وصفة السلطان العثماني كخليفة للمسلمين من أجل استمالة الشعوب الإسلامية الخاضعة لفرنسا وبريطانيا، لتحريض حركات المقاومة فيها على الثورة، وبالتالي إشغال جيوش هذه الدول في قمع تلك الثورات التي صنعها المستشرق ماكس فون أوبنهايم الذي أربكت سياسته الدوائر الاستعمارية البريطانية والفرنسية[45].

حدد أوبنهايم الهدف المركزي لبلاده، وهو وضع الإسلام في خدمة المصالح الألمانية، فقال: «إن الإسلام سيكون أهم أسلحتنا على الإطلاق في الصراع المجبرين عليه ضد فرنسا (...) لقد تمكنا من فرش الأرضية لثورة إسلامية عامة، وإمبراطور ألمانيا أدرك منذ الوهلة الأولى أهمية هذه اللحظة التي يمكن من خلالها الاستفادة من الشعوب الإسلامية، بعدما ثبت في نظر المسلمين إجلاله للإسلام وأظهر لأتباع هذا الدين المودة والمساعدة»[46].

استسهل أوبنهايم تحريض مسلمي المغرب ضد فرنسا، بسبب سياستها التعسفية تجاه السكان وتحطيمها سمعة المخزن والحكومة الشريفة، ورأى أن

---

(42) Barthou, p. 38.

(43) محمد أوني، «حول قضية اعتقال محمد بن عبد الكريم الخطابي بمليلية سنة 1915،» ورقة قُدمت إلى: ندوة علمية حول المقاومة والحركة الوطنية بجهة تازة - الحسيمة - تاونات: 1900-1956 (الرباط: المندوبية السامية والمجلس الوطني لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير؛ جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2001)، ص 116.

(44) كوش، ص 2.

(45) سنو، ص 4.

(46) المصدر نفسه، ص 7.

إيصال الأسلحة والأموال إلى تلك المنطقة يدفع الناس إلى الثورة ضد الفرنسيين. وعلى الرغم من توقعه عدم حدوث ثورة عامة في المغرب، اعتقد أن ثورات متفرقة هنا وهناك ستشغل فرنسا، ويكون لها أثر في الجزائر وتونس، حيث كراهية فرنسا لا تقل عنها عند المغاربة[47].

حينها، رأى أوبنهايم أن أول خطوة على ألمانيا أن تخطوها هي إثارة العالم الإسلامي ضد أعدائها تحت راية الخليفة، من خلال منظمة محددة الهدف[48]. كانت الجامعة الإسلامية، بحسب أوبنهايم، الوحيدة القادرة على خدمة أهداف بلاده عبر تجييش المسلمين خلف شعاراتها ومضامينها[49].

حظيت مسألة الدعاية بين المسلمين بموافقة القيادة الألمانية. فعشية الحرب، قال رئيس الوزراء الألماني هولفيغ بتمان: «على ألمانيا ألا تحارب سلاح العدو فحسب، وإنما عليها أن تصد أيضًا دعايته الكاذبة حول ألمانيا، والنظرة الخاطئة التي تعطى عنها»[50].

انطلاقًا من ذلك، أنشئت في عام 1915 وكالة أخبار الشرق في برلين، برئاسة أوبنهايم وإشراف وزارة الخارجية الألمانية والقسم السياسي في قيادة الأركان، وهي مؤسسة هدفها الإشراف على الدعاية الألمانية في الدول الإسلامية. انحصر نشاط الوكالة بالدعاية في البلدان الإسلامية، وتمثلت في التصدي لدعاية العدو والقيام بدعاية مضادة تؤدي إلى تحريض المسلمين في العالم على الثورة ضد دول الوفاق الودي من خلال مبعوثين ألمان إلى تلك البلدان[51].

ثالثًا: دعم ألمانيا المقاومة المغربية في الحرب

مع اندلاع الحرب العالمية الأولى، تحول المغرب ممرًا لمخطط ألماني تنظم بموجبه حملة دعائية وتحريضية ضد نظام الحماية، لإثارة الاضطرابات في شمال أفريقيا كله. كما نسج الألمان والأتراك اتصالات وثيقة مع زعماء حركات

---

(47) المصدر نفسه، ص 6.
(48) المصدر نفسه، ص 5.
(49) المصدر نفسه، ص 8.
(50) سنو، ص 8.
(51) المصدر نفسه، ص 11.

المقاومة المغربية، وقدموا إليهم الدعم المادي والمعنوي بغية تنسيق جهدهم والقيام بثورة عامة في المغرب ضد الفرنسيين[52].

ارتكز هذا المخطط على توثيق الاتصال بهذه الزعامات وحثها على تحقيق المصالحة بين القبائل والعشائر المقاومة المختلفة، لإيجاد جو من الوحدة والتنسيق[53]، وتشجيعها على انتخاب مشايخ قادرين على تعبئة هذه الجماعات المقاومة وتنظيمها لشن هجمات شاملة وواسعة في الوقت المناسب[54].

في تقرير سري وجّهته وزارة الخارجية الفرنسية إلى قنصلها في طنجة، جاء ما يأتي: «لأجل إثارة ثورة في المغرب، اختار الألمان قاعدةً للعمليات بلدًا محايدًا لكنه مناسب لأنشطتهم هو إسبانيا التي أرسلوا إليها ضباطًا ألمان وأتراك مكلفين بهذه المهمة، وصلت طائفة منهم إلى المغرب عبر الريف، وبقيت طائفة أخرى على علاقة دائمة مع مولاي عبد الحفيظ في برشلونة، وتبعًا للاستخبارات الألمانية فإن المغرب سيفرغ من القوات العسكرية، ولم يبق به إلا حوالى أربعين ألف رجل بقيادة ليوطي، إن البلد عامة معادٍ للفرنسيين، والألمان يعدون المغاربة بإعادة عاهلهم السابق المولى عبد الحفيظ إليهم»[55].

كان هذا المخطط يدار برعاية الأمير راتيبار (Ratibar) الشرفية بتنسيق مع السفير الألماني في مدريد، الذي دمج خبراءه في المنطقة الشمالية للمغرب الخاضعة للإسبان بدعم من الموظفين والتجار الألمان المقيمين في المغرب، ومن هناك دخلوا في اتصالات مع زعماء حركات المقاومة المغربية. وإذا كانت بداية تنفيذ هذا المشروع انطلقت منذ عامي 1913-1914 في نواحي تازة، مع زعيم حركة المقاومة محمد المامون، فإن الشروع الفعلي انطلق في عام 1915

---

(52) من المؤكد أن عددًا من الضباط الأتراك، أمثال الكولونيل طاهر ورمزي ونوري وغيرهم، حاول ربط اتصالات مع زعماء حركات المقاومة المغربية انطلاقًا من المنطقة الشمالية للمغرب، انظر: Mohamed Bekraoui, *Les Marocains dans la grande guerre: 1914-1918*, Préface de Jean-Claude Allain (Rabat: Publications de la commission marocaine d'histoire militaire, 2009), p. 85.

(53) المصدر نفسه، ص 87.

(54) Rapport mensuel du protectorat, Rabat, La Direction du service des renseignements, Février 1918), p. 1, et Janvier 1918, p. 3.

(55) علال الخديمي، «أخبار الجهاد والمجاهدين بالمنطقة الشمالية خلال الحرب العالمية الأولى،» ورقة قُدمت إلى: ندوة علمية حول موضوع: المنطقة الشمالية والكفاح الوطني 1909م-1956م (الرباط: نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 1996)، ص 65.

مع دخول تركيا الحرب، وظهور عبد المالك في نواحي تازة، الذي تكلّف بمهمة الوساطة والتنسيق بين العملاء الألمان وباقي زعماء حركات المقاومة المغربية في المناطق المختلفة، خصوصًا الأطلس المتوسط وتافيلالت[56]. وتؤكد التقارير العسكرية الفرنسية الدور المهم الذي أداه حفيد الأمير عبد القادر الجزائري في تنشيط الدعاية الألمانية وتحريض حركات المقاومة وإمدادها بالمساعدات الألمانية[57].

أصبحت مدينة طنجة ممرًا نشط فيه تهريب الأسلحة والأموال إلى قادة حركات المقاومة عبر منطقة الريف، ما أزعج سلطات الاحتلال الفرنسي، فتدخل المقيم العام الجنرال ليوتي عند المصالح الفرنسية في المدينة الدولية لتكثيف مراقبتها بهدف منع المغاربة من الحصول على السلاح، وأبرق إلى المندوب الفرنسي في مصلحة مراقبة الريف في المنطقة الدولية لطنجة قائلًا له: «لقد أخبرت بالسهولة التي يتمكن بها المغاربة من إخراج الذخائر وأحيانًا الأسلحة المخبأة في أكياس من الحبوب الموجهة إلى الجبال... إن مصلحة التهريب المكلفة بمراقبة دخول هذه البضائع الممنوعة من مصلحتها بحسب رأيي أن تكون في علاقات واسعة بعنايتك مع الوكالة الفرنسية التي تجمع استخبارات حول ما يجري في المدينة، لكي تكون على علم في الوقت الملائم ولتتخذ الإجراءات الضرورية. إن إدارة الريف بإمكانها كذلك، بفضل جباتها في الأبواب، أن تمارس مراقبة نشيطة حول التهريب المخبأ في أعمال البهائم الخارجة من طنجة. فبفضل هذه الإجراءات وبتنسيق جهود إدارتكم مع الوكالة الفرنسية لا أشك في أننا ستمكن من جعل حد لمرور كميات هامة من الذخيرة بطنجة وضواحيها»[58].

إضافة إلى طنجة، شكلت مدينة مليلية أيضًا قاعدةً خلفية ارتكز عليها الألمان في حملتهم الدعائية المناهضة للاحتلال الفرنسي[59]. فإلى جانب توزيع المبالغ المالية

---

(56) عبد الحميد أحساين، «المقاومة المسلحة بمنطقة تازة خلال الحرب العالمية الأولى،» ورقة قُدمت إلى: المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بالمنطقة الوسطى الشمالية ما بين 1911-1956: أعمال الندوة المنعقدة في فاس من 14 إلى 16 دجنبر 1995 بتنسيق مع كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز (الرباط: المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 1997)، ص 90.

(57) Rapport mensuel du protectorat, Octobre 1915, p. 5.

(58) الخديمي، ص 65-66.

(59) Daniel Rivet, *Lyautey et l'institution du protectorat français au Maroc: 1912-1925*, 3 tomes (Paris: Éd. l'Harmattan, 1996), tome 2, p. 109.

على زعماء حركات المقاومة المغربية[60]، عمد الألمان إلى تزويد هذه الحركات الجهادية بالسلاح والذخيرة عبر وساطة عبد المالك. وتحفظ لنا المصادر أسماء بعض من كانوا صلة وصل بين هذا الأخير وزعماء المقاومة في جبال الأطلس.

1 - هزيمة لهري وبداية الدعم الألماني لموحا أوحمو

شكلت معركة لهري في عام 1914، التي انهزمت فيها القوات الفرنسية أمام حركة المقاومة الزيانية بزعامة موحا أوحمو[61]، نقطة سوداء في تاريخ الوجود الفرنسي في شمال أفريقيا، إذ فقدت فرنسا 30 ضابطًا و590 جنديًا قتيلًا و176 جريحًا[62]. عمل ليوتي على محاصرة الحدث إعلاميًا خوفًا من انتشار روح المقاومة في باقي المناطق، فانحسرت الكتابات والأحاديث والبيانات والشهادات في شأن المعركة في المغرب وفي فرنسا[63]. وطلب ليوتي من حكومة بلاده أن تقلل من أهمية هذا الحدث في الإعلام.

يقول لويس بارتو: «في فرنسا، خلال فترة الحرب العالمية الأولى، لم يكن لقضية لهري أي صدى يذكر»[64]. لكن، على الرغم من هذا التعتيم الإعلامي الذي مارسته المؤسسة العسكرية الفرنسية، للحيلولة دون امتداد صدى هذه الحركة إلى الخارج، ولإخفاء الحقيقة عن الرأي العام، ولا سيما أن الفترة فترة حرب عالمية كبرى، خلّف هذا الانتصار صدى عميقًا اهتزت له القبائل المغربية، في منطقة تازة

---

(60) Rapport mensuel du protectorat, Janvier 1918, p. 11, et «La Ligue française anti allemande du Maroc,» *La Presse marocaine* (Casablanca: 9 Février 1916), p. 5.

(61) يعد موحا أوحمو من أشهر قواد اتحادية زيان، ينتمي إلى قبيلة آيت حركات، تلقى تربية حربية منذ صغره أهّلته ليتقلد زعامة قبيلته وهو في العشرين من عمره، وبدأت علاقته بالسلطة المركزية المغربية مع السلطان المولى الحسن الذي عيّنه قائدًا على قبيلة زيان في عام 1886، وبوفاة السلطان المولى الحسن ستصبح علاقة الحسن الأول بالسلطان عبد العزيز متذبذبة، حيث حاول الاستقلال عن السلطة المركزية لعجزها عن أداء رواتب الجند، غير أن هذه العلاقة ستتغير إلى أحسن مع السلطان عبد الحفيظ، انظر: محمد بن لحسن، **معركة لهري (13 نونبر 1914) صفحات من الجهاد الوطني** (فاس: مطبعة أنفو - برانت، 2001)، ص 110.

(62) Augustin Guillaume, *Les Berbères marocains et la pacification de l'Atlas central (1912-1933)* (Paris: René Julliard, 1946), p. 109.

(63) Lyautey, p. 301.

(64) Barthou, p. 68.

أو في الجنوب الشرقي أو في الأطلس المتوسط بقسميه الشمالي والجنوبي[65]، وأحدث ارتياحًا كبيرًا وبعث آمالًا لا حد لها[66]. كما كان هذا الانتصار حافزًا لباقي حركات المقاومة المسلحة الأخرى لمواصلة ومضاعفة عملياتها العسكرية ضد قوات الاحتلال، خصوصًا أن هذا الانتصار تزامن مع النداء الذي صدر في تركيا وإعلانها الجهاد بعد وقوفها إلى جانب ألمانيا[67]، حيث بدأتا تعملان على إثارة المسلمين ضد الوجود الفرنسي.

بعد الانتصار الذي حققته حركة المقاومة الزيانية في معركة لهري، التي تزامنت مع التقدم الكبير الذي حققته القوات الألمانية في الجبهة الأوروبية، كثّف الألمان اتصالاتهم مع زعماء المقاومة المغربية، خصوصًا موحا أوحمو وموحا أوسعيد وسيدي رحو وغيرهم[68]، لحثهم على استغلال هذا الوضع الحرج الذي كانت تمر فيه القوات الفرنسية، وتنسيق جهدهم وتكثيف عملياتهم ضدها[69].

اعتقدت السلطات الألمانية والتركية أن الزعيم الزياني موحا أوحمو هو القادر على القيام بهذه المهمة وإثارة القبائل الجبلية ضد المراكز الفرنسية، لذا راسله السلطان العثماني مخاطبًا: «... إن سلطان تركيا وحليفته ألمانيا سيمدانكم بكل ما تحتاجون إليه من قوة ومال وعتاد، كما سيمدان كل من يساندكم على كبت عدوكم فرنسا ومناهضتها من جميع رؤساء قبائلكم...»[70]. كلف الزعيم الزياني موحا أوحمو العالم سيدي عبد الرحمن النتيفي بالرد على رسالة السلطان العثماني، فكتب: «... إننا على السمع والطاعة، ولن نرضخ لعدو ديننا ونبينا، ولا تتراءى معه أعيننا، فليطمئن خليفة الإسلام...»[71].

---

(65) Bekraoui, p. 264.

(66) Jacques Cagne, *Nation et nationalisme au Maroc*, Préface d'Abdelhadi Tazi; Avant-propos d'Abdelaziz Belal (Rabat: Dar Nachr al Maarifa; L'Institut universitaire de la recherche scientifique, 1988), p. 87.

(67) Bekraoui, p. 85.

(68) Louis Gentil, *Le Maroc physique*, Nouvelle collection scientifique (Paris: Librairie Félix Alcan, 1912), p. 113.

(69) *Bulletin du comité de l'Afrique française* (Mars 1916), p. 79.

(70) محمد بن لحسن، «نظرية المقاومة من خلال مخطوط كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر: دراسة تنظيرية مع توثيق النص» (أطروحة دكتوراه الدولة، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال، 1997)، ص 498.

(71) المصدر نفسه، ص 497.

بحسب التقارير العسكرية الفرنسية، حصل موحا أوسعيد على مساعدات مالية ألمانية تقدر بحوالى 800 ألف فرنك فرنسي، في حين حصل سيدي رحو على 500 ألف فرنك فرنسي[72]، ورصدت مصالح الاستعلامات الفرنسية وجود أوراق مالية في الأسواق من فئة 500 و1000 فرنك فرنسي[73].

من جهة أخرى، أذاع الألمان مجموعة من الأخبار والإشاعات في الأسواق والتجمعات السكانية لرفع معنويات رجال المقاومة، كخبر وصول طائرة السلطان العثماني، ومجيء محلة محيي الدين ابن عبد المالك إلى فاس وطلبه من زعماء الأطلس تهيئة الأرضية للنزول عندهم، وخبر قصف الطائرات الألمانية والتركية مناطق في المغرب[74]. لكن هل كان نشر هذه الإشاعات يتم بتدبير من الألمان والأتراك أم أن الأمر هو من «نسج خيال الساكنة التي أرهبها قصف سلاح الطيران الفرنسي وأصبحت تنتظر معجزة لتنقذها»[75].

2- المولى عبد الحفيظ والتنسيق بين الألمان وزعماء المقاومة

بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى وانضمام تركيا إلى الألمان، انطلقت الدعاية الألمانية في داخل البلدان الإسلامية، ومنها المغرب، وتحديدًا في جزئه الشمالي، تدعو إلى نصرة السلطان التركي. استغل الألمان توافرهم على تمثيليات دبلوماسية ومراكز تجارية في مدن شمال المغرب الخاضعة للنفوذ الإسباني، بما فيها سبتة ومليلية، للاتصال بعدد من ذوي المكانة العالية اجتماعيًا، وكان أول من اتصل به الألمان في إسبانيا السلطان الأسبق المولى عبد الحفيظ ليربطهم بزعماء المقاومة المغربية[76]. وجد الألمان والأتراك في شخص السلطان المغربي السابق المولى عبد الحفيظ حليفًا يساعدهم في دعم حركات المقاومة، وبالتالي إثارة ثورة عارمة وشاملة ضد الاحتلال الفرنسي.

منذ تنازل مولاي عبد الحفيظ عن الحكم في عام 1912 حتى نهاية الحرب،

---

(72) Rapport mensuel du protectorat, Mars 1917, p. 3, et Février 1917, p. 2.

(73) Rapport mensuel du protectorat, Janvier 1918, p. 3.

(74) Rapport mensuel du protectorat, Février 1918, p. 9.

(75) المصدر نفسه، ص 10.

(76) Guillen, p. 222.

بقي الرجل على اتصال بالأوساط الإسلامية والتركية، وعلى اتصال بألمانيا. سعت الأطراف الثلاثة بنشاط إلى تحقيق مشروع إثارة المغرب كله ضد الاحتلال الفرنسي[77]. وفي هذا السياق، نورد شهادة للباشا إدريس منو الذي تدرّج في المخزن العلوي كما جاءت عند المختار السوسي: «كان المولى عبد الحفيظ أيام الحرب الكبرى لعب دورًا خطيرًا في المغرب، وذلك أنه اتصل بحلفائه الألمانيين، فاتصل بمحمد بن حمو الزياني وأمثاله في الجبال، فكان يسرّب إليهم الأموال الضخمة، كمائة ألف ريال ومثل ذلك، وكان حاملو الرسائل والأوراق البنكية يعتمدون عليّ فأرشدهم إلى الطرق المأمونة، وكانوا يحترفون بحرف لا يوبه بهم أحد، كانوا يشتغلون بنقل الحطب أو الفحم أن قاربوا المدينة... وبينما أنا جالس يومًا إذ دخل بعض هؤلاء إلى الزقاق الذي أنا فيه وقد تزيّا بلباس حضري رقيق ورسائل من ألمانيا في جيبه، ولرقة ثيابه استبنت الطابع فوقها كما أعرفه فقلت له لقد أهلكتنا من حيث لا تشعر، قال وقد ذهبت في ذلك أموال طائلة من يد المولى عبد الحفيظ، وحاول بكل ما في إمكانه أن ينظم ثورة عامة في المغرب ضد المحتلين، غير أن ذلك لم يتم لجهل المغاربة بالفنون الحربية...»[78].

في 21 كانون الثاني/ يناير، أرسل أحد عمداء البوليس السري الفرنسي تقريرًا سريًا إلى قنصل فرنسا في إشبيلية عن موضوع المراقبة الصارمة الممارسة على مولاي عبد الحفيظ وعلى الأشخاص المحيطين به. ورد في التقرير: «في 15 فبراير 1915، وصل مغربي آخر إلى إشبيلية واستقر بنزل مدريد على نفقة السلطان السابق، وقد وضع هذا الرجل نفسه رهن تصرف مولاي عبد الحفيظ الذي كان يستقبله تقريبًا كل يوم. وفي 28 يناير بعث بحوالة من 400 بسيطة إلى عنوان الحاج علي بن قدور الريفي في مدينة طنجة»[79].

الحاج علي بن قدور الريفي هو أخ الحاج عمر الريفي، أحد أصحاب مولاي عبد الحفيظ، ألقي القبض عليه في طنجة في 27 كانون الثاني/ يناير 1916 بعدما عاد إلى المدينة من إسبانيا، ووجهت إليه تهمة التآمر ضد المخزن، إذ وجدت

---

(77) الخديمي، ص 65.

(78) محمد المختار السوسي، المعسول، 20 ج (الدار البيضاء: مطبعة فضالة، 1961)، ج 16، ص 104.

(79) الخديمي، ص 62.

بحوزته رسائل من مصر وتركيا ومكة وفاس واردة بالبوسطة الألمانية[80]. يستفاد أيضًا من تقرير بعثه قنصل فرنسا في جبل طارق إلى المفوض الفرنسي في طنجة بتاريخ 3 آذار/ مارس 1916، أي بعد إلقاء القبض على الحاج عمر، أن هذا الأخير هو القيم الخاص لمولاي عبد الحفيظ المكلف بأعمال الترحيل والجلب، وهو منظم للألمان في إشبيلية وعلى علاقة وطيدة بالسيد والتر، قنصل ألمانيا في الجزيرة. كما أكد القنصل الفرنسي أنه حدد أماكن 38 صندوقًا من الأسلحة، من بين 163 المعلن عنها، وهي موجودة في الجزيرة، ويمكن الحصول على معلومات جديدة من الحاج عمر عن مسألة تهريب السلاح، إذ جرى شراؤه[81].

يتضح إذًا أن المشروع الألماني التركي الهادف إلى اندلاع ثورة عامة في مناطق المغرب المختلفة، والتأثير سلبًا في الجهد الحربي الفرنسي في الجبهة الأوروبية، كان مشروعًا موسعًا تلتقي خيوطه عند هيئة أركان يرئسها ويموّلها الألمان[82]، بمشاركة ضباط أتراك سبق لهم أن عملوا في المغرب، بالتنسيق مع المولى عبد الحفيظ. غير أن الدور الذي قام به هذا الأخير يبقى في حاجة إلى المزيد من البحث والتحليل، لتوضيح طبيعة هذا النشاط ونوعيته.

3- الدعم الألماني لحركة عبد المالك

زادت صعوبة مهمة القوات العسكرية الفرنسية خلال هذه الفترة بسبب ظهور عدد من الحركات الجهادية المدعومة من ألمانيا وتركيا، خصوصًا حركة عبد المالك[83] الذي تلقف إعلان السلطان العثماني الجهاد والتحق بالمقاومة

(80) الخديمي، ص 63.

(81) المصدر نفسه، ص 64.

(82) Raymond Messal, *La Genèse de notre victoire marocaine: Un précurseur: Alfred le chatelier (1855-1929)*, Préface de Franchet d'Espérey (Paris: Dunod, 1931), p. 309.

(83) هو عبد المالك بن محيي الدين، حفيد الأمير عبد القادر الجزائري. عمل ضابطًا في الجيش العثماني قبل أن ينضم إلى صفوف الجيلالي الزرهوني المدعو بوحمارة في عام 1904. بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، انضم إلى صفوف حركات المقاومة المغربية في آذار/ مارس 1915، وأعطى وجوده ونشاطه دفعة قوية ونفسًا جديدًا لحركات المقاومة المغربية. استمدت حركة عبد المالك قوتها وحيويتها من نسبه الشريف وثقافته الأوروبية الواسعة والدعم المادي الذي كانت تحصل عليه من الألمان. كوّن عبد المالك جيشًا نظاميًا يتألف من 1600 جندي، كانوا يتقاضون رواتب في مقابل خدمتهم العسكرية، إضافة إلى بعض الألمان، انظر: Bekraoui, p. 90.

في تازة في عام 1915 ليتولى التنسيق فيها. أقلق عبد المالك الفرنسيين، لا لأنه أتى تازة ليتزعم الجهاد ضدهم فحسب، بل لأنه كان يؤجج روح الكفاح المسلح أيضًا، ويعمل على توحيد صفوف المقاومين المغاربة. أعطى وجوده ونشاطه دفعة قوية ونفسًا جديدًا للمقاومة المغربية في الجزء الشمالي والجزء الشمالي الشرقي الخاضع للفرنسيين[84]. في هذا الإطار، يقول الجنرال ليوتي: «شكل الألمان منذ الحرب العالمية الأولى عدونا الحقيقي والفعلي في الجبهات المغربية، وصادفنا تأثير العملاء والخبراء الألمان في كل المناطق وفي كل المعارك التي عطلت عملياتنا العسكرية»[85]. وتؤكد التقارير الفرنسية الدور البارز الذي أداه عبد المالك في تنشيط الدعاية الألمانية، حيث كان يحرض زعماء المقاومة المغاربة، ويمدهم بالمساعدات الألمانية، ويدعوهم إلى تنسيق هجماتهم العسكرية على القوات الفرنسية.

في آذار/ مارس 1915، عسكر عبد المالك في تازة، وجاهر بقراره مواجهة فرنسا مدعومًا من ألمانيا وتركيا، ومستفيدًا من موقعه الاستراتيجي بين مدينتي تازة وفاس. هدّد وجوده هناك خطوط المواصلات الفرنسية مع مستعمرتها الجزائر. وبفعل التنسيق الذي حاول تحقيقه بين القبائل، كثرت الاصطدامات بين الجيش الفرنسي والمقاومين، وتزامن الغليان الذي شهدته تازة مع سلسلة من الهجمات التي نظمها رجال المقاومة في المنطقة. شرح الجنرال ليوتي الوضعية في المغرب خلال هذه المرحلة بالقول: «تضاعفت التهديدات والاضطرابات التي انطلقت منذ معركة لهري بشكل كبير، خصوصًا بعد ظهور عبد المالك والدعم الألماني للمقاومين وإمدادهم بالأسلحة والذخيرة وحتى بعض الضباط والخبراء، ما ساعد حركات المقاومة على الانبعاث من جديد، وتكثيف عملياتها الجهادية بهدف منع الإمدادات عن المراكز الفرنسية»[86].

حصل أول اجتماع رسمي بين عبد المالك والألمان في قبيلة غياثة، بعدما اتصل به المندوب الألماني فرنسيسكو فارل وطلب منه الانتقال إلى الريف

---

(84) أحساين، ص 50.

(85) Rapport mensuel du protectorat, Novembre 1915, p. 5.

(86) *Bulletin du comité de l'Afrique francaise*, no. 6 (Juin 1915), p. 163.

الشرقي قرب مليلية ليخطب ودّ قبائلها، وليبحث عن نقطة آمنة مناسبة لإنزال حمولة عسكرية من سفينة ألمانية. بعد عودته من مليلية، شرع عبد المالك في تأسيس قاعدة عسكرية لحركته وإنشاء جيش نواته نحو ألف جندي من المغاربة الفارين من الجندية، إلى بضع عشرات من الجنود الألمان. وترافق ذلك مع شن وسائل الإعلام الألمانية حملة دعائية صبّت في مجرى الحرب النفسية، سلطت فيها الضوء على ثورة عبد المالك الجزائري في المغرب، ونجاحه في هزيمة القوات الفرنسية.

توطدت العلاقة بين عبد المالك والألماني ألبرت بارتلز[87] الذي صار يلقب في أوساط المقاومة المغربية بالـ «سي هرمان»، وهذا ما زاد من قوة حركة عبد المالك وخطورته على المخططات العسكرية الفرنسية في المنطقة، وما مكّنه من الحصول على دعم مادي ومعنوي مزيد، فحصل من الألمان في أثناء الحرب على أكثر من ستة ملايين بسيطة، كما تولى ضباط ألمان تدريب أتباعه[88].

كان تلاحم أتباع عبد المالك واتباع بارتلز صلبًا في مواجهة القوات الفرنسية المرابطة في المنطقة، فانطلقت أولى العمليات العسكرية في بداية حزيران/ يونيو 1917، حين قرر بارتلز وأتباعه مساعدة قبيلة البرانس ضد الفرنسيين.

في البداية، كان عبد المالك مترددًا، لكن بارتلز فرض عليه، بحماسته واندفاعه، أن يشاركه التخطيط لتنفيذ هجوم منسق ودقيق على القوات الفرنسية. نجحت خطة بارتلز الدقيقة، فاستطاع رجال قبيلة البرانس حصار الفرنسيين وقتلوا منهم 27 جنديًا. في إثر هذا الانتصار، قويت شكيمة مقاومة عبد المالك وبارتلز،

---

(87) دخل ألبرت بارتلز (Albert Bartels) إلى المغرب في 6 شباط/ فبراير 1903 مساعدًا ووسيطًا تجاريًا. جاء على متن الباخرة الألمانية Ottowermann واشتغل بالشركة الألمانية Brandt und Toel في مدينة الجديدة. وفي العام نفسه، زار مراكش. أسس شركة ملاحية في الرباط والقنيطرة، وأصبح ممثلًا لشركة النقل الملاحية بين المغرب وأوروبا. بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، تعذرت عليه العودة إلى ألمانيا، لأنه ألماني يعيش في منطقة الحماية الفرنسية. ألقي القبض عليه ونفي إلى الجزائر، ففر إلى مدينة مليلية ومنها دخل إلى شمال المغرب راغبًا في الانتقام من فرنسا التي صادرت ممتلكاته. ثم شرع في تنظيم الخلايا الأولى للمقاومة في هذه المناطق، انظر: سمير بوزويتة، «مساهمة قبيلة البرانس في مقاومة الاستعمار الفرنسي للمغرب 1912-1925،» ورقة قدمت إلى: ندوة علمية حول المقاومة، ص 105.

(88) المصدر نفسه، ص 105.

وبدأت الوفود تتقاطر على محلاتها[89]. لكن نشب صراع خفي بين الرجلين، إذ خشي عبد المالك من أن تكثر تجاوزات الألماني في المنطقة، فازداد ترددًا في التنسيق معه، بل حاول أيضًا إحباط عملياته.

تردّ التقارير العسكرية الفرنسية المختلفة انتشار نفوذ عبد المالك السريع إلى الوسائل والإمكانات الكبيرة التي كانت بحوزته، ما جعله يشكل خطرًا كبيرًا على المغرب الشمالي. قضّ هذا الأمر مضجع الفرنسيين، عسكريين وسياسيين، خصوصًا عندما اشتدت حدة المعارك بشكل ملحوظ في كانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير 1916، ما دفع بالقيادة العسكرية الفرنسية في المغرب إلى العدول عن خطة دفاعية اتبعتها بعد الحرب العالمية الأولى، واستبدالها بخطة هجومية تسعى من ورائها إلى القضاء - بأقصى سرعة ممكنة - على خطر عبد المالك[90]، وعرقلة انتقاله إلى جبهات أخرى.

في 27 كانون الثاني/ يناير 1916، شنت وحدة فاس العسكرية الفرنسية هجومًا شرسًا على عبد المالك فشتت قواته ونجحت في الاستيلاء على معسكره الذي وجده الفرنسيون «في غاية التنظيم بفعل نصائح وتوجيهات الخبراء العسكريين الألمان، خاصة بارتلز الملقب بوالتر»[91]. مثّلت هزيمة عبد المالك «فشلًا وانتكاسة للسياسة الألمانية بالمغرب، حيث اعتبر الفرنسيون يوم 27 يناير 1916 حدثًا مهمًا في تاريخ الحرب في الجبهة المغربية»[92].

بعد عمليات عبد المالك العسكرية ضد القوات الفرنسية، جاء رد الجنرال ليوتي سريعًا بإرساله الجنرال هنريس لإدارة العمليات العسكرية ضده، فتمكن من محاصرة معسكراته وإحراق عدد من خيامه وقتل كثير من أتباعه، ما اضطره إلى التراجع. بعد هذه الهزيمة، خشي عبد المالك من تخلي ألمانيا عنه، لكن الألمان راسلوه مؤكدين له الاستمرار في دعم حركته بوجه الفرنسيين، ليعود إلى واجهة

---

(89) بوزويتة، ص 106.

(90) «L'Enlevement du camps d'Abdelmalek,» *Bulletin du comité de l'Afrique francaise*, no. 4 (Avril 1916), p. 76.

(91) المصدر نفسه.

(92) المصدر نفسه.

الحوادث ثانية بعد انكماش، وليقلق الفرنسيين من جديد. غير أن التعزيزات العسكرية التي وجهها الجنرال ليوتي إلى القوات الفرنسية في تازة عجّلت بهزيمة عبد المالك، وانفصال عدد كبير من أنصاره عنه. انعكس ذلك على حركته، إذ تقلّص عدد أنصاره إلى 700 رجل لا أكثر. وعلى الرغم من ذلك، لم تتبدد مخاوف القيادة العسكرية الفرنسية منه طوال عام 1917، بل زاد قلقهم منه، خصوصًا أن تطورات الحرب في أوروبا أحيت في نفوس المغاربة بصيص أمل في تحقيق طموحهم. في إثر هزيمته، لجأ عبد المالك إلى الجبال شمال شرق تازة، ومعه الألماني هيرمان، وباغت القوات الفرنسية في تازة في 10 نيسان/ أبريل 1918 فكبّدها خسائر بشرية فادحة. ولولا قوة الدفاعات الفرنسية لحقق مجاهدوه نصرًا مبينًا كان يخشاه الفرنسيون، خصوصًا أن منطقة تازة كانت تعيش بين شباط/ فبراير وأيار/ مايو من العام نفسه حالة غليان وفوران شديدين[93].

مثّل خضوع قبيلة غياثة صفعةً قوية لعبد المالك، بعدما كانت سنده الأساس في حربه على الفرنسيين، فوجد نفسه عاجزًا عن الاستمرار في المقاومة. زاد انهيار الألمان على الجبهات الأوروبية وتوقف دعمهم له من حرج موقفه، فاضطر إلى تسريح جنوده والانسحاب إلى مليلية. وفي عام 1920، راسل الإقامة العامة الفرنسية في الرباط، مفاوضًا شروط استسلامه.

في تقويم حركة عبد المالك، انقسم الباحثون بين من يرى فيها أنموذجًا لحركات يحمل أصحابُها فكرًا أصوليًا مشبعًا بنظرة شمولية إلى الإسلام، ورغبةً جامحةً في تحقيق التضامن الإسلامي، ارتكازًا على مبادئ الجامعة الإسلامية وأفكارها، كما تبلورت في المشرق العربي[94]، وبين من يُدرجها ضمن حركات تمرد بعيدة عن أيّ اتجاه وطني أو تحرري، يبحث صاحبها عن السلطة والجاه. ما يسوّغ هذا التضارب هو تحول عبد المالك السريع من ولاء لفرنسا إلى ولاء لألمانيا. فهو كان من أبرز الموالين لفرنسا، لكن ألمانيا الطامعة الدائمة في المغرب استقطبته إلى صفها بعدما وعدته بالدعم المالي والعسكري، فلم يتردد في الاعتماد على قوة أجنبية مسيحية (ألمانيا)، كانت تساعده خدمة لمصالحها

(93) أحساين، ص 94.

(94) المصدر نفسه، ص 91.

واستراتيجيتها العسكرية المضادة لفرنسا وإنكلترا في أثناء الحرب العالمية الأولى. إضافة إلى ذلك، أعلن عبد المالك الجهاد على فرنسا وخاض المعارك ضدها متجنبًا الاصطدام بإسبانيا، نظرًا إلى تقاربها آنذاك مع ألمانيا.

على الرغم مما سبق كله، لا مفر من الاعتراف أن حركة عبد المالك تجاوزت الإطار القبلي التقليدي في مجال التنظيم والتأطير العسكريين[95].

4- استقطاب الألمان الأسرة الخطابية في الريف

أرادت الاستخبارات الألمانية تقديم دفعة قوية لدعايتها في شمال المغرب، فاستقطبت شخصيات تتمته بنفوذ واسع، قادرة على التأثير في القبائل المنتشرة في المنطقة. وقع الاختيار الألماني- التركي على الأسرة الخطابية لاستغلالها في تعبئة القبائل الريفية وضمها إلى قوات عبد المالك[96]، فتحمس الخطابيون لهذا المشروع، ولا سيما أنه تزامن مع رغبة عبد الكريم الخطابي الأب في قطع علاقاته السياسية مع الإسبان[97].

مثّلت مدينة مليلية، الخاضعة للإدارة الإسبانية، التي كان يقيم فيها محمد الخطابي، الابن الأكبر لعبد الكريم، نقطة انطلاق استراتيجية للدعاية الألمانية بغية تسهيل اتصال الخبراء الألمان والأتراك بالمتعاونين المحليين معهم. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر 1914، زار ضابط تركي عبد الكريم الأب في أجدير، وعرض عليه أن تساعد ألمانيا القبائل في المناطق الريفية التي لا تحتلها فرنسا ماديًا، من أجل تنفيذ أعمال مسلح ضد الفرنسيين. وزاره أيضًا المندوب الألماني فرنسيسكو فارل، آتيًا من مليلية بحرًا، بتوجيه من ابنه محمد[98].

وافق الزعيم الريفي محمد بن عبد الكريم الخطابي على المقترحات الألمانية مشترطًا أن يساعده الألمان، بداية، في تشكيل فرقة من رجال المقاومة

---

(95) أحساين، ص 92.

(96) عياش، ص 235.

(97) أوني، ص 116.

(98) محمد أحميان، «الدعاية الألمانية في شمال المغرب ضد فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى،» المجلة العربية (الرياض)، العدد 453 (آب/ أغسطس 2014)، ص 60.

الريفية وتسليحها لمواجهة الزحف المرتقب للقوات الإسبانية، ويكشف عن ذلك في مذكراته التي دوّنها الصحافي الفرنسي روجيه ماتيو تحت عنوان «مذكرات عبد الكريم»، فيقول: «... وأخذت عند ذلك أفكر بالأمر الذي كان يغمر فؤادي من الوصول إلى استقلال بلادي، لذلك لم أرفض طلب الرجل في أول الأمر... وهو ما حملني على أن أطلب من فرانسيسكو أن يساعدني على إنشاء فرقة مؤلفة من أربعة آلاف مقاتل تحمي الريف من كل اعتداء بينما أكون أناوش الجنود الفرنسيين»[99].

نجحت المساعي الألمانية في وصل عبد المالك بعبد الكريم، وتحقيق التنسيق بين حركتيهما، على الرغم من أن الرجلين كانا على طرفي نقيض من القضية الألمانية. فكان هدف عبد الكريم في الباطن تسليح القبائل الريفية وتدريبها وإعدادها للتصدي للغزو الإسباني المحتمل، في حين كان هدف عبد المالك الحصول على دعم قبائل الريف في مواجهة الفرنسيين. في 30 أيلول/ سبتمبر 1915، راسل عبد الكريم الخطابي عبد المالك ودعاه إلى القدوم والمعسكرة بقواته على ضفاف نهر النكور، قرب الساحل المتوسطي، لتوحيد المتطوعين في المقاومة، وكلف ابنه الأصغر محمد بنقل الرسالة بعدما اعتذر عن عدم الذهاب لملاقاته شخصيًا. وبعد ثلاثة أيام، أتبع رسالته الأولى بأخرى ملتمسًا من عبد المالك فيها تزويده بالمال لتجنيد الرجال في صفوف المقاومة[100].

تحدثت مصادر مختلفة عن زيارات متكررة قام بها ضباط وخبراء ألمان إلى سواحل الريف، فحلّ فارل بقبيلة بني سعيد الساحلية في أثر تفاهمه مع عبد الكريم، لكنه لم يقنعها بالتنازل عن مرفأ لإفراغ أسلحة مخصصة لعبد المالك على الرغم من وعده بتسليح أفرادها[101]. كما نشرت الصحافة الفرنسية أن مركب «بيترجيت»

(99) أوني، ص 116.

(100) المصدر نفسه، ص 116.

(101) قوبلت الدعاية الألمانية بتحفظ عدد من الأوساط القبلية الريفية التي عبّرت عن عدم استعدادها لتحويل أنظارها عن العدو الحقيقي الذي هو الإسبان. وعلى الرغم من مجيء عبد المالك بنفسه إلى قلب الريف لجمع المتطوعين في أيلول/ سبتمبر 1915، فإن مساعيه أخفقت، إذ خاطبه زعماء القبائل: إننا لا نفهم الغرض الذي تريد الوصول إليه في الداخل بينما يوجد الإسبان هنا على مقربة منا متأهبين لاحتلال أراضينا، انظر: عياش، ص 235.

الآتي من هامبورغ الألمانية أنزل مسافرين في الريف، وأن مركب «مرغريت» أنزل في أصيلة سلاحًا شُحن من أمستردام.

انخرط الألمان على نطاق واسع في عمليات تهريب السلاح بمساعدة بعض وكلائهم من القناصل، ما أثار حنق الدبلوماسيتين الإسبانية والفرنسية. ومع تصاعد حدة الصراع الفرنسي - الألماني، وظفت السلطات الألمانية ورقة تهريب الأسلحة أداةً لإثبات حضورها في المغرب، ومزاحمة فرنسا فيه. وتؤكد الوثائق الإسبانية دعم ألمانيا حركة تهريب الأسلحة إلى الريف ومنه إلى المنطقة الفرنسية[102].

إلى ذلك، أنتج دور ألمانيا في تهريب السلاح إلى الريف أزمات سياسية مع إسبانيا، حيث تمكنت البحرية الإسبانية، المكلفة رصد سواحل منطقة نفوذها ومراقبتها، من إيقاف متواطئين ألمان في ساحل الريف. وتشير الوثائق الإسبانية إلى توقيف الحرس المدني في ملقة أحد المتورطين الريفيين في تهريب الأسلحة والذخيرة في أيلول/ سبتمبر 1915، اعترف بتسلمه السلاح من القنصل الألماني الذي حوّل منزله مقصدًا لمهربي السلاح ودعم المقاومة المغربية ضد فرنسا[103].

أثارت تحركات الخطابي حفيظة إسبانيا، فسارعت إلى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتطويق الأزمة، وطالبته بتصريح علني لمصلحتها وبتعهده بالتوقف عن العمل لمصلحة الألمان، وألغت رخصةً كانت تجيز لابنه محمد العودة إلى أجدير، للمشاركة في الاحتفال بعيد الفطر مع عائلته.

في 24 آب/ أغسطس 1915، تلقى الجنرال أيثبورو الذي حلّ في جزيرة النكور أمرًا بإلقاء القبض على القاضي عبد الكريم متى جاء لاستقباله[104]. وللخروج من هذا المأزق، لجأ عبد الكريم إلى المراوغة محافظًا على اتصاله بعبد المالك، ومجتهدًا لإخراج محمد من مليلية وإعادة امحمد من مدريد حيث كان يتابع دراسته[105].

(102) أحميان، ص 61.

(103) المصدر نفسه، ص 61.

(104) أوني، ص 120.

(105) أحميان، ص 61.

في 6 أيلول/ سبتمبر 1915، رفع الجنرال خوردانة، المندوب السامي الإسباني في تطوان، تقريرًا إلى مدريد أمر فيه بإقالة محمد بن عبد الكريم الخطابي من وظائفه، وباعتقاله بتهمة الخيانة العظمى لانحيازه إلى الحلف الألماني - التركي ودخوله في خدمة دعايتهما في شمال المغرب[106]. فدام اعتقاله زهاء 12 شهرًا، أي حتى آب/ أغسطس 1916[107].

جدّ عبد الكريم الأب علانية في دعم الدعاية الألمانية، بالتنسيق مع عبد المالك. وإن أتى نشاطه هذا متوافقًا مع خيار اختاره لنفسه قبل اعتقال ولده محمد، ينمّ عن قراره في نصرة الإسلام، فإن هذا النشاط تحوّل بعد ذلك استقواءً على الإسبان، ورغبة في أن يدركوا مقدار المشكلات التي يمكنه وضعها في دروبهم، وكان بالتالي يحضّر نفسه مفاوضًا مستقبليًا قويًا[108].

رأى باحثون أن العلاقة بين الألمان وعبد المالك وعبد الكريم لم تتعدّ حدود التحريض على النفوذ الفرنسي في المنطقة، والدليل أن الإسبان عجزوا عن إثبات تهمة التعامل مع الألمان على محمد بن عبد الكريم الخطابي عندما اعتقلوه في عام 1915، فيما أكد باحثون آخرون أن الخطابي حصل على مساعدات مالية كبيرة من الألمان، ووثّقت حالات عدة ضُبط فيها مال ألماني في طريقه إلى الخطابي. ففي عام 1916، مثلًا، كما يكشف الأسترالي ريتشارد بينيل في كتابه دولة بحكومة وعلم تفصيلات الحرب الريفية في المغرب، فيقول إن السلطات الإسبانية حجزت أكثر من 800 ألف بسيطة إسبانية كانت موجهة إلى الخطابي. وفي مثال آخر، حجزت السلطات الإسبانية في آذار/ مارس 1916 أكثر من 11 ألف بسيطة كانت في طريقها إلى الريف. ويشير الكاتب نفسه إلى حجز أكثر من 18 ألف بسيطة آتية من ألمانيا وموجّهة إلى الخطابي، وهذا ما تمكّن الإسبان من حجزه في وقت كانت مبالغ مهمة من الأموال الألمانية تغدق فيه على ثوار الخطابي[109]. وتروي

---

(106) أوني، ص 120. لم يستند تقرير إدانته على أي عنصر مادي، حيث لم يتم العثور على ما يستحق الذكر عدا بعض منشورات تركيا الفتاة التي لا علاقة لها بالقضية ولا يمكن أن يشكل وجودها في حد ذاته إثباتًا للمتهم، انظر: عياش، ص 231.

(107) عياش، ص 193.

(108) المصدر نفسه، ص 236.

(109) المساء (المغرب)، 20/ 3/ 2014.

المصادر التاريخية أن حساب محمد بن عبد الكريم الخطابي المصرفي حوى على أكثر من 17 ألف ريال عندما غادر مليلية نهائيًا، وهذا مبلغ كبير بحسابات تلك الأيام[110].

5- التدابير المتخذة للحد من خطورة الدعاية الألمانية

لم تقف السلطات الفرنسية في المغرب مكتوفة اليدين أمام استفزازات ألمانيا، ودعمها حركات المقاومة المغربية، وتشجيعها إثارة الاضطرابات في المغرب للتأثير سلبًا في الجهد الحربي الفرنسي في الجبهة الأوروبية، فاتخذ المقيم العام الفرنسي الجنرال ليوتي إجراءات ومواقف عدائية عدة ضد الألمان المقيمين في المغرب، وأمر بإغلاق القنصليات الألمانية والنمساوية والهنغارية في ظهير 5 آب/ أغسطس 1914[111]. كما دفع السلطان العثماني إلى سحب الحماية المخصصة لهم في المناطق الخاضعة للحماية الفرنسية، وأغلق مجموعة من المكاتب التابعة لألمانيا في المغرب: «شن ليوتي حملة قوية على الدعاية الألمانية، عندما عمد إلى إغلاق القنصليات ومصادرة المناشير، وتوقيف عدد من الجواسيس الألمان وإعدامه، مثل كارل فيك وغروندلر»[112].

فرض ليوتي رقابةً شديدة على الصحف الأجنبية، ومنعها من الدخول إلى المغرب، خصوصًا الألمانية والتركية. وفي الإطار نفسه، حالت سلطات الاحتلال الفرنسية دون وصول أخبار الحرب العالمية الأولى إلى المغاربة، ومنعت أخبارهم من التسرب إلى باقي دول العالم. وكان أشهر مثال على ذلك الحصار الإعلامي لأخبار انتصار القبائل الأمازيغية في معركة لهري. إلى ذلك، عمدت السلطات الفرنسية من خلال إعلامها إلى تشويه سمعة رجال المقاومة ونعتتهم بلفظي «العصاة» و«الدجالين».

وليُظهر المقيم الفرنسي العام قوة فرنسا أمام المغاربة، وليقنعهم بانتصاراتها

(110) المساء (المغرب)، 20/ 3/ 2014.

(111) Bekraoui, p. 91.

(112) Jean Vial, *Le Maroc Héroïque*, Préface de H. Giraud (Paris: Hachette, 1938), p. 106.

على الألمان، استقدم إلى المغرب نحو 4000 أسير ألماني[113] ليستخدمهم بحسب زعمه في الأشغال الكبرى، كالطرق والسكك الحديد، تعويضًا للنقص في اليد العاملة المجندة للحرب[114]. كما كان إحضار هؤلاء الأسرى إلى المغرب تأكيدًا للمغاربة حقيقة انتصار فرنسا، فهو «عامل جديد ومهم لرفع معنويات المغاربة وإقناعهم بقوة فرنسا»[115]، كما يقول ليوتي.

واجه ليوتي نشاط الدعاية الألمانية - التركية الكبير، واستغل في ذلك هيبة السلطان العثماني الدينية ووظفها في خدمة مهماته وأهدافه، قانعًا أن السلطان حجر الأساس في النظام السياسي المغربي، لأنه يمثل السيادة الداخلية والخارجية للبلاد[116]. من هنا، انصب اهتمام المقيم العام الفرنسي على مفهوم الخليفة، محاولًا استغلال هذا المفهوم في مسعاه إلى بلورة سياسة خارجية تدعم مكانة المغرب في العالم الإسلامي، خصوصًا في تحولات كان الشرق الإسلامي يشهدها خلال الحرب العالمية الأولى، وفي خشيته من أصداء هذه التحولات في المغرب، وبالتالي في مواجهة تيار الجامعة الإسلامية العثمانية الذي كانت ألمانيا تدعمه وتحاول استغلاله لتحريض الشعوب الإسلامية في الدول الخاضعة لسيطرة الحلفاء، وهو تيار مثلت، الخلافة التركية عموده الفقري.

اقترح ليوتي مشروع توحيد سكان المغرب الإسلامي تحت زعامة السلطان المغربي الذي اعتبره محورًا أساسيًا يمكنه جمع مستعمرات أفريقيا الشمالية حوله. لكن واجه هذا المشروع معارضةً من الأوساط الحكومية الفرنسية، خصوصًا من خصوم ليوتي الذين اتهموه باستغلال الموقف هذا لتدعيم نفوذه. فما كان المسؤولون الفرنسيون مستعدين لتبني مثل هذا المشروع، أو للاقتناع أن سياسة ليوتي الإسلامية ربما تكون وسيلة لمواجهة التنافس المباشر مع إنكلترا.

استغل ليوتي مسألة الخلافة بذكاء كبير للقضاء على المقاومة المغربية.

---

(113) Bekraoui, p. 93.

(114) Jean Ganiage, *Histoire contemporaine du Maghreb: De 1830 à nos jours*, Avec la collaboration de Jean Martin (Paris: Fayard, 1994), p. 411.

(115) المصدر نفسه، ص 411.

(116) دانيال ريفي، «السياسة الدينية للحماية في المغرب،» المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، السنة 4، العددان 13-14 (1991-1992)، ص 155.

وبالطريقة نفسها، استغل ما يتمتع به زعماء الزوايا من نفوذ ديني وسياسي كبير لتعبئة الشيوخ الموالين لنظام الحماية وتحريكهم ضد العناصر الجرمانية والتركية.

خاتمة

بفضل استراتيجيا استغلال النزعة الإسلامية التي اهتدت إليها ألمانيا، نجح الألمان في تنظيم حملة تحريضية ضد نظام الحماية الفرنسي، هدفها التشويش على فرنسا وإثارة الاضطرابات في مستعمراتها في شمال أفريقيا، وتخفيف الضغط الفرنسي على الجبهة الأوروبية. لكن، على الرغم من قوة الدعاية الألمانية - التركية ووصولها إلى زعماء حركات المقاومة المغربية ودعمهم ماديًا ومعنويًا لتنسيق جهدهم وإطلاق ثورة عامة في المغرب ضد القوات الفرنسية، وعلى الرغم من اشتداد نشاط حركات المقاومة المغربية خلال هذه الفترة وتكثيفها عملياتها ضد المراكز العسكرية الفرنسية، يبقى التساؤل الآتي مطروحًا: لماذا لم يستفد زعماء حركات المقاومة المغربية وقادتها من الدعم الألماني - التركي لتنظيم رجالهم وتأطيرهم في سبيل قيادة حرب تحريرية شاملة، مستغلين اندلاع الحرب العالمية الأولى وعجز الحكومة الفرنسية عن تقديم الدعم لقواتها في المغرب التي تقلص عددها كثيرًا وصارت تتفادى الدخول في أي اشتباك أو مواجهة مع حركات المقاومة؟

تميزت حركات المقاومة في المغرب بأنها حركات محلية معزولة ومشتتة بتشتت القبائل والعشائر، عانت ضعف التأطير ومحدودية الأفق النضالي والسياسي، ونشطت في رقعة جغرافية محدودة. إذ على الرغم من الصمود الذي أبدته، ومن التضحيات التي بذلها رجالها، بقيت هذه الحركات ضعيفة التنظيم، طغى عليها طابع العفوية، لذا أتت مقاومتها في الأغلب مجرد ردات فعل عفوية وتلقائية متفرقة غير متجانسة، تشتد حينًا وتفتر أحيانًا، ما ملكت يومًا سياقًا خاصًا بها، ولا أفقًا موضوعيًا، بل افتقدت طويلًا إلى التوجيه الواعي بالتطورات والمتغيرات المحيطة. فالمغرب لم يعرف مقاومةً منظمةً وموجهةً تساير المتغيرات وتتأقلم مع الأوضاع المحيطة، على غرار الحركة الريفية التي اتسمت بقوة تنظيمها، وبطموح سياسي شكّل إطارها النضالي الذي وجهته نحو ملء الفراغ المخزني.

كان لواقع هذه الحركات الجهادية، المتسم بالتشتت والعفوية وغياب أي

توحد أو تنسيق بينها، الأثر الكبير في مسار الصراع بينها وبين الفرنسيين، باعتبارها حركات محلية محدودة الفاعلية والأثر في المخططات الفرنسية.

إن الحديث عن توحد هذه الحركات والتنسيق في ما بينها لتنفيذ عمليات مشتركة ضد القوات الفرنسية ومراكزها العسكرية أمرٌ يصعب تحقيقه بسبب عوامل ذاتية وموضوعية يصعب فهمها إلا باستحضار تشابك الخريطة القبلية، وإدراك خلفيات مواقف القوى القبلية المكونة لهذه الحركات، واستحضار الأحوال الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعرفها هذه المجتمعات القبلية، ومراعاة البنية القبلية والإثنية السائدة في كل منطقة، وهي عوامل ارتبطت في العمق بطبيعة المجتمع المغربي وبالتناقضات التي كانت تطغى عليه، وأثرت في مجرى الصراع وحسم المواجهة بين جيش الاحتلال وحركات المقاومة، وحددت بشكل كبير النهاية التي عرفتها ظاهرة المقاومة.

ساير المسار الذي اتخذته حركات المقاومة الأحوال الاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها القبائل المغربية، لأنّ هذه الحركات كانت مستوحاة من صميم المجتمع البدوي بما كان يعرفه من صعوبة في التواصل، ومن انتشار النزاعات بين القبائل، وهذا ما يفسر ظهور مقاومات لا مقاومة واحدة في المنطقة نفسها، فتعددت حركات المقاومة وتنوعت أساليب الجهاد على الرغم من محاولة التنسيق والتحالف التي حدثت بين الفينة والأخرى.

الفصل الخامس

الأسرى المسلمون في ألمانيا
خلال الحرب العالمية الأولى
ذلك التاريخ المجهول

علاء الدين يحوي

تعالج هذه الدراسة موضوعًا مهمًا لم ينل حظّه من اهتمامات الباحثين الذين كانوا يمرّون عليه مرور الكرام، وربما تعذّر العثور على معلومات كافية في شأنه هو ما دفعهم إلى ذلك. إنه موضوع الأسرى المسلمين في ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى.

لا ندّعي هنا أننا سنعالج الموضوع من جوانبه كلها، لكن حسبُنا أننا سنفتح ثغرة فيه ونلفت الباحثين إليه، مع التنبيه إلى أن تاريخ الحركة العربية في ألمانيا، خلال الحرب العالمية الأولى أم الثانية، يحتاج إلى مزيد من البحث والتنقيب.

المادة التوثيقية المتصلة بموضوع الأسرى موجودة في ألمانيا، وأكثرها محفوظ في المركز الألماني للدراسات الشرقية الحديثة (Zentrum Moderner Orient) الذي يضم العشرات من الوثائق الأرشيفية والصور والدراسات والمقالات، خصوصًا المكتوبة باللغة الألمانية، إضافة إلى وثائق بالعربية، أهمها مجلة **الجهاد** التي أصدرها الألمان في أثناء الحرب العالمية وسيلةً لبث الدعاية وسط الأسرى المسلمين. وننبّه أيضًا إلى أنه في أثناء بحثنا في دليل الأرشيف التركي على الإنترنت، لاحظنا وجود وثائق متصلة بهذا الموضوع، ويمكننا أن نُخَمن أيضًا وجود وثائق أرشيفية في فرنسا وبريطانيا وروسيا وسويسرا وإيطاليا والسويد، لها علاقة بالموضوع. إذ جمعت ألمانيا في معسكر الأسرى هنودًا ومغاربة وآسيويين وأفريقيين وتتارًا، لذلك الأسئلة التي تطرح هنا: متى أنشئ معسكر الأسرى؟ ما كان غرض الألمان الحقيقي من إنشائه؟ وهل نجحوا في تحقيق أهدافهم؟

أولًا: ألمانيا والإسلام

كي نفهم جيّدًا موضوع الأسرى المسلمين في ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى، لا بد لنا أولًا من أن نفهم طبيعة العلاقة بين هذه الأخيرة والدولة العثمانية

ومحاولاتها - أي ألمانيا - استغلال دولة الخلافة والإسلام في خدمة مصالحها وفي صراعها مع الدول الأوروبية، خصوصًا بريطانيا وفرنسا، سعيًا منها إلى تعويض ما فاتها من العملية الاستعمارية التي بدأتها هاتان الدولتان وأخرى كهولندا وإسبانيا والبرتغال منذ القرن السادس عشر.

حين نشبت الحرب العالمية الأولى في آب/ أغسطس 1914، أعلنت الدولة العثمانية في البداية الحياد، لكنها سرعان ما دخلتها إلى جانب ألمانيا، وألغت الامتيازات الأجنبية. ردت عليها دول الوفاق الودي (فرنسا وبريطانيا وروسيا) بقطع العلاقات الدبلوماسية معها، وأعلنوا عليها الحرب في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر 1914، وهكذا دخلت الدولة العثمانية حربًا عالمية شهدت معركة إعلامية ودعائية لا تقل ضراوة عن المعارك العسكرية، إذ كان للسلطات العثمانية سلاح فاعل من شأنه أن يلفّ حولها جميع مسلمي العالم ويثيرهم ضد أعدائها الذين يستعمرونهم، وهو سلاح الدين، فهي مركز خلافتهم ورمز وحدتهم ومحط آمالهم[1].

أدركت ألمانيا هذه المكانة الروحية التي تتمتع بها الدولة العثمانية، فسعت إلى استغلالها في حربها على أعدائها الأوروبيين. والواقع أن محاولاتها لاستغلال الإسلام لا تعود إلى الحرب العالمية الأولى فحسب التي بلغت فيها السياسة الإسلامية الألمانية ذروتها، وإنما إلى عهد المستشار الألماني الشهير بسمارك الذي سعى عند السلطان العثماني لتسهيل نشاط الألمان في أفريقيا. لكن، كشفت هذه الاتصالات بالحكام المسلمين في أفريقيا ضعف نفوذ السلطان، فأسقطت ألمانيا نفوذه من حساباتها الاستعمارية في أفريقيا والتفتت إلى ركن آخر من القارة الأفريقية، أي المغرب الأقصى. كان هدف بسمارك إبعاد الفرنسيين عن قضية الألزاس واللورين، كما سعت ألمانيا إلى تقوية روابط الجامعة الإسلامية بين السلطان العثماني وسلطان المغرب الأقصى[2] ظنًا منها أن هذا يضايق فرنسا.

(1) التليلي العجيلي، صدى حركة الجامعة الإسلامية في المغرب العربي 1876-1918 (تونس: دار الجنوب للنشر؛ كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، 2005)، ص 223-224.

(2) كان من نتيجة هذا التقارب أن عيّن الباب العالي أول سفير له في المغرب الأقصى، هو الأمير محي الدين بن الأمير عبد القادر الجزائري، انظر: أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (الجزائر: دار البصائر، 2007)، ج 2، ص 219-223.

لكن هذه الأخيرة أفشلت المشروع من خلال تخويفها سلطان المغرب الأقصى من نوايا الألمان والعثمانيين باتجاه بلاده[3].

بعد رحيل بسمارك، استمرّت سياسة ألمانيا في استغلال منصب السلطان والجامعة الإسلامية، وجاءت أول دعوة ألمانية رسمية لاستخدام الإسلام في الصراع مع الدول الكبرى في أثناء رحلة الإمبراطور إلى بلاد الشام في عام 1898، وإلقائه خطابًا استراتيجيًا لعب فيه على ورقة الإسلام والإسلامية ضد الدول الكبرى، خصوصًا بريطانيا وفرنسا. فأعلن العاهل الألماني عن صداقته للمسلمين في العالم. بهذا المعنى، جاء خطابه في طنجة في عام 1905، وعزفه على النغمة الإسلامية، وتأكيده استقلال المغرب في وجه الأطماع الفرنسية والإسبانية. كانت هذه التحركات الدبلوماسية نحو الإسلام ألاعيب من الإمبراطور للاستفادة من الإسلام في التنافس الاستعماري. فعندما توصلت بلاده مع فرنسا في عام 1908 إلى اتفاق في شأن سياستهما الاستعمارية في المغرب، ضربا بشعارات صداقتها للإسلام عرض الحائط[4].

مع بداية الحرب العالمية الأولى، نشطت مجموعة من المستشرقين الألمان التي عكفت على صوغ الأسس العلمية لاستراتيجيا تهدف إلى إشعال ثورات شعبية في البلدان ذات الأغلبية المسلمة الخاضعة لبريطانيا وفرنسا، وجرت اتصالات مكثّفة مع السلطان العثماني الذي استساغ الفكرة، ودخلت تركيا الحرب رسميًا. وبعدها بأيام، في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1914، أعلن السلطان العثماني الجهاد المقدّس[5]، باعتباره سلاحًا لتشتيت قوى الحلفاء المعادية واستنزافها، صاغها المستشرق الألماني ماكس فون أوبنهايم في إطار خطة استراتيجية شاملة قدّمها

(3) عبد الرؤوف سنو، «ألمانيا والإسلام (1871-1945)،» حوار العرب، السنة 2، العدد 15 (شباط/ فبراير 2006)، ص 25-26.

(4) المصدر نفسه، ص 26.

(5) اعتَبَرت الفتوى التي أعلنها شيخ الإسلام أن محاربة إنكلترا وفرنسا وروسيا وصربيا والجبل الأسود لنصرة الدولة العليّة وألمانيا والنمسا لَمَبرّة للخلافة الإسلامية، والملاحظ أن الفتوى استثنت إيطاليا على الرغم من حداثة استعمارها وهذا استثناء لا غاية منه إلا حرص الدولة العثمانية وحليفتيها على تحييد إيطاليا، وهذا ما استحسنته الأخيرة، لكنّه لم يؤخذ في الاعتبار من المجاهدين الطرابلسيين، انظر: العجيلي، ص 227-230.

إلى قيصر ألمانيا فيلهلم الثاني الذي وافق عليها وصارت جزءًا من الاستراتيجيا العامة لألمانيا في تلك الحرب[6].

على الرغم من أن الألمان كانوا يرون في الجامعة الإسلامية، مثل غيرهم من الأوروبيين، حركة تعصب ديني ضد أوروبا المسيحية، كانوا من ناحية أخرى لا يجدون حرجًا في الاستفادة منها في صراعهم مع دول الوفاق الودي، لأنها القوة الوحيدة القادرة على خدمة أهداف بلادهم من الحرب عبر تجييش المسلمين خلف شعاراتها ومضامينها. كان إعلان الجهاد الإسلامي أحد الشروط الألمانية للتحالف مع الدولة العثمانية، ووصف أحد المراقبين الألمان المعاصرين الجهاد المقدّس الذي أعلنه السلطان العثماني بأنه وسيلة قوية تسير جنبًا إلى جنب مع الجيوش العثمانية في أراضي العدو، وهذا لا يجعل من دول الوفاق الودي أعداءً للدولة العثمانية فحسب، وإنما للإسلام قاطبة[7].

مع ذلك، لا بد من الإشارة إلى أن شخصيات لم توافق على هذا التوجه الألماني. إذ ذكر الإمام محمد الخضر حسين في مذكراته[8] أنه عندما سافر إلى ألمانيا التقى في إدارة الاستخبارات الشرقية أحد المستشرقين الذي أنكر على الحكومة الألمانية موافقتها تركيا في إعلان الجهاد الديني، وكان بينه وبين الشيخ

(6) مجدي يوسف، «جهاد «من صنع ألمانيا» و«بيت الطاعة» من صنع بريطانيا،» المصري اليوم، 18/ 10/ 2013، ص 13.

(7) عبد الرؤوف سنو، «سياسة ألمانيا الإسلامية في حوض البحر المتوسط: تحالف استراتيجي أم تحقيق مصالح قومية؟،» ورقة قُدمت إلى: العثمانيون والعالم المتوسطي: مقاربات جديدة، أعمال الندوة التي عقدت برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ما بين 18-20 أبريل 2002، تنسيق عبد الرحمن المودن وعبد الرحيم بن حادة، ندوات ومناظرات؛ 109 (الرباط: منشورات جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2003)، ص 230.

(8) هي مذكّرات مخطوطة في دار الكتب المصرية، كتب الإمام محمد الخضر حسين جزءًا منها وتوقف، وسمّاها مراحل الحياة. كانت مقررة في أربعة مجلدات كاملة، سعينا جاهدين للحصول عليها لكننا لم نوفق، وكل ما استطعنا تحقيقه هو الحصول على تحقيق لأحد الصحافيين المصريين عن هذه المذكرات نشره في مجلة روز اليوسف ونقل فقرات عن هذه المذكرات، انظر تفصيلات أكثر عن هذه المذكرات وحقيقتها ولماذا توقف الإمام عن كتابتها في: موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها علي الرضا الحسيني، 15 مج (دمشق: دار النوادر، 2010).

صالح الشريف مناقشات في هذا الأمر[9]، كما أنكر بعض المستشرقين الآخرين خارج ألمانيا على الألمان سياستهم الإسلامية، على رأسهم المستشرق الهولندي سنوك هورجروني الذي نشر نقدًا لاذعًا بعنوان «جهاد من صنع ألمانيا»[10].

لم تقف دول الوفاق الودي مكتوفة الأيدي، بل سعت هي الأخرى إلى توظيف رموز الدين الإسلامي، في البلدان التي تسيطر عليها أم من خلال استغلال الشريف حسين كرمز ديني عربي للرد على الدعاية الألمانية والتركية[11]. وهكذا أصبح الإسلام وشعاراته ألعوبة في أيدي الدول الاستعمارية الأوروبية المسيحية.

في عام 1915، ظهرت في برلين مؤسسة برئاسة أوبنهايم، هدفها الإشراف على الدعاية الألمانية الشرقية الإسلامية بشكل خاص، اسمها «وكالة أخبار الشرق»، أشرف عليها عدد من المستشرقين وعلماء الإسلاميات الألمان. حُصر نشاط الوكالة في الدعاية داخل الدولة العثمانية وفي البلدان الإسلامية لتحريض المسلمين في العالم على الثورة ضد دول الوفاق الودي، من خلال مبعوثين ألمان إلى تلك البلدان، خصوصًا إلى الهند ومصر وشمال أفريقيا، يحصلون على معلومات اقتصادية وسياسية وعسكرية عن تلك المناطق والدول المحايدة، ويقنعون شعوبها بأهداف الحرب الألمانية، فضلًا عن دعم الصحف المحلية. ومن مهمات تلك الوكالة أيضًا غسل أدمغة الأسرى (عرب مشارقة ومغاربة وهنود) الذين كانوا يحاربون في جيوش دول الوفاق ووقعوا في أسر القوات الألمانية وسجنوا في معسكرات الاعتقال في ألمانيا[12]. وليضمنوا فاعلية أكبر تأثيرًا لدعايتهم في البلدان الإسلامية، خصوصًا بين الأسرى في معسكرات الاعتقال، سعى الألمان إلى التقرّب من بعض القادة السياسيين والفكريين الإسلاميين، ومن أبرز هؤلاء الذين تعاونوا مع ألمانيا، اعتقادًا منهم بسياستها الإسلامية المعلنة

---

(9) محمد الخضر حسين، مراحل الحياة، نقلًا عن: وائل لطفي، «شيخ الأزهر الغامض،» مجلة روز اليوسف (4 تشرين الثاني/ نوفمبر 2000)، ص 55.

(10) يوسف، ص 13.

(11) انظر في هذا الموضوع: عبد الجليل التميمي، دراسات في التاريخ العربي العثماني: 1453-1918 (تونس: مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، 1994)، ص 59 وما بعدها، وبتوسع أكثر: العجيلي، ص347 وما بعدها.

(12) سنو، «سياسة ألمانيا الإسلامية،» ص 231-232.

وتحالفها مع الدولة العثمانية أو خوفًا على مصير المنطقة في حال انهارت الدولة العثمانية، كان الأمير شكيب أرسلان والشيخ عبد العزيز جاويش ومحمد فريد والشيخ صالح الشريف والإمام محمد الخضر حسين والأخوين محمد وعلي باش حانبة التونسيَين وغيرهم[13].

ثانيًا إنشاء معسكر الأسرى (معسكر الهلال)

كان الأسرى المسلمون الذين جنّدتهم دول الوفاق الودي إلى جانبها في الحرب ووقعوا في يد الألمان، في بداية الأمر، مشتتين في أنحاء ألمانيا مع غيرهم من الأسرى الإنكليز والفرنسيين والروس، فتقرّر جمعهم في هذا المعسكر الذي أطلق عليه اسم «معسكر الهلال»، ويضم مسلمين عربًا، خصوصًا من شمال أفريقيا، وتتارًا وهنودًا ومسلمين من دول أخرى[14]، ويبدو أن اتفاقًا وقع بين ألمانيا والدولة العثمانية ينص على الآتي: في حال وقوع أسرى في يد قوات أي منهما، يفرز المسلمون ويرحّلون إلى ألمانيا[15].

بُني معسكر الهلال ليتسع لنحو 5000 أسير، وضم في عام 1915 نحو 3046 أسيرًا، معظمهم من الجزائر وتونس والقليل من المغاربة[16]. عاملهم الألمان معاملة خاصة وحسنة فبنوا لهم حمامًا كبيرًا على الطراز الشرقي للاستحمام، ومساكن من الخشب منظمة تنظيمًا محكمًا ومُدَفّأةً جيدًا، وعيّنوا لهم أطباء يتفقدون أحوالهم الصحية من حين إلى آخر، وأمدّوهم بثلاثة آلاف مصحف ليتمكّنوا من تلاوة القرآن[17]، كما كان الطباخون من الأسرى كي لا يدسّ في

---

(13) سنو، «سياسة ألمانيا الإسلامية».

(14) ورنير أنده، «الوطنيون العرب ونشاطهم السياسي والصحفي في ألمانيا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى،» الأصالة (الجزائر)، السنة 6، العدد 52 (كانون الأول/ ديسمبر 1977)، ص 59.

(15) يوسف، ص 13.

(16) محمد فريد، أوراق محمد فريد، المجلد الأول: مذكراتي بعد الهجرة (1904-1919)، سلسلة المذكرات التاريخية (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، 1978)، ص 219.

(17) تاريخ حياة طيب الذكر الأمير علي بن الأمير عبد القادر ملك الأقطاع المغربية وسلطان الأرياض الجزائرية، وضعه نخبة من أفاضل الكتاب تحت رعاية نجل الفقيد الأكبر الأمير محمد سعيد (دمشق: مطبعة الترقي، 1918)، ص 18.

طعامهم لحم الخنزير أو دهنه، وكانوا يتلقون التمرينات العسكرية ويشرف عليهم ضباط منهم[18] وضباط ألمان يعرفون اللغة العربية واللغات الشرقية الأخرى[19].

بلغت مغازلة الألمان لهؤلاء الأسرى وعنايتهم بهم أن بنوا لهم مسجدًا للصلاة، هو أول مسجد يبنى في ألمانيا، افتُتح في الأول من رمضان 1334هـ (13 تموز/ يوليو 1915) في حفل خاص حضره نواب عن الحكومتين الألمانية والعثمانية وجمع من الضباط الألمان. بدأ الحفل بإلقاء رئيس المعسكر خطابًا باسم قيصر ألمانيا الذي أمر ببناء هذا المسجد، ثم ألقى ممثل عن الأسرى خطابًا شكر فيه إمبراطور ألمانيا والحكومة الألمانية على معاملتهم معاملة الضيوف الكرام لا معاملة الأسرى. وألقى سفير الدولة العثمانية مختار باشا خطابًا شكر فيه - نيابة عن السلطان العثماني محمد رشاد - القيصر الألماني لأمره ببناء هذا المسجد. ولما انتهى السفير من خطابه، أذّن مؤذن على منارة المسجد داعيًا لصلاة الظهر، وتحوّل الجميع بعد ذلك إلى مشاهدة المسجد من الداخل. صعد الإمام محمد الخضر حسين وألقى خطابًا في المسجد[20]، فكان أول من يخطب في ذلك المسجد في يوم افتتاحه.

---

(18) فريد، ص 219-220.

(19) أنده، ص 59.

(20) الجهاد (برلين)، (21 تموز/ يوليو 1915)، ص 2.

لم تستطع فرنسا صبرًا على هذا الأمر لتقوم هي الأخرى في بداية كانون الثاني/ يناير 1916 ببناء مسجد للجنود المسلمين على جبهة القتال وعيّنت له أئمة جيء بهم من الجزائر (انظر: سعد الله، الحركة الوطنية، ج 2، ص 253-254)، حدث هذا في الوقت الذي كانت فيه فرنسا تهدم مساجد الجزائريين وتحولها إلى ثكنات وصيدليات وكنائس وبِيَع لليهود، كما فعلت مع جامع كتشاوة، ففي مدينة الجزائر وحدها كان هناك في عام 1830 حوالى 112 مسجدًا، لم يبق منها بين عامي 1900 و1905 إلا أربعة أو خمسة مساجد!!! منها المسجد الكبير والمسجد الجديد اللذان كانا في هذا الوقت أيضًا يتعرضان لمحاولات التهديم لولا احتجاجات السكان وأعيان مدينة الجزائر لكانا لقيا المصير نفسه، طبعًا هذا بالنسبة إلى مدينة الجزائر فحسب، لأن المأساة مسّت مساجد الكثير من المدن الجزائرية الأخرى على غرار تلمسان وبجاية وقسنطينة، انظر في شأن هذا الموضوع على سبيل المثال لا الحصر: أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، 9 ج (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998)، ج 5، وأيضًا: ألبير ديفولكس، **مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني: من خلال مخطوط ديفولكس والوثائق العثمانية**، ترجمة وتحقيق وتعليق مصطفى بن حموش (الجزائر: دار الأمة، 2007).

ثالثًا: الدعاية الألمانية تستهدف الأسرى

كان هدف الألمان من وراء جمع هؤلاء الأسرى المسلمين في هذا المعسكر ومعاملتهم هذه المعاملة المميّزة نشر الدعاية بينهم لقبول الأهداف الألمانية والتركية[21]، المتمثّلة أساسًا في تأهيلهم ثم إرسالهم إلى بلدانهم لإشعال الثورات فيها[22]. من أجل ذلك، أُنشئت جريدة **الجهاد** الخاصة بالأسرى وحدهم، أي لم يكن المقصود منها توزيعها على الجبهة أو في الدول الأخرى. وصدرت بلغات شرقية عدة، منها العربية[23]، وكان مقر رئاسة تحريرها في وكالة أنباء الشرق، وأول رئيس تحرير لها صحافي ألماني يُدعى أولر، لم يكن يفهم العربية. بعد شهور، تسلم إدارة التحرير فريق من الألمان والعرب المتعاونين مع وكالة أنباء الشرق، ويبدو أن الألمان كانوا يحررون معظم موادها، بينما اقتصر عمل المحررين العرب على الترجمة[24].

صدر العدد الأول من **الجهاد**، واسمها يوحي بغرضها، يوم الجمعة 5 آذار/ مارس 1915 كجريدة أسبوعية تخدم المسلمين الذين قاتلوا مع أعدائهم جبرًا ضد محبيهم الألمان. جاءت المقالة الافتتاحية بعنوان «حول مقاصد الجريدة»، مخاطبة الأسرى ومبيّنة في الوقت نفسه الأهداف المقصودة من إنشاء المجلة، ونجملها في الآتي:

- خاطبت الجريدة الأسرى، فقالت لهم إنهم ليسوا أعداء الألمان، إنما أعداؤهم هم الإنكليز والروس والفرنسيون الذين ساقوهم جبرًا وقهرًا إلى القتال، لذلك سيُعاملون معاملة الضيوف لا الأسرى.

- الغرض من إنشاء هذه المجلة هو تنوير أفكارهم واطلاعهم على أخبار الحرب والرد على الدعاية الفرنسية والروسية التي شوّهت صورة ألمانيا. وقصد

---

(21) أنده، ص 59.

(22) يوسف، ص 13.

(23) أنده، ص 60.

(24) غازي شبيك، «مراجعة كتاب الدوريات العربية والإسلامية في برلين وبرندبورغ (1915-1945م) لغيرهارد هوب،» الدارة، السنة 22، العدد 3 (تشرين الثاني/ نوفمبر 1996)، ص 249. والكتاب الذي تمت مراجعته هو: Gerhard Höpp, *Arabische und islamische Periodika in Berlin und Brandenburg. 1915-1945: geschichtlicher Abriss und Bibliographie*, Arbeitshefte; 4 (Berlin: Verlag Das Arabische Buch, [1994]).

هذه الأخيرة من الحرب هو الدفاع عن شرفها وسعيها إلى إرجاع السعادة إلى بلاد الإسلام والمسلمين بعد أن سلبها الأعداء زمنًا طويلًا.

- أعلنت الجريدة فتح صفحاتها للأسرى ليكتبوا فيها ما حدث لهم مع أعدائهم، وما أصابهم من مصائب نزلت بهم وأبعدتهم عن بلادهم المحبوبة وسمائهم الزرقاء وأرضهم المشمسة، ونأت بهم عن زوجاتهم وأولادهم، وقذفت بهم إلى هذا البلاء، ودفعت بهم إلى الشقاء والمهالك.

- في الختام، أوضحت الجريدة صراحة لهؤلاء الأسرى ما يتوجّب عليهم فعله عند عودتهم إلى بلادهم، وهو إعلان الثورة: «إننا نعلم أنكم تلعنون أعداءكم، وإصلاح شؤونكم وأموركم لا يكون بالقول فقط بل بالعمل أيضًا، وإذا رجعتم إلى أوطانكم فإنكم ستجدون الوقت المناسب لذلك، وسيرافقكم صوت الحق إلى أوطانكم العزيزة...»[25].

تتألف **الجهاد** عادة من ثلاثة صفحات، في الأولى مقالة بقلم أحد العلماء، أو تلخيصًا لخطبة ألقاها على الأسرى، وفي الثانية والثالثة أخبار الحرب في أوروبا أو في بلاد الإسلام، إضافة إلى أخبار أخرى متفرقة، وشيء من التاريخ والفكاهة. كانت الأخبار تركز على انتصارات الألمان والعثمانيين وعلاقة ألمانيا بالأسرى المسلمين الذين كانت تنعتهم بالضيوف، إضافة إلى هزيمة دول الوفاق الودي وجرائمهم وعدائهم للإسلام والمسلمين.

أسلوب الجريدة بسيط مفهوم، ولغتها سليمة، وكانت تكتب بخط اليد. لم تكن المقالات التي تنشرها، خصوصًا الافتتاحية، مخصصة لها وإنما كانت إدارتها تنتقي مقالات الكتاب وخطب العلماء من هنا وهناك، وتنشر ما يتلاءم مع توجهها. من الذين نشرت لهم المجلة الشيخ عبد العزيز جاويش (مدير جامعتي المدينة المنورة وصلاح الدين الأيوبي في القدس الشريف) ومحمد كرد علي وأحمد مختار الجزائري (حفيد الأمير عبد القادر). كما نقلت خطب الشيخ أبو الفضل المدني والشيخ صالح الشريف والإمام محمد الخضر حسين الذي أحصينا له أربع خطب ألقاها على الأسرى ونقلتها المجلة:

(25) **الجهاد** (برلين) (5 آذار/ مارس 1915)، ص 1-2.

- خطبة ألقاها يوم 25 أيار/ مايو 1915 على الأسرى، هاجم فيها سوء معاملة الدول المتحاربة للشعوب الإسلامية، وحضّهم فيها على التمسّك بدولة الخلافة، وتناول فيها ما تكنّه الدولة الألمانية من مشاعر ودّية نحو المسلمين[26].

- خطبة بعنوان «لا حياة إلا بالعلم»[27].

- خطبة بعنوان «اتحادنا مع ألمانيا»، ألقاها على الأسرى يوم الاثنين، 3 تموز/ يوليو 1915[28].

- خطبة ألقاها يوم افتتاح مسجد الأسرى وذكرناها سابقًا.

استمر صدور هذه المجلة حتى تشرين الأول/ أكتوبر 1918، فأصدرت 83 عددًا، لتنقطع نهائيًا بعدها. ويبدو أن أثرها لم يكن كبيرًا، فمعظم هؤلاء الأسرى كان أميًا لا يعرف القراءة والكتابة، ومن أجاد القراءة منهم استعصى عليه فهم العربية الفصحى التي كانت تحرر بها موضوعات الصحيفة[29]. وانتقد الزعيم المصري محمد فريد الذي زار معسكر الأسرى في عام 1915 المجلة لهذا السبب، وقال كان الأولى أن تُقدم للأسرى محاضرات شفوية، ولو مرة أسبوعيًا، بواسطة خطباء من بني جنسهم[30].

لم يغفل الألمان هذا الجانب الذي كان إحدى الوسائل الدعائية أيضًا، إذ كانوا ينظمون محاضرات مستمرة للأسرى يلقيها عليهم علماء منهم، ومن الذين كانوا يدرّسون ويخطبون على الأسرى بشكل دائم ووفق برنامج مسطر الإمام محمد الخضر حسين وأبو الفضل المدني والشيخ عبد العزيز جاويش والشيخ صالح الشريف[31]، وعبد الرشيد إبراهيم وهو داعية من كازاخستان أتت به ألمانيا خصيصًا للأسرى المسلمين الروس[32]. ومن الذين خطبوا في الأسرى في

(26) الجهاد (برلين) (20 أيار/ مايو 1915)، ص1-2.
(27) الجهاد (برلين) (21 تموز/ يوليو 1915)، ص 1.
(28) الجهاد (برلين) (10 آب/ أغسطس 1915)، ص 1.
(29) شبيك، ص 249-250.
(30) فريد، ص 218.
(31) Zentrum Moderner Orient, no. 06-02-169/06-02-119.
(32) وهي عبارة عن تقارير باللغة الألمانية عن برنامج هؤلاء وأهم الدروس التي ألقوها وأهم النشاط الذي قاموا به خلال كانون الأول/ ديسمبر 1915 وكانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير وآذار/ مارس 1916، انظر هذه التقارير في الملاحق. Zentrum Moderner Orient, no. 06-02-163.

المناسبات فحسب، أو خلال زيارات كانوا يقومون بها إلى ألمانيا، نذكر الأمير علي بن الأمير عبد القادر[33] وحسن فهمي (مبعوث شيخ الإسلام العثماني محمد خيري أفندي) والحاج محمد بن سعيد التونسي[34].

لم تستهدف الدعاية الألمانية أولئك الأسرى وحدهم، بل استهدفت أيضًا الجنود الموجودين على الجبهات، إذ أدرك الألمان قيمة التأثير في هؤلاء الجنود الذين كان عددهم كبيرًا جدًا[35]، حيث كانت تلقى عليهم الخطابات والمناشير التي تدعوهم للانضمام إلى أعداء فرنسا، وتذكّرهم بما فعله الفرنسيون في الجزائر وبأن العلماء أعلنوا الجهاد على فرنسا[36]، وباستهانة الجيش الفرنسي بالدين الإسلامي، وأكدت أن من واجب المسلمين الاعتراض على التجنيد الإجباري أو الثورة أو اللجوء إلى الصحراء، ففرنسا لن تستطيع ملاحقتهم بعد انهيار قوتها العسكرية[37]. وكانت خطبة افتتاح مسجد الأسرى واحدة من هذه المناشير[38].

من وسائل مخاطبة المجنّدين المسلمين على الجبهات توجيه النداءات بمكبّرات الصوت، كما فعل الشيخ صالح الشريف الذي وجه نداءً إلى الضباط المسلمين وحثهم على الهروب[39]، ولا ندري بالضبط ما مدى تأثير مثل هذه النداءات والمناشير. وبناءً على ما جاء في كتاب حياة طيب الذكر، أحدث أحد المناشير التي كتبها الأمير علي الجزائري وألقاها بنفسه من طائرة ألمانية على الأسرى، ثورة في معسكرات الجنود الجزائريين، نقلت تفصيلاتها الصحف الألمانية والسويسرية[40].

---

(33) تاريخ حياة طيب الذكر، ص 17-18.

(34) الجهاد (برلين) (31 آب/ أغسطس 1915)، ص 1، و(6 تشرين الأول/ أكتوبر 1915)، ص 1.

(35) تختلف الإحصاءات عن عدد المجنّدين الجزائريين في الجيش الفرنسي، لكنها تنحصر عمومًا بين 117 ألف ونصف مليون جندي، ومات منهم حوالى 58 ألفًا في هذه الحرب!!!!. انظر: سعد الله، الحركة الوطنية، ج 2، ص 198-200، طبعًا هذا العدد من دون احتساب المجندين التونسيين والمغاربة والسنغاليين وغيرهم من المسلمين.

(36) المصدر نفسه، ص 243-244.

(37) شارل روبير أجرون، الجزائريون المسلمون وفرنسا: 1871-1919، نقله إلى العربية حاج مسعود وأ. بلعريبي بكلي (الجزائر: دار الرائد للكتاب، 2007)، ج 2، ص 846 (انظر الهامش).

(38) Mahmoud Abdelmoula, *Jihad et colonialisme: La Tunisie et la Tripolitaine, 1914-1918* (Tunis: Éd. Tiers-Monde, 1987), pp. 35-36.

(39) أنده، ص 57-58.

(40) تاريخ حياة طيب الذكر، ص 139-140.

ولا نعرف كثيرًا عن مدى الاستجابة لهذه المناشير والنداءات والفرار من جبهات القتال الفرنسية، لكن ذلك حصل، ومن أشهر الذين فرّوا من الجبهة إلى ألمانيا الجزائري محمد بوكابوية الذي كان ملازمًا في الجيش الفرنسي، ونشر، من سويسرا، كتابًا عنوانه الإسلام في الجيش الفرنسي في عام 1917[41].

رابعًا: شخصيات إسلامية متعاونة مع الألمان ونشاطها في معسكر الأسرى

من أبرز هؤلاء الذين تعاونوا مع ألمانيا، اعتقادًا منهم بسياستها الإسلامية المعلنة وتحالفها مع الدولة العثمانية أو خوفًا على مصير المنطقة في حال انهارت الدولة العثمانية، الشيخ عبد العزيز جاويش والشيخ صالح الشريف والإمام محمد الخضر حسين وعلي باش حانبة وغيرهم.

1- الشيخ صالح الشريف

الشيخ صالح الشريف أهم شخصية عربية، بعد الأمير شكيب أرسلان، تعاونت مع الألمان خلال الحرب العالمية الأولى. كان له نشاط ملحوظ خلال هذه الفترة على محور الأستانة - برلين - جنيف يحتاج إلى عناية الباحثين والمؤرخين.

ينتمي الشيخ صالح إلى أسرة جزائرية معروفة بالعلم، هاجرت إلى مدينة تونس بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر في عام 1830، حيث ولد الشيخ صالح وتعلم ثم أصبح مدرسًا في جامع الزيتونة. كان له نشاط إصلاحي مع بعض العلماء، وفي عام 1906، قرر الهجرة نهائيًا إلى الأستانة والاستقرار فيها. كان معروفًا بتبنيه فكرة الجامعة الإسلامية، فكلّفه الباب العالي مهمات سياسية وعلمية عدة في الشام والحجاز وطرابلس الغرب التي شارك في الدفاع عنها ضد الطليان. في الأستانة، عُيّن مستشارًا في وزارة الحربية، ولما اندلعت الحرب العالمية الأولى أُرسل إلى ألمانيا وكلّف بمهمة الدعاية في معسكر الأسرى حيث كان يلقي الدروس والخطب[42].

---

(41) أنده، ص 59.

(42) حمادي الساحلي، فصول في التاريخ والحضارة (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1992)، ص 106.

ألف الرسائل والمذكرات التي تهاجم السياسة الاستعمارية وتُبرر في الوقت نفسه السياسة العثمانية في إعلان الجهاد والتحالف مع ألمانيا. وأسس جمعية استقلال الجزائر وتونس في عام 1915، واستمر في نشاطه متنقلًا بين عواصم أوروبية عدة إلى أن استقر به الحال في سويسرا بعد الحرب، فبقي فيها إلى عام 1920، حيث توفي، ونقل جثمانه إلى تونس ودُفن فيها[43].

2- الشيخ عبد العزيز جاويش

لا يقل الشيخ جاويش أهمية عن الشيخ صالح الشريف، فهو أيضًا من المعروفين بتعاطفهم مع الدولة العثمانية، ومن الحانقين على الاستعمار الإنكليزي وله معه صولات وجولات في مصر. عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، اعتقد أنها فرصة للمسلمين فاتصل بالسفارة الألمانية في الأستانة في بداية الحرب وسافر إلى ألمانيا في عام 1915 حيث عمل مع غيره من الوطنيين المصريين على تقديم النصح للخبراء الألمان في ما يتعلق بالدعاية الألمانية في العالم الإسلامي، وكيفية استقطاب المسلمين ضد دول الوفاق. كما شارك في الحملة العثمانية على السويس، حيث رأى فيها فرصة للتخلص من البريطانيين[44].

في برلين، شكّل مع محمد فريد جمعية الاتحاد الإسلامي، وأصدر في عام 1916 مجلة **العالم الإسلامي** الشهرية الناطقة بالألمانية بمشاركة عبد الملك حمزة. كان هدف المجلة تعريف القارئ الألماني بالعالم الإسلامي، وتعزيز علاقات ألمانيا بالإسلام والدولة العثمانية، وتقوية العلاقات العربية - العثمانية في إطار الجامعة الإسلامية. شارك في إصدار جريدة **الجهاد** وكتب في المجلات الألمانية. نشر في ألمانيا كتابه **مصر والحرب**، كما ألقى الخطب في الألمان لتبديد مخاوفهم من مسألة الجهاد الإسلامي، وفي الأسرى المسلمين في المعتقلات الألمانية، محذّرًا إياهم من هدر دمائهم في حروب تقودها دول الوفاق الودي المدمرة للإسلام[45].

---

(43) الساحلي، ص 108.

(44) عبد الرؤوف سنو، «الإسلام في الدعاية الألمانية في المشرق العربي خلال الحرب العالمية الأولى،» في: **بحوث تاريخية: مهداة إلى منير إسماعيل**، تنسيق محمد مخزوم وأحمد حطيط (بيروت: دار النشر للسياسة والتاريخ، 2002)، ص 29.

(45) المصدر نفسه، ص 30.

3- الزعيم الوطني علي باش حانبة التونسي

يعتبر السيد علي باش حانبة زعيم حركة الشباب التونسي من الشخصيات التونسية البارزة والقوية في العقد الأول من القرن العشرين في تونس. اتهمته السلطات الفرنسية بتحريك احتجاجات مقاطعة الترامواي الشهيرة في تلك الفترة، نُفي في عام 1912 مع بعض الوطنيين الآخرين فاستقر في الأستانة. ألغي قرار إبعاده لكنه رفض الرجوع إلى تونس بعدما تيقن من فشل سياسة المشاركة. تقلد أسمى المناصب في الأستانة إلى أن ارتقى منصب مستشار الحكومة التركية، وكان إلى جانب اضطلاعه بتلك المهمات ينسّق نشاط الوطنيين التونسيين في المهجر بوصفه رئيس «لجنة تحرير المغرب العربي». ويبدو أنه كان يفكر في استغلال الحرب ودخول تركيا إليها ضد فرنسا لتنفيذ خطة عسكرية ترمي إلى تحرير شمال أفريقيا بحد السلاح، لكن الأوضاع لم تساعده في تحقيق أمانيه، إذ أدركته المنيّة في تشرين الأول/ أكتوبر 1918، قبل أيام من قرار قيادته الأسرى المسلمين الذين أُعدّوا في ألمانيا للنزول بهم عبر الغواصات الألمانية في شمال أفريقيا لإشعال الثورة فيها[46].

4- الأمير علي الجزائري

هو أحد أبناء الأمير عبد القادر الجزائري، استقر في الشام منذ عام 1853، وكان أحد الذين أعلنوا ولاءهم للدولة العثمانية، فعيّنته نائبًا لمجلس المبعوثان. كان غرضها من ذلك كسب ولاء المهاجرين الجزائريين والتصدي للدعاية الفرنسية التي كانت تستهدفهم. عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى، كان أحد الذين أوفدهم الباب العالي إلى ألمانيا، فاستُقبل فيها استقبالًا كبيرًا، حضرته شخصيات ألمانية وعثمانية ومستشرقون. أسكنه الألمان في قصر، وخصصت له زيارة إلى معسكر الأسرى، فخطب في الأسرى المغاربة ووعدهم بقرب التوجه إلى بلادهم والقتال فيها، كما ألقى بعض المنشورات محرضًا المقاتلين المغاربة على الهروب من الجيش الفرنسي[47].

5- الإمام محمد الخضر حسين

الإمام محمد الخضر حسين جزائري الأصل، من أسرة كبيرة معروفة بالعلم

(46) الساحلي، ص 105-106.

(47) تاريخ حياة طيب الذكر، ص 135-140.

والجهاد، تستوطن في جنوب شرق الجزائر، وبعد احتلالها من الفرنسيين في عام 1843، هاجر جزء من أسرته إلى الجنوب الشرقي التونسي، وهناك ولد الإمام. انتقل إلى العاصمة تونس ودرس في جامع الزيتونة ثم أصبح مدرّسًا فيه. لكن في عام 1913 قرر هجرة تونس والاستقرار في دمشق، حيث دخل في خدمة السلطات العثمانية التي كلّفته التصدي للدعاية الفرنسية بين المهاجرين المغاربة. اندلعت الحرب العالمية الأولى، فكان أحد الذين وقع عليهم الاختيار للسفر إلى ألمانيا، حيث عمل خطيبًا ومدرّسًا في معسكر الأسرى[48]. وصفه تقرير ألماني مؤرخ في 20 نيسان/ أبريل 1915 في القسطنطينية: «هو شاب قوي وذكي وشجاع وطيّب ويعرف الكثير من الأسرى وبعض العائلات شخصيًا وأمه جزائرية وينتمي إلى الطريقة الرحمانية»[49].

خامسًا: مصير الأسرى المسلمين بعد هزيمة الألمان

في شتاء 1917، بدأت التحضيرات لإرسال الأسرى الذين أُعدوا في ألمانيا، إضافة إلى مجموعة أخرى أُعدت في تركيا برعاية الزعيم التونسي علي باش حانبة، إلى شمال أفريقيا لتفجير ثورة هناك يقودها هذا الأخير[50]، وتحقيق الوعد الذي قطعه الألمان والأتراك لمناضلي شمال أفريقيا بتمكينهم من إنشاء جمهورية أفريقيا الشمالية في حال الانتصار في الحرب[51].

نسّق قادة الخارج بزعامة علي باش حانبة مع قادة الداخل بزعامة عبد العزيز الثعالبي، ويحدثنا عن هذه الخطة الشيخ أبو اليقضان الجزائري الذي كان أحد الرجال الفاعلين، فيقول إنه في نهاية عام 1917، أسس الشيخ الثعالبي جمعية سرية فدائية غرضها إحداث حركة تحريرية في أفريقيا الشمالية. كان للجمعية فروعها في الجزائر

---

(48) انظر بتوسع في شأن هذه الشخصية رسالتنا: علاء الدين يحوي، «الإمام محمد الخضر حسين ودوره في الإصلاح والنضال التحرري (1293هـ-1377هـ/ 1876م-1958م)» (رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف دويدة نفيسة، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر، 2014).

(49) Zentrum Moderner Orient, no. 06-02-163.

(50) أنده، ص 60-61، وأجرون، ص 850-851.

(51) يوسف مناصرية، «الشيخ صالح الشريف المفكر الإسلامي 1859/ 1919»، حولية المؤرخ، العدد 1 (2002)، ص 240.

وليبيا وتونس والمغرب الأقصى، وكانت تعوّل كثيرًا على نجاح حملة جمال باشا على مصر[52]. يضيف الشيخ أبو اليقضان إن محاور الخطة تتمثل في علي باش حانبة في الأستانة وسليمان الباروني في طرابلس وعبد العزيز الثعالبي في تونس ومحمد الخضر حسين ومحمد باش حانبة في برلين. لكن هذه الخطة فشلت بسبب تراجع تركيا عسكريًا وفشل حملة جمال باشا على مصر[53] ووفاة الزعيم التونسي علي باش حانبة الذي كان سيقود الثورة في تشرين الأول/ أكتوبر 1918[54].

يبدو أن عيون الفرنسين كانت تترصّد هذه العملية. إذ ذكر تقرير فرنسي سري عن محمد الخضر حسين، المؤرخ في 7 حزيران/ يونيو 1917 بأن هذا الأخير[55] كان يتواجد على الحدود التونسية - الطرابلسية انتظارًا للفرصة السانحة لمساعدة القوات الطرابلسية في اجتياح تونس، ويلقى القسم الأكبر من وجهاء تونس منه المعلومات العدائية والروح الفدائية، وبناء على التقرير نفسه نزل أحد الطرابلسيين في أحد الفنادق في تونس وقام بزيارة بعض العلماء والشباب وأتى حاملًا رسالة من الشيخ الخضر[56]. ربما نُسَلِّمُ ببعض ما جاء في التقرير عن وجود اتصالات بين الإمام وبعض العلماء والوجهاء في تونس، لكننا نعتقد أن فيه مبالغة كبيرة، لأن الإمام في هذا الوقت كان متواجدًا في الأستانة. ويبيّن هذا التقرير الشائعات التي انتشرت في هذه الفترة، وربما كانت بثًا من الجواسيس الألمان. لكن السؤال: إلى أي مدى استجاب الأسرى للدعاية الألمانية - العثمانية وقبلوا المشاركة في مشروع إعلان الثورة في بلدانهم أو الانضمام إلى الوحدات التركية والألمانية؟

---

(52) قاد جمال باشا حملتين عسكريتين على قناة السويس الأولى شباط/ فبراير 1915 والثانية تموز/ يوليو 1916 بمساعدة القائد الألماني فون كريس وكان مصير كلتا الحملتين الفشل، انظر: أحمد جمال [باشا]، مذكرات جمال باشا، إعداد محمد السعيدي، المجموعة التاريخية العثمانية العربية، 1908- 1918 (بيروت: دار الفارابي، 2013)، ص 254-255 و297-298.

(53) نقلًا عن: عبد العزيز الثعالبي: من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب: خمسون صورة ووثيقة تاريخية، أعدها للنشر وقدّم لها وعلّق عليها صالح الخرفي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1995)، ص 429-431.

(54) أنده، ص 60-61.

(55) في 14 أيار/ مايو 1917 صدر في تونس مرسوم قضائي ببيع ممتلكات الشيخ صالح الشريف للدولة بتهمة التمرد، وفي 6 حزيران/ يونيو و15 حزيران/ يونيو 1917، صدر مرسومان آخران من النوع نفسه بحق كلًا من الشيخ إسماعيل الصفائحي والشيخ محمد الخضر حسين، انظر: Abdelmoula, p. 36

(56) Archives nationales de Tunisie, dossier 550-30/15-1367, p. 1.

تجدر الإشارة هنا إلى أن في المعسكر أربعة آلاف أسير فقط، ولا نعتقد أن الألمان بجيوشهم القوية والمدرّبة أو العثمانيين راهنوا على الاستفادة من هذه الأعداد القليلة من الجنود في إحداث القلاقل في دولهم. فلم يتحقق إذًا مشروع إرسال أولئك الجنود إلى الميادين، وهذا ربما ما صعّب معرفة مدى استجابتهم للدعاية الألمانية - العثمانية، إضافة إلى تضارب الآراء بين من يعتبر أن الدعاية الألمانية لم تجد قبولًا وسط الأسرى[57] وبين من يعتبر أن الوطنيين في هذه المعسكرات نجحوا في تجنيد كثيرين انضموا لاحقًا إلى الجيش العثماني[58]. وذكر الإمام نفسه في أحد التقارير التي كتبها في ألمانيا عن انطباعه من زيارته الأسرى، أن هؤلاء أبدوا رغبتهم في القتال مع تركيا[59]، وهذا ما ذكره أيضًا محمد فريد والأمير علي بن الأمير عبد القادر، بعدما زارا الأسرى في معسكرهم وخطبا فيهم[60].

السؤال الذين يبدو أكثر إثارة وأهمية من هذا كله: ما مصير أولئك الأسرى بعد نهاية الحرب وهزيمة ألمانيا وتركيا؟ هل أرسلوا إلى تركيا مثلًا؟ هل أعيدوا إلى فرنسا ومنها إلى بلدانهم الأصلية؟ ماذا حلّ بهم؟ في الواقع، ليس لدينا معلومات دقيقة في شأن هذا الأمر بسبب غياب الوثائق وصعوبة ترجمة ما هو متوافر من الألمانية. لكن في مراسلة لي مع باحثة ألمانية تدعى لاريسا أشميد، تحضر أطروحة دكتوراه عن موضوع الأسرى، أخبرتني أن مصير الأسرى في عمومه غامض، لكن الظاهر أن بعضهم عاد إلى فرنسا وبعضهم الآخر بقي في ألمانيا، أما المسجد فهُدم في عام 1921.

في الختام، نقول إن دراستنا هذه لموضوع الأسرى تبقى أولية ريثما نعطي هذا الموضوع وموضوع الحركة الوطنية المغاربية والعربية خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية في أوروبا حقه من الدراسة، بعد فحص وترجمة وثائق مهمة حصلنا عليها من المكاتب ودور الأرشيف في تركيا وألمانيا وسويسرا.

---

(57) أنده، ص 60.

(58) خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة، 1910-1955: الجزء الثاني البعد العربي الإسلامي في نضال النخبة الجزائرية الزيتونية (الجزائر: دار البصائر، 2009)، ص 561؛ مناصرية، ص 240، وسعد الله، الحركة الوطنية، ج 2، ص 244.

(59) Zentrum Moderner Orient, no. 06-02-162.

(60) فريد، ص 17-18، وتاريخ حياة طيب الذكر، ص 220.

الملاحق

ملحق (5-1)

رسالة الإمام محمد الخضر حسين إلى ناظر الخارجية الألماني في أثناء نشاطه في معسكر الأسرى، يستأذنه فيها زيارة أهله في دمشق[61]

274

الحمد لله

حضرة الشهم الهمام ناظر الخارجية بالدولة الألمانية الفخيمة
دامت معاليه أما بعد تقديم التحية الكاملة والاحترام فأعرض
على مقامكم السامي أني سافرت من الشام يوم السبت ٢٤ -
ابريل - ١٩١٥ فوصلت الى برلين يوم السبت ٢٢ - مايو
وقد قضيت الآن ما يزيد على أربعة أشهر في القيام بدروس
وخطب بين الأسارى الإفريقيين مع تحريرات لائقة بالنشر،
ولكن وقع لي اشتياق الى العائلة وأحببت أن أشاهد أحوالهم
فالمرغوب من جنابكم الإذن لي بالسفر الى الشام ولو لمدة
معينة، وعلى كل حال فإني مستعد لخدمة المصلحة العامة
ولا سيما مع رجال دولة يزنون أعمال الرجال بميزان عادل
والسلام من محمد الخضر بن الحسين التونسي وكتب في ٢٥ سبتمبر
سنة ١٩١٥

A 29211 15.

---

(61) Zentrum Moderner Orient, no. 06-02-169.

ملحق (2-5)

تقرير فرنسي عن الإمام محمد الخضر حسين[62]

7 Juin 1917

El Akhedar ben Elhoussine, ancien professeur à la Grande Mosquée à Tunis.

En 1911, cet individu, un des principaux professeurs de la Grande Mosquée, s'est rendu en Orient avec sa famille, dans le but de faire le pèlerinage de la Mecque, puis s'est installé en Syrie pour aider le Gouverneur du pays à répandre la haine de l'étranger (non musulman) et l'idée du panislamisme. Il a accompli en Orient plusieurs missions dans le but de faire l'union de l'Islam et de narrer les exactions des peuples européens dans les pays occupés par les Musulmans.

Ce Cheikh a des accointances avec la plupart des Jeunes Tunisiens et du tribunal du Charâ. Il se trouve actuellement sur les confins tuniso-tripolitains attendant l'occasion propice pour aider les troupes tripolitaines à envahir la Tunisie. La majeure partie des notables tunisiens reçoivent de lui des informations. L'esprit hostile et les désirs coupables et subversifs des Tunisiens sont entretenus actuellement par les agissements de ce professeur qui se tient en communication avec eux, car il était ici très aimé, très considéré et très honoré.

Ilya 12 jours, un Tripolitain descendu dans un alou (1er étage, chambre haute), à l'extrémité de la rue Zarkoun, près du souk des Livournais et a rendu visite aux Ulémas et à quelques Jeunes Tunisiens. Il venait de la part du professeur El Akhedar et était porteur de lettres de ce dernier. Sa mission terminée, ce Tripolitain est reparti.

Les espions pullulent ici : ils sont employés à bord des bateaux et renseignent l'Allemagne sur les faits et gestes du Gouvernement; la plupart sont de la Compagnie transatlantique et c'est pourquoi tous les navires partant

---

(62) Archives nationales de Tunisie, p. 1.

ملحق (3-5)

تقرير الإمام محمد الخضر حسين عن انطباعاته بعد زيارته معسكر الأسرى المسلمين في بوينزدورف، باللغة الألمانية ويرجّح أنه أملاه أو كتبه وترجم عنه[63]

06.02.16

15

Eindrücke eines Tunesiers über seinen Besuch im Gefangenenlager in Wünsdorf.

Da ich im Gefangenenlager viele Algerier und Tunesier vorfand, die ich von früher her kannte, so konnte ich mich mit ihrer Hilfe genau über alles unterrichten.

Ich habe öffentliche Reden vor ihnen gehalten und auch einige hervorragende Leute persönlich gesprochen, indem ich ihren Gefühlen durchaus gerecht wurde, sodass man mir vollkommenes Vertrauen schenkte

Ein grosser Teil von ihnen hat mir seinen Hass gegen Frankreich bekannt und den Wunsch geäussert, in der türkischen Armee mitkämpfen zu dürfen. Viele aber sträubten sich, an dem Heiligen Krieg teilzunehmen, weil sie fürchten, dass sich die Franzosen später, wenn sie in die Heimat zurückgekehrt sind, an ihnen rächen werden.

Doch besteht die Hoffnung, dass die meisten dem Rufe zum "Heiligen Krieg" folgen würden; meine Ausführungen über ihre religiösen Pflichten haben sie jedenfalls mit grosser Ergebenheit entgegengenommen.

Das Auswärtige Amt hat einige Leute von ausgesprochen frankophiler Gesinnung aus dem Lager entfernt, um zu vermeiden, dass diese ihren unheilvollen Einfluss auf die übrigen ausüben. Vielleicht wäre es aber auch angängig gewesen, diese Leute an einen besonderen Ort zu bringen, wo man aufklärend auf sie hätte wirken können, indem man sie über die wahren Ziele der französischen Politik verständigt hätte, um sie so für die gemeinsame Sache zu gewinnen.

Meine Reden und Unterhaltungen haben folgende Themata zum Gegenstande gehabt: Eroberung der islamischen Länder durch den Dreiverband, Beseitigung des Kalifats, Grausamkeit der Franzosen in Tunis und Algerien, Erweckung und Erziehung ihres politischen Selbstbewusstseins, Belehrung über die Sympathien der deutschen

Pr. A 20867 15

Zentrum Moderner Orient, no. 06-02-162. (63)

-2-

16

Regierung und des deutschen Volkes für den Islam, Abhängigkeit der Zukunft des Islam von dem Siege der deutschen Waffen, Aufforderung zum Kriege, Bedeutung des Djihad im mohammedanischen Gesetz usw.

~~22~~ 26. Juni 1915.
Mohammed el Kidr bel Hussein.

ملحق (5-4)

تقرير ألماني عن نشاط بعض الوطنيين العرب في معسكر الأسرى في بوينزدورف خلال تشرين الثاني/ نوفمبر ومطلع كانون الأول/ ديسمبر 1915[64]

127

U e b e r s i c h t

über die Predigten im Halbmondlager.

November 1915:	Name:	Thema:
1. Montag, d. 8.Nov.15.	Scheich Tschauisch	Deutschlands Verständnis für den Islam
2. Mittwoch" 10. " "	Scheich El Khidr	Allgemeines
3. Freitag " 12. " "	" " "	"
4. Montag " 15. " "	Memun Abul Fadl	Die Aufgabe der Gefangenen nach ihrer Heimkehr.
5. Mittwoch" 17. " "	Scheich El Khidr	Allgemeines
6. Freitag " 19. " "	" " "	"
7. Montag " 22. " "	Scheich Tschauisch	Was tut dem islamischen Volk not?
8. Mittwoch" 24. " "	Scheich El Khidr	Allgemeines
9. Freitag " 26. " "	" " "	"
10. Montag " 29. " "	Memun Abul Fadl	Die islamischen Völker im Bunde mit den Zentralmächten
11. Mittwoch" 1.Dezbr.	Scheich El Khidr	Allgemeines
12. Freitag 3. "	" " "	"

131553/15

(64) Zentrum Moderner Orient, no. 06-02-169.

ملحق (5-5)

تقرير آخر بالألمانية عن أهم نشاط الوطنيين العرب في معسكر الأسرى خلال كانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير 1916[65]

Zu A 36272[15]

180

Uebersicht über die Vorträge in Wünsdorf.

Für den Monat Januar 1916.

Montag, den 3.I.16.	Scheich El Chidr.
Mittwoch, den 5. "	S.E.Scheich Saleh Scherif Atunisi.
Freitag, den 7. "	Scheich El Chidr. Gottesdienst in der Moschee.
Sonnabend, den 8."	S.E.Scheich Saleh Scherif Atunisi.
Montag, den 10."	Professor Abd el Asis Schawiech.
Mittwoch, den 12."	S.E.Scheich Saleh Scherif Atunisi.
Freitag, den 14. "	Seid Memun Abul Fadl, um 4 Uhr Lichtbildervortrag. über Medina und Konstantinopel.
" "	Scheich El Chidr, Gottesdienst in der Moschee.
Sonnabd, den 15. "	S.E.Scheich Saleh Scherif Atunisi
Montag, den 17. "	Scheich El Chidr.
Mittwoch, den 19."	S.E.Scheich Saleh Scherif Atunisi.
Freitag, den 21."	Scheich El Chidr., Gottesdienst in der Moschee.
Sonnabend, den 22."	S.E.Scheich Saleh Scherif Atunisi.
Montag, den 24. "	Professor Abd el Asis Schawiech.
Mittwoch, den 26. "	S.E.Scheich Saleh Scherif Atunisi.
Freitag, den 28. "	Said Memun Abul Fadl.
Sonnabend, den 29. "	S.E.Scheich Saleh Scherif Atunisi.
Montag, den 31. "	Scheich El Chidr.

(65) Zentrum Moderner Orient, no. 06-02-119.

Zu A 36272[15] 182

Uebersicht über die Vorträge in Wünsdorf.

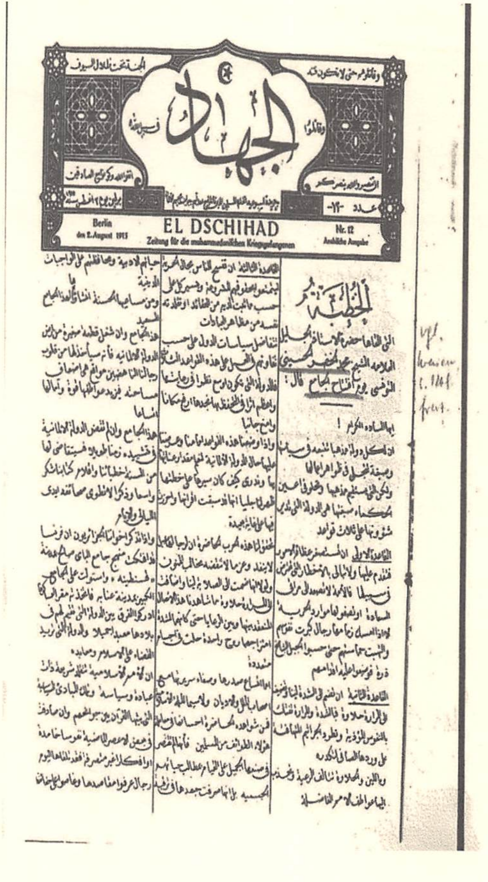
Für den Monat Februar 1916.

Mittwoch, den 2.Februar:		S.E.Scheich Saleh Scherif Atunisi.
Freitag, den 4.	"	Scheich El Chidr, Gottesdienst in der Moschee.
Sonnabend, den 5.	"	S.E.Scheich Saleh Scherif Atunisi.
Montag, den 7.	"	Professor Abd el Asis Schawisch.
Mittwoch, den 9.	"	S.E.Scheich Saleh Scherif Atunisi.
Freitag, den 11.	"	Memun Abul Fadl. Um 4 Uhr Lichtbildervortrag über Medina und Konstantinopel.
Sonnabend, " 12.	"	S.E.Scheich Saleh Scherif Atunisi.
Montag, " 14.	"	Scheich El Chidr.
Mittwoch, " 16.	"	S.E.Scheich Saleh Scherif Atunisi.
Freitag, " 18.	"	Scheich El Chidr. Gottesdienst in der Moschee.
Sonnabend, " 19.	"	S.E.Scheich Saleh Scherif Atunisi.
Montag, " 21.	"	Professor Abd el Asis Schawisch.
Mittwoch, " 23.	"	S.W. Scheich Saleh Scherif Atunisi.
Freitag, " 25.	"	Memun Abul Fadl; Lichtbildervortrag.
Sonnabend, " 26.	"	S.E. Scheich Saleh Scherif Atunisi.
Montag, " 28.	"	Scheich El Chidr.
Mittwoch, " 29.	"	S.E. Scheich Saleh Scherif Atunisi.



ملحق (5-6)

صفحتان من مجلة الجهاد الخاصة بالأسرى المسلمين في ألمانيا في أثناء الحرب العالمية الأولى: الأولى تُظهر نص الخطاب الذي ألقاه الإمام محمد الخضر حسين يوم افتتاح مسجد الأسرى في عام 1915؛ والثانية تظهر خطابًا مع صورة الشيخ صالح الشريف



الجهاد

وقاتلوا في سبيل الله

إن تنصروا الله ينصركم

اتقوا الله وكونوا مع الصادقين

عدد -١٢-

EL DSCHIHAD

Berlin den 2. August 1915

Nr. 12

Zeitung für die mohammedanischen Kriegsgefangenen

Arabische Ausgabe

الخطبة

التي ألقاها حضرة الأستاذ الجليل العلامة الشيخ محمد الخضر الحسيني التونسي يوم افتتاح الجامع قال:

أيها السادة الكرام!



الجهاد

وقاتلوا في سبيل الله

إن تنصروا الله ينصركم

اتقوا الله وكونوا مع الصادقين

عدد -٢١-

EL DSCHIHAD

Berlin

Nr. 21

Zeitung für die mohammedanischen Kriegsgefangenen

Arabische Ausgabe

فرنسا وذهب المراكشيين

الفصل السادس

الحياة اليومية للجنود المغاربة
في الجبهات الأوروبية
خلال الحرب العالمية الأولى

عبد الواحد المكني

شكلت الحرب العالمية الأولى منعرجًا حاسمًا في تاريخ العرب، وكانت مؤذنة بانبعاث أشهر التشكيلات الأيديولوجية والسياسية الوطنية (بروز أعرق الأحزاب العربية وتشكل العائلات السياسية الرئيسة غداة الحرب مباشرة). كما تزامنت مع ظهور الحركة المطلبيّة السياسية العربية التي لم تتجسد في المشاركة (أو محاولة المشاركة) في مؤتمر السلام في فرساي (1919) فحسب، بل تجلّت كذلك في أدبيات تطالب بمكافأة العرب عمّا قدّموه من دماء وأرواح وجهد، ومن أشهر هذه المدونات كتاب تونس الشهيدة ومطالبها المنسوب إلى الشيخ عبد العزيز الثعالبي، ضمّنه أهم مطالب الحركة الإصلاحية التونسية بعد الحرب العالمية الأولى[1].

ركزت «الأسطوغرافيا» التقليدية - وهذا أمر مشروع وضروري - على إحصاء الخسائر البشرية (قتلى وجرحى ومعوّقين) والخسائر المادية (منهوبات الحبوب والفسفاط والأخشاب والفحم الحجري) جراء المشاركة في الجهد الحربي للدول الأوروبية الاستعمارية، ولم تهتم كثيرًا في شأن الفاعلين الحقيقيين للتاريخ، خصوصًا المجندين أنفسهم الذين عاشوا ويلات الحرب والقصف والدمار، ولم يُهتمّ باختلاجاتهم النفسية والمعنوية.

أولًا: «الحياة اليومية» مبحث راهني في ورشة الكتابة التاريخية

شكّل مبحث الحياة اليومية أحد جواذب القلم التاريخي، خصوصًا في رحاب مدرسة الـ «أنال» الفرنسية. وبعد التجديد الذي طالعتنا به مدرسة التاريخ المجهري أو الـ «ميكروستوريا» (Microstoria) الإيطالية، ومدرسة تاريخ «اليومي»

(1) عبد العزيز الثعالبي، تونس الشهيدة، تعريب حمادي الساحلي، مراجعة محمد العروسي المطوي، ط 2 (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1988).

أو الـ «ألتاجشتخايت» الألمانية، لم يعد تأريخ «اليومي» وتفصيل مداميك العادي والمألوف من اختصاص الباحثين عن الشوارد، بل من صميم عمل المؤرخ، فلا قيمة للحوادث من دون سياقها المحيط والدائم، ومن دون التوغل في تفصيلات بنيتها وأنساقها المعتادة.

أضافت المقاربة الأنثروبولوجية إلى البحث التاريخي مسحة من الـ «تأنسن» الإضافي والضروري، وكانت مقاربة الحياة اليومية بوصفها بحثًا شيّقًا وطريفًا في «الحقيقة اليومية للإنسان العادي» منعرجًا خرج بالكتابة التاريخية من الهياكل والبُنى المبالغة في التجريد والحتمية إلى واقع محسوس ملموس، مركزه الإنسان العادي باختلاجاته النفسية والمعنوية المختلفة.

إن البحث عن خصائص الحياة اليومية لمجموعة بشرية مغتربة خارج ديارها ومهجرة قسرًا من أوكارها لتعاطي الاحتراب في شأن قضية لا تعنيهم مباشرة هو بحث يهتم بأمر ظرفي وطارئ، والحال أن مبحث الحياة اليومية[2] هو في الأصل استقصاء للمعتاد والمتكرر والدائم في حياة البشر المادية والثقافية.

تحقق دراستنا في كيفية بناء الذاكرة من الفاعلين المباشرين لا من خلال الذاكرة المضادة والضديدة فحسب، بل من خلال المنتوج الخام لرسائل المبعدين أيضًا[3] وأهازيجهم وأشعارهم، وذلك للولوج إلى ذهنيات هؤلاء الجنود وعالمهم الفكري وأذواقهم ومنتوجهم الحسي والأدبي خلال مرحلة الحرب والهجرة القسرية عن مواطنهم الأصلية، خصوصًا ما راكموه من عادات استهلاكية جديدة وانفتاح على عالم كان مجهولًا بالكامل عندهم من قبل.

بعيدًا عن التداعيات السياسية والأيديولوجية للحرب الكبرى على بلاد العرب نتناول في دراستنا بالتحليل والتركيب مفاصل الحياة اليومية للمجندين والمتطوعين الذين نعتوا في لغة التخاطب آنذاك بالـ «أنديجان» (Les Indigènes)،

---

(2) Pierre Germa, *Depuis quand?: Les Origines des choses de la vie quotidienne* (Paris: Berger-Levrault, 1979); Michel de Certeau, *L'Invention du quotidien, I: Arts de faire*, Nouvelle ed., établie et présentée par Luce Giard, Folio Essais; 146 (Paris: Gallimard, 1990), et John A. Bargh, «The Automaticity of Everyday Life,» in: R. S. Wyer, Jr., ed., *Advances in Social Cognition*, vol. 10 (Mahwah, NJ: Erlbaum; 1997).

(3) Sylvie Housiel, «De la micro-analyse à l'analyse globale des correspondances: Lettres de combattants pendant la grande guerre,» Argumentation et Analyse du Discours, 1/10/2008, Consulté le 27 septembre 2014. <http://aad.revues.org/288>.

أي الأهليين، وذلك إمعانًا في فرزهم وفصلهم عن المحاربين الأوروبيين. وتناولت حياتهم اليومية ومفاصلها كتابات كثيرة، أغلبها من النابهين من النخبة (محمد باش حانبه وأحمد مصالي الحاج وأحمد توفيق المدني)، وكان مصدر تعريجهم على «يوميات» الجنود تثمين حجم التضحيات التي قدموها، وإبراز مطالب التعويضات ورد الجميل من سلطات الاستعمار الفرنسي... كما كان إنتاج المبدعين العرب، من سينمائيين وروائيين وتشكيليين، تأريخًا لهذا الحدث المهم محدودًا (فيلم «سفربرلك» اللبناني في عام 1966، ورواية الرغيف ليوسف عواد في عام 1939، وبعض الإيحاءات عند ميخائيل نعيمة في سيرته الذاتية)، غير أن المدونة الشفوية المأثورة اكتنزت ما يفي بالغرض لمعالجة هذا الفصل المنسي نسبيًا في تاريخ المغارب خصوصًا، وتاريخ البلدان العربية عمومًا.

كانت الرقابة الأمنية والعسكرية على الجنود، ومراسلاتهم مع أهاليهم خصوصًا، مشددة ومدققة، ما أتاح تدوينها في مطاوي الأرشيفات الفرنسية (أرشيف وزارة الحربية وأرشيف دول ما وراء البحار «آكس أون بروفانس (Aix en Provence)» وأرشيف الإقامة العامة). مكنتنا هذه الأرشيفات من الاطلاع على نماذج من رسائل مُقرصنة أرسلها الجنود إلى أهاليهم. ولم تكن مدونتنا الرئيسة، لفهم الاختلاجات النفسية والوضعية المادية التي كان عليها الجنود المغاربة، كلها قتامة واغترابًا ووحشة وضنكًا، بل تضمنت أيضًا صدمة الانبهار بالتطور التقاني وبمدنية الغرب الأوروبي. وشكلت الحرب العالمية الأولى منعطفًا مهمًا في تاريخ عرب المشرق والمغرب على حد سواء، فخلالها سُطّرت معاهدة سايكس - بيكو في أيار/ مايو 1916، وإعلان وعد بلفور في تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، وخلالها تغيرت الخريطة الجيوسياسية للمنطقة، وانبثقت دول جديدة، وفي أثرها تبدّلت الذهنيات وتغيّر نمط المعاش والذوق العام في الملبوس والمركوب والمأكل.

ثانيًا: «الفاعلون المباشرون» الجنود والمتطوعون المغاربة في الجبهات الأوروبية

المقصود بالفاعلين آلاف المجندين والمتطوعين من بلاد المغرب (الجزائر وتونس والمغرب) الذين التحقوا بالجبهات الأوروبية خلال الحرب الكبرى (حرب 1914 أوقيرة 14 في الاستعمال العامي الرائج آنذاك). تنقّل المتطوعون

المغاربة بين جبهات حربية عدة في الشام والبلقان، خصوصًا في فرنسا وألمانيا وبلجيكا، وكانت هذه الهجرة العسكرية الموقتة عبارة عن صدمة عنيفة وفجائية أثرت في نسق حياة الأهالي، وكانت عبارة عن «دوي رعد في سماء زرقاء»، كما يذكر الزعيم الجزائري مصالي الحاج في مذكراته[4].

شارك الجنود المغاربة في حرب لا تعنيهم، ولم يكونوا طرفًا فيها إلا من خلال هيمنة الاستعمار الكولونيالي الفرنسي الذي خوّلته التشريعات غير الإنسانية وغير القانونية تجنيد شبان المغارب والزج بهم في أتون الحرب، والادعاء بأنها «حرب من أجل الحق والحضارة». مع ذلك، اشتهر هؤلاء بإقدامهم وشجاعتهم، وكان «اللفيف الأجنبي» أحيانًا أكثر بسالةً من أطراف الحرب المباشرين.

شارك زهاء 300 ألف جندي ومتطوع مغاربي (175000 جندي جزائري، و80000 جندي تونسي، و40000 جندي مغربي) في جبهات القتال الأوروبية، وناهز عدد الضحايا من قتلى ومفقودين 68 ألفًا (35000 قتيل أو مفقود من الجزائر و21000 من تونس و12000 من المغرب الأقصى). كانت الخسارة البشرية جسيمة، وهذا أمر مثير للاستغراب، خصوصًا إذا قورن بعدد الضحايا من باقي المستعمرات. فمن 600 ألف مجند من المستعمرات الفرنسية كلها، شارك الجنود والمتطوعون المغاربة بنصفهم، وكانت الخسائر البشرية للمغاربة من قتلى وجرحى ومفقودين هي الأعلى على الإطلاق، إذ لم يفقد الجنود الأفريقيون السود إلا 25 ألفًا من جملة 180 ألف مجنّد، ولم يفقد المالغاشيون (نسبة إلى مدغشقر) إلا 2500 من جملة 41 ألف مجنّد، وفقد جنود الهند الصينية 1600 فحسب من 49 ألف محارب ومتطوع[5].

من خلال مقارنة الأرقام، يتضح أن الجنود المغاربة وقعوا ضحية إقدامهم وشجاعتهم من ناحية، وضحية الازدراء بهم ووضعهم في مقدم المعارك من ناحية أخرى[6].

---

(4) مذكرات مصالي الحاج 1898-1938، تصدير عبد العزيز بوتفليقة؛ ترجمة محمد المعراجي، سلسلة التراث (تونس: منشورات Anep، 2007)، ص 61.

(5) Pascal Blanchard et Sandrine Lemaire, *Culture coloniale: La France conquise par son empire (1871-1931)*, Mémoires; 86 (Paris: Éditions Autrement, 2002), p. 117.

(6) حدثت المأساة نفسها للجنود التونسيين في حرب القرم في عام 1854، عندما وضعتهم الدولة =

حتى إعلان السلم النهائي في عام 1919، شارك 300 ألف جندي مغاربي (بين عساكر من مختلف الكتائب والمتطوعين والعمّال في المدن) في الحرب الكبرى، وتنقلوا بين الجبهات الأوروبية، ومثّل عددهم مقارنة بعدد السكان 3.9 في المئة من السكان التونسيين المسلمين و3.5 في المئة بالنسبة إلى الجزائر و1 في المئة بالنسبة إلى المغرب الأقصى. وقدّرت الخسائر البشرية خلال الحرب بخُمس المجندين المغاربة، في حين بلغت سدس الجنود الفرنسيين المعنيين بالحرب مباشرة.

كان الجنود العرب - بشهادة الضباط والقادة الفرنسيين - عرضة للأخطار أكثر من غيرهم، إذ كانت كتائبهم صدامية (Troupes du choc).

كان المغاربة أصحاب كفاءة عالية في الحرب، «لهم القدرة على المعارك الليلية واستعمال السلاح الأبيض من حراب وخناجر في المواجهات المباشرة، وكان الأنديجان أو اللفيف الأجنبي بجميع فرقه من المشاة والرماة والمناوشين ولفيف زواوة (Zouaves) مشهودًا لهم بالشجاعة والإقدام على الرغم من قلة خبرتهم بالحرب العصرية، حيث تأقلموا بسرعة مع استعمال السلاح وتنظيفه وتركيبه، وأشاد المارشال فوش في معركة المارن الشهيرة بإقدام الجنود المغاربة ومهارتهم وقيمتهم الحربية»[7].

كانت الكتائب المغاربية من بين أكثر الكتائب توشيحًا بالنياشين، إذ تم توسيم خمس فرقة الرماة من الجزائريين.

كابد الجنود المغاربة ضنك الحياة اليومية، وعاشوا الاغتراب الروحي في بلاد ومناخ غير معروفين، كما عاشوا التقطع بين الولاء للوازع الديني (الخلافة)

= العثمانية في مقدمة المعارك. والمثل التونسي الرائج يشبه هؤلاء الضحايا بعسكر زواوة «مقدمين في الشقا موخرين في الراتب»، أي هم في صدارة الشقاء ومتأخرين في الحصول على الرواتب.

(7) Jean-Charle Jauffret, «La Grande guerre et l'Afrique française du nord,» dans: *Les Troupes coloniales dans la Grande Guerre: Actes du colloque organisé pour le 80e anniversaire de la bataille de Verdun par le comité national du souvenir de Verdun, le mémorial de Verdun, l'Institut d'histoire des conflicts contemporains, le 27 Novembre 1996 à Verdun au Centre mondial de la paix*, Sous la direction de Claude Carlier et Guy Pedroncini, Hautes études militaires; 5 (Paris: Institut d'histoire des conflits contemporains; Comité national du souvenir de Verdun, 1997), pp. 48-55.

والاستجابة للواجب الحربي والشرف العسكري. لا بد هنا من التفريق بين ثلاثة أنواع من الجنود المغاربة الذين خاضوا غمار الحرب الكبرى في أوروبا:

- المجندون المدعوون في إطار نظام التجنيد الخاص بكل قُطر. ففي تونس مثلًا، كان هناك نظام القرعة الذي يشمل الذكور البالغين من المسلمين، ويلزمهم تمضية ثلاثة أعوام في سلك الجندية، وهو النظام المعتمد منذ عام 1840، أي منذ عهد أحمد باشا باي، وواصلت فرنسا العمل به. أما في الجزائر فاستعملت فرنسا نظام الخدمة العسكرية الإجبارية للبالغين الذكور والمتجاوز سنّهم 18 عامًا، واستعملت السلطات الفرنسية مرسوم 3 شباط/ فبراير 1912 الذي يقر تجنيد الجزائريين ثلاثة أعوام وإبقائهم في سلك الاحتياط سبعة. وفي المغرب الأقصى، استغلت سلطات الحماية الفرنسية هياكل الجيش الملكي وتقاليده العريقة، واعتمدت على مراس عساكر «القوم» وفرق «المخزن» و«الصبايحية»، كما كونت الفرق المساعدة والرديفة (Les troupes des auxiliaires marocains)، وأعدتها للمشاركة في الحرب الكبرى.

- الجنود المتطوعون الذين أقبلوا على العسكرية طوعًا ولقاء مقابل مالي وفق عقد اتفاق يضبط الحقوق والواجبات «مقاجي» (نسبة إلى الكلمة الفرنسية Engagé). كانت أغلبية هؤلاء من أعماق البوادي والأرياف المغاربية، عاشت عائلاتهم مراحل التفقير والأزمة وافتكاك الأراضي لفائدة المستوطنين الأوروبيين، فاندفعوا نحو الجندية أملًا في ضمان حد أدنى من الكسب المالي لإسناد أسرهم وعائلاتهم. وصف مصالي الحاج طرائق التغرير بهم بأسلوب شيق: «فالدعاية من أجل التجنيد كانت ماهرة... كان البعض منهم ينغم بالموسيقى بالغايطة... كانوا يقومون بذلك أيام الأعياد والأسواق في الزحمة أن هؤلاء الفلاحين الذين ليست لهم أراضٍ لأنها انتزعت منهم كانوا يشكلون الهدف المفضل للأعوان المكلفين بالتجنيد. عندما يقع المستمعون في سحر هذا الجوّ يوقف فرنسي الموسيقى ويتدخل عريف عربي فيأخذ الكلمة ويشرح بكل فصاحة وبتفاصيل ضافية كل الفوائد التي يمكن أن يستفيد منها من يتعاقد بصفة إرادية. هذه الاقتراحات كانت جذّابة وخاصة لذوي البطون الجائعة»[8].

(8) مذكرات مصالي الحاج، ص 62.

وجب القول هنا إن المحفزات المادية والدعاية المكثفة تمكنت من التأثير في الشبان الريفيين الذين كانوا يعيشون ضنك الحياة، كما كانت التشريعات التي صدرت مشجعة. فعلاوة على ضمان مرتب شهري وتغطية اجتماعية للزوجة والأطفال، فُتح باب التطوع لمن هو في سن السابعة عشرة وما فوق (سن المغارَمة والإقدام)، وعدّلت مدة التطوع من خمسة أعوام كحد أقصى لتدوم دوام الحرب، قصُرت أو طالتْ، وذلك وفق الأمر العلي الذي أصدره باي تونس في 10 آب/أغسطس 1914[9].

- الجنود العملة الذين انتدبوا للأعمال الفلاحية والأشغال المدنية، خصوصًا لسد الفراغ الذي تركه العمال الفرنسيون في المصانع والحقول. كانت أول دفعة من تونس مثلًا في عام 1915، وضمت 2500 جندي، وتتمثل في انتداب جماعات على عتبة الكهولة (أكثر من 35 عامًا). وبلغ مجموع العاملين التونسيين في فرنسا خلال الحرب الكبرى 30 ألف عامل[10]، كانوا عرضة للعمل المُضني وتعرضوا للممارسات العنصرية في مدن لوهافر وبوردو وتولون.

ثالثًا: رحلة العذاب والمخاطر

1- أوضاع النقل البحري: داخلُهُ مفقود

كانت موانئ الجزائر وعنابة ووهران ومستغانم وبنزرت وصفاقس نقاط انطلاق لإبحار الجنود المغاربة نحو جبهات الحرب في أوروبا. تسبق عملية ترحيلهم فترة من التربص والتهيئة بالثكنات الكبرى الموجودة في المدن المذكورة. كانت أغلبية المجندين من أعماق الريف ومن فيافي البادية، وأكثرهم لم يسبق له أن رأى البحر، فما بالك إن تعلق الأمر بركوبه للعبور نحو أصقاع جديدة لا يعرفون عنها إلا بعض الأوصاف الغريبة، الشبيهة بالأساطير.

(9) François Arnoulet, «Les Tunisiens et la première guerre mondiale (1914-1918),» *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, vol. 38, no. 1 (1984), p. 47.

(10) Mohamed Bach-Hamba, *Le Peuple algéro-tunisien et la France*, Réédition préparée et présentée par Mahmoud Abdelmoula, Bibliothèque culturelle maghrebine. Algérie et Tunisie (Carthage: Beit al-Hikma, 1991), pp. 152-153.

يصف لنا مصالي الحاج في مذكراته هول عملية التجنيد والإبحار، فيقول: «كانت الأمهات والأخوات يصحن ويبكين ويمزقن وجوههن بأظافرهن 'اتركوا لنا أبناءنا'»[11].

جُنّد مصالي الحاج ودفعته من جهة تلمسان وباقي الغرب الجزائري في عام 1918، أي عندما شارفت الحرب على نهايتها، ومع ذلك سيطر الرعب على المجندين وأهاليهم: «دام العبور ثلاثة أيام للوصول إلى مرسيليا، كانت سفينة سيدي إبراهيم تسير إلى جانب الساحل الإسباني وهي تتقدم مطفئة أضواءها، فقد كان التدخين ممنوعًا على ظهر السفينة... كل الفوج كان مصابًا تقريبًا بداء البحر... قبل الإبحار كنا فكرنا في هذا الاحتمال فكنت مع أصحابي قد حملنا معنا دواءً منزليًا وهو أن نستنشق حزمة من البصل، لكن هذا الدواء أبدى عدم فاعليته فقد كانت رائحة البصل بالعكس تضاعف من آلامنا»[12].

واجه المجندون المُبحِرون أهوال البحر بثقافتهم الشعبية المرتكزة على الإيمان بالأولياء «والتوسلات إلى سيدي عبد القادر الجيلاني»، والتذرّع للصلحاء، أو عبر ممارسة التطيّر وطلب والاستنجاد بكرامة الصالحين، «ورمي النقود في البحر طلبًا للبركة»[13].

لم تكن أهوال الرحلة البحرية نابعة من الخوف من بحرٍ له صورة قاتمة وموحشة في خيال شباب البوادي من المجندين فحسب، بل كانَ خطر الغواصات والقاذفات الألمانية أيضًا منشأ الرعب عند المبحرين. فمنذ أيلول/ سبتمبر 1914، بدأت حرب الغواصات على السواحل الجزائرية، خصوصًا على مدن وموانئ الجزائر وعنابة ووهران ومستغانم. كانت الغواصات الألمانية تغرق ناقلات الجنود، فكان موعد السفر بحرًا هو موعد الخوف والارتجاف.

في آب/ أغسطس 1915، أغرقت الغواصات الألمانية الناقلة بارديروس (Barderousse) التي كانت تحمل ألف جندي جزائري نجا منهم نفر قليل. وفي أيلول/ سبتمبر 1915 نُسفت الباخرة أود (Aude) والباخرة «مدينة مستغانم». وفي

(11) مذكرات مصالي الحاج، ص 74.
(12) المصدر نفسه، ص 81.
(13) المصدر نفسه، ص 82.

4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1915 أغرقت الباخرة كالفادوس (Calvados) أمام سواحل وهران، وكان على متنها 700 جندي تونسي منتمين إلى الفوجين الرابع والثامن للمناوشين... وهلكت أغلبيتهم.

في نهاية عام 1915، بلغ عدد البواخر المحطمة 34 قطعة، غرقت منها 23 سفينة بالكامل وتحولت إلى حطام[14]. وفي عام 1917، بلغت حرب الغواصات ذروتها، وكانت أغلبية ضحاياها من الشبان المغاربة.

2- التناقض المغاربي: الساعد مع فرنسا والقلب مع الحاج غليوم

مالت عاطفة أغلبية الشبان المغاربة الذين شاركوا في الحرب إلى الدولة العثمانية وحليفتها ألمانيا والنمسا - المجر، قابلها نقمة دفينة على «الفرنسيس والإنكليز والموسكوف ومن التحق بهم مثل الخائن الطليان»[15].

لا شك في أن الدعاية التي قامت بها الإمبراطورية العثمانية عبر المغاربة المقيمين في الأستانة وبرلين وجنيف - من أمثال الشيوخ صالح الشريف وإسماعيل الصفايحي والأخوين علي ومحمد باش حانبه والشيخ عبد العزيز جاويش - كانت ذات فاعلية كبرى. إذ امتزجت فكرة المحافظة على الخلافة الإسلامية العثمانية بفكرة الجامعة الإسلامية، وكان وقعها مؤثرًا، خصوصًا في تونس والمغرب. وكانت الفتوى التي أصدرها شيخ الإسلام في الأستانة في 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1914، والتي وُزّعت في 100 ألف منشور في البلدان العربية وفيها دعوةٌ إلى مناصرة الجامعة الإسلامية والخلافة، وتحريضٌ على الدفاع عن الخلافة، ذات تأثير قوي، إذ أظهرت كل مسلم «محارب» ضد الدولة العثمانية بمظهر المرتد عن الدين، ولم تتمكن بعض الفتاوى المحلية في تونس أو الجزائر من تبرير مناصرة فرنسا وحلفائها.

تمتّنت هذه العاطفة بفعل عوامل أخرى، أبرزها التعاطف مع ألمانيا، خصوصًا

---

(14) Gilbert Meynier, *L'Algérie révélée: La Guerre de 1914-1918 et le premier quart du XXe siècle*, Préface de Pierre Vidal-Naquet, Travaux de droit, d'économie, de sociologie et de sciences politiques; 130 (Genève: Droz; Paris: Diffusion Minard; Diffusion Champion, 1981), p. 263.

(15) صالح الشريف وإسماعيل الفايحي، «بيان توحش فرنسا في القطر التونسي والجزائري والاستنجاد إليه،» في: روافد (تونس: المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، 1998)، ج 4، ص 233.

ملكها غليوم الثاني الذي اكتسب ودّ ملايين المسلمين. إذ أظهرته زيارته الشهيرة إلى تركيا وسورية وفلسطين مع زوجته في عام 1899 حاميًا للإسلام ومتعاطفًا مع المسلمين وخلافتهم العثمانية. وهو زار معالم إسلامية عدة، وقبر صلاح الدين الأيوبي، وأعلن عن تعاطفه مع الإسلام والمسلمين... وكان الجنود المغاربة يلقبونه «الحاج قيوم» و«الحاج منصور... والحاج قدور»[16].

وتغنّى الرأي العام بشمائله:

يـــا حـــيّ يـــا قـيـــــوم	الله يـنـصـــر الـحـــاج غـلـيـــوم
نتوسـل لــــك بالخـــــواص	الله ايـــذل اجيـــوش لافـرانـــص
يـــا جبّـــار يـــا عـزيـــــز	إخلي الملك من جنس الإنجليـــز[17]

ساد تعاطف كبير مع الألمان، مردّه العاطفة نحو الخلافة العثمانية والجامعة الإسلامية، لكن لا يمكن قياس فاعلية التعاطف عند الجنود في الجبهات. فالأمر كان متعلقًا بغريزة الحياة والنجاة من القصف والنيران. إذ كانت التقارير متضاربة، بعضها يشيد ببسالة الجنود المغاربة في سبيل فرنسا ودفاعًا عن «الحق والحرية»، ويشدّد بعضها الآخر على عاطفة جيّاشة مع ألمانيا، بلغت درجةً قصوى عند تهليل الجنود العرب والمسلمين بحياة ألمانيا وإمبراطورها وهم في لحظات الاحتضار موتًا بالرصاص الألماني ذاته.

---

(16) الأرشيف الوطني التونسي، س E، ص 440 A18، م 340، وثيقة عدد 5، تقرير لجنة الرقابة العسكرية البريدية تشرين الأول/ أكتوبر 1915، ص 2. التقارير باللغة الفرنسية عبارة عن تقارير شهرية دورية قامت بها لجان الرقابة العسكرية على الرسائل المتبادلة بين الجنود وعائلاتهم، التي كانت تخضع إلى «غربلة» دقيقة واشتغل على هذه التقارير باحثون عدة، نذكر منهم: Daniel Goldstein, *Libération ou annexion: Aux Chemins croisés de l'histoire tunisienne (1914-1922)* ([Tunis]: Maison tunisienne de l'édition, 1978), et محمد العادل دبوب، «الرأي العام التونسي والحرب العالمية الأولى: نماذج من خلال السلسلة الفرعية «الشؤون العسكرية» (شهادة الكفاءة في البحث في التاريخ، تحت إشراف الكراي القسنطيني، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1992-1993)، وعاطف غبشوق، «الفرار من الجندية وبوادر العمل الوطني المسلّح بالبلاد التونسية 1914-1918» (شهادة الكفاءة في البحث في التاريخ، جامعة منوبة، تونس 2005).

(17) مقتطف من أغنية تتمنى النصر لألمانيا والملك غليوم والهزيمة لفرنسا وحلفائها من الإنكليز والروس، شاعت في مدينة الجزائر، أوردها «جون ديسبرمي» في المجلة الجزائرية (1932). وذكرت في بحث: التليلي العجيلي، «المصالح الألمانية ومصير الرعايا الألمان في بلدان المغرب العربي أثناء الحرب العالمية الأولى،» في: روافد، ج 4، ص 215.

نحن هنا إذًا إزاء مفارقة حقيقية. الواضح والمؤكد أن الجنود المغاربة لم يكونوا في وضعية نفسية مريحة، فهم يخوضون حربًا ليست حربهم، وكانت سواعدهم مع فرنسا وعاطفتهم مع ألمانيا وتركيا، وكان الأمر معكوسًا عند الجنود العرب في جبهات المشرق. كان الشاميون واللبنانيون المجندون إجباريًا يتعاطفون مع فرنسا وإنكلترا وسواعدهم مع الجيش العثماني. كانت قاعدة «عدو عدوي صديقي» فاعلة عند عرب المشرق والمغرب على السواء، فانعكست سلبًا على معنويات الجند الذين كانت أفئدتهم تعاكس سواعدهم في الإرادة.

3- حرب الخنادق: مصاعب الحياة تحت الأرض

كانت الحرب الكبرى حمّالة تجديد تقاني. ففي خلالها، نشطت حرب الغواصات التي تضرر منها الجنود المغاربة المبحرون إلى أوروبا مباشرة، وفيها استُعملت الخنادق[18]، وهي مخابئ محصنة بالأخشاب والحديد، وبالإسمنت المسلّح أحيانًا، ومسيّجة بالأسلاك الشائكة. لكنها ارتبطت بتكثيف القصف الناري المدفعي، وكان المجندون المغاربة عديمي الخبرة بمثل هذه الملاجئ. يقول أحدهم: «إنني يائس من العيش في الخنادق التي تعمق غربتنا، إن حياتنا بائسة... ونحن مجبرون على البقاء في حالة استنفار طوال الوقت»[19].

في السياق نفسه، يضيف جندي آخر في رسالة إلى والده: «الخندق ضيق، فعندما نريد الاستلقاء على بطوننا نصبح مثل الأرانب وسط جحورنا أو مثل القطط النائمة والمحاطة بالموت... إن الباي باعنا وأمضى على ذلك لكي يرسلنا مثل القطيع... إن جثثنا تبقى ملقاة على الأرض لتكون طعامًا للجرذان...»[20].

4- قسوة المناخ

لم تجر رياح الطبيعة بما يشتهي الجنود المغاربة في جبهات أوروبا، خصوصًا بالنسبة إلى عاملي الأمطار والبرودة التي تتحول إلى ثلوج يصعب على أصحاب

(18) Jacques Tardi, *C'était la guerre des tranchées: 1914-1918* (Paris: Casterman, 1993).

(19) الأرشيف الوطني التونسي، س E، ص A18440، م 346، تقرير لجنة الرقابة العسكرية البريدية تموز/ يوليو 1916، ص 8.

(20) الأرشيف الوطني التونسي، س E، ص A18440، م 169. وثيقة عدد 24، رسالة الجندي التيجاني بن الصادق إلى والده الصادق بنحسونة 28 أيلول/ سبتمبر 1916.

البشرة «القمحيّة» تحمّلها: «إن البلاد باردةٌ جدًا، والثلوج والأمطار لا تكفّان عن النزول، والسحاب والضباب يلفّان السماء دائمًا، فلا نرى الشمس إلا لفترات قليلة جدًا... أما القِبلة فلا يُمكنني تحديدها إلا في الصباح الباكر فقط... وعند القيام بالصلاة فإني أتطهّر بالرمل ولا أتوضأ جيدًا لأنني لا أستطيع نزع ملابسي...»[21].

كان البرد قارسًا ومانعًا للجند العرب من إقامة شعائرهم الدينية، وتسبب للبعض منهم الأمراض بل حتى الموت، وكان عاملًا من عوامل فرار الجنود من ساحات المعركة: «إنني في المستشفى بسبب الصقيع وتجمّد الأرجل. بادرنا بمهاجمة العدو يوم 15 كانون الأول/ ديسمبر (الأصم)... وهناك وجدنا ظروفًا سيئة، تهاطل الأمطار وتساقط الثلوج، البرد، الوحل... بقينا مدة ثلاثة أيام وليالٍ داخل الخنادق في وحل سائل يصل إلى مستوى الفخذين، قاسينا ظروفًا جد صعبة من الجوع والعطش والصقيع والوحل...»[22].

كان الجنود عرضةً لنزلات البرد وتجمد الأطراف، ما ساهم في انتشار الهزال والحمى الإسبانية والتيفوس في صفوفهم.

رابعًا: «الثقافة» و«التثاقف» في الجبهات الأوروبية

كانت الحرب الكبرى منعرجًا مهمًا في ثقافة العرب، خصوصًا الجنود الذين اكتشفوا أول مرة قارة أوروبا، وما كانت تحويه أقطارها الغربية من تمدّن وحداثة تقانية وتطور ثقافي.

لم يهتم القلم التاريخي إلا لمامًا بهذه المسألة بسبب فرط التركيز على «السياسي والأيديولوجي» في غمار الحرب، ولا مهرب في هذا الصدد من الاستنجاد مقاربة بالأنثروبولوجيا لتكشّف مجالات «المثاقفة» وفضاءات الاحتكاك الثقافي التي فرضتها حوادث الحرب على الجنود المغتربين.

---

(21) المصلحة التاريخية لجيش البر بقصر فانسان SHAT، ب S73، ص 7N1001، م 340، تقرير لجنة الرقابة العسكرية البريدية كانون الأول/ ديسمبر 1916، ص 2-3. (نسخ في أشرطة مودعة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية تونس).

(22) دبوب، ص 174.

1- اللغة والتخاطب: صعوبة التواصل

لم تكن عملية التواصل اللغوي سهلةً، خصوصًا بالنسبة إلى الجنود التونسيين والمغاربة (المراركة)، خلافًا للجزائريين الذين كابدوا عند اندلاع الحرب أكثر من ثمانين عامًا من الاستعمار الثقافي المباشر الذي متّن عند بعضهم فهم الفرنسية.

ينبغي ألا ننسى أن أغلبية المجندين كانت من أعماق الأرياف ومن عائلات فقيرة، فكانت تسبح في فدافد الأمية. فمن «بين 15000 شاب تم استدعاؤهم في تونس سنة 1917 للخدمة العسكرية، لم يكن هناك سوى 52 يحسنون القراءة والكتابة بالعربية أو بالفرنسية»[23].

كانت الحرب فرصةً لتمرّن المجندين المغاربة على اللهجة الفرنسية، كما هيأت الإقامة في أوروبا لتدعيم قاموس جديد من التخاطب العامي، تختلط فيه الفرنسية بالعربية، شمل المجالين العسكري والمدني. في الجدول الآتي نماذج على القاموس الجديد، غير أن الأمر يتطلب بحثًا استقصائيًا، هدفه إنجاز قاموس لمثل هذه الاستعمالات، وهذا مشروع عمل بين الألسنيين والمؤرخين وجمّاعي التراث اللامادي.

الجدول (6-1)

كشف بمصطلحات فرنسية - عربية خرج بها الجنود المغاربة بفعل احتكاكهم بالجنود الفرنسيين على الجبهات الأوروبية في الحرب الأولى

المصطلح الجديد	المرادف الفرنسي	المعنى العربي
مقاجي	Engagé Engagement	متطوع أو منخرط طوعيًا في الجيش
مزرتي	Déserteur	هارب من الجندية
برمسون	Permission	تسريح أو رخصة وقتية
القيرة	La Guerre	الحرب

يتبع

(23) الثعالبي، ص 217.

تابع

الترانشي	Tranchée	خندق
بطيون	Bataillon	كتيبة
الكمباطا	Combattant Ancien Combattant	محارب محارب قديم
الراقو	Ragot	حساء خضروات
الصُّبَّة	Soupe	حساء ساخن
الزلاميت	Les Allumettes	الولاعة
فليجة	Valise	حقيبة
ماندة	Mandat	حوالة بريدية
كيلوبوسطة	Colis Postal	طرد بريدي
الليفري	Livret Individuel	الدفتر الشخصي

لا شكّ في أن بعض هذه الاستعمالات[24] كان موجودًا قبل الحرب، خصوصًا في القطر الجزائري، لكن بعد الحرب الكبرى، نشرها الجنود العائدون من الجبهات الأوروبية نحو القرى والمداشر والأرياف.

2- الأغاني الحزينة والأشعار والأشجان

كانت أغلبية التقارير تصف حالة الشجن والغربة والأسى التي كان يعيشها الجنود المغاربة على جبهات الحرب. ولاحظ روبار لخمان (أحد كبار المتخصصين الألمان بعلوم الموسيقى) درجة الحزن والقتامة في أغاني الأسرى التونسيين في المعسكرات الألمانية[25]. عاش الجنود المتطوعون المآسي نفسها،

(24) يمكن الاستعانة بالمقالة «معجم المصطلحات المستعملة بين 1914-1918» عن الاستعمالات الحربية:
«Lexique des termes employés en 1914-1918» <http://www.crid1418.org/espace_pedagogique/lexique/LexiqueCRID1418.pdf>.

(25) حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية (تونس: مكتبة المنار، 1966)، ج 2.

وعبّروا عنها في أغانيهم الشجية:

«اللي صادني داءزي الغماء مالوش دواء

يا ربي سيدي خلصني من ها العماء

في الأرض تايه شاقي العمل في اليد فاسي اقطّع حجر

كالمنفي نخدم وسط الفحم في مقاطع الجير ودز الفقن

في بلاد الكفرة أضداد ديني يا ربي سيدي قلل منهم نفر»[26].

تصف هذه الأغنية عمق المصاب، فالعامل تائه يعيش الشقاء يقطع الأحجار بفأسه ويشتغل في مناجم الفحم، يدفع القاطرات في بلد «الكفّار» الذين يدعو الله لتقليل عددهم.

في السياق نفسه، برزت أغان وملزومات عدة، منها ما يصف حال التهميش التي عاشتها عائلات المجندين، وتصل إلى حد تسوّل البنات ضمان لقمة العيش في غياب الأب العائل:

«على بنتي قمر

تتسول من دون الذر

ربي قدّر

باباها للحرب سفر»[27].

لعل أشهر هذه القصائد والأشجان في حالة البلاد التونسية للشاعر عبد الرحمن الكافي الذي أبدع في نظم القصائد الناقمة على الحرب وعلى فرنسا[28].

(26) دبوب، ص 199.

(27) حفناوي عمايرية، «في تشكل الوعي الحديث بالريف التونسي من القبلية إلى الوطنية،» **الحياة الثقافية**، السنة 21، العدد 73 (آذار/ مارس 1996)، ص 27.

(28) عبد الواحد المكني، «أشهر قصيدة بذيئة في تاريخ تونس زمن الاستعمار الفرنسي،» في: **المعادلة الصعبة: فشل حركة الاستنارة الحديثة في البلاد العربية** (بيروت: دار الساقي؛ رابطة العقلانيين =

ويمكن القول إن أغلبية هذا التراث الغنائي اندثرت بفعل الزمن والنسيان، على الرغم من محاولات بعض البحّاثة إنقاذ هذا المخزون الشعبي.

كذلك عاش المجندون حالة صعبة من الاغتراب المادي والروحي، لاحت بجلاء في مراسلاتهم:

«إني في غاية الكمد والإحباط... فقدت كل زملائي... أحمد الذي اختطفه الردى في مقتبل الشباب... رجب الذي التهمته النيران... الرقيب أحمد... رجال في منتهى الشجاعة سقطوا لأهداف فرنسية خسيسة...»[29].

3- وسائل الترفيه والعادات الجديدة

حتى لا نبقى في سياق ما يعرف بالتاريخ «التدهوري» الذي لا يرى في الحوادث إلا جانبها السلبي القاتم، وجب التأكيد أن المجندين المغاربة خَبروا مهارات عدة، وراكموا عادات جديدة في رحلتهم العسكرية إلى أوروبا، من ذلك تزايد استهلاكهم للتبغ والخمر (خصوصًا بسبب البرد والثلوج) وإقبالهم على استهلاك المعلبات والمصبّرات، وممارسة أشكال النشاط الرياضي المختلفة، كالعدو وكرة القدم التي تعلّمها مصالي الحاج في مدينة بوردو الفرنسية في عام 1918. وهو القائل: «أذهب في الصباح إلى الساحة لألعب كرة القدم»[30]. أدّت هذه التجارب الرياضية إلى انبثاق الجمعيات الأهلية للرياضة وكرة القدم بعد الحرب في بلاد المغارب، وساهم قدماء المحاربون فيها، لعبًا وتسييرًا، بشكل فاعل.

من المجندين أيضًا من انفتح على عالم الثقافة، خصوصًا فنون الغناء والرقص

= العرب، 2010)، ص 129-155 وسبق أن نُشرت الدراسة في مقال من 3 أجزاء على موقع الأوان الإلكتروني، وعبد الواحد المكني، «حول كتابة تاريخ المهمّشين بالبلاد التونسية خلال الفترة الاستعمارية: مقاربة منهجية وأنثروبولوجية،» في: روافد (تونس: المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، 2007)، ج 12، ص 43-68.

(29) الأرشيف الوطني التونسي، س E، ص A18440، ملف 345، تقرير تشرين الأول/ أكتوبر 1916، ص 3.

(30) مذكرات مصالي الحاج، ص 85.

والذوق الغربي. فصار بعضهم يرتاد المسارح ويستمع إلى الأغاني في «الباتوفون» والفونوغراف: «تذوقت مباشرة المغنين الواقعيين الفرنسيين الذين كانوا يحركون أعماقي كما اكتشفت المسرح الغنائي... لأول مرة في حياتي كنت أصعد درجات المسرح أن الزخارف والمقصورات والرقصات والموسيقى والغناء والجوكل هذه الأشياء الجديدة بالنسبة لي قد أبهرتني»[31].

غامر لفيف آخر من المجندين بالارتباط بالفرنسيات بعلاقات غرامية: «كنا نقضي قرابة ساعة نتحدث فيها، وأقبّلها خلالها، كنت أشعر إني شاب سعيد وفي صلواتي أشكر الله»[32].

هذا ما حدث لمصالي الحاج الشاب المحافظ ابن الزاوية وأصيل تلمسان، وهو أمر حدث لجنود مغاربة عدة. تتحدث التقارير عن سهولة إقامة العلاقات مع النساء الفرنسيات: «إن الحب العربي (أي الجنس) مطلوب جدًا هنا»[33].

4- الملبوس والمبيت

اختلف الزي العسكري للجنود المغاربة باختلاف كتائبهم وتشكيلاتهم (رماة، مشاة، مناوشون، زواوة... إلخ)، لكن الثابت هو بداية ترسخ «البدلة الإفرنجية»، خصوصًا السراويل (البنطالون): «اعتبر نفسي فرنسيًا الآن، وأرجوك ألا تضحك إن ما يصيبني بالقرف هو إني مجبر على التبول في وضع قائم لا يمكنني أن أتقرفص بسبب لباس البنطالون»[34]. وكذلك والمعطف (الكبّوط) في الشتاء: «فكل واحد منا تحصّل على رداء أسود وسروال أحمر وحذاء خشين وقميص وكلسون وحزام صوفي وشاشية عسكرية»[35].

---

(31) مذكرات مصالي الحاج، ص 87.

(32) المصدر نفسه، ص 87.

(33) الأرشيف الوطني التونسي، س E، ص A18440، ملف 346، تقرير كانون الثاني/ يناير 1917، ص 20.

(34) الأرشيف الوطني التونسي، س E، ص A18440، لجنة الرقابة ملف 347، كانون الثاني/ يناير 1918، ص 6.

(35) مذكرات مصالي الحاج، ص 74.

لا نجد معطيات دقيقة عن الأزياء واللباس، إذ يبدو أن الندرة هي الغالبة. يقول المؤرخ والطبيب الفرنسي فرنسوا أرنولي عن وجود قميص واحد وزوج واحد من الجوارب وغطاء واحد للرأس، «كما أن أحوال الإقامة كانت بالية، إذ كان الجنود يعسكرون داخل كنائس متداعية ويفترشون فراشًا من القش ويتوافرون على غطاء واحد من الصوف، كما لم يتوافر عندهم الصابون للنظافة، أما المعاطف التي كانوا يرتدونها فبلا أكمام ولا تغطي إلا الجزء العلوي من الجسم»[36].

كانت رداءة الإقامة وتأخر صرف الرواتب ووصول الحوالات المالية إلى الأهالي من أسباب فرار الجنود ومغادرتهم جبهات القتال، وتفاقم هذا الأمر بشدّة في عام 1917[37].

5- الشعائر الدينية: الصلاة والصوم والمدافن

على الرغم من الرقابة العسكرية التي كانت تغربل رسائل المجندين إلى أهاليهم، كشفت هذه الرسائل عن معاناة حقيقية عاشها العساكر المغاربة، تشير إلى وجود عدد من الإكراهات المادية والروحية التي نالت من حرمة العقائد والشعائر عند شبان مسلمين تربوا تربية تقليدية.

كان هاجس الخوف من استهلاك المحرمات، خصوصًا لحم الخنزير وشحمه في الطعام، من أكثر الأمور ذكرًا في المراسلات: «إننا نجبر على أكل لحم الخنزير والدواب غير مذبوحة (جيفة) بل وقع قتلها بواسطة فأس ولم أتمكن من إقامة الصلوات وأظن أنه من العسير أن أصوم شهر رمضان هنا»[38].

كان هاجس الحرمان من صوم رمضان يقض مضجع المجنّدين: «أعلمك بأنهم منعونا من الصيام طيلة شهر رمضان... في اليوم الأول منه وبينما كانت المجموعة صائمة قدم الرقيب وبيده الطعام وأجبرنا على الإفطار عند منتصف النهار»[39].

---

(36) Arnoulet, p. 54.

(37) المصدر نفسه، ص 60.

(38) الأرشيف الوطني التونسي، س E، ص A18440، لجنة الرقابة ملف 346، شباط/ فبراير 1917، ص 12.

(39) المصدر نفسه، س E، ص A18440، لجنة الرقابة ملف 346، تموز/ يوليو 1917، ص 28.

غير أن الموقف الرسمي للسلطات العسكرية والسياسية الفرنسية كان يحاول إثبات عكس ذلك بالتنصيص في الدعاية الصحافية، خصوصًا عبر الأوامر والقرارات القاضية باحترام الشعائر الإسلامية للجنود في حياتهم اليومية، خصوصًا في الأكل والتغذية: «يجب الإقرار بأن الإدارة قد قامت بمجهود حقيقي للاستجابة لطلباتنا المتعلقة بالأكل والعمل والصلوات». تلك شهادة مصالي الحاج عن أجواء رمضان في مدينة بوردو في حزيران/ يونيو 1918[40].

صدرت أوامر تمنع تقديم لحم الخنزير والخمر للجنود المسلمين[41]، كما واتخذت إجراءات ترتيبية عدة لتأمين حرية صوم رمضان، ومن ذلك تحويل قهوة الصباح إلى الغروب وتمكين الجنود من وجبة السحور، مع استصدار فتاوى تُجيز الإفطار للمجندين لأنهم في حالة سفر وحرب، وهي الفتوى التي أصدرها شيخ المذهب الحنفي في تونس محمد بيرم[42].

لا شك في أن صعوبات كبيرة واجهت تطبيق ما أقدمت عليه السلطات العسكرية من إجراءات احتياطية، للمحافظة على حرمة عقيدة الجنود المسلمين. فالرسائل المتبرمة من غياب حرمة الشعائر كانت كثيرة: «قلبي مهموم...إن الكفار يزدرون بنا ويطعموننا القاذورات... أخشى الموت وحيدًا وبعيدًا عن أهلي في أرض فرنسا»[43].

يبدو أن مكمن معاناة الجنود كان تغيّر العادات وتبدّلها. إذ شمل الأمر حتى طريقة التبول: «اعتبر نفسي فرنسيًا الآن، وأرجوك ألا تضحك، إن ما يصيبني بالقرف هو إني مجبر على التبول في وضع قائم»[44].

ساد الخوف أيضًا من استعمال الحقن الطبية، خوفًا من عدم صلاحها: «تم تلقيحنا وقد أخافنا هذا خوفًا شديدًا ثم مررنا أمام الطبيب»[45].

(40) مذكرات مصالي الحاج، ص 86.

(41) التليلي العجيلي، «السياسة الدينية لفرنسا على الجبهة تجاه التونسيين المجندين في الحرب العالمية الأولى،» حوليات الجامعة التونسية، العدد 32 (1991)، ص 198.

(42) المصدر نفسه، ص 201.

(43) الأرشيف الوطني التونسي، س E، ص A18440، لجنة الرقابة ملف 346، أيلول/ سبتمبر 1917، ص 30.

(44) المصدر نفسه، س E، ص A18440، لجنة الرقابة ملف 347، كانون الثاني/ يناير 1918، ص 6.

(45) مذكرات مصالي الحاج، ص 74.

كانت المعركة الحقيقية تتعلق بأماكن الصلاة، خصوصًا مراسم الدفن على الطريقة الإسلامية، ما حدا بالسلطات الفرنسية إلى استقدام «إطارات» دينية للفيالق 4 و15 و16 و17، التي يكثر في عديدها الجنود المسلمون. وبقرار من وزير الحرب في 27 نيسان/ أبريل 1915، استقدم سبعة أئمّة من الجزائر، أشهرهم بومزراق المقراني، مفتي مدينة الأصنام[46]. كما استقدم إمامان من تونس لتلقين الجنود شؤون العقيدة، خصوصًا القيام بمراسم الدفن على الطريقة الشرعية، واستقدم أيضًا عدلي إشهاد لتسجيل المعاملات والعقود عند المتطوعين والعملة التونسيين في المدن الفرنسية خلال الحرب، جرى انتدابهم من منطقة التراب العسكري في الجنوب التونسي لضمان ولائهم وبسبب معرفتهم بالأعراف العسكرية[47].

6- التنافس الفرنسي الألماني

كانت السلطات العسكرية الفرنسية تعلم بالدعاية الألمانية، خصوصًا ما روّج له من المعاملة الألمانية الجيدة للأسرى العرب في معسكرات الأسر، خصوصًا في معسكر ويندرسوف في مقاطعة «البافيار»[48].

ضم المعسكر في عام 1916 زهاء أربعة آلاف أسير من الجنود العرب، منهم 2500 جزائري و500 تونسي و200 مغربي، تمت معاملتهم معاملة طيبة، وجرى تمكينهم من وسائل النظافة والصحة والأكل الحلال وإقامة الشعائر الإسلامية بكل حرية، وبُني مسجد للغرض، جرى تدشينه في 14 تموز/ يوليو 1915 بحضور السفير التركي في برلين[49]. ووزعت صورة الجامع في محتشد «الهلال» في العالم الإسلامي عبر البطاقات البريدية، وكان للأمر وقع خاص، إذ سارعت السلطات الفرنسية إلى بناء جامع، ساهم فيه الماريشال ليوتي (حاكم المغرب) وغبريال الابتيت المقيم العام في تونس، علاوة على بعض الجمعيات الخيرية الفرنسية[50].

---

(46) العجيلي، «السياسة الدينية لفرنسا،» ص 180.

(47) تم إحداث خطة عدلي إشهاد بفرنسا وتمت تسمية الجيلاني بن بلقاسم بوحافة من جرجيس وأحمد بن ميلود من قبلي للقيام بالمهمة. انظر: المصدر نفسه، ص 188.

(48) Arnoulet, p. 56.

(49) العجيلي، «السياسة الدينية لفرنسا،» ص 192.

(50) المصدر نفسه، ص 192.

جرى اتخاذ قرار بناء الجامع في إطار مواجهة الدعاية الألمانية، بعد بناء جامع برلين، واتخذ القرار في أواخر عام 1915، وجرى البناء في عام 1916[51].

في 3 كانون الأول/ ديسمبر 1914، صدر قرار من وزير الحرب يضمن الدفن على الطريقة الإسلامية للجنود المغاربة، بما في ذلك الغسل وصلاة الجنازة[52]، وتخصيص مقابر إسلامية للموتى مع توحيد شكل القبر واعتماد الشاهد باللغة العربية[53].

حاولت السلطات الفرنسية في بداية عام 1916 تدارك سياستها إزاء الجنود العرب، كردة فعل تجاه الدعاية الألمانية الصاخبة، وحاولت على الأقل في الجانب الرسمي الترويج للأمر عبر الدعاية الصحافية والبطاقات البريدية التي تحاول تصوير احترام السلطات العسكرية للأعياد والشعائر الإسلامية، وعبر استحداث مستشفيات خاصة بالمغاربة.

إن المتمعن في مصادر الحرب الكبرى المختلفة يجد نفسه أمام نوعين من الخطاب، واحد تدهوري ينسب إلى فرنسا كل الشرور، خصوصًا تدنيس الشريعة وعدم احترام عقيدة المحاربين المسلمين، والآخر يبالغ في التشديد على العكس، مبيّنًا أن فرنسا احترمت الإسلام والمسلمين في المدفن والمأكل والشعائر. لا بد من تنسيب الأمر، فالموقف الرسمي للسلطات العسكرية الفرنسية لا يمكن إلا أن يكون في صف احترام عقيدة الجنود المسلمين، غير أن التطبيق وتنفيذ الأوامر يمكن أن يتغير بفعل العنصرية أو بفعل شعور المعاداة للمسلمين والعرب.

خاتمة

لا شك في أن الاستقصاء والاستزادة في موضوع الحياة اليومية للمجندين العرب خلال الحرب الكبرى ما زال يتطلب جهدًا جماعيًا للغوص في الأرشيفات

(51) Michel Renard, «Gratitude, contrôle, accompagnement: Le Traitement du religieux islamique en métropole (1914-1950),» *Bulletin de l'Institut d'histoire du temps present - IHTP, no. 83: Répression, contrôle et encadrement dans le monde colonial au XXe siècle* (Juin 2004), pp. 54-69.

(52) العجيلي، «السياسة الدينية لفرنسا،» ص 213.

(53) Renard, «Gratitude, contrôle».

المختلفة. إذ أدّت الصورة دورًا كبيرًا في التأريخ لمظاهر الحياة اليومية، وكانت مصدرنا المكمل عندما شحّت المعلومة في الأرشيفات المكتوبة.

لا ننظر بعين الرضا إلى التحاليل التي بالغت في رسم الجانب السلبي فحسب لمشاركة الجنود العرب في الحرب، خصوصًا على الجبهات الأوروبية، وركزت على ثنائية الهوية والعقيدة من خلال الاغتراب، فهناك مظاهر إيجابية لم تبرز مباشرة، لكن لاح تأثيرها بين الحربين وتبدّلت الأذواق واللهجات. وحدث نوع من الرغبة في تجاوز كل ما هو قديم، وانفتحت الأرياف بواسطة الجنود العائدين وشخصية المحارب القديم على العالم الحديث، وساهم ذلك في إيجاد رأي عام متعلق بالشأنين السياسي والوطني.

الفصل السابع

الرأي العام التونسي والحرب العالمية الأولى
الجنود أنموذجًا

بشير اليزيدي

تهتم هذه الدراسة بالرأي العام في تونس في الحرب العالمية الأولى، وبتوضيح معايشة التونسيين لهذا الحدث والقضايا التي أثارت اهتمامهم وتفاعلهم معها، ومعرفة الآثار التي تركتها الحرب في قطاعات عدة من المجتمع التونسي. وتُدرج هذه المحاور ضمن أفق أعمق، هو وضع مقاربات لتقويم هذه المرحلة من تاريخ تونس، من خلال تفاعلات الرأي العام المختلفة في تونس، وكذلك الرأي العام التونسي خارج الحدود مع الجنود التونسيين من خلال تقارير لجنة الرقابة البريدية[1]، باعتبار أن هذا الجانب من الرأي العام التونسي يكمّل الجانب المحلي ويؤثر فيه مباشرة من خلال ما ينقله من معلومات ومواقف خلال الحرب، وما حمله هؤلاء عند عودتهم من تصورات وسلوك وممارسات نتيجة اختلاطهم بفئات أخرى، وتأثرهم بعادات تنتمي إلى فضاءات ثقافية مختلفة عن بيئتهم الأصلية.

تتضمن التقارير عن الوضع في أثناء الحرب في تونس وخارجها بعض الجوانب الطريفة، إلى جانب تطرقها إلى مسائل عدة ذات أهمية خاصة، متعلقة بموضوع بحثنا، حيث يتعذر تحديد ملامح الرأي العام المختلفة في تونس مع لجم الصحافة الرسمية، إلا بالرجوع إلى الوثائق الرسمية للإدارة المحلية المدنية والعسكرية. كما ندرك أهمية هذه الوثائق، خصوصًا المراسلات، لأنها تتيح لنا الاطلاع على وضعية الجنود من الداخل، على الجوانب النفسية الذاتية للمشاركين في الحرب.

تحمل هذه الدراسة احترازات عدة، أهمها أنها لا تعكس الواقع الحقيقي لآراء الجنود بعد أن علموا بوجود رقابة عسكرية على مراسلاتهم، فقللوا منها أو امتنعوا عن تقديم معلومات مهمة واكتفوا بتصوير أحوالهم اليومية[2]. لكن، على

(1) تحوي الوثائق المعتمدة سلاسل عدة، لها علاقة بالشؤون العسكرية منها الجوانب السياسية، مثل الرقابة السياسية ومراقبة تحركات الجنود والسكان ومواقفهم إزاء الحوادث المهمة.

(2) الأرشيف الوطني، صندوق A 18، ملف 344 (1915)، ص 2.

الرغم من هذه القيود، يمكن اعتماد هذه المراسلات وثيقة بعد التمحيص والتثبت منها، وربما يصلح إدراجها بين وسائل إدراك الحقائق التاريخية.

أولًا: تشكّل الرأي العام في تونس

1- هل يوجد رأي عام في تونس قبل الحرب الكبرى؟

يكاد الاتفاق في شأن تحديد مفهوم هذا المصطلح يكون غائبًا، ويزداد التضارب أكثر عند الباحثين، فهو تارة «وجهة نظر خاصة بالسياسة العامة»، وتارة أخرى «ردات فعل المجموعة الوطنية إزاء المسائل التي تمسها مباشرة»، وطورًا «إنتاج الأفكار وإعادة إنتاجها بصفة مستمرة من أجل توجيه التصرف الاجتماعي».

يمكن اعتبار الرأي العام قوة اجتماعية ناجمة عن تشابه الأحكام والتصورات إزاء المسائل المهمة لمجموعة من الأفراد تتولى التعبير عنها بعد الوعي بذاتها. ونلاحظ أن هذه القضية تثير البعد الاجتماعي للرأي العام، ما يدفعنا إلى التساؤل عن القدرة على تحديد القاعدة الاجتماعية لرأي عام، إلى جانب كيفية مساهمة الفرد في الرأي العام؛ إذ إن المنطلق الأول هو وجود حكم شخصي مع جهد ذاتي للتفكير، وتكوّن الرأي وتبلور مع غيره من الآراء بواسطة التشابه والتمازج تنتفي الفردية في الآراء الخاصة، تتحول إلى رأي جماعي عام متخلص من أنواع تأثيرات الوسط العائلي والتربوي والحالة الاجتماعية والمادية للأفراد، «لأن الرأي العام لا يقترن بمصلحة خاصة فهو ضرورة ذهنية وتحرك عاطفي جماعي»[3].

لنا أن نتساءل، في إطار هذا العمل، إن كان تشكل رأي عام في تونس خلال الحرب العالمية الأولى أم كان موجودًا قبلها؟

من الصعب أن نجزم أن تشكّل الرأي العام في تونس بالمعنى العصري يعود تاريخيًا إلى ما قبل القرن التاسع عشر. هذا ما يجعلنا نعتبر هذا القرن والنصف الثاني منه على وجه الخصوص مرحلة حاسمة في بداية تكون مفهوم الجمهور وتطوره إلى رأي عام.

---

(3) Georges Burdeau, «Opinion publique,» dans: *Encyclopaedia Universalis*, 16 tomes (Paris: Encyclopaedia Universalis, [1968]), tome 16, p. 150.

غير أن العامل الحاسم في بداية تشكل رأي عام في تونس يتمثل في الحماية الفرنسية في البلاد التونسية في 12 أيار/مايو 1881، وما تبعها من تحولات سريعة وشاملة لكل الميادين وقطاعات المجتمع التونسي. فأدى شعور التونسيين جموعًا ونخبة بالسيطرة الأجنبية وفقدان السيادة السياسية والعسكرية وبالهيمنة الاقتصادية والاجتماعية من خلال الاستحواذ الأوروبي على الأراضي وتوطين المعمرين وتطور عدد الجوالي الأجنبية وما تبعها من تحولات لغوية وأخلاقية وثقافية وعقائدية ولّدت وعيًا بالذات وبالآخر وشكل ذلك في ضوء بداية ظهور التعليم العصري في الإيالة المحمية أول ردة فعل إزاء السياسة الاستعمارية. فضلًا عن ذلك، لا بدّ من الإشارة إلى تنوّع ميدان الصحافة ودعمه في تونس قبيل الحرب العالمية الأولى: من الصحافة الاستعمارية إلى الصحف الصادرة باسم التوجهات السياسية الفرنسية إلى جانب الصحافة الإيطالية واليهودية والصحافة التونسية، الناطقة بالعربية أم الفرنسية. كما لا يفوتنا أن نؤكد تعدد المؤسسات التعليمية والثقافية.

من خلال ما تقدم، نلاحظ أن مرحلة 1900-1914 شهدت تحولات حاسمة في تطور السياسة الاستعمارية وتعمّق الحدث الوطني، ما شجع على ظهور الرأي العام الذي أصبح ممكنًا رصد تجلياته المنوّعة، وبالتالي تحرك الرأي العام المحلي في سلسلة من الحوادث وردات الفعل الشعبية، التلقائية منها والواعية.

2- العناصر الفاعلة في الرأي العام التونسي

تأثر الرأي العام في تونس خلال الحرب العالمية بنوعين من العوامل، داخلية وخارجية، حدّدا مدى تماسكه وإقباله على التفاعل. من الداخلية نذكر:

- إعلان الحرب وتبعاته، وشمل جميع الأهالي التونسيين، إذ بدأت فرنسا منذ صدور أمر وزارة الحرب في 10 آب/أغسطس 1914 بتجنيد التونسيين والسماح للتونسيين المتطوعين الذي يسمح سنّهم «بالانخراط ضمن الوحدات العسكرية الفرنسية في نطاق وحدات عادية أو ضمن اللفيف الاستعماري»[4].

(4) أرشيف الخارجية الفرنسية، رصيد المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، البكرة P.80، وثيقة 80.

وسارعت فرنسا في نقل الجنود من ميناء بنزرت، وسرعان ما وجد سكان الإيالة أنفسهم في خضم معارك الحرب الكبرى، واتخذت السلطات قرارات تنظيمية طالت أوجه الحياة العامة على اختلافها في فترة الحرب، ابتداءً بأوامر الممنوعات. عكست هذه الأوامر والقرارات استعداد السلطة لتوظيف قدرات البلاد في تطويع الرأي العام وقمعه إن لزم الأمر، وأحدثت نوعًا من انكماش مظاهر التواصل بين الأهالي، خصوصًا مع فرض رقابة مشدّدة على الأنباء والصحف خشية وصول أخبار الحرب التي من شأنها أن تثير الرأي العام.

لكن، ما لبثت معارك الحرب التي اقتصرت في البداية على أوروبا، والتي بدأت أصداؤها تصل إلى تونس، أن اتسعت في نهاية عام 1914 وبداية عام 1915 لتطرق أول مرة شواطئ البلاد التونسية وحدودها، انطلاقًا من المقاومة الليبية ضد الجيش الإيطالي وأثرها المباشر في مناطق الجنوب التونسي من جهة، وظهور نشاط الغواصات الألمانية ونسف بواخر عدة، وبذلك تناقلت الأوساط كلها الأنباء بسرعة مذهلة وتفاعلت قطاعات الرأي العام كلها مع هذا الواقع الجديد الذي اقترن بتطور الدعاية الألمانية والتركية وبداية الدعاية المضادة الفرنسية والحليفة لتجعل الرأي العام في تونس متتبعًا بكل اهتمام جميع المستجدات على الرغم من الرقابة الحديدية لسلطات الحماية[5].

اقتصرت هذه الرقابة على الشهور الأولى من الحرب، لأن وصول أخبار هول المعارك وأعداد القتلى في صفوف المجندين الأهالي مع عودة الجرحى الأوائل والمعوّقين من الجبهة أثّر بصفة عكسية، فبدأ التململ ونشط «الهاتف العربي» إلى درجة أن المقيم العام أبرق إلى السلطة العسكرية في مركز تجميع الجنود في مرسيليا يطلب «الامتناع الموقت عن بعث الجرحى والجنود المسرحين لكي لا يؤثروا على معنويات الجنود الجدد والأهالي»[6].

(5) وهي سياسة سلكها المقيم العام حفاظًا على نجاعة إدارة الحماية في هذه الأوضاع الاستثنائية المتسمة بتجنيد عدد كبير من موظفي الإدارة الفرنسية وتعبئتهم ضمن وحدات الجيش الفرنسي ومصالح إدارة جيش الاحتلال.

(6) أرشيف وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية مودع في المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، بكرة 493، مراسلات المقيم العام، وثيقة 8.

3- الواقع الاجتماعي والاقتصادي

سلكت سلطة الحماية في هذا الباب سياسة حذرة، وسعت إلى تقديم مساعدات مادية، خصوصًا خلال سنوات الجفاف وتأزم الوضع الاقتصادي، وتهدف من وراء ذلك إلى كسب الأهالي واحتوائهم، إلا أن تعكّر الأوضاع منذ عام 1917 جعلت الرأي العام يتحرك من جديد. وبعد ملامح الرضى، تراكم التذمر وتعددت المظاهر المطلبية واحتدّت ردات الفعل.

من العوامل الخارجية، نذكر أن ما يشد انتباه الرأي العام في تونس هو بالطبع القتال الدائر وتطور العمليات على الجبهات. كان الاعتقاد السائد في البداية أن التفوق معقود لفرنسا وحليفاتها، غير أن فشل الهجمات الأولى أدخل الشك والريبة إلى القلوب، وعمّق الشعور بالخيبة من خلال وصول أنباء المعارك عن طريق الجنود ومراسلاتهم، وعن طريق الجرحى والمسرحين برخصة، إذ يتحول الجندي المسرح إلى ناقل أنباء خطر «فتفتيش أحدهم مكّن من حجز ما لا يقل عن 54 رسالة كان يخفيها ويحملها إلى أقارب رفاقه من المجندين»[7].

بلغت أصداء الحرب الإيالة من خلال الصحافة الفرنسية، وما تسمح به مؤسسة الرقابة من بيانات صادرة في صحيفتي **الزهرة** و***La Dépêche Tunisienne***.

إلى جانب الوقع المعنوي للمعارك والقتال الدائر في الجبهة الفرنسية، تلاحقت الحوادث مؤثرةً في توجهات الرأي العام في تونس، أبرزها دخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا، وإعلان السلطان العثماني الجهاد، وبصفة خاصة حملة الدردنيل ابتداء من شباط/ فبراير 1915، ومشاركة الفرنسيين في الحرب ضد «دار الإسلام واعتبرها المقيم العام من أخطر الحوادث تأثيرًا في الرأي العام المحلي. كما نذكر في هذا الصدد دخول إيطاليا الحرب إلى جانب مجموعة الوفاق في ماي 1915، خصوصًا انتصارات المجاهدين الليبيين ضد الإيطاليين مع تدعيم دعاية الجامعة الإسلامية في اتجاه تونس من خلال الدعاة الأتراك والألمان، ما أثار اختلاجات جديدة في صلب الرأي العام المحلي وشعر المقيم العام بالظرف الدقيق عندما كاتب وزارة الخارجية بقوله: «نقترب من مرحلة خطرة أن انتصارات

---

(7) أرشيف وزارة الشؤون الخارجية، وثيقة 157.

الطرابلسيين تحدث وقعها هنا وأهالي الجنوب يتفاعلون مع هذه المحاولات، وأن وجود أفراد من جيش السلطان على مقربة من التراب التونسي يجعل الخطر حقيقيًا. وكل هذا نتيجة مباشرة لتلك القضية الملعونة: حملة الدردنيل. أما تحالفنا مع الإيطاليين فكانت لنا بمنزلة الضربة القاضية إزاء المحليين»[8].

نلمس من خلال ما سبق أن وقع الحوادث المجاورة والبعيدة متينة الأثر في الأهالي وأنها تغذي الأقاويل وتناقل المعلومات بشكل مثير في نظر سلطة الحماية.

تواصلت تفاعلات الرأي العام في تونس مع الأصداء الخارجية عند دخول الحرب في المنعرج الحاسم في مرحلة 1917/ 1918، خصوصًا انهزام تركيا وألمانيا، ما أثار نوعًا من الإحباط في صفوف الأهالي. وبحسب المقررين في لجنة الرقابة البريدية، كانت مظاهر الاغتباط محدودة. وسرعان ما اختفى هذا الإحباط مع ظهور دعوات الرئيس الأميركي ويلسون من أجل سلم دائم وحق الشعوب في تقرير مصيرها، ومع تجاوب الرأي العام المثقف من بقايا حركة الشباب التونسي، التي بدأ تتكثيف اتصالاتها مع عقد مؤتمر الصلح في فرساي (1919).

خلاصة القول أن مشاغل الرأي العام في تونس خلال الحرب منوّعة، تنطلق من حدة الحرمان وتعمق المشكلات الحياتية اليومية لتصدم بتسلّط السلطة وإجراءاتها المقيتة، ثم لتنفتح على صدى حرب الغواصات ووقائع الثوار الليبيين وتحركات خليفة بن عسكر، وتتكدر من حمل الحرب إلى دار الإسلام، أي الباب العالي ولتنشرح في الوقت نفسه من وقائع معركة الدردنيل، ثم لتنقبض من مصيبة «فردان» وارتفاع قائمة القتلى من الجنود التونسيين، ثم لتنتبه إلى خروج روسيا من حلبة الصراع ودخول الولايات المتحدة الحرب ولتأمل في غد أفضل مع دعوات الرئيس ويلسون. وعلى الرغم من هذا التنوع، يبقى وقع المعارك والوضعيات المترتبة عنها من المشاغل المركزية لتهييج مشاعر الأهالي ولتشكل أرضية اهتمامات تولدت منها تفاعلات كثيرة. غير أن هذه الملاحظات لا تعني انحسار أثر الحرب في العناصر المحلية فحسب، وإنما كان لها بالغ الأثر في باقي الجوالي الأوروبية الموجودة في الإيالة.

---

(8) أرشيف وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية، وثيقة رقم 157.

ثانيًا: تفاعل الرأي العام في تونس مع الأوضاع العسكرية

بالنسبة إلى الرأي العام المحلي، كانت الأوضاع العسكرية مهمّة جدًا خلال فترة الحرب، انعكست مباشرةً على أغلبية العائلات في الأرياف التونسية، وشملت جميع السكان إن بسبب التجنيد أو بانتداب اليد العاملة وتوجيهها إلى فرنسا أو من خلال حرب الغواصات أمام السواحل التونسية وآثارها في حياة السكان ومعنوياتهم، إلى جانب ما أفرزته أطوار الحرب وردهاتها قرب الحدود التونسية الجنوبية من تململ تحول في عام 1915 انتفاضةً شاملةً، شارك فيها عدد من قبائل الجنوب، واستوجبت مرابطة قوات عسكرية كبيرة في المكان طوال الحرب العالمية الأولى.

1- الأهالي والتجنيد

يشير عدد من الشهادات إلى قلة حماسة الأهالي في تونس للأعمال العسكرية والحربية عمومًا، على الرغم من أن التجنيد الإجباري ضمن الحصة السنوية موجود منذ عهد البايات وقبل الحماية. وبعد إعفاء سكان الحواضر الكبرى وخريجي الجامع الكبير واليهود من الخدمة العسكرية، خشيت الأوساط الريفية التجنيد في أثناء عملية القرعة التي تنظم سنويًا لحصص الشبان في العشرين، وسعت - حين سمحت إمكاناتها المادية - إلى دفع تعويض الخدمة وقدره ألف فرنك، وارتفعت هذه القيمة بالتدرج مع تكثف عمليات التجنيد. يمكن اعتبار امتداد مدة التجنيد طوال ثلاثة أعوام، وما يعنيه ذلك من حرمان بالنسبة إلى أفراد العائلة ومن عدم المساهمة في الأعمال الفلاحية من بين عوامل التذمر، إلى جانب بقاء الجندي المسرح بعد الخدمة العسكرية مدة سبعة أعوام ضمن جيش الاحتياط. سادت هذه الاحترازات من التجنيد في فترات السلم، لكنها اتخذت مظهرًا أعمق في فترات الحرب، بعد ترحيل المجندين من الأهالي إلى جبهات القتال في فرنسا. أثر تجنيد الأهالي خلال الحرب عميقًا في الرأي العام، وذلك لاعتبارات عدة: أولًا لكثافة هذا التجنيد، إذ اعتاد التونسيون منذ حملة المغرب الأقصى في عام 1912، في نطاق مواجهة انتفاضة الأهالي ضد الاحتلال الفرنسي - الإسباني، أن يشمل التجنيد بالقرعة 4212 مجندًا سنويًا، لكن منذ عام 1916 ارتفع العدد إلى 5272 مجندًا، ثم ارتفع إلى 14954 مجندًا في عام 1917، لينخفض إلى 11741 في

عام 1918[9]؛ ثانيًا لتأثير هول المعارك وارتفاع عدد القتلى والجرحى ضمن وحدات الجيش الرابع «للتيرايور التونسيين» (4ème RTT). بلغت هذه المعلومات الأوساط المحلية عن طريق المراسلات، وعن طريق الجنود المسرّحين برخصة أو الجنود الجرحى. ويؤكد المقيم العام «أن المعلومات والتحاليل التي يقدمها هؤلاء المسرّحون تشوش الحالة النفسية للجنود الجدد هنا في تونس وتُدخِل الهلع وتُربِك الرأي العام لما تحمله من معلومات مفزعة»[10]. وعلى الرغم من محاولات الإدارة المدنية والقيادة العسكرية والرقابة البريدية الحد من هذه الأنباء، فإنها كانت تصل بصفة أو بأخرى عن طريق المراسلات والرموز المعتمدة وعن طريق تسرب المعلومات مع الجنود المسرحين وباعتراف المقيم العام أن حجم الخسائر التونسية في الجبهة كان مرتفعًا[11]. أحبطت هذه الخسائر كثيرًا الجنود والعائلات، وأصبح التجنيد في نظر الأهالي «يساوي الحكم بالإعدام، لذا تراهم يتداينون من أجل تقديم التعويض المالي»[12]؛ ثالثًا لتأثير الدعاية الألمانية والتركية المستندة إلى تيار الجامعة الإسلامية ونشاط الدعاة في صفوف الجنود المحليين قبل رحيلهم. ويؤكد المقيم العام وجود هذه العناصر المندسة بأعداد وافرة في بنزرت وحلق الوادي، خصوصًا في الأماكن العمومية كالمقاهي، وتقوم بتشويش آراء الجنود الشبان[13]. وتعتمد هذه الدعاية على أن الانخراط و«المشاركة إلى جانب الكفار في هذه الحرب كفر يجلب لصاحبه غضب الله، وأن الجنود الذين يسقطون في ساحة الوغى إلى جانب أعداء الدين سيصلون نار جهنم إلى الأبد...»[14]. شعر الأهالي في تونس بالذنب نتيجة مشاركتهم في هذه الحرب إلى جانب «أعداء الدين وأعداء الخليفة العثماني». ونجد كثيرًا من الاعترافات، على الأقل في بداية الحرب، في شأن الرأي العام للجنود التونسيين: «... إذ نجحت

(9) Daniel Goldstein, *Libération ou annexion: Aux Chemins croisés de l'histoire tunisienne (1914-1922)* (Tunis: Maison tunisienne de l'édition, 1978), p. 165.

(10) أرشيف الخارجية الفرنسية، رصيد المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، بكرة عدد 493، مراسلات القيم العام، وثيقة عدد 16.

(11) المصدر نفسه، وثيقة عدد 208.

(12) Goldstein, p. 169.

(13) أرشيف الخارجية الفرنسية، وثيقة عدد 8.

(14) أرشيف الخارجية الفرنسية، رصيد المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، بكرة عدد P 80، وثيقة عدد 41.

المحاولات الدعائية لأعدائنا في صفوف المجندين من شمال أفريقيا وإثارتهم ضدنا، خصوصًا في صفوف التونسيين...(إذ) ترددوا في مناسبات عدة لإطلاق النار على الألمان أصدقاء سلطان اسطنبول مثلما يزعمون»[15].

تتمثل أول التفاعلات الرافضة للتجنيد في رفض المشاركة في عملية القرعة عن طريق التعويض المالي على الرغم من ارتفاع هذه القيمة[16]، والتملّص من الخدمة بحجة حالة كفالة الجندي لعائلته أو وضعيته كرب عائلة متعددة الأفراد، وسعي بعض المجندين إلى تسجيل أبناء وهميين والحصول بتقديم الرشوة إلى الشيوخ على مستندات تثبت أنهم أباء لستة أطفال وما أكثر، وتسجيل المجندين ضمن جيش الباي بهدف البقاء في تونس وعدم التوجه إلى جبهات النار، والفرار والعصيان.

أمام احتمال نقص عدد الجنود المتوجهين إلى فرنسا، قررت السلطة في عام 1917 إلغاء التعويض المالي ليُوجّه إلى الجبهة كل من سُحب ضمن عملية القرعة، أما من بقي من هذه العملية فيقع توجيههم كأجراء إلى فرنسا.

2-حالات الفرار والعصيان والتمرد

لا تتوافر إحصاءات رسمية عن حالات الفرار من التجنيد[17]، وهي لا تعتبر خطرة إلا إذا صارت جماعية بتحالف عناصر القبيلة مع الفارين. تبيّن الملفات الخاصة بالفارين أن هذه الظاهرة ليست معزولة وإنما شملت قادة والمنطقة العسكرية في الجنوب. كما تتضمن الملفات مئات حالات فرار، إما من خلال تقارير السلطة الجهوية أو الشكاوى والوشايات، وإما الحالات التي يمكن أن تكون فردية أو جماعية[18]. ويمكن ألا يتعدى الفرار بضعة أيام وينتهي بتسليم

(15) أرشيف وزارة الشؤون الخارجية، وثيقة عدد 35.

(16) ارتفعت القيمة من 1432 فرنك في عام 1914 إلى 1500 و2000 فرنك في عامي 1916 و1917.

(17) Goldstein, p. 171.

(18) مثال فرار أربعة جنود من المجموعة السابعة للمدفعية في بنزرت في 4 تشرين الأول/ أكتوبر 1914 ولجوئهم إلى عائلاتهم في جهة سجنان. انظر: الأرشيف الوطني التونسي، صندوق A 18، ملفات الفارين ملف 105، تقرير 19 و23.

الجندي نفسه إلى السلطة المحلية، خصوصًا عند اتخاذ السلطات إجراءات إدارية ضد عائلته. لكن قد سيتمر الفرار لأعوام مهما كانت حدة الإجراءات المتخذة، وفي الأغلب يتحول الفار من الخدمة إلى متمرد «خطر» في نظر السلطة. ومن أبرز الأمثلة في هذا الشأن شاب فار أصيل قبيلة بني يزيد «هو محمد الدغباجي الذي فر من الخدمة والتحق بالثوار الطرابلسيين في واقعة الذهيبة في 17 أيلول/ سبتمبر 1915 وساهم إلى جانب خليفة بن عسكر في المقاومة واستمر على حياة التمرد والعصيان ومواقعة الجيش الفرنسي من الحدود الجنوبية إلى جبال قفصة مرورًا بالحامة، واتصل بالثائر الشهير البشير بن سديرة الهمامي في بداية 1919، وتم إيقافه في نالوت في ماي 1922 وأعدم في 1 مارس 1924»[19].

تصبح حالة الفرار خطرة إذا أخذت صبغة جماعية، خصوصًا إذا احتفظ الجندي بسلاحه واستعمله لإعلان عصيانه ضد السلطة، وإذا اتخذ التحرك صفة تمرد جماعي يهدد الخطط الاستعمارية. مثّل هؤلاء الفارون في واقع الأمر نواة الحركة الوطنية المسلحة التي أطلق عليها مصطلح «الفلاقة». ومن بين هذه التحركات يمكن ذكر العصيان الكبير للجنود في بنزرت في خريف 1914 وانتفاضة عناصر من قبيلة الكتاتنة في جهة صفاقس خلال الفترة نفسها تقريبًا، أي بين تشرين الثاني/ نوفمبر 1914 وشباط/ فبراير 1915.

تعددت حالات التمرد والعصيان في المناطق الداخلية، في الوسط والجنوب، واقترنت بانتفاضة الجنوب في صيف 1915، وبحوادث الجهاد ضد الإيطاليين في طرابلس الغرب. لكن، هل تعني هذه التفاعلات كلها أن الأهالي كانوا قادرين على إعلان العصيان والتمرد الجماعي ضد السلطة الحامية؟ في الواقع، كان الأمر صعبًا بسبب انعدام القيادة المؤطرة، وعدم توافر برنامج وخطة واضحَين، إذ بقيت أغلبية العناصر مشدودة إلى الحوادث وتطوراتها.

ثالثًا: تطور الرأي العام التونسي خارج الحدود

تسببت الحرب العالمية الأولى بتجنيد عدد من الشباب والكهول التونسيين ونقلهم إلى خارج البلاد التونسية ليساهموا في تقاتل القوى الكبرى المتنازعة.

---

(19) محمد المرزوقي، الدغباجي محمد بن صالح الزغباني، معارك وأبطال؛ 1 (تونس: مكتبة المنار، 1968)، ص 41، 54، 57 و93.

أفرز هذا الوضع مستجدات عدة على الصعيد المجتمعي، لما مثّله هذا الخروج وارتفاع عدد القتلى والمشوّهين بين عناصر الـ «تيرايّور» أو «الرماة المناوشين» التونسيين من نزيف بشري بالنسبة إلى الإيالة، إلى جانب رحيل آلاف الأجراء التونسيين إلى فرنسا. لعل أهم إفرازات هذا الواقع الجديد تحوّل هذه الجموع من التونسيين إلى عنصر فاعل في الرأي العام التونسي، من خلال اطلاعهم على الوقائع والأنباء من طريق مراسلات المجندين إلى ذويهم. وبذلك، يتضاعف دور هؤلاء، فهم جزءٌ من مكونات الرأي العام التونسي، لكن وجودهم خارج الحدود ضاعف تأثيرهم في الرأي العام المحلي، فهم عين هذا الرأي العام التي ترى ماذا يدور خارج الحدود، وهم في الآن نفسه جزء من هذا الرأي العام، يخضعون كذلك للعوامل نفسها المؤثرة في تفاعله مع القضايا المطروحة. مكّنتنا وثائق لجنة الرقابة العسكرية من الاطلاع على مراسلات الجنود التي أرسلت رسميًا في تموز/ يوليو 1915 في تونس، ومن دراسة تفاعلات هذا القطاع المهم المختلفة من الرأي العام التونسي مع حوادث الحرب العالمية.

1- وضع العساكر العام: التجنيد والسياسة الفرنسية تجاه المجندين

يخضع تجنيد التونسيين ضمن وحدات جيش الاحتلال الفرنسي منذ الحماية لقانون 12 كانون الثاني/ يناير 1892 الذي يسمح بتجنيد عدد من الأهالي البالغين السن القانونية من خلال القرعة، وتوجيههم إلى الوحدات العسكرية المتركبة من الفيلق الرابع لـ «تيرايور» والفيلق الرابع للصبايحية. كما وقع تجنيد التونسيين في الكتيبة الثالثة للمدفعية وفي فيلق البحرية. تدوم حصة التجنيد 3 أعوام ويبقى الجندي على ذمة الاحتياط 7 أعوام. تفسر هذه القوانين كلها ارتفاع عدد الجنود عندما أعلنت التعبئة العامة في بداية آب/ أغسطس 1914 تحسبًا لاندلاع معارك الحرب الكبرى. وبلغ عدد المجندين التونسيين خلال الحرب الأولى 73000 مجند.

جمعت فرنسا المجندين التونسيين والمسلمين عمومًا في ثلاث مراكز كبرى في جنوب فرنسا، على مسافة قريبة من ميناء مرسيليا، وهو أهم ميناء لإنزال المجندين وترحيل الجرحى. وهذه المراكز: إكس (Aix) وآرل (Arles) وآليه (Allais)، إلى جانب مركز تاراسكون (Tarascon). ونُقل معظم الجنود التونسيين

إلى مركزي آرل وآليه، حيث تتلقى عناصر الحصة الجديدة التدريب بعدما كان يتم ذلك في بنزرت. لكن التمرد الذي شهدته تلك المدينة في تشرين الثاني/ نوفمبر 1914 دفع القيادة العسكرية إلى اتخاذ هذا القرار. كما جرى توجيه عدد من الجنود إلى الجبهة الشرقية نحو الدردنيل ثم إلى اليونان ومصر والحجاز، منذ تشرين الثاني/ نوفمبر وكانون الأول/ ديسمبر 1916.

في بادئ الأمر، وجدت السلطة العسكرية الفرنسية صعوبات في التعامل مع التونسيين الذين «لا يُظهرون حماسة كبيرة للتحول إلى جبهات القتال، ويتذمرون كثيرًا من وجودهم خارج بلادهم...»[20]. وبحسب التعليقات على هذا المقتطف، عدم الإقبال هذا مرتبط بالدعاية التركية - الألمانية على جبهات القتال. وتذكر المصادر أن الجنود الألمان في الخنادق المواجهة للخنادق الفرنسية، حيث تُرابط أغلبية الجنود المسلمين في مقدمة الجبهة، يرفعون العلم الأخضر فوق خنادقهم في إشارة إلى تحالفهم مع السلطان، وأن أي قصف على مواقعهم يُعد اعتداءً على السلطان حامي الإسلام ورايته الخضراء[21].

يمكن إدراج ردات الفعل هذه في نطاق وعي التونسيين أنهم لا يدافعون عن وطنهم، وأن مشاركتهم في هذه الحرب كانت مفروضة من سلط الحماية، وهذا ما ذكره المقيم العام في إحدى مراسلاته: «أصبحت مجموعات التيرايور تضم عناصر غير جادة وقليلة الرغبة في الحركة والقتال، ما جعل اللواء القائد العام يذكر في تقاريره أن هذه الجموع لا تقاتل من أجل فكرة غامضة اسمها الوطن الفرنسي وإنما تقاتل من أجل إظهار فحولتها أمام القبيلة عند العودة إلى الوطن»[22].

حاولت فرنسا تحسين أوضاع الجنود التونسيين بمنح مالية وبتنظيم مسالك لتوزيع الملابس الصوفية والمواد الغذائية المحلية كالتمور والكسكسي والتبغ، في إجراءات مادية صاحبتها قرارات ذات بعد معنوي كبعث مصلحة خاصة بشؤون الأهالي في مراكز تجمع الجنود والسعي إلى تقديم الخدمات الصحية بسرعة، وتنظيم حديقة فسيحة للجرحى الذين هم في حالة نقاهة. كما حرصت القيادة العسكرية على تطبيق التعليمات الشرعية في شأن دفن المسلمين، وأنجزت

(20) أرشيف الخارجية الفرنسية، رصيد المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، وثيقة عدد 109.

(21) المصدر نفسه، وثيقة عدد 201.

(22) المصدر نفسه، البكرة عدد 493، وثيقة عدد 50.

مقابر خاصة بالمسلمين الذين سقطوا في ساحة القتال في فرنسا، ووجهت أئمة للإشراف على هذه المسألة.

من السبل التي سلكتها السلطات الفرنسية لاحتواء ردات فعل المجندين المسلمين وتكثيف الدعاية المضادة في صفوفهم اعتمادها على أصحاب وقادة الطرق الصوفية المخلصين[23].

إلى جانب هذه الدعاية «التقليدية»، أطلقت فرنسا دعاية «متطورة» بدءًا بنشر الصحافة الرسمية والدعائية «أخبار الحرب»، وبث المقاطع السينمائية عن أصداء الحرب من وجهة نظر القوى الحليفة، وتصوير مقاطع عن المستشفيات الفرنسية وكيفية معالجة الجرحى، لتبث في تونس. كان لها صدى إيجابي جدًا، وكان التركيز في هذه الأفلام على دور النساء، أي الممرضات في الحد من آلام الجرحى، وهذه وسيلة ذكية للدعاية واحتواء الجندي وعائلته وباقي الرأي العام المحلي. ففي تقرير لقائد الكاف نقرأ: «الحالة السياسية بالعمل لا تزال على أحسن ما يرام، وزادها حسنًا ما أشاعه بعض جرحى العساكر الراجعين من ميدان القتال لأهاليهم من حسن المعاملة التي لاقوها من إخوانهم الفرنسيين، خصوصًا الممرضات اللاتي وجدنهن في تضميد جروحهم وتهيئة مضاجعهم أكثر من الأمهات شفقة وحنانًا. وكان لهذه الإشاعة تأثير حسن بين طبقات الأهالي»[24].

لكن هل مكّنت هذه العدة كلها من الإجراءات والممارسات للسلطة الاستعمارية من تخدير فعلي للرأي العام التونسي خارج الحدود؟

2- الرأي الجنود العام من خلال مراسلاتهم

نصّت تعليمات وزارة الحرب وإدارة جيش الاحتلال عند إرسال لجنة الرقابة العسكرية للمراسلات والبرقيات على ضرورة الاطلاع على آراء الجنود المسلمين من شمال أفريقيا، وعلى حظر الرسائل التي تتضمن أسرارًا عسكرية وتوجيهات دعائية ضد المصالح والسياسة الفرنسية، والتي تحمل أخبارًا مغرضة أو مفصلة عن وقائع الحرب، وذلك في محاولة لمعرفة آراء الجنود بالجوانب السياسية والعسكرية للحرب الكبرى.

---

(23) أرشيف الخارجية الفرنسية، البكرة عدد P81، وثيقة عدد 62.

(24) الأرشيف الوطني، صندوق عدد 18 A، ملف 162 الكاف، تقرير 23/ 1/ 1915.

أ- المراسلات: تصريح ثم تلميح

يذكر مقرر لجنة الرقابة البريدية منذ التقرير الثاني (10-20 تشرين الأول/ أكتوبر 1915) «أن مراسلات الجنود من الجبهة الفرنسية قلت عدديًا وأنها أصبحت نوعًا من الاصطلاحات والرموز الغامضة لمحاولة مراوغة لجنة الرقابة»[25]. معنى ذلك أن هذه المراسلات تضمنت منذ اندلاع المعارك وحتى تشرين الأول/ أكتوبر 1915 مواقف وآراء الجنود بكل وضوح ومن دون أي رقابة «ذاتية». لكن، منذ شعر الجنود بوجود لجنة الرقابة، ومنذ أن بلغتهم توصيات وتهديدات من قيادة الجيش بضرورة الحد من توجيه معلومات دقيقة عن أماكن إقامتهم ونوعية أسلحتهم وكيفية تنظيم استحكاماتهم الدفاعية، بدأ الجنود التونسيون يبخلون في تصوير واقع الحرب وفي التعبير عن هوسهم ومواقفهم تجاه الصراع الدائر. ويبدو أن إجراءات قمعية (كالسجن مثلًا) اتخذت ضد الجنود بسبب مراسلاتهم، فعمدوا إلى الحديث عن الطقس والواقع المعيشي في الجبهة والثكنة، يستعملون رموزًا مثل الهلال والنجم، أي إنهم يساندون الدولة العثمانية، كما يستعملون رمز القاطع والمقطوع (x) للدلالة على هزيمة الجيوش الفرنسية. كما تتضمن مراسلاتهم معلومات عن عدد القتلى بذكر عدد من الأرقام في الهامش، وفي نهاية الرسالة وحتى على وجه الظرف. لكن، على الرغم من هذه الاصطلاحات والرموز، يتمسك عدد من الجنود بالإدلاء بآرائه إزاء القضايا المهمة، ويعبر مباشرة عن مشاغله وتذمره من الوضع على الجبهة.

ب- الجنود والجبهة

النار ورائي ولو تأخرت التهمتني (الجيش الفرنسي والضباط الساهرون على مراقبة العمليات)، وأمامي شياطين لا بد من حصدهم (الألمان)، وفوق رأسي طيور نحس ترغب بهلاكي (الطائرات المغيرة)، وتحت أقدامي سيوف مهندة تحجز طريقي (الألغام)[26].

تصوِّر هذه المقتطفات، من رسالة الجندي علي بن ساسي القفصي من

(25) الأرشيف الوطني، ملف 344، ص 1.

(26) الأرشيف الوطني، لجنة الرقابة، تقرير تشرين الأول/ أكتوبر 1917، ص 8.

الجيش المختلط الثالث إلى عائلته في القيروان، بوضوح معاناة الجنود التونسيين على الجبهات الفرنسية. لا يدعو الأمر إلى الغرابة لأن مجموعات الـ «تيرايور» التونسيين أرسلوا في الأغلب إلى الجبهات «الساخنة»، ووُضعوا في مقدم الجيوش الفرنسية. ويصحّ الوصف الذي اعتمده عدد من الدعاة والمعارضين بقولهم إنهم، أي المجندين التونسيين، يُوجّهون «إلى المجزرة» ويُلقى بهم في «أتون الحرب»، أو يكونون «لحمًا للمدافع». حرص القادة الفرنسيون في هذه المناطق الساخنة بالذات على استعمال وحدات الـ «تيرايور التونسيين» في الخطوط الأمامية والخنادق المتقدمة ووحدات الهجوم في حرب مواقع، أي بمواجهة الموت الحتمي، وهذا ما يفسر ارتفاع عدد القتلى والجرحى بينهم، إذ قدّرت نسبة القتلى بخمس عدد الجنود، أي حوالى 15000 قتيل من أصل 73000 جندي[27].

يفسر هذا الواقع الأليم، والتضحيات الكبيرة التي قدّمها الجنود التونسيون، تضمينهم مراسلاتهم تذمّرًا من هول المعارك، ومن أحوال القتال القاسية، خصوصًا في الخنادق وفي فصل الشتاء، وملَلًا. تصاعدت وتيرة التذمر في عامي 1916 و1917، بسبب رفض تسريح المجندين المنتهية خدمتهم، ورفض الإجازات والعطل ومنع ترحيل الجنود المسرحين برخصة إلى تونس. في رسالة الجندي بن نصيب من فيلق المدفعية في الجهة 13 نقرأ: «... إنني صبور جدًا وأطلب من الله أن أتجلد أكثر لأن قلقي يزداد مع الأيام. لذا أطالبكم بمساعدتي عن طريق المراسلة. إنني يائس من العيش في هذه الخنادق التي تعمق غربتنا. إن حياتنا بائسة والوقت الذي نقضيه فيها لا يحتمل خاصة ونحن مجبرين على البقاء في حالة استنفار طوال الوقت...»[28].

أمام تذمر الجنود، وبداية ظهور حركات تمرد في الجيش الفرنسي، وتخوف السلطة الفرنسية من حوادث مماثلة، عملت هذه السلطة على تنظيم التسريح بصفة جادة أكثر، كما رفعت منحة الجندية من 0.22 فرنك إلى فرنك واحد في اليوم)، ووعدت الجنود التونسيين بأولوية منحهم الوظائف الإدارية والأراضي الفلاحية، وبتسهيل حصول المجندين المسلمين من شمال أفريقيا على الجنسية

---

(27) Goldstein, p. 176.

(28) الأرشيف الوطني، صندوق A 18، تقرير أيار/ مايو 1917، ص 9.

الفرنسية. غير أن المقيم الفرنسي العام في تونس اعترض على هذا القرار بدعوى أن تجنيس الأهالي مسموح به من ذي قبل لفائدة المتطوعين في الجيش، لكن لم يعط الأهداف المرجوّة «لأن التونسي المتجنس ينعت بالمطورن ويمكن أن يسبب ذلك اضطرابات غير محبذة، كما أن المتجنس التونسي يستغل القوانين الفرنسية خدمة لمصالحه لكنه يتمسك بتطبيق القوانين الشرعية فيما يتعلق بالأحوال الشخصية كالميراث والطلاق وتعدد الزوجات...لذا أرى من الأفضل اعتماد الأوسمة والمنح كتشجيع للجنود المحليين...»[29].

رابعًا: آراء الجنود ومواقفهم السياسية من خلال مراسلاتهم

لا تختلف مواقف الجنود في هذا الحقل كثيرًا عن باقي الرأي العام التونسي في عدم الرضى عن خوض الحرب إلى جانب فرنسا ضد السلطنة العثمانية، إذ خضع الجنود لدعاية تيار الجامعة الإسلامية والدعاية الألمانية.واللافت في هذا الصدد هو تأثير الدعاية الألمانية على الأقل في بداية الحرب، أي قبل منعرج عام 1917. ويعزى هذا الأمر إلى أن لتلك الدعاية الوقع الكبير في صفوف الجنود، خصوصًا مع فشل فرنسا في التفوق السريع ضد الألمان، وإظهار هؤلاء قدرات حربية أثرت بصفة عميقة في نفوس الجنود المحليين بفرنسا، إذ اعتقد معظمهم بالنصر الألماني، لذا نجده يمجد القوة الألمانية ويطنب في مصلحة القيصر الألماني، وفي نسبه «المسلم» - بحسب اعتقادهم - فيسمونه «الحاج قيوم» في مراسلات عدة. وفضلًا عن ذلك، يذكر مقرر لجنة الرقابة في الأعوام 1915 و1916 وبداية 1917 تكثف توجيه الصور الدعائية الألمانية التي تحمل صورًا للإمبراطور وعائلته. ويذكر المقرر أن تاجرًا يهوديًا في قابس تلقى طردًا (وقع حجزه) يحمل أكثر من 400 صورة للإمبراطور. وفي هذا الصدد، وجّه رئيس فرقة جنود المسمى عمر بن محمد إلى أحد أقربائه في تونس بطاقة كُتب عليها: «إنك بمشاهدة هذه الصورة للقيصر تشاهد ممثل الإسلام والمسلمين»[30]، أي إن عددًا من المجندين يعتقد أن ألمانيا مجندة للدفاع عن الإسلام والمسلمين

(29) أرشيف الخارجية الفرنسية، البكرة P 80، وثيقة عدد 66.

(30) الأرشيف الوطني، صندوق A 18، لجنة الرقابة، ملف 346، تقرير تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، ص 7.

بسبب تحالفها مع الباب العالي، وهذا ما يذكره أحد الجنود في الجبهة الفرنسية: «علاقاتنا مع الجنود الألمان علاقات حسنة، إذ نتقابل خارج الخنادق ونتفق على عدم إطلاق النار بعضنا ضد بعض وينعتوننا بـ «كامراد» (Camarades)، أي الرفاق. لكن نستثني هنا القصف المدفعي لأنه من مشمولات الفرنسيين»[31]. وهذا ما أربك القيادة العسكرية الفرنسية واتخذت قراراتها بتشديد الرقابة على الجنود واتباع سياسة الاحتواء من خلال الدعاية المضادة والأوسمة والمنح وغيرها.

من ثوابت الرأي العام عند العساكر شعورهم العميق بأنهم يحاربون خارج الوطن وفي «بلاد الكفار»، انطلاقًا من تمسك المحليين بمستويين: الأول، الحرب الموجهة ضد الخلافة الإسلامية هي حرب ضد الإسلام؛ وثانيًا، التهجير الجماعي لآلاف من المحليين من دون رضاهم نحو فرنسا والزج بهم في الخطوط الأمامية قبالة القوة الضاربة الألمانية في حرب لم يرتضوها دعّم عندهم الشعور بالغربة في ديار ليست ديارهم ومع مجموعات وعادات وتصورات متناقضة تمامًا لواقعهم الحضاري العربي والإسلامي. تتضمن مراسلات الجنود إشارات عدة إلى التواجد في أرض غير إسلامية، وتحول الغربة في هذه الأراضي إلى اغتراب وشعور بالانبتات من الواقع الحضاري العربي الإسلامي. بقيت المرجعية الفكرية لرأي عام الجنود متصلة دائمًا بهذه التصورات، يعبّرون عنها بكل وضوح. فالجندي لطفي النشاري كتب من مدينة كاني (Cagnes): «قلبي مهموم ولا أعرف أحدًا في أرض الكفار. ضميري لا يرتاح أبدًا وأقضي الليالي مغرقًا في التفكير حول هذه الحرب وحول التجنيد الذي لم نتعود عليه، إن الكفار لا يحترموننا ويطعموننا القذارة، إني أطلب من الله والمصطفى محمد إنقاذي يوم القيامة. إني أخشى الموت وحيدًا بعيدًا عن أهلي وفي أرض فرنسا...»[32]. كما يشير الجندي الطيب بن خليفة وهو من المجموعة المدفعية 3 في الجبهة الشرقية إلى أحد أقاربه في صفاقس: «أطلب من الله أن يحرسني حتى أعود إلى أهلي لأقص عليهم ما فعل الكفار بنا: إنهم أخذونا بالقوة شيبًا وشبابًا وشتتونا في أراضي الكفرة. إن أعداءنا يتلذذون بمصائبنا»[33].

(31) الأرشيف الوطني، ملف 344، تقرير 20 تشرين الأول/ أكتوبر 1915، ص 1-2.

(32) المصدر نفسه، ملف 346، تقرير أيلول/ سبتمبر 1917، ص 30.

(33) المصدر نفسه، ملف 347، تقرير أيلول/ سبتمبر 1918، ص 4.

غير أننا نجد مواقف تختلف تمامًا في ما يتعلق بالأرض عند الجنود التونسيين في الجبهة الشرقية في الحجاز. فهالة الأماكن المقدسة احتلت مكانة كبرى في ظرفية الحرب، بسبب معارك الحجاز وانتفاضة الشريف حسين، لذا نلمس من الجنود التونسيين، ضمن فيلق المدفعية الذي سمحت فرنسا بتوجيهه إلى الحجاز في بداية عام 1917 (رسميًا للدفاع عن الأماكن المقدسة في مكة وفعليًا لتقديم دعم فرنسي للشريف حسين ومحاولة كسب مواقع وامتيازات مستقبلية إلى جانب المصالح البريطانية في الجزيرة العربية)، غبطة وانشراحًا كبيرين، إذ يذكر الجندي عمر عزوز، في مجموعة 5 للمدفعية في مكة، لعائلته: «الوضعية حسنة جدًا بمكة ولا يوجد مثلها في الجمال والوقار. إنها بيت الله فعلًا لما يبعثه بهاؤها من غبطة وطمأنينة في النفوس. إن حلمي البقاء بها إلى نهاية المعارك... وساهمت في مناسك الحج وفي يوم 14 من ذي الحجة فوجئنا في سرور كبير بزيارة مولانا الشريف الله ينصره، وألقى في الجنود خطبة بينة... وفي هذه السنة أحيط موسم الحج بعناية خاصة نظرًا للظرفية والمعارك الدائرة حاليًا وأدّينا عدة صلوات في المسجد والحرم ودعونا لنهاية المعارك ونصرة مولانا الشريف»[34].

نتبيّن من الرسالة تأثر الجندي بوجوده في البقاع المقدسة، ونتأكد كذلك من المساندة التي يعرب عنها للشريف حسين ونصرته في هذه الأحوال، ما يبيّن مدى تأثير دعاية الحلفاء في صفوف الجنود في شأن قضية الحجاز ومحاولتهم التغرير بآراء المحليين في شأن إمكان إعلان خلافة عربية يكون الحجاز مركز شعاعها. ونجد هذا الموقف المساند للشريف حسين في أغلب المراسلات الواردة من الجهة البريدية 601، أي من جبهة الحجاز.

أما الجنود التونسيون على الجبهة اليونانية فتذمروا من قسوة المعارك ومظاهر الفقر ونقص التموين، لكن نجد في أغلب المراسلات أن القيادة الفرنسية قررت منع إشراكهم في مقدمة الجبهة، وهذه حالة فريدة، حتى لا يتقابلوا وجهًا لوجه مع الجيش التركي واكتفت باستعمالهم في المواقع الخلفية، وهذا ما يؤكده الجندي مختار بن الصادق من الجيش الرابع للصبايحية في رسالة من سالونيك: «لا يقع نقلنا، نحن العرب، إلى الخطوط الأمامية لكي لا نتقابل مباشرة مع الجيوش

(34) الأرشيف الوطني، ملف 346، تقرير آذار/ مارس 1918، ص 4-5.

الإسلامية، أي مع الأتراك ونحن مسرورون بهذا القرار لأنه يؤمن لنا البقاء في الخطوط الخلفية، فنحقن دماءنا من المشاركة المباشرة في القتال»[35].

مما تقدم، نفهم الموقع المركزي الذي يحتله مفهوم الأرض عند التونسيين. فالأرض أرض إسلام أو أرض كفر، ولا منزلة بين المنزلتين، والتواجد في الأراضي غير المسلمة كارثة كبرى بالنسبة إلى بعضهم. من هنا نتيقن أن رمز الأرض من الرموز الوطنية عند الجنود المسلمين، وهذا ما عبّر عنه عدد من المفكرين المحليين حتى قبل هذه الفترة، «لأن الانتماء إلى وطن يعني الانتماء إلى دين ودولة وبلاد وأرض، وهذا ما أكده خير الدين باشا في كتابه - **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك** - لكن بدخول الاستعمار وبداية انتزاع الأراضي وتحويل ملكيتها إلى المعمرين المسيحيين الأجانب اتخذ رمز الأرض وضرورة الحفاظ عليها وعدم مغادرتها لفائدة الأجنبي بعدًا عميقًا لدى الوطنيين التونسيين الأوائل»[36].

لاحظنا في بعض المراسلات انتقاد عدد من الجنود لتصرف الباي في توجيه الشباب المجند خارج حدود البلاد، أي إلى الجبهة: «إن الباي باعنا مثل الدواب بمجرد وضع خاتمه وتبقى جثثنا مبعثرة في أرض الكفار عرضة لنهش الجرذان والغربان... قيل إن الباي أحمد ترك ابن، سي الناصر، سكرانًا لا يفيق وإذا طلب منه الرومي رجالًا يبعث نحو أرض النصارى من دون حساب لأنه فاقد الوعي. فمن يرأف بهؤلاء أيها الباي؟ أنت موافق على ترحيل أطفالك حتى بعد قضاء الخدمة والمدة إلى المجزرة، فهل تأكدت أنه لن يبقى منهم الا المعوّق والضرير والمشوّه... ونظرًا إلى رفض الشكاوى توجهنا بالنداء للسلطان»[37].

لا تختلف مواقف الجنود المحليين السياسية كثيرًا عن مواقف باقي مكونات الرأي العام في الداخل، لأن العساكر يتأثرون بالمشاغل نفسها ويؤثرون من خلال مراسلاتهم في توجهات الرأي العام الداخلي. فالجندي التونسي يشعر بالغربة والاغتراب في الأراضي الفرنسية والأوروبية النصرانية، ويتنزل هذا الموقف في

(35) الأرشيف الوطني، ملف 347، تقرير نيسان/ أبريل 1918، ص 4.

(36) Carmel Sammut, «L'Expression des symboles nationalistes par les premiers nationalistes tunisiens dans le contexte colonial français,» *Revue d'histoire maghrébine*, nos. 7-8 (1977).

(37) الأرشيف الوطني، صندوق 18 A، لجنة الرقابة، ملف 345، تقرير تموز/ يوليو 1916.

نطاق التأثر بتيار الجامعة الإسلامية، وبتفاعل جزء مهم من العساكر مع هذه الدعاية. غير أن عددًا منهم يعرب عن مساندة الشريف حسين، ويرى فيه الخليفة الإسلامي المنتظر، كما يتحفز رأي الجنود من الباي ويعتبرونه المسؤول الأول عما نالهم من مصائب وقتل وجرح وتشويه. إلا أن هذه المواقف لا تمنع رضوخ بعض الجنود لتأثير الدعاية الفرنسية، فيعرب من وقت إلى آخر عن إخلاصه وولائه للسلطة الفرنسية. لكن، بحسب الدوائر المسؤولة في الخارجية الفرنسية، تعود إعلانات الولاء والاخلاص إلى تحريض وبإيعاز من المسؤولين[38]. وتأكدنا من وجود الموقف نفسه بصفة رسمية أكثر في تقرير اللجنة الوزارية للمسائل الإسلامية إلى البرلمان الفرنسي: «وجب أن لا ننسى أن صيحات الولاء والإخلاص وحملة التطوع في الجندية بين الأهالي وباستثناء حالات نادرة كانت بإيعاز وبتشجيع وبتحريض الدعاية الإدارية ووسائلها المختلفة...»[39]. هذه الشهادات الواضحة تفند صدقية سياسة الولاء والإخلاص التي يحلو للصحافة الرسمية والاستعمارية بثّها.

خامسًا: الجنود والأوضاع الاقتصادية

تؤكد التقارير أن الجندي التونسي يهاب العزلة والانفراد، إذ يتعمق عنده الشعور بالغربة عند عدم رؤية أو سماع أحد المحليين إلى جانبه. وتتحول الغربة عاملًا من عوامل دعم الارتباط بين المجند وعائلته، فيذكر عدد من الجنود ضرورة مراسلاتهم وباستمرار، لحساسية هذا النوع من التواصل، ولأنه خيط الارتباط الوحيد بالأقارب والأصدقاء. كما تؤكد التقارير أيضًا أن الأخبار العائلية والتساؤل عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية ونزول الأمطار والبذر وأسعار المنتوجات الفلاحية وحال الحيوانات تهيمن على محتوى أغلبية مراسلات الجنود التونسيين، وهذا طبيعي لأن أغلبيتهم الساحقة من أصل ريفي.

تبدو علاقة بعض الجنود ببعض وبباقي المجموعات الأخرى متوترة حينًا ومضطربة أحيانًا، وحرصت القيادة العسكرية على فصل مجموعات الجنود

(38) أرشيف الخارجية الفرنسية، بكرة عدد P 76، وثيقة 52.

(39) المصدر نفسه، بكرة P 83، محاضر جلسات، وثيقة 27.

بحسب جنسياتهم منذ وقوع مشادات بين الجنود التونسيين والجنود المغاربة في مدينة آرل، كانت في الواقع السلطة الفرنسية وراءها لما تفرضه من تفرقة وامتيازات بين مجموعات الـ «تيرايور» سعيًا إلى تشتيت الجنود المسلمين في فرنسا، فلا يتفقون على موقف موحد. أما علاقة التونسيين بالفرنسيين فكان يشوبها الحذر بسبب تفاوت الرتب العسكرية، إذ ممنوع على الجندي التونسي المتطوع أن يتقلد رتبًا عسكرية تتجاوز رتبة رقيب أو رئيس فرقة أو رئيس فرقة أول. أدى ذلك إلى تذمر متواصل، وإلى إبلاغ وزارة الحرب الفرنسية بالشكاوى. وهذا ما أكده الطاهر الهمامي، وهو رقيب ممرض في مستشفى عسكري في مونبولييه، إلى الحاج العلاني في القيروان: «وقعت مطالبتي باسترجاع المنحة التي وجهت لي وقيمتها 700 فرنك وكنت استخلصتها من إدارة الفوج العسكري في الجبهة بعد رجوعي من التسريح برخصة والسبب المعلل لهذا الإجراء هو أني من الأهالي ولا يمكن أن أتمتع بالمنحة الشهرية مثل الضباط الفرنسيين، لذا وبعد أن خصمت المنحة تقدمت بشكوى باسم كل الرقباء ورؤساء الفرق العرب إلى وزير الحرب لكي يمنحنا نفس الامتيازات والضباط الفرنسيين...»[40]. إضافة إلى ذلك، تجدر الإشارة إلى أن النظرة الفرنسية إلى المجندين الآتين من شمال أفريقيا قامت على خلفيات عنصرية.

على الرغم من بعض التحولات في تصورات الجنود التونسيين وممارساتهم، تمسك عدد منهم بالتصورات والعادات الموروثة نفسها، وهذا أمر طبيعي، خصوصًا في ضوء هول المعارك. وتذكر المراسلات أن كلما تعمقت حدة القتال كلما ازدادت الأراجيف في ما يتعلق بالكرامات والتعلق بالأولياء الصالحين ومكاتبة الأهل من أجل تقديم القرابين في الزوايا والاتصال بالمقدمين ورجال الطرق من أجل التبرك ورفع الكوابيس المفزعة. فالجندي الطاهر البوغانمي (من الجيش الثامن - الجبهة 131 شرق فرنسا) يراسل أحمد بن قدور، وهو مقدم زاوية سيدي عبد القادر بالكاف، قائلًا: «إلى العطوف الحليم الكامل قائد الطريقة ومعدن الحقيقة سيدي قدور، أوجه لكم حوالة بـ 76 فرنك موجهة إلى سيدي عبد القادر الجيلاني الرجل الصالح والنجمة القطبية التي تهدي طريقنا، الله يمكننا

(40) الأرشيف الوطني، صندوق 18 A، لجنة الرقابة، ملف 347، تقرير آب/ أغسطس 1918، ص 9.

من رضاه. إن هذا المقدار جمعناه بين جنود الكتيبة 2 لكي تبعد عنا الآفات وتقرب منا البركات والحسنات. إننا أبناؤك وتذكرنا خلال صلواتك ونطلبكم التدخل قربه لإنقاذنا»[41]. وهكذا، تجاوز التقرب من الأولياء الصفة الفردية كما كانت في بداية الحرب، أي إن التذمر من طول المعارك وهولها ومن الغربة أصبح ذات صبغة جماعية، لأن الحوالة المالية المرسلة كبيرة نسبيًا، إذ كان كل جندي يتقاضى 0.22 فرنك يوميًا آنذاك.

خاتمة

سعينا من خلال ما تقدم إلى رسم ملامح الرأي العام التونسي ومكوّناته داخل الحدود وخارجها، وحاولنا تأكيد العوامل والدوافع الكامنة وراء ردات فعل الأهالي داخل الوطن وخارجه إزاء مستجدات الحرب العالمية الأولى للوصول إلى طرح كيفية تفاعل التونسيين مع هذا الحدث. كما حاولنا، من خلال هذه الدراسة، قراءة مواقف المحليين وتطورها ضمن تسلسل تاريخي للحدث الوطني في تونس، قراءة تعتبر مرحلة الحرب مرحلة مهمة بالنسبة إلى ذلك الحدث، لا مجرد فترة انتقالية شعارها السبات والتقوقع.

تقويم هذه المرحلة من تاريخ الحركة الوطنية التونسية على أنها مرحلة مهادنة وركود المد الوطني الذي انطلق مع حركة الشباب التونسي وتواصل بعيد الحرب العالمية الأولى مع تشكل الحزب الدستوري إنما هو تقويم ينطلق من مقاربة تعتبر الحركة الوطنية في تونس حركة سياسية بحتة. من هذا المنطلق، لا يمكن تفنيد ما ذهبت إليه التحاليل السابقة في شأن هذا المعنى من الركود، لأن النشاط السياسي المنظم كان محظورًا على الأقل في شكله الظاهري خلال مرحلة الحرب. لكن، هل يعني غياب الأحزاب وركود المنظمات ركودًا للحركة الوطنية؟ إن الدراسات والمقاربات الجديدة لتاريخ الحركة الوطنية لا تجعلها مقتصرة على النشاط السياسي المنظم فحسب، بل تعتبر تلك الحركة السياسية المنظمة جزءًا وجانبًا من جوانب العمل الوطني الذي يأخذ بهذا المعنى تجليات عدة وحيزًا أشمل. من هذه الزاوية، تصبح فترة الحرب مرحلة دفع للعمل الوطني نحو مزيد من التجذر،

(41) الأرشيف الوطني، لجنة الرقابة، ملف 346، تقرير 1917، ص 7.

ونحو تدعيم التواصل بين نشاط سياسي سابق، أي حركة الشباب التونسي ونشاط لاحق، أي الحزب الدستوري.

من خلال تفاعلات الأهالي مع الأوضاع السياسية والعسكرية، نلمس أن «العامة» وقطاعات عدة من المجتمع التونسي داخل الحدود وخارجها تحركت بمستويات متفاوتة وبأشكال منوعة، ومكّننا هذا التحرك من أن نفند اعتبار هذه الفترة فترة هدوء وسكينة، كما ساهم هذا التحرك في حدوث تموج في مسار الحركة الوطنية لا بمعنى النقلة النوعية أو القطيعة مع ما سبق وما لحق من فترات، إنما بمعنى تسجيل تحول سياسي وجغرافي واجتماعي في نطاق الحيز الذي سمحت به ظرفية الحرب، بالنسبة إلى المعنى السياسي بظهور رفض الاستعمار بشكل عفوي قوامه العنف ونمو حركات العصيان ذات صبغة شعبوية والتحدي المسلح للسلطة. أما بالنسبة إلى المعنى الجغرافي – الاجتماعي، فإن ردات الفعل والمواقف تؤكد تحول مركز الثقل خلال هذه المدة القصيرة من العاصمة إلى الأرياف ومن الفئة المثقفة الثرية إلى جماهير المحرومين في الأرياف والمدن، وهذا ما أردنا إبرازه في هذا الدراسة، أي رفع الغشاء عن ردات فعل القطاع الأمّي والمُهمّش.

الفصل الثامن

تداعيات الحرب العالمية الأولى
على الوضع الصحي في المغرب

أنس الصنهاجي

عقب دخول فرنسا حربًا كونية لم تشهد البشرية مثيلًا لها، وجدت إدارة الحماية في المغرب نفسها في مأزق يبحث في استراتيجية ذكية من شأنها المحافظة على المغرب تابعًا لفرنسا، كمستعمرة وقاعدة خلفية، على الرغم من إكراهات ضعف الإمكانات العسكرية المرصودة للجهد الحربي، والمقاومة المسلحة المستعرة في ربوع المغرب المختلفة.

بسبب هذا الوضع، لجأ المقيم الفرنسي العام لوي هوبير ليوتي إلى توظيف مقاربات مختبرة لاحتواء الوضع، فركّز تدابيره في هذا الإطار على سياستين أساسيتين: السياسة القائدية لتغطية الفراغ الأمني والعسكري لمناجزة المقاومين، والدبلوماسية الطبية لاستمالة الأهالي والحد من الاجتنابية وكره «الكافر» الفرنسي، في هذا الصدد، يقول ليوتي: «إن طبيبًا واحدًا يمكنه معادلة فيلق عسكري»[1]. وهذا ما أكده دوفستيل (المفتش العام لمكاتب التعليم في باريس): «تنمو أهمية الإعانة الطبية العمومية نموًا متواترًا عند احتواء المرض، ومحاصرة الداء ووقاية الصحة، فذلك يجعلها وسيلة عظمى للسيطرة والاحتلال، كما تساعد في إجراء المخططات السياسية بأداء عالٍ».

في السياق ذاته، يقول ليوتي: «إن للتوسع الاستعماري جوانبه القاسية، فهو ليس خاليًا من العيوب والنقصان، غير أنه إذا كان هناك ما يضفي على هذا التوسع نبلًا ويبرره فهو عمل الطبيب، باعتباره مهمة ورسالة شريفة»[2]. ومن أجل تحقيق الغاية، رفع ليوتي ميزانية إدارة الصحة، فقفزت من 1712453 بسيطة حسنية في عامي 1914 و1915 إلى 2430904 بسيطة في عامي 1916 و1917،

(1) محمد حسن الوزاني، مذكرات حياة وجهاد: التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية، 6 ج (الرباط: مؤسسة جواد للطباعة والتصوير، 1985)، ج 1، ص 174.

(2) نبيلة الفينة، «التنظيم الإداري والتشريعي لقطاع الصحة بالمغرب في الفترة الاستعمارية،» في: المعرفة الطبية وتاريخ الأمراض في المغارب، تحت إشراف آسيا بنعدادة (الدار البيضاء: مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية؛ الرباط: مطبعة عكاظ، 2011)، ص 233.

وإلى 1771220 بسيطة حسنية في المغرب الغربي و89910 فرنكات فرنسية في المغرب الشرقي في عام 1918[3]. كما قبلت إدارة الصحة في عام 1914 المرشحين المقدمين لاجتياز مباراة الأطباء المدنيين كلهم، ووظفتهم مباشرة بعد عام من التدريب[4]. وارتفع عدد الأطباء المدعوين إلى المغرب من 81 طبيبًا في عام 1912 إلى 116 طبيبًا في عام 1914[5]. وهكذا، جدّت إدارة الحماية في تطويق أسباب الأوبئة والأمراض التي كانت تحصد بين الفينة والأخرى مئات الأرواح في كل منطقة، واستطاعت هذه الإدارة محاصرة مجموعة من الملمات الفتّاكة مثل الطاعون والكوليرا والجدري، بينما عملت في الوقت نفسه على تطوير بحوثها في الأمراض والأوبئة التي عجزت عن شفائها، لكن بقيت تحاربها بالوقاية وتجفيف منابع بعثها في المغرب.

على الرغم من أن المملكة الشريفة كانت عرضة لأنواع الأوبئة والأمراض المختلفة حتى قبل الحرب العالمية الأولى، ساهمت إدارة الحماية في تجويع فئة عريضة من المغاربة في البوادي والحضر، بفعل انتزاعها مدخرات المغاربة من المؤن والمنتوجات الفلاحية في إطار مساندة فرنسا في الجهد الحربي. كما ساعدت في عودة كثير من الأمراض الناجمة عن الفاقة والمسابغ، وتُطلعنا الرسالة التي أرسلها مدير عام الإدارة العسكرية في المغرب إلى القائد العام لقوات الحماية في 18 تشرين الأول/ أكتوبر 1912، بالتسريع من عملية شراء إنتاج الحبوب كله[6]، كما رصدت إدارة الحماية في عام 1914 مئة مليون فرنك لشراء المنتوجات المنوّعة من الحبوب والخضر والجلود، من المنتج مباشرة، عبر نصب مراكز خاصة لاستقبالها وتسديد أثمانها في البوادي والقرى والمداشر[7]. وازى ذلك تقاطر الجنود السنغاليين والمغاربة وجنود المستعمرات والزواف الفرنسية على المغرب، وكان ليوتي قد طلبهم بحجة أنه لا يأمن مروق المجندين

---

(3) *Bulletin officiel* (1914-1918).

(4) Jules Colombani et Mauran, *Le Ministère de la santé et de l'hygiène publiques au Maroc*, Préface de Hubert Lyautey (Casablanca: L. Guignes, 1925), p. 197.

(5) Abdelmounim Aissa, «La Santé publique au Maroc à l'époque coloniale 1907-1956» (Thèse de doctorat en Histoire, sous la direction de Daniel Rivet, Université de Paris I, Sorbonne, 1997), p. 204.

(6) Daniel Rivet, *Lyautey et l'institution du protectorat français au Maroc: 1912-1925*, 3 tomes, Histoire et perspectives méditerranéennes (Paris: Éd. l'Harmattan, 1996), tome 3, p. 69.

(7) المصدر نفسه، ص 65.

والقادة المغاربة وغدرهم خلال الحرب[8]. حمل بعض هؤلاء الجنود الوافدين أمراضًا وعللًا تفشّت كالنار في الهشيم، خصوصًا في المناطق القريبة من الثكنات العسكرية[9]. حشدت إدارة الحماية الاستعدادات الحربية واستعملت الوسائل الاستبدادية كلها لتوفير شروط النصر، وكانت ترى أن من أهم المرتكزات الاستراتيجية لهذه الوسائل: الغذاء والجند. قادت هذه التدابير المجحفة بحق الشعب المغربي إلى عودة كثير من الأمراض والأوبئة التي جدّت إدارة الحماية في احتوائها، وعيًا منها أن ذلك من الإجراءات الذكية للحفاظ على المغرب مستعمرة فرنسية في إطار سياسة التسرب السلمي والتودّد للأهالي.

أولًا: الوضع الصحي في المغرب غداة الحرب وتدابير الوقاية والعلاج

1 - وباء الطاعون

أدى الجوع والفاقة إلى نزوح البدو بحثًا عمّا يسد رمقهم، وكان بينهم مصابون بعلل وأمراض عدة، منها الطاعون. فبعدما كان كثير من المناطق مرحوم من مناكره، باتت هذه المناطق مفطورة من مجازره. وخلال خريف 1914، وصل الوباء إلى زاوية سيدي إسماعيل وقبيلة أولاد عمور، ما استدعى إرسال بعثة طبية متنقلة إلى المكان، فسجلت 43 مريضًا بالطاعون، و15 مصابًا بتعفنات ناجمة عن وجود بكتيريا في الدم. أما في قبيلة القواسم فكشفت البعثة الطبية إليها عن 28 مصابًا بالطاعون[10]. تطور الداء شرقًا، مخلفًا 100 صريع، وغربًا في مدينتي الرباط والقنيطرة، أما دكالة فأودى المرض بربع ساكنتها[11]. وفي عام 1915 وصلت العدوى إلى سوس وواد نون من دكالة وعبدة عبر العمالة السوسية[12]. وفي العام التالي، ظهرت حالات كثيرة

(8) علال الفاسي، المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى، تصحيح ومراجعة المختار باقة، ط 2 (الدار البيضاء: منشورات مؤسسة علال الفاسي، 2010)، ص 24.

(9) Archives nationales de Rabat, Carton no. C12, Service de santé de Rabat, 1915, p. 8.

(10) H.P.J Renaud, *La Peste au Maroc: Étude d'épidémiologie et de géographie médicale* (Rabat: Service de la santé et de l'hygiène publique, 1922), p. 8.

(11) المصدر نفسه، ص 6.

(12) المصدر نفسه، ص 14.

من الوباء في الرباط بداية كانون الأول/ ديسمبر[13]. وفي عام 1917 شاع الوباء من جديد في شمال الشاوية والرباط وسلا، وتمكنت المجموعة الصحية المتنقلة في مراكش من كشف مصدر الوباء الذي كان قريبًا من مدينة تارودانت. وفي خريف 1918، عم مناطق كثيرة من سوس وخلّف الموتى بالمئات[14].

للقضاء على هذا الوباء الفتاك، عمدت إدارة الصحة العمومية إلى تنظيف الملابس بالكبريت والماء المغلي، وتطعيم السكان بمصل وقائي ضد الوباء[15]، في موازاة حملة لمكافحة الفئران في المدن الموبوءة، فكانت فرق المكافحة تصيد الفئران أو تسممها، ثم تجمع الفئران الميتة لحرقها، وتطمر الحية منها في ماء الجير الدسم. وللتحفيز على تطهير المدن من بواعث الوباء، خصصت البلدية مكافأة قدرها خمسة فرنكات في مقابل كل فأر يقتل. وبحسب مسؤول عن مصلحة الصحة، قتل ما يزيد على 240 ألف فأر بين عامي 1913 و1915، وصُرف في هذه العملية نحو 11.9 مليون فرنك، كما كان يُحرق كل ما يمكن أن يكون وسيلة لنقل العدوى مثل الزرابي والحصائر[16]، بل كانت تُحرق دور بكاملها إذا اشتبه توطن البراغيث الناقلة الوباء فيها، خصوصًا البيوت المرصوفة سقوفها وجوانبها بالخشب القديم والمتآكل، لأنه وكر ملائم لاستقرار البراغيث وتكاثرها.

2- داء التيفوس

بسبب المجاعة الناتجة من الجفاف، ومصادرة المنتوجات ومدخرات الأهالي الفلاحية للأهالي ونقلها إلى الجبهات، وضعف الموارد البشرية الطبية المصروفة للجهد الحربي، ظهر التيفوس في عام 1914 وحصد عشرات الأرواح من سكان المغرب الشرقي وفاس وسلا وتمارة والجديدة وبرشيد ودبدو والرباط والدار البيضاء. غير أن المدينتين الأخيرتين كانتا الأكثر تضررًا من الوباء، إذ قتل 3 آلاف

(13) Mohamed Bekraoui, *Les Marocains dans la grande guerre 1914-1919*, Préf. de Jean-Claude Allain (Rabat: Publications de la commission marocaine d'histoire militaire, 2009) p. 203.

(14) محمد المختار السوسي، المعسول، 20 ج (الرباط: [مطبعة النجاح الجديدة]، 1960)، ج 2، ص 76.

(15) «نظام إدارة الصحة العمومية والمقاصد المقصود في تأسيسها،» السعادة، 3/ 6/ 1918، ص 1-2.

(16) دانييل ريفي، «الطب الاستعماري أداة استبدادية متسامحة لمراقبة السكان،» تعريب عزوز هيشور وعبد القادر مومن، مجلة الأمل، العدد 6 (1995)، ص 119.

في الدار البيضاء وحدها، بين أوروبيين ومغاربة. ووصف هويل كيف كان الموتى منثورين على طول الطريق المؤدية إلى مديونة، وآخرون يتضرعون إلى ربهم من فرط الألم الذي ينخرهم[17]، في حين وصف كراندورج الحالة الصحية الخطرة الناتجة من وباء التيفوس الذي أصاب الجيش بكل أصنافه ورتبه[18]. وأفاد دانييل ريفي في هذا الشأن أن تيفوس 1914 كان يودي بعشرة أشخاص في اليوم في شباط/ فبراير، وخمسة في بداية آذار/ مارس، خصوصًا في الرباط وسلا والدار البيضاء[19]. وفي عام 1916، ظهر الوباء بقوة في مدينة مولاي إدريس وأحوازها وخلّف موتى بأعداد كبيرة جعل موسم البلدة السنوي يعرف ضعفًا على مستوى الحضور[20].

منذ عام 1914، دأبت إدارة الصحة العمومية على محاربة هذا الغزو التيفوسي من خلال جمع المتشردين والمتسولين وسكان الأزقة مفترشي بلاط الأسواق، وعزل حاملي العدوى ووضعهم في محاجر صحية، وغسل أجساد الناجين[21] بصابون أسود أو مسحوق «كريزيل». بلغ عدد من قُبض عليهم للاشتباه في إصابتهم بالتيفوس بين كانون الثاني/ يناير وآذار/ مارس من العام نفسه زهاء 2400 شخص. وعند الفحص، كان المعتلّون يُحجر عليهم للعلاج، بينما يحال الأصحاء إلى العمل في الورش، أو يُخلى سبيلهم[22]. وحين يهيج هذا المرض ويستبد بربوع المغرب مسجلًا إصابات جسيمة بنسب مخيفة، كانت إدارة الحماية تعلن حال الاستنفار، فتبدأ بحجز المرضى وإبعاد الفقراء الناجين من الوباء. وفي موازاة ذلك، تطهّر المدينة أو القبيلة باستعمال الكبريت والكلور والجير والكريزيل، وتحرق كل ما لا قيمة كبيرة له، وتنقل المخيمات أو تُعدم، وتغسل الثياب باستمرار في الماء المغلي، ويسرح الشعر بعد نقع المشط في الخل الساخن[23]. ومن الإجراءات المتخذة كذلك إقامة مراكز للتلقيح في المراكز الصحية والأسواق كلها، واستعمال مسحوق D.D.T والمضادات الحيوية

(17) Christian Houel, *Mes aventures marocaines* (Casablanca: Éditions «Maroc-demain», 1954), p. 242.

(18) René Graindorge, *Carnets de route du docteur Graindorge: Maroc 1911-1914*, Présentés par Maxime Rousselle, Documents (Talence: M. Rousselle, 1996), p. 56.

(19) Rivet, p. 226.

(20) المصدر نفسه، ص 394.

(21) «نظام إدارة الصحة العمومية،» ص 1-2.

(22) Rivet, p. 236.

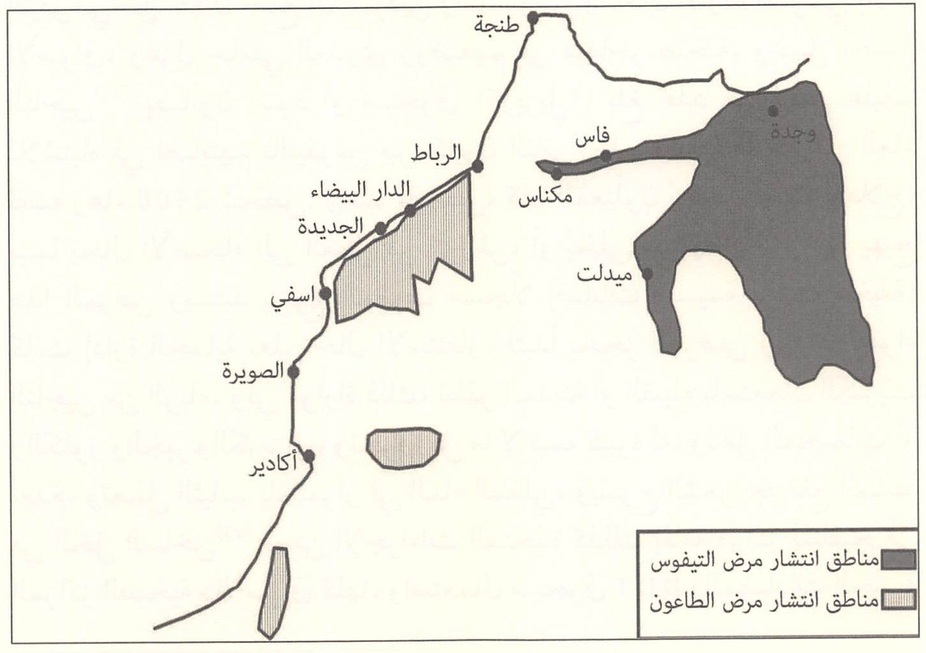
(23) «كيفية الوقاية من التيفوس،» السعادة، 12/ 6/ 1918، ص 2.

(الأوريومسين) للقضاء على الطفيليات[24]. غير أن رفض كثير من المرضى المغاربة الاستجابة للوسائل الطبية الوقائية الفرنسية صعّب مهمة إدارة الصحة العمومية في القضاء على المرض.

هكذا، نستنتج أن إدارة الصحة وظّفت وسيلتين أساسيتين لمحاربة الوباء: الأولى هي التلقيح، أما الثانية فتتجلى في قطع دابر مسببات المرض، وهو القمل[25].

خريطة (8-1)

المناطق المغربية المصابة بداءي الطاعون والتيفوس في خلال أعوام الحرب العالمية الأولى[26]



المصدر: تعريب الباحث.

---

(24) ألبير عياش، **المغرب والاستعمار: حصيلة السيطرة الفرنسية**، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي؛ مراجعة وتقديم إدريس بن سعيد وعبد الأحد السبتي (الدار البيضاء: دار الخطابي للطباعة والنشر، 1985)، ص 346.

(25) أسيا بنعدادة، «السياسة الاستعمارية الطبية في النظام التعليمي المغربي،» في: **المعرفة الطبية،** ص 267.

(26) Renaud, p. 14.

3- داء الجدري

أدى ضعف الرعاية الصحية وانشغال إدارة الحماية بالحرب وتأمين خطوط الإمدادات ونزوح الجياع والمرضى بالجدري إلى مناطق المغرب المختلفة، إلى تفشي هذا الوباء في عام 1914، فقتل 2500 شخص. وأشار تقرير المجموعة الصحية المتنقلة في بني ملال وأحوازها في عام 1916 إلى أن أغلبية أطفال المنطقة مصابة بالتهاب القرنية جراء الوباء[27]. وفي العام التالي، تفاقم الوباء وضرب مدينة فاس ومنطقة سوس بفعل الهجرة الناقلة العدوى[28]. وفي عام 1918 تفاقمت حدّة الوباء لتطال أطفال القبائل المتاخمة لمدينة فاس التي أوقعتهم بين قتيل وبصير ومشوّه[29]. وفي العام التالي، تفشّى الجدري في دبدو وبني ملال وبعض دواوير عبدة[30].

لم تكن مكافحة الجدري تتطلب إجراءات حجر المصابين أو رشهم بمواد كيماوية للقضاء على الحشرات والحيوانات التي تنشر المرض، وإنما اعتمد العلاج منذ البداية على التلقيح باعتباره الوسيلة الناجعة. فحُقن ما يناهز 256081 مصابًا في عام 1914، و308854 في عام 1915، و363394 في عام 1916[31].

4- حمّى المستنقعات (الملاريا)

جدّ ليوتي في رفع ميزانيات الصحة العمومية طوال أعوام الحرب، إلا أنها بقيت هزيلة مقارنة بالأمراض والأوبئة التي كانت تعصف بالمغاربة بشكل دوري، وتودي بآلاف المصابين في كل عام. فالبرك الكبرى التي كان من المقرر تجفيفها

---

(27) بوجمعة رويان، «الطب الاستعماري الفرنسي في المغرب 1912-1945» (أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ المعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكدال، الرباط، 2003-2004)، ص 144.

(28) «داء الجدري،» السعادة، 10/ 7/ 1917، ص 1-2.

(29) «Le Nomadisme et la propagation des maladies contagieuses au Maroc,» *Archives de médecine et de pharmacie militaires*, vol. 77, no. 2 (Septembre 1922), p. 293.

(30) *Bulletin officiel* (24 Mars 1919), p. 272, et (14 Avril 1919), p. 349.

(31) Fonctionnement du service de la santé et de l'assistance publique et considérations sur les affections les plus fréquemment observées au Maroc au cours de l'année 1916, p. 20.

في عام 1912 لقطع دابر المرض أوقفت ميزانيتها بسبب الحرب[32]. وبقيت حمى المستنقعات من بين أكثر الأمراض فتكًا بأهالي المملكة الشريفة، وشهد عام 1915 أوسع انتشار للمرض، خصوصًا في المناطق السهلية.

في هذا الشأن، ذكرت أوجيني دولانوي (الطبيبة في الوحدة الصحية المتنقلة في جهة دكالة عبدة) أن قبائل دكالة استشرى فيها المرض بين حزيران/ يونيو وأيلول/ سبتمبر 1915، وأكدت أن أولاد حسون، أحد أقسام قبيلة أولاد بوعزيز، ودوار لمعاشات كانتا المنطقتان الأكثر إصابة بهذا الداء، بسبب وجود عين ماء بقيت مرتعًا لتكاثر البعوض. ولأن هناك دواوير قريبة من دوار المعاشات وأولاد حسون، انتشرت فيها أسباب الداء بحكم عامل القرب، كما يبين الجدول أدناه[33]:

الجدول (8-1)

عدد المصابين بحمى المستنقعات

في بعض المناطق الدكالية في عام 1915

المناطق الدكالية	عدد السكان	عدد المصابين
دوار المعاشات	250	100
دوار الشرفا	90	80
زاوية لكوانين	80	74
أولاد بوعنان	50	45

نال الداء في هذه المناطق من 48 إلى 95 في المئة من مجموع ساكنتها، ويعزا ذلك في الأساس إلى تقارب الدواوير، وإلى كثرة أعداد البعوض ناقل المرض. وفي عام 1916، انخفضت الإصابات إلى 325 مصابًا في جهة دكالة عبدة، لكن في المقابل استبد الداء في مدينة مراكش، مسجلًا 16192 مريضًا و8474 في الرباط و5208 في فاس و3534 في شاوية و2703 في تادلة[34]. وضرب الداء في عام 1918 بشراسة منطقة الغرب، فبلغ عدد المصابين به في آب/ أغسطس

(32) Archives nationales de Rabat, Carton no. P91, Rapport politique du mois de Mars 1915, p. 4.

(33) رويان، «الطب الاستعماري،» ص 65.

(34) المصدر نفسه، ص 156.

في الرباط 1123 مصابًا. وأدى قهر الداء إلى نزوح عدد كبير من ساكنة مدينة القنيطرة[35] إلى مناطق أكثر أمنًا، هروبًا من البعوض القاتل[36].

ردّت دولانوي عدد الإصابات المرتفع في الجديدة إلى موقع المدينة المبنية فوق الصخور الشاطئية، وعند سافلة التلال المحيطة بها غربًا وجنوبًا، الأمر الذي جعل أراضيها الخلفية معرضة للسيول المائية في الأعوام المطيرة، ما أدى إلى محاصرتها بالمستنقعات من النواحي كلها، وفي فترات طويلة من السنة، لتوفر بذلك أوكارًا خصبة لتكاثر البعوض ناقل العدوى[37]. لتطويق هذا المرض، بدأ التفكير في استئصال الداء عن طريق مسبباته بتجفيف المياه الراكدة وصرف العادمة على الرغم من ضعف الإمكانات[38]. أما البحيرات فرُشّت مياهها بالوسائل التي من شأنها القضاء على البعوض وديدانه، مثل الكريزيل والبترول و«فليتوكس» ومسحوقات زرنجية[39]، ثم أعقب ذلك حفر المراحيض، وصرف المياه الآسنة المجاورة للمساكن، وسكب زيت الفحم الحجري الثقيل في الخزانات وقنوات الواد الحار[40]. وفي هذا الشأن، راسل ليوتي في شباط/ فبراير 1914 قادة الأقاليم لحثهم على مكافحة الحمى بالقول: «تحصد (الحمى) الكثير وتعرقل الاحتلال العسكري وتؤخر استثمار البلاد... وبناء عليه، يجب تكثيف الجهود لتجفيف المستنقعات والمياه الراكدة». واستقدم ليوتي طبيبين معروفين في مجال مكافحة هذا المرض هما إدمون سرجان وإتيان سرجان للقضاء على أسبابه ومسبباته[41]. وإلى جانب ذلك، عُولج المرض بأقراص وأمصال الكينا المستخرجة من لحاء شجر الكينا، التي يحقن بها المصاب أو يبتلعها، فتقتل جراثيم «هيماتوزوير» المسببة للمرض[42].

---

(35) Bekraoui, p. 203.

(36) رويان، «الطب الاستعماري،» ص 157.

(37) Eugénie Delanoé, *Trente années d'activité médicale et sociale au Maroc*, Préface par Henri Roger (Paris: Maloine, 1949), p. 18.

(38) عياش، ص 346.

(39) «مكافحة حمى المستنقعات،» السعادة، 16/ 3/ 1929، ص 1-2.

(40) ريفي، ص 119.

(41) «الصحة العمومية بالإيالة،» السعادة، 18/ 9/ 1916، ص 2.

(42) Marianne Langlais, *Prophylaxie du paludisme au Maroc* (Paris: Libraririe Louis Arnette, 1929), p. 341.

إلى جانب الملاريا، ظهرت الإنفلونزا الإسبانية في بداية أيلول/ سبتمبر 1918 وأودت بحياة عدد من الساكنة المغربية والفرنسية، المدنيّة منها والعسكرية، جراء سرعة انتشارها، وتسرّبت إلى المغرب مع الجنود المرتزقة الآتين من المستعمرات الفرنسية والسفن التجارية الآتية من مناطق العالم[43].

5- داء الزهري

من أجل حماية القوات العسكرية الكولونيالية الرابضة في المغرب والحفاظ على أدائها في منافحة المقاومة المنتفضة في مناطق المملكة المختلفة، ووعيًا من إدارة الحماية بالنقص الحاصل في الموارد البشرية والعسكرية والعتاد والإمكانات اللوجستية بسبب الحرب وأحوالها، وبما أن الكثير من الأمراض الجنسية، وعلى رأسها الزهري، كان يفتك بالجنود الفرنسيين ويضعف من لياقتهم الحربية، اهتمت إدارة الحماية في المغرب بجدية وحزم بدحر هذا المرض، بعدما تفشى كالجرب في صفوف الجيش الفرنسي، ما استدعى استقدام طبيبين متخصصين بمكافحة الأمراض التناسلية من باريس في عام 1915، هما لوريد ولاكابير. أسس الأول مصلحة لمحاربة داء الزهري في الدار البيضاء، وأسس الثاني مثلها في فاس[44]. وفي كتابه الزهري العربي، ذكر لاكابير أن هذا الداء كان يقتل أكثر من عشرة أطفال مغاربة في اليوم، كما لاحظ إبان خدمته في مدينة فاس بين عامي 1916 و1919 أن الداء منتشر بكثرة في المناطق التي يقل فيها مستوى التعليم وتسيطر فيها الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المزرية والسكن البدائي، كما شكل غياب العلاجات الملائمة أهم عوامل استفحال الداء. وقال إن الحجامة والختان والوشم واستخدام الأواني واتصال الطفل بأمه وبعض وسائل تدخين حشيشة الكيف من أهم وسائل نقل عدواه[45]. وبمحاضرة ألقاها في مركز التأهيل (مدينة مكناس في عام 1918)، عنوانها «عدوى الأمراض الجنسية في المغرب»، قال لاكابير إن الزهري يصيب بين

---

(43) Bekraoui, p. 203.

(44) أحمد المكاوي، الدور الاختراقي والاستعماري للطبابة الأوروبية في المغرب، قضايا تاريخية؛ 10 (الدار البيضاء: منشورات الزمن، 2009)، ص 122.

(45) بوجمعة رويان، الطاعون والزهري بالمغرب خلال عهد الحماية 1912-1938 (الدار البيضاء: منشورات مؤسسة عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، 2001)، ص 198-199.

75 و90 في المئة من المغاربة من الجنسين، بحسب توزعهم الجغرافي، وبلغت نسبة الإصابة في الجديدة والصويرة وطنجة 80 في المئة.

لمكافحة المرض والحد من كوارثه، خصصت إدارة الصحة العمومية دواءين للقضاء على قروح الزهري وتشوهاته: أرسينوبنزول ونوفرسينوبنزول[46].

كان مستشفى الجديدة المختلط يستقبل يوميًا بين 150 و200 مصاب، بينهم 25 إلى 40 معلولًا بالزهري، بينهم حالات بوجوه ممزقة من العين حتى الأنف وشفاه منعدمة وأسنان عارية ووجوه من دون أنف. كما وفد إلى المستشفى أطفال تراوح سنهم بين 4 و8 أعوام، يعانون تشوهات في الأنف وثقب في سقف الفم وثقوب في العظام[47]، إلى جانب أجنّة تولد ميتة بسبب هذا الداء الموروث من الأبوين، بلغت نسبتهم 34 في المئة.

في العلاج، استخدمت حقن البنسلين، فكان مستشفى الجديدة المختلط وحده يقدم زهاء 3 آلاف حقنة شهريًا. أما النساء العقيمات بسبب الداء فكن بعد العلاج يلدن تحت إشراف دولانوي أولادًا أصحاء من دون أعراض جانبية.

جدير بالذكر أن المواليد الأصحاء هؤلاء أطلق عليهم اسم «أولاد الطبيبة»، وكانت تتابع حال الأحياء منهم الذين ورثوا الداء[48].

في موازاة ذلك، نظمت سلطات الحماية مهنة «بيع الهوى» لأنها مصدر الداء، فأفردت أحياء خاصة لها، وألزمت المومسات فحصًا يوميًا للتأكد من خلوّهن من الأمراض الجنسية[49]. وعلى الرغم من الجهد الذي بذلته إدارة الحماية في محاربة المرض، بقيت عاجزة عن استئصال أسبابه.

6- داء السّل

وصل هذا الداء عن طريق المهاجرين الأوروبيين، واستفحل مع تقاطر جنود

---

(46) «مرض الزهري أو النوار،» السعادة، 23/ 1/ 1916، ص 2.

(47) Delanoé, p. 156

(48) المصدر نفسه، ص 154-157.

(49) رويان، الطاعون والزهري، ص 209.

المستعمرات الفرنسية على المغرب في عام 1914[50]، وقالت الطبيبة دولانوي إن المصابين بهذا الداء كانوا يتقاطرون على المستشفى بكثرة، فتلقحهم بمصل تجريبي لقياس مدى النجاح في الحد من تطور الداء أو القضاء عليه. غير أن ذهاب العليل من دون عودة جعلها تتجه صوب المدارس الأهلية لإعادة التجربة نفسها التي باءت بالفشل، لكنها اكتشفت تفشي السل بشكل مقلق في الأوساط المدرسية، خصوصًا بين الذكور من أصل يهودي[51]، وهذا يدل على انتشاره انتشارًا واسعًا بين العائلات الأهلية، لأن الأطفال يلتقطون عدوى الداء من أحد أفراد العائلة حامل الجرثومة. ذكرت دولانوي أنها حقنت أكثر من 500 امرأة في المستشفى بعد عشرة أيام من ولادتهن أطفالهن بمصل (B.C.G) المكافح لداء السل. كانت رطوبة المناخ والرياح الدائمة، إلى جانب السكن في الأكواخ وضيق المنازل وسوء التغذية وغياب النظافة، من أهم أسباب تفشي السل، وهذا يفسر ارتفاع نسبة المصابين بالداء في المناطق المطلة على السواحل الأطلسية. وللوقاية منه، أوصت الطبيبة بالنظافة والتعرض الدائم للشمس.

لمكافحة هذا المرض الفتاك، نصبت إدارة الصحة العمومية مخيمات لتلقيح المرضى بمصل (B.C.G)[52] الذي يحرك في جسم المصاب قوى المناعة الطبيعية، ما يحول دون انتشار المرض[53].

ثانيًا: المؤسسات الصحية والاستشفائية في خلال الحرب آلية مركزية في استراتيجية ليوتي للمحافظة على المغرب

1- الفرق الطبية المتنقلة

هي مشافٍ متنقلة، الهدف منها إيصال العلاج والأدوية والأمصال إلى المرضى والمعلولين في القرى والمداشر التي لا يستطيع ساكنوها الوفود إلى

(50) ريفي، ص 110.

(51) Delanoé, pp. 132-133.

(52) عياش، ص 349.

(53) «لمكافحة داء السل،» السعادة، 30/ 11/ 1930، ص 1-2.

المستشفيات لبعد المسافة، أو التي لا تثق بالطب الفرنسي ولا تستحله. تكوّن معظم هذه الفرق من طبيب أو طبيبين وممرضين وثلاثة سائقين وستة بغال لحمل الأدوية والأمتعة، وتمكّن الأطباء ومن يرافقهم من كسب محبة السكان وشيوخ القبائل، حتى إن بعضهم كان يحكّم في خلافات أهل القبيلة(54). وكان طبيب الفرقة يركز اهتمامه على أكثر الأمراض ألمًا ويجهد في شفائها، كما كان يهتم بالمقاومين وثوار الأمس حتى يلمسوا مكاسب الخضوع لفرنسا(55). وجدير بالذكر أن كثيرًا من هذه الفرق رافق بعض القادة في تحركهم العسكري(56)، وعلى رأسهم لكلاوي الذي شاركه الأطباء مهمة إخضاع قبائل آيت مسات وآيت عتاب في تشرين الأول/ أكتوبر وكانون الأول/ ديسمبر(57). في هذا السياق، أشاد ليوتي بمنجزات هذه الفرق الطبية في الجبال والمناطق النائية: «قدمت لنا الفرق الصحية الجوالة خدمات لا تقدر في المناطق النائية، وساهمت أحيانًا بفاعلية في إخضاع القبائل الثائرة بعد كسب ودهم»(58). وفي الجانب ذاته، قال شاتنير: «أداؤها (الفرق الطبية المتنقلة) الفريد جعلها تتقدم فيالق الغزو والتهدئة وتبسط البلاد للسيطرة والتحكم»(59).

2- المستشفيات الكبرى

شيد معظم المستشفيات الكبرى في المغرب في خلال الحرب العالمية الأولى لأغراض عسكرية، لإسعاف المرضى والمعطوبين من جيش الاحتلال، بيد أن خوف فرنسا على رعاياها المقيمين في المغرب من الأوبئة والأمراض التي

---

(54) B. Gaulis, «Le Maroc médicale,» *France-Maroc*, vol. 8, nos. 93-94 (Août-Septembre 1924), p. 145.

(55) Oberlé et H.P.J. Renaud, «La Pénétration pacifique par le médecin au Maroc,» *Archives de médecine et de pharmacie militaires*, vol. 77, no. 3 (Septembre 1922), p. 18.

(56) *Historique du service de santé pendant la guerre 1914-1918: Troupes d'occupation du Maroc* (Rabat: Imprimerie Blanc, 1920), p. 9.

(57) «L'Action des service de la santé et de l'assistance publique pendant le mois de Janvier 1917,» *Bulletin officiel*, no. 224 (1917).

(58) Hubert Lyautey, *Paroles d'action: Madagascar, Sud-Oranais, Oran, Maroc (1900-1926)*, Préface de M. Louis Barthou (Paris: libr. Armand Colin, 1927) p. 440.

(59) Paul Chatinières, *Dans le grand Atlas marocain: Extraits du carnet de route d'un médecin d'assistance médicale indigène, 1912-1916*, Préface par Hubert Lyautey (Paris: Plon-Nourrit et Cie, 1919).

يعج بها، والتفكير في استثمارها لتذليل إخضاع المغاربة، كما سبقت الإشارة، دفع إدارة الحماية إلى إقامة مستشفيات أهلية لمحاصرة الأمراض والحد من تفاقمها.

أ- المستشفى المختلط بالجديدة

انتهى بناء هذا المستشفى في عام 1915، ليقص شريط خدمته في الأول من تشرين الأول/ أكتوبر من العام نفسه. وكان هذا المستشفى مخصصًا حتى بداية عام 1917 للساكنة الأهلية فحسب[60]، ليتحول منذ عام 1922 إلى مستشفى لمعالجة مكوّنات المجتمع الدكالي (مغاربة - جنود - أوروبيون) كلها[61]. وبناء على طلب ليوتي، أشرف المستشفى على مستوصف متنقل في المدينة الغربية ابتداء من عام 1917[62]. يعتبر هذا أول مستشفى عصري في المغرب، حيث جاء موقعه في الجهة العليا للمدينة، في نقطة تلاقي المدينة القديمة والمدينة الجديدة[63]. وهكذا، صار لمدينة الجديدة مستشفى يضمن الشروط الصحية الممكنة لعلاج المرضى والمحروقين[64] والمعطوبين، سواءً كانت في الصفوف العسكرية أم الأوروبية أم الأهلية. كما سهر هذا المستشفى على تنفيذ سياسة وقائية تعمل على الحد من ظهور أو انتشار الأمراض المعدية بين الشرائح المدنية والعسكرية المختلفة في دائرة دكالة[65].

كان مستشفى الجديدة المختلط يعاين ويعالج يوميًا أكثر من 200 حالة[66]، بينها 25 و70 مريضًا عسكريًا[67]، وشهريًا أكثر من 6222 حالة مرضية، وسنويًا

(60) Delanoé, p. 58.

(61) Archives nationales de Rabat, Carton no. P 74, L'Hopital indigène, p. 8.

(62) Rémon Faraché et Mustapha Jmahri, *Tout savoir sur El-Jadida et sa région* (Toulon: Les Presses du midi, 2005), p. 9.

(63) عبد الحميد بن أبي زيان بنشنهو، البيان المطرب لنظام حكومة المغرب، ط 2 (الرباط: مطبعة الأمنية، 1951)، ص 100.

(64) Delanoé, p. 60.

(65) Archives nationales de Rabat, Carton no. P 18, Service de santé de Mazagan, 1918, p. 5.

(66) المصدر نفسه، ص 9.

(67) Archives nationales de Rabat, Carton no. P 21, Hopitaux et dispensaires, 1917, p. 5.

بين 50000 و60000 مريض[68]. أكدت دولانوي أن زوار هذا المستشفى كانوا من مشارب المجتمع الدكالي المختلفة، وسجلت فيه زيارة 810 مرضى من النساء والأطفال الأوروبيين، و1787 امرأة مسلمة، و1560 طفلًا أهليًا، و935 امرأة يهودية، و1130 طفلًا يهوديًا[69]. وذكرت في السياق ذاته أن أغلبية العلاجات تمت بأمصال الحقن وبـ «التفلية» من القمل. وصل عدد الحقن المستهلكة في الشهر إلى 1202 حقنة في الشهور العادية، منها 368 حقنة في العِرق، و288 حقنة تحت الجلد، و50 حقنة في العضل، و140 حقنة ضد الجدري، و23 حقنة ضد التعفن، إضافة إلى علاج 200 مصاب بأمراض في العيون، و13 حالة إزالة القمل، و120 تلقيحًا وقائيًا[70].

حوت المستشفى مرافق ميّزت بين أجنحة خاصة بالعساكر والأوروبيين، وأخرى خاصة بالمواطنين المغاربة. تكوّنت الأجنحة الخاصة بالأوروبيين والعساكر من أربع غرف للجرحى والمصابين بالحمى[71] وقاعات لمعاينة النساء والأطفال وغرف للولادة[72]. أما الأجنحة الخاصة بالأهليين فضمت جناحًا خاصًا بالنساء[73] وآخر بالرجال. حوى كل جناح غرفًا للمعاينة والعلاج، وأربع غرف للعزل الطبي للأمراض[74] المعدية[75]، وجناحًا خاصًا بالأمراض العادية، وقاعة للتضميد، وقسمًا خاصًا بالولادة النسائية. كان جناح الرجال مفصولًا عن جناح النساء بحائط صغير، ووجد بين الجناحين مطبخ وقاعة لغسل مفارش المستشفى وأغطيته ومحل لبيع المواد الغذائية وآخر خاص بالأكل ومقصف خاص بالممرضات المحليات.

---

(68) Delanoé, pp. 59-60.

(69) المصدر نفسه.

(70) المصدر نفسه، ص 59-60.

(71) Archives nationales de Rabat, Carton no. P 21, Hopitaux et dispensaires, p. 6.

(72) Delanoé, pp. 59-60.

(73) «Santé et hygiène publique,» *Bulletin économique et sociale du Maroc*, vol. 6, no. 25 (Juillet 1939), p. 200.

(74) Archives nationales de Rabat, Carton no. P 21, Hopitaux et dispensaires, p. 6.

(75) «Aménagement de l'hopital indgène de Mazagan,» *Bulletin économique et sociale du Maroc*, vol. 9, no. 33 (Avril 1947), p. 34.

وفّرت الأجنحة الموجودة في المستشفى مرافق صحية وقاعات للانتظار والكشف الطبي والاستشارة الطبية والفحوصات وقاعة خاصة بالعمليات(76) ومختبرات للأشعة والتحاليل الطبية(77) ومخزنًا للأدوية والتجهيزات والصيدلية.

لم تكن المستشفى توفر خدمة الإقامة الليلية حتى للمرضى في حالات خطرة، على الرغم من وجود سبعين سريرًا من الحديد مع مرتبة «بلولب» وثلاثين نقالة للموتى والجرحى(78).

تشكل الطاقم الإداري المشرف على تدبير الشأن الصحي في دائرة دكالة من طبيب يشرف على إدارة الخدمة الصحية وتدبير شؤون المستشفى الجهوي في مدينة الجديدة، يساعده طاقمان موزعان إلى مجموعتين: واحدة تتكفل بمعالجة الأهالي وأخرى تعنى بالأوروبيين والعسكريين(79). تكوّنت المجموعة الأولى من طبيب يشرف على الجناح الاستشفائي الخاص بالرجال، متخصص بمعالجة الأهالي وإسعافهم، تساعده ثلاث ممرضات مغربيات، بينما أشرفت على الجناح الخاص بالنساء طبيبة متخصصة بمعالجة المغربيات وإسعافهن، تساعدها ممرضة أوروبية وثلاث ممرضات مغربيات. وانكبت المجموعة الثانية على خدمة الجناح الخاص بالأوروبيين والجنود الفرنسيين، تحت رعاية وحدة المعالجة المتنقلة التي تكوّنت من الطبيب المشرف على إدارة المستشفى المختلط في الجديدة، يساعده ثمانية ممرضين عسكريين وممرضة مدنية أوروبية مكلفة بالجناح المدني، وست ممرضات مغربيات(80). لم يقتصر عمل الأطباء داخل المستشفى المختلط في الجديدة فحسب، بل شمل حتى تفتيش الأماكن العامة والمدارس وميناء الجديدة بانتظام وتلقيح مرتاديهم، حيث كان أحد أطباء الطاقم يقوم بدور طبيب الحراسة الصحية البحرية، يساعده عامل صحة مكلف بالقضاء على الفئران في المدينة، إضافة إلى وجود طبيب للوقاية داخل المدينة، يؤازره طبيب مساعد متخصص

(76) Archives nationales de Rabat, Carton no. P 18, Service de santé de Mazagan, p. 6.

(77) Faraché et Jmahri, p. 97.

(78) Archives nationales de Rabat, Carton no. P 12, Service de santé de Mazagan, p. 9.

(79) Archives nationales de Rabat, Carton no. P 21, Hopitaux et dispensaires, pp. 6-7.

(80) Archives nationales de Rabat, Carton no. P 18, Service de santé de Mazagan, p. 8.

بالوقاية الطبية[81]. وإلى جانب الطاقم الطبي، وجد طاقم خدمي منوع، مكون من ممرض رئيس ومحاسب وكوكبة من العمالة المكونة من اثني عشر مستخدمًا في نظافة القاعات وتغذية المرضى وغسل الثياب وإدخال المصابين إلى القاعات المخصصة لهم[82].

ب- مستشفى لويس العسكري

أسس هذا المستشفى في عام 1912، وأُعيد بناؤه في عامي 1915 و1916 وسط غابة على مساحة سبعة وعشرين هكتارًا. احتضن هذا المستشفى أروقة متعددة، اختص كل جناح من أجنحته بمعالجة مرض أو وباء معين. وكان يضم أيضًا دارًا للولادة[83].

ج- مستشفى موشان الأهلي

انتهى بناء هذا المستشفى في عام 1918. ونظرًا إلى توافر أحدث الوسائل الطبية فيه وأروقة كثيرة ذات اختصاصات متعددة وأجنحة خاصة باليهود وأخرى للأعيان وقاعات خاصة بالعمليات ومختبر ومصلحة فحص بالأشعة، كان مقصدَ عدد كبير من الناس، يأتونه حتى من الصحراء[84].

3- المكتب البلدي الصحي

في عام 1914، حثّ ليوتي رؤساء البلديات على تعزيز المكاتب الصحية التي أنشئت تحت إشراف أطر طبية عسكرية ومدنية وتقانية، ومشاركة ممثل للمخزن وأحد أعيان الساكنة[85]. وكان الهدف المركزي من هذه المكاتب يتمحور في العمل على قطع دابر المصادر والمراتع التي من شأنها تحضير الأوضاع المواتية

(81) Archives nationales de Rabat, Carton no. P 21, Hôpitaux et dispensaires, p. 7.

(82) Archives nationales de Rabat, Carton no. P 18, Service de santé de Mazagan, p. 8.

(83) Edouard Sarrat, *Hygiène, médecine et chirurgie au Maroc: L'Œuvre médicale française au Maroc* (Casablanca : ed. de L'Afrique du nord illustrée, 1937), p. 179.

(84) المصدر نفسه، ص 232.

(85) Alix Woytt-Gisclard, *L'Assistance aux indigènes musulmans au Maroc*, Préface de Ch. Cézar-Bru, Collection des centres d'études juridiques de Rabat; 16 (Paris: Recueil Sirey, 1936), p. 93.

لتفشي الأمراض ونقل الأوبئة، مثل القاذورات والقمامات والفئران والبراغيث والقمل والبعوض...

كان المكتب البلدي الصحي ينكب في الأوقات العادية على:

- مراقبة الوفيات والتأكد من الموتى والقيام بإحصاءات ديموغرافية.

- جمع البيانات المتعلقة بالحالة الصحية للسكان، خصوصًا بيانات الأمراض المعدية.

- مراقبة المساكن صحيًا، وتنقية المدينة من القمامة والقاذورات، والقضاء على الفئران.

- مراقبة مياه الشرب، وما يعرض للبيع من مواد غذائية.

- مراقبة صحة المومسات.

- مراقبة الصحة المدرسية وتعميم التلقيح ضد الأمراض المعدية[86].

عندما تضرب موجة وبائية أو مرضية المغرب، أو منطقة منه، كان مكتب المنطقة يعكف على تطهير منابع الوباء أو المرض ومحاربته وعزل المتشردين والمتسكعين عن الساكنة، وإقفال الفنادق وتلقيح السكان[87]. وإلى جانب هذه المهمات، كان المكتب يلجّ المنازل والأزقة الآهلة بالسكان المغاربة لمعاينة الوفيات، أو لمنع أي دفن سري، أو لمكافحة الفئران. كما كان من اختصاصه تفتيش الأضرحة والفنادق والمقاهي[88]. كما مُنح المكتب سلطة اقتراحية في ما يخص المواصفات الصحية الواجب التقيد بها في التهيئة الحضرية، وكان يرفع تقارير دورية إلى المقيم العام، يلخص فيها نشاطه ومنجزاته والمشكلات التي تواجهه[89].

(86) رويان، الطاعون والزهري، ص 310.

(87) المصدر نفسه، ص 310.

(88) المصدر نفسه، ص 310-311.

(89) *Bulletin officiel* (23 Novembre 1912), p. 21.

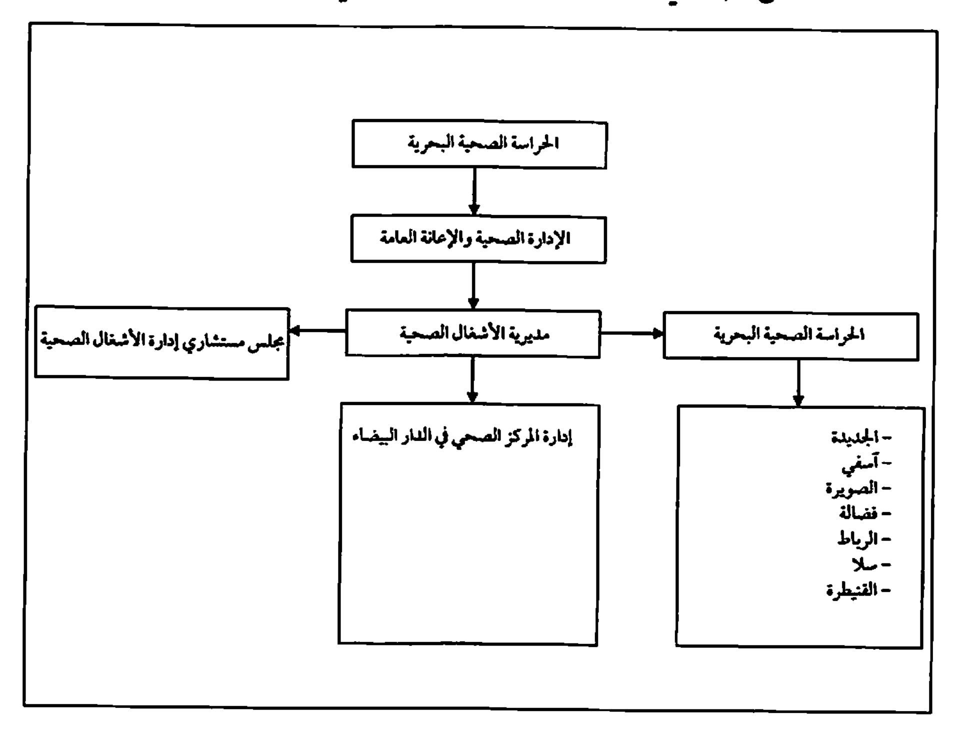
أ- الحراسة الصحية البحرية

بموجب قرار وزاري بتاريخ 13 آذار/مارس 1916، أُنشئ تنظيم خاص بالحراسة الصحية البحرية، تحت إشراف مديرية الأشغال الطبية. وتوافرت في ميناء الجديدة وباقي الموانئ المغربية في المنطقة السلطانية الوسائل الواقية من انتشار الأمراض والأوبئة، كما ضم حرم هذه الموانئ مساحات شاسعة سهّلت الحراسة الصحية للمهاجرين[90].

في ما يأتي خطاطة تبيّن الهيكل الإداري للحراسة الصحية البحرية في المنطقة السلطانية[91]:

الشكل (8-1)

الهيكل الإداري للحراسة الصحية البحرية في المنطقة السلطانية



(90) الفينة، ص 241-242.

(91) المصدر نفسه، ص 242.

ب- نقطة الحليب

أدركت إدارة الصحة العمومية منذ عام 1913 أن ضعف بنية الأطفال الرضع وارتفاع نسب وفاتهم ناجم عن تناولهم الحليب الفاسد أو عن سوء تغذيتهم. أمام هذه الحقيقة، وإلى جانب فتح مستشفيي «ماري فربي» و«مدام ليجي»، أمر ليوتي في عام 1914 بتأسيس «دور نقطة الحليب» لتعنى بصحة الأطفال الرضع[92]، خصوصًا الفقراء منهم واليتامى ضعاف البنية، ليجدوا فيها الحليب الجيد الذي يغذّيهم ويقوم مقام حليب الأم. كما كان أولياء الأطفال يتلقون في هذه الدور نصائح مفيدة تطور أسلوب تربيتهم للمحافظة على عافية الطفل الرضيع.

لم تقتصر مهمات هذه الدور على ذلك فحسب، بل تعدّته لتشمل خدمات أخرى، كإمداد الأمهات المرضعات بعلب الحليب المعقمة والرضاعات واللقاحات الضرورية[93].

ضمت هذه الدور قاعة لتعقيم الرضاعات وقاعة للتوزيع وقاعة الاستشارات ومغسلة وملبنة لملء قوارير الحليب[94].

أدت هذه المؤسسة دورًا رئيسًا في التقريب بين المغاربة والفرنسيين، وردم هوة الحقد الذي كان يكنّه المواطنون للمستعمر «الكافر». فإطعام رضيع كاد يهلك جوعًا أو إنقاذه من براثن موت محقق كان يؤدي بشكل «افتراضي» إلى شعور أسرة الرضيع بأن هذه الرعاية هي التي وهبته الحياة من جديد. إذ راهن ليوتي على هذه الورش الطبية في خلال الحرب من أجل إبقاء المغرب تحت النفوذ الفرنسي، وغزو قلوب المغاربة وإثارة إعجابهم بما تقدمه فرنسا للتخفيف من مكارب المغاربة وآلامهم، فأثار ذلك في المغربي البسيط تساؤلات عن الفرنسي «الكافر» شوّشت الصورة التي رسمها له في البداية. وما زالت الذاكرة المغربية حبلى بشهادات تثني على الأداء الطبي الفرنسي وممارساته في ربوع المملكة الشريفة المختلفة إبان الحرب العالمية الأولى وبعدها.

---

(92) «الاهتمام بصحة الأطفال،» السعادة، 22/ 11/ 1924، ص 3.

(93) Aissa, p. 138.

(94) Woytt-Gisclard, pp. 199-200.

خلاصة القول، اعتمد ليوتي سياسة التهدئة السلمية والدبلوماسية الطبية والسياسة الدينية والقائدية لاحتواء الوضع، فاللعب بالورقة الطبية في ظل ضعف الإمكانات الأهلية جعلته ينجح إلى حد كبير في تدبير أزمات المرحلة وتحديات المقاومة المسلحة وتداعيات الحرب العالمية الأولى. وبفضل هذه الاستراتيجيا، أرسى المغرب قواعد وأشكال طبية حديثة، ساعدت في الحد من سيل الموتى الذي كانت تحدثه بين الوقت والآخر «تسونامي» وبائية أو مرضية. وإذا فشلت إدارة الصحة العمومية في القضاء على الجوائح الصحية التي كانت تنخر المغربي، فإنها أسست على الأقل لممارسة طبية جديدة اعتمدت المنطق العلمي في التعاطي مع المرض، عبر وسائط طبية حديثة، خلخلت بشكل أو بآخر ثقافة الاستطباب عند المغربي الذي صار مشدودًا إلى التداوي بالجديد، من دون القطع مع الشعبيّ منه والتليد.

الفصل التاسع

مشاركة المغرب في الحرب العالمية الأولى وأثرها في المجتمع المغربي

محمد بكراوي

حين اندلعت الحرب العالمية الأولى، في بداية آب/ أغسطس 1914، كان المغرب يحتل مركزًا مميزًا وفريدًا في الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، للأسباب الآتية:

- كونه آخر بلد أفريقي وقع تحت الاستعمار الفرنسي بمقتضى معاهدة فاس الموقعة في 30 آذار/ مارس 1912، في وقت لم تمض فيه إلا سنتان على فرض الحماية الفرنسية على المغرب.

- لم تكن سلطات الحماية آنذاك قد انتهت بعد من إرساء وتركيز هياكلها السياسية/ الإدارية والاقتصادية الجديدة في المغرب.

- لم تتمكن فرنسا بعد من بسط نفوذها على مناطق البلاد كلها، والقضاء على المقاومة الشعبية المسلحة العتيدة التي ستصمد في وجه المحتل إلى ما بعد عام 1934. وعلى الرغم من ذلك، ومنذ الأيام الأولى للحرب، وجد المغرب نفسه مقحمًا في تلك الحرب العالمية التي لا مصلحة له فيها ولا تعنيه في شيء[1].

فكيف واجه المقيم العام الجنرال ليوتي الأوضاع الجديدة التي خلّفها إعلان الحرب العالمية الأولى؟ وما هي طبيعة أشكال الدعم الذي قدمه المغرب لفرنسا وخصوصيته؟ وماذا عن انعكاساتها العامة على المجتمع المغربي؟

(1) عن مشاركة المغرب في الحرب العالمية الأولى، انظر: Mohamed Bekraoui, *Les Marocains dans la grande guerre 1914-1919*, Préf. de Jean-Claude Allain ([Rabat]: Publications de la commission marocaine d'histoire militaire, 2009).

أولًا: التعبئة العسكرية

1- المقيم العام الجنرال ليوتي في مواجهة الحرب

أ- التعليمات الوزارية الفرنسية

في 27 تموز/ يوليو 1914، تلقى ليوتي برقية من وزير الخارجية الفرنسي جاء فيها: «في حالة اندلاع الحرب، ينبغي أن يهدف جهدكم كله إلى الاحتفاظ في المغرب بأدنى حد من القوات التي لا يمكن الاستغناء عنها، فمصير المغرب سيقرر في اللورين. وينبغي أن يقتصر احتلال المغرب على الموانئ الرئيسة، وإذا كان ممكنًا على خط المواصلات القنيطرة - مكناس - فاس - وجدة. ينبغي إخلاء المراكز والمواقع الأمامية كلها. واجبكم يحتّم إجلاء الفرنسيين والأجانب من الداخل ونقلهم إلى الموانئ لتأمين سلامتهم»[2].

أكد وزير الحربية الفرنسي أدولف ميسيمي من خلال برقية مماثلة، مع تأكيد إرسال الفرق العسكرية كلها المرابطة في المغرب إلى فرنسا[3].

كيف تعامل المقيم العام مع هذه التعليمات الوزارية؟ وكيف واجه الأوضاع الجديدة المترتبة عن اندلاع الحرب؟

أصيب ليوتي بقلق شديد وتردد كثيرًا في تنفيذ الأوامر الوزارية لما لها من انعكاسات خطرة على الوضع في المغرب حديث العهد بالاحتلال، وعلى المنجزات التي حققها في عامين.

في 30 آب/ أغسطس 1914، جمع ليوتي في الرباط أبرز مساعديه من الضباط لتدارس الوضع والإجراءات الواجب اتخاذها في حالة انسحاب جيوش الاحتلال من المناطق الداخلية، مثل زيان وناحية أكادير ومراكش ومكناس وفاس

---

(2) Service historique de l'armée de terre [S.H.A.T], Vincennes 3H361, télégramme no. 1S 9/11, ministre des affaires étrangères à Lyautey, 27 Juillet 1914, et Pierre Lyautey, *Lyautey l'Africain: Textes et lettres du maréchal Lyautey*, 4 tomes (Paris: Plon, 1954-1957), tome 2: *1913-1915*, p. 228.

(3) Service historique de l'armée de terre [S.H.A.T], télégramme no. 2S 9/11, ministre de la guerre au résident général, Paris, 27 Juillet 1914, et Lyautey, *Lyautey l'Africain*, tome 2, p. 229.

وتازة. فأجمع القادة على أن الانسحاب من بعض المناطق ربما يكون خطرًا على الوجود الفرنسي في المغرب، ولهذا رفض ليوتي الامتثال للأوامر، فأجاب الحكومة الفرنسية موافقًا على التعليمات القاضية بإرسال أكبر عدد من القوات إلى فرنسا، لكنه لم يكن مقتنعًا بالطرائق والوسائل التي اقترحتها الوزارة لتحقيق هذه الأهداف. فليوتي الذي كان يعرف جيدًا الوضع الداخلي في المغرب، كان يعتقد أنه لو وافق على خطة الوزارة وسحب قواته من الداخل لضاع المغرب وضاعت هذه القوات نفسها قبل مغادرتها المغرب. فللانسحاب نحو الساحل عواقب وخيمة في رأي ليوتي، لأن المغرب كله سيثور وسيجبر القوات المنسحبة على أن تحارب وهي متراجعة، ما سيُنهكها. وحينئذ، يصبح من الصعب الاحتفاظ حتى بالساحل، وستكون لذلك انعكاسات سلبية على الجزائر(4).

ب- خطة ليوتي

تبنّى ليوتي استراتيجية مغايرة تمامًا تقوم على إخلاء الساحل وحشد القوات الجاهزة كلها في الخطوط الأمامية في الداخل لمواجهة المقاومة والاحتفاظ بالمناطق المحتلة. وأُرغم على نهج خطة دفاعية أساسًا لصد الهجمات العنيفة التي كانت تشنها القبائل.

لهذه الخطة فوائد كثيرة:

- مكّنت المقيم العام من احتواء حركة المقاومة المسلحة ومحاصرتها في المناطق الجبلية، وكذا تضييق الخناق على القبائل اقتصاديًا بوساطة المراكز العسكرية التي شيّدها في المناطق المحتلة، كقصبة تادلا، أزيلال، القصيبة، أزرو.

- مكّنته من الاحتفاظ بالمغرب المحتل كله «كخزان يزوّد فرنسا بكل ما تحتاج إليه»، على حد تعبير ليوتي(5).

هكذا، ومنذ الأيام الأولى من اندلاع الحرب، شرع ليوتي فعلًا في إرسال الفرق العسكرية المطلوبة المحنكة وذات التجربة إلى فرنسا، وهي قوات نظامية

(4) Lyautey, *Lyautey l'Africain*, tome 2, p. 248.

(5) Service historique de l'armée de terre [S.H.A.T], 3H913, télégramme no. 754, Lyautey à diplomatie et guerre, Rabat, 8 Août 1914, et Lyautey, *Lyautey l'Africain*, tome 2, p. 237.

أجنبية تتألف من المشاة الفرنسيين وجنود جزائريين وتونسيين والأفريقيين الزنوج الذين زجّت بهم السلطات الفرنسية لغزو المغرب، إضافة إلى المدفعية. وبلغ العدد الإجمالي لهذه القوات ما مجموعه 58 كتيبة من المشاة (Tirailleurs)، إضافة إلى 22 سرية من الخيالة (Spahis)، أي ما مجموعه 50.000 رجل من أصل 85000 من قوات الاحتلال التي كانت متواجدة في المغرب. واستطاع المقيم العام تعويض هذه القوات المرسلة إلى فرنسا بفرق عسكرية أخرى أقل خبرة تتألف من فرنسيين مسنين (Territoriaux) ومغربيين وسنغاليين.

لتعويض النقص الحاصل في القوات العسكرية، لجأ ليوتي أيضًا إلى تجنيد آلاف الفرق الإضافية المغربية المؤلفة من الكوم والمخازنية (وهم محاربون متطوعون مساعدون) مؤطرة بقيادة فرنسية تملك تجربة عسكرية واستعمارية استخبارية كبيرة. فعدد فرق الكوم مثلًا ارتفع كالآتي[6]: 6 فرق في عام 1908، زادت إلى 16 فرقة في آب/ أغسطس 1914، إلى 25 فرقة في عام 1918.

جنّد ليوتي 4 آلاف رجل من المستوطنين الفرنسيين المقيمين في المغرب، من معمّرين وموظفين ورجال التعليم والبريد الذين نظّمهم في فيالق استعملها في إنجاز بعض الأشغال العمومية وفي الميدان الفلاحي، كما استعملهم أيضًا في تنظيم عروض عسكرية ضخمة لإظهار قوة الوجود الفرنسي وإخافة المغاربة وإرهابهم. وما يثير الانتباه هو أن التعليمات الوزارية الفرنسية الموجّهة إلى المقيم العام لم تتضمن أي إشارة واضحة إلى إرسال جنود مغاربة إلى ساحات القتال الفرنسية. فكيف زُجّ بهم في هذه الحرب الضروس؟

بعد تعيينه مقيمًا عامًا في المغرب في نيسان/ أبريل 1912، حافظ ليوتي على نظام التجنيد التطوعي الذي كان سائدًا في المغرب. وتمكّن من تجنيد عدد من الشباب المغاربة الذين ينتمون إلى مناطق البلاد المحتلة، ساهموا إلى جانب القوات الفرنسية في عمليات الغزو.

أقامت سلطات الحماية مراكز للتجنيد والتدريب في البيضاء والرباط ومراكش ومكناس، وهي مخصصة للمشاة والخيّالة في الوقت نفسه.

(6) Spillmann [Général], «Les Goums mixtes marocains,» *Revue historique de l'Armée*, vol. 8, no. 2 (Juin 1952), p. 139.

كان الجنود المغاربة يخضعون لمراقبة مشددة ولتدريب شاق ولقوانين انضباط صارمة. بلغ عددهم 8500 رجل في عام 1914، موزعون في 5 كتائب مُشاة، و11 سرية خيالة. ومنذ الأيام الأولى من الحرب، اقترح ليوتي على وزارة الدفاع الفرنسية إرسال هؤلاء الجنود إلى جبهة القتال وتعويضهم بجنود أوروبيين ومغاربة وأفارقة، لكن القيادة العليا الفرنسية رفضت اقتراحه، معتبرة الجنود المغاربة غير موثوق فيهم. ولا شك في أن ذكرى تمرد العسكر المغربي في فاس (نيسان/ أبريل 1912) ضد مدرّبيهم الفرنسيين لا تزال راسخة في الأذهان.

ألحّ ليوتي، وشرح فكرته ودافع عن مؤهلات المحاربين المغاربة القتالية وانضباطهم. بعد فترة من التردد، قبلت القيادة العسكرية الفرنسية طلبه، وهكذا نجح مرة أخرى في فرض وجهة نظره.

بلغ عدد المجندين المغاربة في خلال الحرب 45.000 محارب[7]، إضافة إلى 40.000 عامل في مقابل 175.000 جندي جزائري و60.000 تونسي[8].

يعتبر هذا الرقم مرتفعًا، خصوصًا إذا أخذنا في الاعتبار أن المغرب لم يقع تحت الاحتلال إلا منذ عامين، وأن مناطق شاسعة من البلاد (50 في المئة) لا تزال خارجة عن السيطرة الفرنسية بسبب ضراوة المقاومة المسلحة فيها. فكيف استطاع الاحتلال تجنيد هذه الأعداد الكبيرة من المغاربة؟

يرجع ذلك إلى ثلاثة أسباب رئيسة:

- **دور السلطان مولاي يوسف**: منذ أول أيام الحرب الأوروبية، وقف سلطان البلاد مولاي يوسف من دون تردد إلى جانب فرنسا والحلفاء. فأرسل الرسائل إلى المقيم العام في المغرب وإلى المسؤولين الفرنسيين يعبّر لهم فيها عن دعمه وتأييده المطلق في محنتهم العصيبة. وتُليت رسائل مماثلة أخرى في المساجد تدفع بالشعب المغربي إلى الوقوف إلى جانب فرنسا ضد أعدائها[9].

---

(7) Hubert Lyautey, *Paroles d'action: Madagascar, Sud-Oranais, Oran, Maroc (1900-1926)*, Préface de M. Louis Barthou (Paris: Libr. Armand Colin, 1927), pp. 391-392.

(8) Gilbert Meynier, *L'Algérie révélée: La Guerre de 1914-1918 et le premier quart du XXe siècle*, Travaux de droit, d'économie, de sociologie et de sciences politiques; 130 (Genève: Libraire Droz; Paris: Diffusion Minard; Diffusion Champion, 1981), p. 405.

(9) Lyautey, *Paroles d'action*, p. 392, et *Bulletin du comité de l'Afrique française* (1915), p. 60.

كما وجّه السلطان أيضًا رسائل تشجيع إلى الجنود المغاربة الذين كانوا يحاربون في ساحات القتال الفرنسية والأوروبية المختلفة. وأشاد المسؤولون الفرنسيون مرارًا في البرقيات الموجهة إلى السلطان بمواقفه النبيلة والمخلصة تجاه فرنسا، وبشجاعة الجنود المغاربة في جبهات القتال. ففي 18 آب/ أغسطس 1914 مثلًا، أرسل رئيس الحكومة الفرنسية ريمون بوانكاريه إلى السلطان برقية يشكره فيها على الدعم والمساعدة التي قدّمها لفرنسا، مبرزًا «تضامن المصالح بين البلدين»(10). فخصص ليوتي لهذه البرقية دعاية فائقة، حيث عمل على نشرها في الصحف وقراءتها في المساجد.

لخص ليوتي موقف السلطان بقوله: «منذ بداية الأزمة، برهن السلطان عن نبل وإخلاص وتأييد مطلق، حيث استغل نفوذه لتحميس الجنود بساحات القتال الأوروبية ولضمان خضوع السكان»(11).

استغل المقيم العام هيبة السلطان الدينية والروحية ودعمه ورسائله الموجهة إلى الجنود في فرنسا من أجل تحقيق أهدافه المتمثلة في:

• تسهيل عملية تجنيد الإمكانات البشرية والمادية كلها لدعم الجهد الحربي الفرنسي. ويعترف ليوتي بذلك: «بفضل السلطان سهّلت عملية التجنيد»(12).

• دعم عملية الغزو والتوسع العسكري في مناطق عدة من البلاد للتخفيف من وطأة المقاومة الشعبية.

• الحد من نشاط الطرائق والزوايا المعادية لفرنسا المنتشرة في جل مناطق المقاومة، مثل زاوية أمهاوش وأولاد سيدي الطيبي.

• إضفاء طابع الشرعية على التواجد العسكري المغربي في فرنسا من جهة، وسد المجال أمام الذرائع الألمانية كلها التي ربما تعتبر هذا التواجد غير شرعي ومخالف لروح معاهدة فاس.

---

(10) *Bulletin du comité de l'Afrique française* (1915), p. 59.

(11) Service historique de l'armée de terre [S.H.A.T], 3H361, télégramme no. 755G, Résident général à diplomatie et guerre, Rabat, 8 Août 1914.

(12) Service historique de l'armée de terre [S.H.A.T], 3H 149, Rapport du résident général au ministre de la guerre, le 20 Septembre 1914.

- **الحافز المادي:** كانت أوضاع السكان مزرية بسبب تسلّط المستعمر على أجود الأراضي الزراعية، وثقل الضرائب، ومنافسة الاقتصاد العصري للقطاع التقليدي (الفلاحي والحرفي)، والجفاف والأزمات الفلاحية المتكررة. هذه العوامل دفعت بعدد من الشباب إلى الانخراط في التجنيد بهدف تحسين وضعهم ووضع أسرهم المادي.

- **التهرب من المضايقات والابتزاز والتعسف:** للخلاص من بطش أعوان الإدارة من شيوخ ومقدمين، توجه الشباب نحو الأسواق الأسبوعية للانخراط في سلك الجندية، إذ كانت وسيلة للترقي الاجتماعي.

ج- المحاربون المغاربة في جبهات القتال الأوروبية

في 17 آب/ أغسطس 1914، وصلت الأفواج الأولى من الجنود المغاربة إلى مدينة بوردو[13] التي أقامت بها القيادة العسكرية الفرنسية مركزًا خاصًا لاستقبالهم. كان يشرف على هذا المركز ضباط فرنسيون سبق لهم الاشتغال في المغرب، ويعرفون جيدًا الجنود المغاربة، إضافة إلى مجموعة من القادة العسكريين المغاربة ومترجم. وأدمجت الكتائب الخمس في فيلقين للمشاة، يتألف الأول من 3 كتائب ويضم 2700 رجل، تحت قيادة توشار، ويتألف الثاني من كتيبتين ويضم 1600 رجل ويشرف عليه بويميرو الذي يعرف جيدًا المغرب والمغاربة (المجموع = 4300 رجل). ومنذ بداية المناوشات الأولى، أظهر الجنود المغاربة دراية عالية في القتال. ففي أيلول/ سبتمبر 1914، شاركوا في المعارك الأشد ضراوة وعنفًا إلى جانب القوات الفرنسية والحليفة، أبرزها معركة لورك (في 5 أيلول/ سبتمبر)، على بعد 30 كلم من باريس، فُقد خلالها 19 ضابطًا و1150 رجلًا، أي 30 في المئة من العدد الإجمالي. ثم شاركوا في معركة المارن الطاحنة[14]، بين 6 و10 أيلول/ سبتمبر، أظهر خلالها المحاربون المغاربة روحًا قتالية مميزة واستماتة كبيرة. واستطاعت الجيوش الحليفة في النهاية وقف زحف

---

(13) Alphonse Juin, *Historique succinct du 1er régiment de tirailleurs marocains* (Paris: impr. de Levé, [1935]), p. 3.

(14) المصدر نفسه، ص 5 - 6، و Lugand, «Historique des Tirailleurs Marocains,» *Revue historique de l'armée*, nos. 2-3 (1952), p. 44.

الجيوش الألمانية نحو باريس وأرغمتها على التراجع. ثم ساهموا في عام 1915 في معارك أرتوا وشامانيي وسواسون. وفي عام 1916، شاركوا في معارك جحيم فردان، وساهموا في تحرير قلعة دوومون في 22 و23 و24 أيار/ مايو 1916[15]. وفي بداية عام 1917، شارك الجنود المغاربة في الهجوم على منطقة ليسم.

أظهر المحاربون المغاربة عن شجاعة نادرة واستماتة واستبسال في المعارك الطاحنة التي شاركوا فيها، ما أبهر القيادة العسكرية الفرنسية والحليفة، فنالوا إعجاب الألمان أنفسهم، ولقبوهم بسنونو الموت (Les Hirondelles de la mort).

أشاد عدد من القادة العسكريين بشجاعة الجنود المغاربة وتضحياتهم. وأكد وزير الحربية ألكسندر ميلران مثلًا أنهم «منضبطون في الهجوم وفي المناورات، مندفعون في الهجوم والمواجهة، عنيدون في الدفاع عن مواقعهم حتى التضحية، متحملون قساوة مناخ الشمال. ولهذا فإنهم أعطوا بحق الدليل على كفاءتهم الحربية. هذه الخصال تجعلهم في نهاية المطاف في درجة أحسن قواتنا الأفريقية نفسها»[16]. وأضاف: «إنهم من بين أحسن محاربي الجيش الفرنسي».

حصل الفيلق الأول للمشاة المغاربة على 5 أوسمة عسكرية، ويُعدّ بذلك من الوحدات العسكرية الفرنسية الأكثر توشيحًا.

لم تقتصر مشاركة المحاربين المغاربة على المشاة فحسب، بل شملت أيضًا فيلقًا من الخيالة[17]، برز بدوره في جبهات القتال في فرنسا بين عامي 1914 و1917، حيث خاض معارك طاحنة نذكر منها: لامارن خلال أيلول/ سبتمبر 1914، ثم شامباين (آذار/ مارس 1915) و ليزيبارغ (نيسان/ أبريل)، ولاسوم (أيار/ مايو)، وأرتوا... وابتداء من بداية عام 1917، أرسل الخيالة المغاربة إلى البلقان والمشرق، فخاضوا معارك عدة في أوضاع تضاريسية ومناخية قاسية جدًا في اليونان وألبانيا والصرب وهنغاريا وبلغاريا (في عام 1919)، ثم في المشرق، خصوصًا في سورية (1919-1920)، حيث ساهموا في تحرير مناطق كثيرة من

---

(15) Juin, pp. 15-16.

(16) المصدر نفسه، ص 7-8.

(17) Service historique de l'armée de terre [S.H.A.T], 16 N903, le Régiment de marche de Spahis marocains, 1914-1919.

السيطرة الألمانية والنمساوية - المجرية، وفي استتباب الأمن فيها. استمر بذلك انقطاعهم عن وطنهم وعن ذويهم فترة ناهزت سبعة أعوام.

شجاعة فيلق الخيالة المغاربة مكّنته من الحصول على خمسة أوسمة عسكرية بدوره.

كانت أحوال العيش قاسية جدًا في جبهات القتال شمال شرق فرنسا، حيث عاني الجنود قساوة المناخ نظرًا إلى هطول الثلوج والبرد القارس، فأصبحوا عرضة لأمراض كثيرة، مثل الإلتهاب الرئوي والسل والزكام الحاد وتجمد الأعضاء. وكانت تجربة حرب الخنادق أكثر قساوة على نفسية المحاربين، حيث كانوا مجبرين على البقاء مدة طويلة في تلك الحفر الرديئة والنتنة التي تغمرها المياه.

د - الحصيلة

نظرًا إلى خصالهم القتالية وكفاءتهم الحربية العالية، دفعت القيادة العسكرية بالمحاربين المغاربة إلى الخطوط الأمامية للمعارك، فارتفعت بذلك الخسائر في صفوفهم.

في أواسط آب/ أغسطس 1914، أرسل ليوتي 4300 محارب مغربي إلى ساحات القتال الفرنسية، غير أن ضراوة المعارك وحدّتها ألحقت خسائر فادحة في صفوف المغاربة الذين تقلّص عددهم إلى 800 محارب خلال شهر واحد فقط من مشاركتهم في الحرب (80 في المئة). وصل مجموع القتلى المغاربة إلى 12000 قتيل من بين 45000 مقاتل، من دون حساب المفقودين والجرحى والأسرى، ما يمثل نسبة 26.6 في المئة التي تفوق نسبة الجنود الفرنسيين (24 في المئة) والمغاربة (15.1 في المئة).

2- مساهمة عمل المغاربة في الجهد الحربي الفرنسي

لم يكتف المقيم العام ليوتي بتجنيد الشباب المغاربة بصفتهم محاربين والزج بهم في الحرب لتموين الآلة الحربية الفرنسية، بل سعى أيضًا إلى دعم فرنسا بعمال لتعويض النقص الحاصل في يدها العاملة الناتج من أحوال الحرب.

في هذا السياق، أنشأت الحكومة الفرنسية ثلاثين معملًا حربيًا خلال الحرب الأولى لصنع البارود والغازات الكيماوية والألبسة العسكرية[18]، ما أدى إلى زيادة حاجة الاقتصاد الفرنسي إلى اليد العاملة.

3 - تزايد عدد العمال المهاجرين خلال الحرب العظمى

منذ بداية الحرب، اقترح ليوتي وضع عمالة مغربية رهن إشارة الحكومة الفرنسية، وبذلك دشن مسلسل تهجير واستغلال العمال المغاربة. وبدأت السلطات العسكرية في تنظيم عملية جلبهم وتجنيدهم.

إن أسباب هذه الهجرة معروفة، نذكر منها على سبيل المثال وضعية الفلاحين المزرية المترتبة عن تسلّط المعمرين على أراضيهم، وثقل الضرائب، وانهيار القطاع الزراعي التقليدي والحرفي أمام منافسة الاقتصاد الرأسمالي العصري، والجفاف والأزمات الفلاحية التي عرفتها بعض المناطق، والتي أدت إلى تدهور أحوال عيش الفلاحين والحرفيين والتجار الصغار، ودفعت بكثير منهم نحو الهجرة.

تنحدر أغلبية هؤلاء العمال من الجنوب الغربي ومنطقة سوس على الخصوص[19]، قبل أن يشمل التجنيد مناطق أخرى كانت توفّر الجنود أيضًا، مثل ناحية مكناس - فاس، تادلا، دكالة، عبدة، الرحامنة وتافيلالت.

تؤكد المصادر الفرنسية أن أول دفعة من العمال المغاربة الذين جرى انتقاؤهم بلغت 100 عامل فقط، وصلوا إلى ميناء بوردو في آذار/ مارس 1915[20]. وتزايد عددهم بتطور مراحل الحرب، حيث بلغ عددهم الإجمالي طوال مدة الحرب 40.000 عامل، وهذا رقم مرتفع، خصوصًا أن المستعمر لم يستطع بعد بسط سيطرته على جل التراب المغربي.

---

(18) Daniel Rivet, *Lyautey et l'institution du protectorat français au Maroc: 1912-1925*, Histoire et perspectives méditerranéennes, 3 tomes (Paris: l'Harmattan, 1988), tome 2, p. 258.

(19) Léopold Justinard, «Les Chleuhs dans la banlieue de Paris,» *Revue des études islamiques*, no. 4 (1928), p. 477.

(20) Archives nationales de France, Section Outre-Mer, Paris, «État numérique des ouvriers marocains en France,» 18 Mars 1915.

في فرنسا، كانت أوضاع العمل قاسية، خصوصًا في المعامل الحربية وفي الجبهات العسكرية الأمامية: حفر الخنادق وتجفيف الفيضانات وإخماد الحرائق.

عمومًا كانوا يُشغّلون في الأعمال الشاقة التي لا تتطلب تأهيلًا مهنيًا في مقابل أجور مخفضة لا تتجاوز في الأغلب 4 أو 5 فرنكات في مقابل عشر ساعات عمل في اليوم. كما عانوا غلاء المعيشة وسوء التغذية والسكن، وكذا صعوبة التأقلم مع الحياة الفرنسية، وقساوة المناخ القارس ومشكلات الميز العنصري، الحنين إلى الوطن والوحدة والحزن وقساوة الغربة.

لكن، على الرغم من هذه المشكلات كلها، تمكن العمال من الاستفادة من الاحتكاك بالعمال الفرنسيين والأوروبيين وأبناء المستعمرات، ما تولدت عنه مكاسب عدة.

يؤكد أوكستان برنار[21] أن العمال المغاربة انخرطوا في الأحزاب اليسارية الفرنسية كالحزبين الاشتراكي والشيوعي. كما انخرط عدد كبير منهم في النقابات الفرنسية، خصوصًا منها الكونفدرالية العامة للشغل (C.G.T) للدفاع عن حقوقهم، وانخرطوا بعد عام 1920 في تنظيمات مغاربية كنجم الشمال الأفريقي.

كان للحرب العظمى تداعيات أساس على اليد العاملة المغربية، ذلك أنها دشنت مسلسل هجرة الأفواج الأولى من العمال المغاربة إلى الخارج. فاكتشفوا المصانع العصرية والآلات المعقدة، وعاشوا تجربة النضال النقابي والاجتماعي. كما احتكوا بعمال من جنسيات وآفاق مختلفة تمخّض عنه اكتساب وعي سياسي ونقابي. فكان لهذا كله تغيير في العقلية والتفكير وتأثير في إذكاء وعيهم القومي. وبعد عودتهم إلى أرض الوطن ساهموا في بلورة الأفكار التحررية التي تشبعوا بها في المهجر.

ثانيًا: التعبئة الاقتصادية

استغلت السلطات العسكرية الفرنسية المغرب خزانًا حقيقيًا للرجال لتموين الآلة الحربية الفرنسية. والاستغلال نفسه مارسته في الميدان الاقتصادي، ذلك أنه

(21) Archives de la chambre de commerce de Marseille, ML4.2.7.3.2, «Note sur l'emploi de la main-d'œuvre nord-africaine dans le port de Marseille,» Rédigée par Augustin Bernard pour le compte du gouverneur général de l'Algérie, Marseille, 23 Décembre 1918.

منذ الأيام الأولى من اندلاع الحرب، اتخذ المقيم العام ليوتي قراره: «... سأعطي فرنسا كل ما تطلبه مني، وسأحتفظ بالمغرب كله [...] كخـزان يمد فرنسا بكل ما تحتاجه...»[22].

ما هي الإجراءات والتدابير التي اتخذها لتحقيق هذا الهدف؟

من المعلوم أن الزراعة وتربية الماشية تشكلان النشاط الاقتصادي الرئيس والمورد الأساس للمغاربة، ذلك أن 4 /5 منهم يزاولون ويعيشون على النشاط الفلاحي. وبقي إنتاج هذا القطاع مرتبطًا تقليديًا بالأحوال المناخية ونوعية التربة. وكان الفلاح يعيش تحت هاجس الجفاف الذي كان يحدد إنتاجه، وكانت المحاصيل تتفاوت من سنة إلى أخرى.

الجدول (9-1)

تطور الإنتاج الزراعي في المغرب بين عامي 1915 و1918[23]

(بملايين القناطير)

عام	1915	1916	1917	1918
القمح	5.10	6.03	5.34	7.52
الشعير	6.58	8.96	6.28	9.30
الإنتاج الإجمالي (بما في ذلك الذرة، القمح اللين...)	13.8	17.3	14	19.6

يُعزى هذا الارتفاع الواضح في إنتاج الحبوب إلى ثلاثة عوامل رئيسة:

- تميزت سنوات الحرب بملائمة أحوالها المناخية للإنتاج الفلاحي، باستثناء عام 1917.

- زادت المساحات المزروعة، خصوصًا في السهول الأطلسية الخصبة

(22) Service historique de l'armée de terre [S.H.A.T], 3H94, Rapport no. 535 CMC, Lyautey au ministre des affaires étrangères, Fès le 29 Novembre 1916, et au gouvernement français, 1 Décembre 1916.

(23) Roland Lebel, *L'Impôt agricole au Maroc: «Le Tertib»* (Paris: Émile Larose, 1925), pp. 162 et sqq.

الملائمة لزراعة الحبوب[24]، من 1580 هكتارًا في عام 1915 إلى 2240 هكتارًا في عام 1918، أي بزيادة 70 في المئة. ونشير هنا إلى أن الفلاحين المغاربة ما زالوا يستغلون 98 في المئة من مجموع المساحات المزروعة، فيما يستغل المعمرون 2 في المئة فقط.

- تحسن إنتاج الحبوب بسبب ارتفاع قيمة الضرائب، خصوصًا ضريبة الترتيب التي أجبرت الفلاحين على مضاعفة إنتاجهم لمواجهة ثقل تكاليفها، إذ ارتفعت قيمة هذه الضريبة اضعافًا عدة[25]، من 3.5 في المئة في عامي 1913 و1914 إلى 32 في المئة في عام 1918، أي 11 ضعفًا تقريبًا خلال أربعة أعوام. كما ارتفع بشكل ملحوظ عدد رؤوس الماشية من أبقار وأغنام وماعز.

1- تدابير تعسفية

أصدر المقيم العام قرارات وتدابير تعسفية، كان الهدف منها وضع الخيرات الفلاحية المغربية في خدمة التموين العسكري لدعم الجهد الحربي الفرنسي، وإخضاع الاقتصاد المغربي لتوجيه صارم لم يشهده المغرب من قبل. ففي 2 آب/أغسطس 1914، فرضت الإقامة العامة حالة الحصار في المغرب، فعاشت البلاد تحت وطأة الحكم العسكري[26]. وفي اليوم نفسه، منع ليوتي تصدير المواد الزراعية والحيوانية المغربية إلى الخارج[27]، ووضعها رهن إشارة فرنسا وحدها لتعويض النقص الحاصل في إنتاجها. ويعتبر هذا الحظر خرقًا سافرًا لمقررات معاهدة الجزيرة الخضراء (1906) التي أقرت مبدأ الباب المفتوح والمساواة بين الدول.

في اليوم التالي، أمر المقيم العام بتطبيق قانون المصادرة[28] في أنحاء البلاد، ثم أقر حق احتكار تجارة المواد الفلاحية الأساسية وجمعها وتخزينها وتحديد أسعارها من مصلحة التموين العسكري التي أصبحت تتحكم بالاقتصاد المغربي.

---

(24) Lebel, *L'Impôt agricole*

(25) المصدر نفسه.

(26) *Bulletin officiel* (1914), p. 631.

(27) *Bulletin officiel* (1914), p. 647.

(28) *Bulletin officiel* (1914), p. 648.

وكانت سلطات الاحتلال تهتم بالحبوب أساسًا، إذ عبأت المعمرين والتنظيمات الفلاحية والفلاحين المغاربة لزيادة الإنتاج، والانخراط في «معركة القمح»[29] التي أطلقتها، من خلال توزيع بذور القمح اللين ومنح مكافآت وتسهيلات للحصول على القروض وتوسيع المساحة المخصصة لزراعته، إضافة إلى استعمال المكننة لتعويض النقص الحاصل في اليد العاملة وتطوير وسائل الري.

كانت سلطان الحماية تتوخى من وراء ذلك كله جعل المغرب خزانًا يزوّد فرنسا بالحبوب على غرار ما حدث في عهد الإمبراطورية الرومانية. ومثّلت صادرات الحبوب بالموانئ المغربية النشاط الرئيس. وكتبت جريدة **السعادة** في هذا الصدد: «... إن حركة تجارة الحبوب هي الحركة التجارية الكبرى اليوم وعليها المعول في البلاد...»[30].

كانت مصلحة التموين العسكري تحدد أسعار الحبوب في الموانئ وفي المراكز الداخلية التي أنشأتها في مناطق البلاد المختلفة، وتعمل على نشرها في الصحافة.

الجدول (9-2)

الأسعار المحددة لشراء الحبوب في بعض المراكز الفلاحية في المغرب في عام 1915 (بالفرنك للقنطار الواحد)[31]

	الدار البيضاء	آسفي	القنيطرة	برشيد
القمح	25	24	25	22.5
الشعير	15	14	13	15
الذرة	22	21	21	

كانت الأسعار المفروضة على الفلاحين المغاربة تقل بنسبة 36 في المئة عن الأسعار المتداولة في الأسواق الخارجية، فخسر الفلاح المغربي كثيرًا، بينما

(29) Rapport mensuel du protectorat, Septembre 1914, p. 25.

(30) «شراء الحبوب،» السعادة، 5/ 8/ 1915، و6/ 8/ 1915.

(31) André Stéphen Paul Marie Grandclément, «La Contribution du Maroc au ravitaillement de la France pendant la guerre de 1914-1918,» *Revue du service de l'intendance militaire*, vol. 39 (1932), p. 159.

قُدّرت أرباح الحكومة الفرنسية بمليار فرنك. وبالتالي، تفاقم الوضع الاقتصادي في المجتمع المغربي وصار الوسطاء المغاربة والأوروبيون واليهود يجبرون الفلاحين على القبول بالأثمان الرسمية المخفّضة، ما دفع بهم إلى إخفاء منتوجهم والبحث عن أسواق أخرى، كشمال المغرب والجزائر، لبيعه هناك بأثمان مرتفعة.

مكّنت هذه الإجراءات والتدابير المتشددة مصلحة التموين العسكري من احتكار كميات كبيرة من المنتوجات الزراعية وتخزينها. وأرسل ليوتي 100 ألف قنطار من القمح الصلب في آب/ أغسطس 1914 إلى فرنسا، وبلغت هذه الكمية في نهاية الحرب 8 ملايين قنطار من المنتوجات الزراعية المتنوعة، معظمها من الحبوب[32]، من دون أن ننسى منتوجات الغابة والأخشاب، إضافة إلى الآلاف من رؤوس الماشية وعدد من الخيول والبغال والحمير.

2- حصيلة تصدير المواد الفلاحية

منذ عام 1911، كان المغرب مجبرًا على تموين جيش الاحتلال الفرنسي والجالية الأوروبية المستقرة في البلاد وقتئذ، وكان يقدّر عددها بنحو 200 ألف نسمة. كانت هذه الجالية تعتمد في عيشها على المنتوجات الزراعية المحلية التي تناهز 50 ألف قنطار من القمح و350 ألف قنطار من الشعير سنويًا، تُضاف إلى الكميات الأخرى المصدرة إلى فرنسا.

الجدول (9-3)

المساهمة الزراعية المغربية في دعم فرنسا في الحرب العالمية الأولى[33]

المنتوج	بالقنطار
القمح	983.000
الشعير	904.00 3
الذرة الصفراء	743.000

يتبع

(32) Grandclément, «La Contribution».

(33) Archives Nationales de Rabat [A.N.R], Cartons nos. 35, 38, 148..., et Henri Dugard, «La Coopération économique du Maroc à la guerre,» *Les Annales coloniales* (13 Septembre 1920), pp. 255 et sqq.

تابع

الذرة البيضاء	115.900
الفول	803.000
الحمص	173.500
العدس	50.500
الجلبان	32.000
اللوبيا	700
البيض (كلغ)	18.200.000

إلى ذلك، تضاف الماشية، إذ صُدّر 18500 رأس غنم، و5080 بقرة، و15300 خنزير إلى فرنسا، وتضاف مواد أخرى، مثل الصوف (84700 قنطار)، وجلود الماعز (2250000 وحدة)، وجلود الغنم (79.700 وحدة)، وجلود البقر (10400 وحدة)، إلى جانب 21600 قنطار من الحلفاء (عشبة عطرية).

في تقدير إجمالي، صدّر المغرب إلى فرنسا خلال الحرب 8 ملايين قنطار من الحبوب والقطاني، شملت المزروعات التي تنتجها الأرض المغربية، مثل الخرطال والبشنة والسميد والنخالة واللوز والكمون والحلبة والكسكس والكزبرة وزيت الكتان وزيت الخروع، وبعض المنتوجات الحرفية كالزرابي والبلاغي. كما ساهم المغرب أيضًا في تموين مدينة طنجة الدولية والمنطقة الشمالية من البلاد، التابعتين للنفوذ الإسباني، إضافة إلى جبل طارق وتونس ومالطا وجزيرة مادير.

3- المساهمة المالية

تجلت مساهمة المغرب المالية في إرساله مخزونه من الذهب كاملًا إلى فرنسا، أي نحو مليون فرنك[34]. كما نظمت في المغرب عمليات اكتتاب في قروض الحرب الفرنسية، واكتتابات أخرى مختلفة وإعانات منوعة بلغ مجموعها 576 مليون فرنك[35] بين عامي 1915 و1918، إضافة إلى تبرعات بعض الأعيان

(34) Henri Dugard, *Le Maroc au lendemain de la guerre*, Bibliothèque politique et économique (Paris: Payot, 1920), p. 251, et *Bulletin officiel* (1916), p. 202.

(35) Dugard, *Le Maroc*.

المغاربة وأفراد الجالية اليهودية الذين ساهموا بمبالغ مهمة، «كإعانة جرحى الحرب وعائلات المجندين»، وفقًا لما تذكره جريدة السعادة[36].

أما المعادن التي اكتشفت في المغرب، فأرسلت إلى المصانع الفرنسية لتفي بحاجاتها المعدنية، ونذكر منها - على سبيل المثال لا الحصر - معدن المنغنيز الذي صدّر منه المغرب خلال الحرب 36 ألف طن سنويًا، وهي كمية تفي بنحو 30 في المئة من الحاجات الفرنسية.

ختامًا، أظهرت الحرب العظمى المغربَ باعتباره أحد أهم مموني الآلة الحربية الفرنسية، وخزانًا حقيقيًا زوّد فرنسا بكل ما احتاجت إليه من جنود وعمال ومنتوجات زراعية منوعة ومعادن، بأقل كلفة ممكنة. وبذلك، استنزفت فرنسا القدرات المغربية طوال الحرب، ما أدى إلى اندلاع أزمة اقتصادية حادة في البلاد امتدت إلى عام 1922، وتجلّت في أزمة نقدية رفعت أسعار المواد الاستهلاكية، فانتشر البؤس الاجتماعي، وبدأت علامات المجاعة تظهر في مناطق عدة، وتفشّت الأمراض والأوبئة.

ثالثًا: آثار الجهد الحربي في المجتمع المغربي

1- الانعكاسات الاقتصادية والاجتماعية

ترتب عن المساعدات الاقتصادية والبشرية الضخمة التي قدمها المغرب لفرنسا خلال أعوام الحرب تداعيات اقتصادية واجتماعية سيئة على المغاربة. جنّد المستعمر آلاف الشبان المغاربة لتموين آلته الحربية، ونهب الخيرات الزراعية والحيوانية والمالية التي تزخر بها البلاد، فعانى السكان كثيرًا جراء هذا الاستغلال الاقتصادي الشديد، خصوصًا أنه أدى إلى نقص كبير في الحبوب والطحين والبيض وغيرها من المواد الاستهلاكية. فخلال المواسم الفلاحية الجيدة، حقق الفلاحون المغاربة فائضًا في الإنتاج، خزنوا جزءًا كبيرًا منه في المطامير. لكن، ابتداءً من عام 1914، قلّت الحبوب في جميع أنحاء المغرب، وحتى في المناطق الغنية زراعيًا، بسبب مصادرة مصلحة التموين العسكري محاصيلهم. ويعترف

---

(36) السعادة، 13/ 1/ 1916، و14/ 1/ 1916.

ليوتي بذلك صراحة: «استجابة للنداءات الملحة، صودر احتياطي الحبوب، وأفرغت جميع المطامير...»[37].

لم تقتصر الندرة على المواد الغذائية وحدها، بل طالت مواد أخرى كالسكر والشاي والشموع والأثواب والنفط والحديد، وترتب عن ذلك ارتفاع باهظ في أسعارها، بسبب انخفاض الواردات المغربية نتيجة أحوال الحرب واحتكار كبار التجار والمضاربة. وكتبت جريدة السعادة في هذا الصدد: «إن عددًا من التجار اغتنموا حوادث الحرب لبيع المأكولات اللازمة بأثمان فاحشة»[38]. فارتفع مثلًا ثمن الخبز بنسبة 40 إلى 45 في المئة. ويؤكد المقيم العام هذا الأمر قائلًا: «بلغ سعر الخبز حدًا لا يُطاق، إلى درجة أنه لم يعد في متناول الطبقات الشعبية»[39].

الجدول (9-4)

الارتفاع الباهظ في أسعار بعض المواد الاستهلاكية[40]

(بالفرنك)

	1914	1916	1917	كانون الثاني/ يناير 1920	نيسان/ أبريل 1920	الزيادة
القمح (القنطار الواحد)	20	25	30	68	110	6 مرات
الشعير	14	16		43	68	5 مرات
البيض (صندوق 1440)	72				560	8 مرات
الفول (القنطار)	12 إلى 16				84	7 مرات

اختفت المواد الاستهلاكية الضرورية من الأسواق، وارتفعت أسعار المواد المستوردة ارتفاعًا فاحشًا. وتعترف الإقامة الفرنسية العامة بأن «غلاء المعيشة في المغرب خلال الحرب يفوق مستوى المعيشة في فرنسا بنسبة 40 إلى 50 في

(37) Lyautey, *Lyautey l'Africain*, tome 4: *1919-1925*, p. 91.

(38) السعادة، 6/ 8/ 1914.

(39) Lyautey, *Lyautey l'Africain*, tome 4, p. 91.

(40) *Annuaire économique et financier 1921-1922* (Cannes: Imprimerie F. Robaudy, 1922), pp. 255-260, et Rivet, tome 3, pp. 72-73.

المثة»[41]. انعكس هذا الارتفاع سلبًا على القدرة الشرائية عند الفئات الشعبية الفقيرة، وعلى أحوالها المعيشية، ما أدى إلى انتشار المجاعة والأمراض، وهلك في إثرها كثير من الناس ونفقت قطعان الماشية.

أمام هذا التفاقم في الوضع الغذائي، اضطرت سلطات الحماية إلى التدخل واتخاذ إجراءات طارئة، لتكسير الاحتكار والمضاربة المفرطة. فأصدرت مراسيم تعاقب المحتكرين والمضاربين وقننت أسعار جميع السلع وعملت على إلصاق التسعيرة (Mercuriale) في البلديات ونشرها في الصحف. وقدمت أيضًا مساعدات غذائية مستعجلة إلى السكان المعوزين وفتحت ورشات خيرية[42].

أثرت الأزمة السكرية في المجتمع المغربي طوال الحرب نتيجة قلة السكر، هذه المادة الحيوية المستوردة؛ إذ يستهلك المغاربة آلاف الأطنان من السكر بأشكاله وأصنافه المنوعة، فتقدّر الإحصاءات أن معدل استهلاك السكر لكل مغربي سنويًا بلغ 9 كلغ في عام 1912 و17.5 كلغ في عام 1920. ويختلف هذا المعدل من منطقة إلى أخرى، بحسب الفئات الاجتماعية[43].

كما يعتبر الشاي مادة أساس في غذاء المغاربة إلى جانب الخبز، وتتناوله العائلات مرات عدة في اليوم.

الجدول (9-5)

استيراد المغرب من السكر قبل الحرب[44]

	1909	1910	1911	1912	1913
الحجم (بملايين الكلغ)	44	40	47	54	80
القيمة (بملايين الفرنكات)	19	19	22	22.5	37

(41) Archives nationales de Rabat [A.N.R], Protectorat de la république française au Maroc, Notice sur le protectorat français au Maroc, Rabat, 1916, p. 18.

(42) Rivet, tome 3, p. 73.

(43) René Hoffherr et Roger Moris, *Revenus et niveaux de vie indigènes au Maroc*, Avec la collaboration de MM. C. Funck-Brentano, [et al.], Cartes établies par M. Jean Dresch (Bordeaux: impr. J. Bière; Paris: Libr. du Recueil Sirey, 1934), pp. 67 et sqq.

بلغ المعدل الاستهلاكي من السكر 26 كلغ لكل فرد في عام 1932.

(44) Archives Nationales de Rabat [A.N.R], Contrôle des municipalités, Carton no. 948, Ravitaillement des villes en sucre: 1914-1929, et la note sur le sucre au Maroc: Archives de la chambre de commerce de Marseille, Série M.Q.5-2: Maroc 1811-1918: Note sur l'exportation des sucres au Maroc, Marseille, 29 Avril 1915.

في عام 1913، بلغت كميات السكر المستوردة عبر الموانئ الأطلسية 700 ألف قنطار، وعبر الجزائر 100 ألف قنطار، أي ما مجموعه 800 ألف قنطار، بقيمة إجمالية قدرت بـ 37 ميلون فرنك. وكانت فرنسا تزوّد المغرب بنصف وارداته من السكر. وارتفعت الواردات في المنطقة الخليفية من 100 إلى 200 ألف قنطار، في حين زادت الواردات من الشاي (من إنكلترا أساسًا) على 3 آلاف طن في عام 1913، بقيمة 6.8 مليون فرنك. لكن تسببت أحوال الحرب بانخفاض مفاجئ وكبير في كميات السكر المستوردة، ما عرقل تموين المدن وضواحيها والبوادي. ونتج من المضاربة اختفاء السكر من بعض المناطق المغربية. كما احتدت الأزمة بتوقف الواردات من إنكلترا وبلجيكا، وبانقطاع العلاقات التجارية بين المغرب وألمانيا والنمسا - المجر.

الجدول (9-6)

انخفاض الواردات من السكر والشاي بين عامي 1914 و1919[45]

(بملايين الكلغ)

	1914	1915	1916	1917	1918	1919
السكر	38.8	58	41.5	44	30	44.5
الشاي	1.9	2.5	3.1	2.4	1.7	1.9

استاء الناس من هذه الأزمة، ما دفع ليوتي إلى إطلاق التحذيرات من اندلاع الاحتجاجات، قائلًا إن «السكر يكتسي أهمية سياسية واجتماعية قصوى في المغرب»[46]. وهذا يدل على أن السكر أصبح مادة حيوية في تغذية السكان لا يمكن الاستغناء عنه. وقال أوغستان برنارد إن «المغاربة تثور أعصابهم وينفعلون كثيرًا حينما لا يتناولون الشاي بالسكر»[47].

(45) Archives nationales de Rabat [A.N.R], Contrôle des municipalités, et *Annuaire économique*, pp. 124 et sqq.

(46) Archives nationales de Rabat [A.N.R], Dossier ravitaillement, télégramme du résident général à Delcassé, ministre des affaires étrangères, Rabat, 6 Novembre 1914.

(47) Augustin Bernard, *L'Afrique du nord pendant la guerre*, Histoire économique et sociale de la guerre mondiale. Série française (Paris: Presses universitaires de France; New Haven, Conn: Yale University Press; Dotation Carnegie pour la paix internationale, [1926]), p. 45.

استاء المقيم العام من قلة السكر: «... إن أزمة السكر ستستفحل هنا [...]، إلى درجة أنها قد تخلق وعيًا سياسيًا واجتماعيًا، وستتحول بعد ذلك خطرًا حقيقيًا على أمن واستقرار الحماية والمعمرين، إذا لم يتم تدارك هذا النقص الذي يزداد يومًا بعد آخر»[48].

انشغل ليوتي بأزمة السكر، فبحث في أنحاء المعمورة عن مصدر جديد، واتجه إلى مصر وإسبانيا وإيطاليا وهولندا وأستراليا وأميركا الجنوبية. وللتخفيف من هذه الأزمة، صادرت الإدارة السكر المستورد في الموانئ وقننت بيعه لتجار الجملة، وفرضت عليه ضريبة إضافية بموجب ظهير 12 كانون الأول/ ديسمبر 1915 الذي حدد قيمتها 10 فرنكات للقنطار الواحد[49]، وارتفعت إلى 20 فرنكًا في بداية عام 1918. إلا أن تضاعف الضريبة مرتين في أقل من ثلاثة أعوام لم يؤثر في الطلب ولا في الطاقة الاستهلاكية.

لإلقاء المسؤولية بعيدًا عنها، منحت سلطات الحماية المجالس البلدية حق تسويق السكر، بعدما فرضت عليه إجراءات تقنينية مشددة لم يعرفها المغرب من قبل، تمثلت بـ:

- تحديد أسعار المواد الاستهلاكية - وبينها السكر - أسبوعيًا، وإلصاق التسعيرة في البلديات ونشرها في الصحف.

- إلزام التجار الإعلان عن مخزونهم.

- تسليم بطاقة (بون) للتجار تسمح لهم بشراء كيس واحد من السكر في أماكن خاصة يشرف فيها المحتسب والمراقب المدني الفرنسي على عملية التوزيع.

مست هذه القيود حرية التجارة، فارتفعت أصوات الاحتجاج، وتدخّلت الشركات التجارية عند الإقامة العامة لإبطالها. كما طلبت الحكومة البريطانية

---

(48) Archives nationales de Rabat [A.N.R], Services municipaux de Fès, «Note sur la question du sucre à Fès,» Chef des services municipaux, Fès, 10 Avril 1915.

(49) François Piétri, *Les Finances du Maroc pendant la guerre: Conférence faite au Centre de perfectionnement de Meknès* (Casablanca: Impr. Rapide, 1918), pp. 13 et sqq.

توضيحات في شأن القيود الصارمة المطبقة، خصوصًا في فاس ومكناس. ولتبرير موقفه، أعلن ليوتي أن «تقنين تجارة السكر في مكناس استهدف تأمين فاعلية الحصار الاقتصادي المضروب على القبائل المتمردة في ضواحي المدينة...»(50). وهذا يوضح بجلاء أن إدارة الحماية ساهمت في افتعال أزمة السكر واستخدمتها سلاحًا غذائيًا لمجابهة المقاومة الشعبية العتيدة. أدت أزمة السكر التي عاناها المغرب خلال الحرب العالمية الأولى إلى تفاقم الأوضاع المعيشية للشرائح الاجتماعية الفقيرة من فلاحين وحرفيين وتجار صغار الذين عانوا النقص في المواد الاستهلاكية الرئيسة، والارتفاع الباهظ في أسعارها والمجاعة والأوبئة، ما أدى إلى تنظيم تظاهرات احتجاجية في كثير من أنحاء البلاد وفي المدن الكبرى.

2- الانعكاسات السياسية

أدت الحرب العظمى إلى انهيار الأنظمة الإمبراطورية المطلقة وانتصار الديمقراطية والليبرالية وفقدان أوروبا هيبتها وهيمنتها السياسية والاقتصادية على العالم لمصلحة قوات جديدة أهمها الولايات المتحدة الأميركية واليابان. فنما عند شعوب المستعمرات وعي بضرورة التحرر، نتج منه قيام حركات وطنية في الهند والبلدان العربية والإسلامية. كما اجتاحت العالم مبادئ وأفكار جديدة مثل مبادئ الثورة البلشفية ومبدأ تقرير مصير الشعوب والديمقراطية والحرية التي أصبحت قضية الساعة في العالم العربي والإسلامي شرقًا وغربًا.

أ- يرقة الحركة الوطنية المغربية ونموها

لم يكن المغرب بعيدًا عن التطورات التي شهدها العالم، خصوصًا محيطه العربي، إذ تركت أثرًا في الشباب المغربي وفي فاعليات سياسية وفكرية وبعض فئات البرجوازية التجارية. فأجمع المغاربة على أن بلدهم الذي ساند فرنسا بالوسائل المتاحة كلها لم يستفد شيئًا من هذه الحرب. وكان من الطبيعي الاعتراف بجميل المغرب في الحرب ودعوته إلى إرسال ممثلين عنه إلى جلسات مؤتمر

---

(50) Archives nationales de Rabat [A.N.R], Services municipaux de Meknès, Général Henry, Commandant général du nord, au résident général, Réponse à la note du 11 Avril 1915, no. 666 N. R, Au sujet de la réglementation du commerce du sucre, Meknès, 9 Mai 1915.

السلام في باريس، أو إلى الجلسة التي تهمه على الأقل. وعبّر سلطان البلاد عن هذه الرغبة، ودعم ليوتي موقفه، غير أن الحكومة الفرنسية رفضت ذلك، ما يفسر عدم اعترافها بسيادة المغرب، فشعر المغاربة بخيبة أمل ومرارة. وهذا الموقف سيستغله الشباب الوطني لاحقًا ليطلقوا دعوتهم إلى التفكير في خيارات أخرى.

ظهرت معارضة سياسية في المدن الكبرى، تزعمها مغاربة شبان، أمثال علال الفاسي ومحمد حسن الوزاني وأحمد بلافريج[51]. قويت في هذه المرحلة الحركة السلفية بزعامة أبي شعيب الدكالي ورائدها الكبير محمد بن العربي العلوي، وزاد تأثير الجرائد والصحف التي كانت تصل إلى المغرب من المشرق العربي، مثل المنار، في توعية السكان وتأطيرهم ورفع راية التجديد والإصلاح اللذين أصبحا مطلبًا لمقارعة الاحتلال.

انتشرت أفكار الجامعة الإسلامية التي كان يدعو إليها شكيب أرسلان، وأفكار القومية العربية التي بدأت تسري في الشرائح الاجتماعية. كانت نواة انتشارها المؤسسات التعليمية كالقرويين ومدارس أبناء الأعيان كثانوية مولاي إدريس في فاس ومولاي يوسف في الرباط، وكذا المدارس الحرة والمدارس والجامعات الفرنسية[52]. فانبثقت من هذه الحركة الفكرية وتشكلت حول مبادئها طبقة من الشباب المثقف المتحمس والطموح في عام 1920، وبدأوا يتطلعون إلى المساهمة في تدبير شؤون بلدهم وتغيير الأوضاع، غير أنهم اصطدموا بعوائق نظام الحماية. واستفاد هذا التيار في تبلوره من المقاومة المسلحة التي نشطت في أنحاء البلاد.

تقاطعت المقاومتان الحضرية السياسية والبدوية المسلحة في رفض الاحتلال وتكاملتا في الرغبة في استعادة استقلال البلاد. وفي أحيان كثيرة، نسقت المقاومتان في ما بينهما، وتعاونتا في الدعاية وجمع الأموال وتقديم المساعدات إلى المجاهدين[53].

---

(51) انظر: محمد حسن الوزاني، مذكرات حياة وجهاد: التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية، 6 ج (بيروت: مؤسسة حسن الوزاني؛ دار الغرب الإسلامي، 1982)، ج 1، ص 361 وما بعدها، وعلال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي (طنجة: نشر عبد السلام جسوس، 1948)، ص 135 وما بعدها.

(52) الوزاني، ص 373 و381.

(53) الفاسي، الحركات الاستقلالية، ص 127.

تطورت هذه الحركة، كما تتطور اليرقة إلى شرنقة ففراشة، فظهرت الخلايا التنظيمية في مدن فاس والرباط/ سلا وتطوان وغيرها على شكل جمعيات لقدامى تلاميذ المؤسسات التعليمية، استقطبت أتباعها بما كانت تقدمه من نشاط ثقافي ومسرحيات ودورات رياضية للتوعية، مزجتها بالدعاية للأفكار الوطنية. في هذا السياق، يذكر محمد حسن الوزاني الذي عاصر هذه الحوادث: «... في نفس الوقت انتظم الشباب في خلايا وتشكيلات سرية تهدف إلى بث مبادئ وتعليم الدعوة الوطنية الناشئة، وكسب أنصار لها، وإعداد ما يلزم من رجال ووسائل للسير بها إلى الأمام، وللخروج بها عندما يحين الوقت، وتسمح الظروف، إلى ميدان العمل الصريح، والكفاح العلني...»[54].

يؤكد الوزاني أن أول جمعية سرية أُسست في الرباط «على عهد الثورة الريفية»، أي منذ بداية العشرينيات، باسم «حماية الحقيقة»[55]، وضمت أعضاء ينتمون إلى أسر ميسورة من أبناء الأعيان والوجهاء والتجار من الرباط وفاس وتطوان. أما جمعية «المغرب الجديد» التي كانت على صلة بمحمد بن عبد الكريم الخطابي، فنادت باستقلال المغرب التام أول مرة في عام 1923[56].

ثمة عوامل أخرى ساهمت في إيقاظ الروح الوطنية وبلورتها، أهمها:

- فقدان الفلاحين أراضيهم التي استحوذ عليها المعمرون، ما سرّع وتيرة الهجرة القروية نحو المدن الكبرى التي تحولت ملاذ المهاجرين التعساء. فتزايد سكان الدار البيضاء، مثلًا، من 60 ألف نسمة في عام 1914 إلى 102 ألف نسمة في عام 1921.

- الممارسات التعسفية والقمعية التي مارسها المعمرون والإدارة الاستعمارية.

- إرهاق كاهل السكان برفع قيمة الضرائب الموجودة وباستحداث ضرائب

(54) الوزاني، ص 360.
(55) المصدر نفسه، ص 360.
(56) المصدر نفسه، ص 364.

جديدة بعد الحرب، مثل ضريبة «الكياب»[57]، أي الغطاء الخارجي الذي يعلو أبواب المنازل والدكاكين، ما فجّر تظاهرات احتجاجية ومطلبية واسعة في الرباط وسلا، انتقلت بعدها إلى مدن أخرى كفاس مراكش وغيرها، اغتنمها القادة الوطنيون فرصة لتقديم بعض المطالب إلى السلطان والمقيم العام في أيلول/ سبتمبر 1920، تتضمن تأسيس مجلس دستوري، وإصلاح التعليم والفلاحة، وتوفير الحريات العامة ومن ضمنها حرية الصحافة[58].

كانت هذه الحركة أول معارضة سياسة منظمة شهدها المغرب في بداية العشرينيات، تزعّمها مغاربة شبان، وواجهتها السلطات الاستعمارية بعنف، واعتقلت أهم قادتها.

ب - مقاومة في الخارج

لم يقتصر النضال ضد الحماية داخل المغرب فحسب، بل تميزت هذه المرحلة ببروز مجاهدين وطنيين من صنف آخر، اختاروا أسلوب الكفاح السياسي والصحافي في الخارج، هدفهم التعريف بالقضية المغربية على الصعيد الدولي، وكسب الدعم والمساندة الدولية للكفاح الوطني.

من أبرز هؤلاء السفراء الوطنيين الذين تحملوا عبء هذه الرسالة كان الشيخ محمد العتابي، أحد رواد الجامعة الإسلامية، الذي تابع دراسته بالقرويين، فأصبح أحد أبرز علمائها المتبحرين في المعارف. كان العتابي منفتحًا على الثقافة العصرية، وشغل منصب كاتب في المخزن المغربي، إلا أنه تخلى عن هذا المنصب بسبب «مشادة وقعت بين الشيخ أبي شعيب الدكالي وزير العدل إذ ذاك وأحد بعض كبار الموظفين الفرنسيين أهان فيها هذا الأخير الوزير...»، كما يذكر علال الفاسي[59]. تأثر العتابي بهذه الحادثة وقرر في إثرها مغادرة المغرب مهاجرًا أول الأمر إلى الحجاز في عام 1913. استقر بعد ذلك في اسطنبول في عام 1915، حيث استقبله بحفاوة أبناء المغرب العربي المقيمون في القسطنطينية،

---

(57) الوزاني، ص 249 وما بعدها.

(58) المصدر نفسه، ص 237، و Lyautey, *Lyautey l'Africain*, tome 4, p. 37.

(59) الفاسي، الحركات الاستقلالية، ص 129-130، والوزاني، ص 227.

وفي مقدّمهم التونسي علي باش حامبه، والمسؤولون الأتراك كالخليفة العثماني محمد رشاد الخامس ووزير دفاعه أنور باشا[60]. أطلعهم الشيخ العتابي على الوضع في المغرب والنظام الاستعماري المفروض على الشعب المغربي بالقوة.

ناضل العتابي في أحضان الجامعة الإسلامية مدافعًا عن القضية المغربية أمام المحافل الدولية، إذ قدم سلسلة ندوات ونشر مقالات عدة في الصحف العربية والألمانية، فضح فيها حقيقة نظام الحماية المزعوم ومعاناة الشعب المغربي[61]، فكتب في مجلة **المغرب** التي أسسها محمد باش حامبه في جنيف في عام 1916، وكانت تصدر بالفرنسية، وفي مجلة **الجهاد** التي ظهرت أول مرة في برلين في آذار/مارس 1915. ونشر مقالاته في مجلة **الشرق الجديد** وفي مجلة **العالم الإسلامي** التي كانت تصدر بالعربية في اسطنبول، ابتداءً من ماي أيار/مايو 1916. وترجمت مقالاته في لغات أجنبية ونشرت في صحف أوروبية، ومنها جريدة **الزمن** (*le Temps*) الفرنسية في عام 1917، وهي الجريدة التي كتبت عنه أيضًا.

زار العتابي ألمانيا، فالتقى بعض ساستها الكبار، ومثّل المغرب في المؤتمر الإسلامي في اسطنبول الذي ضم ممثلين عن الدول الإسلامية المستعمرة آنذاك. قرر هذا المؤتمر توجيه وفد من زعمائه لزيارة الدول الأوروبية المحايدة في الحرب، كالسويد والدانمارك والنرويج، للتعريف بقضايا العالم الإسلامي التي دافع عنها المؤتمر، فمثّل الشيخ العتابي المغرب في هذا الوفد، إلى جانب شكيب أرسلان ومحمد فريد وعلي باش حامبه وغيرهم من رجال الحركة الإسلامية. وفي عام 1917، عقد الوفد الإسلامي مؤتمرًا في استوكهولم في السويد، فكان هو ممثل المغرب فيه، فألقى خطابًا عنوانه «صوت المغرب»[62]، ناشد فيه الشعوب

---

(60) الفاسي، الحركات الاستقلالية، ص 129-130.

(61) انظر: ورنير أنده وبيتر هاينه، «الوطنيون العرب ونشاطهم السياسي والصحفي في ألمانيا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى،» المجلة التاريخية المصرية، العدد 27 (1981)، ص 203 وما بعدها.

(62) تمكنت من العثور على نسخة من هذا الخطاب بالأرشيف الفرنسي في مدينة إكس أن بروفانس (Aix-en-Provence):

Archives nationales, Section Outre-Mer, gouvernement de l'Algérie, Aix-En-Provence, 30H64, du ministre des affaires étrangères, à Lutaud, gouverneur général de l'Algérie, Paris, 24 Décembre 1917.

يركز هذا الخطاب على جملة من الأفكار القيمة أهمها: مبدأ تقرير مصير الشعوب، والديمقراطية، والحرية. للمزيد من التفصيلات عن خطاب الشيخ العتابي، انظر: Bekraoui, pp. 300 et sqq.

الأوروبية و«دعاة الحرية والديمقراطية» العمل على مساندة المغرب في نضاله ضد المستعمر الفرنسي، وطالب باستقلال المغرب التام. وبذلك، يعتبر الشيخ محمد العتابي من المناضلين المغاربة الأوائل الذي رفعوا شعار استقلال المغرب أمام المحافل الدولية.

أقلق نشاط العتابي المكثف السلطات الفرنسية، فحكمت عليه محاكمها العسكرية غيابيًا بمنعه من الدخول إلى المغرب وبمصادرة أملاكه[63]. بقي العتابي على اتصال وطيد بالوطنيين والمجاهدين في جهات المغرب ومدنه. وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، غادر الأستانة ولجأ إلى مصر حيث استقبله الملك فؤاد الأول بحفاوة، فاستقر في القاهرة إلى أن وافته المنيّة في الخمسينيات، كما يذكر الفاسي[64].

يعتبر العتابي، من دون شك، رائد الحركة الوطنية العقلانية المغربية، إذ كان السباق إلى المطالبة باستقلال المغرب التام والناجز. يقول محمد حسن الوزاني في هذا الصدد: «... خلّد ذكره في سجل التاريخ، واستحق تقدير وطنه والأجيال المغربية التي عاصرته أو جاءت من بعده، ذلك أنه كان من السباقين الأولين في الوطنية، والكفاح»[65].

لا يعرف إن كان سبب السكوت عن دوره ونشاطه المكثف المنافسة على ريادة الحركة الوطنية المغربية، أم قلة المعلومات والحصار المضروب حوله من السلطات الاستعمارية.

خاتمة

كانت للحرب العالمية الأولى تداعيات أساسية وتأثيرات عميقة في توجيه الحوادث في المغرب. وكان للمغرب مساهمة فاعلة في تمكين فرنسا وحلفائها من صنع الانتصار، باستغلال إمكاناته الاقتصادية والبشرية كلها. وعلى الرغم من

---

(63) الفاسي، الحركات الاستقلالية، ص 130.

(64) علال الفاسي، المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى، سلسلة الجهاد الأكبر؛ 10 (طنجة: مطبعة دار أمل، [د. ت.])، ص 37.

(65) الوزاني، ص 232.

أن المغرب لم يحصل على أي مكسب ملموس في مقابل تضحياته، ساهمت الحرب في تطور المجتمع المغربي وإذكاء الوعي الوطني عند آلاف الجنود والعمال الذين شاركوا فيها.

اكتسب الجنود خبرة عسكرية مهمة تمثلت في تكيفهم مع النظام العسكري الحديث، وتعلموا الانضباط العسكري، واعتادوا الاستراتيجيات والخطط الحديثة، وتعلموا كذلك استخدام الأسلحة المتطورة، واستفادوا من احتكاكهم بجنود من جنسيات مختلفة.

كسب العمال خبرة في المجال الصناعي والمكننة، وتأثروا بمبادئ الفكر الفرنسي عن الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية، وتطور ووعيهم النقابي والسياسي بفضل انخراطهم في الأحزاب السياسية اليسارية الفرنسية ونقابات العمال، ما أذكى شعورهم القومي وبلوره. وهذا ما يؤكده ليوتي في تقريره الشهير «الانعطاف» الذي كتب فيه: «... ثم جاءت الحرب فزادت نقاط الاحتكاك، ذلك أن آلافًا من الجنود المغاربة ذهبوا إلى فرنسا وأوروبا وحاربوا مع القوات الفرنسية. وليس هذا فحسب، بل إن كثيرًا منهم عمل في المصانع وأقام في المدن، وتعلم الفرنسية وقرأ وسمع وعاد إلى المغرب يحمل أفكارًا جديدة»[66].

مكّن هذا الوعي السياسي الوطني المغاربة من الإحساس بالانتماء إلى مجتمع خاضع لإرادة أجنبية وجب مقاومتها والتخلص منها، ستتوج بانخراط كثير منهم في المقاومة الشعبية ضد المحتل، وفي مشاركة بعضهم في الحرب التحريرية الريفية.

(66) Lyautey, *Lyautey l'Africain*, tome 4, pp. 25-26, «Le Coup de barre».

الفصل العاشر

الجزائريون في الحرب العالمية الأولى

نور الدين ثنيو

يستدعي مرور مئة عام على الحرب الكبرى تقويمًا تاريخيًا شاملًا ومراجعة نقدية وزيارات جديدة للتاريخ وإعادة قراءة الحدث الكبير في سياقه ومفرداته ومفاهيمه، والكشف عن جوانبه الظاهرة والمستورة، سواء من المنتصرين أم المهزومين أم الذين بقوا على الحياد، لأن لحظة كتابة التاريخ، خصوصًا بعدما صار العالم قارة واحدة، تعني الجميع[1].

تاريخ الحرب الكبرى (1914-1918) هو بداية التاريخ المعاصر على ما تواضع عليه المؤرخون الذين اعتبروها حربًا عالمية من حيث بُعدها العالمي، وشمولها المجالات كلها، في البر والبحر والجو، وعدم اقتصارها على المجال العسكري وحده، لتطال الحياة المدنية في مضاميرها وأجناسها وميادينها، ونعني بذلك الرجل والمرأة، الكبير والصغير، الشعوب المستعمِرة والمستعمَرة، جبهات القتال، المصانع والبنايات، المدن والغابات.

تأكدت خاصية العالمية في هذه الحرب بمشاركة القارات فيها على تفاوت دورها، على أن يبقى للولايات المتحدة الأميركية، القوة الجديدة في العالم، الدور المصيري والحاسم إن في الحرب أو في السلم. وتغيّر في أثر ذلك مركز العالم الذي حكمته القوى الأوروبية طوال التاريخ الحديث.

بناءً عليه، تقتضي شمولية الحرب وعالميتها منّا اليوم، على مستوى المناهج

(1) الجديد في العلاقة التاريخية بين فرنسا والجزائر مشاركة الجيش الجزائري في احتفالات فرنسا يوم 14 تموز/ يوليو، إذ كان لذكرى مرور 100 عام على بداية الحرب الكبرى وقْعها الكبير في تغيير حالة النفور والتشنج للتاريخ المشترك بين فرنسا والجزائر. كما أن الاحتفال بالمئوية أوقف الجزائريين على دورهم الرائع في الحرب الكبرى. ساد الاعتقاد في ذلك الوقت أن فوز فرنسا في حربها على ألمانيا والقوى الوسطى يعزى في الأساس إلى جيوش المستعمرات وأميركا. وما يحتاج إلى التذكير هو أن الجانب الفرنسي هو الذي يكتب التاريخ حتى بتعريف الجزائريين بدورهم في تحرير فرنسا، سواء في الحرب الكبرى أم في الحرب العالمية الثانية، حيث مرّت مئوية الحرب الكبرى مرور الكرام في الجزائر ولا من يذكّر بها.

والمقاربات، اعتماد معالجة تظهر الحقائق كما جرت، فلا تطمسها ولا تتستر عليها. وُظّفت النزعة الوطنية في كتابة تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية قبل فكرتها ومدلولها[2]، خصوصًا في وجود قسري لمفاهيم الوطن السياسي والاستقلال والدولة. انخرط نحو 200 ألف جزائري وشمال أفريقي في هذه الحرب[3]، لكنها لم تكن تعنيهم إلا في الدفاع عن فرنسا ضد العدو الألماني، بينما رأت النخبة الجزائرية المتعلمة أن مساهمة الجزائريين في هذه الحرب فرصة تاريخية للتخلص من الاستعمار في الإمبراطورية الفرنسية، لا الاستقلال المطلق عنها، بالتواصل مع نظام الدولة الذي يوفر حقوقًا وحريات أكثر، كما تقتضيها المدنية الحديثة، خصوصًا بعدما أفرزت الحرب الكبرى حوافز وتطلعات كبرى لكل البشرية.

في التحليل التاريخي، نستخلص أن هذه الحرب اتسمت بالطابع الشمولي، إذ أوقعت في شراكها شعوب العالم كلها تقريبًا، وأضافت إلى التاريخ مرحلته المعاصرة، وإلى منهج دراسته الرؤية الشاملة[4] (Globale) التي تُعنى بالوحدات الحضارية والاجتماعية والإقليمية وشعوبها في أرجاء العالم، كأفضل سبيل إلى إدراك التاريخ الشامل. إذ بدأت الدول الكبرى بعد الحرب إعادة ترتيب الاستعمار، بينما بدأت الشعوب المستعمَرَة والمستضعَفَة تصفية الاستعمار. وما ساعد في هذا التوجه العالمي للتاريخ كان تأسيس عصبة الأمم التي صارت مرجعًا

---

(2) ظهر التوظيف الوطني لكتابة التاريخ الجزائري الحديث والمعاصر في الكتابات الرسمية والبيانات الوطنية التي جاءت في سياق الثورة التحريرية 1954-1962 ثم بعدها، أي طوال حقبة الاستقلال. ومن جملة الدراسات الأولى التي أسست لهذه النزعة ظهور الحركة الوطنية الجزائرية مع بداية الاحتلال نفسه، وأن الثورات كلها التي خاضها الجزائريون زمن الاحتلال تُدرج في سياق الحركة الوطنية. نذكر كتاب الباحث والمؤرخ الجزائري: أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900**، 4 ج (الجزائر: دار الغرب الإسلامي، 1992)، ج 1.

(3) ويمكن تفصيل مشاركة المسلمين، سكان شمال أفريقيا، في الحرب الكبرى على النحو التالي: بلغ العدد الكلي للذين شاركوا في هذه الحرب 280000 جنديًا، أي بنسبة 2.2 في المئة من العدد الإجمالي للسكان، منهم 173000 جزائريًا، نصفهم تقريبًا من المستدعين على الطريقة الإجبارية، بينما عدد الجنود التونسيين 70000، والمغربيين 37000. انظر في هذا المجال: Pascal Le Pautremat, *La Politique musulmane de la France au XXème siècle. De l'Hexagone aux terres d'Islam. Espoirs, réussites, échecs*, Préface de charles-Robert Ageron (Paris: Maisonneuve & Larose, 2003), p. 147.

(4) *Une Histoire du monde global*, Sous la direction de Philippe Norel et Laurent Testot (Paris: éd. Sciences humaines, 2009).

أعلى تلتمس منه دول العالم الشرعية، أو هذا على الأقل ما طمحت إليه الدول والشعوب التي شاركت في الحرب، واقتنعت بضرورة تجنب حرب كارثية بحجم الحرب الكبرى أو أكبر منها، في المستقبل.

كانت الحرب العالمية الأولى، أو الحرب الكبرى كما كان يطلق عليها في حينها، مبهمة وملتبسة بالنسبة إلى الجزائريين، فلم يدركوا في حينها أنها تهمّهم كما تهمّ فرنسا. كانت الحرب فرنسية في البداية وفي السياق والنتيجة، على الرغم من مشاركة عشرات الآلاف من الجزائريين إلى جانب فرنسا في جبهات القتال ضد القوات الألمانية. وفي الوقت الذي باركتها النخبة المتعلمة والمثقفة كحافز يمكن أن يحصل منها الجزائري على مركز جديد، كان العوام من الجزائريين يرفضون الانخراط في حرب ليست جهادًا ولا مبررًا لطلب الشهادة. بناء عليه، يمكن أن نصوغ الإشكالية على النحو الآتي: كيف تعاطى الجزائريون مع الحرب الكبرى وحوّلوها في نهاية المطاف إلى صالحهم، وأعادوا بذلك تحويل مسار الاستعمار الفرنسي نحو وجهته النهائية؟

إن كانت مشاركة الجزائريين في بداية الأمر مبهمة، بلا عنوان ولا اسم طوال سنوات الحرب 1914-1918، إلا أنها قادتهم إلى استخلاص نتائج إيجابية على صعيد الوعي بضرورة تصفية الاستعمار. فقد كشفت الحرب التي شاركت فيها جيوش من المستعمرات عن ضرورة فوز هذه المستعمرات بالحرية والاستقلال لأوطانها الأصلية.

في العودة إلى بعض الوثائق التي لم توظف كما يجب في معالجة صلة الجزائريين بذلك الحدث الكبير، يمكن أن نطرق الموضوع من ناحية:

- النخبة الجزائرية المتعلمة (الشبان الجزائريون): بيان مطالب الجزائيين نظير قبول التجنيد الإجباري أو الوعي الإيجابي بالمشاركة في الحرب؛

- الجنود الجزائريون في الحرب، بين فارٍّ من الجيش الفرنسي إلى صف ألمانيا، ومُخْلص للمؤسسة العسكرية ومنضبط بنظامها: قراءة في وثائق تنتقد النظام العسكري الفرنسي وفي أخرى تؤيده.

- جزائريون منضوون في صفوف اليسار الفرنسي سبيلًا إلى امتلاك الوعي

بالنضال النقابي في فرنسا، والوطني في الجزائر، والأممي: تحرير الأوطان، وتقرير مصير الشعوب (رسائل إلى مؤتمر السلام باريس 1919، الأممية الشيوعية، مؤتمر الشعوب المناهضة للاستعمار بروكسيل 1927... إلخ).

أولًا: الضابط الحاج عبد الله
بيان ضد المؤسسة العسكرية

كان الحاج عبد الله الضابط الجزائري الوحيد الذي كتب مباشرة في أثناء الحرب عن وضع الجنود الجزائريين وصلتهم بالقيادة العسكرية الفرنسية. وكان أيضًا بين ضباط قلائل وصلوا إلى مرتبة ملازم أول[5]، لحظة اندلاع الحرب الكبرى كانت بالنسبة إليه فرصة تاريخية ومصيرية، لا تحدد مصير فرنسا وحده، بل مصير الإنسان الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي، على اعتبار أن الاضطلاع بواجب الدفاع عن حياض الوطن الأم هو المقوم الأساس والمعيار السليم لاستحقاق المركز اللائق في الدولة الفرنسية.

لاحظ رابح بوكابوية (هذا هو اسمه الحقيقي) أن بداية الحرب كانت وبالًا على المسلمين الذين زجّت بهم المؤسسة العسكرية في جبهات القتال من دون حرص شديد على مصيرهم، بل كانوا أشبه بالدروع البشرية لصد جحافل الوحدات الألمانية التي وصلت إلى التراب الفرنسي. أكدت الأخبار الواردة من جبهات القتال أن الصفوف الأمامية منيت بهزائم نكراء، ضاع فيها الآلاف من المسلمين، ومنهم الجزائريون، خصوصًا في منطقة شارلروا[6] (Charleroi).

(5) في كتاب تذكاري وضعته المؤسسة العسكرية بعد أن وضعت الحرب الكبرى أوزارها، يمجد دور القناصة الجزائرين الرّائع في الحرب، لم نعثر إلا على بعض الجزائريين من صف الضباط، ويتعلق الأمر بحموش السعيد، توفي في عام 1916 برتبة ملازم؛ قنّون السعيد، توفي في عام 1916 برتبة نقيب؛ ميراوي محمد، توفي في عام 1918 برتبة ملازم أول. انظر: Grasset [lieutenant Colonel], *Historique du 1^er^ régiment de marche de tirailleurs algériens pendant la guerre 1914-1918* (Strasbourg; Nancy; Paris: Berger-Levrault, 1919).

(6) كان المسلمون وقود الحرب في بداياتها الأولى، وبسبب الخسائر التي مني بها الجيش الفرنسي عمد قادته إلى الاهتمام بجيش المستعمرات من حيث التدريب والإعداد والتمكن، فقد شهدت الشهور الأولى من الحرب حالة فرار وتراجع وتسللت روح الإخفاق إلى النفوس، جرّت قيادة الأركان إلى تطبيق إجراءات ردعية مثل عقوبة الإعدام كمثال وعبرة (exécuté pour exemple) التي نفّذت فعلًا في أيلول/ سبتمبر 1914 في منطقة أورك (l'Ourcq).

ما سجّله الحاج عبد الله في كتابه المسلمون في الجيش الفرنسي[7] هو بيان تنديد بقلة اهتمام القيادة العسكرية الفرنسية بالجنود المسلمين، فهي لم تسمح بظهور قادة في صفوفهم حتى ولو بدا منهم ما يستحق جدارتهم بإدارة المعارك وتنظيم خطوطها والإشراف على وحداتها. فالقيادة ليست من نصيب المسلمين، والحقيقة الاستعمارية مؤكدة حتى في أفضل مناسبة لرفع الظلم والغبن عن المسلمين، أي لحزة يُطلب من الجميع، فرنسيون ومسلمون، التصدي للعدو الألماني على الحدود الفرنسية والدفاع عن مستعمراتها.

كتب الملازم حاج عبد الله كتابه هذا ونشره بعدما فرَّ من الجيش الفرنسي والتَحَق بالجيش الألماني - العثماني، يسرد فيه حقائق صادفته في أثناء انخراطه في الجيش عن احتراف نال على أساسه رتبة ملازم أول. لكن سوء المعاملة وقلة تبصّر المؤسسة العسكرية لقيمة وأهمية جيش المستعمرات[8] (L'Armée coloniale) جعلته يفرُّ منه ويلتحق بالطرف المعادي، يقدم خدماته للمسلمين الذين آثروا الخلافة العثمانية. وجدت فيه ألمانيا أفضل من يسدد الدعاية السامة ضد فرنسا وجيشها على خلفية معرفته بمؤسسة الجيش الفرنسي من الداخل.

في هذا الكتاب الذي يعد أهم وثيقة سجّلها جزائري عن مشاركة الجزائريين

---

(7) El Hadj Abdallah, *L'Islam dans l'armée française: (Guerre de 1914-1915)* (Constantinople: [s. n.], 1915).

كان لهذا الكتاب الذي صدر كمنشور دعائي معادٍ لفرنسا ومُوالٍ لألمانيا والدولة العثمانية، صدىً واسعًا، عقّب عليه عددٌ من الأقلام، سواء أكانت فرنسية أم ألمانية أم حيادية في سويسرا مثلًا، كما أن المكانة التي صار عليها بوكابوية في الجيش الألماني والدور الفاعل الذي اضطلع به مكّنه من الكتابة في الصحف التي كانت تصدر سواء في سويسرا أم في ألمانيا مثل *Gazette des Ardennes*, *Gazette de Lorraine* et *Presse Berlinoise*...

كما صدر للضابط الجزائري كتاب آخر يرد فيه على من انتقده في مواقفه وما جاء في كتابه الأول وبعض المقالات التي كتبها في بعض الصحف، المسلمون في الجيش الفرنسي، El Hadj Abdallah, *Les Musulmans d'Afrique du nord et le «Djihad»* (Lausanne: [s. n.], 1917).

(8) جيش المستعمرات في الأدبيات والبيانات الفرنسية يقصد به الوحدات العسكرية التي جاءت بها الدولة الفرنسية من مستعمراتها إلى ما وراء البحار، كما يستخدم أيضًا مصطلح جيش الإمبراطورية l'armée de l'Empire للإشارة إلى جيش الأهالي من سكان المستعمرات. والحقيقة أنه بعد اندلاع الحرب الكبرى، عمدت فرنسا إلى توكيد أنها قوة إسلامية كبرى على اعتبار أن إمبراطوريتها تضم عشرات الملايين من المسلمين.

في الحرب الكبرى، يقدم الضابط الجزائري نفسه عسكريًا منضبطًا، أخذ من الثقافة والنظام الفرنسيين فصار يميز بين الصَّح والخطأ.

في مدخل الكتاب/ البيان، يكتب الملازم حاج عبد الله: «ما يجدر التنويه به، غداة إعلان الحرب بين ألمانيا وفرنسا، أن المسلمين سارعوا، وبحماسة شديدة، إلى تلبية نداء فرنسا من أجل القتال إلى جانبها: فقد دُعِي مجددًا المتقاعدون إلى الخدمة، كما التحق المدعوّون عبر التجنيد الإجباري (La Conscription) بوحدات تعيينهم، فضلًا عن وحدات قتالية من القوم (les Goumiers) ومن المنخرطين لمدة الحرب (Engagés pour la durée de guerre)، أغلبهم من أبناء العائلات الميسورة وذات الحظوة، كلهم هبُّوا إلى الانضواء تحت العلم الفرنسي، يحدوهم، ميسورين وفلاحين بسطاء، شعور واحد بالولاء. والتحقوا جميعهم بالوحدات الدائمة المشَكّلة من الصبايحية (Spahis) ومن القناصة (Tirailleurs) ليصلوا بعدها إلى جبهات القتال على الحدود الفرنسية - الألمانية. وبعبارة واحدة، أبدى المسلمون، على اختلاف بلدناهم سواءً أكانوا جزائريين أم تونسيين أم مغاربة، ولاءً أدهش حتى غلاة المعادين للعرب (Les Arabophobes)»[9].

إن كان هذا هو الشعور الذي انتاب المسلمين وهم يتأهبون لخوض الحرب ضد ألمانيا، فإن بداية التجربة لم تكن سارة، ولم تأتِ على مستوى الطموح. إذ من المعروف أن الجنود المسلمين كتلة صمّاء لا تدري من معاني الحرب إلا أنها فرصة لتحسين شرط وجودهم كأفراد. فقد كانوا أميين، يتحدرون من أصول ريفية وقبَلية وصحراوية، وجدوا أنفسهم متورطين في معارك لم تكن تعنيهم ولم يهيّأوا لها أصلًا. كشف الضابط الحاج عبد الله عن هذه الحالة عندما تساءل في مطلع كتابه إن كان للأهالي المسلمين نفس ما كان للوحدات القتالية الفرنسية أو حتى الفرنسيين الجدد من أسباب وشروط الرفاهية المادية والمعنوية؟[10]. وبتعبير وجيز ودال، هل كانت قيادة الأركان الفرنسية تعامل جنودها المسلمين كأفراد في جيش فرنسي أو استباحت التمييز والتفرقة؟ كان جواب عبد الله: لا، معللًا ما

---

(9) Abdallah, *L'Islam dans l'armée*, pp. 1-2.

(10) المقصود بالفرنسيين الجدد أولائك الذين حصلوا على الجنسية الفرنسية واستمروا في الحصول عليها تباعًا مع امتداد نفوذ الاستعمار في الجزائر. وجاءت أغلبيتهم من إسبانيا، إيطاليا، مالطا، البرتغال، وأقلية من ألمان الألزاس واللورين (Alsace et Lorraine).. وقد شكّل الفرنسيون الجدد الذين يتحدرون من أصول غير فرنسية المرتبة الثانية في التعداد السكاني في الجزائر بعد المسلمين الأهالي.

دعاه إلى الفرار بأن الجنود الأهالي يعاملون كمرتزقة بناءً على صيغة «مجند طوال الحرب» ثم يطلق سراحه، وكأنه كان أسيرًا من دون أي تعديل في وضعيته في الدولة الفرنسية. ويوضح حالة المسلمين في الجيش الفرنسي على النحو التالي: «الجنود الذين استدعوا إلى الالتزام بواجب الحرب لن يحصلوا على حقوقهم السياسية على غرار باقي الذين استدعوا إلى هذه الحرب من غير المسلمين»[11]، فـ «إن الإطارات الأهالي، مجرد حَرْف ميت إذا ما وضعوا إلى جانب الإطارات الفرنسية، يضطلعون بكامل الأعباء وأبدًا يستحقون التشريف والاعتبار، وذلك هو المبدأ الذي قاد مصيرهم»[12].

يذكر الضابط المؤلف شواهد الحيف والظلم الذي يعانيهما الجندي المسلم في الجيش الفرنسي/ يقول: «لا يوجد قيادي عربي واحد على وحدات الجيش الذي يضم في صفوفه 200000 جندي عربي، لا توجد قيادة إدارية فعلية ولو على مجرد زمرة، فما بالك على فصيلة أو كتيبة...»[13]. وفي أثناء الحرب، جاء أمر القيادة الفرنسية ليربك النظام من أصله، ويخلط كتيبة القناصة بوحدات زواوة (les Zouaves)، ومثل هذا الخلط، كما يراه الضابط الجزائري، ينمّ عن قلة تبصر وعن احتقار صارخ للنظام التراتبي الذي يحكم المؤسسة العسكرية. أما الجانب الآخر المفارق في هذه الحرب فهو أن الدفاع عن فرنسا يتمّ في سياق الدعوة إلى دحر ألمانيا والدولة العثمانية في مناطق مقدسة، مثل القسطنطينية عاصمة الخلافة الإسلامية ومكة والمدينة، وهذا ما لا يحتمل، و«ليس بوسع المسلمين أن يتحملوا إهانة من هذا النوع لوقت طويل، اللهم إذا فقدوا الشعور بالحمية الإسلامية، خصوصًا عندما تصدر من أمة صرّحت بأنها حامية الإسلام ماديًا وأخلاقيًا»[14]. وما يؤكد وجه المفارقة هنا ليس أن الدولة الفرنسية استدرجت مسلمين لمقاتلة مسلمين آخرين في المشرق العربي ينتمون إلى عالم الخلافة الإسلامية فحسب، بل إن تصرفًا من هذا القبيل مناقض تمامًا لاتفاقية حماية تونس في عام 1881 ولاتفاقية حماية المغرب الأقصى في عام 1912، اللتين توصيان بعدم الزجّ

---

(11) Abdallah, *L'Islam dans l'armée*, p. 10.

(12) المصدر نفسه، ص 13.

(13) المصدر نفسه، ص 14.

(14) المصدر نفسه، ص 17-18.

بالمسلمين في محاربة مسلمين آخرين[15]. وبقيت حال الاستعمار تلازم المؤسسة العسكرية الفرنسية حيال الجزائريين إلى الحرب العالمية الثانية التي شارك فيها أيضًا الجزائريون[16].

ثانيًا: تاوتي بن يحيى
بيان الولاء للجيش الفرنسي

لم يكن تاوتي بن يحيى[17] ابن المؤسسة العسكرية، بل سارع إلى الانخراط في الجيش ضمن تشكيلة «الصبايحية»، بعد دخول فرنسا الحرب ضد ألمانيا في صيف 1914. التحق بن يحيى منذ البداية بجبهات القتال على الحدود الفرنسية - الألمانية، ولم يمر عليه وقت طويل حتى وقع أسيرًا بيد القوات الألمانية في 12 تشرين الأول/ أكتوبر 1914.

---

(15) يعقّب الضابط الجزائري على هذا الخرق لاتفاقية الحماية بأن لها عواقب وخيمة لا تقدر ولا يمكن السيطرة عليها، لا بل سوف تساعد بناء على تطور الوضع الاستعماري، في التمرد والثورة والفوضى لأن وعي الأهالي المسلمين لا يتركهم عرضة لمزيد من الظلم والجور واللامساواة، انظر: Abdallah, *L'Islam dans l'armée*, p. 19. وما يجدر التنويه به في هذا الصدد هو وجود خطاب تقريظي لأسير جزائري يُشِيد فيه بالعناية الرّائعة التي تبديها السلطة الألمانية حيال السجناء المسلمين من مغاربة تونسيين وجزائريين، انظر الخطاب كاملًا (ص 35-37).

(16) عن المفارقات والتناقضات التي تمارسها السلطة العسكرية الفرنسية حيال الضباط الجزائريين إلى غاية الحرب العالمية الثانية، يمكن العودة إلى كتاب رحماني عبد القادر: Abdelkader Rahmani, *L'Affaire des officiers algériens* (Paris: Éditions du Seuil, 1959).

(17) نعتمد في الحديث عن مشاركة تاوتي بن يحيى في الحرب الكبرى على الشهادة التي كتبها بعد الإفراج عنه في عام 1917 في أثر إصابته بمرض خطر اضطر القوات الألمانية إلى إطلاق سراحه وعودته إلى بلده الأصلي. إذ كتب مذكراته تحت إشراف مستشار الحكومة العامة في الجزائر وخبير قضايا المسلمين السيد جان ميليا، وسجّل فيها ولاءه الكامل إلى الأمة الفرنسية ورصّع شهادته بفقرات من المديح والتقريظ الذي يظهر فيها قيمة فرنسا بالنسبة إلى الجزائريين والفرنسيين على السواء، وفي الوقت ذاته لا يكف عن النيل من الألمان وسياستهم الرامية دائمًا إلى توريط السجناء المسلمين في الدعاية لها والهجوم العدائي على الجيش الفرنسي. انظر: ذكريات عن أسرى في ألمانيا (12 تشرين الأول/ أكتوبر 1912 - 15 حزيران/ يونيو 1917): Taouti Ben Yahia, «Souvenirs de ma captivité en Allemagne (12 oct. 1914 - 15 juin 1917),» *Union des grandes associations françaises contre la propagande ennemie*, vol. 2, no. 26 ([1920]).

كما أعيد نشر المذكرات في سلسلة من المقالات في جريدة معطوبي الجزائر *Le Mutilé d'Algérie. Journal des mutilés, réformés et blessés de guerre de l'Afrique du Nord,* بداية من العدد 161، تشرين الثاني/ نوفمبر 1920.

غياب التدريب والتمرين على القتال جعل الجزائريين يقعون بسهولة قتلى وجرحى وأسرى، فكانوا بذلك وقود الحرب في بدايتها الأولى، كما جاء في تقارير المراسلين الحربيين وفي يوميات الضباط[18].

في تقديمه شهادة بن يحيى، يورد جان ميليا، مستشار الحكومة الجزائرية، خصالًا تعظم شأن المقاتل المسلم الذي تبنى الوطن الفرنسي. فقد راهن «الإمبراطور غيوم الثاني وسعى لدى مسلمي شمال أفريقيا للإقدام على الخيانة الفادحة والارتداد عن الوطن - الأم والرجوع بالسلاح ضد دول الوفاق»[19]. لكن خاب الإمبراطور الألماني كما يرى بن يحيى، فيقول في رسالة وجهها إلى الحاكم العام جونار (Jonnart)، ضمّنها آيات من الولاء والاحترام لفرنسا وما تبذله في الأرض الجزائرية ولسكانها: «فقد لبّيت أنا وإخواني نداء فرنسا عندما تعلق الأمر بالدفاع عنها، وبذلنا في سبيلها ما وسعنا ذلك من بسالة وقوة، ونحن دائمًا مستعدون لمنحها كل الحب من صميم قلوبنا وكامل إخلاصنا»[20].

ينتمي تاوتي بن يحيى إلى عائلة شريفة معتبرة في بلدة الأغواط، كانت تسهر على «قصر تاغموت» منذ ما قبل الاحتلال، فضلًا على أنها العائلة التي خدمت فرنسا لبسط نفوذها عندما حلّت بالمنطقة يوم 4 كانون الأول/ ديسمبر 1952، فقد كان جده «القايد» أحمد بن سالم سيد بلدة الأغواط، كما ساعد والده يحيى بن تاوتي فرنسا بكل إخلاص. التحق الشاب تاوتي بن يحيى بالسّرية الرابعة، وتلقى

---

(18) لبيان الخسائر في صفوف الأهالي المسلمين التي شهدتها جبهات القتال في فرنسا، يمكن العودة إلى مجموعة من الكتب/ التقارير التي قيدت بعد أن هدأت الحرب من الضباط الفرنسيين، وهو نوع من الاعتراف اللاحق بالدور البالغ الأهمية التي اضطلع به مسلمو شمال أفريقيا والجيش السنغالي في تحقيق انتصار فرنسا في الحرب الكبرى. انظر: *Historique du 1er régiment de marche*, Grasset. جاء في مستهل الوثيقة ما يأتي: «في سياق الكارثة المدلهمّة لبداية الحرب، استطاعت الكتيبة التاسعة من القنّاصة مشاة أن تحدث إنجازًا رائعًا من فيض المشاعر الطيبة: الروح الوطنية، التفاني، وروح التضحية والإخلاص. لم يكن لهذه الكتيبة الفتية أي تاريخ، ولم يرصّع عَلَمها بأي شكل من أشكال الانتصارات. لكن اليوم (بعد نهاية الحرب) نستطيع أن نختار بفضلكم (أي المسلمين الجزائريين) أبطال الحرب الكبرى، أسماء مواقع شالروا، إيزر، فردان، المارن، لاسوم، التي حفرت في قلوبنا ذكريات، يجب أن تكتب بماء الذهب على رايتنا العزيزة» (ص 4).

(19) Ben Yahia, p. 356.

(20) المصدر نفسه، ص 357.

تكوينه الأول في منطقة بوغار التي حلّ بها يوم 29 آب/ أغسطس 1914، ومنها إلى البليدة التي تلقى فيها مبادئ المنازلة والقتال. ومنها أرسل فورًا إلى جبهة القتال في فرنسا، فوقع أسيرًا بعدما استسلمت الكتيبة التي كانت تدافع عنها مساء 12 تشرين الأول/ أكتوبر 1914. مكث أغلب الوقت في معتقل ميرسبورغ (Le Camp de Mersburg) ولم يُفرج عنه إلا في عام 1917، بعدما أصيب بمرض خطر يتطلب عودته إلى أهله.

لا تخلو مذكرات بن يحيى في الأسر من الدعاية المناهضة لألمانيا، ولا من كيل الإعجاب لفرنسا وإنجازاتها الكبرى، ما يحرم هذه الوثيقة الموضوعية والنزاهة التاريخية. من ذلك ما يرويه صاحب المذكرات: «عن سؤال: لماذا تهاجمون ألمانيا وأنتم مجرد رعايا فرنسيين؟»، أجاب 'القومي' (Le Goumier) ابن عبيد عبد المجيد (زميل ابن يحيى في المعتقل) أن الألمان يعرفون جيدًا تضامننا الوطني، وهم الذين قاموا بالاعتداء على موانئ بلاد القبائل في الأيام الأولى من إعلان الحرب[21]. وفي مكان آخر من المذكرات، يشير الكاتب إلى «أخيه الخصم» الفار من الجيش الفرنسي الملازم الأول بوكابوية التابع للكتيبة السابعة، ويسرد ما يقوم به من دعاية لمصلحة الدولة العثمانية والإسلام وألمانيا، فيكتب: «يبدو أنك عرفتني، قال بوكابوية، في الجيش الفرنسي كملازم أول، لكنني لمّا رأيت الظلم وأن الفضل لا يُكافئ صاحبه عندما يكون عربيًا، ثار قلبي وفرّيت من الجيش. أعدكم بأنكم سوف تكسبون أشياءَ كثيرة لو أخذتم بنصائحي، فألمانيا سوف تنتصر وستمنحكم المناصب التي ترغبون فيها بعد أن تضع الحرب أوزارها ويحل السلام»[22].

بعدما غادر جنيف في 15 حزيران/ يونيو 1917 حيث كان يتلقى العلاج، وبعدما وصل إلى أهله في صحراء الجزائر، سجّل تاوتي بن يحيى انطباعه العام عن التجربة التي قادته إلى الدفاع عن حصون فرنسا: «كنت سعيدًا جدًا عندما منحت وطني بالتبني فرنسا أفضل ما لدي من عقل وشباب وقوة، لم أكن أعرف أرض فرنسا، وعرفتها عن كثب وهي تتعرض للخطر، شاهدتها في أوج طاقتها وإقدامها الدائم، كل ذلك جعلني شديد الإيمان بانتصارها العظيم (...) وبعدما

(21) Ben Yahia, p. 362.

(22) المصدر نفسه، ص 363.

رجعت إلى الحياة المدنية، فإن واجباتي نحو فرنسا سوف تأخذ أشكالًا أخرى، وسوف اضطلع بها على نحو آخر. أن تحب فرنسا معناه أن تخدمها، وكلّنا اليوم يحب فرنسا بلد القانون، العدالة والأخوة»[23].

ثالثًا: الإسلام والمسلمون في الحرب شواهد الاعتراف

كان للحرب الكبرى، خصوصًا بعدما طالت أكثر مما قُدّرِ لها، مقتضياتها وتداعياتها على من شاركوا فيها. فقد كان حق ضحايا المعارك واجب التكفل بهم، من ناحية تنظيم مراسيم الجنائز والعناية بجثثهم وتوديعهم إلى مثواهم الأخير وفق التعاليم الدينية والتقاليد المتعارف عليها في أوطانهم الأصلية. كما استدعى بقاء المحاربين مدة طويلة في جبهات القتال وفي مراكز الاعتقال والأسر ضرورة تناولهم الطعام وفق الشريعة الإسلامية، وإقامة الصلاة في مساجد لائقة بالمسلمين. وهذا ما حاول أن يقوم به الجانبان الفرنسي والألماني في سياق حملة دعائية لكسب ودّ الجزائريين.

خلافًا لما كانت عليه حروب فرنسا في القرن التاسع عشر التي كانت تخوضها تحت العلم الفرنسي وباسم الفرنسيين، وقلما تحفل بوجود المسلمين الجزائريين الذين كانوا يدفنون في مقابر جماعية، لا شاهد على ما قاموا به ولا دليل على مشاركتهم في المعارك التي خاضوها باسم فرنسا ومستعمراتها[24].

---

(23) Ben Yahia, p. 370.

(24) شارك المسلمون الجزائريون في عدد من الحروب والمعارك التي خاضتها فرنسا في القرن التاسع عشر: في القرم 1854 - 1856 (Crimée)، في إيطاليا (1859)، في الصين (1860)، في المكسيك (1861-1867)، حروب (1870-1871)، الحملة على تونس (1881)، مهمة في الكونغو (1883-1885)، الحملة على توكين (1883-1886)، على الداهومي [بنين حاليًا] (1894-1895)، الحملة على مدغشقر (1895-1898) وعلى المغرب الأقصى (1907-1914)... انظر في هذا الصدد: Michel Renard, «Séjours musulmans et rencontres avec l'Islam,» dans: *Histoire de l'islam et des musulmans en France du moyen âge à nos jours*, Sous la direction de Mohammed Arkoun; Préface de Jacques Le Goff (Paris: Albin Michel, [2006]), p. 567.

انظر أكثر تفصيلًا في كتاب تاريخ أول فيلق مشاة للقناصة الجزائريين الذي يحوي سجلًا بالعمليات الحربية التي قام بها القناصة الجزائريون طوال الحرب: Grasset, *Historique du 1er régiment de marche*.

فإن الحرب الكبرى التي بدأت في صيف عام 1914، واستدرجت بعد ذلك كبار دول العالم في ذلك الوقت، استدعت السلطات الفرنسية إلى تنظيم «المراسيم المقدسة» للجزائريين، كأفضل سبيل إلى إبراز دور أهالي المستعمرة في الجهد الحربي والاعتراف بهم كصانعي انتصار فرنسا وعظمتها[25].

سارعت السلطات الفرنسية إلى إصدار تشريعات تمجِّد ضحايا الحرب على اختلاف ألوانهم وديانتهم، من ذلك اعتمادها مبدأ الضريح الفردي، علاوة على صدور قانونَيْن يرميان إلى الاعتراف بالمجد الوطني الفائق لشهداء الواجب: قانون 2 تموز/ يوليو 1915 الذي أنشأ مفهوم «مات من أجل فرنسا»؛ وقانون 29 كانون الأول/ ديسمبر 1915 الرامي إلى تكفل الدولة برسوم ومصاريف قبر وشاهد من «مات من أجل فرنسا». لكن نظرًا إلى عدد الجزائريين والمسلمين الكبير الذين سقطوا في هذه الحرب (نحو 28 ألفًا)، اضطرت السلطات الفرنسية إلى تنظيم «فضاء الموتى»: تحديد «المربع الإسلامي» (Le Carré musulman) لكل شهيد، وهو قبر خاص يرفع عليه شاهد يميّزه ويخلّده[26].

أبرز المعالم التي تؤكد مبادرة فرنسا إلى معاملة المجندين الجزائريين في صفوفها معاملة إسلامية هو بناء مسجد حديقة نوجان سور مارن[27] (Nogent-sur-Marne)، والضريح الذي نصب في المكان نفسه قريبًا من المسجد، وتصميم مسجد باريس[28] الذي سوف يشيَّد بعد الحرب ويدشَّن في عام 1926.

---

(25) عن دور المستعمرات في الحرب الكبرى، يمكن العودة إلى: Jacques Frémeaux, *Les Colonies dans la grande guerre: Combats et épreuves des peuples d'outre-mer* (Paris: 14-18 éd., 2006).

(26) ما يجدر ذكره في موضوع قبور المقاتلين الجزائريين في الحرب الكبرى، قبر أحد القناصة الجزائريين، يدعى أحمد الملياني الذي توفي في 20 حزيران/ يونيو 1915، كما يوجد قبر الأمير محمد شرانيا في رومانيا، وهو الرمز البطل الذي ساهم في تحرير رومانيا من الغزاة الألمان الذين أعدموه في 14 تشرين الأول/ أكتوبر 1918. والغالب في القبور التي أقيمت خلال الحرب أن كتب عليها «قبر قناص جزائري مجهول».

(27) الحقيقة أن هذا المسجد بُني ردًا على ما قامت به السلطات الألمانية في برلين الذي شيدت مسجدًا للمسلمين المعتقلين (ثلاثون ألف مسلم معتقل) لديها كنوع من الدعاية لكسب المسلمين في المستعمرات الفرنسية. فقد شيدت السلطات العسكرية هذا المسجد في زوسن (Zossen)، قرب برلين في عام 1916.

(28) كان تدشين مسجد باريس في عام 1926 مناسبة للسلطات الفرنسية للتنويه بالدور الكبير الذي اضطلعت به قوات المستعمرات، ومن ثم اعتبار فرنسا قوة إسلامية إلى جانب مكانتها العظمى في أوروبا. =

لم تقتصر شواهد مشاركة الجزائريين في الحرب على جبهات القتال ومن ماتوا أو جرحوا فيها، بل في مراكز الإمداد أيضًا. كان هناك عمالة جزائرية تعمل في الأراضي والمصانع والمؤسسات الحربية والمدنية التي كانت تمد المحاربين بالذخيرة والسلاح واللباس والأكل، خصوصًا بعدما طالت الحرب وتوسعت إلى المدن والأرياف، ولم تحتفظ بطابعها العسكري الصرف. كما استمرت مساهمة الجزائريين بعد عام 1918؛ إذ وظفهم الفرنسيون في إعادة إصلاح ما خرّبته الحرب من أراضٍ وجسور ومبانٍ، وفي تشييد منشآت جديدة من مصانع وشركات إنتاجية وخدمية.

في عام 1916، دفعت الحاجة إلى تأمين إمداد القوات الفرنسية إلى إنشاء مصلحة تنظيم عمّال المستعمرات (Le Service d'organisation des travailleurs coloniaux)، وكان المهاجرون الجزائريون القوة العاملة المهيكلة في الاقتصاد الفرنسي قبل الحرب وفي أثنائها وبعدها[29].

كانت لحظة ما بعد الحرب الكبرى في فرنسا لحظة استعادة جهد الحرب وجردة عامة لكل ما جرى، ولحظة سعي إلى تكريم من خاضوا غمارها والاعتراف بدورهم الوطني الكبير، ثم تعزيز ذاكرة الأمة وتخليد عظمائها الذين صنعوا انتصار فرنسا الباهر[30]. تدلنا المعاينة التاريخية إلى أن فرنسا لم تكن تساوي بين

= فقد سارعت بعد الحرب مباشرة إلى بحث موضوع الإسلام والمسلمين وأدرجته ضمن اهتماماتها الدولية. قيمة وأهمية دور مسجد باريس في ربط فرنسا بالعالم الإسلامي ومنه الجزائري على وجه الخصوص جعل السلطات الفرنسية والجاليات الإسلامية تعود إلى تاريخ هذا المسجد ولحظاته المؤثرة كي تضيف لبنة معنوية ورمزية إلى صرح الإسلام في فرنسا، إذ جاء في اللوحة التذكارية التي نصّبت في عام 2006 ودشنها الرئيس الأسبق جاك شيراك وكتبت باللغة العربية إلى جانب الفرنسية: «بسم الله الرحمن الرحيم. إلى الجنود المسلمين الذين سقطوا في ساحة القتال من أجل فرنسا 1914-1918/ 1939-1945».

(29) عن قيمة وجود المهاجرين الجزائريين في فرنسا، يمكن العودة إلى كتاب المهاجرون الجزائريون في فرنسا: Jacques Simon, *L'Immigration algérienne en France: Des Origines à l'indépendance*, Sous la direction de Jacques Simon, Documents, témoignages et divers (Paris: Paris-Méditerranée, 2000).

(30) كانت «الوحدة المقدسة» وما يتعلق بها، موضوع صراع سياسي ورمزي بين الجزائريين والسلطة الفرنسية في الجزائر، ويمكن العودة في هذا المجال إلى الدراسة الموثقة والقيّمة للباحثين جان جانسن وأوغستين جوميه، Jan C. Jansen, «Une Autre «union sacrée»? Commémorer la grande guerre dans l'Algérie colonisée (1918-1939),» Traduction de Augustin Jomier, *Revue d'histoire moderne et contemporaine*, vol. 61, no. 2 (2014), pp. 32-60.

الفرنسيين والجزائريين، إذ ظهر تمايز واختلاف في طريقة تكريم ذكرى وقائع الحرب وإحيائها، زادت من شعور المسلمين بالخيبة، عبّر عنه بعض الجزائريين من المتعلمين والمثقفين في بعض الصحف التي كانت تصدر في ذلك الوقت[31].

من هؤلاء الأمير خالد الذي تملّكه وعي شديد بقيمة الوطن وأهمية الدولة، بعدما وقف على البون الصارخ الذي يفصل بين الجزائريين والفرنسيين على الرغم من أدائهم «واجبًا مقدسًا واحدًا». كتب الأمير خالد: «هناك، في ما يبدو، نوع من نفي وحرمان الأموات الجزائريين (الذي سقطوا في جبهات القتال الفرنسية) من النوم القرير في أرضهم الجزائر. لماذا كل هذا التمييز الذي كثيرًا ما يعانونه وهم أحياء وهو اليوم يلاحقهم وهم أموات»[32].

اتخذ البحث عن الاعتراف بجهد الجزائريين في الحرب شكل صراع سياسي ورمزي. كان البحث يرمي إلى استخلاص الحقوق السياسية والاجتماعية وتحسين الوضع القانوني، وهدفه على مستوى الرمزي إدراج اسم الشهيد المسلم في قائمة «مات من أجل فرنسا»، ليستحق بعدها الضريح الفردي الخاص به، وليبقى ذكرى في ذاكرة الأمة، أو يطلق اسمه على أحد الأحياء أو المؤسسات التي تشيدها الدولة ويدمج في ثقافة تَذَكُّر أمجاد الأمة. هذه الحقيقة الجديدة في حوليات التاريخ الفرنسي مع مستعمراتها هي التي دفعت بالوضع إلى بداية مرحلة تصفية الاستعمار. أدى سوء تقدير رفات الجزائريين الذين ماتوا في الحرب الكبرى دوره في حث النخبة الأهلية على مناهضة الاستعمار، والسعي

(31) من هؤلاء المثقفين نذكر السيد صالح فاسي الذي كثيرًا ما كان يلح على ضرورة أسعاف الوضع في الجزائر بجملة من الإجراءات الإصلاحية مخافة تفاقم الأزمة واستفحالها. جاء في كتابه الجزائر تحت راية فرنسا: ضد النظام الإقطاعي الجزائري: «في الوقت الذي تعترف فيه السلطات الفرنسية بقيمة وقدرة الإنسان الجزائري المسلم وبشجاعته وبسالته وقدرته البدنية والنفسية وروح الانضباط والتعاون الجماعي وإخلاصه للمؤسسة التراتبية داخل الثكنة، وفي جبهات القتال... فإن السلطات نفسها تبدي تحفظها وخوفها من مسألة منح وتوسيع الحقوق السياسية والاجتماعية على الأهالي بدعوى أنها سوف تزعزع الاستقرار في المستعمرة؟ ما هذا المنطق الغريب؟ وإذا كان المسلمون يشكّلون فعلًا خطرًا على فرنسا، فإنه من الجنون وقلة الحذر تعليمهم كيف يستخدمون السلاح». انظر: Salah Faci, *L'Algérie sous l'égide de la France contre la féodalité algérienne*, Préface de M. Maurice Viollette (Toulouse: Impr. régionale, 1936), p. 245.

(32) L'Emir Khaled, *L'Ikdam*, 25/8/1922.

إلى ردم صور الظلم والغبن والحيف وأشكاله. وبناءً عليه، غياب العدل في معاملة الأموات وتخليد ذكراهم بين الفرنسيين والجزائريين حتى في أرض الجزائر ضيّع فرصة تاريخية لتمتين «الوحدة المقدسة»[33] التي رفعتها القيادة الفرنسية شعارًا طوال سنوات الحرب.

رابعًا: بعد الحرب الكبرى
ميلاد الوعي السياسي الوطني

بدأت مرحلة ما بعد الحرب الكبرى من صلب تداعيات هذه الحرب ونتائجها. عبّرت أغلبية هذه التداعيات والنتائج عن أزمة عامة أصابت كل من ساهم في هذه الحرب، وطالت الجوانب المادية والعمرانية والمالية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والسياسية والثقافية.

تمثلت الأزمة العامة في انهيار النظام الرأسمالي، وولوج الاستعمار والإمبريالية مأزقًا تاريخيًا خطرًا سيرسم وضعًا آخر لعالم ما بعد الحرب. بدايةً من هذه اللحظة، وُضعَ مفهوم الاستعمار ذاته موضع التساؤل[34]، وأعيد تعريف الاستقلال والتحرر في سياق شرح مبادئ الرئيس الأميركي وودرو ويلسون التي أطّرت جدول أعمال مؤتمر فارساي في عام 1919.

أما على صعيد ما فرضته الحرب على الجزائريين في صلتهم بالاستعمار الفرنسي، فيمكن أن نرصد النتائج الآتية:

(33) كان شعار «الوحدة المقدسة» الذي رفعته القيادة الفرنسية قبل الحرب وخلالها يعني الفرنسيين وحدهم، فكل مراجع الخطاب السياسي والبيانات الأيديولوجية والعسكرية تحيل إلى تاريخ الأمة الفرنسية وقادتها وعظمائها، وقلما كانت تحفل بوجود جيوش المستعمرات في صفوفها لتمجدهم وتذكر مناقبهم وخصالهم القتالية. وبناء عليه، كانت معركة نزع الاعتراف هي مجال الصراع الجديد الذي خاضته النخبة الجزائرية التي ستصبح نخبة وطنية بسبب ذلك. فقد دفع الجزائريون ضريبة الواجب المقدس وعليهم بعدها قبض ثمن ذلك.

(34) عرّف الأمير خالد الاستعمار بقوله: «إن تستعمر بلدًا معناه أن تنقل حشودًا بشرية من المتروبول إلى المستعمرة، وأن تستورد مواد مصنعة وتصدّر أخرى، دونما اكتراث بتنمية وازدهار السكان الأصليين. فضلًا على الرؤية الدونية للجنس والدين، وهذا أمر خطر. والاستعمار يفضل دائمًا إجلاء الأوروبيين من البؤس بإعطائهم الجنسية والحقوق والتشريفات والامتيازات كلها، مع الانقياد الأعمى إلى الصراع بين الصليب والهلال الذي طاول قرونًا من الزمن». *L'Ikdam*, 26/3/1923.

- ارتبط ميلاد الحركة الوطنية الجزائرية في مرحلتها السياسية بالحرب العالمية الأولى[35]. كانت النخبة الجزائرية أول من تفاعل مع الحدث الكبير ومع إرهاصاته الأولى التي رافقت تحرشات ألمانيا في البحر المتوسط، فسارعت إلى التعامل مع قانون التجنيد الإجباري الذي أصدرته السلطة الفرنسية في 3 شباط/ فبراير 1912، والذي رامت به تجنيد الأهالي المسلمين عبر الخدمة العسكرية الإجبارية. بادرت النخبة ببيان عن مطالب المسلمين من حقوق وحريات في مقابل التزامهم واجب الجندية تحت العلم الفرنسي (بيان تأسيس حزب الشبان الجزائريين حزيران/ يونيو 1912)[36]. أثار مرسوم التجديد الإجباري ردات فعل متباينة، بين تأييد النخبة الجزائرية المتعلمة ورفض غلاة المعمرين الفرنسيين الذين رأوا فيه مزاحمة لهم على المركز القانوني والوضع العام، وتبرم العوام منه، حتى بلغ الأمر ببعضهم حد النزوح في هجرة جماعية إلى بلاد الشام في عام 1911 وما بعده[37].

(35) ساهمت الحرب الكبرى، مقدماتها وسياقها وما بعدها، في ميلاد الحركة الوطنية الجزائرية، وهذا ما تَوَاضع عليه الباحثون الجزائريون والفرنسيون، انظر في هذا الصدد الكتاب/ الأطروحة للمؤرخ الجزائري محفوظ قدّاش، تاريخ النزعة الوطنية: Mahfoud Kaddache, *Histoire du nationalisme algérien: Question nationale et politique algérienne 1919-1951*, 2 tomes, 2e ed. (Alger: Société nationale d'édition et de diffusion, 1980).

(36) جاء هذا البيان الذي أصدره الشبان الجزائريون تحت عنوان «التدابير التي يطالب بها المسلمون الفرنسيون في الجزائر مقابل التجنيد العسكري»، 26 حزيران/ يونيو 1912. كان الوفد الجزائري الذي سلّم البيان إلى رئيس الحكومة الفرنسية بوان كاري يتكوّن من السادة: الدكتور ابن التهامي مندوب مالي في مدينة الجزائر، مختار الحاج السعيد محامي في مدينة قسنطينة، الدكتور موسى مستشار بلدي في قسنطينة، علاّوة بوشريط مستشار بلدي في قسنطينة، حاج عمّار مستشار بلدي في جيجل، جودي مستشار بلدي في بسكرة، ابن عثمان مستشار بلدي في بيجو، بن ددّوش مستشار بلدي في تلمسان، قارة على من أعيان عنّابة. ومما ورد في هذا البيان: «أن هذا العبء الجديد (الخدمة العسكرية) الذي جاء ليضاف إلى أعباء أخرى، يجب أن يقابله شرط تحسين مصير الأهالي». «على أبناء فرنسا أن يتجاوبوا مع المسلمين ويقتنعوا بأن الأهالي على أتم الاستعداد من أجل القيام بجميع المهام والواجبات الوطنية حيال الدولة - الأم». «إلغاء العمل بنظام العلاوة، لأن عائلات المجندين يشرفها أكثر أن ترى أبناءها يلتحقون بالجيش الفرنسي من دون مقايضة مالية». «إلغاء نظام التعسف». «التوزيع المنصف لموارد الميزانية على كافة العناصر السكانية في الجزائر». انظر النص الكامل لهذا البيان في: Chérif Benhabilès, *L'Algérie française vue par un indigène*, Préface de M. Georges Marçais (Alger: impr. de Fontana frères, 1914).

(37) الحقيقة أن بداية الحديث عن إمكانية تجنيد إجباري للأهالي المسلمين بدأ في نهاية القرن التاسع عشر واشتد مع بداية تحرش ألمانيا بمنطقة المتوسط، خصوصًا بعد حادثة مراكش في عام 1911. =

- اقترن الوعي السياسي الوطني في الجزائر، بين من شاركوا في انتصار فرنسا على ألمانيا خصوصًا، بلحظة نهاية الحرب الكبرى عندما انصرفت النخبة الجزائرية الأولى إلى العمل السياسي. أبرز من ظهر على ساحة العمل السياسي الأمير خالد(38) الذي بدأ حياته كعسكري محترف، شارك في الحرب ضابطًا أهليًا لم يسعفه الوضع لإتمام الحرب إلى النهاية بسبب تعرضه لمرض خطر أودى به إلى النقاهة والخروج من الجيش أصلًا.

لكن، بعدما وضعت الحرب أوزارها، سارع الأمير خالد إلى توجيه رسالة/ بيان إلى الرئيس الأميركي، صانع انتصار القوى الديمقراطية، يطالبه فيها بمراعاة الأوضاع العامة في بلدان المستعمرات وإسعافها بالشروط والمقتضيات الجديدة التي وَضَعَها مؤتمر السلام وخلفيته المرجعية التي تمثلت في نقاط الرئيس الأميركي الأربع عشرة. مما جاء في هذه الرسالة: «نطالب بإرسال مندوبين عنّا، نقوم باختيارهم من أجل تقرير مصيرنا في المستقبل، تحت رعاية عصبة الأمم. وأن النقاط الأربع عشرة حول السلام العالمي، يا سيادة الرئيس، التي صادقت عليها وتبنّتها القوى الوسطى والحلفاء، يجب أن تؤخذ كأرضية من أجل انعتاق الشعوب الصغيرة وتحررها، دون تمييز في العرق وفي الدين»(39).

إن التوجه إلى الرئيس الأميركي على هذا النحو يشي بالبحث عن مرجع سياسي أعلى من الدولة الفرنسية التي لم تسعف وضعية الأهالي الجديدة، إلا

= فقد تشكلت لجنة خاصة لمعاينة الوضع الأهلي العام وضبط الحيثيات التي تساعد في إعداد نظام عسكري يقوم على استدعاء صفوف من الأهالي المسلمين كاحتياط للقوة العسكرية الفرنسية. ومرسوم 3 شباط/ فبراير هو في نهاية المطاف تتويج لما سبقه من تحضير وتهيئة. عن اللجنة التي تابعت مشروع المرسوم يمكن العودة إلى محاضر وأعمال السيد ميسيمي مقرر لجنة التجنيد العسكري للأهالي في: Centre des archives d'outre-mer [CAOM], 3H 59: Lettre de M. Messimy, Rapporteur du budget de la guerre au ministre, 1907; Note portant comparaison entre le recrutement par voie d'engagement et le recrutement par voie d'appel, et projet de decret relatif au recrutement des indigènes algériens par voie d'appel...

(38) عن حياة الأمير خالد وفكره ونضاله، انظر الدراسة المهمة والقيمة التي قام بها جيلبير مينيه وأحمد كولاكسوس، انظر: Ahmed Koulakssis et Gilbert Meynier, *L'Emir Khaled: Premier za'im? Identité algérienne et colonialisme français*, Histoire et perspectives méditerranéennes (Paris: l'Harmattan, 1987).

(39) انظر النص الكامل لهذه الرسالة/ العريضة، كما ترجمها الأستاذ المؤرخ سعد الله أبو القاسم، وتعليقه عليها في كتابه: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 2 (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986)، ص 49-61.

بمرسوم 4 شباط/ فبراير 1919[40]، الذي عزز قليلًا إمكان حصول بعض الأهالي على الجنسية الفرنسية.

- يكشف البحث عن مراجع أخرى، غير السلطة الفرنسية، عن روح سياسية جديدة دبّت في الأمير خالد، إذ انتابته حال من الوعي توحي بضرورة البحث عن إطار دولي حديث من أجل استيعاب الأهالي المسلمين كمواطنين في إطار الدولة الحديثة. ومما وفّرته لحظة ما بعد الحرب الكبرى هو تأسيس عصبة الأمم في جنيف، وهي هيئة دولية تعلو على سيادة الدولة، وسوف تساعد في تأسيس الدولة القومية طوال فترة ما بين الحربين، والتخلص من الهيمنة والاستعمار والاحتلال. وبناءً عليه، وضع الأمير خالد مهمته السياسية ودوره في حياة الأهالي المسلمين في سياق تاريخي قوي، ترك تداعياته على الفرنسيين كما على الجزائريين.

- بمعاينة الوضع العام في الجزائر، نجد أن الحكومة الفرنسية تأخرت كثيرًا في التماس الإجراءات الإصلاحية، وأن سياستها حيال الأهالي المسلمين سببت أكثر المفارقة والتناقض والمماطلة، ولعّل هذا ما حدا بالأمير خالد والنخبة من الشباب المتعلم إلى الانخراط في العمل السياسي بمعنى النضال السياسي والاجتماعي. في هذا السياق التاريخي الحاد والمؤثر، خاض الأمير خالد معارك سياسية طاحنة مع ممثلي الكولون (المعمرين)[41] وأعوانهم من الجزائريين،

(40) انظر في هذا الصدد مرسوم 4 شباط/ فبراير 1919، المتعلق بـ«منح الأهالي صفة المواطنة الفرنسية». جاء هذا المرسوم، كي يكافئ إلى حد ما جهد الجزائريين في الحرب. لكن قراءة تاريخية وسياسية لهذا المرسوم يستشف منها دائمًا الطابع الاستعماري الذي يخشى على أوضاعه. ورد في المادة الثانية: يحصل الأهلي الجزائري على صفة مواطن فرنسي، بناء على طلبه، وإذا استوفى الشروط التالية: أن يكون عمره 25 سنة كاملة؛ أن يكون عازبًا، أو متزوجًا بامرأة واحدة فقط؛ لم يسجن، وأن لا يكون قد حكم عليه في جرائم أو جنح سالبة للحقوق السياسية، ولم يخضع لأي عقوبة تأديبية، سواءً أكانت بسبب مواقفه المناهضة للسيادة الفرنسية أم قيامه بنشاط سياسي أو ديني، أم تصرفات تمس النظام العام؛ الإقامة لمدة سنتين متتاليتن في البلدية نفسها سواء في فرنسا أم في الجزائر، أم ما يمثل الدائرة في المستعمرات الفرنسية أم في بلدان الحماية الفرنسية. ثم تواصل المادة شروطها التعجيزية وتضيف أن يكون والد طالب الجنسية متمتعًا بالجنسية الفرنسية، وأن يكون طالب الجنسية أعرب عن عزمه الحصول عليها لمّا بلغ عمره 21 سنة كاملة. *Journal Officiel* (6 Février 1919), code de l'Algérie annoté sup., anneé 1916-1919, Alger, 1927, p. 302.

(41) عن المعارك والمماحكات والسّجالات التي واجهها الأمير مع خصومه وأنصار الاستعمار الذين عملوا بدأب على إجهاض جميع محاولات الأمير لاستقطاب التجربة السياسية كمدافع عن الأهالي =

جعلت منه شخصية كاريزمية[42] التف حولها الأهالي المسلمون وأنصارهم من الفرنسين، وصارت شخصية خالد مطلوبة من الجانبين الفرنسي والجزائري[43].

كان لظهور شخصية الأمير خالد في المجال العام الدور الكبير في انخراط العمال الجزائريين في فرنسا في النشاط النقابي والسياسي ضمن التنظيمات الفرنسية اليسارية، كان أحد ثمارها تأسيس جمعية نجم شمال أفريقيا في عام 1926 في كنف الحزب الشيوعي الفرنسي، ليبدأ المسار السياسي الحركة الوطنية الجزائرية الرامي إلى التحرر والاستقلال.

= ومعبّر عنهم وصانع رأيهم العام، نذكر على سبيل المثال المواقف والردود الآتية: مداخلة السيد مورينو في غرفة النواب ضد الأمير يتهمه فيها بالنزعة الوطنية الشوفينية وبتأليب السكان على النظام الفرنسي، انظر: ***Journal officiel de la république française*** **[JORF], chambre des députés, Décembre 1920, pp. 4749-4750.** كتاب مفتوح إلى السيد رئيس الوزراء الفرنسي ضد تدخّل والي مدينة الجزائر في انتخابات المجالس العامة وسياسة التحرش والترهيب التي يمارسها على غير أنصاره، انظر: *L'Ikdam*: 27/8/1921, et 12/6/1922, et Télégramme du 15 Juillet 1921, توضيح قدّمه خالد ضد الصحف التي لم تتورّع في نسج أخبار مغرضة على ما فعلت صحف *L'Echo d'Alger*; *L'Intransigeant*, *La Nouvelle de Lyon*، انظر: *L'Ikdam*, 30/6/1922. رد خالد على رئيس بلدية سانت أوجان (Saint-Eugène) السيد فيمال (Vimal) ومستشاره السيد دلما (Delmas)، اللّذين يأخذان بنظرة الاستعمار والمعاملة العنصرية حيال الأهالي المسلمين، انظر: *L'Ikdam*, 28/6/1922. احتجاج خالد ضد والي مدينة الجزائر الذي ناور في فوز خمسة أعضاء من الموالين له (بني وي وي)، انظر: *L'Ikdam*, 13/10/1923.

(42) عن شخصية الأمير خالد ودوره في حياة الأهالي والفرنسيين، يقول زميله وصديقه فيكتور سبيلمان: «لقد بلغت هيبة وصدقية خالد حدّ أنها حازت أغلبية قل نظيرها في صفوف المنتخبين الأهالي، على الرغم من تحرش الإدارة الاستعمارية وعنفها، لا بل أكثر من هذا، فقد سمحت هيبته لعدد من أصدقائه في الفوز في الانتخابات». انظر: Victor Spielmann, *L'Émir Khaled: Son Action politique et sociale en Algérie de 1920 à 1923, Un Aspect de la question indigène algérienne* (Alger: Trait d'union, 1938), p. 1.

(43) فرض الأمير نفسه على حياة الأهالي، كما على الأوساط الفرنسية، بسبب الدور الذي اضطلع به، وانتزع مفهوم الخالدية، إشارة إلى النزعة التي صارت تلازمه من قبل أنصاره والذين تعلقوا به. كتبت جريدة همزة وصل: «لماذا الأهالي الجزائريون خالديون؟ لأن خالد، ومنذ أن غادر الخدمة العسكرية، وهَبَ نفسه لخدمة الأهالي (...) فقد انتُخِب من الهيئات الانتخابية الأهلية كافة، كما أن الذين تقدموا معه على القائمة نفسها فازوا معه». وعقّب بعد ذلك زميله السيد فيكتور سبيلمان: «إن مصطلح الخالدية (نسبة إلى حركة خالد في صفوف الأهالي وصيته لدى النظام الفرنسي) يعني بالضبط ما تعنيه كلمة الزغلولية في مصر، والغاندية في الهند، أي تعنى بشكل عام: تحرير الشعوب». انظر: *Trait d'union*, 20/8/1924.

الفصل الحادي عشر

المشهد الصحافي المغربي في غمار الحرب العظمى

جامع بيضا

يُعد تفاعل المشهد الإعلامي مع ظرفية الحروب من الموضوعات التي تستأثر باهتمام المؤرخين وغيرهم من المتخصصين بالعلوم الإنسانية والاجتماعية. فالطبيعة الاستثنائية للظرفية تولد بالضرورة حوادث وفاعلين يصبغون الصيرورة التاريخية بطابع خاص، جدير بالاهتمام أكثر من غيره. وحالة المشهد الصحافي المغربي خلال الحرب العظمى تكتسي أهمية بالغة، نظرًا إلى عوامل مرتبطة بالتحولات الخطرة التي كانت البلاد تعيشها في العقد الثاني من القرن العشرين على صعد مختلفة، ومنها الصعيد الصحافي.

فتح فرض الهيمنة الاستعمارية على المغرب، بموجب عقد فاس في 30 آذار/ مارس 1912، الباب لتقنين الصحافة على مقاس النظام الجديد الذي كان يسعى إلى امتلاك كل أدوات التحكم في البلاد والعباد. فصدر أول ظهير منظم للصحافة في 27 نيسان/ أبريل 1914، في مبادرة تنم عن الأهمية التي كان يوليها الحكام الجدد لهذا القطاع، في إطار سياستهم العامة الرامية إلى تكريس الاحتلال.

ساهمت ثلاثة عوامل، على الأقل، في دفع الإقامة العامة الفرنسية قدمًا نحو هذا الهدف:

أولًا، ما أتاح نظام الحماية الذي فرض على المغرب في عام 1912، خلافًا للنظام الاستعماري الاستيطاني المفروض على الجزائر، للفرنسيين فرصة إخضاع المغرب لقانون تموز/ يوليو 1883 المنظم للصحافة والمطبوعات في فرنسا، لذا وجب إحداث قانون للصحافة خاص بالمغرب؛ ثانيًا، ارتأت فرنسا أن تقنن الصحافة في المغرب كي لا تترك فراغًا تستغله الدعايات الأجنبية المناهضة لمصالح الفرنسيين في هذا البلد، خصوصًا منها الإسبانية والألمانية. بالنسبة إلى الدعاية الإسبانية، تجدر الإشارة إلى حالة جريدة **الحق** الصادرة في طنجة والموالية لمصالح مدريد. فبفضل البريد الإسباني، تجاوز تأثير هذه الجريدة حاضرة طنجة، بل وحتى المنطقة الشمالية الواقعة تحت نفوذ الإسبان، ليصل إلى

عقر دار الفرنسيين في فاس وغيرها. انزعج الفرنسيون من ذلك، وألقوا القبض في أيلول/ سبتمبر 1912 على محرريها المصريين أحمد رفعت ومحمود زكي اللذين صدرت في حقهما أحكام بالسجن من محكمة عسكرية التأمت في الرباط؛ **ثالثًا**، لم تكن الصحافة الأجنبية وحدها مصدر انزعاج السلطات الاستعمارية الفرنسية في المغرب. فحتى بعض الجرائد الفرنسية الصادرة في الدار البيضاء أقلقت راحة الإدارة بخوضها في أمور حساسة. وهكذا كان شأن جريدة *L' Emancipation* التي انطلقت من موقع مرجعية يسارية لتوجه نقدها اللاذع في أواخر عام 1913 للمؤسسات السياسية والدينية المحلية، ولبعض الأوساط الرأسمالية الأوروبية في الدار البيضاء. واجهت الإدارة هذه الهجمة بحزم، فقامت بإبعاد فريدريك جيلبير، منشط تلك الجريدة، إلى خارج المغرب.

عجلت هذه الحالات وغيرها إصدار الإدارة الفرنسية قانونًا ينظم الصحافة والمطبوعات في المغرب، في 27 نيسان/ أبريل 1914.

أولًا: قانون الصحافة

فتحت مقتضيات هذا القانون آفاقًا واعدة لمصلحة صحافة المعمرين الفرنسيين، خصوصًا الموالية لسياسة الإقامة العامة، وكادت تضيّق الخناق على صحافة الأهالي، لكن سرعان ما خضع القانون المذكور لإكراهات الحرب العظمى التي اندلعت في آب/ أغسطس 1914 التي انخرط فيها المغاربة بحكم تبعية معظم ربوع البلاد لفرنسا، وهي إحدى الدول الكبرى التي كانت تخوض غمار الحرب العظمى في أوروبا. ولعل أبرز تجليات هذه الإكراهات فرض نظام الأحكام العرفية على البلاد، وانعكاسه على المشهد الصحافي.

1 - حالة استثناء

فرض الجنرال لوي هوبير ليوتي، المقيم الفرنسي العام في المغرب، في مستهل آب/ أغسطس 1914 الأحكام العرفية في الإيالة الشريفة، ما جمد إلى حين مقتضيات قانون الصحافة، ومنح السلطات العسكرية صلاحيات واسعة في مقدمها حق التدخل لردع كل ترويج لأخبار «غير صحيحة» بواسطة الصحافة أو أي وسيلة

أخرى، من شأنها إحداث الرعب والبلبلة بين السكان والإساءة للمصالح الفرنسية.

كان من المفترض أن ينتهي العمل بالأحكام العرفية في المغرب بمجرد وضع الحزب أوزارها في أوروبا، كما هو الحال في فرنسا مثلًا. فحتى في تونس الخاضعة لنظام الحماية الفرنسية، تم رفع حال الطوارئ في آذار/ مارس 1921، غير أن الأمور سارت على نحو مخالف في المغرب، إذ اعتبر ليوتي أن الحرب العظمى انتهت فعلًا في تشرين الثاني/ نوفمبر 1918، لكن معارك الاحتلال التي كانت تُنعت تمويهًا بعمليات التهدئة أو التمهيد (Pacification) استمرت، وتحتم الإبقاء على حالة الاستثناء إلى أجل غير مسمى.

انعكس نظام حالة الاستثناء بالضرورة على المادة الصحافية التي فقدت جاذبيتها، كمًا ونوعًا، وساهمت في تقليص هامش حرية الصحافة لتحوّل الأخبار عن مجريات الحرب في أغلب الأحيان إلى مجرد بلاغات رسمية باهتة، أو قصاصات صادرة عن وكالات الأنباء (خصوصًا هافاس الباريسية) لا تُنشر إلا بعد إخضاعها لرقابة عسكرية دقيقة.

في ظل هذا المشهد، اضطر عدد من الجرائد إلى إلغاء اشتراكها في خدمات وكالات الأنباء. فعلى سبيل المثال لا الحصر، راسل مدير جريدة ليكو دو ماروك وكالة هافاس بتاريخ 31 تشرين الأول/ أكتوبر 1914 لإخبارها أن إكراهات حوادث الحرب جعلت جريدته في موقف حرج يتعذر معه أداء الديون المترتبة عنها والاستمرار في الاستفادة من خدمات الوكالة. وكان نشاط هافاس في المغرب قد ضعف، وتم تجنيد مدير الوكالة في طنجة، هنري رابانيط، في عام 1914. وبعد عامين، تم تركيز نشاط هافاس في العاصمة الرباط بانتظار رجوع المياه إلى مجاريها الطبيعية.

في ظل هذه الأوضاع العصيبة، اضطرت صحف أخرى إلى تقليص مواد التحرير وعدد الصفحات، وأجبرت أخرى على التوقف تمامًا عن الصدور بعد أن افتقدت العناصر الضامنة لرواجها، وصَعُب عليها التأقلم مع إكراهات ظرفية الحرب التي حرمتها من موارد الإشهار ومن عدد غير يسير من قرائها، وبالتالي من نصيب مهم من دخولها. ومن الجرائد التي توقفت مسيرتها بفعل هذه الظرفية، نذكر *L'Atlas*, *Le Cri de Rabat*, *Le Journal de Rabat*...

في بعض الحالات، رزئت الجرائد بفقدان أحد محرريها في جبهات القتال. فذلك كان شأن الصحيفة البيضاوية (*La Vigie marocaine*) التي، بعد أن عانت خلال عام 1914 ضائقة مالية جعلتها في موقف حرج إزاء وكالة هافاس الإعلامية وإدارة مصالح البريد والتلغراف، مرت بوقت عصيب في عام 1916 بعد أن لقي مديرها جورج ميرسييه (Georges Mercié) حتفه في معركة فردان الشهيرة. ولم تكن الجريدة المشار إليها وحيدة في مثل هذا المصاب الأليم.

2- بوق لفرنسا

فرضت الحرب العظمى على المشهد الصحافي المغربي إكراهات مختلفة، اتخذت أشكالًا متصلة بحقل الحريات العامة والجوانب اللوجستية والبشرية والمادة الصحافية. ففضلًا عن الضائقة التي شملت بعض الضروريات المادية لإنتاج الصحافة، مثل الورق والمداد وقطع غيار المطابع وغيرها، كان من تداعيات الحرب على الصحافة أن عانت أيضًا نقصًا مهولًا في عدد الصحافيين المهنيين، وفي مقدمهم الصحافيون الذين التحقوا بجبهات القتال في أوروبا.

إذا كان الوهن قد لحق في هذه الظرفية معظم الصحف المستقلة، فإن الإدارة الفرنسية لم تهمل الدور الحيوي الذي يمكن «للسلطة الرابعة» أن تقوم به في أحوال الحرب. وهكذا، قدمت الإقامة العامة الدعم الضروري لبعض الجرائد التي كانت مستعدة للخضوع للتعليمات التي تتلقاها من الإدارة. فتلك كانت حالة جريدة السعادة التي كانت تصدر في الرباط، العاصمة الجديدة للبلاد تحت نظام الحماية الفرنسية، والتي وفرت لها جميع الوسائل المادية والبشرية لتصبح البوق الرسمي للإدارة الفرنسية لدى الأهالي، ولا سيما بعد تجنيد الآلاف من المغاربة في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل. وهكذا، أصبحت السعادة التي كان يدير تحريرها الصحافي اللبناني وديع كرم أداة للدعاية، تمرر للمغاربة بلغة الضاد الخطاب الرسمي الفرنسي الرامي إلى إقناعهم بمؤازرة فرنسا في جهدها الحربي في أوروبا.

كانت هذه الحملة ضرورية من وجهة نظر فرنسا، خصوصًا بعد صدور فتوى شيخ الإسلام العثماني الداعية إلى الجهاد (7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1914). راهن ليوتي على الجريدة ذاتها لتسويق سياسته «الإسلامية» التي قال عنها ذات يوم إنه لولاها لما أحكم قبضته، في ظرفية الحرب العظمى، على البلاد والعباد.

لم تهمل السعادة أن تبين لقرائها أن بعض الذين ناصبوا فرنسا العداء بالأمس وناصروا ألمانيا والدولة العثمانية سرعان ما تبين له بطلان اختياره وتراجعوا عنه لمناصرة فرنسا. تلك كانت حالة الصحافي المصري أحمد رفعت الذي حوكم في الرباط وسُجن قبل أن يعود إلى بلده مصر. ففي عدديها في 7 و8 كانون الثاني/ يناير 1915، قدمت السعادة لقرائها النص الكامل لرسالة مؤرخة في 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1914 تؤكد أن أحمد رفعت، المدير السابق لجريدة الحق الطنجاوية الموالية للإسبان، أرسلها من النصرية بمصر إلى سفير فرنسا في القاهرة. ومما جاء فيها: «غرضي بهذا الخطاب الذي أكتبه بالعربية ليكون برهانًا قاطعًا أن أقول لسعادتكم أن كل نقطة دم فرنساوي تسكب في ميدان القتال ضد ألمانيا تؤلمني إيلامًا شديدًا. غرضي أن أقول لسيادتكم إنني أبغض ألمانيا بغضنا يفوق بغض البلجيكي والفرنساوي والإنكليزي لها، وما ذلك إلا لأنكم تدافعون عن الإنسانية والمدنية [...]. إن دخول تركيا في هذه الحرب جعل القلوب تنفر منها. نعم، إنني كنت بالأمس، أي عند وجودي في مراكش، أجمع لها الاكتتابات والمتطوعين، ولكنني الآن أصرح أن تركيا بدخولها هذه الحرب برهنت على أنها غير كفؤ لقيادة الإسلام، ولو ظلت مصر تابعة لها بعد الحرب لتبرأت من جنسيتي المصرية لنفوري من تركيا [...]».

يمكن بسهولة أن نتصور وقع مثل هذا الخطاب المنشور في السعادة على آراء المغاربة المتأثرين بالدعاية الألمانية والعثمانية، خصوصًا أنه تزامن مع حملة دعائية محبوكة من لدن الإقامة العامة سخرت فيها النفوذ الروحي الذي يتمتع به السلطان المولي يوسف وشيوخ الطرق والزوايا. فبإيعاز من الإدارة، أصدر زعماء الزوايا فتاوى شرعية تُبيح للمسلمين المغاربة أن يلتحقوا بجبهات القتال في أوروبا، ويحاربوا إلى جانب فرنسا ضد ألمانيا وحليفتها الدولة العثمانية. أما السلطان، فراسل المحاربين المغاربة، يحشد هممهم ويبارك انخراطهم في الحرب تحت الراية الفرنسية.

فضلًا عما سبق، جُندت السعادة وغيرها من الصحف الموالية للإدارة نفسها لإضفاء الشرعية على ممارسات الفرنسيين كحجز ممتلكات بعض الشركات الألمانية والنمساوية المجرية العاملة أنئذ في المغرب، في ميادين التجارة والفلاحة والمعادن. فبعد صدور الظهير المؤرخ بـ 29 أيلول/ سبتمبر 1914

القاضي بذلك الحجز، شنت تلك الجرائد حملة بلا هوادة بغرض مطاردة «أعداء فرنسا» ومحاكمتهم وحجز ممتلكاتهم.

ما يقال عن السعادة في الرباط كبوق للدعاية الفرنسية، ينسحب أيضًا على لاديبيش ماروكين في طنجة. فهي لم تتمكن من تجاوز الصعوبات المادية التي اعترضت سبيلها بفعل ظرفية الحرب إلا بفضل الاعتمادات المالية التي وصلتها من وزارة الخارجية الفرنسية ابتداءً من كانون الثاني/يناير 1916. قامت هذه الوزارة بأداء المقابل عن اشتراك تلك الجريدة في خدمات وكالة هافاس، واستمر هذا الدعم حتى بعد نهاية الحرب العظمى. وهذه الرعاية شملت أيضًا جريدة عربية تصدر في كنف لاديبيش ماروكين تحت عنوان الترقي. إذ حلت هذه الأخيرة محل السعادة التي نقلها ليوتي من طنجة إلى الرباط، واضطلعت بدور المدافع عن وجهات نظر فرنسا في الصراع الدائر في أوروبا.

من الجرائد الأخرى التي استفادت من سخاء الحكومة الفرنسية جريدة لاليبرتي [الحرية] التي صدرت في طنجة في عام 1915 للدفاع عن مصالح الجماعات اليهودية، حيث استفادت من دعم مالي من الإقامة العامة بلغ 1600 فرنك في عام 1916، ثم ارتفع إلى 2000 فرنك في عام 1918. ويبدو أن اهتمام الإدارة الفرنسية بالمشهد الصحافي في طنجة ينسجم تمامًا مع ما كانت هذه المدينة تمثله كحلبة للمناورات بين الدول التي تخوض غمار الحرب في أوروبا. فصارت الدعاية بواسطة الصحافة مسألة تسترعي اهتمام المتحاربين أكثر من أي وقت مضى.

لم تكتف الإدارة الفرنسية بالترويج لدعايتها بواسطة الجرائد التي كانت تدعمها، بل عملت أيضًا على حظر بعض الصحف والمجلات الصادرة خارج المنطقة.

3- محاولة رفع معنويات القراء

تجدر الإشارة إلى أن طول مدة الحرب العظمى نبه الإدارة الاستعمارية الفرنسية في المغرب، وهي الموجهة لوسائل الإعلام، إلى أن عموم القراء قد يسأمون رتابة أخبار الحرب، فيكون لذلك أثر سلبي في نظرتهم إلى فرنسا، لذا

بادرت بعض الجرائد منذ عام 1916، وبإيحاء وتشجيع من الإدارة، إلى ابتكار أركان صحافية تروم تسلية القراء ومنع التشاؤم من أن يتسرب إلى نفوسهم [صفحات أدبية ورياضية وفكاهية...].

تزامن ذلك مع «سياسة الابتسامة» و«المعارض التجارية» التي أصبحت الأوساط الرسمية تلجأ إليها حتى لا تظهر فرنسا في عيون الأهالي المغاربة وكأنها تجتاز ظرفًا عصيبًا في صراعها الطويل والمرير ضد ألمانيا وحلفائها.

طبع هذا التوجه الخط التحريري لعدد من الجرائد حتى وضعت الحرب أوزارها في تشرين الثاني/ نوفمبر 1918. في هذا المناخ المصطنع، وتوجسًا من ردات فعل الأهالي، منعت الصحف حتى من الحديث المستفيض عن «الأعمال الشنيعة» التي يقترفها «العدو».

في صيف 1916، رفض ليوتي فكرة وزارة الخارجية الفرنسية (الوزارة الوصية عليه) بتنظيم معرض متنقل في المغرب لوثائق فوتوغرافية عن الحرب.

ثانيًا: تداعيات الحرب العظمى على المشهد الصحافي

إذا كان المشهد الصحافي المغربي الذي أشرنا آنفًا إلى خطوطه العريضة ينسجم وظرفية الحرب العظمى، فقد ترسخت في المغرب، مع مرور الأعوام خلال الحرب العظمى، بعض الممارسات والتصرفات التي استمرت تداعياتها بعد نهاية الحرب. أولى هذه التداعيات الإبقاء على حالة الاستثناء واستعمال مقتضياتها أو التلويح بها للتضييق على حرية المطبوعات والصحافة، وعلى حرية التعبير عمومًا.

على الرغم من الإعلان رسميًا في كانون الثاني/ يناير 1919 عن تخفيف إجراءات الرقابة على الصحف، بقي سيف داموقليس مسلّطًا على رقاب الصحافيين، كلما تعلق الأمر بأخبار تعتبرها الإقامة العامة حساسة. وأدرجت في هذا الباب الأنباء كلها المتعلقة بحرب التحرير التي كان يخوضها الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي في منطقة الريف بين عامي 1921 و1926، فلم يُسمح للصحافيين بالإفصاح عن أخبار تلك الحرب إلا بعد حصولها على تأشيرة

مصلحة الرقابة. أما الصحف الأجنبية فأوصدت أبواب المغرب في وجهها كلما تضمنت مقالات تنتقد سياسة فرنسا في المغرب. وكثيرًا ما حُظرت بذريعة تعاطف منشورات فيها مع التيار الشيوعي الذي بدأ يكتسح العالم غداة الثورة البلشفية السوفياتية في تشرين الأول/ أكتوبر 1917.

كان من تداعيات التضييق على الحريات تأخر بروز صحافة أهلية حرة في المغرب، إذ اعتقد من يرسمون خطوط المشهد الإعلامي في هذا البلد أن الصحافة نعمة في أيدي قوم متحضرين، لكنها نقمة في قوم لا قدم راسخة لهم في التمدن. هذا على الأقل ما نستشفه من كلام أوجين مارغو (Eugène Margot) في محاضرة ألقاها في عام 1927 وحضرتها مجموعة من الضباط الفرنسيين المرشحين لتقلد مناصب إدارية. ومارغو هو المدير الحقيقي لجريدة السعادة التي تحدثنا عن خطها التحريري آنفًا، ويعد هذا المستعرب أيضًا المستشار الأول للقائم العام في كل ما يتعلق بالصحافة الأهلية. ومما جاء على لسانه: «يبدو أن إحداث صحافة عربية حرة في المغرب أمر سابق لأوانه. فالصحافة سلاح خطر في أيدي قوم بلا تجربة. وإذا كانت صالحة، على صعد شتى، عند الأمم المتحضرة، فهي غير ذلك تمامًا بالنسبة إلى شعوب لا تزال في المرحلة الأولى من تطورها، خصوصًا الشعوب العربية والأمازيغية المعروفة بسرعة انفعالها»[1].

انطلاقًا من هذا الاعتقاد، عُرقل ظهور صحافة وطنية حتى الثلاثينيات، كما أبقي على على حالة الاستثناء التي فرضتها ظرفية الحرب العظمى، ولم ترفع حتى استرجع المغرب استقلاله في عام 1956.

(1) Eugène Margot, *La Presse arabe en 1927: Conférence faite à MM. les Officiers du Cours d'Instruction Préparatoire au Service des Affaires indigènes* (Casablanca: Publications de la résidence générale, 1927), p. 52.

الفصل الثاني عشر

تأسيس مسجد باريس (1922-1926)
إنجاز معماري وثقافي بعد الحرب الكبرى

صالح علواني

في عام 1922، قررت الإمبراطورية الفرنسية تقديم الدفع اللازم لبناء معهد إسلامي ومسجد جامع في باريس. وتم تدشين ما أريد له أن يكون «واجهة الإسلام» في فرنسا في عام 1926، بحضور أرفع الشخصيات الرسمية مقامًا في الدولة، وأعطي الحدث ما يستحق من رعاية سامية. أما باريس التي احتضنت هذا الإنجاز المعماري والثقافي في أحد أهم أحيائها رمزية وجمالًا، فلم تتردد في تمكينه من جميع أسباب ازدهاره آنذاك. فالجامع الكبير في باريس كان طويلًا، ولا يزال، أهم ممثل للإسلام الفرنسي في فرنسا، وأفضل محمل للسياسة الفرنسية تجاه المسلمين التابعين لإمبراطوريتها الاستعمارية.

بناء مسجد في قلب باريس حدث له أبعاده الكبرى، يحدث أول مرة في فرنسا العلمانية المحكومة التي يحكم قانون 1905 علاقتها بالديانات وشعائرها. ولم يكن بالإمكان إنجاز معلم ديني على أرض فرنسا، وبمساهمة رسمية فرنسية، لولا تمسك فرنسا بهذا الإنجاز على أرضها نظرًا إلى أهميته بالنسبة إلى سياستها داخل مستعمراتها وأمام العالم الإسلامي، خصوصًا الدول العربية في الشرق والغرب. رسميًا، قدمت فرنسا هذا الإنجاز على أنه اعتراف بجميل المسلمين لما قدموه لمناصرة فرنسا في الحرب العالمية الأولى[1]. وهكذا تكون الدائرة الباريسية الخامسة قد أضافت إلى مشهدها المعماري - الثقافي عنصرًا جديدًا: هندسة معمارية لم تعرفها فرنسا من قبل على أرضها، وثقافة جديدة مرجعها الوحيد القرآن والسُنة.

لكن، على الرغم من الحضور اللافت الذي شكله هذا المعلم الديني -

---

(1) انظر مثلًا خطاب سيزار كار (César Care)، رئيس المجلس البلدي في باريس، في أثناء حفل التخطيط لوضع اتجاه المنبر في 1 آذار/ مارس 1922، وباقي الخطب الرسمية في أثناء التدشين في: René Weiss [et al.], *Réception à l'hôtel de ville de sa majesté Moulay Youssef, sultan du Maroc. Inauguration de l'Institut musulman et de la Mosquée*, Avant-propos de Pierre Godin (Paris: Imprimerie Nationale, 1927).

الثقافي في المشهد المعماري الباريسي، بقيت الدراسات عنه قليلة جدًا، والدراسة الجادة الوحيدة تقريبًا التي خصصت له هي التي قام بها ألان بوايي[2] (Alain Boyer)، واهتمت خصوصًا بالوضع القانوني والتاريخي. من ميزات هذه الدراسة أنها تبيّن بوضوح الأسباب التي أحلّت هذا المعلم محل تجاذب و«صراعات خفية»، تعود أسبابها أولًا إلى نشأة جمعية أحباس[3] الأماكن المقدسة الإسلامية والتطورات التي عرفتها الجمعية لاحقًا، والتي كانت المسؤول الوحيد عن الممتلكات الإسلامية، من خلال رئيسها الذي يشغل أيضًا منصب المشرف العام على المسجد والمعهد الذي فيه.

تهتم هذه الدراسة بتسليط الضوء على بعض خصوصيات هذا الإرث الإسلامي الباريسي، ومظاهر تميزه، خصوصًا أنه موجود في أرض غير أرضه التقليدية. إنه «مشهد ثقافي حضري» شرقي - مغاربي أنجز على أرض فرنسية في باريس ضمن إطار ثقافي - حضاري جديد ومختلف. وهو كذلك «تراث ثقافي حي»، فالمسجد الجامع مفتوح أيام الأسبوع أمام المصلين، تؤمه أعداد غفيرة في أيام الجمعة. وسنركز على ما يميز هذا المعلم الباريسي، خصوصًا تاريخه، ونخص بالذكر الأوضاع التي أحاطت بنشأته وتدشينه باعتباره حدثًا مميزًا وفريدًا من أجل نشر قيم الإسلام على النمط الفرنسي[4]، أي إسلام متجذر في قيمه الإنسانية، منفتح على الحداثة الغربية.

من خلال عرض تاريخ هذا المعلم، سنحاول إبراز عناصر مميزة ذات رمزية عالية تحملها هذه المؤسسة الدينية والثقافية، خصوصًا قبل موجة حركات التحرر

---

(2) Alain Boyer, *L'Institut musulman de la Mosquée de Paris*, Préface de Philippe Decraene, Notes africaines, asiatiques et caraïbes (Paris: La Documentation française, 1992).

يمكننا الإشارة أيضًا إلى مقالة: Naomi Davidson, «La Mosquée de Paris. Construire l'islam français et l'islam en France, 1926-1947,» *Revue des mondes musulmans et de la méditerranée*, vol. 125 (juillet 2009), pp. 197-215.

(3) جمعية الأوقاف الإسلامية.

(4) في شأن هذه المسألة، انظر: Mohammed Arkoun, sous la dir., *Histoire de l'islam et des musulmans en France: Du Moyen âge à nos jours*, Préface de Jacques Le Goff (Paris: Albin Michel, 2006); Xavier Ternisien, *La France des mosquées* (Paris: Albin Michel, 2002), et Bernard Godard et Sylvie Taussig, *Les Musulmans en France. Courants, institutions, communautés: Un état des lieux*, 2e ed. (Paris: Hachette Littératures, 2009).

التي ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، والتي مست مستعمرات فرنسا كلها من دون استثناء تقريبًا[5].

أولًا: تاريخ المعهد الإسلامي والمسجد الجامع في باريس إنجاز تشاركي

يتميز المسجد بخاصية مزدوجة، كـ«مشهد ثقافي حضري» مغاربي - أندلسي أنشئ ليتفاعل مع محيط ثقافي فرنسي غربي. فوجوده في فرنسا وضع أول مرة في مدينة باريس مشهدين ثقافيين انحصرت العلاقة بينهما في بعض «الأنماط الثابتة» والأفكار المسبقة والنماذج الجاهزة، لكنهما وُجدا ليتفاعلا في ما بينهما، لينتجا مشهدًا ثقافيًا جديدًا على أطراف الحي اللاتيني. وجدنا في أرشيف معهد العالم العربي بباريس وثيقة مهمة، أفادتنا بمعلومات رسمية دقيقة في شأن تدشين المعهد الإسلامي، متضمنة خطب الشخصيات التي رعت هذا الإنجاز الثقافي والحضاري المهم وتابعته[6]. بتصفّح النصوص الواردة في الوثيقة، يتبين أن هذا المعلم يجسم أفكارًا سبقت الحرب العالمية الأولى وما خلفته من خسائر في صفوف من شارك من المسلمين فيها.

1 - فكرة بناء معلم ديني إسلامي في فرنسا

كثيرا ما يقَدَّم مسجد باريس تعبيرًا صادقًا عن رغبة فرنسا في اعترافها بجميل من ساهم في الحرب الكبرى (1914-1918) من المسلمين. وإذا كان معقولًا تفهم هذه الرغبة وصدق نواياها، فهي ليست وليدة نتائج الحرب وحدها، وهذا ما يدعونا في هذه الدراسة إلى البحث عن الأسباب العميقة التي سمحت في النهاية بإنجاز معلم بهذا الحجم في قلب باريس وفي تلك الأوضاع بالذات[7]. لم تكن أشغال البناء (1922-1926) نتيجة قرار مرتبط بأحوال ما بعد الحرب،

(5) للمزيد من التفصيلات عن تاريخ مسجد باريس وتثمين دوره، انظر: Salah Alouani, *Le Patrimoine culturel au service du «Vivre ensemble»: L'Exemple de la Grande Mosquée de Paris. Une approche historique et patrimoniale* (Französisch: Editions Universitaires Européennes, 2012).

(6) Weiss [et al.], *Réception.*

(7) بالنسبة إلى ألان بوايي، كان إنشاء مسجد باريس مرتبطًا باعتراف فرنسا بالجميل للجنود المسلمين الذين قتلوا في سبيل الدفاع عن فرنسا «الوطن الأم». لكننا نعتقد أن الدافع الرئيس يعود إلى ما قبل الحرب، وحاولنا توضيح ذلك في الدراسة، وهذا لا ينقص في شيء من أهمية الدراسة التي قدمها بوايي.

ولا بالثمن الغالي الذي دفعه المسلمون، وتحديدًا مسلمو شمال أفريقيا، في أثناء مشاركتهم الفاعلة في حرب لم تكن تعنيهم مباشرة، وهذا ما أعطى معهد باريس والمسجد الجامع دورًا مميزًا في صنع مشهد ثقافي حضري في الحي اللاتيني، غير بعيد من كنيسة نوتردام الشهيرة.

إذا أردنا التعرف إلى تاريخ هذا المسجد الجامع في باريس، علينا أن نعود إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. فأقرب تاريخ من بداية الأشغال يعود إلى عام 1895، في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909). يتبين أن الفكرة تعود ربما إلى بداية القرن الثامن عشر، أي إلى ما قبل حقبة استعمار بلاد المغاربة بكثير. نجد هذه المعلومة في خطاب ألقاه مولاي يوسف سلطان المغرب عندما حلّ ضيفًا على الرئيس الفرنسي ليدشنا معا المسجد الجامع يوم 15 تموز/ يوليو 1926، حين ذكّر السلطان باتفاق أُبرم بين الملك الفرنسي لويس الخامس عشر والسلطان المغربي محمد بن عبد الله بتاريخ 28 أيار/ مايو 1767، الذي نصّ على أن «لقناصل فرنسا الحق في مكان داخل مقراتهم مخصص للصلاة والقراءة، ولمن أراد من المسيحيين الحق في القدوم إلى بيت القنصل للقراءة والصلاة، لا يعترضه أحد، والأمر نفسه ينطبق على رعايا الملك المعظم حفظه الله أينما كانوا في فرنسا، لا يعترضهم أحد في أي مدينة كانت إذا بنوا مسجدًا للصلاة وقراءة القرآن»[8].

يمكن ردّ فكرة إنجاز مسجد للصلاة وقراءة القرآن في فرنسا إلى هذا التاريخ. بقيت هذه الفكرة حاضرة دومًا في أفكار بعض الجمعيات المطلعة على ما يدور في العالم الإسلامي. في هذا الإطار، يمكن استرجاع مبادرات عدة: يذكر المؤرخ جان - لويس مياج أن مشروعًا لبناء مسجد في حي بوجون في باريس طُرح في عام 1842[9]، وبقي من دون إنجاز، فأعاد دبلوماسيون مغربيون طرحه في عامي 1878 و1885. أما المشروع الثاني الذي يبدو أنه تميز من السابق بجديته فكان

(8) Antony Goisseaud, «L'Institut musulman et la mosquée de Paris,» *La Construction moderne: Revue hebdomadaire d'architecture* (2 Novembre 1924), p. 50.

انظر كذلك خطاب السلطان المغربي لمناسبة تدشين معهد باريس في: Weiss [et al.], p. 72.

(9) Jean-Louis Miège (présenté par), *Lyautey. Paroles d'action*, cité dans: Michel Renard, «Séjours musulmans et rencontre avec l'Islam,» dans: Arkoun, sous la dir., p. 573.

مدعومًا من الجمعية الشرقية (Société Orientale)[10] التي اعتبرت الإسلام أقرب ديانة سماوية إلى الكاثوليكية. طرح المهندس المعماري هكتور فلورو هذا المشروع في عام 1846، وكانت أهدافه خيرية وسياسية ودينية، ويضم مقبرة إسلامية ومسجدًا ومعهدًا إسلاميًا في باريس، ثم آخر في مرسيليا. لكن ردّ وزير العدل والشؤون الدينية آنذاك كان سلبيًا، إذ رفض المقترح من أساسه[11]. وعلى الرغم من هذا الموقف الرسمي السلبي، نجحت البعثة القنصلية العثمانية في 29 تشرين الثاني/ نوفمبر 1856 في استصدار قرار إداري يخصص للمسلمين مساحة محددة لدفن موتاهم في مقبرة الأب - لاشاز (Père-Lachaise) شرق باريس. كما سمحت البلدية ببناء حجرة أطلق عليها اسم «مسجد»، أعدت لصلاة الجنازة على الميت قبل دفنه. وإذا كانت باريس عرفت أول «مساجدها» في ذلك التاريخ، فإن ما عرف بـ «مقبرة الأتراك» في مرسيليا ضمت مثل هذه الحجرة - المسجد قبل هذا التاريخ، ولم تندثر إلا مع اندلاع الثورة الفرنسية[12].

يتضح لنا أن فكرة بناء فضاء ديني خاص بالمسلمين وبممارسة بعض طقوسهم الأساس على التراب الفرنسي، خصوصًا في باريس، أثيرت في مناسبات عدة من أكثر من طرف، إلا أنها لم تحظ بتأييد رسمي قبل الحرب العالمية الأولى. من خلال ما توفّر من وثائق دبلوماسية، يبدو أن الانطلاق الحقيقي لمشروع بناء مسجد في الأراضي الفرنسية يعود تاريخه إلى عام 1895، حين شعرت فرنسا بأهمية هكذا مشروع لـ «مسلميها». ففي هذه السنة، عرض السلطان عبد الحميد الثاني على السلطات الفرنسية فكرة بناء مسجد للمسلمين الذين يعيشون في فرنسا. وأوردت صحيفة لاكروا الصادرة بتاريخ 21 آب/ أغسطس هذا الخبر كما يأتي: «أعلم جلالة سلطان تركيا، السلطان المعظم عبد الحميد، السيد فليكس فور، رئيس الجمهورية، أنه على استعداد لتوفير ما قيمته 500.000 فرنك فرنسي

---

(10) أسست هذه الجمعية في عام 1841.

(11) ذكر رونيه فايس (René Weiss) في أثناء حفل تدشين مسجد باريس أن الجمعية الشرقية الجزائرية لم تتخل عن مشروعها بسهولة، إذ عادت في عام 1849 لتطالب بتنفيذه. كما أشار إلى وجود بقايا مسجد صغير في مقاطعة الأردان يعود إلى القرن الثالث عشر.

(12) Michel Renard, «Aperçu sur l'histoire de l'islam à Marseille, 1813-1962. Pratiques religieuses et encadrement des Nord-Africains,» *Outre-Mers, revue d'histoire*, tome 90, no. 340-341 (2003), p. 270.

كمساهمة في بناء المسجد»[13]. كان الطلب واضحًا: يُفتح المسجد أمام المسلمين الموجودين في أوروبا، وأمام الوافدين من بلاد الإسلام. في الحقيقة، سبقت هذه الدعوةَ دعوةٌ أوصلها غبريال هانوتو، وزير خارجية فرنسا، في 3 آب/ أغسطس 1894، كانت موجهة إلى رئيس المجلس من شارل روفيي، المقيم العام في تونس التي كانت تحت نظام الحماية الفرنسية آنذاك، يوضح فيها «الانعكاسات الإيجابية لوجود مسجد في باريس على فرنسا»، يؤمه المسلمون. لكن، بعدما أقرّ بـ «أن وجود فضاء لإقامة الشعائر الدينية للمسلمين - خصوصًا الصلاة - حاجة ملحة»، فإن أوجين ڤيران (Eugène Guérin)، وزير الداخلية بالنيابة، جمّد الطلب بحجة «استصدار أمر من مجلس الدولة يتيح السماح ببناء مسجد للمسلمين في فرنسا». وما أن صدر قانون 1905 حتى أصبح الأمر مستبعدًا جدًا.

في العام نفسه، أخذت هيئة أفريقيا الفرنسية التي يرئسها الأمير دارنبرغ[14] (Le Prince d'Arenberg) على عاتقها المشروع، وقررت التعمق فيه، وجمعت حولها كثيرًا من الشخصيات البارزة وذات النفوذ. وفي 8 أيار/ مايو 1895، أنشأ الأمير هيئة تعنى بمتابعة موضوع بناء مسجد في باريس، معتبرًا أن ذلك سيدعم موقف فرنسا ويعزز نشاطها التجاري داخل مستعمراتها. فالهيئة تضم عناصر مؤيدة للاستعمار، لكنها تعتبر أن استمراريته تقتضي الحصول على تأييد رجال الدين، والتعامل بمرونة مع الدين الإسلامي[15]. وفي البيان الذي نص على تكوين الهيئة المكلفة بمشروع بناء المسجد في باريس، جاء ما يأتي: «لفرنسا اليوم نفوذ وتأثير كبيرين في مساحات شاسعة من العالم، يدين أهلها بالإسلام، وأصبح من

---

(13) Renard, p. 571.

(14) هو نائب عن مقاطعة بورج ورئيس هيئة أفريقيا الفرنسية التي أنشئت في عام 1890، وكانت نواة للوبي الكولونيالي ومن أبرز أعضائها فليكس فور (Félix Faure) الذي أصبح رئيسًا للجمهورية في 17 كانون الثاني/ يناير 1895.

(15) On y trouve en Mai 1895: Six parlementaires, un préfet, trois militaires, trois hommes d'affaires, trois diplomates, deux architectes, un peintre, un ingénieur, un universitaire, un journaliste et un éditeur. Le 27 Juin 1895, au 15 rue de la Ville-l'Évêque, le Comité désigne son bureau. Le Président et les vice-présidents, nouveaux membres du Comité, sont Jules Cambon (1845-1935), alors gouverneur de l'Algérie; Théophile Declassé (1852-1923), ministre des Colonies l'année précédente; et le prince Roland Bonaparte (1858-1924), Petit fils d'un frère de Napoléon.

الضروري، ومن مصلحة الجميع، بناء علاقات مستمرة بين فرنسا والمسلمين»[16].

ساندت الجزائر، عبر حاكمها العام، هذه المبادرة في عام 1896 بعدما كانت قد أيدت مبادرة عام 1894 الصادرة عن سلطات الحماية بالبلاد التونسية، وذلك بمطالبة سلطة باريس بتوفير قطعة أرض يبنى عليها مسجد لصلاة المسلمين. في عددها الصادر بتاريخ 1 شباط/ فبراير 1896، تفيد المجلة الأسبوعية للهندسة المعمارية لا كونستروكسيون مودرن (*La Construction moderne*) أن «الحكومة سمحت ببناء مسجد في باريس وعينت مهندسين معماريين لهذا الغرض، هما نري صلادين (1851-1923) وأمبرواز بودري (1838-1906). وصرح جول كامبون، الحاكم العام في الجزائر آنذاك: «من المهم بالنسبة إلى العمل الذي نقوم به في العالم الإسلامي إحداث مركز إسلامي في باريس». لعل هذا التصريح كان وراء تعيين جول كامبون رئيسًا للهيئة المكلفة تنفيذ مشروع مسجد في باريس، وجاء خطابه الافتتاحي لأشغال الهيئة حاملًا برنامجه: «يجب أن يكون هذا المسجد أكثر من بيت للصلاة، وأظن من الأنسب أن يُجانب المسجد بيت لاستقبال الضيوف، مصمم على الطريقة العربية، حيث يجد فيه الوافد راحته ولا تكون الإقامة فيه مكلفة، ويمكن أن يؤمه الفقراء والمحتاجون أيضًا».

وكخطوة إجرائية، تم تعيين لجنة تنفيذية أغلبها من المستشرقين، ومن بين أعضائها نجد صلادين وبودري اللذين دخلا في مفاوضات جادة مع المسؤولين عن باريس من أجل تنفيذ المشروع، وهذه كانت أول مرة يوضع تصور لتصميم هندسي لمسجد في باريس. كما ترافق هذا الحراك مع اعتناق عدد من الشخصيات الفنية والأدبية والفكرية الدين الإسلامي، ومنهم مستشار الإمبراطور نابوليون الثالث أو الفيلسوف كريستيان شارفيس أو الدكتور غرينيي (1865-1944) الذي كان يدخل إلى زملائه في المجلس القومي بـ «برنوسه» الأبيض وعمامة على رأسه[17] وكذلك الرسام ديناي (ناصر الدين) الذي أعلن إسلامه في عام 1913، ثم الرسام غوستاف هنري (عبد الكريم) أو إيزابيل إبرهارت (1877-1904)[18].

---

(16) Renard, p. 580.

(17) *Le Petit Journal* (24 janvier 1897) (Supplément illustré).

(18) Renard, pp. 582-586.

انتشرت فكرة بناء مسجد في باريس في الأوساط الأدبية والفكرية والفنية وحتى السياسية، لكنها لم تعرف التجسّم الفعلي إلا بداية عام 1922، لكن في أوضاع مغايرة تمامًا لما سبق الحرب الكبرى، وتحت عنوان الاعتراف بجميل المسلمين الذين سقطوا في ساحة الوغى دفاعًا عن شرف فرنسا. غطى هذا الاعتراف بالجميل محاولات سابقة لم تؤت أكلها في الواقع، لكن مهدت الطريق في الأذهان، وكان محركها الرئيس نسج علاقات جيدة مع المسلمين من خلال إظهارِ الاحترام لشعائرهم الدينية، سعيًا إلى تأبيد الاستعمار وتمرير فكرة القبول به أولًا. يتضح هذا التوجه في الخطب الرسمية التي جاءت على لسان كل من تداولوا على المنصة، سواءً كان ذلك يوم الإعلان الرسمي عن بداية الأشغال في عام 1922 أم يوم التدشين في عام 1926، بحضور سلطان المغرب الذي لم يمض على احتلاله إلا سنوات قليلة[19].

2- الحرب الكبرى تعجل بقرار الإنجاز

كنا بيّنا من خلال ما سبق أن فكرة بناء مسجد في باريس، التي تحوّلت مشروعًا متكاملًا، سابقة على فترة الحرب ولذلك تكون الحرب ومجرياتها التي فاجأت الجميع بضراوتها وحجم خسائرها وطول مدتها وانتشارها الجغرافي قد دفعت فرنسا الرسمية إلى إعادة الحياة للمشروع. عندما أعلنت ألمانيا الحرب في 3 آب/ أغسطس 1914، أعلنت فرنسا حالة الاستنفار القصوى، وكان الوضع يستدعي مشاركة واسعة. من هنا جاء الأمر الاستعجالي بتاريخ 5 آب/ أغسطس، والقاضي بتجنيس كل أجنبي ينخرط في الجيش بالجنسية الفرنسية. وفي 30 آب/ أغسطس 1914، شاهد الباريسيون في شوارعهم عرضًا عسكريًا لفيالق عسكرية استُقدمت من المستعمرات الأفريقية، ثم كان قرار غالياني بتوجيههم مباشرة إلى جبهات قتال غريبة عنهم ضدّ الجيش الألماني المدرب تدريبًا محكمًا. على الرغم من ذلك، أدت الجيوش المستقدمة من شمال أفريقيا ومن أفريقيا جنوب الصحراء ما عليها[20]، ويظهر ذلك جليًا في المواقف الرسمية، وفي ما تداولته الصحف

(19) Weiss [et al.], *Réception*.

(20) استفادت فرنسا من مشاركة ما لا يقل عن 300.000 مغاربي، منهم 170.000 جزائري أضافت إليهم حوالى 200.000 جندي جلبوا من أفريقيا. كما جلبت فرنسا من مستعمراتها حوالى 200.000 عامل تعويضًا لعمالها المجندين. انظر: Boyer, *L'Institut musulman*.

آنذاك، وكذلك من خلال ما خلفته الحرب في صفوفهم من قتلى وجرحى من أجل حرب فرنسا ضد ألمانيا. إذ قضى 100.000 جندي مسلم وحوالى 1.5 مليون فرنسي في هذه الحرب. دفع العدد الهائل من المسلمين في المقابر الفرنسية إلى التفكير الجدي في كيفية التعامل مع الحضور الإسلامي على التراب الفرنسي خصوصًا، فالجبهة ضمت المسيحي والمسلم والعلماني، فكانت تجربة ثرية للبعض ليكتشفوا فيها الآخر المختلف. كما تجدر الملاحظة أن في أثناء الحرب، ومباشرة في إثر نهايتها وما كشفت عنه من أضرار مادية ومعنوية، طفا على السطح شعور بـ «عودة الديني»[21] مشوبًا ببعض التسامح. بقيت المستعمرات هادئة في أثناء الحرب، ولم تستجب لدعوات السلطان العثماني إلى الجهاد التي أطلقها في 23 تشرين الثاني/ نوفمبر 1914 من أجل استمالة المستعمرات لأسباب متعددة.

حولت هذه المستجدات التي واكبت مجريات الحرب التفكير في إحياء مشروع بناء مسجد للمسلمين في فرنسا واقعًا يمكنه أن يفيد فرنسا ديبلوماسيًا وعسكريًا أيضًا. ففي 22 أيلول/ سبتمبر 1916، قدم بول بورداري مدير مجلة أنديجان وعضو الهيئة الاستشارية لشؤون الأنديجان مذكرة ومشروعات تقانية تهدف إلى بعث معهد إسلامي في باريس. لاقى تقرير الهيئة موافقة اللجنة الوزارية للشؤون الإسلامية[22]، وكانت الحرب آنذاك في أوج اشتعالها لا يُعرف مآلها بعد، في وقت كانت فيه فرنسا بأمس الحاجة إلى تأييد المسلمين، خصوصًا الآتين من شمال أفريقيا وباقي القارة إلى جبهات القتال. فرض الوضع على فرنسا التفكير مليًا وبجدية في كيفية إرضاء «مسلميها»، بمن فيهم الساكنين في مجال النفوذ العثماني والذين تستهدفهم الدعاية الألمانية، كي يواصلوا مؤازرتها في حربها ضد ألمانيا وحلفائها. في 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1916، أسست جمعية سميت هيئة المعهد الإسلامي في باريس، بموجب قانون 1901، وحدّد الهدف من تأسيسها بالآتي: «توفر فرنسا، بعاصمتها باريس، لأبنائها المسلمين مركزًا فكريًا وحضاريًا يتمتع بالاستقلال التام، من خلال معهد إسلامي ومسجد للصلاة». هذه الصيغة ستتغير لاحقًا بتأثير مجرى الحوادث، لكن محتواها بقي قريبًا مما كانت تفكر

(21) تفاهمات مع الفاتيكان وعودة العلاقات الديبلوماسية في عام 1921.

(22) في حزيران/ يونيو 1911، كان إنشاء اللجنة الوزارية للشؤون الإسلامية، وبقيت هذه اللجنة تؤثر في السياسة الفرنسية تجاه المسلمين حتى عام 1937.

فيه بعض الجمعيات، وما يفكر فيه بعض المثقفين قبل اندلاع الحرب. كان لا بدّ من التفكير في ترضية عرب الشرق الأدنى بخصوص الذين أحسوا بخيانة فرنسا وبريطانيا لهم بسبب التفاهمات السرية بين سايكس وبيكو، ونشأة كيانات سياسية جديدة مع بداية العشرينيات[23]، إضافة إلى وعد بلفور في عام 1917، الذي أخذ طريقه إلى التنفيذ في نهاية الحرب.

يرى كثير من المسؤولين أن فرنسا مطالبة بتسديد دين معنوي تجاه العرب والمسلمين، خصوصًا أولئك الذين دفعوا حياتهم دفاعًا عن فرنسا، وبتحسين صورتها التي اهتزت بعد الحرب بسبب التغيرات الجيو - استراتيجية بعد عام 1920 بسبب تدخل الولايات المتحدة الأميركية في الحرب.

كان على فرنسا العلمانية التعامل مع قانون 1905 الذي يفصل بين الدولة والكنيسة، وبالتالي عدم التدخل مباشرةً في مسألة بناء مسجد للمسلمين على أراضيها، حتى لو شعرت أن ذلك هو أقل ما يمكن دفعه ثمنًا لتحسين صورتها في العالم العربي وشمال أفريقيا. كان المخرج القانوني إشراك المسلمين، بل دفعهم إلى صدارة مشهد إنجاز هذا المعلم الثقافي والديني، من خلال هيكل رسمي توكل إليه هذه المهمة.

ثانيًا: جمعية أحباس الأماكن المقدسة الإسلامية القانون الأساس والمهمات

لم يكن من الصعب إيجاد من يحتضن المشروع من بين الأطراف الفاعلة في الساحة الدينية الإسلامية. ففي عام 1917، أوعزت فرنسا - ولغايات ديبلوماسية وتكتيكية واستراتيجية - بتأسيس جمعية أحباس الأماكن المقدسة الإسلامية [أو جمعية الأوقاف الإسلامية] وهي جمعية تهتم بشؤون الحجاج إلى بيت الله الحرام، وتسهل لهم إتمام مناسك الحج في أوضاع مقبولة. كان رئيس هذه الجمعية من رجال فرنسا الموثوقين، كما كان من شأن هذا الإجراء الحد من انتشار الدعاية الألمانية في شمال أفريقيا في أثناء الحرب.

---

(23) في عام 1916، الشريف حسين يقود الثورة العربية ضد السلطنة العثمانية بإيعاز من بريطانيا وتشجيعها.

1- تأسيس الجمعية

أسست الجمعية في عام 1917، ومقرها الجامع الأعظم في مدينة الجزائر. كانت مهماتها تيسير مناسك الحج للوافدين من شمال أفريقيا، معوضةً بذلك ما كانت تقوم به بعض الطرق الصوفية والجمعيات الإسلامية التقليدية. أسس الجمعية سبعة أعضاء: جزائريان ومغربيان وتونسيان وعضو من غرب أفريقيا الفرنسية، وتسلمت الترخيص بالعمل يوم 17 آب/أغسطس 1917 من قاضي الدائرة الأولى في الجزائر.

كان أول ما قامت به الجمعية اقتناء عمارتين، إحداهما في مكة والثانية في المدينة المنورة، وسجلتا كحُبُس من أحباس الجمعية. هذه الجمعية هي ما وقع عليه اختيار السلطات الفرنسية لتأخذ على عاتقها إنجاز المعهد الإسلامي ومسجد باريس. وهذا الاختيار، يقول ألان بوايي، مثّل «الجانب الأكثر تجديدًا بعد قانون 1905 القاضي بفصل الكنيسة عن الدولة»[24].

أول ما نلاحظه هو تحميل الجمعية مسؤوليات جديدة لا تتماشى مع قانونها الأساس. فالمطلوب منها الآن إدارة الحضور الإسلامي وتمثيله داخل فرنسا، بعدما كانت تنشط في المستعمرات فحسب. أما المشرف الأول على هذه الأعمال فهو قدور بن غبريط[25] الذي يحوز ثقة فرنسا التامة، والذي عيّنه لهذه المهمة باقي الأعضاء مؤسسي الجمعية الذين يمثلون رجال الدين الأشد نفوذًا بين نظرائهم «من أجل ترجمة الإسلام الفرنسي وتقديمه» لباقي المسلمين داخل فرنسا وخارجها.

2- تكليف جمعية الأحباس بتنفيذ المشروع

في 30 كانون الثاني/يناير 1920، قدمت حكومة فرنسا مشروع قانون إنشاء معهد إسلامي في باريس. وفي 29 حزيران/يونيو 1920، عُرض المشروع على

---

(24) Boyer, p. 24.

(25) كان قدور بن غبريط، وهو من أصل جزائري، في بداياته مدير التشريفات في بلاط السلطان المغربي، ثم ممثلًا لفرنسا في جدة برتبة وزير. ومع تكليفه بالإشراف المباشر عن إنشاء المعهد الإسلامي في باريس، تنوعت مهماته وتغيرت. انظر: Boyer, p. 31, note 11.

البرلمان، وقدم إدوار هريو باسم الهيئة المالية تقريرًا واضحًا في تحديد أهدافه السياسية والديبلوماسية والثقافية: «يبدو لنا أن في تمظهرات الليبرالية الفرنسية المختلفة تجاه رعاياها من المسلمين، لا يستجيب إنشاء هذا المعهد لرغبة كثيرًا ما عبّروا عنها فحسب، لكن أيضًا لمصلحة فرنسية وطنية»(26). أضاف: «إذ ذكر هؤلاء المسلمون، أيًا تكن أصولهم، اسم فرنسا وطلبوا منها مساعدةً روحية أو استضافتهم على أرضها، فإن باريس توفر لهم الاستقبال المتمثل في حضور المعهد الإسلامي، وفرصة الخشوع داخل المسجد، والغذاء الفكري في المكتبة، والاستماع إلى المحاضرات، وأخيرًا متعة الإقامة واستغلال الفضاء بحرية تامة»(27). وتقرر تخصيص منحة قدرها 500.000 فرنك لمصلحة المشروع. وعلى الرغم من ضعف هذا المبلغ، فإنه يتناقض مع الفصل الثاني من قانون 1905، لذلك كان لا بدّ من البحث عن مخرج، فجرى التركيز على تسمية المعهد الأصلية كإنجاز له بعد ثقافي.

تم ذلك في زمن لملمة الجراح وتشييد النصب التذكارية، حين كان الشعور السائد عند السياسيين بالخصوص أن المصلحة القومية تقتضي أيضًا اعتراف فرنسا بتضحيات «مسلميها» الذين قضوا من أجل «الوطن». عبر هريو عن بقوله: «إذا كانت الحرب، جسّمت في ساحات الوغى الأخوّة الفرنسية والإسلامية، وإذا قتل أكثر من 100.000 جندي من رعايانا من أجل فرنسا وطن الجميع، فإن واجب هذا الوطن الاعتراف لهؤلاء بالجميل قولًا وفعلًا ليبقوا في الذاكرة»(28).

كان اختيار الجمعية مخاطبًا وحيدًا من أجل تنفيذ مشروع بناء المعهد والمسجد في باريس الخطوة العملية التي جسمت هذا التوجه، مع التأكيد أن التسمية التي أطلقت على المشروع كانت: **المعهد الإسلامي في باريس** (L'Institut musulman de Paris)، في إشارة إلى تقديم البعد الثقافي المصنع فرنسيًا على البعد الديني الشعائري(29).

(26) E. Herriot, dans son rapport devant la Commission des Finances réunie le 29 Juin 1920.

(27) E. Herriot, dans : Weiss [et al.], p. 27.

(28) Rapport de E. Herriot au nom de la Commission des Finances.

(29) في البداية، كانت التسمية المتداولة في الأوساط الفرنسية: المعهد الإسلامي في باريس، لكن مع الزمن ومع التطورات التي طرأت على علاقة فرنسا بمستعمراتها، أصبحت التسمية المتداولة مسجد باريس أو الجامع الأعظم أو جامع باريس، وتديره اليوم الحكومة الجزائرية.

في 15 تموز/ يوليو 1921، قرر المجلس البلدي في باريس مناقشة اقتناء قطعة الأرض التي سيُبنى فوقها المعهد والمسجد. وفي 26 آذار/ مارس 1922، اجتمع أعضاء المجلس لتقرير ذلك، بحضور جميع الأعضاء. وصرح دوفيل، رئيس اللجنة الرابعة، في المناسبة: «أيها السادة، وصلتنا مراسلة من السيد محافظ باريس بأمر من وزير الشؤون الخارجية، يُعلمنا فيها بأن مجموعة من المسلمين تقدمت بطلب إنشاء مسجد للصلاة، يؤكد فيها أن من مصلحة فرنسا أن تحافظ على هيبتها في مستعمراتها ببلاد المسلمين، كما من مصلحتها أن تجذب إليها عددًا من الطلاب ليتلقوا تعليمهم العالي في باريس»[30].

أوضح بول فلورو، ممثل الدائرة الخامسة في باريس ومقرر اللجنة الثالثة، تفصيلات الموقع المقترح: «يكون في الدائرة الخامسة، في جزء من المساحة التي يشغلها مستشفى لا بيتييه (Hôpital de la Pitié) قديمًا، على مقربة من المدارس والجامعات التي يؤمها كثير من الطلاب المسلمين»[31]. هكذا، يكون للمعلم الإسلامي الذي سيبنى الاستقلالية التامة، وليس لأحد حق التدخل في أي من وجوه نشاطه المنوعة. وفي 24 كانون الأول/ ديسمبر 1921، وبمقتضى مرسوم صادر عن محافظة الجزائر منشور بالرائد الرسمي بتاريخ 23 شباط/ فبراير 1922، خضعت جمعية الأماكن المقدسة الإسلامية لقانون 1901، وكُلفت رسميًا بإنجاز مشروع المعهد الإسلامي والمسجد في باريس. وبمقتضى وضعها القانوني الجديد، كان للجمعية الحق في تلقي الهبات والمساعدات مهما كان نوعها ليرى هذا المشروع النور، كما كان لا بدّ من تحيين النظام الأساس الذي بعثت به الجمعية سابقًا. لذلك سمح القاضي، بحدود ما يسمح به الشرع الإسلامي، للجمعية بأن تعدل نظامها لتوسع بيكار مهماتها وأهدافها فتشمل إنشاء المعهد والمسجد، مع تكليف رئيس الجمعية قدور بن غبريط بإدارتهما.

منذ ذلك التاريخ، عملت هذه الجمعية من خلال واجهتين: أولى داخلية في فرنسا، وثانية خارجية متصلة بالحجاج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة. في

(30) M. Deville, président de la 4e Commission. Procès verbal de la séance de l'Assemblée du 26 Mars 1922 au Conseil municipal de la Ville de Paris, dans: Weiss [et al.], p. 28.

(31) P. Fleurot, représentant du 5e arrondissement de Paris, rapporteur de la 3e commission, le 26 Mars 1922, dans: Weiss [et al.], p. 29.

داخل فرنسا، تتمتع الجمعية بدعم السلطة الفرنسية الكامل، نلمسه في تكوين هيئة قيادة ومجلس إدارة لمتابعة سير تقدم الأشغال برئاسة رئيس الجمهورية الفرنسية شخصيًا، «وكانت النخبة الفرنسية تقف بحماسة ومودّة وراء هذا الإنجاز»[32]. وتكفينا نظرة سريعة في قائمة الشخصيات التي كانت ممثلة في الهيئة ليتضح لنا الالتفاف الرسمي حول هذا المشروع: ألكسندر ميليران (رئيس الجمهورية)، ليون بورجوا (رئيس مجلس الشيوخ)، راوول بيراي (رئيس البرلمان). كما نجد أيضًا رئيسين سابقين للجمهورية[33] وأربعة ماريشالات[34] وثلاث وزراء. أما عن مجلس الإدارة فرئسه إ. هريو. ومن بين أعضاء جمعية الأماكن المقدسة الإسلامية الممثلين في مجلس الإدارة نجد المؤسسين السبعة (جزائريان ومغربيان وتونسيان وسنغالي) أضيف إليهم أعضاء شرفيون (6 جزائريين، 5 تونسيين، 5 مغربيين برتبة وزير) وثلاث مساعدين (مغربي وجزائري وتونسي).

3- البحث عن اتجاه صحيح للمحراب

في الثالثة من الأول من آذار/ مارس 1922، وبحضور نخبة من الشخصيات الفرنسية والإسلامية، انتظم موكب رسمي مهيب للإعلان عن بداية الأشغال في المشروع بتركيز المحراب والبحث عن الاتجاه الصحيح نحو مكة المكرمة، قُبلة المسلمين. وضع ولي العهد المغربي مولاي يوسف حجر الأساس، وانتهت العملية بقراءة الفاتحة وما رافقها من دعوات ابتهالًا إلى الله[35]. كان من بين الحاضرين قدور بن غبريط الذي توجه إلى الحاضرين بالعبارات الآتية: «تتميز هذه البادرة الفرنسية برمزية عالية، هي تعبير من فرنسا عن مواصلتها سياستها منذ قرون خلت، التي تتميز باحترامها وتقديرها للمسلمين، أكانوا من رعاياها أو من الأجانب... فالمعهد الإسلامي الذي نفتتح أشغال بنائه اليوم سيكون دار الإسلام... هذه البناية ستكون بالحجارة تعبيرًا عن عمق وصلابة وتواصل صداقة

---

(32) Weiss [et al.], p. 29.

(33) Raymond Poincaré et Paul Deschanel.

(34) Foch, Pétain, Lyautey, et Franchet d'Esperey.

(35) Goisseaud, p. 52.

فرنسا للإسلام»[36]. وفي 19 تشرين الأول/ أكتوبر 1922، دشن الماريشال ليوتي، المقيم الفرنسي العام بالمغرب ووزير خارجية السلطان، أشغال البناء في حفل بهيج تبادل فيه الحاضرون الخطب الترحيبية تأكيدًا لأهمية المشروع الثقافي والحضاري بحضور قدور بن غبريط الذي تثق فرنسا في صدق نواياه تجاهها.

4- قدور بن غبريط ورحلة البحث عن التمويل اللازم لإتمام أشغال البناء

في القانون، لم يكن بوسع فرنسا الرسمية توفير التمويل اللازم لإنجاز المعهد والمسجد وتوابعهما، حتى وإن رغبت في ذلك. فكان على قدور بن غبريط البحث عن ممولين من العالم الإسلامي خارج فرنسا[37]. هذه «الدار» ستكون - بحسب مؤسسيها والساهرين على إنجازها - في أبهى حلة. أرادوها أن تكون رمزًا للإسلام «الفرنسي» وللمسلمين كافة أينما كانوا، وستحوي على كل ما يتطلبه الفكر والروح والبدن: مسجدًا للصلاة، مكتبة، حمامًا، ومطعمًا ودور ضيافة وإقامة للساهرين على شؤون المسجد والمعهد. وستكون مساهمة فرنسا المالية محدودة نسبيًا، بينما يأتي التمويل الأكبر من المغرب والجزائر وتونس. بالفعل، كانت هذه الدول من أهم الممولين والمتحمسين للمشروع الذي لم يستغرق إنجازه وقتًا طويلًا، وتم تدشين المسجد في 15 تموز/ يوليو 1926 بحضور أرفع شخصيات الدولة الفرنسية إلى جانب سلطان المغرب في يوم مشهود. كان الرئيس غاستون دومرغ (Gaston Doumergue) أول المدشنين. أما ليوتي فأعاد على مسامع الحاضرين ما قاله عند إعلان بداية الأشغال في 1922: «عندما تبنى هذه المئذنة في هذا المكان، وتشرف عاليًا فوق أسطح مباني المدينة، تضاف صلاة أخرى في سماء باريس، ولن تثير غيرة أحد أو حسد منارات نوتردام الكاثوليكية»[38].

---

(36) من خطاب قدور بن غبريط في 1 آذار/ مارس 1922 في: Weiss [et al.], pp. 33-36.

(37) كان بالفعل إنجازًا إسلاميًا جمعيًا، وأثبتت الدول الإسلامية، والمغاربية على وجه الخصوص، تحمسها للمشروع بتأسيس لجان محلية لجمع التبرعات والهدايا لتأثيث قاعة الصلاة من منبر جاء من تونس، إلى زرابي من إيران، إلى خشب من باتنة الجزائرية، وثريات من النحاس صنعت في المغرب، إضافة إلى ما أرسل من لبنان وسورية وغيرها...

(38) هذا الخطاب صرّح به Maurice Colrat وكان الممثل الرسمي للحكومة أثناء حفل توجيه المحراب نحو القبلة في غرة آذار/ مارس 1922. ولكن ليوتي أعاد التذكير به من دون أن ينسبه إلى صاحبه.
Maurice Colrat, sous-secrétaire d'État à la Présidence du Conseil.

هكذا صرح موريس كولرا، ممثل الحكومة الفرنسية، في أثناء وضع المحراب في 1 آذار/ مارس 1922. كانت لحظة فريدة في علاقة فرنسا بالإسلام، «لحظة جسمت الدخول الرسمي للإسلام إلى جمهورية فرنسا العلمانية التي وفرت لنفسها الوسائل كلها لتمارس رقابتها على المسلمين في فرنسا»(39). ولتخليد ذكرى التدشين والموكب المهيب الذي رافقها، ألصقت لافتة تحمل هذه العبارات: «تستوحي حكومة فرنسا سياستها تجاه الإسلام من تقاليد الصداقة التي تعود إلى قرون مضت، وهي أرادت من خلال هذا الإنجاز أن تضيف شاهدًا ماديًا على ما تشعر به تجاه المسلمين، تمثل في المساعدة على بناء مسجد في باريس، وتوفير مصادر المعرفة والعلم والفن لأبناء الإسلام من خلال استضافة فرنسا معهدًا إسلاميًا يبنى على أراضيها»(40).

ثالثًا: الهندسة المعمارية ميزة هذا المعلم الرائع

يضم المعهد الإسلامي في باريس جامعًا للصلاة ومكتبة وقاعات محاضرات وقاعة تشريفات ومساكن للمشرفين عليه وحمامًا مفتوحًا أمام الباريسيين أيضًا، ويمتد على مساحة 7500م^2، منها 3500م^2 مخصصة لحدائق منظمة على الطريقة العربية الإسلامية. يمكن أن ندرج هنا بعضًا مما قيل أو كُتب عن هذا المعلم الإسلامي الباريسي من تعبيرات صادقة مرتبطة بلحظتها وإيحاءاتها. وهذه مقتطفات من التصريحات الرسمية التي تبيّن الأبعاد العميقة التي وقفت وراء هذا الإنجاز الفريد من نوعه. فبالنسبة إلى سلطان المغرب، كان «الموقع الذي احتله المعلم رائعًا»(41)، وقال غو، عضو المجلس البلدي في الدائرة الخامسة الباريسية التي احتضنت المعهد الإسلامي: «يشغل مساحة مهمة شيّدت فوقها أبنية راقية

---

(39) Paul Blanchard [et al.], *Le Paris arabe: Deux siècles de présence des orientaux et des maghrébins* (Paris: la Découverte; Association connaissance de l'histoire de l'Afrique contemporaine, 2003), avec le concours du FASILD et de la Ville de Paris, Paris, 2003, p. 97.

(40) Weiss [et al.], p. 15.

(41) «Discours de sa majesté Moulay Youssef, Sultan du Maroc,» dans: Weiss [et al.]. pp. 71-72.

في يوم 12 آب/ أغسطس 1926 دشن باي تونس سيدي محمد الحبيب باشا قاعة المحاضرات التابعة للمعهد.

وجميلة ورشيقة ندشنها اليوم...»[42]. أضاف: «هذا المعلم الجميل تحفة تجسم قمة ما وصلت إليه فنون الهندسة المعمارية العربية»، ولم يتردد بوصفه بـ «حي الإسلام»[43]، متابعًا: «يمثل سحر الشاعرية الإسلامية، ويبقى رمزًا للصداقة الفرنكو - إسلامية»[44].

يقع هذا «الحي الإسلامي» في جوار الحي اللاتيني المشهور، وهو «تجسيد رائع لمشاعر التقدير والاحترام التي تكنها فرنسا للفكر الإسلامي... المجد للفنانين الذين جسموا هذه الفكرة في معلم كهذا في قلب باريس، ليذكرنا بسحر الشرق وجماله»[45]، كما قال رئيس المجلس البلدي في باريس بيار غودان. أما روني فايس، مدير ديوان رئيس المجلس البلدي في باريس، فكتب: «تسبح قاعة الصلاة في نور سحري ينزل من الزجاج الملون المثبت في القبة مثمنة الشكل، وهي قبة من خشب الأرز المنقوش تتخلله ثقوب يدخل منها النور. كانت عيون الرئيس والسلطان تتنقل بإعجاب بين الأعمدة والمحراب الذي اعتلته كلمات تذكر بعظمة إله المسلمين، ومنها إلى الزرابي والحصران التي يجلس عليها المصلون للاستماع إلى خطب الإمام ودروس المفتي...». أضاف: «غادر جلالة السلطان ورئيس الجمهورية والوفدان المرافقان لهما قاعة الصلاة وتجولوا في أنحاء الحي الإسلامي: الحدائق، المياه الصافية، الحمام الذي سيكون فضاء لراحة الذهن والبدن، المطعم المزركش على الطريقة الشرقية الذي سيعدّ أكلات على الطريقة الإسلامية، المستوصف والأسواق... تبتعد قليلًا لترى البناء بكامله، فتخال نفسك تحلم عندما ترى الصومعة ترتفع نحو الأعلى بزخارفها الجميلة»[46].

قال ليوتي الذي كثيرًا ما عبر عن إعجابه بالحضارة الإسلامية: «مسجد باريس بمنارته التي ترتفع معانقة السماء رمز رائع لما نشعر به من احترام وتقدير متبادل لعقائدنا». أما بول بوجو، محافظ مقاطعة السان، فقال: «ستشعر بالروح الإسلامية المنغمسة في الشاعرية وبكل ما تعنيه هذه المبادرة الفرنسية اللطيفة،

---

(42) Gout, dans: Weiss [et al.], pp. 65-66.

(43) Fleurot, p. 67.

(44) Weiss [et al.], p. 67.

(45) Pierre Godin, Président du conseil municipal de Paris, dans: Weiss [et al.], p. 68.

(46) Weiss [et al.], pp. 73-74.

ولن نكون مفرطين في التفاؤل إذا فكرنا أنه عندما يقوم المسلمون للصلاة متجهين نحو الكعبة فإنهم سيتذكرون لا محالة العطف الفرنسي تجاههم»[47]. ونظن أن هذا الخطاب لقي صداه لدى السلطان المغربي، فصرح قائلًا: «... منذ مدة ونحن ننتظر الفرصة السانحة لنقول لكم شكرًا بصفتنا أميرًا للمؤمنين وباسم شعوب أفريقيا المسلمة على اختياركم هذا الموقع الرائع الذي شيدت فيه جمعية أحباس الأماكن الإسلامية هذا المسجد الجامع الذي سندشنه معًا (...) فهذه المبادرة المباركة والسخية أنشأت في قلوب المسلمين كلهم شعورًا عميقًا بالاعتراف بالجميل الذي ننقله إليكم اليوم بكل فخر»[48].

قبل عامين من هذا الخطاب، كتب أ. غواسّو (A. Goissaud) في مجلة **لاكونستروكسيون مودرن** الصادرة في تشرين الثاني/ نوفمبر 1924: «لقي إنجاز المعهد الإسلامي والمسجد الجامع ترحيبًا وتعاطفًا كبيرين في فرنسا، وكان له الصدى الطيب في العالم الإسلامي كله»[49]. كان غواسّو من المتحمسين لهذا المشروع الذي كتب عنه وهو لا يزال في طور الإنجاز: «اليوم، أصبح البناء مجمّعًا عظيمًا يحق للمهندسين المعماريين والفنانين التعبير عن شديد إعجابهم به»[50].

بالفعل، أحيط بناء هذا المعلم بكل عناية ممكنة. فالجمعية المشرفة عليه اتصلت بفنيين فرنسيين معروفين في مجالات عملهم وأشركت خبراء مسلمين في علوم شتى، واستقدمت اليد العاملة المختصة من البلدان العربية، خصوصًا من المغرب. وما زاد هذا الصرح الإسلامي جاذبية موقعه المحاذي لحديقة النباتات (Jardin des plantes) التي تمتد على مساحة تفوق 23 هكتارًا، والقريب جدًا إلى المدارس العليا حيث تتلمذت أجيال من المفكرين على علماء بارزين، وعلى مسافة غير بعيدة من الـ «بنتيون» (le Panthéon) الذي يقع في قلب الحي اللاتيني، والذي «خصصه الوطن ليضم رفاة رجال عظام أعطوا الكثير لفرنسا والعالم بأسره»[51]، كما يقول غواسّو.

---

(47) Discours du préfet de la Seine, M. Paul Bouju, dans: Weiss [et al.], pp. 14-15.

(48) «Discours de sa majesté Moulay Youssef, Sultan du Maroc,» dans: Weiss [et al.], p. 16.

(49) Goisseaud, p. 50.

(50) المصدر نفسه.

(51) المصدر نفسه، ص 52.

أما المخطط الهندسي الأصلي للمعهد والمسجد الجامع فأعده ترانشان دي لونال (Tranchant de Lunel) المتفقد العام للفنون الجميلة في المغرب وموريس منتو (Maurice Mantout) مهندس معماري من القسم نفسه. يقول عنهم غواسّو: «كانا مقتنعين، خلافًا لما عليه حال الفن المعماري عندنا، بأن هندسة البناء الإسلامية بلغت ذروتها في زمن ما، لذلك لا بدّ من أن يحافظ المعلم على التقاليد القديمة نفسها»[52].

احترم الخبيران هذا المبدأ الأساس، وجاءت المخططات مستوحاة من أفضل ما كان قائمًا في الحقب التاريخية الإسلامية القديمة في بلاد المغارب والأندلس. وهكذا، أنتجت البحوث والمقاربات مخططًا نهائيًا أشرف عليه أوستاش (Eustache)، الحائز على جائزة روما الكبرى، وروبير فورنيه (Robert Fournez) وموريس منتو (Maurice Mantout) وهو المهندس المعماري المكلف من جمعية أحباس الأماكن المقدسة الإسلامية.

أما الأشغال الفعلية فراقبها هوبيه (Heubès)، وهو مهندس معماري أول في مدينة باريس، وتابعها ميدانيًا فورناز ومنتو اللذان يمتلكان خبرة عالية في مجال تخصصهما، وكانا شديدي الاطلاع على فنون الهندسة المعمارية الأندلسية والمغاربية. أما فالروف، مساعدهما والمشرف على أشغال الزخرفة، فكان من الفنيين المعروفين ويتقن اللغة العربية، وقضى أكثر من عشر سنوات في المغرب، ما سهل عليه التواصل مع العمال المغاربة والتفاعل الإيجابي معهم.

جاء بناء المسجد تعبيرًا عن إرادة مزدوجة، اختلط فيها الفكر الكولونيالي، وإن لم يتصدر المشهد، بالرغبة الصادقة في الاعتراف بجميل كل من ساهم في الحرب من المسلمين. لم يكن بناء مسجد باريس في ذلك الوقت حدثًا عابرًا، بل دلّ مشهد تدشينه على اهتمام فرنسا بهذا الإنجاز، وعلى ما كانت تنتظره من هذا الصرح الديني الثقافي الذي أطلقت عليه تسمية «المعهد الإسلامي في باريس» من دور في نشأة «إسلام فرنسي».

انعكس الإصرار الرسمي على بناء المعهد الإسلامي والاهتمام البالغ به

---

(52) Goisseaud, p. 52.

على مراحل تصميمه وإنجازه، وعلى صورته النهائية الرائعة، فكانت النتيجة باهرة على المستويين المعماري والحضاري: معماريًا، تفنن المهندسون في تصميم وحدة عمرانية متجانسة جمعت بين أرقى ما توصل إليه الفن المعماري الأندلسي والمغاربي في أزهى عهوده، من زخارف وحدائق فسيحة تذكر الناظر بقصر الحمراء وتجعل الزائر ينتقل من عالم الضوضاء الباريسية إلى عالم من الهدوء والسكينة والجمال، مخلفًا بذلك مشهدًا ثقافيًا حضريًا حيًا، جمعت مكوناته أغلب عناصر المدينة الإسلامية من طقوس وعادات وتقاليد. وتفاعلت مكونات المشهد الحضاري في ما بينها ومع محيطها المباشر، لتفرز أنموذجًا فريدًا من نوعه في باريس وفرنسا عمومًا. فالأحوال التي أحاطت بإنشاء هذا المعلم وتصميمه أعطت لمسجد باريس دورًا رياديًا في تمثيل الحضارة الإسلامية والإسلام في باريس، وهو يمثل إلى اليوم المرجع الرسمي في تعامل السلطات الفرنسية مع الشؤون الإسلامية في فرنسا.

الفصل الثالث عشر

تداعيات الحرب العالمية الأولى في طرابلس الغرب زمن التفاوض بين إيطاليا والزعامات المحلية 1916-1921

فتحي ليسير

تقدم تجربة المفاوضات بين إيطاليا والزعامات الوطنية الليبية في برقة وطرابلس، إبان الحرب العالمية الأولى وبعد نهايتها بمدة معينة (1919-1921)، نفسها للمؤرخ موضوعًا جيدًا في مجال إشكالية تعاطي الدول الإمبريالية الغربية المشاركة في الحرب المذكورة مع مستعمراتها بين عامي 1914 و1918، نظرًا إلى ما حصّله نهج التفاوض المشار إليه من عناصر الجّدة ومظاهر الطرافة.

لم تقتصر فرادة الحركة الوطنية في هذا القطر المغاربي خلال الربع الأول من القرن العشرين على تجربة المفاوضات، وما أدت إليه من حكم ذاتي، بل ارتبطت أيضًا، وقبل ذلك، بنواح أخرى متصلة بطبيعة الاحتلال الإيطالي لإيالة طرابلس الغرب[1]، وبخصوصية هذه الحركة الوطنية خلال ما يعرف بطور المقاومة العنيفة[2]، وبالدور الفاعل الذي أدّته عناصر غير ليبية في هذا المضمار[3]، وبصفة التنوع التي وسمت هذه الحركة[4] وبالتناقضات العميقة التي كانت تشق الصف الوطني منذ انطلاق حركة المقاومة وحتى اندراسها بصفة نهائية في عام 1931، الأمر الذي سهّل على الإيطاليين مهمة القضاء عليها.

---

(1) خلافًا للجزائر وتونس ومصر، دخلت ليبيا في عداد الدول المستعمَرة (بفتح الميم) بعد حرب (الحرب الإيطالية التركية) توجتها معاهدة استسلام أوشي - لوزان (Ouchy - Lausanne) في 18 تشرين الأول/ أكتوبر 1912.

(2) على الرغم من أن أمد الاحتلال في هذا القطر لم يكن طويلًا (1911-1943)، فإن مدّة المقاومة المسلحة استمرّت بوتائر مختلفة بين عام 1911 ونهاية 1931، فغطّت زهاء ثلثي فترة الاحتلال. تسبّب طول نفس المقاومة في فقدان ليبيا نصف عدد سكّانها في غضون 20 عامًا، بين من هلك في المعارك أو في المحتشدات ومن هاجر إلى مصر أو تونس والشام أو تشاد.

(3) نفكّر في الأساس في شخصيات تركية شأن عثمان فؤاد وإسحاق باشا ونوري بك، وشخصيات مصرية نحو عبد الرحمن عزّام.

(4) يجوز الحديث عن حركتين وطنيتين لا واحدة: كان مسرح الحركة الأولى إقليم طرابلس، أما الحركة الثانية فكان إطارها المكاني إقليم برقة، وجسّدتها الحركة السنوسية من ألفها إلى يائها.

تقوم دراستنا على ثلاثة عناصر كبرى، تمتد أجزاؤها على تصور كلّي يشدها نظام داخلي يحدد آفاقها ويغذي تناميها. فتجيب عن ثلاثة أمثلة، منها سؤالان مزدوجان، الأول والثاني:

- كيف تعاطت إيطاليا مع الأوضاع في ليبيا في إثر اندلاع الحرب العالمية الأولى وبعد هزيمتها العسكرية أمام المقاومة الأهلية، خصوصًا بعد توظيف تركيا وألمانيا طرابلس الغرب قاعدةً لخلق المتاعب للدولة الإيطالية العدوة من ناحية، ولفتح جبهة على الحدود الغربية لمصر ضد إنكلترا، ثم شغلها عن الحملة التركية - الألمانية على قناة السويس من ناحية أخرى؟

- كيف جهدت إنكلترا وإيطاليا وألمانيا وتركيا في استقطاب زعامات وطنية مؤثرة في طرابلس الغرب وضمّها إلى صفها؟ وماذا كان انعكاس هذا الاستقطاب الحاد على سيرورة حركة المقاومة بين عامي 1916 و1921؟

- لماذا تراجعت إيطاليا عن «سياسة الزعماء» ابتداء من عام 1921، وما الذي أملى عليها انتهاج سياسة جديدة في هذا الخصوص، عنوانها: «لا مع الزعماء ولا ضد الزعماء.. لكن من دون الزعماء»؟

أولًا: الاحتلال الإيطالي وحركة المقاومة في طرابلس الغرب من الاحتراب إلى مائدة التفاوض (1911-1915)

1- تطور الأوضاع الداخلية في طرابلس الغرب (1911-1914)

في خريف 1911، غزت إيطاليا طرابلس الغرب وضمتها رسميًا إلى ممتلكاتها الترابية في 5 تشرين الثاني/ نوفمبر 1911 مستغلةً الصعوبات الكبيرة

التي كانت تمر بها الإمبراطورية العثمانية[5]، ومتذرعةً ببعض المزاعم[6].

توجت إيطاليا، بإعلانها الحرب على الإمبراطورية العثمانية في 29 أيلول/ سبتمبر 1911 وإنزالها العسكري على الشواطئ الليبية في تشرين الأول/ أكتوبر من العام نفسه، جهد ثلاثين عامًا من العمل الدؤوب بهدف الحصول على تعويض كافٍ عن خسارة إيالة تونس التي سلبتها إياها فرنسا في عام 1881 من ناحية، وتأكيد جدارتها بالانتماء إلى معسكر القوى العظمى من ناحية ثانية.

كان الاعتقاد السائد في الأوساط العسكرية الإيطالية إبان مساحلة قطع الأسطول الحربي الإيطالي لموانئ طرابلس وبنغازي ودرنة وطبرق والخمس ومصراته وزوارة أن عملية احتلال الدواخل نزهة عسكرية لا أكثر. لكنّ ردة فعل الأهالي والأتراك (الذين ظلوا في الإيالة) العنيفة على هذا الغزو أقنعتهم باستحالة السيطرة على البلاد وفق الخطة المرسومة، واضطر قائد الحملة الجنرال كارلو كانيفا (Carlo Caniva) إلى طلب المزيد من الدعم والمدد[7].

هكذا، أُرغِم مهندسو مشروع الاحتلال على دراسة سبل مواجهة مقتضيات الوضع الجديد الناجم عن المقاومة من خلال تصورات أقل تهافتًا. وفي هذه الأثناء، وأمام الصعوبات العسكرية التي بات يواجهها الإيطاليون، أرسل العثمانيون إلى

(5) يمكن اختزال أهم صعوبات الباب العالي في عام 1911 في احتداد مشكل اليقظات القومية، أي الحركات الانفصالية في شبه جزيرة البلقان، واندلاع انتفاضة اليمن، الأمر الذي حتّم على «الاتحاديين» سحب قسم من جنودهم في إيالة طرابلس الغرب وإرساله إلى جنوب شبه الجزيرة العربية، فلم يبق في الإيالة إلا أربعة آلاف جندي من أصل أربعين ألفًا كانوا مرابطين فيها. يمكن القول إن البلاد كانت خالية أو شبه خالية من كل وسائل الدفاع عشية تنفيذ الهجوم الإيطالي عليها. انظر في هذا الخصوص مراسلة الرّائد دولون (Delon) الملحق العسكري في السفارة الفرنسية في اسطنبول إلى وزير الحرب الفرنسي بتاريخ 15 آذار/ مارس 1910. ورد في: Service historique de l'armée de terre [SHAT], Château de Vincennes, Série 2H.

(6) استغلت إيطاليا رسو الناقلة البحرية العسكرية العثمانية «أدرنه» خلال خريف 1911 لتوجيه إنذار إلى الباب العالي اتهمته فيه بإهمال أحوال الأهالي وبعرقلة المشروعات الإيطالية وعدم توفير الأمن للرعايا الإيطاليين والأجانب. انظر بهذا الخصوص (الإنذار الإيطالي (26 أيلول/ سبتمبر 1911): الطاهر أحمد الزاوي، **جهاد الأبطال في طرابلس الغرب** (القاهرة: مطبعة الفجالة الجديدة، 1950)، ص 26-31.

(7) Capitaine Desevaux, «La Guerre italo-turque en Tripolitaine,» 1913, Manuscrit; cote à la BN de Tunis, 19877Br.

ولايتهم الأفريقية ضباطًا وخبراء عسكريين من أجل تعزيز المقاومة وتأطيرها. ويمكن ردّ النجاعة التي اكتسبتها المقاومة الليبية خلال مرحلة الغزو الأولى، في جانب مهم منها، إلى مهنية طائفة من الضباط وصدق بلائهم، ومنهم أنور باشا ونشأت باشا وخليل باشا، ما جعل سكان طرابلس الغرب يغيّرون موقفهم من العسكر التركي، بعدما كان متسمًا بالريبة، وحتى بالكراهية.

أمام هذه التطورات، اضطر الإيطاليون إلى الضغط على الدولة العثمانية من خلال توسيع رقعة حربهم ضدها، فضرب الأسطول الإيطالي القنفدة في 12 كانون الثاني/ يناير 1912، وساعد الإيطاليون محمد الإدريسي (في عسير) بالسلاح كي يثور على الإمبراطورية العثمانية، فبادر إلى حصار أبها قاعدة عسير، التي كانت تتبع الباب العالي.

نتيجة هذا التصعيد، تدخّل سفراء القوى العظمى (إنكلترا وألمانيا وروسيا وفرنسا والنمسا) في روما واسطنبول لتقريب وجهات النظر بين الطرفين المتنازعين، لكن الباب العالي رفض شروط إيطاليا وعلى رأسها اعتراف تركيا بضمها طرابلس الغرب. والحق أن الرفض العثماني لم يرض الدول الأوروبية الكبرى التي رأت فيه رفضًا لوساطتها، فأوعزت إلى إيطاليا بضرب السواحل التركية شرق المتوسط. وفي أواسط نيسان/ أبريل 1912، هاجم الأسطول الإيطالي ساموس ورودوس، وفي 19 منه ضرب مراكز الجيش العثماني في الدردنيل. ولم يحلّ منتصف أيار/ مايو حتى احتل الإيطاليون عددًا من جزر دوديكانيز في بحر إيجه.

ولئن لم يُلن هذا التطور الدرامي من عريكة الدولة العثمانية، فإن المؤشرات كلها كانت تدل، في مطلع صيف 1912، على أن الطرفين المتنازعين اقتنعا (بسبب الأحوال الداخلية في كل من المملكة الإيطالية والإمبراطورية العثمانية) بضرورة التوصل إلى «حلّ مُرض»[8] للمسألة، والقبول ببعض المبادرات الدولية. انطلقت مفاوضات سرية في لوزان، سويسرا في 12 تموز/ يوليو 1912. وفيما كانت المفاوضات بطيئة، شهد الوضع في البلقان في تشرين الأول/ أكتوبر من العام نفسه تدهورًا خطرًا، وواجهت الإمبراطورية العثمانية خطر الهزيمة في الحرب

(8) عبد المنصف البوري، الغزو الإيطالي لليبيا: دراسة في العلاقات الدولية (الكويت: شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، 1986)، ص 190-193.

التي تجمعها بتحالف دول البلقان (الجبل الأسود وبلغاريا وصربيا واليونان...)، وأرغمت الحكومة الاتحادية في 18 تشرين الأول/ أكتوبر 1912 على التخلّي رسميًا عن آخر ولاية لها في شمال أفريقيا، بموجب معاهدة أوشي - لوزان (Ouchy - Lausanne) الموقّعة مع إيطاليا[9].

هكذا، نتبين أن إيطاليا كسبت حربها ضد الإمبراطورية العثمانية في البحر لا في البر، وبفضل التهديدات البلقانية لا نتيجة انتصاراتها المحدودة على السواحل الليبية[10]. وضعها توقيع المعاهدة المذكور أمام تحدٍ جديد وجدي، مؤداه إثبات قدرتها على السيطرة على دواخل الإيالة المترامية الأطراف والمتنوعة الأقاليم.

وضع اتفاق أوشي - لوزان حدًا للحرب الإيطالية - التركية، ودشن مرحلة جديدة يمكن نعتها بطور الصراع بين إيطاليا والمقاومة الليبية. من المهم الإشارة هنا إلى أن تنحي الأتراك عن إدارة البلاد في خريف 1912 أنشأ حالة من الفراغ السياسي على رأس السلطة في البلاد، فانقسمت الزعامات المحلية بين راغبٍ في التفاوض مع الإيطاليين ومنادٍ بمواصلة القتال ضد المحتل. وبرز هذا الانقسام بشكل جلي خلال مؤتمر العزيزية في تشرين الثاني/ نوفمبر 1912 بهدف تقويم مرحلة ما بعد صلح أوشي.

في ضوء الحقائق التي صارت معروفة، تبلور موقفان: **الأول** معتدل قابل بالتفاوض، تمسّك به زعماء دافعوا عن ضرورة الحوار مع إيطاليا، ومنهم الشيخ محمد بن فرحات الزاوي (نائب الزاوية في مجلس المبعوثان) ومحمد بن خليفة فكيني (قائم مقام فساطو)؛ والثاني رافض، جسّدته «جبهة الرفض» بقيادة سليمان الباروني، الزعيم المشهور للجبل الغربي، ومحمد بن عبد الله البوسيفي، وفرحات باي وسوف المحمودي، ومحمد المهدي السني. تعمّق الخلاف بين الاتجاهين

(9) سبق للسلطان العثماني محمد الخامس أن أعلن يوم 16 تشرين الأول/ أكتوبر عجزه عن الدفاع عن طرابلس الغرب، وأصدر فرمانًا يمنح الاستقلال الذاتي لإيالة طرابلس الغرب. وفي اليوم الموالي، صدر مرسوم عن ملك إيطاليا فيكتور عمانوئيل الثاني أكّد فيه السيادة الكاملة والشاملة لمملكة إيطاليا على ولاية طرابلس الغرب. بخصوص نصّ معاهدة أوشي وملاحقها والاتفاق السّري المرافق لها، انظر: الزاوي، ص 99-106.

(10) Desevaux, pp. 89-90.

وازداد خطرًا، حيث أثر بصورة واضحة في مجريات الأمور في ما بعد، وأدى إلى فقدان المقاومة الليبية كثيرًا من عناصر تماسكها وقوتها. استغل الإيطاليون هذا الوضع على الوجه الأكمل، وأطبقوا على جيوب المقاومة بكماشة ثلاثية، فكّها الأول في جنوب شرق بنغازي[11]، والثاني في الجبل الغربي[12]، والثالث في فزان[13].

بيد أن السيطرة الإيطالية على هذه المناطق بقوة السلاح ستتراجع ابتداءً من خريف عام 1914 بعد ثورة فزان؛ إذ هاجم المقاومون الحاميات الإيطالية وقوافل الإمداد، فلم يعد الكولونيل مياني، حاكم الإقليم، قادرًا على السيطرة على الوضع، وسقطت سبها (28 تشرين الثاني/ نوفمبر 1914) ومرزق (6 كانون الأول/ ديسمبر) وبراك (11 كانون الأول/ ديسمبر) وغات (23 كانون الأول/ ديسمبر) في أيدي المقاومين. وبالتزامن مع هزائم مياني في فزان وانسحابه منها، طردت المقاومة الإيطاليين من الجبل الغربي والقبلة بسرعة طردهم من فزان والجفرة وسرت نفسها. وفي 28 نيسان/ أبريل 1915، أوقعت المقاومة الليبية هزيمة مدوية بالإيطاليين في القرضابية شكلت منعطفًا في الأزمة، ترتب عنها انسحاب الإيطاليين من مناطق الداخل، واقتصار انتشارهم على بضع نقاط ساحلية في طرابلس وبرقة، فترةً طالت أكثر من سبعة أعوام.

هكذا، انهار الاحتلال الإيطالي في طرابلس الغرب، واقتصر حضوره على أسوار طرابلس والخمس، وعلى برقة ضمن شريط ساحلي ضيق. يعزو أحد المؤرخين هذا انكسار الجيوش الإيطالية السريع إلى أن «نشوب الحرب العالمية

---

(11) معركة طليثمة (11 نيسان/ أبريل 1913) وغزو الجبل الأخضر ومعركة بنينا (13 نيسان/ أبريل) والزّحف على الرجمة (22 نيسان/ أبريل) وأبي مريم (25 نيسان/ أبريل) والأبيار (26 نيسان/ أبريل) والمرج (19 أيار/ مايو) وسيدي كريم القرباع (16 أيار/ مايو) وشحات (20 أيار/ مايو) ومرسى سوسة (20 أيار/ مايو) واجدابيا (15 نيسان/ أبريل 1915).

(12) معركة الأصابعة جندوبة (22 آذار/ مارس 1913) واحتلال يفرن (27 آذار/ مارس) والزنتان (5 نيسان/ أبريل) وجادو (6 نيسان/ أبريل)، ونالوت (12 نيسان/ أبريل).

(13) احتُلّ إقليم فزّان بين عامي 1913 و1914، في أثر معارك ومواجهات أبي نجيم (حزيران/ يونيو 1913) ومزدة (تموز/ يوليو) وسوكنه (22 تموز/ يوليو) والشب (6 كانون الأول/ ديسمبر) وأشكدة (13 كانون الأول/ ديسمبر) وسبها (شباط/ فبراير 1914) ومرزق (3 آذار/ مارس) وغات (12 آب/ أغسطس) وأوباري (آب/ أغسطس).

الأولى صرف أنظار الحكومة والقيادة العسكرية في إيطاليا عن ليبيا»[14]. يضيف مؤرخ آخر أن هذا الوضع جعل «المجاهدين يستغلون الظرفية الجديدة أحسن استغلال، ويستفيدون منها في إنهاك القوة الإيطالية وإضعافها»[15].

لتبرر روما هزيمتها هذه، أعلنت أن دخولها الحرب «ضد الدولة النمساوية المجرية في أيار/ مايو 1915 لم يعد يسمح لها بإرسال التعزيزات الكافية إلى طرابلس الغرب»[16]، وتأكد هذا بعدما هزم النمساويون إيطاليا في كابورتُو في عام 1917، الأمر الذي حمل الحكومة الإيطالية على وقف الحملات العسكرية في ليبيا[17].

2- تداعيات اندلاع الحرب الأولى على وضع طرابلس الغرب الداخلي

في إثر اندلاع الحرب العالمية الأولى، وانضمام الإمبراطورية العثمانية في خريف 1914 إلى صف التحالف الثلاثي (ألمانيا والنمسا والمجر)، قررت تركيا وألمانيا إعانة حركة المقاومة في طرابلس الغرب من طريق إرسال ضباط وخبراء عسكريين للإشراف على تنظيم العمليات[18]، فضلًا عن السلاح والذخيرة ووسائل الاتصال.

في هذا الإطار العام، يأتي قول أنور باشا للزعيم الوطني بشير السعداوي، في لقاء جمعهما بعيد اندلاع الحرب: «أما وقد دخلنا الحرب، فالواجب عليكم يا أهل طرابلس وبرقة أن تشتركوا معنا في القتال». وكذلك يأتي قرار الحكومة التركية تكليف السعداوي نفسه ونوري بك، شقيق أنور باشا، تسليم رسالة إلى

(14) نيكولاي إيليتش بروشين، تاريخ ليبيا: من نهاية القرن التاسع عشر حتى عام 1969، ترجمة وتقديم عماد حاتم وميلاد أبو سلامة المقرحي، سلسلة الدراسات المترجمة؛ 11 (طرابلس: منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2005)، ص 196.

(15) خليفة محمد التليسي، معارك الجهاد الليبي من خلال الخطط العربية الإيطالية، ط 2 (طرابلس: المنشأة العامة للنشر والتوزيع، 1982)، ص 44-45.

(16) الأرشيف الوطني التونسي، سلسلة A، كرتون 196، ملف 1، تقرير شهر أيلول/ سبتمبر 1915.

(17) مجيد خدوري، ليبيا الحديثة: دراسة في تطورها السياسي، ترجمة نقولا زيادة؛ مراجعة ناصر الدين الأسد (بيروت: دار الثقافة، 1966)، ص 27.

(18) بروشين، ص 196.

الزعيم أحمد الشريف السنوسي في برقة، وكان مفادها أن الدول الائتلافية الثلاث (إنكلترا وروسيا وفرنسا) أعلنت الحرب على تركيا، لذلك قررت السلطنة أن تنفذ عمليات عسكرية ضد الدول المذكورة في كل مكان. كما طلبت الحكومة التركية من أحمد الشريف أن يعلن الجهاد ضد هذه الدول، وأن يهاجم مصر بشكل خاص. وأبلغ كذلك بأن «حامل الرسالة إليه سيسلمه مبالغ مالية»، كما قُطعت له الوعود بتقديم السلاح والذخيرة. جاء في هذه الرسالة أيضًا أن السلطان العثماني محمد رشاد الخامس عيّن أحمد الشريف نائبًا له في شمال أفريقيا ولقّبه الوزير الأول، ومنحه الحق في منح المناصب وإعطاء الهبات[19].

في بداية عام 1915، وصل القائد العام التركي الأعلى نوري بك إلى إقليم برقة، ومعه طائفة من الضباط الأتراك، على متن غواصة ألمانية[20]، وممثل عن هيئة الأركان العامة الألمانية هوك مانسان[21]. حمل نوري بك معه سلاحًا كثيرًا وذخيرة وأموالًا، ورسالة من وزير الحربية أنور باشا. كان بين المهمات المناطة بنوري بك تنظيم هجوم على مصر انطلاقًا من أراضي برقة. وباشر الأتراك عملًا دعائيًا ونجحوا في تأجيج المشاعر المعادية للإنكليز بين الليبيين.

في تشرين الثاني/ نوفمبر 1915، قرن الأتراك وحلفاؤهم من السنوسيّين القول بالفعل، فبدأ الهجوم السنوسي على مصر، واجتازت قواتٌ يقودها نوري بك الحدود المصرية لتحتل السلوم ثم مرسى مطروح. لكنّ القوات البريطانية نفذت هجومًا معاكسًا في كانون الثاني/ يناير 1916، مرغمة القوات السنوسية على التقهقر والانسحاب من مصر. وفي إثر فشل هذا الهجوم، اعترف أحمد الشريف السنوسي بهزيمته، وتنازل عن القيادة السياسية والعسكرية مسلّمًا شؤون برقة لإدريس السنوسي، مغادرًا البلاد نهائيًا في أيلول/ سبتمبر 1918، ميممًا شطر اسطنبول على متن غواصة ألمانية.

---

(19) بروشين، ص 145.

(20) رفض بشير السعداوي مرافقة نوري بك إلى برقة، لأنه اعتبر مخطّط الدولة العثمانية غير واقعي، ودخول ليبيا الحرب إلى جانب دول الائتلاف لن يحمل أي خير لليبيا، وهمّ الليبيين الرئيس هو تطهير بلادهم من الحضور الإيطالي.

(21) R. S. Gwatkin-Williams, *Prisoners of the Red Desert: Being a Full and True History of the Men of the 'Tara'*, with an Introduction by the Duke of Westminster (London: Thornton Butterworth, 1915), p. 26.

ابتداءً من عام 1916، كثف الأتراك والألمان حضورهم في طرابلس الغرب، بعد أن اتضح لهم فشل مخططهم في برقة، علاوة على عوامل أخرى أملت تعزيز ذلك الحضور، ليس أقلها فشل هجوم والي سورية جمال باشا على قناة السويس، ودخول إدريس السنوسي في مفاوضات مع الإنكليز، واندلاع الثورة العربية في الحجاز في حزيران/ يونيو 1916، بقيادة شريف مكة الحسين بن علي.

من التجليات البارزة لتعزيز التمركز التركي - الألماني في إقليم طرابلس تحول ميناء مصراتة إلى مخبأ مأمون لغواصات الحلف الثلاثي. كانت هذه الغواصات تخترق الحصار الذي ضربه الإنكليز والإيطاليون، فتُحضر إلى طرابلس الغرب تموينًا وأموال (تدخل الميناء مرةً كل أسبوعين)، وتخرج منها محمّلةً بالمنتوجات الزراعية. وكانت القيادة الألمانية - التركية قد عقدت النيّة على البقاء طويلًا في طرابلس الغرب[22].

الحق أن الأتراك سعوا حثيثًا إلى إعادة ترسيخ أقدامهم في طرابلس الغرب، فعلقوا آمالًا كبيرة على الزعيم الكبير سليمان الباروني، أحد وجهاء الجبل الغربي البارزين، بعدما خذلهم أحمد الشريف الذي لم يكن متحمسًا لقتال الإنكليز في مصر، والذي أخفق في هجومه على مواقعهم كما أسلفنا.

في نيسان/ أبريل 1916، وصل الباروني إلى ميناء مصراتة حاملًا فرمانًا من السلطان عيّنه بمقتضاه حاكمًا على طرابلس وقائدًا للمجاهدين، بدلًا من أحمد الشريف. كلّفت الحكومة التركية سليمان الباروني مهمتين رئيستين: إصلاح ذات البين بين الزعامات الطرابلسية والسنوسية المتخاصمة في شأن مناطق النفوذ، وإنهاء الصراعات المزمنة بين الوجهاء. أما جوهر مهمته فكان تشكيل حكومة عربية في إقليم طرابلس الغرب، تابعة لاسطنبول.

في 17 أكتوبر/ تشرين الأول 1916، أصدر سليمان الباروني نداءً بضم طرابلس الغرب إلى باقي ولايات الإمبراطورية العثمانية[23]، وطالب بتأليف حكومة

(22) بروشين، ص 162.

(23) مصطفى عبد الله بعيو، المختار في مراجع تاريخ ليبيا (بنغازي: دار ليبيا للنشر، 1967)، ج 1، ص 264.

موحدة تضم القوى الوطنية كافة، مهمتها متابعة النضال ضد الحضور الإيطالي في ليبيا. وشدد الباروني، الحاكم الجديد لطرابلس الغرب، في ندائه على وجوب تسوية الخلافات بين الزعامات القبلية الطرابلسية من جهة، وبينها وبين السنوسية من جهة أخرى. وكانت له مراسلات مع إدريس السنوسي في هذا الخصوص.

في هذه الأثناء، جنحت الحكومة الإيطالية - تحت ضغط الحرب - إلى ما سيسمى لاحقًا «سياسة الزعماء» (Politica de capi)، فما هي خلفيات هذه السياسة في كلمة، وما هي وسائلها في جملة؟

3- «سياسة الزعماء» (1916-1921)

المقصود بسياسة الزعماء أو بسياسة الاسترضاء هنا الأسلوب السياسي الذي حاول الإيطاليون - والإنكليز لاحقًا - بواسطته تسيير دفة الأمور في طرابلس الغرب، ابتداءً من عام 1916، بالتعاون مع زعماء محليين. وتأسيسًا على هذا أجزلوا عطاءهم لبعض الوجهاء المعروفين[24]، بحسب ما يعترف به رودولفو غراتسياني، أحد مهندسي هذه السياسة، مدونًا في مذكراته: «هكذا فإن تغير الأسلوب جعل الوطنيين آلة فعالة في أيدينا بسبب تنافسهم وأطماعهم...»[25]. أضاف: «سرعان ما بدا لي من أنه من الملائم كل الملاءمة الاستفادة من هؤلاء الزعماء ورجالهم لصالحنا لتنفيذ أغراضنا...»[26].

أنتج الفراغ السياسي الناجم عن تنحي الأتراك عن إدارة البلاد في عام 1912، وانكسار الجيوش الإيطالية ابتداءً من عام 1914، تنافسًا حادًا بين الزعامات المتنفذة والوجهاء البارزين في برقة، خصوصًا في إقليم طرابلس، في مسألتي جباية الضرائب من السكان وتوزيع المساعدات الألمانية والتركية (1916-1918)، علاوة على محاولات الاستئثار بأكثر ما يمكن من مناطق النفوذ.

---

(24) ليزا أندرسن، «جمهورية طرابلس: 1918-1922،» تعريب محمد رمضان المصري، في: مجلة الشهيد (طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1990)، العدد 11، ص 212.

(25) رودولفو جراتزياني، نحو فزّان، نقله عن الإيطالية طه فوزي (طرابلس: منشورات الفرجاني، [د. ت.])، ص 71.

(26) المصدر نفسه، ص 111.

جرى هذا بموازاة تقرّب قادة مشهورين ووازنين من الإيطاليين. إذ حقق الإيطاليون بين عامي 1911 و1917 خبرة بالواقع الاجتماعي المحلي المعقد جدًا، فأدركوا الرهانات التي أفرزتها الحرب الإيطالية – التركية وبداية الحرب العالمية الأولى. وبناء عليه، وظفوا خبرتهم هذه لاختراق الصف الوطني ودق إسفين الشقاق بين أبرز فئاته وزعاماته، مزاوجين بين الشدة والعطاء حينًا، والوعود والوعيد أحيانًا.

من الإنصاف القول هنا إن قلة قليلة من القادة استطاعت مقاومة سياسة الإغواء والاسترضاء الإيطالية، بينما ضعفت نفوس كثرة منهم أمام الرواتب المجزية التي عرضتها دولة الاحتلال التي انتهجت سياسة «نثر الذهب» في محاولتها استمالة الزعماء. استحكمت العداوة بين أبرز القادة الليبيين جراء تنافسهم على الأعطيات الإيطالية، ما أفقد حركة المقاومة كثيرًا من عناصر قوتها، وما جعل التمييز بين «الوطنيين» و «العملاء» (أو الدسيسة) ضربًا من المخاطرة.

انخرطت أغلبية ساحقة من الزعامات المحلية في اللعبة الإيطالية، بعضها بدافع القناعة والإخلاص مثل إدريس السنوسي (رئيس الحركة السنوسية في برقة) ويوسف خريبيشة (زعيم فساطو) وسلطان بن شعبان (زعيم زوارة) وساسي خزام (زعيم يفرن) والهادي كعبار (زعيم غريان) وعلي بن تنتوش (زعيم ورشفانه)، وبعضها بدافع المداراة والانتهازية مثل سليمان الباروني (زعيم الجبل الغربي) وعبد النبي بلخير (زعيم ورفلة) وسوف المحمودي (زعيم المحاميد) ورمضان السويحلي (زعيم مصراتة) وأحمد المريّض (زعيم يفرن)، وبعض ثالث جرفه التيار، مثل خليفة بن عسكر (زعيم نالوت). إضافة إلى ذلك، أرغم تقلص نفوذ الدولة بين عامي 1912 و1913 وعامي 1915 و1921 الزعامات القبلية على اللجوء إلى نظام العصبية لتؤدي دورًا عجزت تركيا المتهالكة وإيطاليا المهزومة عن أدائه.

نجحت السلطة الإيطالية في إضعاف المقاومة الوطنية باعتمادها سياسة «فرق تسد»، وهو ما سيتضح أكثر لاحقًا في هذه الدراسة. تواصل اتّباع تلك السياسة حتى وصول الكونت جوسيبي فولبي حاكمًا جديدًا على طرابلس الغرب في عام 1921، فأنهاها ودشن عهدًا جديدًا يقوم على القوة والعمل الحربي، مستبعدًا

الزعماء تحت شعاره: «لا مع الزعماء، ولا ضد الزعماء، لكن من دون الزعماء». تعززت هذه السياسة في نهاية عام 1922 ومطلع عام 1923 مع إقرار الحكم الفاشي السلام عن طريق الفتح العسكري، والتوقف عن سياسة الاسترضاء.

الحاصل من هذا كله أن سياسة التفاوض التي سلكها الإيطاليون في طرابلس الغرب، منذ عام 1916 إلى ما بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، لم تحددها الخلفية نفسها دومًا، ولم تكن على وتيرة واحدة في برقة وطرابلس الغرب، كما سنرى.

ثانيًا: المفاوضات بين إيطاليا والحركة السنوسية في برقة 1916-1921

كان من تداعيات فشل الحملة السنوسية على مصر، بقيادة أحمد الشريف في عام 1916، تنازله عن القيادة السياسية والعسكرية في برقة لمحمد إدريس المهدي. نجح هذا الأخير في إقناع أحمد الشريف بضرورة عقد صلح مع الإنكليز ليتمكن البرقاويون من متابعة حركة المقاومة ضد الإيطاليين. لكن فات إدريس السنوسي أن إنكلترا وإيطاليا كانتا حليفتين، واتفقتا على ألا تعقد أي منهما صلحًا منفردًا مع السنوسية، لذلك أصر الإنكليز على مفاوضة السنوسية للإيطاليين، وقبل إدريس السنوسي بذلك.

1- من مفاوضات الزويتينة إلى هدنة عكرمة

جرت مفاوضات إنكليزية - إيطالية من جهة، وأهلية سنوسية من جهة أخرى، في الزويتينة على خليج سرت غرب مدينة اجدابيا، خلال شهري أيار/مايو وحزيران/يونيو 1916. رَئس إدريس السنوسي الوفد البرقاوي، كما رئس الكولونيل تالبوت الوفد الإنكليزي، والكولونيل فلا الوفد الإيطالي.

منذ أولى جلسات المفاوضات، بدا التباعد في وجهات النظر وانعدام الثقة بين الإيطاليين والسنوسيّين جليًا. جلّ ما حصل في أثنائها هو أن إدريس السنوسي اطّلع على المطالب الإيطالية والإنكليزية، وأبلغ الوفدين الإنكليزي والإيطالي بوجهة نظر فيها.

تقرر بعد ذلك مواصلة التفاوض في عكرمة، قرب طبرق، في نيسان/ أبريل 1917. وبعد نقاش مستفيض، أعلن السنوسيّون والإيطاليون عن رغبتهما في وقف القتال والإحجام عن الحرب، وعقدا «هدنة عكرمة» التي تضمنت بنودها حرية التنقل بين منطقتي برقة: منطقة الاحتلال الإيطالي ومنطقة النفوذ السنوسي، وإناطة مهمة الأمن في كلّ من المنطقتين بمن يحتلها، على أن لا يقيم أي منهما مراكز حربية جديدة، ولا يعتدي على أرض الفريق الآخر، وتجريد القبائل من السلاح في غضون سنة واحدة، وإعادة أملاك السنوسية إليهم، وتعيين شيوخ للزوايا السنوسية يتكفل الإيطاليون بمرتباتهم.

أما الاتفاق السنوسي - الإنكليزي الذي وقعه السنوسي وتالبوت فنظّم العلاقة بين الجانبين خلال الحرب العالمية بطولها، وإعادة حرية العلاقات التجارية بين مصر وبرقة. جرد هذا الاتفاق السنوسيين من حق إنشاء الزوايا في الأراضي المصرية، وألزمهم تسليم أسرى الإنكليز والضباط الأتراك وغيرهم من مواطني الدول المعادية إلى إنكلترا، وطرد مشجعي الحرب على الإنكليز من برقة، وكذلك من واحة الجغبوب التي اعترف بها الاتفاق أرضًا مصرية. وبذلك، حقق الإنكليز والإيطاليون إنجازهم الأكبر بتوقيع هذه الهدنة، ألا وهو طرد الأتراك من برقة[27]، وتمكن الإيطاليون من تدعيم المواقع التي احتلوها في هذه المدينة. وبدا واضحًا في سياق المفاوضات أن إيطاليا كانت تسعى إلى الحصول على امتيازات سياسية، بينما اهتمت إنكلترا بتأمين الحدود المصرية الغربية، ووقف انتشار الحركة السنوسية في مصر.

كانت مفاوضات الزويتينة، وهدنة عكرمة التي تسببت بطرد الأتراك من برقة، من أسباب توتر العلاقة بين إقليمي برقة وطرابلس. وفي تلك الأثناء، كان إدريس السنوسي يرى ضرورة أن تعوّض الهدنة الموقتة بمعاهدة دائمة.

2- من إعلان الدستور إلى اتفاقية الرجمة

قررت إيطاليا انتهاج سياسة جديدة في ليبيا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى. فإيطاليا خرجت من هذه الحرب منهكة في الداخل، وغير قادرة على إرسال قوات

(27) بروشين، ص 156.

إضافية لتأكيد سيطرتها على طرابلس الغرب. كما رغبت الحكومة الإيطالية في التقرب من الليبيين «أملًا في أن ينتهي الأمر بهم إلى القبول بالسيادة الإيطالية»[28].

حُكْمُ ليبيا من دون اللجوء إلى القوة، ومنْحُ أبنائها نوعًا من الحكم الذاتي، مبدآن تمسكت بهما إيطاليا بعد الحرب، مع ذيوع مبادئ ويلسون، كي تمنح برقة دستورًا أساسيًا أو قانونًا أساسيًا أعلن عنه في 31 تشرين الأول/ أكتوبر 1919. نصّ هذا الدستور في الأساس على أن يعين ملك إيطاليا مشرفًا على الشؤون المدنية والعسكرية في برقة، وأن يكون للمدينة مجلس نواب محلي من ستين عضوًا يمثلون القبائل والحضر، إضافة إلى ثلاثة أعضاء يمثلون الجالية الإيطالية. أما إدارة البلاد فتتم على أساس تنظيم إدارات مدنية وعسكرية يعين رؤساؤها بأمر ملكي. وضَمِنَ القانون الأساس حرية المعتقد وحق الملكية الفردية وحرية الاجتماع والصحافة، واحترم لغة البلاد، وأعفى أهالي برقة من الخدمة العسكرية، وسمح لهم بتشكيل وحدات عسكرية محلية (المواد 5-12).

لكن سرعان ما فطن رؤساء القبائل إلى ما تنطوي عليه مواد هذا الدستور من خطر، فعقد نحو مئة من كبارهم اجتماعًا في مدينة اجدابيا قرروا فيه رفض انتشار الإيطاليين إلا في المدن الساحلية، على أن يقتصر عملهم هناك على التجارة[29].

اتضح للجانبين، البرقاوي والإيطالي، من أصداء إعلان الدستور من جهة وقرار مشايخ القبائل من جهة أخرى أن المبادرة إلى إجراء مفاوضات جديدة أمر ضروري، علها توضح الرؤية وتتيح وضع الأمور في نصابها.

انتهت المفاوضات الجديدة باستبدال اتفاق عكرمة باتفاق الرجمة في 25 تشرين الأول/ أكتوبر 1920 الذي قسم برقة قسمين: شمالي يضم السواحل وجزءًا من الجبل الأخضر (تدخل فيه مناطق الحدود، يخضع للسيادة الإيطالية؛ وجنوبي يضم الدواخل (تدخل فيه واحات جالو والكفرة والجغبوب المستقلة) تديره إدارة مستقلة هي الإمارة السنوسية. ومنح إدريس السنوسي بموجب هذا الاتفاق لقب «أمير»، وتقرر أن يكون وراثيًا في عائلته، واعتُرف به رئيسًا لحكومة

(28) نقولا زيادة، محاضرات في تاريخ ليبيا: من الاستعمار الإيطالي إلى الاستقلال (القاهرة: جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، 1958)، ص 91.

(29) زيادة، ص 92.

ذات استقلال ذاتي تدير الأجزاء الداخلية من برقة، مع منحه حق الإقامة في اجدابيا التي صارت مقر حكومته، وتخصيصه بعلاوة شهرية شخصية تضاف إلى علاوة لأسرته، ومنحه الحق في أن يكون له عَلَمه الخاص. كما تم الاتفاق على أن تحتفظ جماعته بسلاحها، وأن تنتخب من يمثلها في البرلمان المحلي، وأن تُعفى الأراضي السنوسية من الضرائب.

في المقابل، تعهد السنوسي أن يصفي الأدوار (المعسكرات) السنوسية وجميع المنظمات السياسية والعسكرية المتصلة بها في المناطق الواقعة خارج حكومته خلال ثمانية شهور[30].

3- أبو مريم: اتفاق جديد (وأخير) قبل تجدد القتال

مرت مدة ثمانية شهور المتفق عليها لحلّ الأدوار العسكرية من دون أن يتحقق ذلك. كانت حجّة السنوسي أن حلّها سيثير القبائل من دون فائدة، فبدأ البحث في هذه المسألة من جديد، وانتهت المشاورات بين السنوسي والإيطاليين إلى اتفاق ثالث، هو اتفاق «أبو مريم».

أُبرم هذا الاتفاق في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1921، فأقر إنشاء أدوار مختلطة، يشرف عليها ضباط إيطاليون وسنوسيون. كان جليًا أن الحكومة الإيطالية لم تكن ترغب في عودة الحرب إلى برقة، لذا أرغِمَت على توقيع هذا الاتفاق والقبول به موقتًا. وكان الجميع يعرف أن القتال سيتجدد يومًا ما، وهو ما حصل فعلًا في آذار/ مارس 1923.

ثالثًا: المفاوضات بين إيطاليا والزعامات الطرابلسية في الغرب (1916-1921)

1- قيام الجمهورية الطرابلسية والدعوة إلى الحكم الذاتي

في 30 تشرين الأول/ أكتوبر 1918، سمع إقليم طرابلس الغرب خبر استسلام الإمبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وكان الأتراك قد

(30) خدوري، ص 30.

كثفوا حضورهم هناك بعد طردهم نهائيًا من برقة في ربيع عام 1917. وكان الأمير عثمان فؤاد، رمز السيادة العثمانية في الإقليم والقائد الأعلى للجيوش الأفريقية، مقيمًا آنذاك في مصراته[31]. أما باقي الزعامات الطرابلسية، التي تعاظم أثرها السياسي، فكانت تستوطن ساعة شيوع خبر انكسار الدولة العلية في الحرب مناطق نفوذها التقليدية، التي كانت أشبه بدويلات محلية صغيرة. فكان رمضان السويحلي الذي غدا أبرز شخصية في شرق إقليم طرابلس في مسلاته (على الرغم من أنه سيد مصراته كما هو معروف)، وكان سليمان الباروني، الذي سطع نجمه من جديد في منطقة الجبل الغربي بعد أن وضع العثمانيون آمالهم فيه وعينوه واليًا على طرابلس في عام 1916، في العزيزية والزاوية. وكان عبد النبي بلخير في ورفلة، وأحمد المريض في ترهونة، وخليفة بن عسكر في نالوت، ومختار كعبار في غريان...

كان لزامًا على هذه الشخصيات النافذة، وعلى من كان مقيمًا في البلاد من غير الليبيين أمثال عبد الرحمن عزام، والضباط الأتراك البارزين مثل إسحق باشا، التحرك لمواجهة ما يقتضيه الموقف، وهم يعلمون أن استسلام دولة الخلافة معناه قطع المدد عنهم، وبقاؤهم وحيدين في مواجهة إيطاليا، واحتمال استعار الحروب الداخلية من جديد[32] بتحريض من بعض وجهاء القبائل والزعماء السياسيين. واحتياطًا لأي احتمال ربما يعقّد الوضع الداخلي خصوصًا أن الإقليم بات بلا «حكومة»...، نشأت فكرة إعلان الجمهورية لفرض حد أدنى من النظام، وتأمين الحماية للأشخاص والممتلكات، من خلال نقاش جرى بين الأمير عثمان فؤاد وأبرز الزعامات المجتمعة وقتذاك في مصراته، أمثال رمضان السويحلي وسليمان الباروني وعبد الرحمن عزام ومختار كعبار وغيرهم.

كان ثمة ثلاثة عوامل مهمة أخرى شجعت الزعماء المذكورين على التعجيل بتنفيذ فكرة إعلان الجمهورية: يخصّ **الأول** أصداء التطور السياسي المسجل في إقليم برقة بعد اعتراف إيطاليا بالحكم الذاتي للسنوسية فيه، بموجب اتفاق عكرمة

---

(31) أبو القاسم الباروني، حياة سليمان باشا الباروني: زعيم المجاهدين الطرابلسيين، ط 2 مزيدة ومنقحة (القاهرة: [د. ن.]، 1948)، ص 90.

(32) الباروني، ص 91.

في 11 نيسان/ أبريل 1917؛ ويتمثل الثاني في دعوة الرئيس الأميركي وودرو ويلسون الشعوب إلى تقرير مصيرها، ونقع في نص الرسالة الموجهة من أعضاء مجلس الجمهورية إلى الرئيس الأميركي على ما يشير إلى صدى هذا الإعلان في طرابلس[33]؛ ويكمن الثالث في تطور الأوضاع الداخلية في إيطاليا عشية انتهاء الحرب العالمية الأولى، إذ كان زعماء طرابلس الغرب يعلمون بما يجري في روما من أزمات حكومية واقتصادية واجتماعية أنتجتها خسائر الحرب، فضلًا عن تقلب الحياة البرلمانية التي زادتها الخيبات الديبلوماسية تعقيدًا، وشلّت بالتالي أي مبادرة حكومية إيطالية. بناء على ذلك، كانت روما تسعى إلى تفادي أي عملية غزو جديد لليبيا، تكلفها كثيرًا في المال والرجال، ومعنى هذا أن التفاوض وحده هو الحل الواقعي[34].

عرضت الزعامات المذكورة على الأمير فؤاد رئاسة الجمهورية، فاعتذر. ويعزو الشيخ الطاهر الزاوي اعتذاره إلى تأثره باستسلام تركيا[35]... ومن دون إسهاب في الحديث عما سبق الإعلان عن الجمهورية من مشاورات وأخذ ورد، نكتفي بالإيماء إلى أن أبرز القادة قرر الدعوة إلى عقد اجتماع عام في ميعاد كلاسيكي في مسجد المجابرة، مسلاته يوم 16 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918.

كان اجتماعًا مهيبًا حضره أهم وجهاء الإقليم، فضلًا عن زعامات قبلية عدة مثلت جميع البلاد الطرابلسية[36]، أعلن فيه عن قيام الجمهورية الطرابلسية، وأُلِّف مجلس رباعي يقوم بدور الهيئة الحاكمة[37] أعضاؤه رمضان السويحلي وسليمان الباروني وأحمد المريض وعبد النبي بلخير، «وهؤلاء الأربعة يمثلون البلاد الطرابلسية من حدود برقة إلى حدود تونس»[38].

قبل اختتام الاجتماع، انتخب الحاضرون «مجلس شورى» للجمهورية، وهو

(33) الزاوي، ص 224.

(34) André Martel, *La Libye (1835-1990): Essai de géopolitique historique*, Perspectives internationales (Paris: Presses universitaires de France, 1991), p. 105.

(35) الزاوي، ص 224.

(36) المصدر نفسه، ص 224، والباروني، ص 90-91.

(37) أندرسن، ص 198.

(38) الزاوي، ص 224.

برلمان أو هيئة تشريعية من 24 عضوًا[39]، مثلوا أبرز الوجهاء ومشايخ القبائل في المنطقة الغربية[40]. كما انتخبوا أيضًا «مجلس قضاء شرعي» من أربعة أعضاء هم «من أبرز علماء الشريعة». اتفق الحاضرون على جعل العزيزية مقرًا للجمهورية. وهناك من الباحثين من أكد وجود عاصمتين لحكومة الجمهورية: «العزيزية على الساحل وغريان في الجبل الغربي»[41].

في اليوم نفسه، أصدر مجلس الجمهورية المجتمع في العزيزية سلسلة من البلاغات، وجّه أولها إلى سكان «القطر الطرابلسي».

سؤال مهم يطرح هنا: ماذا كان موقف الإيطاليين من إعلان هذه الزعامات المرموقة تأسيس الجمهورية الطرابلسية؟

قبل محاولة التماس الجواب عن هذا السؤال، ينبغي التنبّه إلى أن البلاغ الثالث الصادر عن مجلس الجمهورية أرسل إلى رئيس الحكومة الإيطالية، وأردف بملحق مطول تضمّن عشر نقاط، عدّها أعضاء الجمهورية أرضية صالحة لصلح مرتقب مع الحكومة الإيطالية. ومما ورد في هذا البلاغ قول موقعيه: «تفتخر الأمة الطرابلسية بتتويج استقلالها بإعلان الحكم الجمهوري وانتخاب نواب عنها في كافة أنحاء القطر لمجلسي الحكومة والشورى، ولا هدف لها إلا ضمان وحدتها وحريتها داخل حدودها السياسية المعروفة... لذلك، فحكومة الجمهورية الطرابلسية تدعو الحكومة الإيطالية إلى الاعتراف بها وسدّ كل باب يضطر الحكومة الطرابلسية إلى مداومة الحرب»[42].

حمل الرد الإيطالي رفضًا مبطنًا للتهديد من خلال تأكيده أن الحكومة الإيطالية «لا تعترف بالجمهورية الطرابلسية، وهي مستعدة للحرب إلى النهاية»[43]. لم يكن

(39) أسندت رئاسة المجلس إلى سوف المحمودي، وأنيط الباروني بمهمة مساعدة الرئيس. للاطلاع على لائحة أعضاء مجلس الشورى والجهات التي ينتمون إليها، انظر: الزاوي، ص 225-226، والباروني، ص 91-92.

(40) الزاوي، ص 226.

(41) الباروني، ص 93.

(42) الزاوي، ص 228، والباروني، ص 94.

(43) الزاوي، ص 229.

هذا الموقف الإيطالي العدائي مستغربًا، فزعماء حكومة الجمهورية كانوا في نظر الإيطاليين قادة عصابات متمردين مفسدين، دأبهم بث الفوضى وإثارة القلاقل. وأيًا كان الأمر، فإن ممثلي إيطاليا في ليبيا سيجنحون إلى الحوار مع رموز الجمهورية الفتية، تنفيذًا لأوامر صدرت إليهم من حكومتهم في روما تدعوهم إلى التفاوض.

2 - اتفاق خلة الزيتونة وإعلان القانون الأساسي

لم تبال الدول الأوروبية العظمى بإعلان قيام الجمهورية في طرابلس الغرب، وبجهد قادتها لعرض قضيتهم على مؤتمر السلام المنعقد في باريس بعد انتهاء الحرب، واستقبلت المستجدات في القطر الطرابلسي بفتور واضح[44].

لكن عدم اكتراث الدول الأوروبية هذا لم يمنع ساسة روما من الإذعان سريعًا للأمر الواقع، وفتح باب التفاوض مع قادة الجمهورية أو كبار أسياد البدو وفق عبارة غرانشان (Granchamp)[45]، ولا سيما بعد أن وصلتهم أخبار عودة المناوشات وعمليات قطع الطرق[46]، مؤكدين في المناسبة رغبتهم في اعتماد أسلوب جديد في سوس مستعمراتهم الأفريقية وإدارة شؤونها. في الواقع، أمِل الإيطاليون في التوصل مع الطرابلسيين إلى صيغة صلح شبيهة بالتي أبرموها مع إدريس السنوسي في برقة في عام 1917. وبإمكان الباحث المتعمق في خلفيات هذا الموقف أن يدرك أن ممثلي السياسة المدنية كانوا يعلمون أن أي صيغة أو تسوية تعايش ستشل حركة قواتهم في طرابلس، وعديدها نحو ثمانين ألف رجل ضمن المجال الساحلي (طرابلس - الخمس - زوارة)، لكنها تجنبهم حملة عسكرية جديدة مكلفة جدًا[47] وغير مأمونة النتيجة[48].

سبق لوزير الخارجية الإيطالي كارلو شنزر (Carlo Schanzer) أن لمّح في نهاية

(44) أندرسن، ص 190.

(45) Pierre Grandchamp, *Chronique de Libye*, 3 tomes (Tunis: Société anonyme de l'imprimerie rapide, 1925), p. 78.

(46) الباروني، ص 98.

(47) Camille Fidel, *Une Mission en Tripolitaine (Septembre 1920): Avec des cartes et 7 vues photographiques* (Paris: Publication du comité de l'Afrique française, 1921), p. 78.

(48) Martel, p. 105.

الحرب العظمى إلى رغبة حكومة بلده في تدشين عهد جديد في طرابلس الغرب، «لأن الوقت حان لتجربة التعاون مع أبناء البلاد، فيعطون حقوقًا سياسية ومدنية، كانت من قبل محدودة برأي الحكومتين المركزية والمحلية»[49].

انطلقت المفاوضات في آذار/ مارس 1919 في قرية خلة الزيتونة، وكان محورها البحث في شروط الصلح، وتألف الوفد الطرابلسي المفاوض من خمسة أعضاء[50]. تواصلت المفاوضات بوتيرة بطيئة بسب مماطلة الإيطاليين وتراجعهم[51]، لتتوج في الأول من تموز/ يوليو 1919 بتوقيع «صلح بنيادم» الذي أوقف حالة الحرب القائمة بين الإيطاليين والطرابلسيين منذ خريف 1911.

في هذا التاريخ نفسه، صدر القانون الأساس (Legge Fondamentale) أو الدستور (Statuto Lubici) الذي قبل الإيطاليون بموجبه حكم البلاد بمعية حكومة وطنية[52]. أقر القانون نوعًا من الجنسية الإيطالية - الطرابلسية، إذ تحول الطرابلسيون من وضع الرعايا إلى وضع المواطنين، وأصبح لهم ما للإيطاليين من حقوق سياسية وعليهم ما على هؤلاء من واجبات[53].

يبقى الأمر الأصيل في عملية المصالحة الإيطالية - الطرابلسية وأطوارها وما انجلت عنه من أطر محددة للحكم الذاتي في اعتقادنا نجاح الزعامات الطرابلسية النافذة في الاحتفاظ بشروط خارج القانون الأساس، والتزام الإيطاليين احترامها. يأتي في مقدم هذه الشروط الخاصة عدم نزع سلاح القادة وأتباعهم، والاعتراف بحقهم في تجنيد الرجال للخدمة المدنية. كما تعهد الإيطاليون عدم دخول جنودهم إلى مناطق نفوذ الدويلات المحلية التابعة لأبرز القادة الطرابلسيين

(49) Carlo Schanzer, «Italian Colonial Policy in Northern Africa,» *Foreign Affairs*, vol. 2, no. 3 (March 1924), p. 451.

(50) الأعضاء الخمسة هم الهادي كعبار، الصويعي الخيتوني، محمد فكيني، عيسى بن تنتوش وأحمد المريض.

(51) قطعت المفاوضات في ربيع 1919 بسبب تشدّد الإيطاليين في بعض المسائل واستؤنفت من جديد في أيار/ مايو 1919.

(52) القانون الأساسي من الفصل الثالث عشر إلى الفصل السادس والعشرين، انظر: الزاوي، ص 255-257.

(53) Fidel, p. 72.

وقتئذ[54]، واقتصار هذا الحضور على ضابط اتصال واحد. وفي أثر إعلان الدستور، عمدت الطبقة السياسية الطرابلسية - ومنها أعضاء في مجلس الأربعة والمجلس الشوري للجمهورية - إلى إعادة تشكيل نظامها لفترة وجيزة[55]. أفضى ذاك الجهد إلى ظهور هيئة الإصلاح الوطني في 26 أيلول/ سبتمبر 1919، وهو حزب وطني نيطت به مهمة المحافظة على حقوق الطرابلسيين الواردة في القانون الأساس كاملة، والتعجيل بتنفيذ هذا القانون[56]، والتحضير لانتخاب مجلس نواب. أسندت رئاسة هذا الحزب إلى أحمد المريض، زعيم ترهونة، وآلت رئاسته الشرفية إلى رمضان السويحلي، وتسلم عبد الرحمن عزام مهمة السكريتاريا العامة، فضلًا عن إشرافه على جريدة اللواء الناطقة بلسان الحزب.

خاتمة

ليس في نيتنا التطرق إلى تطور الأوضاع في طرابلس الغرب بعد إقرار الحكم الذاتي في برقة وطرابلس لاعتبارات منهجية، تحددها حدود موضوع دراستنا هذه، والحدان الزمنيان اللذان يسيجان الحقبة موضوع الدراسة.

علينا أولًا أن نذكر، ونحن نلم أطراف هذه الدراسة المحددة الهدف، أن القوى الأوروبية المتحاربة في الحرب الأولى (إنكلترا وألمانيا وتركيا وإيطاليا) حوّلت طرابلس الغرب مركز استقطاب، وانشغلت ألمانيا وتركيا في زرع القلاقل وخلق المتاعب لإيطاليا في ليبيا وإنكلترا في مصر، انطلاقًا من برقة على الحدود الغربية المصرية.

هكذا، عززت هاتان الدولتان حضورهما في طرابلس الغرب، وجذبتا إليهما عددًا من الزعامات القبلية المتنفذة. وبلغت الجرأة والجموع ببعض القادة المحليين حد فتح جبهة مع فرنسا على الحدود التونسية الطرابلسية، شأن القائد الجبلي المعروف خليفة بن عسكر بين خريف 1915 وصيف 1916[57]. أما

---

(54) التزام الإيطاليين بعدم دخول جنودهم ونظامييهم إلى مراكز الزاوية والعزيزية وجنزور ومصراطة وسرت وترهونة وغريان والرياينة ونالوت وبني وليد.

(55) أندرسن، ص 200.

(56) المصدر نفسه.

(57) يمكن العودة في هذا الخصوص إلى: فتحي ليسير، خليفة بن عسكر: بيوغرافيا قائد غامض (تونس: مركز سرسينا للبحوث حول الجزر المتوسطية، 2001)، ص 381.

إنكلترا فجهدت في إحباط المخططات والدسائس الألمانية التركية، ونجحت في ذلك من خلال تحييد الحركة السنوسية وجذب إدريس السنوسي إلى صفها. وكذلك فعلت إيطاليا بفتحها باب التفاوض مع الزعامات البرقاوية والطرابلسية في أفق «تمتيع البلاد بنوع من الحكم الذاتي المغشوش».

بدا جليًا - خلال مراحل التفاوض كلها بين الجانبين الوطني والإيطالي أن إيطاليا اضطرت إلى مفاوضة البرقاويين والطرابلسيين اضطرارًا، وكان همها منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى كسب الوقت ليس إلا، وشق الصف الوطني وتفتيته عبر الإسراف في الوعود وإغداق المساعدات في الاتجاهات كلها، وترك العاصفة تمر لتتضح الرؤية. أثبتت الحوادث كل هذا؛ إذ كان هناك عدد من الدلائل يشير إلى أن الإيطاليين كانوا يسوّفون ويماطلون في تطبيق ما تم الاتفاق في شأنه، وأنهم يستعدون لنقض ما أبرموا من عهود. ومن آيات ذلك انقلاب السياسة الإيطالية تجاه ليبيا رأسًا على عقب بعد حكم الفاشيين إيطاليا في خريف 1922. وكان من بين التجليات المباشرة لذلك التحول الحاد ما قام به الإيطاليون في برقة في 6 آذار/ مارس 1923، حين حلوا الجيش المشترك وأسروا السنوسي، قبل إعلان لويجي بونجوفاني، حاكم برقة الجديد، في 1 أيار/ مايو 1923 إلغاء جميع الاتفاقات الموقعة بين إيطاليا وإدريس السنوسي.

في إقليم طرابلس، انقطعت المفاوضات بين الجانبين في فندق الشريف في 10 نيسان/ أبريل 1922، وعاد القتال إلى الإقليم أشد ضراوة وأكثر دمارًا من ذي قبل. زحف الجيش الإيطالي ليحتل زوارة والعزيزية. وفي خريف 1928، سقطت غريان. خلال ربيع 1923، دخل الإيطاليون مصراتة، وما أن حل كانون الأول/ ديسمبر 1923 حتى احتل الإيطاليون ورفلة، فقضوا بذلك على المقاومة في إقليم طرابلس.

كانت تجربة الحكم الذاتي (الجمهورية الطرابلسية والدستور البرقاوي والبرلمان البرقاوي والدستور الطرابلسي والبرلمان الطرابلسي) في طرابلس الغرب مشروعًا ولد ميتًا، لا بفعل «سوء نية الطليان» وحدها كما تقول الكتابات الوطنية الليبية، ولا بفعل ما تميزت به سياستهم من مماطلات وتسويف ووعود، وإنما أيضًا بسبب التنافس والاحتراب اللذين مزقا الصف الوطني الليبي، وهذه حقيقة لا يمكن نكرانها.

هنا، نرى ضروريًا التشديد على أنه: على الرغم من أننا لا ننكر دور الدسائس الإيطالية في إجهاض تجربة الحكم الذاتي، فإننا نعتقد أن هذا الرأي جزئي ومجانب للحقيقة والوقائع التاريخية، فإخفاق هذه التجربة مردود إلى أسباب ومؤثرات أعمق.

لا ريب في أن الزعامات الوطنية والقبلية أدت أدوارًا مهمة في حركة المقاومة، لكن لا مفرّ من تأكيد أن عددًا من القادة الوطنيين أضعف هذه الحركة - بقصد أو من دون قصد - بانغماسهم في حروب مصلحية(58)، عادت بالوبال على البلاد وسكانها الذين دفعوا أكلافًا باهظة ثمنًا لصراعاتهم.

خلص الباحث الليبي المعروف علي عبد اللطيف حميدة، بعدما ساق طائفة من الأمثلة عن الاحتراب الداخلي الأهلي، إلى النتيجة الآتية: خلاصة القول في نظر بعض الأعيان وشيوخ القبائل إلى خصومهم المحليين على أنهم خطر أكبر من خطر الدولة الاستعمارية الإيطالية، وهذا ما يسوغ القول إن حركة المقاومة في طرابلس الغرب لم تكن ضحية سياسة القمع والإبادة التي انتهجتها إيطاليا، في أغلب الأحيان، بل ضحية نفسها، أي إرثها وتراكماتها السلبية وتناقضاتها العميقة التي تستعصي على الحصر(59).

---

(58) عرف إقليم طرابلس حروبًا أهلية أثرت في المقاومة وفتت في عضدها. من أشهر الحروب الأهلية خلال حقبة موضوع دراستنا الحربان الأهليتان في الجبل الغربي 1916-1917 و1920-1921 (جمعت من ناحية بربرنالوت ويفرن وفساطو وأولاد يوسف والمشاشية والربانية، ومن ناحية أخرى قبائل الزنتان والرجبان). وكان محرك هذه الحروب وما كان يسبقها من أحلاف وجهد استقطاب المصالح ولا شيء غيرها (التنافس من أجل الإعانات التركية والألمانية والمناصب السياسية والإدارية، والتنافس في التقرب من الإيطاليين الذين أجروا الرواتب المجزية للمتعاونين معهم، والتنافس من أجل جباية الضرائب في مناطق النفوذ الراجعة إليهم بالنظر وغيرها). دلت الوقائع على أن الصراع بين الزعامات والوجاهات أنسى هذه الأخيرة عدوّها الحقيقي، فانصرفت عنه منشغلة بتسوية حساباتها الداخلية. وغالبًا ما كان العتاة المحليون خلال سعيهم إلى الدفاع عن مصالحهم إلى تغليف مراميهم الحقيقية بعدد من الأهداف «النبيلة». هكذا، بات كل زعيم يلصق بخصمه صفة الضلوع أو تهمة العمالة أو «الطلينة» (ولا سيما بعد عام 1916 حينما زادت الصدوع واتضحت الشروخ في الصف الوطني، الأمر الذي ساهم في إبهام الحقائق).

(59) إن تأصّل الروح القبلية لدى الزعامات المحلية الطرابلسية على نحو قويّ جدًا هو ما دفع إسحق باشا (الذي خلف أنور باشا على رأس القيادة العامة في إيالة طرابلس في عام 1918) إلى المعاينة الآتية: متى كانت كلّ قبيلة تخضع لرئيس فلا يمكن توحيد البلاد توحيدًا كاملًا يمكنها من مقاومة العدو. وكانت فكرة القضاء على جميع الزعامات قد خامرت القائد التركي قبل مغادرته طرابلس الغرب في نهاية خريف 1918. وعلّق الشيخ أحمد الطاهر الزّاوي، أحد أبرز القادة الوطنيين آنذاك، على مشروع إسحق باشا بقوله: «هذه فكرة بعيدة المنال في طرابلس عن أجنبي عنها يريد أن ينضمّ الطرابلسيون إليه على قتل رؤسائهم، أو التّخلي عنهم، دون تحقيقها حروبًا أشدّ هولًا من حروب الطليان» (الزاوي، ص 235-236).

الفصل الرابع عشر

صورة أوروبا عند المثقفين الليبراليين المصريين في الحرب العالمية الأولى

محمد عفيفي

هناك عدد من العوامل المهمة وراء اختيار هذا الموضوع للدراسة، على رأسها دراسة موقف التيار الليبرالي المصري من الحضارة الغربية وتجديد الفكر المصري الحديث في الأوقات الصعبة التي مرت بها مصر عشية الحرب العالمية وفي أثنائها[1].

من الناحية الفكرية، ربما تتضح لنا الصورة إذا أخذنا في الاعتبار ذلك الوهن الذي دبّ في التيار الليبرالي المصري بعد إغلاق صحيفة الجريدة التي كانت بحق لسان حال هذا التيار في مطلع القرن العشرين، وعلى صفحاتها أثار رموزه معارك فكرية مهمة ساعدت كثيرًا في بلورة القومية المصرية وإرساء قواعد الفكر الليبرالي في مصر[2].

كان إغلاق الجريدة حجبًا للشمس عن أصحاب هذا التيار، خصوصًا منهم الشباب الذي ارتحل إلى أوروبا طالبًا العلم والثقافة، وعاد إلى مصر قبيل الحرب العالمية الأولى أو في أثنائها باحثًا عن منبر يعرض من خلاله أفكاره الجديدة التي استقاها من الحضارة الغربية، والتي رأى أنها السبيل الأوحد لتحديث مصر، والوقوف في وجه التيار المحافظ الذي يناصب الحضارة الغربية العداء.

---

(1) عن أوضاع مصر الاقتصادية والاجتماعية في أثناء الحرب العالمية الأولى، انظر: لطيفة سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984).

(2) صدر العدد الأول من الجريدة في 9 آذار/ مارس 1907، وأصبحت لسان حال حزب الأمة الذي كان يمثل آنذاك تيار الاعتدال في السياسة المصرية في مواجهة الاحتلال، ودخلت الجريدة في معارك فكرية وسياسية مهمة في مطلع القرن العشرين مع صحافة الحزب الوطني الذي مثل تيار التشدد في السياسة المصرية، والمحافظة في الفكر المصري، وتولى رئاسة الجريدة أحمد لطفي السيد الذي عرض على صفحاتها تصوراته للفكر الليبرالي أو ما أطلق عليه هو «منهج الحريين». انظر بخصوص ذلك: ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939 (بيروت: دار النهار، 1968؛ دار نوفل، 2009)؛ وأيضًا أحمد زكريا الشلق، حزب الأمة ودوره في السياسة المصرية (القاهرة: دار المعارف، 1979؛ الهيئة العامة لقصور الثقافة، 2007).

عمل التيار الليبرالي المصري - وعلى وجه الخصوص الجناح الشاب منه[3] - على إنشاء صحيفة السفور في عام 1915 لتكون على حد تعبير هذا الجناح الشاب إحياء لصحيفة الجريدة والرسالة الفكرية التي حملتها من قبل. وهكذا، أعاد هؤلاء الشباب الروح إلى التيار الليبرالي المصري من جديد في الحرب العالمية الأولى.

من العوامل الأخرى التي تقف وراء دراسة هذا الموضوع البحث في مدى انعكاس صورة أوروبا - مع اندلاع الحرب العالمية الأولى - على موقف التيار الليبرالي المصري من الحضارة الغربية. فها هو التيار المنادي بالأخذ بالحضارة الغربية يجد أوروبا نفسها تدخل في حرب استعمارية ضروس لم تفلح أفكار هذه الحضارة في الحيلولة دون وقوعها. وهَا هي بلدان هذه الحضارة يأكل بعضها بعضًا، فما انعكاس ذلك على صورة أوروبا عند أصحاب هذا التيار؟ هذا ما سنحاول التعرف إلى ملامحه من خلال النظر إلى السفور كدراسة حالة.

درجت السفور في أعدادها الأولى على نشر أهم الأخبار السياسية والعسكرية المتعلقة بالحرب، مقدمة عرضًا أسبوعيًا لوقائع الحرب ومساجلاتها. لكن ذلك توقف بعد الأعداد الثلاث الأولى، إذ توقفت السفور عن عرض الأخبار السياسية والعسكرية، وأعلنت صراحةً أن السبب وراء ذلك الأوامر التي وصلتها من السلطات العسكرية في مصر بمنع نشر الأخبار السياسية والعسكرية[4].

لا يرجع ذلك إلى موقف السفور المناوئ للحلفاء وإنكلترا بصفة خاصة، لكن إلى الأوضاع الاستثنائية التي عرفتها الأحوال السياسية في مصر، وفرض الرقابة على الصحف في أثناء الحرب العالمية الأولى. والجدير بالذكر هنا موقف

(3) أهم رموز الجناح الشاب الذي عمل على إنشاء السفور محمد حسين هيكل المفكر والسياسي الشهير الذي عاد من بعثته من أوروبا في عام 1912، وطه حسين الذي عاد إلى مصر مضطرًا في أثناء الحرب لانقطاع الدعم المالي عن بعثته، ثم ما لبث أن رحل إلى فرنسا من جديد في أثناء الحرب العالمية الأولى بعد توافر الدعم المالي لبعثات الجامعة، ومنصور فهمي الذي أعد رسالته للدكتوراه في فرنسا في عام 1913 عن حالة المرأة في التقاليد الإسلامية وتطوراتها ونشأ في شأنها نزاع فكري في الصحف المصرية، ولم يدافع عنه إلا لطفي السيد على صفحات الجريدة. انظر: محمد جابر الأنصاري، تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي، 1930-1970، عالم المعرفة؛ 35 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1980)، ص 21 و23.

(4) السفور (11 حزيران/ يونيو 1915).

السفور من القوى المتصارعة في الحرب العالمية الأولى، أي هل كان الليبراليون المصريون مع الحلفاء بزعامة إنكلترا أم مع دول الوسط بزعامة ألمانيا؟ أم وقف الليبراليون المصريون على الحياد لا مع هذا ولا مع ذاك انتظارًا لما تسفر عنه الحرب؟

ليس هذا السؤال نظريًا في إطار التاريخ المصري الحديث، لكنه محاولة لرصد موقف التيار الليبرالي المصري من الحلفاء في أثناء الحرب العالمية الأولى، مقارنةً بمواقف التيارات الفكرية والشعبية الأخرى.

في تلك الأثناء، كان هناك شعور شعبي مصري لا يستهان به مناوئ للحلفاء، يميل إلى حدٍ ما نحو دول الوسط. وتفسير ذلك يعود إلى وازع وطني لاحتلال إنكلترا – رأس الحلفاء – مصر منذ عام 1882، وفرضها الحماية عليها في عام 1914، وإلى الأزمات الاقتصادية التي تعرض لها الشعب المصري في أثناء الحرب العالمية الأولى. أضِف إلى ذلك أهمية الوازع الديني بانضمام الدولة العثمانية – ممثلة الجامعة الإسلامية – إلى دول الوسط وعلى رأسها ألمانيا ضد إنكلترا، ثم الحملة العسكرية التركية التي سميت «حملة قناة السويس» للاستيلاء على القناة وقطع خطوط المواصلات البريطانية مع الهند أو تحرير مصر وإرجاعها إلى حظيرة الخلافة العثمانية الإسلامية كما رآها التيار الشعبي المصري آنذاك.

يعبّر نجيب محفوظ في رائعته الثلاثية عن خيبة أمل هذا التيار بعد فشل دول الوسط في الحرب على لسان فهمي عبد الجواد – أحد شخصيات روايته – طالب الحقوق الذي يستشهد في ثورة 1919 قائلًا: «غُلِب الألمان! من كان يتصور هذا؟ لا أمل بعد اليوم في أن يعود عباس أو محمد فريد، كذلك آمال الخلافة قد ضاعت. لا يزال نجم الإنكليز في صعود ونجمنا في أفول، فله الأمر»[5].

يروي محمد عبد الله عنان في ذكرياته عن فترة دراسته في مدرسة الحقوق ميله نحو دول الوسط في بداية الحرب ثم الشعور بالإحباط الذي أصابه بعد ذلك قائلًا: «كنا نحب ألمانيا بعطفنا منذ البداية وكنا نثور حماسًا كلما وقع تقدم أو انتصار جديد ضد إنكلترا وفرنسا». ثم يصف حالة اللامبالاة في صفوف الشعب

(5) نجيب محفوظ، بين القصرين (القاهرة: دار الشروق، 2006).

المصري بعد انهيار أحلامهم المعقودة على ألمانيا نتيجة توالي الهزائم في الفترة الأخيرة من الحرب قائلًا: «ولما طال أمد الصراع وامتد خلال أعوام دراستي الأربعة أصبحت حوادث الحرب أمرًا عاديًا لا نعلق عليها كبير اهتمام»[6].

لم تُخف السفور تأييدها المعنوي للحلفاء في أثناء الحرب، وجاء على لسان أحد كتابها: «يسرني أن يزيد الله الحلفاء انتصارًا»[7]، وهكذا تميز موقف التيار الليبرالي المصري من موقف قطاعات شعبية وفكرية أخرى. وفي رأينا أنه لا يمكننا اتهام موقف التيار الليبرالي وتأييده المعنوي للحلفاء بالخيانة الوطنية أو الوقوف مع أعداء الإسلام ضد دولة الخلافة، فتفسير موقف التيار الليبرالي يأتي من معايير مختلفة.

يبدو لنا أن موقف التيار الليبرالي المعاصر للحلفاء كان متسقًا مع ذاته وأيديولوجيته إلى حدٍ كبير. فلم يكن هذا التيار في يوم من الأيام من غلاة الوطنيين، وكان يدعو إلى محاولة الاستفادة من الوضع الإجباري الذي يفرضه الاحتلال البريطاني لمصر ليحقق المجتمع المصري درجة عالية من الرقي الاجتماعي تمكّنه من المطالبة بالاستقلال. كما اهتم هذا التيار منذ البداية بالمسألة الدستورية وقدّمها على الاستقلال. لذلك، دخل هذا التيار في صراع مبكر مع القصر. كما هادن حزب الأمة - الممثل السياسي لهذا التيار - الاحتلال البريطاني. وبالنسبة إلى الوازع الديني والموقف من الخلافة العثمانية، حسم هذا التيار مبكرًا موقفه من مسألة ارتباط مصر بالخلافة العثمانية ورفضه أي تبعية لها، ودعوته إلى القومية المصرية الخالصة، وتجاوز لغة المشاعر والعواطف التي تريد ربط مصر بروابط مع الدولة العثمانية أو مع البلدان الإسلامية الأخرى[8].

من ناحية أخرى، أثار اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى جدلًا كبيرًا في

(6) مصر في عيون أبنائها: ثلثا قرن من الزمان: مذكرات محمد عبد الله عنان، كتاب الهلال (القاهرة: مؤسسة دار الهلال، 1988)، ص 36.

(7) السفور (1 تشرين الأول/ أكتوبر 1915)، اكتفى كاتب المقالة بالتوقيع بحرف «م» وهو أسلوب لجأ إليه كُتاب السفور كثيرًا.

(8) أحمد زكريا الشلق، «الجماعة الإسلامية والقومية المصرية في فكر أحمد لطفي السيد،» في: حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية (قطر: جامعة قطر، 1987)، ج 10.

صفوف التيار الليبرالي المصري. فهذا التيار الذي استقى فكره وثقافته من أوروبا وجد هذه القارة التي تربطه بها وشائج فكرية ونفسية فجأة تدفع نفسها دفعًا نحو حرب ضروس تلتهم الحضارة التي كثيرًا ما تغنى بها التيار، فكان عليه أن يقدم تفسيرات مقبولة لهذا الوضع الذي وصلت إليه أوروبا. من هنا، دار على صفحات السفور نقاش حاد وطويل بين أهم رموز هذا التيار في محاولة لتفسير حالة الحرب التي تعيشها أوروبا. فرأى محمد حسين هيكل أن هذه الحرب «إن هي إلا نزوات الطيش تصيب الإنسانية حين ترى أن قد طال متاعها بالسكينة، وحين تنسى الويلات الكبيرة التي تجرها الحروب المستعرة».

كان الطرف الآخر في هذا الحوار هو طه حسين الذي امتدح الحرب الدائرة في أوروبا آنذاك، معللًا ذلك بأن «الحرب تخلق الحضارة» وأن حالة الحرب الحاضرة تخلق «حضارة التنافس»[9].

هكذا، تحدّدت معالم الخلاف بين قطبي هذا التيار. فهيكل يؤمن بمبدأ «الإخاء والسلام الذي تطمع فيه الإنسانية»، وبأن هذه الحرب - مع كرهه لها - ستقضي حتمًا على «مبدأ الأثرة واستعباد الضعيف» لتخرج لنا أوروبا جديدة أساسها المدنية والسلام، وبأن الحرب لا بد لها من أن «تزول حتمًا من العالم»[10]. يرد طه حسين على هيكل موضحًا أهمية الحرب من أجل السلام قائلًا: «إن السلم حين أرادت أن تتأيد وتشمل برحمتها أبناء الإنسان لم تستطع أن تظفر بذلك حتى لجأت إلى عدوتها الحرب فسألتها المعونة والنصر، ورغبت إليها في المؤازرة والتأييد»[11].

هكذا، ثار الخلاف بين هيكل وحسين في شأن الحرب والسلام وحضارة المدنية وحضارة التنافس، ودخل في هذا الحوار الثنائي محاورٌ ثالث[12]، حاول البحث عن أسباب الخلاف الفكري بين هيكل وحسين من خلال المنابع الفكرية

(9) السفور (19 تشرين الثاني/ نوفمبر 1915).

(10) السفور (24 كانون الأول/ ديسمبر 1915).

(11) السفور (26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1915).

(12) لم يذكر الكاتب اسمه واكتفى بالتوقيع بحرف «م»، وربما يكون هو منصور فهمي أحد كُتاب السفور، والجدير بالذكر أن طه حسين كان يوقع مقالاته السابقة تحت اسم «تاسيت» ثم كشف الحوار اسمه.

الأولية لكليهما، ورأى أن دعوة هيكل لاحترام السلام وحضارة المدنية تنبع من طبيعة ثقافته، ففلسفة الأستاذ المحامي فلسفة دعم وسلم. ودعوة حسين إلى الحرب وحضارة التنافس ترجع إلى جذوره الفكرية الأولى التي استقاها في أثناء دراسته في الأزهر، أي «فلسفة الأزهري القديم فلسفة مسلحة»(13).

كان واضحًا عند السفور أن عالم ما بعد الحرب العالمية الأولى سيختلف كليةً عمّا قبله، وأن هذه الحرب بشير بعالم جديد وحضارة جديدة ستطبع صورتها على أوروبا، فهذه الحرب «قامت لإعلان إفلاس المبدأ القديم وبشيرًا بالمبدأ الجديد»(14).

مع ذلك، لم تؤثر الحرب العالمية الأولى وحوادثها الدامية ونزعاتها الاستعمارية في ولع الليبراليين المصريين بأوروبا وحضارتها، فظلت المنبع الذي يستقون منه الحضارة، و«البلاد الحية في سلمها وحربها المملوءة بالأمل في سرائها وضرائها»(15).

يصل الولع بأوروبا ذروته عند طه حسين، ولا يقتصر على الجانب الحضاري وحده، إنما يؤججه الدافع العاطفي. أجبرت أوضاع الحرب طه حسين على قطع بعثته التعليمية في فرنسا والعودة إلى القاهرة، ما ترك جراحًا عميقة في نفسه، ويتضح ذلك جليًا في ذكريات طه حسين التي نشرها على صفحات السفور، إذ كتب يقول: «أذكر في هذه الساعة ثلاثة أيام، يوم ولدت ويوم سافرت إلى أوروبا وهذا اليوم الذي ستتكشف عنه الليلة التي تجنني»، وهي ليلة وقوعه في الغرام. ويعبّر طه حسين عن حنينه إلى فرنسا ورغبته في العودة إليها ثانية غير عابئ بحوادث الحرب الدامية في أوروبا، قائلًا: «أنا لليلة أرجو ألا يصبح عليَّ الغد إلا وقد رحلت إلى حيث لا يرجع ظاعن ولا يرجى لمرتحلٍ إياب»(16).

---

(13) السفور (17 كانون الأول/ ديسمبر 1915).

(14) السفور (19 تشرين الثاني/ نوفمبر 1915).

(15) السفور (تشرين الأول/ أكتوبر 1915).

(16) السفور (19 تشرين الثاني/ نوفمبر 1915). يقول طه حسين عن هذه الفترة: «مكثت عامًا في مونبيليه وكنت قد بدأت الدراسة بها ثم ساءت حالة الجامعة المالية فأعادتنا في أخر عام 1915، ومكثت ثلاثة أشهر في مصر وما أحسبني تألمت في حياتي تألمًا في هذه الشهور الثلاثة، وأثر هذه الألم لانقطاع دراستي قد ظهر في مقالات بجريدة السفور، وبعد ذلك ساعد المغفور له السلطان حسين الجامعة فأعادنا إلى باريس». انظر: سامي الكيالي، مع طه حسين، اقرأ؛ 112 (القاهرة: دار المعارف، [1952])، ص 24.

استمر التيار الليبرالي ينظر إلى أوروبا على أنها المثل الذي يحتذى به لنهضة الشرق، وأن أوروبا حتى في فترة الحرب لا تزال تقدم تجارب ينبغي أن يأخذ بها الشرق إذا أراد النهوض «الدروس البالغة التي تلقيها علينا أمم الغرب في الحرب الحاضرة»[17]. فلم يكن غريبًا أن يكتب هيكل: «ما دامت المدنية الأوروبية هي الغالبة، وما دامت تجتاح بلادنا وتحتلها من أقصاها أردنا ذلك نحن أو لم نُرِد وكان ذلك لخيرنا أو لشرنا وما دامت الجامعة المصرية جامعة القاهرة الآن - تعاون هذه المدنية اعتقادًا منها أن ذلك لمصلحة البلاد فمن التناقض المعيب أن يطالب أحد أعضاء مجلس الإدارة رجلًا ممن كلّفتهم الجامعة بالعمل لنقل المدنية الأوروبية إلى مصر أن يكون شرقيًا في زيه غربيًا في أفكاره وإحساسه متناقضًا في ذلك مع نفسه»[18].

في إطار الاستفادة من دروس أوروبا في الحرب العالمية الأولى، تأتي إشارة أحد كُتاب السفور[19] إلى حرية الصحافة الأوروبية حتى في أثناء الحرب، وجرأة هذه الصحافة في نقد مسؤولي البلدان الأوروبية، بينما تكبل الصحافة المصرية في هذه الثناء بقيود الرقابة، حتى إن السفور ذاتها منعت من الكتابة السياسية عن حوادث الحرب: «إن الصحف الأوروبية لا تفتأ تذكر كلما ارتقى إلى مراكز السلطة أحد كبار خصومها السياسيين ما تم على يديه من الاختلاس والنهب مما لا يدور بخلد صحيفة مصرية في أي زمن من الأزمنة أن تجيء على ذكره»[20]. وتضرب السفور على ذلك بمثل من الصحافة الفرنسية والاتهام الذي وجهه صحافي فرنسي لأحد الوزراء بأنه قبل هدايا سرية من الحكومة الألمانية، وهو اتهام يمكن وصفه بالخيانة الوطنية.

لفتت أحد كُتاب السفور صورة منشورة في إحدى الجرائد المصرية لقائد فرنسي في وسط جمع من الأطفال الأيتام في ميدان المقعدين (Place des invalids) في باريس، يضع على صدورهم الأوسمة تكريمًا لذكرى استشهاد آبائهم، «أوسمة دفع فيها آباؤهم نفوسًا غير رخيصة في سبيل الوطن العزيز وخلفوها لأبنائهم ميراثًا جميلًا».

(17) السفور (9 حزيران/ يونيو 1916).
(18) السفور (31 تشرين الأول/ أكتوبر 1915).
(19) وقع كاتب المقالة تحت اسم مستعار هو «فلاح».
(20) السفور (29 تشرين الأول/ أكتوبر 1915).

تدفع هذه الصورة الكاتب إلى محاولة الاستفادة من تجارب الأمم الغربية في تربية الأطفال تربية شبه عسكرية، والاستفادة من «المظاهر التي ساقتها ظروف الحرب إلينا لنقرأ منها فصلًا جميلًا من فصول التربية الوطنية في تربية الأطفال». ويدعو الكاتب إلى تطبيق فكرة جديدة في مصر، هي إنشاء جمعيات الكشافة التي برزت في أوروبا في أثناء الحرب العالمية الأولى، يقول: «أطلقوا اسم الكشافة على هذه الفرق المؤلفة من الأطفال ليتهيأوا، رويدًا رويدًا، حتى يكونوا جنودًا أشداء عند حاجة البلد إليهم».

يوجه الكاتب نقدًا لاذعًا لأسلوب التربية الوطنية المتدني للطفل في مصر مقارنة بما يحدث في أوروبا بعد أن أثارته الصورة السابقة، فينتقد قصر عابدين نفسه: «ليست ساحة عابدين في مصر بأضيق بكثير من ساحة المقعدين في باريس. على أن الثانية طالما تلقن فيها الأبناء دروسًا من دروس الوطنية العملية»[21].

لم يقتصر تأثر المثقفين الليبراليين المصريين بالأفكار العلمانية الأوروبية التي رأوا أنها الأساس الذي قامت عليه نهضة أوروبا فحسب، وإنما اتضح إلى حدٍ ما تأثير الإصلاح الديني الذي عرفته أوروبا في مطلع العصور الحديثة في التيار الليبرالي المصري، «أن يكون لهم في أمثال مارتن لوثر وكالفين ونوكس خير قدوة يحتذى بها للصبر على المكاره، فلا يهيجهم شتائم حزب المحافظة ورجال القديم»[22].

كما تأثر هؤلاء المثقفون بالفكر السياسي الإيطالي الحديث، خصوصًا بالمفكر الإيطالي المعروف مازيني ونجاحه في الدعوة إلى الوحدة الإيطالية، وأعجبوا بمبادئ مازيني ودعوته إلى احترام حقوق المواطنين كي يقوم المواطن بواجباته خير قيام تجاه وطنه، وإنه لا سبيل إلى الإصلاح من دون احترام هذا المبدأ «أفمن رعاية للحقوق فلتعيشوا اليوم في كنف القيام بالواجب»[23].

من الموضوعات التي أثيرت على صفحات السفور صورة المرأة الأوروبية

(21) السفور (28 نيسان/ أبريل 1916).
(22) السفور (5 تشرين الثاني/ نوفمبر 1915).
(23) السفور (5 تشرين الثاني/ نوفمبر 1915).

وأوضاعها المعاصرة، وكثيرًا ما عقد كُتاب السفور مقارنات عدة بين المرأة الأوروبية والمرأة المصرية، ولم تكن المقارنة بطبيعة الحال في مصلحة الأخيرة.

من النقاط التي لفتت كُتاب التيار الليبرالي في أثناء معالجتهم صورة المرأة في أوروبا مسألة العفة عندها، وعلاقاتها المتحررة بالجنس الآخر، وهو أول سؤال يطرح نفسه في ذهن الرحالة الشرقيين إلى أوروبا آنذاك. إذ نشرت السفور رسالة من مصري مقيم في لوزان، سويسرا إلى صديقه في القاهرة يوضح إلى حد بعيد خطورة الأفكار المسبقة عن المرأة الأوروبية وتحررها من العفة وعدم احترامها الواجبات الزوجية، قال فيها: «ذكرت ما كنت تكرره على مسامعنا من أن كل إصلاح اجتماعي يحاول إدخاله على وسطنا المصري غير مُجد نفعًا ما دامت المرأة المصرية على حالها من الجهل وعدم الكفاءة، لا أنس تلك الأمثال المحسوسة التي كنت تضربها لنا من نساء هذه البلاد العاملات المُجدات، ولا أكذبك القول أني كنت لا أكاد أصدق ما تحدثنا به عن أخلاق المرأة السويسرية وآدابها، لأنني كنت أعتقد أن المرأة التي تعطى هذا القسط من الحرية لا يمكن أن تحافظ على واجبات الزوجية ومبادئ العفة إلى الحد الذي كنت تصوره لنا، على أنني لم ألبث بعد أن اختبرت أحوال القوم هنا أن تحققت صدق كل ما حدثتنا به»[24].

روت السفور قصة شاب مصري سافر إلى فرنسا، فتعرَّف هناك إلى امرأة فرنسية وابنتها، وكان الشاب متهيبًا في البداية من الحديث معهما، لكن رويدًا رويدًا دارت الأحاديث بينهم واتسعت موضوعاتها. ويتعجب الشاب لأنه رأى «من ذكاء السيدة فهمًا واطلاعًا لا عهد له بها في النساء وكان ذلك يوحي إليه معنى من معاني الاحترام للأم وابنتها ويقلل من نفرته من سفورهما ومخالطتهما للرجال»[25].

يُعجب كُتاب السفور بحركة المساواة بين الرجل والمرأة في أوروبا، وأن معظم زعماء حركة المساواة من الرجال، وما تقابل به هذه الحركة من تأييد واسع من عامة الشعب، ولا سيما في مجال المطالبة بمساواة المرأة الأوروبية

(24) السفور (24 أيلول/ سبتمبر 1915)، والرسالة بتوقيع ح. إبراهيم.
(25) السفور (16 حزيران/ يونيو 1916).

مع الرجل في الحقوق الانتخابية. يعقد كُتاب السفور مقارنةً ساخرة بين أوضاع المرأة المصرية وأوضاع نظيرتها الأوروبية، «الفرق بيننا وبينهم هائل جدًا وهذا الفرق طبيعي، فإن القوم هناك ذاقوا حلاوة رقي المرأة فأرادوا الزيادة من تلك، أما نحن فإننا نشرب المُر من جهل نسائنا فننفر حتى من حديث إصلاحهن ولا نمُد لإنقاذهن يدًا»[26].

يعقد محمد حسين هيكل مقارنة بين أوضاع المدن الأوروبية والمدن المصرية، متخذًا من مدينة بورسعيد مثالًا، مشيرًا إلى حالة التخلف العمراني التي عليها المدن المصرية، مقارنةً بالمدن الأوروبية، فيكتب: «هذه أول مرة زرت فيها بورسعيد ولا أدري إن كان مظهر البلد حقيقة مظهرًا قذرًا أو أن مقابلتي إياها بالمدن الأوروبية التي عشت فيها سنتين هي التي جعلتني أحكم عليها هذا الحكم، إذ بالرغم مما كنت أسمعه من أهلها من مدح تنظيم مدينتهم وجمال ترتيبها والمشروعات التي نفذت والمنوي تنفيذها فيها، لم تكن هاته المنازل القليلة الارتفاع الترابية اللون على الأغلب لتثبت لنفسي الثقة بقولهم، وقد أثارت المدينة في نفسي ذكرى بعض القرى التي زرتها حين سياحتي في فرنسا، وإن كان بعض الشوارع مما رأيت يدل على ترتيب جديد يدعوا إلى الأمل بتنظيم هذه المدينة»[27].

في أثناء الحرب العالمية الأولى، استحسن بعض المثقفين المصريين بعض العادات الأوروبية التي تعرف إليها في أثناء إقامته في أوروبا، ومن هنا عمل على الدعوة لترويجها في صفوف المجتمع المصري حتى أصبحت الآن عادات يتقبلها الشرقي ويحرص على القيام بها، ولا سيما في مجتمعات المدن. من ذلك إشارة طه حسين إلى استحبابه لما رآه في أوروبا من إقامة احتفال للشخص في ذكرى يوم ميلاده «عيد الميلاد» حيث يجتمع مع أسرته وأصدقائه ليتقبل التهاني والهدايا ويتذكر ماضي حياته ويترسم مستقبله ويعيش في جو من «اللذة لا يشعر به الشرقي ولا يجد له في نفسه حسه»[28]. وإذا كانت دعوة «عيد الميلاد» غريبة على المجتمع المصري في ذلك الوقت، فإنها تجد قبولًا واستحسانًا الآن، ولا سيما في أوساط البيئة الحضرية المصرية.

---

(26) السفور (24 أيلول/ سبتمبر 1915)، والرسالة بتوقيع شارب مُر.

(27) السفور (28 نيسان/ أبريل 1916).

(28) السفور (19 تشرين الثاني/ نوفمبر 1915).

من العادات الأخرى التي لفتت المثقفين المصريين في أثناء وجودهم في أوروبا فكرة «شهر العسل» وسفر الزوجين بعد الزواج مباشرةً لقضاء فترة ناعمة هادئة في مكان بعيد عن الأهل والأسرة، أو على حد تعبير بعض هؤلاء المثقفين لتتوافر لهما الحرية التامة بعيدًا عن الأهل والأسرة[29].

هكذا، حافظ التيار الليبرالي المصري على تأييده المعنوي للحلفاء في أثناء الحرب العالمية الأولى، وتباين موقفه عن مواقف تيارات فكرية أخرى عرضنا لها في بداية بحثنا، وهكذا أيضًا لم تخدش الحرب العالمية الأولى الصورة الحضارية التي رسمها التيار الليبرالي المصري لأوروبا واستمرت أوروبا في نظرهم «البلاد الحية في سلمها وحربها، المملوءة بالأمل في سرائها وضرائها»[30].

---

(29) السفور (8 تشرين الأول/ أكتوبر 1915).

(30) السفور (8 تشرين الأول/ أكتوبر 1915).

الفصل الخامس عشر

أثر الحرب العالمية الأولى
في مجتمع شبه جزيرة سيناء

أيمن محمد أحمد عيد

قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، اتّسم مجتمع سيناء بصبغةٍ اقتصادية واجتماعية فُرضت عليه، نتيجة طبيعة الأرض والموقع الجغرافي لشبه جزيرة سيناء؛ إذ كان يمارس نشاطًا اقتصاديًا تلاءم مع طبيعة الأرض، الأمر الذي أتاح الفرصة للسكان لامتهان حرفة الصيد، وتجارة الإبل التي كانت وسيلتهم الوحيدة للانتقال من مكان إلى آخر، ثم صاروا خبراء بشؤون صحرائهم.

مع اندلاع الحرب، تحولت سيناء مسرحًا مُهمًا للعمليات العسكرية للقوى المتصارعة، الأمر الذي كان له بالغ الأثر في المنطقة ومجتمعها القبلي. فكانت الحرب نقطة تحول مُهمة في تاريخ شبه جزيرة سيناء ومجتمعها، بسبب التغيرات الكبرى التي مرت بها خلال هذه الحرب، وكان لها الأثر الكبير في تاريخها اللاحق.

كان مقتل الأرشيدوق النمساوي فرانز فرديناند، ولي عهد أسرة هابسبرغ في سراييفو، في 28 حزيران/ يونيو 1914، الشرارة التي أشعلت حرب عالمية. البداية كانت مع تأكيد التحالف الروسي - الفرنسي في عام 1893، ثم عقدت بريطانيا وفرنسا الوفاق الودي في عام 1904، وتأكيد الوفاق البريطاني - الروسي في عام 1907، كما زادت المصالح الألمانية في الدولة العثمانية قُبيل اندلاع الحرب، بينما ازدادت الفجوة بين الروس والأتراك عندما رغبت الأولى في تقويض الدولة العثمانية[1]، وبهذا أصبح الطرفان على استعداد للمواجهة. في هذه الدراسة، نحاول توضيح كيف كانت هذه الحرب سببًا في تغير توجهات البدو وسكان سيناء واقتصادها.

---

(1) عن التحالفات التي تمت قبل الحرب العالمية الأولى، انظر: عبد العزيز سليمان نوار وعبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر: أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية (بيروت: دار النهضة العربية، 1973)، ص 323-363، وأ. ج. جرانت وهارولد تمبرلي، أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين 1789-1950، ترجمة بهاء فهمي؛ مراجعة أحمد عزت عبد الكريم (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، 1965)، ج 2، ص 56-88.

أولًا: الأهمية الاستراتيجية لموقع شبه جزيرة سيناء الجغرافي

تقع شبه جزيرة سيناء بين ذراعي البحر الأحمر إلى شرق دلتا النيل وشمال غربي بلاد العرب وإلى الغرب والجنوب الغربي لشرق الأردن وفلسطين وسورية، فهي نقطة اتصال بين الجنوب الغربي لقارة آسيا والشمال الشرقي لقارة أفريقيا، وبعبارةٍ واضحة تُعتبر سيناء بوابة يدخل منها الغاصب ليعتدي على مصر.

سيناء – شكلًا – أشبه بمثلث منتظم، طوله من الشمال إلى الجنوب 400 كلم، ومن الشرق إلى الغرب 200 كلم، وترتكز على قاعدة كالمستطيل يشكل خليجا العقبة والسويس ضلعيه، ويرتكز رأسه في أقصى الجنوب عند رأس محمد، وتُحيط به المياه من ثلاث جهات، فيَحده البحر المتوسط من الشمال، وخليج العقبة وخط الحدود مع فلسطين من الشرق، ثم خليج السويس وقناتها من الغرب[2].

تقسم سيناء ثلاثة أقاليم طبيعية من الشمال إلى الجنوب: المنطقة الشمالية المعروفة اصطلاحًا بسهول العريش، وتمتد بين رفح وبورسعيد، وتتميز بالسهول والكثبان الرملية والهضاب الممتدة حتى جنوب مدينة السويس، وشرقها مُحاذ للساحل الذي يراوح عرضه بين 8 كلم و24 كلم. تخترق هذه المنطقة طريق ساحلية تبدأ من القنطرة وتمر بقاطية ورمانة وبير العبد والعريش ورفح، وتتوافر فيها المياه بفضل ما يسقط عليها من أمطار، كما يخترقها وادي العريش الذي يمتد من جبال التيه جنوبًا إلى البحر المتوسط، وعلى روافده أهم مناطق الآبار والمناطق الاستراتيجية، كبئر لحفن والكونتيلا وبير التمد وأبو عجيلة والقسيمة والعوجة. وهناك ارتباط وثيق بين روافد هذا الوادي وطرق المواصلات التجارية الاستراتيجية[3].

المنطقة الوسطى هضبة حجرية ترتفع 300 قدم، وتُمثل ثلثي مثلث شبه الجزيرة. تقع على منحدراتها الغربية معظم مناجم سيناء المعدنية، خصوصًا مناجم المنغنيز والفوسفات، وتغلب عليها الصخور الطباشيرية[4].

---

(2) Ned H. Greenwood, *The Sinai: A Physical Geography* (Austin: University of Texas Press, 1977), p. 9.

(3) حسان محمد عوض، «جغرافية شبه جزيرة سيناء،» في: موسوعة سيناء (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982)، ص 8.

(4) ممر متلا: هو هجاء خاطئ للاسم، إذ يعرف عند البدو (أم أثلة) وهو خطأ كثيرًا ما نقع فيه نتيجة اعتماد الخرائط الإنكليزية، انظر: درويش مصطفى الفار، «سيناء ودروب الحاج،» مجلة الدوحة، العدد 79 (تموز/يوليو 1982)، ص 30.

أما المنطقة الجنوبية فكتلة صخرية جبالها شديدة الانحدار وبينها جبل الطور، تتسم بالوعورة والارتفاع[5]، إضافة إلى الأودية والفتحات والممرات. فهناك ممر بين جبلي حيطان والراحة[6]، وممر الختمية بين جبل الختمية وجبل أم خشيب[7]. ووفقًا لرؤية جمال حمدان، يمكن تقسيم الجزء الشمالي مثلثين: شمالي يحده جنوبًا خط السويس - رفح، وهو حلقة وصل مباشرة بين مصر والشام؛ وجنوبي هو منطقة العزلة والالتجاء والفصل. يحمل الأول شرايين الحركة المحورية والحبل السري بين القارتين، بينما الثاني منطقة طرد والتجاء تأوي إليها العناصر المستضعفة[8].

تتألف خطوط الدفاع الأساسية التي اعتمدتها القيادة البريطانية لمواجهة الحملات العثمانية المتتالية، من:

- **خط الدفاع الأول**: هضبي مرتفع في الجنوب، سهلي منخفض في الشمال، يقع قرب الحدود السياسية لمصر، ويمتد أساسًا من رأس خليج العقبة حتى العريش. القطاع الجنوبي من الخط الحدودي حساس جدًا، تتقارب فيه حدود مصر وفلسطين المحتلة والأردن والسعودية، بينما يمثل القطاع الشمالي، الذي ينتهي بالعريش، الممر الطبيعي بين سهول سيناء وفلسطين، ومركز الثِقل والخطر كله، حيث تجتمع في نهايته محاور سيناء الاستراتيجية الثلاث: العريش في الشمال، أبو عجيلة في الوسط، القسيمة في الجنوب[9].

- **خط الدفاع الثاني**: هو خط المضايق ويقع في قلب سيناء وقطبها مرابها جنوبًا، ومضيق الجفجافة شمالًا؛ يتميز بجباله الوعرة في جنوبه، ويتحول بحرًا من الرمال والمستنقعات غير صالح للاختراق في شماله، لكن إذا تمت السيطرة عليه فتصير الطريق مفتوحة إلى قناة السويس غربًا[10].

---

(5) وجيه ضياء الدين، «جيوبوليتيكية سيناء والأمن القومي المصري،» السياسة الدولية، السنة 10، العدد 38 (تشرين الأول/ أكتوبر 1974)، ص 928.

(6) المصدر نفسه، ص 9.

(7) المصدر نفسه، ص 10.

(8) جمال حمدان، سيناء في الاستراتيجية والسياسة الجغرافية (القاهرة: مكتبة مدبولي، 1993)، ص 7.

(9) قسم المناخ بمصلحة الأرصاد الجوية، وزارة الحربية، مناخ شبه جزيرة سيناء، في: موسوعة سيناء، ص 168.

(10) وجيه عبد الصادق عتيق، «العرب والحرب العالمية الأولى،» ورقة قُدمت إلى ندوة العرب وأوروبا عبر عصور التاريخ، عقدها اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة 16-18 تشرين الثاني/ نوفمبر 1999، ص 599.

- **خط الدفاع الثالث:** هو قناة السويس نفسها، أو منطقة البرزخ قبل شقها.

هكذا، يتضح لنا أن سيناء منطقة فصل ووصل في آن واحد، استغلت الدولة العثمانية والقيادة البريطانية موقعها الذي تجتمع فيه مصر والشام والجزيرة العربية، بشرًا وتضاريسًا. فالسهل الساحلي لسيناء استمرار لسهل فلسطين، وهضبتها الوسطى امتداد لصحراء الشام، وجبالها الجنوبية نقطة التحام بين جبال حافتي الأخدود العظيم في الجزيرة العربية وحوض النيل، ما يؤكد لنا أن المستطيل الشمالي، بموقعه وتضاريسه، كان دائمًا طريق الحرب ومسرحها، كما هو طريق التجارة، سواءً في قديم العصور أم في حديثها. فمن يسيطر عليه يسيطر على سيناء تلقائيًا[11].

في الباقي من هذا الدراسة نتبيّن كيف أستغل الطرفان - العثماني والبريطاني - موقع سيناء الاستراتيجي ومجتمعها خلال الحرب العالمية الأولى.

ثانيًا: اقتصاد مجتمع سيناء قبل الحرب

فرضت طبيعة أرض شبه جزيرة سيناء وموقعها الجغرافي على مجتمعها ممارسة نشاط اقتصادي ملائم لهما، مثل نقل البضائع والمسافرين. فهي الطريق الرئيسة لنقل البضائع والمسافرين بين مصر والشام، وهي همزة الوصل البرية بين مصر والحجاز وفيها تمر طريق حُجاج مصر وبلاد المغرب إلى الأراضي المقدسة. وهذا ما أغرى بعض القبائل في مصر بالهجرة إلى سيناء كي يتولى عملية النقل، وتقديم الإبل اللازمة للتجار والمسافرين والحجاج، وحراستهم.

ليتحكّم بدو سيناء في أجور النقل - وهم غالوا فيها - قسموا شبه الجزيرة درجات[12]، ومنعوا أي قبيلة بتجاوز حدود منطقتها[13]. ومع افتتاح قناة السويس وإقامة نقاط الحجر الصحي في القنطرة والإسماعيلية والسويس، التي كانت

(11) J. C. Hurewitz, *Diplomacy in the Near and Middle East: A Documentary Record*, 2 vols. (Princeton, NJ: Van Nostrand, [1956]), vol 2: *1914-1945*, p. 10.

(12) المصدر نفسه، ص 10.

(13) Oliver J. Thatcher and Ferdinand Schwell, *A General History of Europe (part II. 1500-1922)*, 8 vols. (London: [s. n.], 1923), pp. 564-566.

تحصّل عوائد «كورنتينة» على الحيوانات، انتهت الرحلات عند هذه النقاط الصحية لتوفير المبالغ التي سيدفعونها إذا عبروا القناة[14].

بلغت أجرة الجمل من العريش إلى القنطرة حوالى 150 قرشًا للجمال المؤجرة للحكومة، وكثيرًا ما كان أصحابها يَشكون من قلة الأجرة وعدم كفايتها لدفع العوائد بالقنطرة[15]. في الجنوب، كانت الحكومة تدفع مبالغ سنوية كبيرة في مقابل حراسة البدو لدركات طريق الحج المختلفة وحماية قوافل الحج، وعهدت الحكومة بهذه الحراسة إلى قبيلة العايد، فكان رجالها يقدمون الإبل لنقل المحمل من القاهرة إلى العقبة. بعد افتتاح قناة السويس، اضطرت القبيلة إلى ترك البادية، واستقر أفرادها في مدينة بلبيس، مديرية الشرقية، فانتقل التزام الحراسة إلى عرب الشرقية والقليوبية بالتناوب. ومع توقف سير المحمل عبر البر وسفره عبر البواخر من السويس، توقفت الحكومة عن تأجير جِمال العربان[16].

مارس سكان شواطئ شبه جزيرة سيناء صيد الأسماك، وكانت أهم مراكز الصيد في بحيرة البردويل في شمالها، وكان نظام المصايد يسير وفق نظام الالتزام لمن يدفع أعلى سعر في السنة[17]. وكان أسلوب الصيد يتم بغلق مدخل البحيرة، ثم اصطياد الأسماك بالمراكب الصغيرة[18]، فتصدر إلى مدن الشام، خصوصًا يافا، عن طريق جمرك العريش بأوراق مختومة من شيخ عربان الأخارسة المنوطة به حراسة البحيرة وشواطئها[19].

---

(14) فون كريس، من ضباط المدفعية في الجيش الألماني، ومن أبناء أسرة عريقة من نبلاء بماريا. قدم إلى تركيا ضمن البعثة العسكرية الألمانية لإعادة تنظيم الجيش العثماني، انظر: علي فؤاد [بك]، كيف غزونا مصر: مذكرات الجنرال التركي علي فؤاد، نقله إلى العربية نجيب الأرمنازي، مذكرات سياسية معاصرة (بيروت: دار الكتاب الجديد، [1962])، ص 16.

(15) علي فؤاد [بك]، الحملة المصرية، أو، من باريس إلى صحراء التيه: فصول عسكرية ومطالعات سياسية في حروب الأتراك وثورة العرب وغير ذلك من المسائل المهمة التي تتعلق بالحرب العظمى، نقله إلى العربية نجيب الأرمنازي (حماه: مطبعة حماه، 1922)، ص 51.

(16) عتيق، ص 589-590.

(17) مصطفى علي هويدي، الحركة الوطنية في شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى، مراجعة صلاح الدين حسن السوري، سلسلة الدراسات التاريخية؛ 7 (طرابلس: منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، 1988)، ص 49.

(18) C. S. Jarvis, *Yesterday and to-day in Sinai* (London: W. Blackwood & Sons, 1931), p. 129.

(19) ملن شيشتهام، شغل منصب مستشار المعتمد البريطاني ثم المندوب السامي البريطاني =

النشاط التجاري لسكان سيناء، كما ذكرنا سابقًا، مرتبط إلى حدٍ كبير بالموقع الاستراتيجي لسيناء في كونها همزة وصل بين مصر والشام، ومصر وشمال الحجاز. وكان أكثر ما يتم الإتجار به هو الإبل والأغنام والفيروز، ومقايضتها بالحبوب والأقمشة التي يتم شراؤها من مدن القناة والدلتا. وكان هذا النشاط يُمارس من أجل الحصول على القوت اليومي، وليس بهدف تنمية رأس المال لتكوين شركات تجارية[20]، إلى أن تغير الوضع عند اندلاع الحرب، حيث سعت الأطراف المتصارعة إلى استغلال إمكانات البدو كلها وخيرات سيناء وموقعها الاستراتيجي خلال فترة الحرب.

ثالثًا: موقف بريطانيا من غزو التحالف الألماني - العثماني سيناء

بعد نجاح الألمان في كسب الدولة العثمانية إلى صفهم، وتشجيعها على إطلاق حملة على مصر، مُستخدمين سلاح المال لإقناع القادة العثمانيين بأهمية تلك الحملة ورفع حماسهتم لها، من خلال ما أقترحه فون ساندرس، رئيس البعثة الألمانية في الجيش العثماني، على حكومته بإرسال مبلغ 100 ألف جنيه عثماني إلى وزارة الحربية العثمانية، حيث أرسلت الحكومة الألمانية المبلغ المقترح في 13 أيلول/ سبتمبر 1914، مصحوبًا برسالة شفوية ذات مغزى، نقلها فون فنغنهايم، السفير الألماني في اسطنبول، إلى أنور باشا وزير الحربية العثماني، تضمنت وعدًا بمزيد من المبالغ المالية في حال إعلانهم الحرب على دولتي الوسط[21]. ومع تطور الحوادث بشكل سريع، عقدت الحكومتان الألمانية والعثمانية سلسلة من المفاوضات العسكرية والاقتصادية. ففي 22 تموز/ يوليو 1914، قدم أنور باشا إلى سفير ألمانيا في اسطنبول مُلخصًا للتحالف الدفاعي

= أو نائب للفرع السياسي وأدّى دورًا مهمًا في إقناع السلطان العثماني بقبول العرش، وبقي يشغل منصبه مستشارًا للمندوب السامي في عهد مكماهون وونجب. ماجدة محمد حمود، دار المندوب السامي في مصر (1914-1924)، تاريخ المصريين؛ 132-133، 2 ج (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1999)، ج 1، ص 189-190.

(20) Edward Cook, *Britain and Turkey; The Causes of the Rupture, Set out, in Brief Form, from the Diplomatic Correspondence* (London: Macmillan, 1914), p. 15.

(21) إ. كيرزي، العمليات الحربية في مصر وفلسطين من أغسطس 1914 إلى يونيو 1917، نقله إلى العربية يوزباشي محمد علي فهمي وأحمد الأرفلي (القاهرة: شركة فن الطباعة، 1949)، ص 25.

ضد روسيا[22]، وبهذا أثمر الجهد الألماني عن إقناع العثمانيين بدخول الحرب إلى جانبهم، حيث عقد الطرفان معاهدة تحالف سرية في 2 آب/ أغسطس 1914، عقب إعلان روسيا الحرب على ألمانيا، تعهدا فيها بمساعدة الآخر في حال تعرضه للهجوم من روسيا[23]. كان الهدف من هذا التحالف أن تقوم الدولة العثمانية بتدبير جيشين، أحدهما من آسيا الصغرى لمهاجمة الروس في القوقاز، والثاني من سورية والعراق لمهاجمة الإنكليز في مصر[24].

جاءت فكرة غزو مصر عن طريق الحدود الشرقية (سيناء - قناة السويس) من القائد الألماني فون كرستنشتاين، الذي اشتهر باسم فون كريس[25]، خصوصًا أن قناة السويس في ذلك الوقت كانت طريق الجيوش التي تنقلها بريطانيا من مستعمراتها في آسيا وأستراليا وجزر المحيط الهادئ، وغزو مصر يعيق وصول هذه القوات إلى أوروبا[26]. وعلى الرغم من أن هذه الحملة، من وجهة نظر الساسة الألمان، لم تُكن إلا مجرد عمل عسكري محدود يهدف إلى تعطيل الملاحة البحرية في مجرى القناة في بادئ الأمر، فسرعان ما تطورت الحملة لتتحول مشروعًا كاملًا لحملة عثمانية على مصر لانتزاعها من أيدي الإنكليز، لا قناة السويس وحدها. ارتبط هذا التطور بكون الحملة تخدم مصالح ألمانيا والنمسا العسكرية، ومصالح أطراف أخرى تهدف إلى جرّ الدولة العثمانية إلى الحرب[27]، بينما وجدت فيها الدولة العثمانية فرصتها الأخيرة لاستعادة مصر من بريطانيا.

(22) فؤاد، الحملة المصرية، ص 51.

(23) ق. ب. خويري، الرحلة السورية في الحرب العمومية، 1916: أخطار وأهوال وعجائب، عني بنشرها يوسف توما البستاني (القاهرة: مكتبة العرب، 1921)، باب الخلق، ص 9.

(24) عتيق، ص 593.

(25) عارف العارف، تاريخ بير السبع وقبائلها (القدس: مطبعة بيت المقدس، 1934)، ص 251.

(26) شكري محمود نديم، حرب فلسطين، 1914-1918: دراسة علمية، ط 3 (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، 1965)، ص 25، وفتحي رزق، رباعيات سيناء (القاهرة: [د. ن.، د. ت.])، ص 141.

(27) محافظة مجلس الوزراء، نظارة الخارجية، محفظة 9/ ب، مصر في الحرب العالمية الأولى، خطة الكونتيننتال، 18 آذار/ مارس 1922، ومحمد فريد، أوراق محمد فريد، المجلد الأول: مذكراتي بعد الهجرة 1904-1911، سلسلة المذكرات التاريخية (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1978)، ص 194.

لم تكن الخطة العثمانية للهجوم على مصر مُقتصرة على الهجوم من الناحية الشرقية فحسب، بل تعدتها بأن يقوم العثمانيون بإثارة ثورات في أماكن مختلفة على حدود مصر الغربية، في السودان وإريتريا والصومال[28]، بهدف شغل بريطانيا وتشتيت جهدها وتوزيع قواتها وتفريقها، فلا تستطيع تركيز جهدها الحربي في جبهة واحدة، فيصبح من السهل هزيمتها.

على الرغم من التأكيدات العُثمانية الرسمية بعدم وجود نية لديهم بمهاجمة مصر، فإن ما حصلت عليه السلطات البريطانية من تقارير في مصر أكد قرب حدوث الهجوم العثماني عبر الحدود الشرقية. فكثيرًا ما كانت الدوريات العثمانية تخترق الحدود وتتوغل في سيناء، كما اجتهد العُملاء العثمانيون لجمع أكبر عدد ممكن من رجال القبائل والجِمال اللازمة للحملة العثمانية. في ذلك الوقت، كانت سيناء خالية من أي قوات بريطانية، عدا بعض الدوريات البوليسية برئاسة محافظ سيناء الذي اتخذ من نخل مقرًا له[29]، إضافة إلى ما كان يَرد من أنباء للسلطات البريطانية في مصر، بأن هناك تعاونًا ألمانيًا عثمانيًا لغزو مصر. أكد ملن شيشتهام[30]، نائب المعتمد البريطاني إلى السير إدوارد غراي، إرسال عدد من الضباط الألمان إلى الشام لتعليم القوات العثمانية هناك وتدريبها وجمع المهمات واللوازم وتجهيز خطوط المواصلات اللازمة لها، إلى توزيع عشرة آلاف بندقية على «العُربان» في 16 تشرين الأول/ أكتوبر 1914، واستخدام بعضهم في حفر الآبار[31].

في إثر ذلك، أعدّت بريطانيا عدتها لهذا الأمر، فعيّنت الجنرال جون ماكسويل قائدًا عامًا للجيوش البريطانية، وقسّم الدفاع عن قناة السويس أربعة خطوط:

- خط الدفاع الأول: الشط والكوبري وجنيفة؛

---

(28) الوقائع المصرية، عدد غير اعتيادي (19 كانون الأول/ ديسمبر 1914)، ص 54.

(29) أحمد شفيق [باشا]، مذكراتي في نصف قرن، 3 ج في 4 (القاهرة: مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية، 1934)، ج 1، القسم الأول، ص 383 و385، وفريد، ص 175، ونديم، ص 27.

(30) نعوم شقير، تاريخ سينا القديم والحديث وجغرافيتها: مع خلاصة تاريخ مصر والشام والعراق وجزيرة العرب وما كان بينهما من العلائق التجارية والحربية وغيرها من أول عهد التاريخ إلى اليوم، 3 ج في 1 (القاهرة: مطبعة المعارف، 1916)، ص 734.

(31) عتيق، ص 592.

- خط الدفاع الثاني: الدفرسوار وسيرا بيوم؛

- خط الدفاع الثالث: المعدية والفردان والبلاح؛

- خط الدفاع الرابع: القنطرة وملاحات بورسعيد[32].

كان الهدف من هذا التقسيم إنهاك العثمانيين في الصحراء، والتربص بهم على ضفتي القناة.

رابعًا: الجيش العثماني يهاجم سيناء بمساعدة البدو

1 - الاستعدادات العثمانية

تكوّن الجيش العثماني الذي استعد لغزو مصر من 15 فرقة، بقيادة جمال باشا، وزير البحرية العثماني، بينما رئاسة الأركان للقائد الألماني فون كريس. كُلف الفيلق العثماني الثامن مهمة غزو مصر، وكان مؤلفًا من 3 فرق، قوامها 10 كتائب وسرايا مدافع رشاشة و7 بطاريات مدفعية تحوي مدافع صحراوية وجبلية ولواء هجانة، كما هو موضح بالصور، إضافة إلى قوات من الفيلق الثاني عشر، ألحقت به في ما بعد الفرقة العاشرة وبعض المدفعية الثقيلة والبراطيم وقوات الذخيرة. سُمي هذا الجيش باسم «الجيش السوري» لاتخاذه من سورية قاعدة له[33].

تألفت طلائع الجيش العثماني من «بدو» تمكّن العثمانيون والألمان من استمالتهم، إلى جانب بعض زعماء عشائر وقبائل الشام، كي لا يثيروا المشكلات بوجه الحملة. ولعلّ اشتراكهم نابع مما ذكر سابقًا في شأن وضعهم الاقتصادي، ومعاملة الحكومة المصرية لهم. كذلك امتدت محاولات التحالف الألماني العثماني أيضًا إلى استمالة زعماء الحجاز ونجد، حيث استقبل جمال باشا الأمير فيصل بن الشريف حسن للاتفاق معه على إعلان الحرب على الإنكليز، في مقابل

---

(32) العارف، ص 249؛ لطيفة سالم، «الصراع العسكري بين الدولة العثمانية وبريطانيا في مصر (1914-1918)،» المجلة التاريخية المصرية، العددان 28-29 (1981-1982)، ص 379، و Percival G. Elgood, *Egypt and the Army* (London: Oxford University Press, 1924), p. 222.

(33) العارف، ص 251.

مبلغ من الليرات العثمانية[34]. كان السفير الألماني في اسطنبول يستقبل من وقت إلى آخر في مقر السفارة أشراف الحجاز وزعماء قبائل الشام، فيُقدم لهم الرشاوي في صورة هدايا، في مقابل تعهدهم العمل مع الألمان ضد الإنكليز، إضافة إلى قيام أجهزة الدعاية الألمانية بطبع أول منشور باللغة العربية في هذه الحرب وتوزيعه على سكان الشام، وجاء في صورة رسالة من مواطن ألماني إلى الشوام يدعوهم فيها إلى مناهضة دول الوفاق[35].

يتضح لنا مما سبق أن الألمان والأتراك نجحوا في استمالة بعض بدو بئر السبع وسيناء، تراوح عددهم بين ثمانية إلى عشرة آلاف بدوي، وتشكلوا في فرقة غير نظامية، وتجمع بعضهم على ضفاف الشلالة عند مقام أبي هريرة والخلصة، وبعضهم الآخر في وادي الحسي، ثم التقوا جميعًا في خان يونس بقيادة القائد العثماني ممتاز بك الذي عهد بقيادتهم إلى حماد الصوفي من مشايخ الترابين. وعدهم القادة الأتراك أن كل ما يغتنمونه في الحرب هو لهم، ما عدا المدافع والرشاشات، إذ تؤول إلى الدولة[36]، ثم اتخذت القوات العثمانية من بئر السبع قاعدة رئيسة للعمليات.

حين بدأت القوات العثمانية عبور الحدود المصرية إلى سيناء، كانت خالية من أي قواعد أو خطوط دفاعية. وعلى الرغم من أن أسهل الطرق وأقربها إلى مصر عبر الشام هي طريق الساحل، وأقرب مدن سيناء وأصلحها لتُحشد فيها الجيوش العثمانية هي العريش، رأى القائد العثماني خلاف ذلك، إذ أراد استغلال خبرة البدو ومعرفتهم بالمسالك والطرق، كما رأى أن هذه الطريق وهذه المدينة مُعرضتان لقصف بوارج التحالف، لذا اتخذ من طريق القدس - بئر السبع طريقًا للحملة على مصر[37].

كان الإنكليز، من جانبهم، يرون في اندلاع هذه الحرب فرصةً لإعلان الحماية البريطانية على مصر، وقطع علاقتها الرسمية بالدولة العثمانية، وخلع الخديوي عباس حلمي الثاني الموالي للعثمانيين، وتعيين عمه حسين كامل مكانه، ثم إعلانه

---

(34) كيرزي، ص 26.

(35) المقطم، 13/ 6/ 1915، ص 6، وشفيق، ج 3، ص 376.

(36) المؤيد، 2/ 2/ 1915، ص 2.

(37) كيرزي، ص 26.

سلطانًا على مصر[38]. كما أصدروا بلاغًا أعلنوا فيه أن الحقوق التي كانت لسلطان تركيا وللخديوي سابقًا أُسقطت عنهما وآلت إلى ملك إنكلترا[39].

2- الحملة العثمانية الأولى

في الأول تشرين الثاني/ نوفمبر 1914، أخلت السلطات البريطانية مدينة العريش تمامًا من الموظفين ومن الجهاز الإداري ورجال البوليس، وقطعت خطوط التلغراف البري والبحري كلها، وهدمت أكبر آبار المياه بالديناميت، كي لا يستفيد العثمانيون من هذه المرافق. ونفذ البدو الأمر، إذ كانت لهم خبرة في التعامل بالديناميت. احتلت القوات العثمانية العريش في 3 تشرين الثاني/ نوفمبر، فأسرعت السلطات البريطانية بإرسال خمس سفن حربية لتأمين منطقة العقبة بقوة قوامها مئتي جندي من جنود البحرية[40]، نظرًا إلى موقعها الاستراتيجي اللافت على البحر الأحمر، ومن يسيطر عليها يعوّق وصول القوات البريطانية من مستعمراتها في آسيا. إلا أن القوات العثمانية والبدو الموالين لها تصدوا لهذه المحاولة، ونجحوا في احتلال العقبة وتثبيت الألغام في خليجها[41]. وكان في خطط العثمانيين أن يرافق الخديوي عباس حلمي الثاني الحملة، فيستقر في العريش في القلعة أو في منزل أحد كبار المدينة، فيكون مقرًا موقتًا لحكومته إلى حين الاستيلاء على مصر كلها، وتُشكّل حكومة من الموظفين السابقين في خدمة الحكومة المصرية بالعريش. لكن هذه الخطة لم تتم بسبب تشكيك الألمان في قدرات عباس حلمي الثاني[42].

في 15 تشرين الأول/ نوفمبر، أرسل العثمانيون قوة تقدمها البدو لاحتلال نقطة الحسنة وحصن نخل الذي نُسف لمنع القوات العثمانية من الاستفادة منه، وانسحب منه محافظ سيناء ومن معه من البوليس. تقابلت قوة هندية وأخرى سودانية من قوات حرس الشواطئ مع قوة عثمانية قوامها 200 بدوي، فدارت

---

(38) نديم، ص 29.

(39) Jarvis, p. 130.

(40) الأهرام، 11/ 2/ 1916؛ شفيق، ج 3، ص 407، و Elgood, p. 121.

(41) D. A. Farnie, *The East and The West of Suez: The Suez Canal in History, 1854-1956* (London: Clarendon Press, 1969), p. 234.

(42) عبد الرحمن زكي، سيناء أرض المعارك (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1957)، ص 208.

معركة شرسة انتهت بانسحاب القوة المصرية وتكبدها الكثير من القتلى والأسرى، ما جعل اللورد هربرت كتشنر يأمر بإنزال القوات الأسترالية والنيوزلندية إلى مصر لمواجهة التهديد العثماني[43].

حين علم العُربان بنزول هذه القوات إلى البر، خشوا قطع خط الرجوع عليهم، فتراجعوا إلى بير العبد ثم المزار في العريش. إلا أن البوارج البريطانية لم ترأف بهم، فقصفت مواقعهم بعنف وصبت نيران قنابلها على المدينة نفسها، فأصيب عدد من مبانيها ومنشآتها بأضرار فادحة[44]. وصلت القوات العثمانية إلى بئر السبع ومعها قوة غير نظامية من بدو العزازمة والترابين والحويطات والجبارات والتياها[45]، ونجحت في جمع عدد كبير من الجمال من بني صخر لاستخدامها في الطرق، إذ يَصعب اختراق صحراء سيناء من دون الاعتماد عليها[46]. وكذلك فعلت، في المقابل، القوات البريطانية، التي جمعت النوق والجِمال من مديريات مصر المختلفة لاستخدامها في نقل المهمات والمعدات إلى منطقة قناة السويس. كانت أجرة الجمل الواحد في اليوم 15 قرشًا تُدفع مقدمًا، إضافة إلى صرف الأطعمة والمشروبات والمؤن والعليق اللازمة لصاحبه[47]. وفي الوقت نفسه، تسلم الجنرال ماكسويل قيادة القوات البريطانية في مصر، وسعى إلى تعزيزها، ونجح في رفع عديدها إلى 70000 جندي، أضيفوا إلى عديد القوات المصرية السودانية، فتجمّع لدى البريطانيين قوة أكثر عددًا من أي قوة يستطيع العثمانيون إرسالها إلى القناة[48].

توزّعت هذه القوات في مصر كالآتي[49]:

- قوة الدفاع الشرقية، مهمتها مواجهة العدو المتقدم من الشرق، يقودها

---

(43) المؤيد، 4/ 2/ 1915، ص 5.

(44) David Fromkin, *A Peace to End all Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (London: Phoenix Press, 2000), p. 121.

(45) المقطم، 5/ 2/ 1915، ص 6.

(46) P. M. Holt, *Egypt and the Fertile Crescent: 1517-1922: A Political History* (London: Cornell University Press, 1980), p. 263. عن نص ترجمة الفتوي يمكن الرجوع إلى: شفيق، ج 3، ص 416-417.

(47) العارف، ص 250.

(48) الأهرام، 25/ 2/ 1915، و Jarvis, p. 135.

(49) المؤيد، 27/ 2/ 1915، ص 3.

الجنرال ويلسون، قائد الفرقة العاشرة الهندية، بمساندة لواء هجّانة معظمه من البدو، وسفن حربية بريطانية وفرنسية كقواعد مدفعية إضافية.

- قوة الدفاع بالصحراء الغربية، مهمتها حماية الحدود الغربية من تحركات أنصار السنوسي في ليبيا.

- الاحتياطي المركزي: مهمته السيطرة على القطر المصري والمحافظة على الأمن الداخلي.

3 - خطط متقابلة

خطط جمال باشا للهجوم على القناة مُستغلًا موقع سيناء للدخول عبر طرق ثلاث في وقت واحد، لتركيز الجهد العسكري والضغط على القناة من المنافذ كلها، مُستخدمًا ميزات كل طريق لأداء مهمات متعددة في آن واحد. فعلى الرغم من أن الطريق الساحلية تصلح لنقل المدافع والعربات الحربية ذات العجلات، فإنها معرض لنيران مدفعية البوارج والفرقاطات الحربية البريطانية، بينما الطريق الوسطى (العقبة - نخل - الإسماعيلية) أقل تعرضًا للهجوم لصعوبة الوصول إليها من ساحل البحر المتوسط، وأكثر صلابة، إضافة إلى قيام المهندسين الألمان ببناء خزانات للمياه على طول الطريق[50]، وطريق ثالثة (العقبة - نخل - السويس) تتميز بالأمان لكنها قليلة المياه. وبذلك، تشتت الجهد البريطاني في الدفاع عن مساحة شاسعة على طول القناة.

أما الجانب البريطاني فاحتار في وضع خططه الدفاعية عن مصر، وانقسم فريقين: **الأول** يرى أن قناة السويس خط دفاع أول، بينما رأى **الثاني** أن الدفاع عن مصر لا بد من أن يكون خارج القناة، أي في صحراء سيناء.

استقر الأمر على الرأي الأول، فحشد البريطانيون قوات دفاعهم الأساس على الضفة الغربية للقناة[51]، لاعتقادهم أن صحراء سيناء عائق أمام تقدم أي قوات.

---

(50) Farnie, p. 536.

(51) *Military Operations: Egypt and Palestine*, Compiled by George MacMunn and Cyril Falls, 2 vols. in 3, History of the Great War Based on Official Documents (London: HMSO, 1928), vol. 1: *Official History of War*, pp. 170-174.

بناءً على الخطة البريطانية، تمت دراسة الأماكن التي تصلح للعبور، وقسّمت القناة لأغراض الدفاع إلى أربع قواطع: أول هو قاطع بورسعيد - القنطرة؛ وثانٍ هو قاطع القنطرة - الفردان - المعبر؛ وثالث هو قاطع طوسون - سرا - بيوم - دفرسوار) ما بين بحيرة التمساح والبحيرة المرة؛ ورابع هو قاطع شالوفة - الكوبرى - السويس.

غمرت الأراضي بين بورسعيد والقنطرة بالمياه لتقصير الجبهة المُدافع عنها، وإحاطة مناطق الدفاع كلها بالأسلاك الشائكة والأنوار الكاشفة، وربطها بمواصلات سلكية متقنة، وربط ضفتي القناة بجسور خفيفة لعبور الاستطلاع، إضافة إلى التقارير الجوية التي كانت تُقدمها القوة الجوية البريطانية[52].

يتضح مما سبق أن الطرفين استعدا للمواجهة، وإن كانت كفة القوات البريطانية أرجح وأقوى، إلا أن ما حدث في المعركة فاجأ واضعي الخطة البريطانية.

4- سير المعركة

تجمعت القوات العثمانية النظامية وغير النظامية في بئر السبع لتنفذ خطتها الهجومية، أي تسيير ثلاثة جيوش عبر الطرق الثلاث سابقة الذكر. نجح القسم الأكبر من هذه القوات في عبور سيناء ليلًا، محققين إنجازات ميدانية كبيرة بفضل مساعدة بدو سيناء، وأمكن للقوات العثمانية رؤية القوات البريطانية بوضوح على قناة السويس[53].

في الأول من شباط/ فبراير 1915، اشتبكت الدوريات البريطانية والقوات العثمانية من سرابيوم إلى الفردان، وكان الموقف على الجبهة كالآتي: 5000 جندي من المشاة الأتراك شرق سرابيوم، و2000 من المشاة البدو قرب القنطرة[54]. وفي الثاني والثالث من الشهر نفسه، بدأ جمال باشا الهجوم، مقسّمًا

---

(52) مايكل آشر، لورانس.. ملك العرب غير المتوج، ترجمة فاطمة نصر؛ تقديم عاصم الدسوقي، كتاب سطور (القاهرة: سطور الجديدة، 2000)، ص 168.

(53) الأخبار (القاهرة)، 7/ 12/ 1915، وفاطمة علم الدين عبد الواحد، تطور النقل والمواصلات الداخلية في مصر في عهد الاحتلال البريطاني 1882-1914، إشراف يونان لبيب رزق، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر. مصر النهضة؛ 25 (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1989)، ص 160.

(54) زكي، ص 211-212.

قواته قسمين: قسم صغير بقيادة كمال بك لمهاجمة الإسماعيلية ومعه مجموعة من البدو، والقسم الأكبر اتجه بقيادته إلى سرابيوم وطوسون. عند محاولته عبور قناة السويس عند محطة طوسون باستخدام الجسور المتنقلة والطوافات، هاجمتهم القوات البريطانية[55]، وكبّدتهم خسائر فادحة. أدرك جمال باشا صعوبة استخدام قواته في هذا السبيل، إضافة إلى أن المهندسين الألمان كانوا قد أحضروا معهم طوافات ألمانية لم تتدرب القوات العثمانية عليها من قبل. على الرغم من ذلك، أمر قواته باستمرار زحفها نحو المحطة وإطلاق النيران عليها[56]، مُحاولاً بناء جسر من الزوارق الألومينيوم. إلا أن بطارية المدفعية المصرية الخامسة، بقيادة الملازم أحمد حلمي، تمكنت من صد هجومهم[57]، واضطرت القوات العثمانية والبدو إلى الانسحاب. هذا دليل على ما عاناه الجيش العثماني في أثناء عبوره صحراء سيناء، لطول المسافة وقلة المياه والطعام. إلا أن طبيعة النشأة البدوية التي فرضها عليهم موقعهم من التحمل والصبر في أجواء البيئة الصحراوية لسيناء، والحماسة الدينية التي كان يتمتع بها جميع الجنود نتيجة الدعاية التي استخدمها العثمانيون، وتصويرهم الحرب على أنها حربًا دينية من خلال تصريح شيخ الإسلام في اسطنبول بأن «على كل مسلم التطوع في الحرب ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا باعتبارهم أعداء للإسلام»[58]، جعلتهم يستمرون في القتال حتى تحقيق هدفهم وعبور القناة. انتظم المتطوعون من البدو في أربع فرق: فرقة الترابين والحناجرة، وفرقة التياها، وفرقة العزازمة، وفرقة الجبارات، وكان على رأس كل فرقة ضابط من الضباط المدربين[59].

خطط العثمانيون لمهاجمة مدينة الطور والاستيلاء عليها بقيادة الألماني جورج قندس، إلا أن مؤنهم نفدت. أرسلوا إلى دير سانت كاترين يطلبون زادًا ويتوعدون رهبانه إن رفضوا، فما كان من رئيس الدير إلا أن أرسل إليهم ما أرادوه

(55) Archibald Wavell, *The Palestine Campaigns*, 3rd ed. (London: Constable, 1931), p. 44.

(56) سالم، «الصراع العسكري،» ص 402، وزكي، ص 212-213.

(57) نديم، ص 59 و61؛ المقطم، 1/ 1/ 1917، و Jarvis, pp. 139-140.

(58) Jarvis, p. 139.

(59) محافظ عابدين، محفظة (293)، من عام 1890 إلى 1932، تقارير مختلفة، تقارير مصلحة أقسام الحدود عن قبائل سيناء: Précis sur les tribe's de la Presque Ile di Sinai.

خوفًا منهم. وما إن علم القائد العام للقوات البريطانية بخبر حصار الطور حتى أرسل إلى أهلها فورًا بضرورة هجرتها إلى السويس ومصر، وأقام تحصينات حربية في محجر الطور. كما استطاع الكولونيل باركر، مدير سيناء الأسبق، محاصرة هذه القوات في المدينة والهجوم عليها، ثم تتبعت الطائرات البريطانية أثر الجيش العثماني في سيناء، لم يبق منه إلا قوات قليلة في العريش والنخل، بينما تقهقر الباقي إلى بئر سبع والعوجة.

كان فشل الحملة العثمانية الأولى أمثلة للطرفين، تدارك جمال باشا أخطاءها في حملته الثانية، بينما عزز البريطانيون خططهم الدفاعية.

5- الحملة العثمانية الثانية

منذ اندلاع الحرب على حدود مصر الشرقية والغربية، صارت سيناء معسكرًا مُسلحًا، فتزايدت التعزيزات الحربية، وأنشئ مستشفى إنكليزي جديد في بورسعيد لعلاج جرحى الحرب. كان واضحًا أن العثمانيين يحضرون لهجوم ثانٍ وشيك على القناة عبر سيناء. وبين 7 و25 نيسان/ أبريل 1915، تزايد توافد القوات البريطانية على مصر، وقرر «مري»، القائد العام للقوات البريطانية آنذاك في مصر، أن يتخذ من الإسماعيلية مقرًا له، واقترح أن تكون المسافة بين العريش والقسيمة في الحافة الشرقية لسيناء قاعدة استراتيجية لا بد من أن ترتكز عليها خطة الدفاع عن مصر، وبذلك يُحرم العثمانيون من ساحة (قطبة - رمانة)، ويقوم هو باحتلالها. ولم تنس الحكومة البريطانية أن تدعو إلى الجهاد للدفاع عن الإسلام في حالة نشوب الحرب لما ستثيره ضدها من شعور عدائي بين رعاياها المسلمين في البلاد التي تحتلها، فعزمت على محاربتها بشتى الطرائق والحيل، وعمد إلى استمالة العرب إلى جانبهم، خصوصًا الحجاز، فأرسلت خبراءها إلى سيناء وشبه الجزيرة العربية، مثل ت. إ. لورانس الذي أرسل إلى سيناء وفلسطين والحجاز في مهمات سرية، في إطار إجراء مسح دقيق للمنطقة لأهميتها الحيوية في نظرهم، إذ تحمي الشريان التاجي للإمبراطورية البريطانية، وتقوم بنشاط تجسسي لتأليب سكان الحجاز على السلطات العثمانية[60].

(60) Jarvis, p. 96.

في إطار تنفيذ هذه الخطط، اتخذت السلطات البريطانية إجراءات عدة، استغلوا فيها البدو بالطرائق كلها، فتم تشكيل مجموعة من بدو الجنوب لمد خطوط السكة الحديد إلى المحمدية ورمانة على ساحل البحر المتوسط، وفتحت جبهة أخرى أمام القوات العثمانية عن طريق الهجوم على موانئهم في الدردنيل[61] لتخفيف الضغط العثماني على قناة السويس.

في ذلك الوقت، كان العثمانيون يعدون لحملة عسكرية أخرى على القناة عبر سيناء، عهدوا بقيادتها إلى القائد الألماني فون كريس، فخرجت القوات العثمانية من بئر سبع ووصلت إلى بير العبد في سيناء، وجعلتها نقطة تمركز لها[62]؛ ثم تقدموا إلى قطية ونجحوا في إلحاق الهزيمة بالقوات البريطانية الموجودة هناك. وبفضل الإمدادات، نجحت القوات البريطانية في استعادتها مرة أخرى، وانسحبت القوات العثمانية إلى بير العبد[63]. لكن القائد الألماني قرر القيام بعملية سريعة على امتداد طريق القوافل، من العريش إلى قطية تحت تغطية الطائرات والمدفعية، إلا أن القوات العثمانية كانت فقدت تماسكها وقوتها، وتورطت في رمال ثقيلة بالمنطقة. نجحت القوات البريطانية في معاودة الهجوم، فانسحبت القوات العثمانية من دون نظام، فلم تعقبها القوات البريطانية لسوء الأحوال الجوية. ثم وجد العثمانيون الفرصة سانحة لمعاودة تشكيل وتنظيم صفوفهم مرة أخرى، ومهاجمة القوات البريطانية التي سرعان ما نجحت في مهاجمتهم بعد ذلك. انتهت المعركة بهزيمة العثمانيين، وتكبدهم خسائر فادحة في العتاد والأسلحة[64]. وتتبعت الطائرات البريطانية، بمعاونة البدو، أثر فلول الجيش العثماني لإخراجه من سيناء، وتقدمت القوات البريطانية حتى وصلت

---

(61) شقير، ص 748، وشفيق، ج 3، ص 383 و385.

(62) شكل فيلق الجمالة عندما رات القيادة البريطانية ضرورة نقل المعدات والمؤن والذخائر إلى ميادين المعركة، حيث كان يتطلب هذا العمل التوغل في مناطق وعرة، فلا يمكن للقوات البريطانية القيام بذلك من دون الاستعانة بالجمالة، وعن الدور البطولي التي قامت به الجمال، انظر: «فعال فرقة جمالة النقل في الجيش البريطاني،» المقطم، 1/ 8/ 1917، ولطيفة محمد سالم، مصر في الحرب العالمية الأولى (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984)، ص 245-246.

(63) G. W. Murray, *Sons of Ishmael; A Study of the Egyptian Bedouin* (London: G. Routledge & Sons, 1935), p. 244.

(64) المصدر نفسه، ص 263، و *Military Operations*, pp. 23-66.

العريش واحتلتها من دون قتال، لأن العثمانيين انسحبوا إلى الشرق وعسكروا في رفح، وإلى الجنوب عند المقضبة، مركز الاتصال بمركزهم في العوجة. أرسل البريطانيون قوة من فرقة الجمالة المصرية من العريش للهجوم على المقضبة، لكن هذه الفرقة لم تتمكن من تحقيق نصر حاسم بسبب حصانة المنطقة، فأرسلوا تعزيزات من القوات الأسترالية والنيوزلندية الراكبة للالتفاف من الشرق على المقضبة. نجحت المدفعية البريطانية في تدمير طوابي القاعدة العثمانية، وبسبب كثافة النيران اضطرت القوات العثمانية المحاصرة إلى الاستسلام، واضطر بعض القوات التركية إلى احتلال مراكز في وادي العريش وأبو عجيلة وأولاد علي، وصار مركزهم في العوجة[65]. ثم قرر اللورد اللنبي التوغل لمطاردتهم في فلسطين، وضرب وجودهم هناك لمنع أي حملات أخرى قد يشنها العثمانيون على سيناء وقناة السويس. وفي الوقت نفسه، كان الجهد يسير على قدم وساق لمد خطوط السكك الحديد والمياه مع سير الحملة البريطانية بمساعدة البدو، ممن وجدوا في القيام بهذه الأعمال مكسبًا ماديًا كبيرًا. وهدد العثمانيون حدود مصر الشرقية مرةً آخرى[66].

خامسًا: أثر الحرب في مجتمع سيناء

بعد انتهاء المعارك وهزيمة القوات العثمانية، احتفظت قبائل البدو المنتشرة في سيناء، والمناصرة للعثمانيين، بالكثير من السلاح، على الرغم من مبادرة السلطات البريطانية إلى جمعه، بعدما عثرت على كشف دُوّنت فيه أسماء مَن تسلموا سلاحًا من العثمانيين. وهذا يفسر سبب الصدامات المسلحة بين هذه القبائل، وبينها وبين قبائل الحجاز[67].

لا شك في أن العُربان (البدو) شاركوا القوات البريطانية في حملتها لإخلاء سيناء من القوات العثمانية، لمعرفتهم التامة بالمسالك والطرق في صحراء سيناء.

(65) Philip Magnus, *Kitchener: Portrait of an Imperialist* (New York: Dutton, 1959), p. 45.

(66) W. T. Massey, *The Desert Campaigns*, With Illustrations from Drawings by James McBey (New York; London: G.P. Putnam, 1918), pp. 47-67.

(67) Wavell, p. 35.

كما شاركت إبلهم في نقل القوات والمؤن والذخيرة إلى الميادين ضمن فرقة الجمالة والهجانة، وشارك بعض المشاة نظرًا إلى طبيعة ميادين القتال الصحراوية، وبُعد المسافة بين خطوط السكك الحديد والمعسكرات الحربية. نتيجة لهذه الخدمات التي أدّاها مشايخ القبائل في سيناء للقوات البريطانية، أمرت الحكومة المصرية في عام 1921، بإيعاز من السلطات البريطانية، بتكريم عدد من هؤلاء المشايخ(68).

إلى تفشي السلاح، كان من الآثار السلبية التي تركتها هذه الحرب تدمير ثروة سيناء الأثرية، سواءً بالقنابل أو بفعل فاعل، للاستفادة من حجارة الآثار لبناء الثكنات العسكرية والأبنية الحكومية، خصوصًا في مدينة العريش التي منيت ثروتها التاريخية بأكبر قدر من الأضرار. يضاف ذلك إلى ما سببته المعارك التي دارت على أرض سيناء من تدمير لمدنها وقُراها؛ إذ تعرضت مدينة العريش للقصف من البوارج البريطانية، كما نسفت آبار المياه الرئيسة فيها عند إخلاء البريطانيين لها، لمنع القوات العثمانية من الاستفادة منها، ودُمرت قلعة العريش خلال القصف، كما اضطر المدافعون عن القناة إلى هدم القنطرة وترحيل أهلها إلى مصر(69).

خلال الزحف العثماني، والبريطاني أيضًا، عبر شبه جزيرة سيناء، استخدمت جِمال العربان وسيلة أساسية لنقل المعدات واللوازم الحربية والمؤن، واستخدمت فرق منهم كهجّانة من القوات راكبي الجمال ضمن الفرقة التي شكلتها بريطانيا من عربان مصر، سبق أن استخدمهم العثمانيون ضمن قواتهم التي زحفت إلى القناة(70). وتعرضت إبل ودواب أهل سيناء للسلب من القوات المتحاربة، فخلال معارك شباط/ فبراير 1915، كان قطيع من إبل قبيلة العبابدة يجول في القرب من

(68) Martin S. Briggs, *Through Egypt in War-Time*, With Illustrations by the Author (London: T.F. Unwin [1918]), p. 245, and Charles W. Hallberg, *The Suez Canal, Its History and Diplomatic Importance* (New York: [n. pb.], 1931), p. 50.

(69) المقطم، 17/ 9/ 1917؛ الأهرام، 13/ 11/ 1915، والأهرام، 26/ 8/ 1918.

(70) صبري أحمد العدل، سيناء في التاريخ الحديث (1869-1917)، مصر النهضة: سلسلة دراسات علمية في تاريخ مصر الحديث والمعاصر؛ 57 (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 2010)، ص 224-225.

ساحة المعارك شرق قناة السويس بحثًا عن المراعي، وإذ بعدد من أفراد جنود كتيبة السواري الهنود من يمسكون بها ويحضروها إلى محطة سرابيوم، لاعتقادهم أنهم قبضوا على جِمال برية أو متوحشة ليس لها مالك. وحدث الأمر نفسه حين قبض عناصر القوات الأسترالية في عام 1916 على 100 جمل تخص القبيلة نفسها، معتقدين أنها بلا مالك[71].

تعرض بعض القبائل للقتل والتدمير نتيجة تورطهم في هذه الحرب. إذ كان الشيخ زيدان مدخل شيخ قبيلة العليقات هو الوحيد في سيناء الذي كان مواليًا للحكومة المصرية، بينما انضمت قبيلة الزميليين إلى العثمانيين أملًا في الحصول على امتيازات أو زعامة منهم، وكان أفرادها بين المحاصرين في الطور في عام 1915، وفقدوا حياتهم خلال الحصار. أدت هذه الحرب إلى تقليص عدد سكان سيناء نتيجة فقدان عدد منهم في أثناء المعارك، إضافة إلى عمليات التهجير والإخلاء التي قامت بها القوات البريطانية لمدن سيناء في أثناء المعارك[72].

يتضح لنا أن سيناء كانت مسرحًا مُهمًا من مسارح الحرب العالمية الأولى. فعلى أرضها حصل الصدام المباشر بين القوات العثمانية والبريطانية، وثبت للقادة البريطانيين من خلال الحملتين العثمانيتين الأولى والثانية فشل الاستراتيجيا المبنية على أساس جعل قناة السويس خط دفاع أول عن مصر، فالدفاع عن مصر لا بد من أن يكون في عمق سيناء، وتَمكن القوات العثمانية بمعاونة البدو من اجتياز صحراء سيناء بطرقها الوعرة كان عملًا مذهلًا خَيّب التوقعات العسكرية البريطانية.

خاتمة

بناءً على ما سبق، يمكننا الاستنتاج أن موقع شبه جزيرة سيناء كان همزة وصل بين مصر والشام والحجاز، وشريان المرور بينها، وكان له دور كبير في تشكيل مجتمع سيناء - اقتصاديًا واجتماعيًا - قبل الحرب، وانطلقت الدولة

(71) العدل، ص 226.

(72) شقير، ص 750.

العثمانية نحو مصر محاولة اقتطاع جزء منها لاعتبارات خاصة بمصالحها، واهتم الأتراك ببدو سيناء وحاولوا استمالتهم بالوسائل والحيل كلها إلى جانبهم كي لا يثيروا المشكلات بوجه حملاتهم ضد بريطانيا، فأدخلوهم في عداد الجيش العثماني ضمن فرق غير نظامية.

كما أدركنا أن الاحتلال البريطاني أسس للإدارة في سيناء، نظرًا إلى أهمية قناة السويس الاستراتيجية، فكان البريطانيون يعدّون سيناء الشريان التاجي في الإمبراطورية البريطانية.

الفصل السادس عشر

سورية في الحرب العالمية الأولى
والتحالف الألماني - العثماني
إطلالةُ نقدية على التأريخ

حسن كيالي

تركّز هذه الدراسة على سورية خلال الحرب العالمية الأولى، فتتناول تقاليد في كتابة التاريخ تعوّق الفهم الدقيق للشرق الأوسط عمومًا، وسورية خصوصًا، في فترة الحرب[1]. يمكن القول إن المسرح السوري في أثناء الحرب كان الأكثر دينامية واستمرارًا، قياسًا بكثير من جبهات الحرب العثمانية، إن لم يكن قياسًا بمسارح الحرب العالمية كلها. ولهذا السبب، غالبًا ما تركّز اهتمام التحالف العثماني - الألماني وجهده الحربي في سورية. لكنّ ما يعوق فهم تجربة الحرب في سورية فهمًا دقيقًا هي المشكلات العامة التي تُعانيها ضروب التأريخ السائدة. ذلك أن ثغرات هذه الأخيرة وتشوهاتها تضرب بجذورها في ثلاثة اتجاهات تأريخية: إخراج الإمبراطورية العثمانية خارج روايات الحرب العالمية الأولى عمومًا؛ المنظور الغائي والضيق لتواريخ الدولة الوطنية في الشرق الأوسط؛ إنكار الفاعلية العثمانية في التحالف العثماني - الألماني.

تشكّل ندرة الدراسات التاريخية المتعلقة بالمنطقة، ضمن الدراسات الوافرة التي أجريت عن الحرب العالمية، عائقًا يقف في وجه كل محاولة لتصوير أي وجه من وجوه الشرق الأوسط في زمن الحرب. والإطار السائد في دراسات الحرب العالمية الأولى هو إطار يعتبرها حربًا أوروبية، على الرغم من توصيف الصراع تاليًا بأنه «حرب عالمية». ونادرًا ما قطعت دراسة الحرب خارج أوروبا مع المنظور الذي يصوّر تجلياتها هناك على أنها مجرد مشاهد جانبية ضمن منطق التنافس الاستعماري، فلا تستحق الاهتمام إلا بوصفها كذلك. وكان تقلص الأراضي العثمانية المتواصل، وضعف الدولة المستمر، وتغلغل الاقتصاد الأوروبي في مطلع القرن العشرين، قد وضع أهمية الإمبراطورية موضع

---

(1) قدمت نسخة من هذه الدراسة إلى مؤتمر «الإمبراطورية العثمانية والحرب العالمية الأولى» في سراييفو، 16-20 أيار/مايو 2012: The Ottoman Empire and World War I, International Conference, Sarajevo, Bosnia-Herzegovina, 16-20 May 2012.

المساءلة، وبرر تهميشها في كتابة التاريخ. هكذا، على الرغم من اعتراف التواريخ بالخلفية العثمانية للصراعات التي أدّت إلى نشوب الحرب[2]، والصراعات القومية والإمبريالية على تَرِكة الإمبراطورية، إلا أنها لم تُعر كبير اهتمام إلى مشاركة العثمانيين في الحرب بحد ذاتها أو إلى تأثير الحرب في الشرق الأوسط وتداعياتها عليه، تلك التداعيات التي يُمكن القول إنها كانت أكثر عنفًا هناك منها في أي مكان آخر؛ إذ كانت جبهات الحرب في الإمبراطورية العثمانية أكثر منها في أراضي أي من الدول الأخرى المنخرطة في الحرب، وكانت حصتها من القتال والضحايا حصة ضخمة. علاوة على ذلك، ترتكز الروايات الموجودة عمومًا على التاريخ الديبلوماسي والسياسي، وبالتالي فهي تُعلي من شأن المركز حتمًا، ولا تقدّم إلا القليل من الفائدة في تقصّي تجربة الحرب في الولايات. وباختصار، الموقع الهامشي الذي تحتله مسارح الحرب العالمية الأولى في الشرق الأوسط ضمن البحث التاريخي عمومًا حال دون التمحيص الكامل للسياسات العثمانية والمجتمع العثماني إبّان الحرب، خصوصًا خارج العاصمة الإمبراطورية، بما في ذلك الولايات العربية.

يمتد هذا الموقف المركزي الأوروبي الذي تُبديه المعاينات التاريخية للشرق الأوسط زمن الحرب ليصل إلى زعم الأولويّة الألمانية في الإمبراطورية العثمانية زمن الحرب؛ إذ دخل العثمانيون الحرب شريكًا اقتصاديًا وعسكريًا ضعيفًا ضمن تحالف دول المركز إلى جانب النمسا - المجر وألمانيا. وكان تعاظم الحضور والتأثير الألمانيين في الشرق الأوسط، ذلك التعاظم الذي أتى بالكادر العسكري الألماني والتكنولوجيا والمعدّات الألمانية إلى الإمبراطورية العثمانية، نتيجةً متوقعة للتحالف العسكري. هكذا كان عدد كبير من الضباط والمستشارين الألمان، وبينهم أكثر الجنرالات شهرة في الجيش الألماني، فاعلين في الإمبراطورية العثمانية وفي جبهات الشرق الأوسط خلال الحرب. على سبيل المثال، كان المشير كولمار فون در غولتز قد أعاد تنظيم الجيش العثماني بين عامي

(2) «ما كانت الأزمة لتنفجر قطّ كما انفجرت لولا التأثير العميق الذي كان لإمبراطورية الترك في تطور أوروبا الشرقية». G. J. Meyer, *A World Undone: The Story of the Great War, 1914-1918* (New York: Delacorte Press, 2006).

1883 و1896، وترك في عام 1914 منصبه حاكمًا لبلجيكا التي يحتلها الألمان وانتقل إلى بلاد الرافدين ليقاتل، وهناك توفي. كما خدم إريش فون فالكنهاين، رئيس الأركان العامة للجيش الألماني في عام 1914، قائدًا للجيش في سورية في عام 1917[3].

مع ذلك، لم يكن الدور الألماني مهيمنًا. تقاطعت المصالح العثمانية وتداخلت مع المصالح الألمانية، لكنها تضاربت معها أيضًا في بعض الأحيان أو بقيت خارج نطاقها. وتحتاج أهداف الحرب والمصالح العثمانية إلى أن تُطرَح، بمعزل عن أهداف الحرب الألمانية والنمساوية - المجرية، مع التطلّع إلى استعادة فاعلية الفاعل العثماني من خلال تقصّي بعض مزاعم التقاليد التأريخية ذات الصلة. لا تستند هذه المزاعم إلى ديناميات فترة الحرب فحسب، بل يداخلها أيضًا التأثير الألماني الطويل المدى، والمتعاظم، في الإمبراطورية منذ أواخر القرن التاسع عشر.

إذا كانت المركزية الأوروبية وافتراض الغطرسة الألمانية قد عزّزا وجهة النظر القائلة بالتأثير الألماني الحاسم في المصائر السياسية والعسكرية للإمبراطورية، فإنّ الفضائل الوطنية التي وُلدت ونَمَت في دول الشرق الأوسط الحديث نشرت الغموض في شأن صور الشرق الأوسط خلال الحرب العالمية الأولى بطرائق أخرى، مخلّفةً تمثيلات مجتزأة وملتوية تماشيًا مع مقتضيات الذاكرة التاريخية الوطنية. ففي تواريخ الجمهورية التركية، بلغت أهمية الحرب العالمية الأولى حدّ تعطيلها حرب الاستقلال 1918-1922، وهذه هزيمة عثمانية نكراء لم تخرج منها تركيا الحديثة إلا بانسلاخها عن مؤسسات الإمبراطورية المتهالكة وتركتها. ويعلي التاريخ التركي من شأن ولادة تركيا من رماد الإمبراطورية بفضل عبقرية الأب المؤسس، مصطفى كمال أتاتورك. وبذلك، تولي نتائج الحرب العالمية الأولى أهمية كبيرة، أمّا الحرب نفسها فلم تولِ كبير اهتمام في البحث الذي يتعدى التواريخ العسكرية إلا حديثًا. وزادت الحاجة إلى التخفف من مسؤولية حوادث الحرب العالمية الأولى واضطراباتها من تجنّب استقصاء الحرب وفهمها.

(3) هانز فون سيكت الذي عُيّن رئيسًا لأركان الجيش العثماني، قاد جيش فايمار بعد الحرب.

غير أنّه حتى حين يموّه المؤرخون على سنوات الحرب لدى كتابتهم تاريخ تركيا، يتبنّى كثير منهم فكرة الصعود العنيد للوطنية التركية منذ بداياتها في أواخر القرن التاسع عشر، إن لم يكن قبل ذلك، وغَلَبتها في اسطنبول خلال الحرب العالمية الأولى. وفي هذا الإطار، حُلّ التوتر بين العثمانية والوطنية الإثنية، مرة وإلى الأبد، لمصلحة الوطنية بعد حروب البلقان 1912-1913. وجرى تصور العثمانية على أنها أيديولوجيا تحفز ولاء شعوبها غير المسلمة للدولة العثمانية. لكنّ الحروب والتمردات وتدخلات القوى العظمى في أغلبية الولايات المسيحية قوضت المشروع. في وقت لاحق، راح المثقفون الأتراك والعرب والأكراد والألبان وشرائح من النخب السياسية في هذه المناطق يبدون افتخارًا إثنيًا فيه رجعة إلى الأسلاف. وكان ثمة رأي واسع أن نظام تركيا الفتاة عاود السقوط في الوطنية التركية. والتركيز المفرط على هذا التحول الذي يصل حدّ التخلي عن ضرورة الحفاظ على الإمبراطورية، إنما نراه يعمّ البحوث ويشوّه أهداف الحرب العثمانية. ترتبت عن هذا التشويه نتائج خاصة في ما يتعلق بدراسة سورية الكبرى في الحرب. فهو يشير إلى أنه ربما نُظِرَ إلى انفصال سورية أو خسارتها على أنها نتيجة معروفة سلفًا (إن لم تكن احتمالًا مرغوبًا فيه) في ذلك الوقت، بل إن هذه الفضيلة ذاتها التي ميّزت الوطنية التركية تنطوي على أن ألمانيا هي التي مكّنت من قيام «تركيا» أحادية الإثنية[4].

خلافًا للحال في تركيا، تُعتبر الحرب العالمية الأولى أمرًا محوريًا في السرديات المؤسِّسة للدول العربية الحديثة. ففي هذه التواريخ، يشكّل الاضطهاد التركي مجازًا رئيسًا يوفّر «الآخر» المولِّد للقوميات العربية. هكذا، عزّز التأريخ القومي العربي فكرة تنفيذ أجندة مركزية تركيّة للهيمنة في الولايات العربية. وهذا الفصل يحجب التجاذبات الكامنة في الهوية السياسية والولاءات الإمبراطورية عند عدد من الجماعات العربية؛ ويعلي من شأن المقاومة بأن يبثّ فيها محتوى قوميًا ينطوي على مفارقة تاريخية، ذلك أنه يجنّد هذه المقاومة لشرعنة تعبئةٍ قومية عربية في فترة ما بين الحربين ضد الإمبريالية الأوروبية التي اعتُبِرَت مرحلة ثانية

---

(4) Ernst Jäckh, *Die deutsch-türkische Waffenbrüderschaft* (Stuttgart: Dt. Verl.-Anst., 1915), p. 21, Cited in: George William Griffin, III, «Ernst Jäckh and the Search for German Cultural Hegemony in the Ottoman Empire» (M.A. Thesis, Bowling Green State University, Ohio, 2009), p. 51.

من السيطرة والاضطهاد الأجنبيين تليا الهيمنة التركية. وبذلك، تعزّز السرديات القومية التركية والعربية بعضها بعضًا في الوقت الذي تسلخ الولايات العربية عن الإطار العثماني.

عززت وجهة النظر التقليدية التي تُبْرِز القومية التركية والتتريك بفعل حقل دراسات الإبادة المزدهر؛ إذ انتشرت الأعمال التي تتناول الإبادة الجماعية للأرمن، وولّدت مزيدًا من الروايات المركبة عن مذابح زمن الحرب. تتناول هذه الدراسات الإبادة بوصفها ظاهرة مميزة في الحداثة، تجنح إلى الإعلاء من شأن القومية الإثنية العنصرية في استقصاء الإبادة عمومًا، والمذابح التي ارتكبت بحق الأرمن خصوصًا[5]. وتبرز الأفعال الإقصائية لحكومات تركيا الفتاة وشركائها ضدّ غير المسلمين جزءًا لا يتجزأ من توجه قومي تركي أوسع، حاصر المجموعات غير التركية كلها. كان العنف متفشيًا في الإمبراطورية، ولا سيّما ضدّ المجموعات المسيحية. وتوازى اضطهاد المسيحيين مع، بل خدَم، مشروعًا إمبراطوريًا جرى تصوره على أنه سيضم مسلمي الإمبراطورية تحت لواء وطنية الدولة والولاء الرمزي للنظام الملكي، من أجل الحفاظ على الإمبراطورية.

رأت القيادة العثمانية في الحرب وفي التحالف الألماني فرصةً لإعادة بناء الإمبراطورية وتعزيز سلطتها وشرعيتها التي تضرّرت جرّاء الانفصال والإلحاق والهزائم العسكرية. كانت المدن السورية الكبرى، خصوصًا دمشق وبيروت والقدس، مراكز للفكر والنشاط القوميين العربيين الناشئين. وكان المثقفون العروبيون والحركات العروبية قد بدأوا يوجهون سهامهم إلى العلاقة بين الولايات السورية والمركز قبيل اندلاع الحرب. واضطر المركز العثماني إلى النظر في برامج الإصلاح التي تقدمت بها النخب المحلية في هذه الولايات التي كانت تنشد استقلالًا أوسع. وخلال الحرب، ترافقت الحاجة المتعاظمة إلى تمتين سلطة الحكومة والسيطرة العسكرية مع القمع، ما ولّد معارضة كان

---

(5) Taner Akçam, *From Empire to Republic: Turkish Nationalism and the Armenian Genocide* (London; New York: Zed Books; New York, NY: Distributed in the USA by Palgrave Macmillan, 2004); Fuat Dündar, *Modern Türkiye'nin şifresi: İttihat ve Terakki'nin etnisite mühendisliği, 1913-1918*, Araştırma, inceleme dizisi; 225 (İstanbul: İletişim, 2008), and Donald Bloxham, *The Great Game of Genocide: Imperialism, Nationalism, and the Destruction of the Ottoman Armenians* (Oxford: Oxford University Press, 2005).

يُعبّر عنها، في بعض الأحيان، من خلال مصطلح القومية العربية ردًّا على القمع وسوء الحكم «التركيين». استدعى هذا مزيدًا من المراقبة، وحكمًا أشدّ صرامة في المنطقة. وسوف يبدأ مشروع اسطنبول إعادة تثبيت السلطة العثمانية في مقاطعات الإمبراطورية النائية كالحجاز واليمن بمزيد من دمج سورية لتكون بوابةً على المحيط العثماني.

دعمت ألمانيا وحدة أراضي الإمبراطورية العثمانية التي امتدت إلى البحر الأحمر والخليج العربي بما يتماشى مع سياستها العالمية، التي كان محورها لجم التوسع الاستعماري البريطاني. وكانت سورية واجهة التنافس الألماني – البريطاني في آسيا، خصوصًا بعد فشل إتمام مشروع سكة حديد برلين بغداد التي تصوّرت برلين أنها ستفرض تحديًا مباشرًا أكبر على بريطانيا قرب الهند. على الرغم من الثغرات، امتدّ خط سكة الحديد إلى شمال سورية ليُستفاد منها في تعزيز الجبهات السورية وإعاقة الوجود البريطاني في مصر وتحدّيه، ذلك أن اجتياح مصر من سورية كان ليسمح بالتوجّه الألماني نحو أفريقيا[6]، ويفتح «بابًا لغزو أوغندا وشرق أفريقيا البريطاني». كذلك كان يمكن لسورية، بصفتها قاعدة العمليات المصرية، أن تكون الموقع الأوّل لتحقيق الأهداف الحربية الألمانية والعثمانية وتقاطعها. هكذا، برز تعاون تعاضديّ بين اسطنبول وبرلين، كان على رأس المصالح الجيوسياسية لكلا الدولتين[7].

في ضوء مخططات كبرى، مثل «التوق إلى الشرق» و«أوروبا الوسطى» و«السياسة العالمية» و«المجال الحيوي»[8] و«الاختراق السلمي»، وُلدت في برلين في سياق دخول ألمانيا المتأخّر السباق الاستعماري، يُمكن تفسير علاقة ألمانيا الوثيقة بالإمبراطورية العثمانية الضعيفة لكن ذات السيادة في سياق التوسع

---

(6) Donald M. McKale, *Curt Prüfer, German Diplomat from the Kaiser to Hitler* (Ohio: Kent State University Press, 1987), p. 48.

(7) يقول فهرمان في الكتاب الذي حرره لانغبيهن وسلامة أن العلاقة العثمانية – الألمانية تميزت، إمّا بـ «المعاملة بالمثل المتطرفة» أو بـ «الإخضاع المتطرف».

(8) تكرّس مفهوم «المجال الحيوي» لدى هتلر لكنه كان خطًّا بارزًا في الأيديولوجيا الإمبريالية الألمانية منذ تسعينيات القرن التاسع عشر.... وكان قائمًا إلى جانب التركيز الامبريالي الأساسي على المستعمرات التجارية وراء البحار من دون أن يختلط معه، وكان يلخّصه شعار «السياسة العالمية». Ian Kershaw, *Hitler, 1889-1936: Hubris* (London: Allen Lane, The Penguin Press, 1998), p. 248.

الاستعماري. كان الاستعمار الألماني للأراضي العثمانية قد أُثير قبل دخول ألمانيا السباق الاستعماري وبعده، خصوصًا ما تعلّق منه بالولايات العربية في الإمبراطورية العثمانية. وكانت المجموعات الدينية رائدة مشروعات الاستيطان في فلسطين، وكانت تلك المشروعات طليعة الدافع الاستيطاني وبدأ فرسان الهيكل ببناء مستعمرتهم قبل توحيد ألمانيا مباشرةً، وشددت الجماعات الصهيونية الألمانية من استيطانها عند منقلب القرن. وأُنشئ البنك الفلسطيني الألماني في عام 1899 وامتدت فروعه إلى ولايتي بيروت ودمشق، وإلى سنجق القدس المستقل[9]. وقصّرت المحاولات الألمانية الرامية إلى كسب ميزة استراتيجية في الإمبراطورية العثمانية عن أن تغدو مشروعًا استعماريًا يستخدم قوة القسر القائمة على هيمنة ثقافية.

أتت سكة حديد برلين – بغداد، واسطة عقد المشروع الألماني في الإمبراطورية العثمانية، بنتائج متواضعة على صعيد توسّع الاختراق التجاري الألماني، إذ كانت رمزًا للروابط المتنامية بين ألمانيا والإمبراطورية العثمانية، لكن كان على ألمانيا أن تأخذ في حسبانها القانون العثماني والرغبات العثمانية من جهة، ومخاوف القوى العظمى من المشروع من جهة أخرى. وتقول دراسة حديثة لسكة حديد برلين – بغداد إن بناء السكة وتشغيلها كانا محلّ نزاع شديد، و«عوضًا عن جمع الثقافتين معًا... خلقت صدوعًا في العلاقة التركية – الألمانية»[10]. وفي عام 1913، بدت التوسعية الألمانية أمرًا عديم الضرر حتى بالنسبة إلى لندن[11]. ووضع الحلف الذي وُقّع بين برلين واسطنبول في 2 آب/ أغسطس 1914، البلدين على قدم المساواة للمرة الأولى في التاريخ، منهيًا بذلك حقبة هيمنة القوة العظمى في الدولة العثمانية. ومع تقدم الحرب، تعلم الباب العالي استغلال هذه المساواة، مستفيدًا من الاهتمام الألماني بسكة حديد بغداد في دعم مآربه الإمبراطورية، وتنفيذ برامج الإصلاح، وفرض المزيد من المطالب على حلفائه من القوى العظمى[12].

---

(9) Ulrich Trumpener, «Germany and the End of the Ottoman Empire,» in: Marian Kent, ed., *The Great Powers and the End of the Ottoman Empire* (London; Boston: G. Allen & Unwin, 1984), pp. 112, 116 and 119.

(10) Jonathan S. McMurray, *Distant Ties: Germany, the Ottoman Empire, and the Construction of the Baghdad Railway* (London: Praeger, 2001), p. 110.

(11) Niall Ferguson, *The Pity of War* (New York: Basic Books, 1999), pp. 68-69.

(12) McMurray, p. 109.

في الواقع، كان للمبادرة العثمانية دور فاعل في توقيع الاتفاق العثماني الألماني في 2 آب/ أغسطس. وخَلُصَ أولريش ترومبنر إلى أن «أمل الألمان في تحويل الإمبراطورية العثمانية، في نهاية المطاف، إلى شريك صغير ومُذعن أو إلى تابع محض للرايخ لم يكن واضحًا تمامًا كما زُعم غالبًا»[13].

تضمّن سعي القوتين إلى تحقيق أهداف الحرب تفاوضًا ومساومات. وطفت على السطح خلافات، لا بين القادة الألمان والعثمانيين فحسب، بل ضمن القيادة العثمانية[14] وضمن القيادة الألمانية[15] على المستويين المدني والعسكري، تخصّ التطلّع قُدُمًا كما تخصّ التعاون اليومي. كان الجنرال فولكنهاين، «ذو الطبع المستبد» الذي تولّى قيادة فرق الصاعقة حتى نهاية الحرب وكان مسؤولًا عن هزائم الجيوش العثمانية النكراء على يد البريطانيين، «أهان الأتراك كما عادى الألمان الذي سبقوه إلى المنطقة بفترة طويلة»[16]. وبالتالي، فإن ديناميات التحالف العثماني الألماني كانت منوطة بمسار الحرب عمومًا، وبالشخصيات التي تتصدّر واجهة العلاقات، وبمستلزمات العمليات العسكرية تبعًا للزمان والمكان.

كانت سورية في خضمّ تحولات الحرب الدراماتيكية، وحظيت بأهمية حيوية بالنسبة إلى اسطنبول وجهدها المبذول لإنقاذ الإمبراطورية. كما كانت عرضة لهجوم وتسلل العدو من ساحلها المتوسطي وحدودها البرية مع مصر الواقعة تحت الحكم البريطاني، وعملت قاعدة للحملات المتجهة إلى السويس ضدّ مصر التي يحتلها البريطانيون. كما كانت سورية البوابة إلى الحجاز، حيث اندلع في عام 1916 أخطر تمرد مسلح داخلي ضد الدولة بقيادة الأسرة الهاشمية في مكة. وبالتالي، كان تعزيز قوى المركز في سورية أمرًا ضروريًا من وجهة نظر

(13) Trumpener, p. 122.

(14) ثمة إفراط في التركيز على الخلافات بين القادة العثمانيين، خصوصًا أنور وطلعت وجمال. كان بين هؤلاء الرجال الأقوياء من التوافق في خوض الحرب والشؤون الإمبراطورية أكثر مما جرى تصويره.

(15) في كتابته بعد أيام من هزيمة دول المحور الحاسمة، وصف فون سيكت مهمة فون ساندرز العسكرية بأنها الولد الفاسد لوزارة الخارجية البروسية المشكّلة من دون موافقة فون در غولتز، وبأنها عبء على الجهد الحربي الألماني. انظر: Akdes Nimet Kurat, *Birinci Dünya Savaşi sırasında Tükiye 'de Bulunan Alman generallerin Repolari* (Ankara: Türk Kültürnü Ara ştırma Enstitüsü, 1966), pp. 68-69.

(16) الإشارة هنا هي إلى أعضاء بعثة فون ساندرز. انظر: Hew Strachan, *The First World War* (Oxford; New York: Oxford University Press, 2001), p. 275.

الاستراتيجيا العسكرية، فضلًا عن ضرورتها لتدعيم سلطة الحكومة. وكانت الحملتان الفاشلتان ضد السويس قد نُظّمتا في سورية، شأنهما شأن الحملتين جنوبًا نحو الحجاز واليمن. وعلى الرغم من أن المعارك لم تُخض على الأراضي السورية، إلا أن هذه الحملات تركت بصمتها العميقة على حياة سورية الكبرى الاجتماعية والسياسية، حيث حُشد عدد كبير من العساكر(17). وعرقلت الأعمال العدائية توفير الإمدادات الغذائية، فاستولت الفرقة العثمانية الرابعة على المحاصيل والحيوانات بغية تأمين حاجاتها اللوجستية. ومع سوء الإدارة والاستغلال وغزو الجراد الهائل، اجتاحت المجاعة سورية.

كثيرًا ما كان الساحل السوري ميدان اهتمام الفرنسيين وتدخّلهم في الشرق الأوسط. ومع اندلاع الحرب، أصبحت القيادة العثمانية بالغة الحساسية تجاه النفوذ الفرنسي، كما يُظهر العقاب الذي ألحقه جمال باشا بحلفاء فرنسا المحليين. من ناحية ثانية، كانت الواجهة العثمانية - البريطانية الممتدة على طول قناة السويس العنصر الحاسم في السياسة العثمانية في سورية. وكانت سورية، أكثر من أي مكان آخر، المكان الذي تكشّف فيه بشكل جليّ تحوّل السياسة الخارجية البريطانية من ضمان سلامة الأقاليم العثمانية إلى تقويضه في السنوات التي سبقت الحرب. وسعت القيادة العثمانية إلى الحدّ من مكائد الإنكليز ودعاياتهم في سورية الكبرى. لكن النظر اللاحق إلى مسارح الحرب في سورية وسيناء قلّص غايةَ الحرب إلى تطويق البريطانيين في مصر. ووفقًا لهذه النظرة، سعت ألمانيا إلى حشد الجيش العثماني كي تضيق على القوات البريطانية في مصر، ما كان من شأنه، كما كان يأمل الألمان، أن يستلزم حضورًا قويًا للقوات العسكرية البريطانية في السويس وإلهاء قوات الحلفاء عن الجبهات الأوروبية. وصُوّرت الحملتان المشؤومتان على السويس، عمومًا، على أنهما مقامرة في أفضل الأحوال، ومناورة عسكرية عدميّة في أسوأها، حيث استدرج الألمان القيادة السياسية والعسكرية العثمانية السيئة الحظ. لكن الحرب، بالنسبة إلى العثمانيين كانت تلوّح بإمكان طرد البريطانيين من مصر، واستعادة هذه الأخيرة إلى الإمبراطورية.

---

(17) حُشد نحو 130.000 في فلسطين. Alexander Aaronsohn, *With the Turks in Palestine* (Boston; New York: Houghton Mifflin Company, 1916), and M. Metin Hülagü, *Pan-Islâmist faaliyetler: 1914-1918* (Istanbul: Boğaziçi, 1994), pp. 108-109.

لم تكن حملات الحرب، خصوصًا الأولى منها، مدفوعة باليأس بقدر ما كانت مدفوعة بتفاؤل في غير محلّه. وإذ ثبت بُعد احتمال النجاح وانتهاء الحملات إلى الفشل، عزز ذلك تفسيرات تبسيطية صوّرت الحملات على أنها مغامرات دونكيشوتية. لكن التخطيط الاستراتيجي العثماني والألماني الكثيف والتحضيرات اللوجستية الموسّعة، متضافرين مع جهد ضخم على صعيد البنية التحتيّة، كل ذلك يكذّب فكرة مهمة التضييق الانتحارية في مصر. وكانت القيادتان الألمانية والعثمانية على ثقة بأن ثورات داخلية ستزعزع حكم الإنكليز في مصر، وتُضعف عزمهم على مواصلة الاحتلال. إضافة إلى ذلك، كان يمكن لهجوم مزدوج على مصر من الشمال والجنوب أن يكون حاسمًا، وهو بدا احتمالًا حقيقيًا، إذ حرّض العثمانيون قوات السنوسي القبلية على شنّ هجمات من ليبيا على مصر، آملين أن تتحول هذه الهجمات حرب استنزاف.

كان لا بدّ من التحصينات العسكرية والتعزيزات اللوجستية في سورية لمواجهة الوجود البريطاني القوي في مصر. لكن السياسة العثمانية كانت أبعد مدى بكثير من الاعتبارات العسكرية، إذ خدمة أهداف سياسية معينة استولدت أخرى جديدة. لم يقتصر الأمر على وجوب تعزيز دفاعات سورية فترة الحرب، بل كان ضروريًا أيضًا إدماجها الاجتماعي والثقافي في الإمبراطورية العتيدة. كان هدف اسطنبول نزع فتيل التيارات القومية واتخاذ تدابير من شأنها تعزيز الصلات بالدولة وهي تخوض الحرب ضد الجيش البريطاني.

عمل جمال باشا، بصفته قائد الجيش الرابع وحاكم سورية، مع الضباط والخبراء الألمان عن كثب لتحقيق أهداف الحرب المتعددة. كانت الاتصالات بين اسطنبول وبرلين، فضلًا عن التجسس والدعاية الألمانيين في مصر، بدأت حتى قبل إبرام الحلف رسميًا. وفي الواقع، كان العملاء الألمان في القاهرة، ومن بينهم البارون فون أوبنهايم وكيرت بروفر، قد انكبّوا في وقت مبكر - يعود إلى الحرب الليبية - على الدعاية في مصر بغية كسب الدعم للمقاومة الليبية. وفي أيلول/ سبتمبر 1914، أرسل فريدريك كريس فون كرسنشتاين إلى دمشق لتنظيم الفيلق الثامن في الجيش الرابع بغية شنّ حملة على مصر، وعُيّن بروفر مستشارًا له[18].

(18) McKale, pp. 20-30.

كان تعزيز الجهد العثماني الرامي إلى إقامة سلطة وشرعيّة في سورية متوافقًا مع المصالح الألمانية. وساهم حضور ألمانيا الكثيف في سورية في تنفيذ مجموعة من السياسات التي استوحيت جوانبها من المستشارين الألمان، وتحققت بفضل الدِّراية الألمانية، وإن كانت المصالح العثمانية الإمبراطورية هي التي ولّدتها.

شكّل الدمار والمعاناة في سورية زمن الحرب حجر الزاوية في السرديات التأسيسيّة للدول اللاحقة التي اقتُطعت من سورية الكبرى، ولا سيّما لبنان وسورية. ووصَمت هذه السرديّات جمال باشا بأنه صبغ موقف جمعية الاتحاد والترقي الأيديولوجي بمطامحه وتعاليه الشخصي، وبأنه مارس في سورية سياسة تعسفية ومتهورة وأنانية. وبرز جمال باشا، المعروف عند أجيال العربية عدة بلقب «السفّاح»، رمزًا لحكم «الأتراك» في الولايات العربية، وكرّست الذاكرة الجماعية المصقولة بعناية هذا التوصيف وعزّزته. لكن تفحّصًا أدقّ للسّجل التاريخي يستدعي تقويمًا يربط سياسات كلٍّ من جمعية الاتحاد والترقي وجمال باشا بمنطق إمبراطوري أوسع[19]، ذلك أن الأساطير التي تحيط بشخص جمال باشا تسيء تمثّل الأهداف العثمانية في ولايات الإمبراطورية النائية، كما يعمّ الروايات الحالية التي تتناول الحكم العثماني في سورية في فترة الحرب خطاب عنف وعقاب، ويُنظَر إلى سياسة الحكومة على أنها محاولة أخيرة لتتريك سورية بالإكراه، تحت وطأة الحرب والفرص التي أتاحتها.

كانت تصفية جمال باشا للمعارضين السياسيين ذوي الميول القومية العربية الفاجعة الرئيسة التي بقيت محفورة في أذهان السوريين. فالوثائق التي صودرت من القنصلية الفرنسية في بيروت كانت تدين عددًا من السوريين بالتواطؤ مع الفرنسيين، وأجريت لهم محاكمات سريعة وحُكم على كثير منهم بالإعدام. وعُلّقت مشانق لعشرات السوريين على دفعتين في عامي 1915 و1916، في إعدام على رؤوس الأشهاد. لم يكن العنف مقتصرًا على عمليات الإعدام، إذ رحّلت الحكومة إلى الأناضول آلاف السوريّين بوصفهم معارضين

(19) M. Talha Çiçek, *War and State Formation in Syria: Cemal Pasha's Governorate during World War I, 1914-1917*, Routledge Studies in Middle Eastern History; 15 (London; New York: Routledge/Taylor & Francis Group, 2014), and Nevzat Artuç, «Ahmed Cemal Paşa (1872-1922): Askeri ve Siyasi Hayatı» (PhD. Thesis, Süleyman Demirel University, Sosyal Bilimler Enstitüsü, Isparta, Turkey, 2005).

وانفصاليين[20]، لكن المفارقة تمثّلت في أنّ محاولة جمال باشا خنق النشاط السياسي في سورية ووأد المعارضة في مهدها عمّقت الشعور القومي العربي. وراحت هذه التدابير تثير ذكريات العنف التي غذّت القومية العربية.

في الوقت عينه، أهلك النقص الغذائي الحاد الذي استمر بين عامي 1915 و1918 ما يُقارب نصف مليون سوري. وتزخر روايات شهود العيان وروايات الحرب[21] بقصص حيّة عن أطفال تضوّروا جوعًا، ورجال ونساء كانوا يلتمسون كسرات الحبوب في مزابل البهائم، وأكل الجراد... إلخ. ورأى نقّاد جمال باشا أن أولويته المتمثلة بتزويد الجيش بالمؤن وتوزيعه الحصص الغذائية على أفراده كانت عقابًا متعمّدًا للشعب السوري. أمّا احتفالاته العامة وحفلاته التي نُظّم بعضها تكريسًا للمناسبات الإمبراطورية وسواها من المناسبات الخاصة بغية إظهار الفخامة والمهابة، فكانت تثير امتعاض المتفرّجين الجائعين واستياءهم ممن كان أبناؤهم يموتون على الجبهة، ورأوا أن مظاهر كهذه، يشارك فيها ضباط ألمان ويُسمح فيها باختلاط الجنسين، تتعارض مع الدعاية الحكومية التي تُشيد بالتضامن الإسلامي، وتحثّ على الجهاد[22].

لم تكن التدابير التي سببت كلّ هذا العناء - وكانت متطرفة في عنفها أو تعسّفها - إلا أحد أوجه السياسة العثمانية في سورية، وكان تُقابلها مجموعة من المبادرات التي لا تتلاءم مع السياسة القسرية وخطاب العنف، لكنها اتّخذت لتخدم أهداف الإدماج الكلي للدولة العثمانية. لكن هذا الجهد غير معروف

---

(20) Fuat Dündar, *İttihat ve Terakki'nin Müslümanları iskân politikası, 1913-1918*, Araştırma-inceleme dizisi; 112 (İstanbul: İletişim, 2001), and Şaban Ortak, Osmanlı'nın son manevralarından: Suriye ve Garbî Arabistan tehcîri (Ankara: Pegem Akademi, 2011).

(21) Linda Schatkowski-Schilcher, «The Famine of 1915-1918 in Greater Syria,» in: John P. Spagnolo, ed., *Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective: Essays in Honour of Albert Hourani*, St. Anthony's Middle East Monographs; no. 26 (Reading: Ithaca Press, 1996), pp. 229-258; Najwa Qattan, «Safarbarlik: Ottoman Syria and the Great War,» in: *From the Syrian Land to the States of Syria and Lebanon*, Edited by Thomas Philipp and Christoph Schumann, Beiruter Texte und Studien; 96 (Beirut: Ergon Verlag in Kommission, 2004), pp. 163-173; Salim Tamari, *Year of the Locust: A Soldier's Diary and the Erasure of Palestine's Ottoman Past* (Berkeley: University of California Press, 2011), and Elizabeth Thompson, *Colonial Citizens: Republican Rights, Paternal Privilege, and Gender in French Syria and Lebanon*, The History and Society of the Modern Middle East (New York: Columbia University Press, 2000), pp. 19-30.

(22) Tamari, *Year of the Locust.*

تمامًا، ويعود ذلك، جزئيًا، إلى أن كثيرًا منها لم يؤتِ ثماره نتيجة خسارات الجيش العثماني والخسارات الإقليمية العاجلة؛ أو فشلت في تحقيق غرضها حين أجبر العثمانيون على الانسحاب من الولايات العربية. وبذلك بقيت مطموسة، ليس لأنها فشلت أو أُجهضت، بل لأنها لا تتلاءم والنظرة الاستعادية السائدة التي يُنظَر بها إلى الإدارة العثمانية في سورية خلال سنوات الحرب.

أكبّ جمال باشا والخبراء العثمانيون، محاطين بجيش من المستشارين الألمان، على برنامج للبناء شامل، وتطوير للمناطق الحضرية ومشروعات أخرى تخصّ البنية التحتية[23]، وبينها برنامج للحفاظ على التاريخ الذي صُوّر على أنه جزء لا يتجزأ من الجهد الرامي إلى صوغ وعي جديد بالذّات، والحفاظ على سورية حصّةً للإمبراطورية. ركزت مشروعات البناء على إمداد والاتصالات، فأعطت الأولوية لبناء الطرق والسكة الحديد التي تخصّ الحملتين ضد قناة السويس. وأتى ثانيًا برنامج الأشغال العامة الذي سار العمل فيه بالتزامن مع المشروعات المتعلقة بالأمور العسكرية، وعزّزها (مثل بناء مرافق الريّ، والصرف الصحي، والنقل). ومن الواضح أن تجديد البنى التحتية السورية لم يكن مقتصرًا على هدف شنّ حرب ناجعة. إذ عززت المشروعات تواصل الإمبراطورية، خصوصًا الخطوط التي تربط سورية الكبرى بالأناضول، فضلًا عن الخدمة التي قدمتها للسكان المحليين. وكان لمجموعة المشروعات التي تضمّنت التعليم، والتجديد الحضري، والحفاظ على التاريخ، منطق مماثل؛ إذ أكملت السياسات القسرية المعروفة، وكان لديها، مثلها، اندفاع صارم يرمي إلى إنتاج شرعية. ولا يمكن بغير ذلك أن نفسّر الجهد والموارد الاستثنائية التي صُبّت في تلك المشروعات في خضمّ الحرب وضروراتها. ولم تقتصر أوامر الجيش الألماني على تمويل الكثير من هذا الجهد فحسب، بل تعدّاه إلى تقديم الخبرة التقانية أيضًا.

بغية توطيد الشرعية واستثارة الولاء، عززت الدولة العثمانية دورها كمعلّم، فأنشئ خلال الحرب العالمية الأولى كثير من المؤسسات التعليمية لجميع المستويات في المدن الرئيسة، دمشق وبيروت والقدس، بما في ذلك أكاديمية

(23) Çiçek, *War and State* Formation, and Hasan Kayali, «Wartime Regional and Imperial Integration of Greater Syria during World War I,» in: *From the Syrian Land*, pp. 295-306.

إسلامية افتتحت في القدس في عام 1915. وإذا كان التعليم وفّر استراتيجيا للسيطرة بتكريسه شرعية النظام القائم من خلال غرس قيم الدولة[24]، فإن تلاعب الصحافة تلاه مباشرة. فكانت سياسة الصحافة ذات وجهين: أولًا، سخّر جمال باشا الصحف لإضعاف الشعور العربي وتقوية الولاءات الإمبراطورية؛ وثانيًا، خدمت الصحف هدف نشر الدعاية الدينية لدعم «الجهاد» الذي أعلنه السلطان في بداية الحرب. ورعا جمال باشا الصحف الرئيسة الصادرة في سورية من خلال تقديمه معونات شهرية، وكان مقدار الدعم يختلف تبعًا لحجم تأثير الصحيفة وموقفها المعارض في الماضي. وكان يطلب أن تتضمّن الصحف أخبار الحرب، فضلًا عن خلاصات «مفيدة» من الصحافة في اسطنبول، مقدّمًا مكافآت لكتاب المقالات من السوريين المعروفين جزاء مساهماتهم.

في سنوات الحرب، لم تثمّن الحكومة العثمانية الأغراض التي يُمكن أن تؤدّيها الصحافة فحسب، بل أدركت أيضًا أنه، في سورية، يُمكن للصحافة الخاضعة للرقابة التي تخوض في موضوعات دينية أن تحبط تأثير مجموعة من الصحافيين العروبيين. أقرّ جمال باشا مثل هذه المبادرة، وسعى إلى إقامة علاقات مع بعض مالكي بعض الصحف ورؤساء تحريرها. وأصرّ على عدم تدخل الألمان بشكل مباشر في هذا المشروع. وكان هؤلاء دعموا كثيرًا من المطبوعات، لكنهم كانوا ميّالين إلى أداء دور فاعل في الصحافة، وأراد فون أوبنهايم رعاية صحيفة في دمشق. وسهّلت الحملة الدعائية الألمانية المنظّمة تحت إدارته الجهد العثماني، كما تضاربت معها في الوقت ذاته، الأمر الذي يسلّط الضوء على ميدان آخر من ميادين التعاون والنزاع.

بذل جمال باشا جهدًا مدروسًا للحفاظ على آثار سورية وترميمها والتعريف بها، كانت أكثر مدعاة للاهتمام من برنامج ترميم المناطق الحضرية على خلفية الحرب، لكنها خدمت أهدافًا مماثلة. أمر جمال باشا بإجراء مسح للمواقع والآثار التاريخية، ولم يقتصر ذلك على المباني العثمانية والإسلامية القديمة، بل شمل البنى التي تعود إلى إرث المنطقة التاريخي بأكمله. ونُشرت صور وتوصيفات

(24) Timothy Mitchell, *Colonising Egypt*, Cambridge Middle East Library (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1988), p. 35.

بعض المواقع المتنوعة، بالألمانية والعثمانية، تحت عنوان أوابد قديمة من سورية وفلسطين وغرب شبه الجزيرة العربية[25]. وهذا الكتاب مثال على الجهد الرامي إلى إنتاج «هوية حديثة من خلال تمثيلات تواريخ مُنتقاة تُناسب احتياجاتها لإنتاج هوية»[26]. وهذا الكتاب أشبه بكتاب مصور، لا يُظهر العمل البحثي الذي أجري في بعض المواقع التي يُصورها، وفيه لوحات كبيرة لمئة موقع بالتحديد، تُصوّر جوامع دمشق وحلب والقدس، ومعابد البتراء وتدمر، وأسوار المدينة، والقلاع، وكنيسة المهد في بيت لحم، وحائط المبكى... إلخ.

استفادت الدولة العثمانية في سورية مما أشار إليه توني بينيت على أنه «وجه يانوس للسلطة». فكما «أرهبت منصات المشانق الشعب لتجبره على الطاعة»[27]، عزّزت المدارس والصحافة السلطة والولاء. واستُمدّت الشرعية من استخدام رموز الماضي[28]، وإدخال قوة الدولة وعقلانيتها إلى النسيج الحضري. ويلاحظ مارتن ستروميير سياسات جمال باشا التي تبدو متضاربة في سورية، ويشير إلى «تركيب شخصيته الهجينة»[29]. فيجب أن يُنظر إلى هذه السياسات في ضوء وجه يانوس للسلطة الذي وصفه بينيت، والأسس المزدوجة للشرعية المستمد أحدها من الإسلام والآخر من أنموذج الدولة القومية الأوروبي، حيث يُكمل واحدهما الآخر بدلًا من النظر إليهما في ضوء سمات شخصية جمال باشا.

صار جدول الأعمال الثقافي والأيديولوجي والمتعلق بالبنى التحتية الذي نفذته الحكومة في سورية في ظلّ مقتضيات الحرب مثار جدل حين خسر الجيش العثماني معاركه واضطر إلى الانسحاب إلى شمال حلب وتنازل عن سورية الكبرى لقوات الاحتلال الإنكليزي. وكان للانحياز التأريخي المتأخر ضد واقع

(25) *Alte Denkmäler aus Syrien, Palästina und Westrabien* (Berlin: G. Reimer, 1918).

(26) Wendy M. K. Shaw, *Possessors and Possessed: Museums, Archaelogy, and the visualization of History in the late Ottoman Empire* (Berkeley, Calif: University of California Press, 2003), p. 28.

(27) Tony Bennett, *The Birth of the Museum: History, Theory, Politics*, Culture: Policies and Politics (London; New York: Routledge, 1995), p. 21.

(28) Selim Deringil, *The Well-Protected Domains: Ideology and the Legitimation of Power in the Ottoman Empire, 1876-1909* (London; New York: I.B. Tauris, 1998), p. 27.

(29) Martin Strohmeier, *Al-Kullīya as-Salāhīya in Jerusalem: Arabismus, Osmanismus und Panislamismus im ersten Weltkrieg*, Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes; 49, 4 (Stuttgart: F. Steiner, 1991), p. 23.

هزيمة دول المحور وتفكك الإمبراطوريات التي كانت قائمة على أرض أوروبا، وبينها الدولة العثمانية، تأثير كبير في تصوير الشؤون الداخلية والسياسة الخارجية العثمانية في أثناء الحرب، بما في ذلك التحالف مع ألمانيا. وأفقدت الهزيمة، في نهاية المطاف، الأهداف العثمانية والألمانية صدقيتها وصلاحيتها، وطمست تعقيدات التفاعل بين الحلفاء، ذلك التفاعل الذي تضمّن تعاونًا مثمرًا كما تضمن نزاعات، وأساءت تمثيل العوارض التي أدّت إلى قيام التحالف العثماني - الألماني في عام 1914. وبعيدًا عن كونهم محكومين سلفًا بانتصار القومية الإثنية، وهي فكرة في صلب رؤى التاريخ الاستعادية في الشرق الأوسط وأبعد منه، استفاد العثمانيون من خيارات تقف ضدّ تلك الرؤى، كجهد العثمانيين لإحياء وتعزيز الولاءات الإمبراطورية في سورية في أتون الحرب. وكما لم يُعرَف المنتصرون والمهزومون في هذه الحرب قبل سنة القتال الأخيرة 1917-1918، ظلّ مصير بنى الدولة العثمانية السياسية العريقة قابلًا للأخذ والردّ، حتى وقت متأخر كثيرًا.

الفصل السابع عشر

تركة العثمانيين بعد هزيمتهم في عام 1918

مايكل بروفنس

في العقود التي سبقت الحرب العظمى 1914-1918، كانت الإمبراطورية العثمانية دولة في طور التحديث، شأنها شأن الإمبراطورية الروسية، وإمبراطورية آل هابسبورغ، والإمبراطورية الألمانية. عاش الناس ظهور الدولة الحديثة ومطالبتها بحقها في مواردهم وأجسادهم ووعيهم، وكانت القصة متشابهة في نهاية الحرب بالنسبة إلى المنخرطين فيها، تدور حول نقاط أربعة: التعبئة الشاملة والمواطنة والتعليم وترسيخ عقائد الدولة وسردياتها الجماعية، من ضمن إرثٍ وسم القرن التاسع عشر الطويل. بعد عام 1918، قسّمت بريطانيا وفرنسا الدولة العثمانية إلى أكثر من عشر دول مستعمرة وشبه مستعمرة جديدة، فكان هذا الحدث أصل الشرق الأوسط الحديث والصراع على فلسطين، إضافة إلى نزاعات إقليمية أخرى شهِدها القرن الماضي.

ما قبل مواطنو الإمبراطورية العثمانية المهزومة السابقون بالتقسيم ولا بالاستعمار، فاستقبلوا التسوية الفرنسية - البريطانية بعد الحرب بالثورات والتمرد في دول الشرق الأوسط. لكنّ إرث الحداثة العثمانية في القرن التاسع عشر، الذي ربط بين حركات التمرد وسهّل ظهورها، ضاع في تفصيلات التأريخ القومي الاستعماري وما بعد الاستعماري لهذه الحركات نفسها.

أولًا: تسوية ما بعد الحرب العظمى والتمرّد عليها

لم تكن الحرب العظمى تُذكَر في الشرق العثماني على أنها الحرب التي وقعت بين عامي 1914 و1918، كما تدّعي أوروبا. إذ بدأت الحرب، بالنسبة إلى الدولة العثمانية ومواطنيها السابقين، في عام 1911 مع الغزو الإيطالي لليبيا العثمانية، ولم تنته تمامًا، بحسب المواقع التي دارت فيها، إلا في أواسط عشرينيات القرن العشرين. وكانت الحرب العالمية الأولى، على الأقل جزئيًا، تنافسًا بين بريطانيا وفرنسا وروسيا وألمانيا من أجل الهيمنة على أوروبا، والمناطق الواقعة

خلفها مباشرة، وممتلكاتها الإمبراطورية. كان من بين أهم المناطق الواقعة خلفها مباشرة، من منظور الأهداف الحربية البريطانية والألمانية، تلك التي تقع ضمن الأقاليم العثمانية، وأولتها ألمانيا وبريطانيا اهتمامًا مزيدًا، وكرّست لها الموارد الاستراتيجية في آب/ أغسطس 1914، وزادتها في الأعوام التالية[1].

توقّع مخططو الحرب البريطانيون أن تكون الحرب مع العثمانيين نزهة، لكن ضراوة الرد العسكري العثماني وفاعليته صدمتا البريطانيين شعبًا وقيادة، وأدت إلى كوارث دامت سنوات في مدن عدة مثل الكوت وغاليبولي وغزة، إلى مدن أخرى كثيرة أقل شهرة.

تمحورت الرواية الأكثر شيوعًا عن الحرب العظمى في الأقاليم العثمانية حول قصة ت إ. لورنس والثورة العربية بقيادة الشريف الحسين وأبنائه، والنضال ضد ما سمّاه المؤرخون البريطانيون، والتأريخ القومي العربي اللاحق، «الاحتلال والاضطهاد التركيين». جزء كبير من هذه الرواية سيرة بطولية تطمس، على أهميتها، حقيقة حشد ثلاثة ملايين عثماني ليخوضوا الحرب. أتت هزيمة العثمانيين النهائية بعد سنوات من البؤس والعنف في أواخر عام 1918 قرب نابلس، في معركة خاضوها ضد جنود الاستعمار البريطاني الهنود، وشارك منهم في هذه الحرب العظمى أكثر من مليون[2].

لم تكن الثورة العربية إلا حدثًا صغيرًا وسط حرب مهولة، قتل فيها الملايين وتعرضت ملايين أخرى لتشويه. إلى جانب لورنس وفيصل، كانت الشخصيات المركزية في هذه الثورة ضباطًا عثمانيين سابقين قيل إنهم فروا من الجيش العثماني لتحقيق طموح قومي عربي في مواجهة الاضطهاد التركي. بحلول عام 1914، كان في عداد الجيش العثماني نحو 12000 ضابط تلقوا تعليمهم في منظومة الكلية

---

(1) تعتبر المناورات العسكرية البحرية الباكرة أمرًا مهمًا. وأشار استيلاء تشرشل على سفن حربية مصنوعة في بريطانيا كانت قد اشترتها الدولة العثمانية، وحوادث مدينتي غوبن وبرسلاو التي وقعت في نهاية شهر تموز/ يوليو وأوائل آب/ أغسطس، ودخول ثلاثة سفن حربية بريطانية إلى شط العرب في أواخر أيلول/ سبتمبر 1914، إلى مركزية الدولة العثمانية بالنسبة إلى أهداف الحرب البريطانية والألمانية قبل دخول العثمانيين الحرب.

(2) Mustafa Aksakal, «Introduction,» *International Journal of Middle East Studies* [IJMES], vol. 46, no. 4, Special Issue: «World War I» (November 2014).

الحربية الشاملة، وتمّت ترقية أو تجنيد زهاء 20000 آخرين كضباط احتياط. وبين هذه الألوف المؤلّفة، تحدّر 15 إلى 25 في المئة منهم من مناطق سورية الكبرى والعراق الناطقة باللغة العربية، وكان في صفوف الثورة العربية 20 إلى 50 ضابطًا عثمانيًا سابقًا، جنّدتهم الاستخبارات البريطانية بعد اعتقالهم واحتجازهم في معسكرات بمصر أو الهند[3].

من ناحية أخرى، انتهى الأمر بمئات الضباط العثمانيين العرب الناجين الذين كانوا في الخدمة في عام 1914 إلى اعتبارهم محاربين قدامى ومتقاعدي حرب الاستقلال التركية وجيش الجمهورية التركية التي انبثقت في عام 1924[4]. كان هؤلاء جنودًا محترفين، ما تخلوا عن الجيش الذي دُرِّبوا لخدمته، على الرغم من المتغيرات.

في نهاية الحرب العظمى، في تشرين الثاني/ نوفمبر 1918، احتلّ الجيش البريطاني المقاطعات العربية وعاصمة الدولة العثمانية المهزومة. قسّم السياسيون البريطانيون والفرنسيون المنطقة، ووضعوا تصورًا لمجموعة منوعة من الدول الجديدة تحت الحكم المباشر أو غير المباشر لأنظمة استعمارية عميلة موثوقة. فتبع اليهود الصهاينة في فلسطين، والمسيحيون الأرثوذكس في غرب الأناضول، وأبناء الشريف حسين في المناطق العربية، بريطانيا، بينما فضلت فرنسا أن ترعى المسيحيين الأرمن والموارنة في جنوب شرق الأناضول ولبنان.

كانت تسوية ما بعد الحرب ارتجالًا متسرّعًا، ومحاولة فوضوية للتوفيق بين وعود أطلقتها فرنسا وبريطانيا خلال الحرب، مع الحفاظ على الأولويات المحروسة عن كثب، التي أدّت في الأصل إلى اندلاع هذه الحرب.

بالنسبة إلى بريطانيا، كان شغلها الشاغل أن تمنع عودة الدولة العثمانية بضخامتها المهولة، وأن تضعف ألمانيا على الدوام وتُبعدها عن حقول النفط في

(3) إن نشأة معسكرات الاعتقال واضحة في جميع المذكرات الموجودة، ومن بينها مذكرات نوري السعيد وجعفر العسكري وآخرين. وانتهى الأمر بأغلبية الضباط «الشريفين» المعروفين بالبقاء في الخدمة العثمانية حتى بدء الهدنة.

(4) Mesut Uyar, «Ottoman Arab Officers between Nationalism and Loyalty during the First World War,» *War in History*, vol. 20, no. 4 (November 2013), pp. 537-538.

الشرق الأوسط وقناة السويس والطريق البرية إلى الهند. أما الأهداف الفرنسية فكانت أكثر غموضًا، وتركزت على إعادة تأكيدٍ وطنية للهيبة الفرنسية ولصورة فرنسا في أعقاب كارثة الحرب. ومهرت عصبة الأمم الجديدة بخاتمها الشرعي هذه التسوية، وأصرت على تسمية الدول المستعمرة «دول انتداب». وبلغت مجتمعات كانت في السابق جزءًا من الإمبراطورية التركية مرحلة من التطور، مكّنتها من الحضور دوليًا كدول مستقلة معترف بها، تخضع بصورة موقتة لمساعدة الدولة المنتدبة وتستقي منها النصح الإداري، إلى أن يحين وقت تصبح فيه قادرة على النهوض وحدها. وتكون رغبات هذه المجتمعات هي العامل الرئيس في اختيار الدولة المنتدبة[5].

شارك الآلاف من سكان الدول المستهدفة بهذا الاستعمار على تسوية ما بعد الحرب وامتيازات الدول الجديدة. وعلى الرغم من مزاعم الحكومات الاستعمارية المعاكسة، كان ثمة ما يوحّد هذه الانتفاضات، وأجبرت السلطات على قبول قرارات الانتداب الصادرة عن عصبة الأمم، وتعهدت إقامة علاقات وصاية مع الدول الجديدة وتمتينها، لتعزيز الحكم الصالح والبنى القانونية والتعليم والتنمية. لكن ظهرت حركات التمرد المسلّحة في وقت مبكر في الأناضول والعراق وسورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن. وكثيرًا ما كان في حركات التمرد هذه عناصر شاركت في القتال في أكثر من منطقة، وكان الناس في هذه الدول الجديدة يتابعون الحوادث بشغف، محلية كانت أم في مناطق مجاورة.

ردّت سلطات الانتداب على الانتفاضات بالقمع العسكري، وأتت جيوشُ الاستعمار بتقنيّات العنف الصناعي الذي ابتُكر خلال الحرب العالمية الأولى لقمع حركات التمرد في المستعمرات، وبينها الطرد الجماعي والعقاب الجماعي وقصف المدن والبلدات والقرى بالطيران، والإعدام الجماعي، ووضع الدبابات والمدفعية في القرى وأحياء المدن. كما لجأت سلطات الانتداب إلى القوانين الاستعمارية العرفية.

حبكت كلّ ثورة من هذه الثورات حبكًا متينًا في التواريخ القومية للدول –الأمم ما بعد الاستعمارية. فهناك، مثلًا، حرب الاستقلال التركية، وثورة 1920 العراقية،

(5) عصبة الأمم المتحدة، ميثاق عصبة الأمم، المادة 22، جنيف، 1920.

والثورة السورية الكبرى بين عامي 1925 و1927، والثورة الفلسطينية الكبرى، إذا ذكرنا الأشهر بين هذه الثورات.

في فلسطين، أطلقت حركة المقاومة الإسلامية (حماس) اسم «كتائب عزّ الدين القسام» على جناحها العسكري تيمنًا باسم المجاهد القسام الذي استشهد في عام 1935. أصبحت الكوفية، وهي غطاء رأس ذو نقش مربع، رمز الحركة الوطنية الشهير الذي يحتفي بذكرى مقاومة 1936[6] الريفيّة والمهمّشة في أغلبها.

طالب المتمردون في سورية وفلسطين العشرينيات والثلاثينيات من سكان البلدات الكفّ عن لبس طربوش النخبة وارتداء كوفية الفلاحين بدلًا منه. وسعت المجموعات العراقية المسلحة التي واجهت الاحتلال الأميركي في عام 2003 إلى استخدام عباءة ثورة 1920 ضد البريطانيين في التسميات التي أطلقتها على نفسها.

تبقى حربُ الاستقلال في تركيا التجربةَ الوطنية الجوهرية. وتحضر كل واحدة من حركات التمرد المختلفة حضورًا بارزًا في مناهج التعليم الابتدائي والثانوي في البلدان ما بعد الاستعمارية التي جرت فيها الحوادث.

خاض قادة المتمردين في كل ثورة من هذه الثورات سلسلةً من التجارب، بينها التعليم العثماني، عادةً في مدارس الإعداد العسكري وغالبًا في الكلية العسكرية الإمبراطورية العثمانية، والخدمة في أوقات الحرب في الأقاليم العثمانية النائية، وصدمة الهزيمة، والاحتلال، والبطالة التي كثيرًا ما تلت الحرب العظمى. كان معظمهم ينحدر من خلفية متواضعة تعود إلى إحدى المناطق الريفية، وتلقّوا تعليمهم المدعوم بالكامل ضمن النظام العثماني العسكري. كما كانت أغلبية المتمردين الذين نشطوا خلال حقبة الانتداب من مواليد تسعينيات القرن التاسع عشر، وخاض كثير منهم القتال في مناطق عدّة واقعة تحت الحكم الأوروبي. ولم يكونوا يولون الحدود أو ترتيبات الحكم أو مزاعم الأنظمة الكولونيالية إلا اهتمامًا ضئيلًا.

---

(6) Ted Swedenburg, *Memories of Revolt: The 1936-1939 Rebellion and the Palestinian National Past* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1995), p. 32.

ثانيًا: التعليم العسكري العثماني

لم يُدرس التعليم العسكري العثماني كثيرًا، ففي العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر كانت الدولة العثمانية قد بنت نظامًا شاملًا للمدارس العسكرية والمدنية، من المرحلة الابتدائية إلى مستويات ما بعد التخرج.

بُني معظم نظام التعليم العسكري العثماني في أواخر القرن التاسع عشر على غرار نظام طلاب الضباط البروسي الذي دُرس جيدًا، في حين لم يأخذ الباحثون التحديث المؤسساتي العثماني على محمل الجد، إذ غرقوا في جدال المجتمع الشرقي والحداثة الغربية. لكن المؤكد أن التعليم الحكومي العثماني سبق نظراءه في معظم الدول الآخذة بالتحديث وتجاوزها. كما أن دستور 1876 العثماني المجهض سبق نظراءه في كثير من الدول الأوروبية[7].

نظّم الإصلاحيون العثمانيون التعليم الحكومي على مدى عقود أواسط القرن التاسع عشر. وبعد إقرار قانون التعليم في عام 1869، تمحورت النظم التعليمية العسكرية والمدنية حول مجموعة افتراضات وأهداف متشابهة. وكان النظام العسكري، على الرغم من قلة اهتمام المؤرخين به، أفضل تمويلًا وأحسن تنظيمًا من غيره من الأنظمة. ونصّ القانون على إنشاء مدرسة ابتدائية في كلّ قرية، ومدرسة ثانوية دنيا أو رشدية في كلّ بلدة، وإعدادية أو سليمانية أو ثانوية عليا في عاصمة كل ولاية.

في المرحلة الرشدية وما فوق، قُسّمت المدارس قسمين: عسكري ومدني. وغالبًا ما جُمعت المرحلتان الابتدائية والرشدية في مرحلة واحدة تدوم ست سنوات. وكانت المرحلة التالية، الإعدادية، تدوم ثلاث سنوات إضافية. استقبلت المدارس الإعدادية العليا طلابًا من مدارس مهمة، مثل مدرسة دمشق العسكرية، ومدرسة بغداد العسكرية، وسليمانية بيروت، ومكتب عنبر، ومدارس غلطة سراي، وتصل الدراسة فيها إلى سبع سنوات. وكان للطلاب الواعدين أن يواصلوا

(7) أفادني كثيرًا عمل يوت فريفرت عن التجنيد والمواطنة الألمانيين. انظر: Ute Frevert, *A Nation in Barracks: Modern Germany, Military Conscription and Civil Society*, Translated by Andrew Boreham Daniel Brückenhaus (Oxford; New York: Berg, 2004).

دراساتهم في أكاديمية لخدمة الإمبراطورية، سواء في الكلية العسكرية أم المكتب الحربي، أم في أكاديمية الخدمة المدنية، أم المدرسة الملكية، أم كلية الطبّ أو الحقوق[8].

كانت المدارس المدنية مرموقة، اجتذبت إليها طلابًا من عائلات النخبة العريقة بسبب رسومها الباهظة، ودخلت في منافسة مباشرة مع المدارس التبشيرية الأجنبية التي غالبًا ما رأت فيها الدولة ونخبها تهديدًا. على النقيض من ذلك، صُمِّم التعليم العسكري ليجذب أبناء الوجهاء في الأرياف والولايات إلى جهاز الدولة. ورأى بيروقراطيو الدولة المتعلمون في أمان الريف وتحصيل الريع مفتاحًا للتحديث. كما نظرت نخب الدولة إلى المناطق الريفية والبدوية كمناطق دائمة التمرد، بعيدة عن التحضر، وبحاجة إلى ضبط الدولة وإشرافها المستمرين.

في حين كان القمع العسكري ضروريًا لتوفير الأمن وتحصيل الضرائب، بات ترسيخ النظام العثماني أيضًا أداة مهمة لتكامل الدولة. وإلى جانب انشغال موظفي الحكومة العثمانية بالأمن الداخلي، انشغلوا أيضًا بالتهديدات الخارجية التي مثلتها روسيا ودول البلقان والقوى الأوروبية، فكان وجود الشعب المُجَيَّش القوي المتلاحم، وتدفق الريع الثابت، من المسائل الحيوية.

في عام 1889، أصبح الجنرال البروسي كولمار فون دير غولتز، مؤلف كتاب **الأمة المسلحة** (*Das Wolk in Waffen*)، قائد البعثة العسكرية الألمانية الجديدة إلى الدولة العثمانية. وكان السلطان عبد الحميد الثاني قد تقدم قبل ثلاث سنوات بطلب شخصي إلى رئيس وزراء بروسيا أوتو فون بسمارك لإرسال بعثة عسكرية إلى تركيا. تمهّل بسمارك في الاستجابة، وأبلغ السفارتين البريطانية والنمساوية بهذا الطلب. وعندما أرسل أخيرًا عددًا من الضباط، لحق بهم فون دير غولتز، ليضمن أنهم سيعاملون بموجب العقد الرسمي الموقع مع قيادة الأركان العثمانية،

(8) Selçuk Akşin Somel, Apendices 4-6, Curricula of İbitidâî, Rüşdiye, and İdâdî schools 1904, pp. 297-309, and تحسين علي، مذكرات تحسين علي، 1890-1970، تقديم ومراجعة صالح محمد العابد (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004)، ص 15.

استخدمتُ الحروف العربية في ترجمة المدارس المحلية، والتركية الحديثة للأكاديميات في العاصمة الإمبراطورية.

وسيحصلون على إجازات شأنهم شأن الضباط الألمان هناك. أقام دير غولتز في اسطنبول 12 عامًا حتى عام 1896، وتقاعد في أولى سنوات القرن العشرين، لكنه بقي على اتصال بمعجبيه من طلابه السابقين في هيئة الأركان العامة، الذين كانوا يراسلونه من وقت إلى آخر(9).

كان محمد شوكت باشا، المولود في بغداد، صديق غولتز الأقرب بين مجموعة الضباط العثمانيين، وقضى سنوات عدة في ألمانيا في تسعينيات القرن التاسع عشر. وحين قامت الثورة الدستورية الثانية في عام 1908، اعتبر قادتها من الضباط الشباب محمد شوكت عرّابهم الفكري، وشغل منصب الصدر الأعظم في عام 1909 وبقي فيه حتى اغتياله في عام 1913. واستدعى القيصر فيلهلم الثاني فون دير غولتز من التقاعد في عام 1914 ليعود إلى الخدمة العثمانية بعد فترة وجيزة. توفي غولتز بمرض التيفوس قرب بغداد في نيسان/ أبريل 1916، وكان في الثانية والسبعين من عمره، قبل أسبوع من استسلام الجنرال تاونسند مع قوة بريطانية كبيرة لقوة عثمانية كانت تحت إمرته في منطقة قرب الكوت. ويعتبر هذا الاستسلام في بعض الأحيان أنكر هزيمة منيت بها بريطانيا في الحرب العظمى. ودفن غولتز باشا في اسطنبول.

سبق مشروع التحديث العثماني مهمةَ فون دير غولتز، وهو يدين إلى عمليات التحوّل في القرن التاسع التي اشتركت فيها جميع القوى العظمى في أوروبا، أكثر بكثير مما يدين إلى أفعال قام بها أي فرد واحد.

في الواقع، لم يكن هناك ما هو غير مألوف في البعثات العسكرية أو في التشاور بين السلطات في تلك الفترة، وبينما ترجم كتاب فون دير غولتز على الفور إلى التركية العثمانية، وأصبح كتابًا مدرسيًا أساسيًا في المنظومة المدرسية الآخذة بالتوسع سريعًا في الدولة العثمانية، كما كان له أيضًا أثره الواسع في فرنسا وبريطانيا وأميركا، حيث تمت ترجمته وقراءته بعد تداوله في اسطنبول. اجتذب المثال العسكري البروسي وتوحيد بسمارك ألمانيا المعجبين من أصقاع الأرض

---

(9) Handan Nezir Akmese, *The Birth of Modern Turkey: The Ottoman Military and the March to World War I*, International Library of Twentieth Century History; 4 (London: I.B. Tauris, 2005).

كلها في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. ومثل كثير من نخب الدولة في أوروبا وأميركا، من المرجح أن يكون السلطان عبد الحميد نفسه قرأ كتاب فون دير غولتز، وسعى إلى تشكيل «أمة مسلحة» عثمانية إسلامية قوية وسلطوية.

كانت الحداثة العثمانية جزءًا من خطاب كوني عن التحديث والعسكرة والتقدم في القرن التاسع عشر، وكانت مندمجة تمامًا مع الاتجاهات والعمليات الأوروبية الأوسع نطاقًا. والواقع أنه كان يُمكن رفض المشروع العثماني، لكن التدخل والضمّ الإمبراطوري والتقسيم كانت عوامل ساهمت في تحقيق مكاسب سياسية داخلية في بريطانيا وروسيا، من خلال إطلاق القيصر الروسي اسم «رجل أوروبا المريض» على السلطنة العثمانية، الذي لم يكن، على ما يبدو، رجل آسيا المريض. وكثيرًا ما كانت الدولة العثمانية دولة عظمى، وجزءًا من أوروبا.

تشابهت معالم حداثة القرن التاسع عشر في جميع الدول التي شاركت فعليًا في الحرب العظمى: الجيوش العاملة الضخمة والتجنيد الإلزامي والتعليم الحكومي والإحصاء السكاني وشبكات التواصل والتعبئة التابعة للدولة والطقوس الجماعية الضخمة ومفهوم السيادة الشعبية، والرغبة – التي تتحول أحيانًا إلى توق – في التضحية الجماعية في سبيل الله والملك والبلاد وكيان الأمة الحي.

غالبًا ما يوصف التحديث العثماني والشرق أوسطي بالمشروع الفاشل، وغالبًا ما يوسم بـ «التغريب» والعلمنة والتحديث الدفاعي. ما يضيع في هذه القصة هو الطابع الكوني لتحديث القرن التاسع عشر والعناصر الثقافية الفريدة لمشروع التحديث العثماني. كما جرى في تحديث فرنسا وبروسيا وروسيا في القرن التاسع عشر من تضافر جهد الجميع واستعارتهم بعضهم من بعض، كان لدى كل منهم أيضًا ملامح فريدة عدة و«تقاليد مُبتدَعة» نوعية، خصوصًا من الناحية الثقافية، إذا ما استخدمنا عبارة إريك هوبزباوم الموحية[10]. بالنسبة إلى الدولة العثمانية، تركّزت عناصر ثقافة الدولة وتقاليدها على الإسلام والسلطان

(10) كان سليم درنجل أول من وضع العثمانيين في قصة هوبزباوم في القرن التاسع عشر. Selim Deringil: «The Invention of Tradition as Public Image in the Late Ottoman Empire, 1808 to 1908,» *Comparative Studies in Society and History*, vol. 35, no. 1 (January 1993), pp. 3-29, and *The Well-Protected Domains: Ideology and the Legitimation of Power in the Ottoman Empire, 1876-1909* (London: I.B Tauris, 1998).

والخليفة، وأمجاد الماضيين الإسلاميّ والعثماني، والأمل القلق في استعادة الزهو والسلطة العالمية[11].

التحق فتيان البلدات والقرى بمدارس الدولة العسكرية من البوسنة إلى اليمن، وصولًا إلى الحدود مع إيران. وسعى المسؤولون في المركز، والمسؤولون المحليون، وراء فتيان المناطق الريفية حيث لا يحظى دور الدولة - المتقطع والمتقلب - في العادة بشعبية. كما اهتمت سياسة التعليم العثمانية اللاحقة باجتذاب أناس من سكان الهوامش والحدود إلى نظام الدولة. ومع فشل المسؤولين الدائم في إقناع سكان الأرياف بأهمية دفع الضرائب وتجنيد أولادهم في حملات عسكرية بعيدة، ربما تكون مصيرية، تحوّل الاهتمام في العقد الأخير من القرن العشرين إلى عقدٍ بين الدولة والقرية، تقدّم فيه الدولة الخدمات والمدارس والتعليم.

جابه كثير من المناطق الريفية والرعوية مطالبة الدولة بالريوع والتسجيل والاستجابة للإحصاء والتجنيد الإلزامي بقوة السلاح، لكن سرعان ما اكتسبت المدارس شعبيةً وتزايد الالتحاق بها. حقّقت سياسة جذب أولاد العائلات المحلية النافذة نجاحًا فوريًا. وبحلول عام 1897، كان في الولايات 28 مدرسة إعدادية عسكرية، فيها 7433 طالبًا، وكان العدد أكبر نوعًا ما في المدارس الإعدادية الأدنى (الرشدية) المنتشرة في أرجاء الإمبراطورية[12]. وبحلول عام 1899، كان أكثر من 25 في المئة من الضباط العثمانيين، أي 18 ألفًا منهم، قد تلقى تعليمه من خلال النظام التعليمي العسكري[13].

كانت الأكاديمية العسكرية الملكية في اسطنبول الوجهة التعليمية النهائية للشبان الآتين من الولايات، لكن المدارس الإعدادية العسكرية لم تكن السبيل الوحيد إلى الأكاديميات الإمبراطورية. كان هناك أيضًا مدرسة العشائر في اسطنبول التي حوت طلابًا من الولايات المختلفة، وقدّمت منهاجًا دراسيًا متقنًا

---

(11) انظر في هذا الصدد تحديدًا أعمال درنجل وبنيامين فورتنا: Benjamin C. Fortna, *Classroom: Islam, the State, and Education in the Late Ottoman Empire* (Oxford; New York: Oxford University Press, 2002).

(12) Library of Congress, Abdül-Hamid Photo Collection.

(13) Merwin Griffiths, «The Reorganization of the Ottoman Army under Abdül-Hamid II 1880-1907» (Unpublished PhD Dissertation, University of California, Los Angeles, 1966), p. 115.

للغاية، يفوق ما تقدمه مدارس الولايات. وضمّت مدارس الولايات الكبرى بعض الطلاب، عاش معظمهم مع عائلاتهم. في المقابل، كانت مدرسة العشائر في العاصمة الإمبراطورية تسجن طلابها فعليًا داخل مبنى المدرسة، إذ يحقّ للفتيان الآتين من المناطق الحدودية غير الخاضعة للحكم الحضور إلى المدرسة عبر توصية، وما أن يصبحوا داخلها حتى يخضعوا لعملية «تحضّر» بغية تحويلهم إلى عثمانيين مخلصين.

كانت الرحلة من العراق أو اليمن أو البادية السورية أو ليبيا إلى مدرسة العشائر - برًا أو بحرًا - تستغرق شهرًا ونيّف، فيُستقبل الفتيان في العادة باحتفال خاصّ تحضره كبار شخصيات الإمبراطورية(14). وكان طلاب مدرسة العشائر يتلقون جرعة من التعليم الديني ومن أنماط التشريط السلوكي أعلى بكثير مما كان يتلقاه طلاب المدارس الإعدادية العادية(15).

جرت العادة أن يتقدّم خريجو مدارس الولايات الإعدادية ومدرسة العشائر بطلب للتسجيل في الأكاديمية العسكرية الإمبراطورية في اسطنبول. ومع وصولهم إلى الكلية العسكرية، يكون هؤلاء قد قضوا تسع سنوات في النظام التعليمي العسكري العثماني. كان الأولاد الذين تتراوح أعمارهم بين 6 و8 سنوات يلتحقون أولًا بمدرسة ابتدائية في بلدتهم أو قريتهم لثلاث سنوات، يتعلمون فيها القراءة والكتابة بلغتهم الأم، العربية أو الكردية أو اليونانية أو التركية، ليتعلموا بعد ذلك، عند الضرورة، اللغة التركية العثمانية. وكان لزامًا أن يتقنوا أسس العربية، وتعاليم الدين الإسلامي، والمهارات الأساس في الرياضيات، وأن يتلقوا تدريبات في اللياقة البدنية والصحة العامة.

تركز المستوى التالي من المدارس الثانوية الدنيا، أو المدارس الرشدية، في بلدات الولايات الكبيرة وفي عواصم الولايات كلها. عاشت أغلبية طلاب هذه المدارس مع أسرهم أو أقاربهم، لكن كان هناك دائمًا تسهيلات لقبول الطلاب الآتين من المناطق.

---

(14) Eugene Rogan, «Aşiret Mektebi: Abdülhamid II's School for Tribes (1892-1907),» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 28, no. 1 (February 1996), pp. 83-107.

(15) Istanbul University Archival Collection [IU], «Mekâtibi Askeriyye Şakirdanınım Umumi, Imtihanlarınım neticelerini,» Istanbul, 1318 (1901), p. 35.

تغيّر المنهاج التعليمي في مرحلة المدارس الرشدية، فكان الطلاب يدرسون قواعد العربية والتركية العثمانية، والقراءة والكتابة، والرياضيات، ويتلقون أيضًا دروسًا في الهندسة وحفظ السجلات والجغرافيا والتاريخ الإسلامي والتركية المحكية والفرنسية(16)، إلى القليل من التعليم الديني في بداية السنة الأولى. وفي المستويات الأعلى، كان المنهاج يميل أكثر إلى العلمانية والعلمية. وبحلول عام 1901، كان هناك 507 طلاب مسجلين في المدرسة الرشدية في دمشق، و740 في بغداد، ومئات آخرين في بلدات الولايات في أنحاء الإمبراطورية(17).

خلافًا للمدارس المدنية، لم تميّز وثائق وزارة التعليم العثمانية بين طلاب الكلية العسكرية بحسب دينهم، وكانت تقبل طلابًا من غير المسلمين. كان طلاب المدارس المدنية يدفعون رسومًا باهظة ويُعْفَون من الخدمة العسكرية الإلزامية بصورة قانونية. وأعفي المسيحيون أيضًا إلى حين إعادة العمل بالدستور العثماني في عام 1909، ورفض السلطان عبد الحميد توصية غولتز باشا في ثمانينيات القرن التاسع عشر بتجنيد غير المسلمين في الجيش العثماني(18). عمليًا، قبلت المدارس العسكرية عددًا قليلًا من الطلاب غير المسلمين، ولا سيّما في المناطق التي عاش فيها سكان من غير المسلمين، مثل دمشق وبغداد وبيروت(19).

بحلول ثمانينيات القرن التاسع عشر، فُتحت المدارس الثانوية العسكرية العليا، أو المدارس الإعدادية، في كل عاصمة من عواصم الولايات. كان الطلاب يدرسون ثلاث سنوات ويلتحقون بعدها بالأكاديمية العسكرية الإمبراطورية في اسطنبول. وكان يمكن للطلاب أيضًا أن يتابعوا في معاهد أخرى جامعية المستوى، مثل أكاديمية الخدمة المدنية والمدرسة الملكية في اسطنبول، أو في

(16) Istanbul University Archival Collection [IU], «Mekâtibi Askeriyye».

(17) Istanbul University Archival Collection [IU], pp. 1180-1184.

(18) Griffiths, pp. 151-152; Erik-Jan Zürcher, «The Ottoman Conscription System in Theory and Practice, 1844-1918,» *International Review of Social History*, vol. 43, no. 3 (1998), pp. 437-449, and Salim Tamari, «The Short Life of Private Ihsan, Jerusalem 1915,» *Jerusalem Quarterly*, vol. 30 (Spring 2007).

(19) Istanbul University Archival Collection [IU], «Mekâtibi Askeriyye».
تستند فكرتي إلى أنه يمكن للطلاب غير المسلمين أن يكونوا قد قُبلوا بناء على تحليل الأسماء الكاملة إلى جانب العلامات التي نالها كل منهم، ووضعه في الصف، ومسقط رأسه. وعلى الأقل، كان هناك بضعة من الطلاب المدرجة أسماؤهم، يحملون أسماءً تدلّ تمامًا على أنهم عرب مسيحيون.

الكليات التبشيرية مثل كليّة روبرت، التي أصبحت لاحقًا جامعة البوسفور، أو الكلية السورية البروتستانتية التي عرفت لاحقًا باسم الجامعة الأميركية في بيروت. وفي القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كان خريجو المدرسة الثانوية العليا يُعتبرون ذوي تعليم رفيع في أغلب البلدان، بما في ذلك الأقاليم العثمانية، وبات كثير منهم شخصيات بارزة من دون أن يتلقوا علومًا إضافية.

ذهب من بقي في النظام التعليمي العسكري إلى اسطنبول[20]. فبالنسبة إلى جعفر العسكري الذي أصبح رئيس وزراء العراق لاحقًا، استغرقت الرحلة من الموصل إلى عاصمة الولاية بغداد أيامًا عبر خلالها نهر الفرات على متن طوف كبير مصنوع من جلود الحيوانات. واستغرقت الرحلة من بغداد إلى اسطنبول أسابيع، برًّا في البداية إلى حلب واسكندرونة، ثم بالباخرة إلى اسطنبول[21]، وكانت المسافة التي يقطعها طلاب الولايات العثمانية النائية أطول. وبحلول العقد الأول من القرن العشرين، صار طلاب الضباط يسافرون بالقطار، ويندمجون في الأكاديمية العسكرية مع طلاب آتين من البلقان أو من المناطق التركية، أو ليبيا، أو اليمن، أو سورية، أو العراق، أو كردستان، فيباشرون معًا تلقي تعليم مكثّف لمدة ثلاث سنوات، يتخرجون في نهايتها ضباطًا في الجيش العثماني.

تبعت المناهج الأكاديمية الطابع العلمي العلماني والتطبيقي في المدارس الرشدية والإعدادية. أضيفت مواد التدريب العسكري والطب الميداني والمسح الجغرافي وإنشاء التحصينات والاستطلاع والاتصالات إلى دراسة الفرنسية والألمانية والروسية والجغرافيا والرياضيات والتاريخ[22].

كان الطلاب يصلون جماعةً كل يوم، لكن لم يكن هناك أي علوم دينية إسلامية تقليدية. قَدِم 60 إلى 70 في المئة من الطلاب من الأناضول والمناطق التركية، لكن السلطان عبد الحميد كان حريصًا على زيادة تمثيل الولايات خارج الأناضول، وعمل بنشاط على تجنيد شبان من المناطق العربية والكردية. ووصف

---

(20) علي، ص 15.

(21) Jafar al-Askari, *A Soldier's Story: From Ottoman Rule to Independent Iraq: The Memoirs of Jafar Pasha Al-Askari (1885-1936)*, Translated by Mustafa Tariq Al-Askari, Edited by William Facey and Najdat Fathi Safwat (London: Arabian Publishing, 2003), pp. 15-18.

(22) Istanbul University Archival Collection [IU], «Mekâtibi Askeriyye».

العقيد الركن المتقاعد في الجيش التركي فهمي دوروسُوز هذه السياسة بأنها جزء من جهد السلطان «لجذب الشعب إليه»[23].

كان العقيد فهمي أنموذجًا للمستفيدين الجدد من الإصلاح العسكري العثماني والتعليم المدعوم. ولد في عام 1884 لتاجر ليبي كان يعيش حياة متواضعة، والتحق بالمدرسة الرشدية في طرابلس لأربع سنوات، ثم سافر إلى اسطنبول حيث التحق بالمدارس الإعدادية لثلاث سنوات إضافية. بعد تخرّجه في المدرسة الإعدادية، التحق فهمي بك بالمدرسة الحربية وقضى فيها ثلاث سنوات. ونظرًا إلى تفوقه، ونجاحه في مسابقة خاصة، وقع الاختيار عليه ليكمل دراساته في مدرسة الأركان العامة لثلاث سنوات إضافية، ليختم دراسته في عام 1905 وعمره حينها 23 عامًا، بعد أكثر من ثلاثة عشر عامًا من التعليم الذي تتزايد صرامته. وفي العقد الأول من القرن العشرين، تم اختيار بعض الضباط لإرسالهم إلى ألمانيا ليتلقوا مزيدًا من التدريب. واستنادًا إلى سيرة العقيد فهمي المقتضبة، يمكن القول إنه قاتل في ليبيا ضد غزو إيطاليا في عام 1911، وشارك في حروب البلقان في عامي 1912 و1913، وفي الحرب العظمى بين عامي 1914 و1918، وفي حرب الاستقلال التركية بين عامي 1919 و1923. وعلى الرغم من أصله الليبي ولغته الأصلية العربية، إلا أنه شغل منصب ضابط أركان العامة في الجيش التركي بعد الاستقلال، وتقاعد في اسطنبول[24].

كانت السياسة تتمثّل في إرسال الطلاب الآتين من المناطق العربية والكردية، مثل فهمي، إلى محافظاتهم الأصلية. وما أن يعودوا منها حتى يخدموا ضباط خدمة عاملين، وغالبًا مدرّسين في الإعداديات نفسها التي تخرجوا فيها قبل سنوات. عاد فهمي إلى ليبيا ليحارب الغزو الإيطالي لولايته الأم، وكان عدد الضباط الليبيين قليلًا، إلا أن أكثرهم شارك فهمي تجربته في محاربة القوات البريطانية بصفتهم ضباطًا عثمانيين في بلادهم، في العراق أو فلسطين أو سورية.

بعد انتهاء الحرب، احتلت بريطانيا وفرنسا جزءًا كبيرًا من الأقاليم العثمانية، فواصل آلاف الضباط العثمانيين المتمرسين القتال ضد التقسيم والاحتلال، سواءً

---

(23) Griffiths, Annex I, pp. 175-177.

(24) هذه المعلومات مستمدة من المقابلات التي أجراها ميروين غريفيث مع فهمي دوروسوز في خمسينيات القرن العشرين.

في ولاياتهم التركية أم العربية أم الكردية، أم في المناطق التي كانوا يخدمون فيها، وذلك في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته، بل وبعدها أيضًا. انضم إليهم آلاف المجندين العثمانيين السابقين، وأعادوا طرح ما كان بينهم من روابط تطورت خلال التعليم، والتجربة الجمعية، ونضالات العقود العثمانية الأخيرة، وذلك في إطار تصوراتهم عما يُمكن ويجب أن ينهض من حطام الأقاليم العثمانية وهزيمة الاحتلال الاستعماري لأوطانهم.

تخرجت آخر دفعات الأكاديمية العسكرية قبل الحرب في صيف 1914. وكانت الدفعة الأخيرة، على غير العادة، قليلة العدد مؤلفة من 295 ضابطًا، بينهم 25 في المئة آتون من المناطق الناطقة بالعربية. قاتل نصف هؤلاء الضباط «العرب» (32 ضابطًا) في حرب الاستقلال التركية بعد هدنة عام 1918، وخدموا في النهاية ضباطًا في جيش الجمهورية التركية. وشمل النصف الذي لم يشارك في تمرد الأناضول جميع الذين لقوا حتفهم في الحرب، والذين انضموا إلى جيش فيصل، واستقالوا من مهماتهم العسكرية حين انتهت الحرب. وهذا يعني أن أغلبية الضباط العثمانيين «العرب» الذين نجوا من الحرب من دفعة 1914 قاتلوا في حرب الأناضول، وصاروا مواطنين في الجمهورية التركية[25].

ينطبق الأمر ذاته على الضباط القدامى، وأولئك الذين قدموا من كريت أو بلغاريا أو أجزاء أخرى من البلقان، غير أن معاهدة لوزان وعصبة الأمم والحكومات الوطنية الجديدة اعتبرتهم «أتراكًا» على أساس هويتهم الدينية. ويبدو أن المنحدرين من مناطق الأناضول التركية لم يكونوا سوى أغلبية بسيطة بين الضباط العثمانيين أبطال حرب الاستقلال. أمّا بالنسبة إلى أولئك الذين لم يصبحوا مواطنين أتراكًا، أو لم يستطيعوا ذلك، فكان النفي إلى العراق الهاشمي أو شرق الأردن هو خيارهم الأفضل بين خيارات أخرى محدودة.

ثالثًا: تمرد ما بعد الحرب

أسفرت الحرب العظمى عن نهاية الإمبراطورية العثمانية بعد أن استمرت أكثر من ستة قرون. دخل رجال الدولة العثمانيون الحرب - وكثير منهم خرّيج

(25) هذه المعلومات مستمدة من بيانات جمعها الدكتور مسعود أويار، من سجلات الأكاديمية العسكرية العثمانية وجيش الجمهورية التركية.

النظام التعليمي العسكري - آملين بردّ الاعتبار بعد هزائم الماضي القريب[26]. دخلت الدولة العثمانية مع ألمانيا والنمسا - المجر «حلف دول المركز» الذي أنشئ في مواجهة روسيا، العدو الدائم، وحليفتيه فرنسا وبريطانيا ضمن ما عرف بـ «الوفاق الثلاثي».

توقعت قلّة في بريطانيا وفرنسا أن تُبدي القوات العثمانية مقاومة حقيقية، أمّا مواطنو كلّ بلد، الذين حكمتهم الدعاية العنصرية الهادفة إلى تبرير التوسع الاستعماري في أرجاء آسيا وأفريقيا لقرن من الزمان، فتعاملوا مع انخراط العثمانيين في الحرب على أنه طرفة، فسخرت الصحف والرسوم الكاريكاتورية من تأخر العثمانيين وسوء تنظيمهم المزعومَين.

حشدت الدولة العثمانية في هذه الحرب أكثر من مليوني رجل بين عامي 1914 و1918. وخلافًا لتوقعات القيادة العليا الفرنسية والبريطانية، أثبت الجيش العثماني أنه خصم جبّار. وفي أوائل عام 1916، استسلم الجيش البريطاني في العراق لجنرال عثماني، وكادت القوات العثمانية تُفلح في عبور قناة السويس وتحدي الحكم البريطاني في مصر العثمانية. وفي عام 1915، قرر رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل أن يحاصر مضيق الدردنيل ويتوجه إلى اسطنبول لفتح خطوط الإمداد البحري أمام روسيا القيصرية، والتعجيل بنهاية الجهد الحربي العثماني. خطط تشرشل لهجوم بحري وغزو بريّ خاطف ومحدود، لكنه أمر، بعد تدمير المدفعية البحرية العثمانية ثلاث سفن حربية، بشنّ هجوم بريّ، فحطّ آلاف الجنود البريطانيين في شبه جزيرة غاليبولي. وبعد ثمانية شهور، وسقوط خسائر تقدر بـ 210 آلاف جندي من الحلفاء، انسحبت القوات البريطانية تجرّ خلفها أذيال الخيبة.

سيطر الجيش البريطاني وحلفاؤه في الثورة العربية على دمشق في تشرين الأول/ أكتوبر 1918 بعد مسير من مصر استغرق 18 شهرًا. وأمر الجنرال العثماني مصطفى كمال، خريج النظام التعليمي العسكري وبطل الدفاع عن غاليبولي، بانسحاب منظم من سورية إلى الأناضول. وقّعت حكومة السلطان العثماني اتفاق

---

(26) أدين بهذه الرؤية التنقيحية إلى عمل صدر أخيرًا، هو: Mustafa Aksakal, *The Ottoman Road to War in 1914: The Ottoman Empire and the First World War*, Cambridge Military Histories (Cambridge: Cambridge University Press, 2008).

الهدنة، وشرع الحلفاء على الفور في تقسيم الأقاليم العثمانية. احتلّت القوات البريطانية اسطنبول والعراق وسورية الكبرى بما فيها فلسطين. واحتلت القوات الفرنسية وحلفاؤها من الفيلق الأرمني، جنوب شرق الأناضول والشريط الساحلي السوري الذي سرعان ما سيُعرف باسم لبنان الكبير، بينما تحرّكت القوات الإيطالية باتجاه جنوب وسط الأناضول الساحلي، وحطّت القوات اليونانية في إزمير واتجهت شرقًا. وبدأت قوات الثورة العربية بتشكيل حكومة مدعومة من بريطانيا في دمشق.

مثّلت الهدنة وتقسيم الحلفاء نهاية الإمبراطورية العثمانية، لكنها كانت أيضًا بداية حركات المقاومة المختلفة. أنشئت أولى «جمعيات الدفاع عن الحقوق الوطنية» (مدافعات الحقوق) في تلك الأجزاء من الأناضول التي كانت ترزح، في معظمها، تحت تهديد التقسيم أو الإلحاق بكيان آخر. وسرعان ما عقد الضباط العثمانيون المتمردون مؤتمرات عدة لتنظيم المقاومة ضد الحلفاء، فدخلت هذه المؤتمرات، وكذلك حركة المقاومة المسلّحة الناجحة التي رعَتها، تاريخ الجمهورية التركية الرسمي على أنها موضع ولادة الدولة القومية التركية والموقع الذي تم فيه القطع النهائي مع الماضي العثماني. إلا أن التصريحات والكتابات المعاصرة وأفعال المشاركين لا توحي بشيء من هذا القبيل؛ فالأمّة التي كان يجب إنقاذها كانت أمّة غامضة من العثمانيين الذي يعيشون في ظل تهديد مستمر من قوى الإمبريالية الأوروبية المحلية والدولية[27].

بحلول عام 1920، انبثقت حركات معارضة منظمة ومقاومة مسلحة في جميع الولايات العثمانية السابقة. وفي تشرين الأول/ أكتوبر 1918، استسلم والي دمشق العثماني للجيش البريطاني وقوات الثورة العربية. خلال الحرب، بقيت الأغلبية الساحقة من الضباط العرب العثمانيين في خدمة العثمانيين، لكن فريقًا منهم انضم إلى ثورة فيصل بعد وقوعهم في أسر القوات البريطانية أو العربية. وبعد البحث في المصادر ومذكرات الضباط، لا أجد اليوم مثالًا واحدًا لضابط عثماني فرّ طوعًا لينضمّ إلى الثورة العربية، ويبدو أنهم جُنّدوا جميعًا في

(27) Erik-Jan Zürcher, «The Vocabulary of Muslim Nationalism,» *International Journal of the Sociology of Science*, vol. 137 (1999), pp. 81-92.

معسكرات أسرى الحرب. وشكّل هؤلاء الضباط الذين يبلغ عددهم نحو ثلاثين ضابطًا، المكوّن الرئيس في خلق قوة فدائية فاعلة. لكن، ما إن انتهت الحرب ووصل فيصل مع طاقمه من الضباط العرب إلى دمشق حتى باشر في اجتذاب محاربين قدامى آخرين، كانوا يأملون أن ينقذ فيصل البلاد من كارثة الحرب وحطامها، كما فعل مصطفى كمال وضباط سابقون في الأناضول في ما بعد.

تغلّبت الروابط التي شكلها التعليم والخدمة على أي مرارة عالقة تخصّ أولئك الذين انضموا إلى الثورة وبقوا في الخدمة العثمانية خلال الحرب. انضم كثير من قدامى المحاربين متواضعي الأصل إلى فيصل، ورُحّب بهم على الرغم من قتالهم ضد الثورة العربية قبل شهور. شكّلت حكومة فيصل العربية، التي تجند للدفاع عنها ضباط متمرسون متحدرون من الطبقات العاملة في الريف والمدينة، تهديدًا لملّاكي الأراضي وأعضاء النخبة المدنية العثمانية السابقة في دمشق.

سرعان ما أثار صعود ضباط فيصل في دمشق الشكّ والريبة، وخرجت قلّة من وجهاء دمشق للترحيب بالفرنسيين الذين أنهوا حكومة فيصل قصيرة الأمد بعد ثمانية عشر شهرًا[28]. لكن حكومة فيصل «المستقلة» التي حازت دعم البريطانيين والضباط الشباب العثمانيين السابقين والمناضلين القوميين، سرعان ما اجتذبت عين فرنسا الفاحصة. وفي حين اندفع فيصل يائسًا خلال عام 1919 لتأمين الدعم البريطاني المتواصل، وتهدئة المسؤولين الفرنسيين، راح أتباعه في دمشق والمنطقة عمومًا ينظمون أنفسهم على غرار المقاومة التي نشأت في الأناضول[29]. اعتبرت الحكومة الفرنسية اتفاقية سايكس - بيكو الموقعة مع بريطانيا في عام 1916 أمرًا ملزمًا لمنطقة الشرق الأوسط ما بعد الحرب، كما اعتبرت أن وعود البريطانيين لفيصل ووالده لا تترتب عنها أيّ نتائج. وتحت التهديد بقطع العلاقات الأنغلو - فرنسية، سحبت الحكومة البريطانية القوة العسكرية التي كانت تؤازر حكومة فيصل في تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، وأوقفت عنها الدعم. زعم موظفو الدولة في مراسلاتهم مع فيصل أن هناك إجهاد ماليّ، لكن السبب الحقيقي كان الضغط الفرنسي. وبعد ستة شهور من حرب عصابات متفرقة على الحدود مع المنطقة

---

(28) Philip S. Khoury, *Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism, 1920-1945*, Princeton Studies on the Near East (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1987).

(29) Zeine N. Zeine, *The Struggle for Arab Independence: Western Diplomacy and the Rise and Fall of Faisal's Kingdom in Syria*, 2nd ed. (New York: Caravan Books, 1977), p. 113.

الساحلية الجديدة التي احتلتها فرنسا وسُمّيت بلبنان الكبير، اتجه الجيش الفرنسي شرقًا نحو دمشق وهزم جيشًا واهيًا في ميسلون شرق دمشق. أفرغت أحياء دمشق من شبابها، حيث اتجهت الحشود غربًا لمواجهة الرتل الفرنسي الآليّ، وكان بعضهم مسلّحًا بالسيوف والسكاكين وحدها.

قُتل وزير الدفاع والضابط العثماني السابق، يوسف العظمة، خلال هذه المعركة[30]، فكان أول شهيد للوطن السوري، وواحدًا من ثلاثة أبطال فقط لهم تماثيل في دمشق إلى جانب أفراد عائلة الأسد[31]. وزُعم على نطاق واسع أنه شارك في الثورة العربية ضدّ «الأتراك» إلى جانب فيصل، لكن معظم هذه السيرة البطولية من نسج الخيال.

أنهى العظمة الحرب بصفته رئيسًا لأركان الحرب في الجيش العثماني على الجبهة الفلسطينية. تلقى تعليمه في النظام العثماني وأمضى معظم حياته في الجيش العثماني بعيدًا عن دمشق، مكان ولادته، فقضى فترات طويلة في ألمانيا لتلقي التدريب متقدم. وهو خريج الأكاديمية الحربية وكلية الأركان العثمانية، كما قام بترجمة كتاب واحد على الأقل إلى التركية العثمانية يتناول النظرية العسكرية البروسية[32]. مات يوسف العظمة، كما عاش، مثقفًا نخبويًا عثمانيًا رفيع التعليم، على الصعيد التربوي والثقافي والسياسي واللغوي.

قبل ذلك بشهور، بدأ فيصل يخسر دعم رفاقه الضباط، وسخر بعضهم منه ومن الهاشميين وحماقتهم في التخلّي عن الدولة العثمانية للالتحاق بالبريطانيين، فالحكم العثماني، على الرغم من شوائبه وظلمه، كان أفضل من تقسيم المستعمرين الأوروبيين وسيطرتهم[33].

---

(30) انظر: ساطع الحصري، يوم ميسلون: صفحة من تاريخ العرب الحديث، مذكرات مصدرة بمقدمة عن تنازع الدول حول البلاد العربية ومذيلة بوثائق وصور (بيروت: مكتبة الكشاف، 1947).

(31) الاثنان الآخران كانا: صلاح الدين الأيوبي (توفي في عام 1193) والضابط البعثي عدنان المالكي (توفي في عام 1955).

(32) Yusuf Al-Azma, Trans., *Piyade Acemi Neferi Nasıl Yetiştirilir* (Istanbul: Mahmud Bey Matbaası, [1909]), pp. 187 and sqq., and Wilhelm Rücker, *Praktische Winke für die Ausbildung des Infanterie-Rekruten* (Berlin: Mittler, 1909).

(33) فوزي القاوقجي، مذكرات فوزي القاوقجي 1890-1977، إعداد خيرية قاسمية، ط 2 معدلة مع وثائق (دمشق: دار النمير، 1995) ص 15-20.

في آذار/ مارس 1920، اجتمع المؤتمر السوري العام وأعلن فيصل ملكًا، وبدت الصورة أنه يكاد يكون مرغمًا على ذلك. وفي هذه الأثناء، عقد الناشطون العراقيون اجتماعًا في دمشق مطالبين بعراق مستقل تحت حكم عبد الله، شقيق فيصل[34]. عاد فيصل إلى دمشق لحضور المؤتمر بعد التماسه مساعدة العواصم الأوروبية واحدة تلو الأخرى ضدّ مطالب الفرنسيين التي كانت توغل في قسوتها. طالب المؤتمر، في رؤية واضحة للحوادث في الأناضول والعراق، بسورية موحدة تشمل فلسطين، ورفض مزاعم الصهاينة، ودعا إلى وضع حد لحكومة الاحتلال العسكري.

كانت هذه الأفعال أكثر راديكالية مما رغب فيصل، ومما يمكن للفرنسيين أن يتسامحوا معه[35]. ظهرت بعض العمليات الفدائية ضد فرنسا في المنطقة الساحلية الشمالية وفي محيط حلب، في القرب مما سيغدو لاحقًا الحدود مع تركيا. قاد الحركة في الساحل الشيخ القروي صالح العلي، في حين قاد التمرّد في حلب الضابط العثماني إبراهيم هنانو، واستمد الدعم المادي والإلهام من المقاومة القريبة في الأناضول. وفي أواخر عام 1919، وجّه مصطفى كمال نداءً إلى السوريين قال فيه:

أيها الإخوة المحترمون

أناشدكم بصوت متوسل، نابع من قلب ملؤه الأسى، جرّاء اضطهاد العدو وعنته وخيانته، والانقسامات بين أبناء الدين الواحد... أن نضع حدًّا لسوء الفهم هذا، ونوجّه أسلحتنا نحو الخونة الراغبين في تمزيق الإسلام... وقريبًا، سيحلّ مجاهدونا ضيوفًا على أشقائهم العرب، وسينتصرون باتحادهم، ويدمرون أعداءهم. فليحيا إخوتنا في الدين، وليخسأ العدو[36].

أصبح مصطفى كمال أبا الجمهورية التركية ومثال القومية التركية العلمانية، لكن نداء 1919 أفسد الرواية الرسمية عن ظهور الدولة القومية التركية، إذ تكشف

(34) الحصري، ص 83، ذُكر في: Zeine, p. 127.

(35) Khoury, pp. 99-105.

(36) منشور دوري عاود الظهور في حلب وتُرجم إلى الإنكليزية من الأصل العثماني. فكان «سوء فهم» كمال هو الثورة العربية من دون شك. Foreign Office [FO], 406/41, no. 191, 2 December 1919.

مناشداته الكثير عن التماسه حركات تحرر يقودها ضباط عثمانيون سابقون. وفي الوقت الذي كانت فيه فرنسا تعدّ العدّة لاحتلال سورية وممارسة الانتداب الذي وعدها به البريطانيون ووافق عليه مؤتمر السلام، اندلعت ثورة مسلّحة كبرى في العراق الذي يحتله الإنكليز. وفي أواخر عام 1919، غادر الشيخ البدوي والضابط العثماني السابق خريج مدرسة العشائر رمضان شاليش إلى الشرق من حلب، والتقى هنانو في ريف حلب، ثم مضى ليهزم حامية بريطانية ويحتل دير الزور المدينة الواقعة على الفرات الأعلى في كانون الثاني/ يناير 1920. وحينما تلقى فيصل، الذي كان حينها يتنقل في أوروبا، نبأ السيطرة على المدينة باسم الحكومة العربية، تنصّل من الأمر، وأوعز إلى شقيقه زيد في دمشق بأن يدين الفعل ويبدأ سلسلة اعتقالات تطال «المتمردين»[37].

في بغداد، وصلت أخبار المؤتمرين العامين السوري والعراقي في دمشق مع أخبار الاستيلاء على دير الزور. تحمس أهالي بغداد للحَدَثين أشد الحماسة. ومع أن القوات البريطانية كانت تسيطر سيطرة كاملة على المدينة، شهدت الشهور التي تلت اندلاع ثورة ألهمتها الحوادث التي وقعت في أراض عثمانية سابقة أخرى، وقادها ضباط ومحاربون قدامى وقرويون في البلدات الواقعة على النهر من شمال البلد إلى جنوبه، في تحدّ واضح للحكم البريطاني. لكن قوات حكومة الهند البريطانية وسلاح الجو الملكي تمكّنا في النهاية من قمع التمرد، واستوليا من جديد على المدن المتمردة. كان سلاح الجو أداة القمع الرئيسة، وقصف القرى الواقعة على طول النهر بالقنابل والغازات. أدّى التمرّد والقمع المُكلف إلى جهد يرمي إلى وضع فيصل ملكًا على العراق حائزًا دعم بريطانيا، وهي مهمة رحّب بها بوضوح بعد نفيه من سورية[38].

أعلن المؤتمر السوري العام في آذار/ مارس 1920 لا شرعية الاستيطان

---

(37) Iraq, Civil Commissioner, *Review of the Civil Administration of Mesopotamia*, [Gt. Brit.] Parliament. Papers by Command. Cmd; 1061 (London: HMSO, 1920), p. 135.

(38) British Government, War Office, WO 33/969. SECRET, «An Examination of the Causes of the Outbreak in Mesopotamia,» October 1920, p. 25.

لا يتعدى كثير من التقرير كونه إعادة بناء متوهّمة للبلشفيين الذين زُعم أنهم وراء التهديدات كلها التي واجهت سياسة بريطانيا في الشرق الأوسط.

الصهيوني في فلسطين. وفي أحد الفصح، في نيسان/ أبريل 1920، اندلعت المعارك بين العرب واليهود في القدس، وشنّ مواطنون مقدسيون مسلحون، بينهم محاربون قدامى في الجيش العثماني، هجومًا قتلوا فيه خمسة وجرحوا 211 من سكان المدينة اليهود. تدخل الجنود البريطانيون وقتلوا وجرحوا عددًا مماثلًا من العرب. ووجدت لجنة تحقيق عسكرية بريطانية أن أسباب العنف هي:

- خيبة أمل العرب بسبب النكث بوعود الاستقلال التي يزعمون أنها قُطعت لهم خلال الحرب.

- اعتقاد العرب أن وعد بلفور ينطوي على إنكار حق تقرير المصير، وخوفهم من أن إنشاء وطن قومي سيعني زيادة كبرى في الهجرة اليهودية، ما سيؤدي إلى خضوعهم الاقتصادي والسياسي لليهود.

- تفاقم هذه المشاعر من خلال الدعاية من خارج فلسطين والمرتبطة بإعلان الأمير فيصل ملكًا على سورية التي أعيد توحيدها، وتنامي أفكار الوحدة العربية والوحدة الإسلامية، ومن خلال نشاط اللجنة الصهيونية التي يدعمها يهود العالم بمواردهم ونفوذهم[39].

استمرت صراعات عام 1920 في جميع الأقاليم العثمانية السابقة التي وقعت تحت الحكم الاستعماري، وخرجت المقاومة في الأناضول منتصرة، لكنها عمليًا، أُجبرت على أن تحدّ من دعمها للرفاق السابقين في مناطق الانتداب البريطاني والفرنسي. وعلى الرغم من الحذف الكبير في التأريخ القومي الكولونيالي وما بعد الكولونيالي، قدّم تمرد الأناضول مثالًا يُحتذى بقي قائمًا لعقود[40]. ففي

(39) *A Survey of Palestine: Prepared in December 1945 and January 1946 for the Information of the Anglo-American Commission of Inquiry*, 2 vols. (Beirut; Washington: Institute for Palestine Studies, 1991), vol. 1, p. 17.

(40) طرحت الصحيفة اليومية الرئيسة في دمشق، المقتبس، استفهامات مثل «من هو مصطفى كمال؟». وفي نيسان/ أبريل وأيار/ مايو 1926 نشرت المقتبس في صفحتها الرئيسة سلسلة من ثمانية أجزاء تحت عنوان «مذكرات مصطفى كمال». وفي عام 1926 خلال الثورة السورية، ذهب رمضان شلاش إلى القرى المسيحية معاتبًا القرويين قائلًا: «لقد جعلتم قريتكم تشبه أنقرة في عام 1920 أيام الغازي مصطفى كمال!». انظر: Michael Provence, *The Great Syrian Revolt and the Rise of Arab Nationalism*, Modern Middle East Series; 22 (Austin, TX: University of Texas Press, 2005), p. 116.

فلسطين، هبت انتفاضات ضخمة في عام 1921 وفي عام 1929، وبين عامي 1935 و1937، واستمرت حرب العصابات متأججة في سورية ولبنان إلى أن كادت ثورة 1925 الكبرى تطرد فرنسا.

أمّا في العراق، ففرض فيصل على الضباط والوطنيين أن يستقيلوا، لكن صراعًا نشب بين السلطة الاستعمارية ومعارضيها من جديد، بعد وفاته في عام 1933. كانت حرب 1947-1948 من أجل فلسطين آخر معركة لآخر جيل عثماني وللمحاربين القدامى الذين شاركوا في الحرب العالمية الأولى.

الفصل الثامن عشر

التأثيرات في خيارات ضابط عربي - عثماني قبل الحرب الأولى وخلالها

مالك شريف

ترتكز هذه الدراسة بشكل أساس على مذكرات عبد الله دبوس غير المنشورة التي تحتفظ ابنته سميرة بنسخة المخطوط الأساس الوحيدة. وقامت بطبع قسم كبير منها على الآلة الكاتبة وعنونتها «مذكرات عبد الله دبوس 1900-1963 ست وستون ليرة ذهبية»، ووزعتها على أفراد عائلتها لتنبههم إلى تاريخ والدها[1]. يشير بعض الدلائل في المخطوط إلى أن المؤلف دوّن مذكراته بين عامي 1943 و1963.

من خلال قراءة المخطوط ضمن إطاره التاريخي، تحاول هذه الدراسة فهم قرار عبد الله دبوس التطوع في صفوف الجيش العثماني تلميذ ضابط، وتحاول أيضًا عرض العوامل التي أثّرت فيه ليخطو تلك الخطوة طوعًا من دون إكراه. كما أحاول في هذه الدراسة الوجيزة أن أظهر أن تربية دبوس المدرسية والكشفية أثرت في نظرته إلى الدولة العثمانية، وإلى دورها وأهمية عاصمتها في العالم الإسلامي وتاريخه، الأمر الذي دفعه إلى اتخاذ قرارات وخيارات مخالفة لما عهدناه في كثير من سير أصحاب مذكرات الحرب العالمية الأولى.

أولًا: المؤلف ونشأته

ولد عبد الله دبوس في بيروت - على الأرجح - في عام 1899[2]، والده عبد الحميد دبوس ووالدته عائشة طبّارة. كان عبد الله ابنهما الثالث، لكن ليس

(1) سميرة دبوس، محققة، «مذكرات عبد الله دبوس 1900-1963، ست وستون ليرة ذهبية،» بيروت، 1993. حذفت سميرة دبوس أجزاء قصيرة من مخطوط والدها، وأنا أعتمد على نسختها المطبوعة لوضوحها بعد مراجعة المخطوط الأساس والتأكد من أن المواد المحذوفة منها لا علاقة لها بهذه الدراسة.

(2) تقول سميرة دبوس أن والدها ولد في عام 1900، إلا أن هذا التاريخ يبدو غير دقيق؛ إذ يعني هذا أن عبد الله دبوس التحق بالجيش وهو في الخامسة عشرة. انظر المقدمة في: دبوس، محققة، ص 16. يعتبر محمد خير القاضي أن عبد الله دبوس ولد في عام 1898. أن كان هذا التاريخ صحيحًا فإن دبوس بلغ السابعة عشرة في عام 1916 واستطاع إذًا الالتحاق بالكلية السورية، لكنه لم يستطع ذلك لصغر سنه. محمد خير القاضي، إعداد وتوثيق، جمعية الكشاف المسلم في لبنان: مائة عام في خدمة الناشئة: مع صور ووثائق نادرة (بيروت: جمعية الكشاف المسلم في لبنان، 2010)، ص 247.

الأخير، فسجله والده توأمًا لشقيقه الأكبر محمد سعيد، والهدف من هذا التحريف في سجل النفوس رفع حد الخدمة العسكرية عن أحدهما، إذ كان القانون يسمح بإعفاء أحد التوأمين[3]. كان عبد الحميد دبوس، والد عبد الله، تاجر عطارة ومعدات، وهي تجارة عائلة دبوس لأجيال عدة حتى أطلق اسم «دبوس» على تلك الأصناف من التجارة في اللهجة المحلية لبيروت. وكانت والدة عبد الله دبوس تنحدر من عائلة طبّارة التي عرفت بعدد من علماء الدين وقيام أحدهم بوضع تفسير للقرآن. ساعد ذلك عائشة في تحصيل العلوم في مدارس بيروت. وهي اهتمت كثيرًا بسلوك أبنائها وتلقيهم العلم حتى بعد وفاة زوجها، فأصرت على تعليمهم في المدارس، ومنعهم من الانخراط جميعًا في تجارة العائلة[4].

بدأ عبد الله دبوس دراسته الابتدائية في الكلية العثمانية، مدرسة الشيخ أحمد عباس الأزهري التي عُرفت بميولها القومية العربية[5]، ثم التحق في خريف 1909 - على الأرجح - بمدرسة دار العلوم[6].

أسست دار العلوم في 3 نيسان/ أبريل 1909 في بيروت بهمة الأخوين الهنديين عبد الجبار وعبد الستار خيري، ومساعدة عدد من أعيان المدينة وتجارها كتوفيق الهبري وعمر الداعوق ونجيب العيتاني وأحمد أياس وغيرهم من وجهاء بيروت المسلمين آنذاك[7]. ولد عبد الجبار في عام 1880 وشقيقه عبد الستار في عام 1885 في مدينة دلهي في الهند البريطانية. وتابعا تحصيلهما الجامعي في جامعة عليگره الإسلامية (Aligarh) التي أسسها السير السيد أحمد خان لتعليم مسلمي الهند العلوم الحديثة وأصول الإدارة بحسب النظم البريطانية. وفي عام 1904، قررا ترك الهند و«نذرا نفسيهما لإعلاء شأن الأمة الإسلامية»، فسافرا إلى بغداد فالقاهرة فبيروت للبحث عن وسيلة لتحقيق هدفهما. في بيروت التحقا بالكلية الإنجيلية السورية وحاز عبد الجبار شهادة الماجستير في علوم الكيمياء

(3) دبوس، محققة، ص 30.

(4) مقابلة مع سميرة دبوس في 7 تموز/ يوليو 2010.

(5) انظر: Jens Hanssen, *Fin de siècle Beirut: The Making of an Ottoman Provincial Capital*, Oxford Historical Monographs (Oxford: Clarendon Press, 2005), p. 183.

(6) دار العلوم، اللائحة العمومية، بيروت، 1321 هـ ص 1. أود أن أشكر الزميل الطيب الهبري الذي نبهني إلى هذه اللائحة المنشورة من دار العلوم نفسها، وزودني بنسخة مصورة عنها كانت من بين أوراق والده الخاصة.

(7) دار العلوم، اللائحة العمومية، بيروت، 1321 هـ ص 7-8.

وأخوه ماجستير في علوم الفيزياء في عام 1908. بعيد تخرجهما، أسسا دار العلوم كي تبعد أبناء المسلمين في المستقبل عن الدراسة في الكلية الإنجيلية السورية ومبشريها. بين عامي 1914 و1918، عمل الأخوان في اسطنبول وبرلين في الدعاية الحربية العثمانية والألمانية، وكانا يحاولان من خلال صحيفتيهما إخوة الإسلام بالأوردو و*Brotherhood* بالإنكليزية دفع سكان الهند المسلمين إلى الثورة على الحكم البريطاني(8).

رأى عبد الجبار خيري في مدرسته دار العلوم المعهد الأول الذي يشكل نواة الجامعة الإسلامية، وأمل في أن تتحول دار العلوم إلى جامعة تعلم العلوم الحديثة واللغة الإنكليزية. يقول عبد الله دبوس عن أستاذه: «كان عبد الجبار غريب الأطوار، يحمل فكرة كبيرة ويسعى إلى تحقيقها، وهي فكرة الجامعة الإسلامية». كانت فلسفتها دار العلوم وهدفها جمع كلمة المسلمين تحت راية الخلافة في اسطنبول لأجل التحرر من «مخالب الدول الاستعمارية الممتدة إلى الأقطار الإسلامية كافة»(9). يضيف دبوس أن خيري كان يعتقد أن مقر الخلافة في اسطنبول يجب أن يكون كعبة المسلمين الثانية في سائر أقطار الأرض، ولا سبيل إلى جمع كلمتهم إلا الخلافة في اسطنبول(10).

كانت فكرة الجامعة الإسلامية بالنسبة إلى عبد الجبار خيري تقوم على الوحدة الإسلامية بقيادة الدولة العثمانية بأسلوب سلس طويل الأمد، يعتمد على طرق التربية والتعليم، فشرع «يبث دعوته بين الطلبة والأهلين متخذًا من المدرسة نقطة انطلاق»(11). وكان يأمل في إنشاء كليات للطب والهندسة والصيدلة والحقوق والزراعة والصناعة والتجارة ودورًا للمبشرين (أي الشريعة أو العلوم الدينية) وللمعلمين والمأمورين، أي جامعة بكامل فروعها لتضاهي الكلية السورية الإنجيلية(12).

---

(8) لأجل المزيد عن الشقيقين خيري اطلع على: Majid Hayat Siddiqi, «Bluff, Doubt and Fear: The Kheiri Brothers and the Colonial State, 1904-45,» *Indian Economic and Social History Review*, vol. 24, no. 3 (August 1987), pp. 233-263.

(9) دبوس، محققة، ص 11-12.

(10) المصدر نفسه، ص 12.

(11) المصدر نفسه، ص 12.

(12) دار العلوم، اللائحة العمومية، بيروت 1321 هـ ص 9.

لقيت مدرسة دار العلوم قبولًا وتشجيعًا من الحكومة الاتحادية آنذاك، إذ كانت تخدم بعض مصالحها وتحاكي أحد أفكار جمعية الاتحاد والترقي، أو أنور باشا بالذات. وسمح لها بأن تقول «إن حامي دار العلوم دائمًا وأبدًا هو جلالة الخليفة الأعظم أمير المؤمنين»[13]. ويذكر دبوس أنها من المدارس الخاصة القليلة في بيروت التي كانت تفتخر بأنها «تحت حماية جلالة الخليفة السلطان/ زيرِ حمايتِ حضرتِ خلافت پناهى»[14].

كان برنامج التعليم في تلك المدرسة منوعًا، يتطلب جهدًا كبيرًا من التلاميذ، إذ كان عليهم تعلم أربع لغات: العربية والعثمانية والإنكليزية، إضافة إلى الفرنسية أو الألمانية، «القراءة والاستظهار والخطابة والآداب وقواعد الصرف والنحو والعروض والبلاغة والمناظرة والإملاء والإنشاء والتعريب [المقصود هو الإعراب على الأرجح] والخط وتشخيص وتمثيل الحوادث التاريخية وغيرها»[15]، علمًا أن معظم مدارس بيروت غير الإرسالية كانت تعتمد اللغة العربية فحسب لغة أساسية للتعليم، كمدرسة عبد الله دبوس الأولى، أي الكلية العثمانية، التي أسسها أحمد عباس الأزهري، وكثير من أساتذتها يفتخرون بذلك[16]. أما عبد الجبار خيري فكان يطلب من معلمي مدرسته إتقان «لغة راقية أوروبية» لأنها كانت لغة العلوم الحديثة[17]. ويبدو من مذكرات عبد الله دبوس أن خريجي مدرسته كانوا يتقنون العثمانية والإنكليزية[18].

كان المنهج التعليمي في دار العلوم يركز على الرياضيات وعلوم الكيمياء والفيزياء (الحكمة الطبيعية والفلك) والجغرافيا والنبات والحيوان والصحة، وكان فيها مختبر ومحرك بخاري وآخر كهربائي لخدمة التجارب العلمية والعملية[19]. وكانت تدرس القرآن والحديث، وتفتخر بتدريس مواد عدة تتناول التاريخ الإسلامي، كقصص الأنبياء وسيرة النبي وسير الخلفاء الراشدين والتاريخ

(13) دار العلوم اللائحة العمومية، بيروت 1321 هـ ص 4.

(14) دبوس، محققة، ص 12.

(15) دار العلوم، اللائحة العمومية، بيروت 1321 هـ ص 22.

(16) انظر: Hanssen, p. 182.

(17) دار العلوم، اللائحة العمومية، بيروت 1321 هـ ص 14.

(18) دبوس، محققة، ص 9-10 و140.

(19) دار العلوم، اللائحة العمومية، بيروت 1321 هـ ص 11 و23.

الإسلامي والتاريخ العثماني والتاريخ العمومي القديم والحديث والقوانين وتاريخ التمدن الإسلامي والتمثيليات التاريخية[20].

كانت دار العلوم أول مؤسسة تعليمية في الدولة العثمانية تعتمد الحركة الكشفية. كان الكشاف العثماني الذي أسسه فيها عبد الجبار خيري في عام 1910 تطبيقًا عمليًا لأفكاره عن الوحدة الإسلامية ودور الخلافة العثمانية فيها؛ إذ كان واجب كل كشاف أن ينطق بالقسم الآتي: «أقسم بالله أنني أبذل كل جهدي أن أحفظ شرفي وأكون خاشعًا ومخلصًا لله ولرسوله، وأقوم بواجبي نحو خليفة رسول الله مولانا السلطان»[21]. أما البند الثالث من قانون الكشاف فهو الإخلاص، «فالكشاف مخلص للخليفة مولانا السلطان ولآمريه ووالديه»، وشرحه عبد الجبار خيري كالآتي: يجب على الكشاف أن يكون معهم في السراء والضراء وحين البأس ويساعدهم ضد كل عدو لهم ولا يتكلم عنهم بما لا يليق بهم[22]. وكان التحاق تلامذة دار العلوم بالكشاف شبه إجباري، بينما كان اختياريًا لغيرهم، كما كان تدريبهم شبه عسكري. وذكر دليل الكشاف أن بين معدات كل فرقة سيف ومسدس و«مارتينة أحسن طرز»[23].

في عام 1914، تخرج عبد الله دبوس في دار العلوم بعد أن أنهى فيها المرحلة التي كانت تسمى الإدراكية أو السلطانية الراقية، وهي المرحلة الثانوية الأولى بتعريفنا الحالي. تلك كانت فلسفة ومنهج المدرسة التي درس فيها عبد الله دبوس خمس سنوات، والحركة الكشفية التي التحق بها منذ تأسيسها، وتدرج في مراتبها حتى صار عريف الطليعة الثانية فيها.

أثرت مدرسة دار العلوم ونشاطها الكشفي في تكوين شخصية دبوس وهويته وأفكاره عن الدولة العثمانية وسلطانها ودورهما في العالم الإسلامي، وجاءت الرحلة التي قام بها الكشاف إلى اسطنبول تطبيقًا عمليًا لتلك الأفكار، فرسخت فيه الولاء للدولة وخليفتها والإخلاص لهما.

---

(20) دار العلوم، اللائحة العمومية، بيروت 1321 هـ ص 22-23.

(21) دار العلوم، اللائحة العمومية، بيروت 1321 هـ ص 19، ومحمد عبد الجبار خيري، **الذكرى للكشاف العثماني** (بيروت: دار العلوم، [1914])، ص 38.

(22) دار العلوم، اللائحة العمومية، بيروت 1321 هـ ص 20، وخيري، ص 39.

(23) خيري، ص 32.

ثانيًا: الزيارة الأولى إلى اسطنبول

في تموز/ يوليو وآب/ أغسطس 1914، أي قبل أسابيع من اندلاع الحرب العالمية الأولى وانضمام الدولة العثمانية إلى ألمانيا والنمسا، زار فريق من الكشاف العثماني في دار العلوم اسطنبول ومكث فيها 40 يومًا. كان عبد الجبار خيري صاحب فكرة هذه الرحلة المطولة التي لقيت ترحيبًا حارًا من أنور باشا، وزير حربية الدولة العثمانية آنذاك. كان أنور باشا يشجع هذه الجمعيات الكشفية، ويحبّذ تأسيس مثيلات لها في سائر أرجاء السلطنة، إذ رأى فيها مهدًا خصبًا للدعاية، وفي عناصرها متطوعين مستقبليين في صفوف الجيش، مدربين ومعتادين نظامًا شبه عسكري، ومتمرسين في الولاء للسلطان ودولته. وتعبيرًا عن حماسته لزيارة الناشئة الكشفية، استقبل الوفد الكشفي الآتي من بيروت شخصيًا على رصيف المرفأ في اسطنبول، يرافقه عدد كبير من رجال دولته، ورحّب به، ويذكر عبد الله دبوس أن أنور باشا أصرَّ على مصافحتهم فردًا فردًا[24].

بعد مراسم الاستقبال، سار الكشافة برفقة موسيقى الجيش مسيرًا منظمًا إلى الكلية السلطانية، مقر إقامتهم في جوار الباب العالي، مقر رئاسة الحكومة العثمانية آنذاك، ورحب بهم أهالي اسطنبول الذين أعجبوا بمظهرهم المنسق، فقدموا إليهم الشراب والحلوى. ولم يقتصر هذا الترحيب على اليوم الأول للزيارة، بل كان أهالي اسطنبول يكرمون الشبيبة الكشفية ويحسنون وفادتهم حيثما حلوا طوال 40 يومًا، وترك هذا الترحاب انطباعًا طيبًا في نفس عبد الله دبوس.

إعجاب أهالي اسطنبول بهؤلاء الناشئة ذوي اللباس شبه العسكري الموحد الآتين من ولاية بعيدة عن العاصمة مردود على الأرجح في أنهم، أي أهالي اسطنبول، رأوا فيهم عونًا في زمن كانت طبول الحرب تقرع في دول أوروبا المجاورة للسلطنة، وأخبار الحرب تحتل صفحات جرائدها، خصوصًا أن الدول الأوروبية كانت تدرب شعوبها على الحياة العسكرية منذ سنوات، وفرضت التعبئة العامة. ورأى أهالي اسطنبول في هؤلاء الكشافة بمنظرهم المنسق ونشاطهم وترتيبهم شبه العسكري بارقة أمل، واعتبروهم حماة مستقبل السلطنة. أحس الكشافة بهذا في أثناء تنقلاتهم في العاصمة ونشاطهم فيها[25].

(24) دبوس، محققة، ص 12.

(25) المصدر نفسه، ص 12-14.

كانت هذه الرحلة غنية بالزيارات والنشاط. إذ رافق مفتش معارف اسطنبول الكشافة شخصيًا في زياراتهم إلى المتاحف والقصور والآثار والمساجد والمنتزهات، «وكانوا يلاقون ضروب الحفاوة والتكريم أينما ذهبوا وحيثما حلوا»[26].

تركت زيارة المتحف العسكرى أثرًا كبيرًا في عبد الله دبوس؛ إذ تجسد أمام عينيه التاريخ العثماني والإسلامي وعظمة دورهما بحسب ما تعلمه في مدرسته، فشاهد «المنجنيق الذي استعمل في هدم أسوار اسطنبول في عهد السلطان محمد الفاتح» و«سيف علي بن أبي طالب وسيف خالد بن الوليد ولباس صلاح الدين الحربي»، و«الكثير من مخلفات الحروب والفتوحات من عهد السلطان عثمان مؤسس الدولة العثمانية»[27]. كانت هذه المعروضات كلها بالنسبة إلى تلامذة دار العلوم وكشافتها دليلًا حسيًا على صلة الخليفة العثماني بأسلافه الخلفاء الراشدين وأمجادهم، وصل إليه إرثهم فحافظ عليه وعرضه بفخر وعناية.

بلغت رحلة اسطنبول ذروتها بمشاهدة الكشافة السلطان محمد رشاد شخصيًا في أثناء قيامه بالسلملك، أي تحية يوم الجمعة والصلاة في مسجد يلديز. وعن مشاركة الكشافة في أداء تلك المراسم يقول دبوس: «وقفنا صفًا قرب المسجد الواقع عند المدخل الرئيسي لقصور يلديز، وقدمت لنا الليموناضة الشاهانية، وتحدث إلينا أنور باشا وأعجب بالبعض منا، إذ كانوا يحسنون اللغة التركية... ولما أقبل السلطان في عربته وأخذنا نعزف المارش الشاهاني طغى الحماس على صاحب الطبل فاضطر الباقون إلى متابعة العزف للمرة الثانية. وبعدها تحدث السلطان بصوت متهدج منخفض إلى ياوره الواقف على الأرض عند يمين العربة، ثم أخذ هذا يترجم لنا ما قاله السلطان فحييناه بالصرخات ياشا ياشا ياشا، وتابع السلطان سيره إلى الجامع...»[28].

يبدو من هذا النص أن بعض أفراد الكشافة تأثر لوجوده في حضرة السلطان، فأصابه نوع من الذهول وعدم التركيز. كان الموقف بالنسبة إليه مهيبًا رهيبًا، إذ كان في حضرة أمير المؤمنين خليفة رسول الله وهو يؤدي إحدى الفرائض

(26) دبوس، محققة، ص 12–13.
(27) المصدر نفسه، ص 13.
(28) المصدر نفسه، ص 9–10.

الدينية المهمة، وأقسم بشرفه على طاعته واحترامه. كان لالتفات السلطان إليهم وتخصيصهم ببعض عبارات التشجيع تأثير كبير في هؤلاء الناشئة، فبقي عبد الله دبوس يذكر بعد مرور عشرات السنين على هذه الحادثة صوت السلطان المنخفض المتهدج[29].

في أثناء إقامتهم في اسطنبول، يخبر دبوس بفخر: «قمنا برحلة كشفية تتبعنا فيها أثر الفرقة الكشفية التي أسسها أحمد روبنسون حديثًا في الكلية السلطانية في اسطنبول [وهي كلية غلطة سراي] وقادها في رحلتها الأولى إلى شيله على شاطئ البحر الأسود، وكان أفرادها مسلحين بالبنادق الموزر. فاجأنا هذه الفرقة وهي تعد طعامها وانقض كشافونا من الجهات الأربع على كشاف اسطنبول دون أن نترك لهم وقتًا يلجؤون فيه إلى سلاحهم، فأعلن أحمد روبنسون استسلامه»، واعترف قائد كشاف اسطنبول أن الحركة الكشفية في بيروت هي الرائدة في الدولة العثمانية، ولها أفضلية السبق والتدريب على جمعيته الحديثة النشأة[30].

من اسطنبول، نظمت للكشافة رحلة إلى مضيق الدردنيل، حيث زاروا بعض التحصينات والقلاع القائمة على جانبيه. ويبدو هدف هذه الزيارة الدعائي لمصلحة الجيش العثماني وقوة دفاعاته واستعداداته واضحًا؛ إذ يذكر دبوس مثلًا: «قالوا لنا إن هذا المضيق من الحصانة بحيث لا تستطيع سمكة أن تجتازه من دون علم الحامية، وإن أضخم الأساطيل لا يستطيع أن يدنو منه والدَّارعة التي تجازف بالمرور يكون مصيرها قرار البحر»[31].

بعد عودتهم من رحلة الدردنيل، نصب الكشافة مخيمًا لهم في قرية آيا إستفانوس (حاليًا Yeşilköy) الواقعة على بعد بضعة كيلومترات غرب العاصمة على شاطئ بحر مرمرة، وكان هدفهم أن يظهروا لأهل اسطنبول أنهم قادرون على الإقامة في خيم وتحضير طعامهم بأنفسهم. يخبرنا دبوس عن تاريخ هذه القرية، وكيف دخل اسمها في التاريخ، إذ إن جيوش روسيا اجتاحت الأراضي التركية

(29) مع العلم أن دبوس انتقد السلطان محمد رشاد في مكان آخر من مذكراته لأنه رضي أن يملك من دون أن يحكم على عكس السلطان عبد الحميد الثاني. المصدر نفسه، ص 9.

(30) دبوس، محققة، ص 13.

(31) المصدر نفسه،ص 13.

وبلغت هذه القرية بالذات، «وفيها أبرمت المعاهدة الجائرة بين روسيا والدولة العثمانية» في عام 1878، فأصبح الناطقون بالعربية يطلقون على كل أمر جائر وفيه تعجيز «شروط المسكوب»[32].

تركت الرحلة التي قام بها كشاف بيروت العثماني إلى اسطنبول أثرًا كبيرًا وانطباعًا إيجابيًا عند عبد الله دبوس، خصوصًا ترحيب أهل اسطنبول بالكشافة الناشئة، وأخذ بثراء تلك المدينة الثقافي والديني. كان فيها الكثير من المتاحف التي تحفظ آثار حضارات مختلفة، من أهمها الآثار الإسلامية القديمة التي تروي تاريخًا سابقًا مجيدًا، كالفتوحات ومحاربة الصليبيين، وقد أخبر عنها باعتزاز وفخر شديد.

أما واقع الدولة العثمانية في مطلع القرن العشرين فكان نقيض الماضي المجيد المعروض في متاحف اسطنبول، وهذا لم يكن خافيًا على دبوس. يقول: «كانت عبارة عن بناءٍ ضخم متصدع مهدد بالانهيار في كل لحظة»[33]، وكان يعي الأهمية الاستراتيجية للدولة العثمانية وعاصمتها، إذ يذكر أنها كانت مطمع الحلفاء والأعداء على حد سواء[34].

ثالثًا: دخول الحرب

بعد عودة الكشافة من اسطنبول بحرًا بأسابيع قليلة، دخلت الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا، وأغلقت مدرسة دار العلوم، وسافر الأخوان خيري إلى اسطنبول مع الكثير من معدات المدرسة على أمل إنشاء جامعتهم الإسلامية في دار الخلافة. ونتيجة الحرب، أغلقت المضائق البحرية وفرضت بريطانيا وفرنسا حصارًا بحريًا قاسيًا على سواحل الدولة كلها. بدأت البضائع المستوردة تندر وتختفي من الأسواق، وكان بينها الكاز الأميركي المستعمل في الإنارة، فشرع الأخوان دبوس بصناعة بديل يستعمل في الإنارة وهو الفواش الذي يعمل على زيت الزيتون عوضًا من النفط. وأتقنا صناعة الفواش واستطاعا إنتاج

---

(32) دبوس، محققة، ص 13-14.

(33) المصدر نفسه، ص 7.

(34) المصدر نفسه، ص 16 و25.

كميات كبيرة كانت تصدر إلى العراق وفلسطين وسورية وبر الأناضول، وجنت لهما أرباحًا طائلة أمنت معيشة كثيرين خلال الحرب[35]. وعلى الرغم من رواج صناعة الأخوين خيري وتجارتهما، فقد أقفلا محلهما التجاري الرائج ومصنعهما المربح، وتقدما إلى حسن حسني بك مأمور التجنيد في بيروت ليعرضا عليه شهاداتهما الثانوية، فقبلهما متطوعين في الكلية الحربية وعيّن لهما موعدًا للسفر كي يلتحقا بكليتهما في اسطنبول. وتسجل معهما عدد كبير من شباب بيروت، بينهم كثرة من زملائهما في دار العلوم كحبيب وفؤاد غندور وفؤاد دبوس[36].

لا يتوسع دبوس كثيرًا في إخبارنا سبب تطوعه في الجيش، بل يذكر ذلك وكأن ترك عمل مربح ووالدة أرملة مع شقيق أصغر لا يبلغ الثالثة عشرة من العمر أمر سهل عادي وطبيعي، ويضيف أن كثيرًا من شبان بيروت - مسلمين ومسيحيين - تطوع في دفعته نفسها.

في صبيحة 16 نيسان/ أبريل 1916، انطلق القطار من بيروت إلى دمشق فحلب فمعمورة العزيز، ثم عبر بر الأناضول إلى اسطنبول وعلى متنه أكثر من 50 متطوعًا من شباب بيروت، يرتدون ملابس فاخرة تليق بتلامذة ضباط في الجيش العثماني[37]. إلا أن الرحلة لم تكن سهلة، بل بطيئة متقطعة في قطارات متهالكة مكتظة من دون وجبات طعام في كثير من الأيام. وكان على المتطوعين المبيت في العراء في جبال طوروس، وعبور تلك السلسلة الجبلية الشاهقة سيرًا على الأقدام، في رحلة تستغرق ثلاثة أيام بلياليها على الأقل، لولا شفقة فرقة هندسة من الجيش الألماني وفرت عليهم جزءًا من المشقة ونقلتهم في سيارات غير مؤهلة[38]. بدأت معنوياتهم تضعف وحماستهم للمؤسسة العسكرية التي اختاروا أن يلتحقوا بها يخف، حتى إن بعضهم راودته فكرة التمرد والعصيان، إذ كانوا يتوقعون معاملة تليق بهم. يقول دبوس: «نحن طلاب مدارس وأبناء عائلات كريمة، وسنصبح

(35) دبوس، محققة، ص 18-19.

(36) بعد مقارنة الأسماء المذكورة في المذكرات بتلك التي في لائحة دار العلوم تبيّن أن خمسة طلاب تطوعوا في تلك الدفعة وآخرون في دفعات تالية. دار العلوم، اللائحة العمومية، بيروت، 1321هـ، ص 37.

(37) دبوس، محققة، ص 31.

(38) المصدر نفسه، ص 32-34.

ضباطًا نتقبل التحية في الغدو والرواح... لكن ما الحيلة؟ لا بدّ من الطاعة»[39].

وهنا، نرى كيف أن عقيدة الولاء والإخلاص والطاعة الكشفية التي تربى عليها دبوس وعدد من رفاقه تغلبت على مشاعرهم بالغبن والظلم. لم ترتفع معنوياتهم إلا عندما قطعوا الأناضول واقتربوا من سواحل بحر مرمرة. يروي دبوس مشاعره ودوره مع رفاقه الكشافة الذين زاروا اسطنبول سابقًا في رفع معنويات المتطوعين الآخرين: «اقتربنا من اسطنبول وعمت البهجة وعللنا النفوس بأيام جميلة نقضيها في ذلك البلد السحري، وما هي إلا بضع ساعات حتى تتحقق الآمال، ونحيا حياة الترف وننعم بمشاهدة اسطنبول والبوسفور والبواخر تمر بجانبه والمآذن والجوامع والمتاحف وقصور السلاطين والأسوار التي اقتحمها محمد الفاتح ومقام أيوب الأنصاري وقصر يلديز [...] وكثيرًا غيرها مما يأخذ الألباب فجعلنا نتحدث عن هذه المشاهد ويصفها الذين شاهدوها منا إلى القادمين أول مرة»[40].

إن الصور التي استعملها دبوس في وصف اسطنبول تذكر القارئ بما شاهده الكشافة في أثناء رحلتهم في عام 1914، إلا أن رجاء الوصول السريع إلى حياة الترف في المدينة التي تسلب الألباب لم يكن ليتحقق بالسرعة المنشودة؛ إذ توقف القطار عند محطة طوزلة للفحص الطبي والحجر الصحي وتعقيم متاع المتطوعين. إنها مرحلة وصفها دبوس بالجحيم، وهم على مقربة من نعيم يكاد يتلاشى. في هذه المحطة، بدأت الشكوك تراود عبد الله دبوس وشقيقه ورفاقهما الذين اعتبروا معاملتهم جائرة «في تلك المضارب القذرة حيث لا ماء نشربه ولا طعام نستطيع أن نأكله، إنه لجحيم أقمنا فيه فشاهدنا من العذاب والحرمان ألوانًا، ووددنا لو كنا في السجن على الأقل كنا نعامل كالبشر»[41].

في هذه المرحلة، عاش دبوس صراعًا أليمًا بين الولاء والكبرياء، الطاعة والإخلاص، والكرامة الإنسانية المهانة كما تصورها، صراع بين نعيم منشود في عاصمة الخلافة وجحيم لا يطاق على أبوابها في طوزلة. حاول التملص من الحياة العسكرية بعذر طبي قبل أن يقف على تجارب سيئة أخرى فيروي لنا محاولاته

---

(39) دبوس، محققة، ص 32.

(40) المصدر نفسه، ص 34.

(41) المصدر نفسه، ص 35.

الفاشلة: «قلت للطبيب إنني أشكو الروماتيزم، وهذا أيضًا سخر مني وقال إني شاهدتك تجري كالغزال، وأخذت تعرج عندما دخلت الغرفة، يا لك من مغفل، اذهب وتجند نريد أن نجند الأصحاء أمثالك. أسفت لهذه الخيبات المتلاحقة وفرحت لنجاح أخي في العودة»[42].

يتغير مزاج دبوس عند انتهاء المعاينة الطبية وصدور أوامر بالسفر إلى اسطنبول: «هنا انفرجت أساريرنا وغمرت الفرحة قلوبنا، فحزمنا الأمتعة وركبنا القطار إلى محطة حيدر باشا، المحطة الآسيوية الأخيرة، وما إن أطلت علينا جوامع اسطنبول ومناراتها الشامخة حتى تعالت أصوات الظفر وهتافات التهاني والابتهاج، وجعلنا نحسب الدقائق حتى بلغنا محطة حيدر باشا، ومنها ركبنا الباخرة إلى الجسر الشهير القائم فوق خليج القرن الذهبي والذي يصل الجزء الشمالي من اسطنبول بالجزء الجنوبي سركجي [...] غادرنا اسطنبول بعد أن قضينا ثلاثة أيام من أجمل أيام العمر»[43].

التحق دبوس ستة شهور بالكلية الحربية الموقتة التي أقيمت في عدد من البيوت الواسعة المصادرة للجهد الحربي في ضواحي اسطنبول الآسيوية الراقية. وكان تدريبه في بستانجي وارنكوي ومالتبه وفنارباغجة، وكانت التدريبات عصيبة قاسية على أبناء العرب. يذكر دبوس: «كانت الشتائم المنوعة تنطلق تباعًا من أفواه المدربين، واللطمات تنهال على الرفاق دون سبق إنذار بحق أو بغير حق، حتى إذا عدنا إلى البيت أخذنا نتشاكى مصائبنا والبلاء الذي نزل بنا»[44]. يضيف واصفًا المرحلة الأولى من التدريب: «45 يومًا قضيناها في تدريب عسكري مضن حيث لا رحمة ولا عطف، بل جورًا وارهاقًا وتفننًا في الشتائم، أقلها (خاين عرب)، أي العربي الخائن، وطعامًا ينفره المتسولون»[45].

كان عبد الله دبوس يزور في عطلة نهاية الأسبوع أستاذيه عبد الجبار وعبد الستار خيري في منزلهما الفخم في اسطنبول، وكانا متحمسين لتطوعه في جيش الخليفة.

---

(42) دبوس، محققة، ص 35.

(43) المصدر نفسه، ص 35-37.

(44) المصدر نفسه، ص 40.

(45) المصدر نفسه، ص 46.

نشر خيري مقالة في صحيفته إخوة الإسلام عن دبوس وعن مدرسة دار العلوم والحركة الكشفية العثمانية ودور المؤسستين في خدمة الدولة العثمانية، رجاء الشعوب المسلمة المستعمرة من قبل فرنسا وبريطانيا، وعرف دبوس بوصفه أول تلميذ من مدرسة دار العلوم يتطوّع ليصبح ضابطًا في جيش الخلافة الإسلامية[46]. سأله يومًا عبد الجبار خيري عن معاملة الضباط لهم في المكتب الحربي، فحاول دبوس اختلاق الأعذار لضباطه وأجاب: «إننا نلقى من صغار الضباط قسوة لا حد لها، لكن أعتقد أن كبار الضباط أسمى أخلاقًا وأرق حاشية»، إذ لا بد من أن يكونوا أدرى بمصلحة الدولة، ولا مصلحة لها في جفاء العرب.

لكن عبد الجبار رفض هذا الجواب، وقال لتلميذه: «الفاسد هو أنور باشا بالذات، والناس على دين ملوكهم، ولو كان أنور باشا صالحًا لصلحت الدولة». ويبدو أن عبد الجبار خيري أحس بأن أنور باشا لم يكن صادقًا في دعمه فكرة الوحدة الإسلامية. يقول دبوس إن أفكار أستاذه ونصائحه كان لها تأثير كبير في تكوين شخصيته وأفكاره وأفعاله، وحاول طوال حياته العسكرية والكشفية أن يطبق تلك الأفكار[47].

كان عبد الله دبوس وزملاؤه يتوقون للتخرج «لنصبح ضباطًا نزهو بالسيف والأشرطة الذهبية ونتقبل التحيات من الجنود [...] وهل هناك فرحة أعظم من السير في شوارع اسطنبول ورد التحيات عن اليمين وعن الشمال والعيون شاخصة إلينا بإعجاب ومزيد من الاحترام»[48]. يجب هنا التنبيه إلى أن فرحة دبوس بالتخرج ودخول السلك العسكري كانت مرتبطة بشكل مباشر باسطنبول، المدينة الساحرة التي تسلب الألباب، عاصمة الخلافة ومركز الحكم في الدولة، فلم يرد في مذكرات دبوس مثلًا فكرة مشاركة والدته أو شقيقه محمد سعيد في بيروت هذه الفرحة. وربما يدل هذا على مركز اسطنبول وأهمية دورها في فكر عبد الله دبوس.

تخرج دبوس في تشرين الثاني/ نوفمبر 1916، وكان من القلة المحظوظين

(46) دبوس، محققة، ص 42.
(47) المصدر نفسه، ص 43.
(48) المصدر نفسه، ص 54.

الذين لم يرسلوا إلى الجبهات مباشرة. فرز إلى مدرسة المدفع الرشاش في آيا إستفانوس، حيث تعلم سبل استعمال هذا السلاح المهم وصيانته، وقال إن دراسة الفيزياء في مدرسته في بيروت ساعدته كثيرًا في التفوق في هذا السلاح، ما دفع مدربه النقيب الألماني إلى الحفاظ عليه في الكلية مساعدًا له[49]. إلا أن أوراق ترقيته ضاعت ولم يحصل على الترقية المنشودة فأصيب بالإحباط وطلب نقله إلى الجبهة.

نُقل دبوس إلى قيادة إحدى سرايا المدفع الرشاش في الفيلق الثالث بالجيش السابع، وحارب الجيش البريطاني في الكرك وعمان والشونة في غور الأردن، وحارب حتى النهاية المريرة للحرب من دون أن يتقاعس أو يبدل ولاءه، كما يخبرنا في الصفحات الأخيرة من مذكراته. يروي دبوس تفصيلات معركته الأخيرة في الرمثا، ثالث أيام عيد الأضحى في أيلول/ سبتمبر 1918، وفقده كثيرًا من زملائه في تلك المعركة واضطراره إلى الاستسلام بعدما نفد منه الرصاص، والحديث الذي دار بينه وبين آسريه الأستراليين في الجيش البريطاني: «سألني أين تعلمت اللغة الإنكليزية، ولما علم إنني تعلمتها في بيروت وإنني بيروتي من أصل عربي، قال إذن أنت عربي، وأعتقد أنهم جنّودك بالإكراه. فأجبته إنني عربي لكنني تجندت في الجيش العثماني، وهذا يضم أشتاتًا من الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية، وأنا بوصفي عثماني أقوم بواجبي كما يقوم غيري من الأتراك وبقية الشعوب. حسنًا، وهل يمنعك من الالتحاق بالجيش العربي؟ أعتقد أنهم بحاجة قصوى إلى أمثالك من ضباط الرشاش، ولا سيما وأنت تتكلم اللغة الإنكليزية، فهذه فرصة ثمينة لك. فأجبته كلا يا حضرة القائد، أنا لا أستطيع أن أحارب الجيش العثماني بعد أن حاربت في صفوفه وأخلصت له رغم الآلام التي لاقيتها والشقاء الذي عانيته في خدمته. قال إذًا أنت مكلف بالإشراف على جميع الأسرى»[50].

أظهرت هذه الدراسة كيف أن تربية عبد الله دبوس المدرسية والكشفية أثرت في خياراته وقراراته وولائه خلال الحرب العالمية الأولى، والجدير ذكره هنا أن دبوس دوّن مذكراته في زمن كانت الأفكار القومية سائدة، ما يفسر عدم قيامه بنشرها.

---

(49) دبوس، محققة، ص 56-57.

(50) المصدر نفسه، ص 140-141.

الفصل التاسع عشر

الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للحرب العالمية الأولى في فلسطين والأردن

علي محافظة

كانت فلسطين وشرق الأردن جزءًا من الدولة العثمانية طوال أربعة قرون من الزمن، واحتلت فلسطين مكانة خاصة لدى السلاطين العثمانيين لوجود الأماكن المقدسة للديانات السماوية الثلاث فيها، اليهودية والمسيحية والإسلام، ولاهتمام الدول الأوروبية الكبرى بها، والتنافس الشديد فيما بينها على فرض حمايتها على الطوائف الدينية المختلفة المقيمة فيها. أما شرق الأردن فاقتصرت أهميته على طريق الحج الشامية التي تخترقه من شماله إلى جنوبه، وتأمين حمايتها ذهابًا وإيابًا. وكانت موانئ فلسطين على البحر الأبيض المتوسط - عكا وحيفا ويافا - المنافذ الوحيدة للاستيراد والتصدير من شرق الأردن وإليه خلال هذه الفترة.

أولًا: الإدارة والاقتصاد

كان شمال فلسطين (لواء عكا ولواء نابلس) تابعًا لولاية بيروت قبيل قيام الحرب العالمية الأولى، وباقي البلاد تابعًا للواء القدس المرتبط مباشرة بالباب العالي في العاصمة اسطنبول[1]. أما شرق الأردن فكان مؤلفًا من ثلاث وحدات إدارية: قضاء عجلون يتبع لواء حوران، وقضاء البلقاء يتبع لواء نابلس التابع لولاية بيروت، ولواء الكرك الذي يضم قضائي معان والطفيلة يتبع ولاية سورية.

كانت الأوضاع الإدارية في شرق الأردن غاية في السوء والأمن فيها غير مستقر، ونفوذ العشائر البدوية قوي جدًا، تمارس الغزو في ما بينها، وتفرض أتاوة (الخاوة) على الفلاحين في قراهم المنتشرة على الهضبة المطلة على وادي الأردن (الغور)[2].

(1) وجيه كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي، ط 2 (بيروت: معهد الإنماء العربي، 1978)، ص 97.

(2) علي محافظة، تاريخ الأردن المعاصر، عهد الإمارة 1921-1946، ط 2 (عمان: مركز الكتب الأردني، 1989)، ص 8.

منذ دب الانحلال في جسم الدولة العثمانية، وتساقطت أجزاؤه وأنهكته الحروب والثورات الداخلية، بلغ سوء الإدارة وفساد الحكم ذروته، وانتشرت الوساطة والشفاعة والمحسوبية والرشوة في جميع أجهزة الدولة. وغدا همّ الموظف العثماني جمع المال بالوسائل المختلفة غير المشروعة، حتى غدا مضرب الأمثال[3]، وسلط الإداريون رجال الجندرمة (الدرك) والشرطة على الأهلين، وروّعوا السكان، وابتزوا أموالهم، وضيقوا على الفلاحين. ولم تعد القوانين والمحاكم قادرة على درء الشر، فعمت المظالم، واستوى البريء والمذنب[4].

على الصعيد الاقتصادي، شهدت فلسطين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر نموًا اقتصاديًا وتطورًا اجتماعيًا تركا آثارًا واضحة في البنية الاجتماعية للسكان في النصف الأول من القرن العشرين. دخلت فلسطين، مع الأقطار الشامية الأخرى، في النظام الاقتصادي الأوروبي كمنتجة للمواد الأولية، ولا سيما الحبوب وزيت الزيتون والقطن، وكسوق للبضائع والمصنوعات والاستثمارات المالية الأوروبية. وتعرضت منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر للاستعمار الصهيوني المكثف والمتسارع. أخذت مدنها تنمو وتتسع، بانتقال الأثرياء والأسر الإقطاعية في الريف إليها ليستقروا فيها. وبظهور طبقة متنامية من التجار الوسطاء وأصحاب المهن والمتعلمين، ألفت طبقة وسطى ميسورة الحال.

ساهمت القوانين العثمانية، ولا سيما قانون الأراضي (طابو) في عام 1858، والقانون الصادر في عام 1867 الذي منح الأجانب حق تملّك الأراضي في الدولة العثمانية لتشجيع الاستعمار الصهيوني في فلسطين، وفي توسيع ملكية الأسر الثرية وكبار موظفي الدولة وشيوخ العشائر للأراضي الأميرية وأراضي قرية الجفتلك التي يملكها السلطان. وكان من نتائج ذلك تقلص الملكيات الصغيرة والأميرية لمصلحة الملكيات الكبيرة. ففي العقد الثاني من القرن العشرين كانت 140 أسرة عربية تمتلك من الأراضي ما مساحته 3 ملايين و130 ألف دونم، أي

(3) حسين فخري الخالدي، ومضى عهد المجاملات: مذكرات الدكتور حسين فخري الخالدي، تحقيق رفيق الحسيني، 3 ج (عمان: دار الشروق، 2014)، ج 1، ص 53.

(4) محمد علي العجلوني، ذكرياتي عن الثورة العربية الكبرى (عمان: منشورات مكتب الحرية، 1956)، ص 20.

بمعدل 22 ألف دونم للأسرة الواحدة. وكان 28 ملاكًا في قضائي بئر السبع وغزة يملكون أكثر من مليوني دونم. وقدرت أملاك أسرة الحسيني في أنحاء فلسطين بخمسين ألف دونم، وأملاك أسرة التاجي الفاروقي في منطقة الرملة بخمسين ألف دونم، وأملاك أسرة الشوا في منطقة غزة بمئة ألف دونم. وكانت أسر الغصين وأبو خضرة والفاهوم والطبري ذات أملاك واسعة.

انتعشت حركة الاستيراد والتصدير في المدن الفلسطينية وظهر التمايز جليًا بين الأثرياء والأعيان والبرجوازية التجارية الصاعدة من جهة، والفئات الفقيرة من العمال والحرفيين من جهة أخرى. وكان الاقتصاد العربي منعزلًا عن الاقتصاد اليهودي، وبلغ عدد المستعمرات اليهودية في عام 1914 أربعين مستعمرة زراعية، منتشرة في ألوية عكا ونابلس والقدس، ولا سيما في منطقة الجليل وفي الساحل. وكان أقدم هذه المستعمرات «مكفة إسرائيل» (Mikvet Israel) التي أسسها الاتحاد اليهودي العالمي في باريس (Alliance israélite universelle) في عام 1870، مدرسةً زراعية لأبناء اليهود. منحت الحكومة العثمانية هذه الجمعية 625 فدانًا من الأرض قرب يافا، وتلاها تأسيس مستعمرة «بتاح تكفا» (Petah Tekveh) التي كانت أكبر المستعمرات الصهيونية في عام 1914، بدأت بـ 700 فدان على بعد تسعة أميال من يافا، وأصبحت تملك 5700 فدان مزروعة بالحمضيات. وأنتجت هذه المستعمرة 675 صندوقًا من البرتقال للفدان الواحد في عام 1913. أدى اضطهاد اليهود في روسيا ورومانيا في عام 1882 إلى هجرة كثير منهم إلى فلسطين وإنشاء مستعمرة ريشون لوزيون (Richon-le Zion)، مساحتها 3180 فدانًا؛ ومستعمرة وادي الشانين (Wadi el-Shanin)، ومساحتها 760 فدانًا، ومستعمرة قطرة (Katrah) بمساحة 3570 فدانًا، ومستعمرة زخرون يعقوب (Zichron Jacob) في سهل شارون في شمال البلاد بمساحة 3900 فدان، ومستعمرة روش بينا (Roch Pinah) في منطقة الجليل بمساحة 9500 فدان، ومستعمرة يسود همعلا (Yessod Hamaaleh) بمساحة 2900 فدان، ومستعمرة مشمار هايردن (Mishmar Hayarden) بمساحة 1750 فدانًا، ومستعمرة خضيرة (Chederah) ومساحتها 7125 فدانًا.

تعاطف القائمون على الانقلاب العثماني في عام 1908 مع الاستعمار الصهيوني في فلسطين، وسمحوا بإنشاء البنك الأنكلو - فلسطيني (The Anglo-Palestine Bank) في يافا والقدس لتمويل المستعمرات الصهيونية، وبوجود

مكتب للهجرة اليهودية باسم مكتب فلسطين للهجرة (Immigration Palestine Bureau) المرتبط بالحركة الصهيونية. وكان حزب الاتحاد والترقي الحاكم في الدولة العثمانية بين عامي 1908 و1918 يخضع للنفوذ اليهودي في اسطنبول وسالونيك. وكان على رأس هؤلاء اليهود المتنفذين جاويد بيك. وهو من يهود الدونمة، واحتل مناصب وزارية عدة كان أهمها وزارة المالية. أنشئت 12 مستعمرة صهيونية في فلسطين في عهد حزب الاتحاد والترقي، إضافة إلى المستعمرات الآنفة الذكر. وكانت مساحة ما يملكه اليهود، مع بداية الحرب العالمية الأولى، 130 ألف فدان من أفضل أراضي فلسطين، استطاعوا الحصول عليها برشوة الوزراء والمسؤولين العثمانيين في اسطنبول وفلسطين نفسها[5].

حين دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1914 إلى جانب دولتي ألمانيا والنمسا، عينت الحكومة العثمانية أحمد جمال باشا، وزير البحرية، قائدًا للجيش العثماني الرابع المرابط في بلاد الشام، وكلفته بإعداد حملة عسكرية لاسترداد مصر إلى حظيرة الدولة، بعد أن أعلنت بريطانيا حمايتها عليها وقطعت صلتها الرسمية بالدولة العثمانية[6]. غادر جمال باشا اسطنبول قاصدًا سورية بالقطار في 21 تشرين الثاني/ نوفمبر 1914.

أخذ جمال باشا يتقرب من أعيان بلاد الشام ومشايخ قبائلها، ويغدق عليهم الأموال والأوسمة والألقاب الشرفية، ويستضيفهم في دمشق من أجل التعاون معه لإنجاح حملته على مصر. اتخذ جمال باشا فندق قصر دمشق (Damascus Palace) في دمشق مقرًا لقيادته، وشرع بالإعداد للحملة على مصر. استولت كتيبة من البدو المتطوعين بقيادة الرائد ممتاز بيك على العريش وحصنت نفسها فيها، واستولت كتيبة أخرى بقيادة أزميرلي أشرف بيك على قلعة النخل في صحراء سيناء، ورابطت في بئر السبع كتيبة من الفرقة27.

نقل جمال باشا مركز قيادته إلى القدس، وأصدر تعليماته إلى الحملة للتوجه

---

(5) *Arab Bulletin* (19 January 1917), pp. 30-35.

(6) بول دومون وفرنسوا جورجو، «موت إمبراطورية 1908-1923،» في: **تاريخ الدولة العثمانية**، إشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعي، 2 ج، ط 2 (القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، 1993)، ص 307.

إلى القدس وبئر السبع. وفي 14 كانون الثاني/ يناير 1915، بدأت طلائع قواته بالزحف إلى قناة السويس، وقرر الهجوم ليلة 2 شباط/ فبراير 1915 فجأة على مدينة الإسماعيلية الواقعة على الضفة الأخرى من القناة، ووجه الجناح الأيمن من قواته نحو القنطرة والجناح الأيسر على مدينة السويس. واجه الهجوم العثماني مقاومة شديدة من القوات البريطانية المرابطة على الضفة الأخرى من القناة، ولم تستطع القوات العثمانية اجتياز القناة بالجسور المطاطية التي جاءت بها القوات الألمانية المشاركة في الحملة. يعزو جمال باشا فشل قواته في عبور القناة إلى التأخير في وصول الجنود عند الفجر، ووصولهم إلى القناة وقت الضحى، ما سهل على القوات البريطانية تحطيم جسور العبور.

لما فشل العبور، أمر جمال باشا قواته بالانسحاب إلى بئر السبع، وأعاد إليها مركز قيادته في 15 شباط/ فبراير 1915، وقرر تكرار الهجوم على القناة، بعدما نقل مقر قيادته إلى القدس. وفي 1 نيسان/ أبريل 1916، وصل إلى بئر السبع سرب الطيران الألماني رقم 300، ووصلت بطاريتا مدفعية ميدان نمساويتان من طراز هاوتزر في اليوم التالي. شنّت فرقة المشاة الثالثة وكتيبة رشاشات وبطاريتا هاوتزر وبطارية ألمانية من عيار 100 ميلمتر وبطارية ألمانية من عيار 150 ميلمتر وبطاريتا مدافع مضادة للطائرات، بمجموع عشرة آلاف مقاتل، الهجوم الثاني على قناة السويس، في تموز/ يوليو 1916، فانتهى كما الهجوم الأول بالإخفاق التام، وانسحبت القوات العثمانية إلى العريش، وتعقبتها القوات البريطانية[7].

بحسب الإحصاءات البريطانية، أسفرت حملة السويس عن خسائر فادحة في الجانب العثماني، قدرت بنحو ألف قتيل و700 جريح و700 أسير. أما خسائر البريطانيين فقدرها جمال باشا بأربعة آلاف بين قتيل وجريح، وقدر عدد قتلى قواته بنحو 24 ضابطًا و276 جنديًا، إضافة إلى 571 مفقودًا.

انسحبت القوات العثمانية إلى بئر السبع، وبقي القائد الألماني فريدريش كريس فون كريسنشتاين (Friedrich Kress Von Kressenstein) في العريش على رأس قوة صغيرة تقدر بفوج سمّاه «قوة الصحراء»، وتولى قيادة الدفاع عن خط غزة -

---

(7) أحمد جمال [باشا]، مذكرات جمال باشا. الكتاب الأول، إعداد محمد السعيدي، المجموعة التاريخية العثمانية العربية، 1908-1918 (بيروت: دار الفارابي، 2013)، ص 246، 252، 264-265، 270، 272-273، 282، 292، 296-298 و311.

تل الشريعة - بئر السبع، ووقفت القوات البريطانية في غزة من 27 آذار/ مارس حتى تشرين الأول/ أكتوبر 1917، أي ثمانية شهور[8].

على الصعيد الإداري، أعلنت الدولة العثمانية النفير العام، ودعت المكلفين بالخدمة العسكرية إلى حمل السلاح، وفرضت الخدمة الإجبارية على أهالي فلسطين وقضاء عجلون في شرق الأردن. أما في لواء الكرك، فزار محمد جمال باشا (جمال باشا الصغير)، قائد الجيش الثامن في بلاد الشام، مدينة الكرك وجمع مشايخ اللواء ودعاهم إلى التضحية بالنفس والنفيس للذود عن كيان الدولة، وطلب منهم أن يقدموا مجاهدين ليخدموا في حدود لواء الكرك للدفاع عن حدوده. وبناءً عليه، تشكلت فرقة مجاهدين من الخيالة من أبناء عشائر الكرك، وتولى تدريبهم ضابط تركي.

حين أُعلنت الثورة العربية في الحجاز، تساهلت السلطات التركية مع البدو، واستدعى أحمد جمال باشا والوالي تحسين بيك المشايخ وأغدقا عليهم الملابس والأموال والأوسمة والألقاب، وحرضوهم على عدم الالتحاق بجيش الثورة العربية الذي يقوده الأمير فيصل بن الحسين. وأعدت قيادة الجيش الرابع حملة من سكان لواء الكرك وبدو بني صخر والحويطات لقتال جيش الثورة العربية. وصلت هذه الحملة إلى معان، وعادت إلى الكرك من دون أن تحقق أهدافها[9].

قررت قيادة الجيش العثماني الرابع جمع 26500 ليرة عثمانية في الشام على سبيل الإعانة، لإقامة مستشفيات وطنية تحوي 2500 سرير مع التجهيزات الضرورية، لدعم الحملة على مصر، في مدة أقصاها 1 كانون الأول/ ديسمبر 1915. وقرر مجلس إدارة لواء الكرك في 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1915 إرغام أهالي اللواء على دفع 4500 ليرة عثمانية مساهمة في هذا الجهد. وتم توزيع المبلغ بواقع 2200 ليرة على أهالي قضاء السلط، و550 ليرة على قضاء معان، و700 ليرة على قضاء الطفيلة، وألف ليرة على مركز اللواء، وتشكلت لجان لجمع هذه المبالغ[10].

---

(8) جمال [باشا]، مذكرات، ص 298.

(9) مذكرات عودة سلمان القسوس الهلسا (1877-1943)، ملحق بها ثلاثة أجزاء من الوثائق والأوراق الأردنية، تحقيق وشرح نايف جورج القسوس وغسان سلامة الشوارب الهلسا، 4 ج (عمان: [د. ن.]، 2006)، ص 84 و87-88.

(10) المصدر نفسه، ص 153.

حين فشل جمال باشا في حملته على مصر، اتبع سياسة القمع والإرهاب ضد الزعماء العرب في بلاد الشام، واتهم المتنورين العرب بخيانة الدولة والوطن وتسليم البلاد للأجنبي. وعزا فشل الحملة إلى عدم تعاون عرب بلاد الشام معه، وإلى اتصال المتنورين منهم بالقنصليات الأجنبية، فقدمهم إلى المجلس العرفي العسكري في عاليه، لبنان بتهمة التعاون مع العدو. وحكم المجلس العرفي بالإعدام على القافلة الأولى المؤلفة من أحد عشر شهيدًا في 21 آب/ أغسطس 1915، وعلى القافلة الثانية المؤلفة من واحد وعشرين شهيدًا في 6 أيار/ مايو 1916.

لم يقلّ نصيب فلسطين من حقد جمال باشا عن نصيب غيرها من الأقطار الشامية الأخرى، إذ أصدر المجلس العرفي الحكم بإعدام الشخصيات الفلسطينية الآتية: الشيخ سعيد الكرمي (1852-1935) الحاصل على شهادة العالمية من الجامع الأزهر، حسن حماد من نابلس، سليم أحمد عبد الهادي (1870-1915) من عرابة قرب جنين، محمد الشنطي من يافا (رئيس تحرير جريدة إقدام الأسبوعية القاهرية)، علي عمر النشاشيبي (الطبيب البيطري في الجيش العثماني)، حافظ السعيد، عارف العارف. نُفذ حكم الإعدام بأربعة منهم، وخفض الحكم على الشيخ سعيد الكرمي وحافظ السعيد لتقدمهما في السن. وأعدم أحمد عارف وولده مفتي غزة في القدس في عام 1917[11]. وكان نصيب شرق الأردن شهيدين: أحمد الكايد ومصلح الفاضل الربيع بتهمة التعاون مع الإنكليز.

تعرض كثير من سكان فلسطين وشرق الأردن للنفي والإبعاد إلى الأناضول. وكان يُصرف للمنفي مواد غذائية تكفيه عشرة أيام بعد مصادرة السلطات العسكرية ممتلكاته ومواشيه. وعومل سكان عرابة وجنين معاملة سيئة بعد إعدام الشهيد سليم أحمد عبد الهادي[12].

في 12 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، تقرر نفي 25 من الوجهاء المسيحيين في الكرك إلى الأناضول، نُقلوا بالقطار إلى دمشق فحلب فأضنة، ثم إلى لواء

(11) أحمد جمال [باشا]، الإيضاحات، عن القضايا الأساسية التي جرى البحث فيها لدى ديوان الحرب العرفي المنشأ في عاليه. الكتاب الثاني، إعداد وتحقيق محمد السعيدي، المجموعة التاريخية العثمانية العربية، 1908-1918 (بيروت: دار الفارابي، 2013)، ص 7، 123، 178 و182-183.

(12) *Arab Bulletin* (17 March 1917), pp. 85-86.

قوزان حيث استقروا في بلدة سيس. وصدر العفو عنهم في 11 آذار/ مارس 1918 وأعيدوا إلى الأردن[13].

على الصعيد الاقتصادي، فرض الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا والولايات المتحدة) الحصار على موانئ فلسطين، وبذلك تعذر على سكان فلسطين وشرق الأردن تصدير منتوجاتهم الزراعية واستيراد ما يحتاجون إليه من مواد غذائية، من أرز وسكر وشاي وبن ومنسوجات وكاز ومواد صناعية معدنية وأدوية وإسمنت وأعواد ثقاب. رافق هذا الحصار مصادرة المحاصيل الزراعية لمصلحة الجيش العثماني، وفرض الإعانات للجيش باسم التكاليف الحربية، وتجنيد الشبان القادرين على العمل في الزراعة والحرف والمهن المختلفة، ونفي الأسر العربية المسلمة والمسيحية إلى أقاصي الأناضول، ومصادرة أملاكها وأراضيها. زاد انتشار أمراض الكوليرا والتيفوس والتيفوئيد والمجاعة الوضع سوءًا[14]، وبلغ الحال بكثير من الناس في فلسطين حدّ بيع ما لديهم من مصاغ أو متاع من فراش وأوانٍ نحاسية بأثمان بخسة لتأمين المواد الغذائية الضرورية[15].

عانت الحكومة العثمانية عجزًا كبيرًا في الموازنة العامة خلال سنوات الحرب، فأصدرت العملة الورقية بدلًا من العملة الذهبية والفضية لسدّه، وأصدر السلطان محمد رشاد في عام 1914 الغرش الذي يساوي 40 بارة معدنية من النيكل. ومع بداية الحرب، لم تعد العملة الورقية قابلة للإبدال، ما أوقع سكان فلسطين وشرق الأردن في عسر. ارتفعت أسعار المواد الغذائية والأقمشة بنسبة 1675 في المئة، وقلّت المؤن في هذين القطرين بعدما صادرتها الحكومة، كما غزا الجراد بلاد الشام كلها فأتى على الأشجار والمزروعات، وتدفق المهاجرون الأرمن إلى فلسطين وشرق الأردن، وفُرضت السخرة على الناس لقطع الأشجار ونقلها على دوابهم لتأمين سير القطارات الناقلة للجند ومؤنهم[16].

---

(13) مذكرات عودة سلمان القسوس الهلسا، ص 90-111.

(14) خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق بين 1918-1920، مكتبة الدراسات التاريخية (القاهرة: دار المعارف بمصر، 1971)، ص 24.

(15) الخالدي، ص 75.

(16) أحمد صدقي شقيرات، تاريخ الإدارة العثمانية في شرق الأردن، 1864-1918 (عمان: آلاء للطباعة والتصميم، 1992)، ص 71 و76، و ديفيد فرومكين، نهاية الدولة العثمانية وتشكيل الشرق =

انتشرت الملاريا والكوليرا في صفوف الجيش العثماني وفي المدن الفلسطينية، وارتفعت نسبة الوفيات في عام 1915، ثم تراجعت في عام 1916. وانتشر التيفوس بين الجيش والسكان في صيف 1916، وأصابت الحمى الراجعة الجيش في عام 1915، وانتشر الجدري بين السكان مثلما انتشر السفلس، وافتقرت الصيدليات إلى الأدوية.

ازداد انتشار الرشوة في سنوات الحرب، وكانت خمسون ليرة ذهبية نابليونية كافية لإعفاء رجل من الخدمة العسكرية. وكان بدل الخدمة العسكرية يدفع لإعفاء يدوم 18 شهرًا ثم مُدد عامًا واحدًا. وفي تشرين الأول/ أكتوبر 1917، ألغى الصدر الأعظم أنور باشا البدل كليًا، لكن تحايل الناس على هذا القرار بالتبرع للجهد الحربي بمواد غذائية في مقابل إعفائهم من الخدمة العسكرية لمدة عام، عُيّنت كالآتي:

4000 كيلوغرام حنطة	3200 كيلوغرام حمص
4350 كيلوغرام شعير	3220 كيلوغرام برغل
4000 كيلوغرام بطاطا	4200 كيلوغرام ذرة هندية (صفراء)
5050 كيلوغرام عدس	4300 كيلوغرام ذرة بيضاء

نجم عن تجنيد الرجال القادرين جسديًا في الجيش، ومصادرة الخيول والبغال والحمير والجمال والأبقار، بقاء الأرض بورًا[17].

ثانيًا: انسحاب العثمانيين من فلسطين وشرق الأردن

في 27 حزيران/ يونيو 1917، عيّنت الحكومة البريطانية الجنرال السير إدموند أللنبي (General Sir Edmund Allenby) قائدًا للقوات البريطانية من أجل غزو فلسطين واحتلال القدس قبل حلول عيد الميلاد. اختار أللنبي الكولونيل

= الأوسط، قراءة وتقديم منذر الحايك، ترجم النصوص وسيم حسن عبدو (دمشق: دار صفحات للنشر والتوزيع، 2015)، ص 120.

(17) *Arab Bulletin* (12 April 1917), pp. 180-187.

ريتشارد مينرتزهاغن (Col. Richard Meinerzhagen) رئيسًا للاستخبارات العسكرية، والكولونيل ويندهام ديدز (Col. Windham Deedes)، الخبير بالشؤون العثمانية، رئيسًا للقسم السياسي في هذه الاستخبارات.

في هذه الأثناء احتلت قوة من جيش الثورة العربية الشمالي، بقيادة الشريف ناصر بن علي وعودة أبو تايه، العقبة في 6 تموز/ يوليو 1917. وذهب الكابتن لورنس (Capt. T.E. Lawrence) إلى مصر والتقى بالجنرال أللنبي وعرض عليه نقل قوات الجيش العربي الشمالي بقيادة الأمير فيصل بن الحسين إلى العقبة، وفتح جبهة مع القوات التركية في جنوب شرق الأردن[18]. والواقع كان احتلال العقبة ذا أهمية استراتيجية. إذ استعملتها القوات التركية لزرع الألغام في مياه البحر الأحمر. وكانت القوات البريطانية تخشى أن تستعملها القوات الألمانية قاعدة لغواصاتها. أسفر احتلال العقبة عن مقتل 600 جندي تركي وأسر 760 منهم[19].

وصل جيش فيصل إلى العقبة، فقرر الجنرال أللنبي أنه جناح أيمن لجيشه الذي كان يواجه القوات التركية المنتشرة على خط غزة - بئر السبع في فلسطين، وأمدّه بخمس سيارات مصفحة، وبسرب من الطائرات، وبمدفعين محمولين، وبمفرزة من الهنود المسلمين بالرشاشات، وبأخرى من الجمالة المصريين، وبثالثة فرنسية تحمل أربعة مدافع جبلية.

خاض الجيش العربي الشمالي معارك ضارية ضد القوات التركية في وادي موسى والطفيلة ومعان، وتغلغلت سراياه في قلب الجبهة التركية حتى وادي الحسا وجرف الدراويش وقلعة الأزرق[20]. في 31 تشرين الأول/ أكتوبر 1917، هاجم أللنبي فلسطين، لكنه تجنب غزة المحصنة جيدًا، والتف بقواته إلى بئر السبع ففاجأ حاميتها العثمانية، ثم دفع بقواته إلى شمال يافا نحو القدس، فاحتلتها في 11 كانون الأول/ ديسمبر 1917، وأخضعها للحكم العرفي العسكري. ومنذ

---

(18) فرومكين، ص 262-263 و265.

(19) سليمان موسى، لورنس والعرب: وجهة نظر عربية، ط 2 منقحة ومزيدة (عمان: منشورات وزارة الثقافة، 1992)، ص 90-91.

(20) سليمان موسى، «إنجازات الثورة العربية الكبرى،» في: ناصر الدين الأسد [وآخ.]، النهضة العربية الكبرى: دراسات وأبحاث، تقديم وتحرير قاسم محمد صالح وقاسم محمد الدروع (عمان: مديرية التوجيه المعنوي، 1989)، ص 112.

ذلك الحين، انشغل أللنبي بوضع الخطط والإجراءات اللازمة لاستئناف هجومه على القوات التركية المرابطة في فلسطين[21]، فحشد في ميدان فلسطين تسع فرق مشاة وثلاث فرق فرسان وقوة كبيرة من الأسلحة المتخصصة. في هذه الأثناء، تولى الجنرال الألماني إريش فون فالكنهاين (Erich Von Falkenhayn) قيادة القوات التركية في فلسطين، في غياب أحمد جمال باشا الذي سافر إلى ألمانيا[22].

خطط أللنبي لهجوم على طول الجبهة ينتهي بالاستيلاء على دمشق في أيلول/ سبتمبر 1918، وعهد إلى القوات العربية في شرق الأردن مهمة قطع المواصلات بين دمشق وفلسطين وشرق الأردن، باحتلال مدينة درعا، النقطة الحيوية للمواصلات. اختار فيصل قوة نظامية قوامها 600 جندي وضابط، انضمت إليها الوحدات الفنية البريطانية والفرنسية، ونحو 500 مقاتل من أبناء القبائل البدوية، لتدمير خط السكة الحديد بين عمان ودرعا ودمشق وحيفا.

في صباح 19 أيلول/ سبتمبر 1918، بدأ الهجوم البريطاني - العربي عنيفًا على خطوط الجيشين السابع والثامن التركيين، فتراجعا. انسحب الفيلق الثاني من الجيش التركي الرابع من معان واستسلم للقوات البريطانية، واستولت القوات العربية على درعا في 27 من الشهر نفسه. وصلت طلائع الجيش العربي إلى دمشق مساء 30 أيلول/ سبتمبر، ودخلها الجيش النظامي العربي صباح اليوم الأول من تشرين الأول/ أكتوبر 1918، ثم دخلها الأمير فيصل في اليوم الثالث من الشهر نفسه[23].

في أثناء العمليات العسكرية في فلسطين، احتلت القوات البريطانية مدينة السلط في شرق الأردن في 24 آذار/ مارس 1918، وبقيت فيها خمسة أيام، ثم اضطرت إلى الانسحاب منها مع تطور الوضع العسكري، فما كان من سكان

---

(21) فرومكين، ص 266-267 و270.

(22) جمال [باشا]، مذكرات، ص 313-314، 324 و326.

(23) موسى: «إنجازات الثورة،» ص 112-114، ومذكرات الأمير زيد: الحرب في الأردن 1917-1918، الأعمال الكاملة؛ 7، ط 3 (عمان: دار ورد للنشر والتوزيع، 2011)، ص 225؛ ممدوح عارف الروسان، حروب الثورة العربية الكبرى في الحجاز وبلاد الشام 1916-1918 (إربد: مكتبة الكتاني، 1986)، ص 56-57 و76-77؛ أحمد قدري، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى (دمشق: مطابع ابن زيدون، 1956)، ص 70-72؛ و *Arab Bulletin* (22 October 1918), pp. 343-350.

السلط من المدنيين إلا أن غادروا مدينتهم مشيًا على الأقدام أو على دوابهم متجهين إلى القدس، وبلغ عددهم أربعة آلاف نسمة. لجأ الأثرياء منهم إلى بيت لحم والخليل، وكان معظمهم من المسيحيين الذين خشوا انتقام القوات التركية منهم بعد انسحاب القوات البريطانية من المدينة (بلغ عدد المسيحيين 3871 نسمة، وعدد المسلمين 278 نسمة)، وتولت السلطات البريطانية في القدس إيواءهم وتأمين الغذاء لهم(24).

ثالثًا: الحياة الاجتماعية والتربية والتعليم

قسّم نمط المعيشة عرب فلسطين في فئات ثلاث: سكان المدن وسكان الريف (الفلاحون) والبدو. كان سكان المدن يؤلفون 35 في المئة من مجموع السكان، وسكان الريف 57 في المئة، وسكان البادية 8 في المئة(25). وقسّمهم الانتماء الديني مسلمين وأهل ذمة، ثم سنة وشيعة ودروز وبهائيين، بينما انقسم أهل الذمة مسيحيين ويهودًا، والمسيحيون رومًا أرثوذكس ورومًا كاثوليك ولاتين وسريان وأرمن وأقباط وإنجيليين، واليهود سفارديم وإشكينازيم وسامرة.

كان كبار الملاكين وأعيان المدن، أو الأفندية، ومشايخ القرى والعشائر قادة المجتمع، يتمتعون بنفوذ واسع بسبب دورهم الوسيط بين الرعية والحكام. أما صغار الملاكين والعمال الزراعيون فكانوا يعملون في الحقول، ويعيشون حياة قاسية في بيوت من طين وقش، يشاركون فيها مواشيهم. تفتك بهم الأوبئة والمجاعات، مستسلمين للأقدار وراضين بمصيرهم وبالجور والجهل والذل والمهانة، يُرهبهم البدوي وينهب ما تقع عليه عينه من ممتلكاتهم، ويفرض عليهم «الخاوة»، ويفد إليهم جابي الضرائب فلا يبقي لهم ما يسد جوعهم.

أما التجار فكانوا يقيمون في المدن، ويملكون ثروة كبيرة نسبيًا. ومع انفتاح فلسطين على أوروبا، نمت هذه الفئة وصارت تؤدي دورًا مهمًا في الحياة

---

(24) رؤوف أبو جابر، تاريخ شرقي الأردن واقتصاده خلال القرن التاسع عشر ومنتصف العشرين (عمان: دار ورد للنشر والتوزيع، 2009)، ص 137-148، و *Arab Bulletin* (21 April 1918), pp. 125-128.

(25) علي محافظة، الفكر السياسي في فلسطين من نهاية الحكم العثماني حتى نهاية الانتداب البريطاني 1918-1948، ط 2 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002)، ص 6.

الاجتماعية والثقافية. فإليها ينتمي علماء الدين الذين نزلوا منزلة رفيعة في الدولة والمجتمع، ومنها ظهر المثقفون الجدد الذين تخرجوا من المعاهد الأجنبية وأكملوا دراساتهم العليا في جامعات الغرب.

أقام معظم الحرفيين وأصحاب المهن الحرة، من أطباء ومهندسين ومحامين، في المدن، وكان همه تلبية حاجات المجتمع المحلي: مجتمع المدينة والقرية والبادية. والواقع أن الامتيازات الأجنبية (Capitulations) حالت دون تقدم أي حرفة أو صناعة، خصوصًا بعدما غزت المنتوجات الصناعية الغربية الأسواق المحلية.

سيطرت القبائل البدوية في بوادي فلسطين وشرق الأردن وغور الأردن الواصل بين القطرين، ترعى الماشية ويغزو بعضها بعضًا وتفرض «الخاوة» على القرى، حيث يعجز الفلاح عن حماية نفسه. وكانت هذه القبائل فئات: رعاة إبل ورعاة أغنام وماعز ورعاة بقر. كانت القيم الاجتماعية والأعراف والعادات والتقاليد السائدة في المدن والقرى بدوية الأصول، وافتقر هذا المجتمع إلى التجانس والتماسك، وبدأت أطره في الانهيار منذ مطلع القرن العشرين، وتراجعت القيم الاجتماعية القديمة وحلت محلها قيم جديدة غربية، ونشأ صراع شديد بين الراغبين في التفرنج وتقليد الغرب وبين المحافظين أنصار التقليد للقيم القديمة. كما ظهرت فئة واعية تنادي بمبادئ جديدة، وتحاول إعادة بناء المجتمع على أسس جديدة مغايرة تمامًا للبنية القديمة[26].

لم تعرف فلسطين ولا شرق الأردن التعليم الحديث قبل القرن التاسع عشر، واقتصر التعليم فيهما على الكتاتيب والمدارس الإسلامية والطائفية، واستمر هذا النوع من التعليم إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، إلى جانب المدارس الحديثة.

كان الصبيان بين الخامسة والثانية عشرة يجتمعون في مسجد أو بيت خاص أو مضافة، ويقوم شيخ بتدريسهم حفظ القرآن الكريم وتجويده والإلمام ببعض مبادئ الدين الإسلامي، خصوصًا ما يتعلق منها بالعبادة وحفظ الأحاديث النبوية،

(26) محافظة، الفكر السياسي في فلسطين، ص 135-136؛ مسعود ضاهر، المشرق العربي المعاصر من البداوة إلى الدولة الحديثة، الدراسات التاريخية (بيروت: معهد الإنماء العربي، 1986)، ص 447-449، ورفيق التميمي ومحمد بهجت، ولاية بيروت، 2 ج في 1 (بيروت: دار لحد خاطر للطباعة والنشر والتوزيع، 1979)، ص 91-92، 99-100، 127 و129.

وتعلم شيء من الحساب والفلك. وكانت نفقات التعليم تُجبى من أولياء أمور التلاميذ، كما لم تمارس الدولة أي رقابة على هذه الكتاتيب. أما التعليم الأعلى فكان في المدرسة الإسلامية التي تدرس مبادئ الشريعة الإسلامية وأصول الدين والعبادة، إضافة إلى اللغة العربية (قواعد وبلاغة وفقه اللغة).

كان الكُتّاب لدى الطوائف المسيحية الكنيسة أو الدير أو أي بيت خاص في الحي أو القرية، وكان المعلم رجل دين يعلم تلامذته قراءة الكتاب المقدس وأصول العبادة المسيحية واللغة العربية.

دخل التعليم الحديث إلى فلسطين وشرق الأردن مع الإرساليات التبشيرية الأجنبية والمعاهد الحديثة، من رسمية ووطنية وأجنبية. وصدر قانون المعارف العثماني في عام 1869، فاعتُبرت الكتاتيب والمدارس الدينية بموجبه مدارس خاصة، ووُضِعت المدارس التبشيرية والأجنبية تحت الرقابة الحكومية، وتوجّب على كل مدرسة خاصة أن تحصل على ترخيص من مجلس المعارف في كل ولاية من ولايات الدولة يتضمن الموافقة على مناهجها وعلى تعيين معلميها. أما المدارس الحكومية (العمومية) التي أنشأتها الدولة على النمط الأوروبي الحديث فهي خمسة أنواع قسمت وفق مراحلها: المدارس الأولية (مكاتبي صبيانية)؛ المدارس الابتدائية (مكاتبي رشدية)؛ المدارس الثانوية المتوسطة (مكاتبي إعدادية)؛ المدارس الثانوية العالية (مكاتبي سلطانية)؛ المدارس العليا (مكاتبي عليا).

نص القانون على أن مدة التعليم الإلزامي هي السنوات الأربع الأولى من التعليم الابتدائي، وحدد مدة الدراسة في المدارس الرشدية أربع سنوات، ومدة الدراسة في المدارس الإعدادية ثلاث سنوات، ومدة الدراسة في المدارس السلطانية ثلاث سنوات، والمدارس العليا هي لإعداد المعلمين وتشمل المدارس الفنية والزراعية، والجامعة هي «دار الفنون» في اسطنبول[27].

صدر قانون موقت للتعليم الابتدائي في عام 1913، طبق في فلسطين وشرق الأردن. وأصبحت مناهج المدارس الابتدائية تشمل تدريس القرآن واللغة

(27) علي محافظة، تاريخ الحركات الفكرية في عصر النهضة: الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن (بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، 1987)، ص 31-34.

التركية والتاريخ والجغرافيا والحساب والصحة والرياضة البدنية والعلوم المنزلية والموسيقى، وبلغ عدد المدارس العمومية في فلسطين وشرق الأردن 95 مدرسة أولية وابتدائية وثلاث مدارس ثانوية في عام 1914. وضمت هذه المدارس 234 معلمًا و8248 تلميذًا، بينهم 1480 تلميذة[28]. وأنشأ أحمد جمال باشا الكلية الصلاحية في القدس في بداية عام 1915، وكانت لغة التعليم فيها العربية، إلى جانب التركية، في سابقة أولى.

كانت هذه كلية للتدريب، وضمت زهاء 300 طالب مسلم من فلسطين وباقي الأقطار الشامية والحجاز وأقطار المغرب العربي وقازان وتركيا. وكان التعليم فيها مجانيًا، كما كانت ألبسة الطلاب وتغذيتهم وإقامتهم في الكلية مجانية[29].

أما المعاهد الوطنية (الخصوصية) من المستويين الأولي والابتدائي فبلغ عدد الإسلامية منها 379 مدرسة في عام 1914، ضمت 417 معلمًا ومعلمة و8705 تلامذة، بينهم 131 تلميذة، وكان معظمها كتاتيب.

أنشئت في القدس «روضة المعارف» مدرسةً خصوصيةً تضم المراحل كلها، بما فيها الثانوية العالية في عام 1908، فكانت أول مدرسة إسلامية خاصة في فلسطين. وأنشئت في القدس أيضًا «المدرسة الدستورية» في عام 1909 على يد مسلمين ومسيحيين، وكانت قد أنشئت مدرسة ابتدائية حديثة في عكا في عام 1888، وأسست «كلية النجاح» في نابلس في عام 1918، مدرسة ابتدائية وثانوية كاملة[30].

كان لليهود مدارسهم الخاصة في القدس، بلغ عددها العشرات في عام 1914، وضمت 200 معلم ونحو 4000 تلميذ. ووُجِد نحو عشرين مدرسة في تل أبيب، بلغ عدد معلميها 51 معلمًا، وضمت 1400 تلميذ. وأنشئت مدارس يهودية حديثة، مثل الأليانس وبيت ساليل ولاميل والجمنازيوم في تل أبيب، والمدرسة الثانوية في حيفا، والمدرسة الزراعية قرب تل أبيب، ومعهد الموسيقى، ومعهد التمثيل في تل أبيب، ومعهد التخنيون للدراسات العليا.

(28) محافظة، تاريخ الحركات الفكرية، ص 35.
(29) *Arab Bulletin* (14 May 1918), pp. 159-160.
(30) محافظة، تاريخ الحركات الفكرية، ص 35-36.

تسابقت الإرساليات التبشيرية إلى إنشاء المدارس اللاتينية والكاثوليكية، ومدارس جمعية المرسلين الكنسية التي بلغ عددها في فلسطين والأردن 47 مدرسة في عام 1896، تضم 84 معلمًا و2307 تلامذة. وبلغ عدد مدارس «جمعية فلسطين الروسية الإمبراطورية» في نهاية القرن التاسع عشر في فلسطين عشرين مدرسة[31].

أرسل الأثرياء العرب في فلسطين أبناءهم إلى الجامعة الأميركية في بيروت والجامعات الأوروبية والجامع الأزهر في القاهرة، وكان الإقبال شديدًا على دراسة الطب والقانون. وساهمت الحركة التعليمية في فلسطين في ظهور نخبة من المفكرين والمثقفين العرب ساهمت في النهضة الفكرية العربية[32].

رابعًا: الوعي السياسي في فلسطين

تشير تقارير قنصل بريطانيا في القدس جيمس فن (James Finn) التي بعث بها إلى السفير البريطاني في اسطنبول بين عامي 1845 و1862، إلى بواكير وعي سياسي بين عرب فلسطين. ذكر فن في رسالة إلى السفير كلارندون، مؤرخة في 3 آب/ أغسطس 1854، أن بعض العرب لا يكنّ احترامًا للأتراك، ويعتبرهم غزاة فاتحين ومغتصبين للخلافة الإسلامية. وجاء في رسالة أخرى إلى السفير البريطاني مالمسبري (Malmesbury) بتاريخ 13 أيلول/ سبتمبر 1858 أن عرب فلسطين يفهمون من كلمة الاستقلال التي راجت في تلك الفترة استقلالهم عن الدولة العثمانية. ولا يعرف إذا كانت هذه الأفكار هي من بقايا الشعارات والآراء التي خلّفها حكم محمد علي باشا في البلاد، أو مجرد أفكار فجة تعبر عن ردة فعل عربية إسلامية على الحركة القومية التركية التي أكدت الانتماء الأوروبي للأتراك.

مثّل فلسطين في البرلمان العثماني الأول، الذي أُلّف في عام 1877 في أعقاب إعلان الدستور العثماني في السنة السابقة، يوسف ضياء الدين الخالدي، أحد أعيان القدس ومفكريها. أتيح لقريبه روحي الخالدي (1861-1913) أن ينال حظًا وافرًا من التعليم والثقافة في اسطنبول وفي جامعة باريس. عمل قنصلًا

(31) محافظة، تاريخ الحركات الفكرية، ص 37-43.
(32) محافظة، الفكر السياسي في فلسطين، ص 90.

عامًا للدولة العثمانية في مدينة بوردو (Bordeaux) الفرنسية بين عامي 1899 و1908. ووصف الظلم والاستبداد اللذين اتسم بهما عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1876-1909)، وأطنب في الكتابة عما أصاب أحرار العثمانيين من اضطهاد وتحقير وعذاب. وتحدث عن الفساد الإداري في الدولة[33].

ترك الانقلاب العثماني في عام 1908 أثرًا كبيرًا في المثقفين والمفكرين العرب في فلسطين، استقبلوه بحماسة بالغة ورحبت به صحفهم أجمل ترحيب. وصفت مجلة الأصمعي المقدسية العهد الجديد في افتتاحية عددها الأول الصادر في آب/ أغسطس 1908 بالعبارات الآتية: «الحمد لله الذي أخرجنا من الظلمات إلى النور، ومنّ علينا بأن أطلق ألسنتنا في القول، بعد أن كاد يقضى عليها بالتعقيد لطول احتباسها وراء الثنايا والشفاه. ومكّن أيدينا من العمل بعد أن مرت عليها السنون، وهي مكبلة بالأصفاد حتى كادت تورثها الشلل. فلم يكن إلا طرفة عين، حتى أصبحنا طليقي الأيادي والألسنة». وأشادت جريدة الإنصاف المقدسية في عددها الأول في 10-27 كانون الأول/ ديسمبر 1908، بالمساواة والإخاء وبعث الحياة العربية[34].

مثّل فلسطين في مجلس النواب العثماني (مجلس المبعوثان) الذي انتخب بعد عودة الدستور في عام 1908، روحي الخالدي وسعيد الحسيني وحافظ السعيد عن لواء القدس، والشيخ أحمد الخماش عن لواء نابلس، والشيخ أسعد الشقيري عن لواء عكا.

كان للردة الرجعية التي قام بها أنصار السلطان عبد الحميد الثاني في آذار/ مارس 1909، وتحرك القوات العسكرية المرابطة في سالونيك لإخمادها، صدى في فلسطين. فنظم الأديب المقدسي إسعاف النشاشيبي قصيدة في الجيش العثماني منددًا بالرجعية والاستبداد ومرحبًا بالحرية، ومؤكدًا أن الدين غالبًا ما استغل واتخذ سبيلًا للظلم والاستبداد، ومطلعها:

أخطري اليوم في الربوع اختيالا   لا تخافي من العدو اغتيالا

(33) محافظة، الفكر السياسي في فلسطين، ص 9-10.

(34) المصدر نفسه، ص 11.

حسب القوم نائمين وخالا | كان هذا الحسبان منه ضلالا
نسي الكامنين في سلنيك | يرقبون الشؤون والأحوالا
فأتوه مزمجرين غضابًا | وأذاقوه شدة ووبالا
أنزلوه عن عرشة مستكينًا | وأذلوه في الورى إذلالا
أيها الشرق طال نومك فانهض | للمعالي وصافح الإقبالا

لم تطل فرحة العرب بالدستور، إذ ما لبثت أن تلاشت حماستهم واختفى تأييدهم لقادة جمعية الاتحاد والترقي، وشعروا بخيبة الأمل. فانقلاب الاتحاديين لم يحقق لهم ما كانوا يرجونه، وأتت سياسة التتريك صفعة قوية لتطلعات العرب القومية. وعبّر الشاعر الفلسطيني سليمان التاجي الفاروقي، الملقب «بدوي فلسطين»، عن خيبة الأمل هذه بهذه الأبيات التي يعاتب فيها السلطان العثماني محمد رشاد:

العرب لا شقيت في عهدك العرب | سيوف ملكك والأقلام والكتب
هم الجبال فما حمّلتهم حملوا | لكن، إذا مسّهم ضيم النفوس أبوا
كنا نعلل بالدستور أنفسنا | بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقب
حتى إذا جاء لم يحدث لنا حدث | ولا استجيب لنا في مطلب طلب

تحول عتاب العرب وخيبة أملهم إلى استنكار ورفض لهيمنة الاتحاديين على الحكم، ثم إلى ثورة عارمة تغلي في النفوس، بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى وفرض الأحكام العرفية في البلاد، وسوق آلاف الشبان العرب إلى ميادين القتال في حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، ومصادرة المؤن من الفلاحين والتجار لتموين الجنود العثمانيين المشاركين في حملة السويس، وتقديم العشرات من الشبان المثقفين العرب إلى المجلس العرفي المنعقد في عاليه، لبنان، وتعليقهم على أعواد المشانق في ساحتي المرجة في دمشق والبرج في بيروت في عامي 1915 و1916.

نهض الشيخ سعيد الكرمي، أحد ضحايا أحمد جمال باشا، قائد الجيش

العثماني الرابع المرابط في بلاد الشام، يدعو العرب إلى رفع راية الثورة في وجه الأتراك:

أيا أمة أودى بها مرض الجهل   وذلّت فصارت عرضة النهب والقتل
أمـا فـيكـم ذو نـخـوة عـربيـة   يعاف ورود الضيم من منهل الذل
ويرفع عن أبنـاء عدنان عارهـا   ويدفع عنهم سلطة الخائن النذل
تحكم فيكم نسل جنكيز فاتكًا   بسيف عتوّ ليس يعروه من خل[35]

تأثر المثقفون ورجال الفكر العرب في فلسطين بالتيارات السياسية التي ظهرت في هذه الحقبة من الزمن. وتبنى بعضهم الدعوة إلى الجامعة الإسلامية المنادية بالإصلاح الشامل في العالم الإسلامي، أمثال روحي الخالدي وأسعد الشقيري وعبد القادر المظفر. وانخرط بعضهم في صفوف جمعية الاتحاد والترقي، وتبنى فريق آخر الدعوة إلى القومية العربية التي تجسدت في الجمعيات والأندية الأدبية العربية العلنية والسرية. فكان من الجمعيات العلنية «جمعية الإخاء العربي - العثماني» التي تشكلت في 2 أيلول/ سبتمبر 1908 في العاصمة العثمانية، وكان لها فرع في القدس ضم 15 عضوًا، منهم إسماعيل الحسيني وموسى الخالدي وحنا العيسى ونخلة زريق وشكري الحسيني وجميل الحسيني وفيضي العلمي وخليل السكاكيني.

عندما أُسس المنتدى العربي في اسطنبول في صيف 1909، كان من أعضائه الفلسطينيين عارف العارف ورشدي الشوا وعاصم بسيسو ومصطفى الحسيني. ومارس هذا المنتدى نشاطه حتى أغلقته السلطات العثمانية في عام 1915.

دخل النواب الفلسطينيون في مجلس المبعوثان من خلال «حزب الحرية والائتلاف العثماني» الذي سعى إلى منح الولايات العثمانية الاستقلال الإداري وتطبيق قاعدة اللامركزية في إدارة الدولة[36]. وساهم الطلاب الفلسطينيون عاصم بسيسو ومصطفى الحسيني وشكري غوشه في تأسيس «جمعية العلم الأخضر»

(35) محافظة، الفكر السياسي في فلسطين، ص 12-13.
(36) المصدر نفسه، ص 14-17.

في العاصمة العثمانية في أيلول/ سبتمبر 1912. وكان الطبيب البيطري علي النشاشيبي، أحد ضباط الجيش العثماني، من مؤسسي «الجمعية القحطانية» السرية في عام 1909. استمرت هذه الجمعية في نشاطها السري حتى اندمجت في «جمعية العهد» في 28 تشرين الأول/ أكتوبر 1913، وكان هدف الجمعيتين «السعي إلى استقلال بلاد العرب، على أن تبقى متحدة مع حكومة اسطنبول، اتحاد المجر مع النمسا».

انتسب عدد من المثقفين الفلسطينيين إلى «حزب اللامركزية الإدارية العثماني» الذي أسس في مصر في نهاية عام 1912، ومنهم سليم عبد الهادي (من جنين) وحافظ السعيد (من يافا) وعلي النشاشيبي (من القدس). وتألفت شعبة للحزب في نابلس ضمت توفيق عبد الغني عبد الهادي وعبد الهادي القاسم عبد الهادي وحسن حماد وإبراهيم عبد الهادي وسعيد الكرمي وعوني عبد الهادي.

اختلفت مواقف المثقفين والمفكرين الفلسطينيين من الحرب العالمية الأولى، فمنهم من دعا الدولة العثمانية إلى التحالف مع ألمانيا، ومنهم من حبّذ تحالفها مع بريطانيا.

نالت فلسطين نصيبها من حقد أحمد جمال باشا، فنفى العشرات من أعيانها إلى الأناضول في أثناء الحرب. ولما أعلنت الثورة العربية من مكة في 10 حزيران/ يونيو 1916، لم يتوان أبناء فلسطين عن اللحاق بها والانضمام إلى الجيش الشمالي بقيادة الأمير فيصل بن الحسين. ونظم خليل السكاكيني نشيد الثورة العربية ومطلعه:

أيها المولى العظيم — فخر كل العرب
ملكك الملك الفخيم — ملك جدك النبي
نحو هذا الملك سيروا — قبل فوت الزمن
وعلى الخصم أغيروا — لخلاص الوطن[37]

---

(37) محافظة، الفكر السياسي في فلسطين، ص 18-19.

بعدما احتلت القوات البريطانية القدس، أنشأ قائد هذه القوات «المكتب العربي»، ووضعه بإدارة قسم الاستخبارات السياسية. كانت الغاية من إنشائه استقبال العرب الذين يأتون إلى فلسطين من الأشراف الهاشميين، لتأمين مساكن لهم ومتابعة تحركاتهم وتقديم الضيافة اللازمة لهم، وتقديم المساعدة «للجنة العربية للتجنيد في فلسطين» التي كانت تتولى تجنيد الفلسطينيين لجيش فيصل بن الحسين[38]، وكانت هذه اللجنة برئاسة الملازم أديب وهبة الذي أقام حفل عشاء في القدس في 4 تموز/ يوليو 1918 حضره 200 من أعيان فلسطين، ودعا فيه إلى الانضمام لجيش الثورة العربية. وتحدث في هذا الحفل عدد من قادة المجتمع الفلسطيني[39].

واجه المثقفون العرب في فلسطين إشكالية محيرة. فالقوات البريطانية المنتصرة هي حليفة العرب، والقوات المهزومة هي قوات الخلافة العثمانية التي استظلت فلسطين بحمايتها أربعة قرون، لذا استقبلوا قوات الاحتلال البريطاني بمشاعر تباينت بين ترحاب وخوف واشمئزاز، كما اختلفت مواقفهم وآراؤهم من الواقع الجديد. إذ حُكمت فلسطين حكمًا عسكريًا مباشرًا، وسمّيت «بلاد العدو المحتلة» (Occupied Enemy Territories)، ووضعت تحت إدارة المايجور جنرال السير موني (Major-General Sir A. Money) المرتبط مباشرةً بالجنرال أللنبي القائد الأعلى للإدارة العسكرية في بلاد الشام.

قال بعض مثقفي فلسطين إن البلاد ستتحول مستعمرة إنكليزية لأن الإنكليز هم الفاتحون، وقال بعض آخر إن فلسطين ستلحق بمصر، وقال بعض ثالث إنها ستصبح فلسطين حرة مستقلة، وأبدى بعض رابع، ومعظمه من المسلمين التقليديين، أسفه على زوال الحكم العثماني لاعتقاده أن ما حدث ضربة للإسلام وتعزيز للنصرانية. ورحب بعض خامس، معظمه من المسيحيين، بالإنكليز توهمًا منه بأن الوجود الإنكليزي نصر للمسيحية. وتأثر الذين رحبوا بالإنكليز بالنشاط الإعلامي للثورة العربية، باعتبار أن الإنكليز حلفاء للعرب، وهم الذين وعدوهم بالحرية والاستقلال بعد انتهاء الحرب. وعبّر الشيخ محمد القلقيلي، رئيس تحرير

---

(38) *Arab Bulletin* (4 June 1918).

(39) *Arab Bulletin* (16 July 1918), pp. 249-251.

جريدة الكوكب، عن رأي الفريق الأخير في مقالة نشرها في جريدته في 16 كانون الثاني/ يناير 1918، بعنوان «نحن وبريطانيا العظمى»، فكتب: «يقول العرب في أمثالهم إن الطيور على أشكالها تقع. ويقولون في آثارهم المأثورة إن الأرواح جنود مجندة فما اتفق منها ائتلف وما تناكر منها اختلف. ويقولون في أشعارهم التي سارت سير الأمثال:

على المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي

فنحن العرب حالفنا، ونحن ننهض من عثرتنا، بريطانيا العظمى لأنها على شاكلتنا ونحن على شاكلتها في المبادئ الاجتماعية والأخلاق السياسية والسنن العمرانية. اتفقت روحنا مع روحها فاتفقنا وائتلفنا وتحالفنا. امتزجت مصلحتنا بمصلحتها فارتبطنا واتحدنا... فأي محظور ديني على العرب أن اعتمدوا في نهضتهم على مساعدة دولة عظيمة متمدنة مثل دولة بريطانيا العظمى؟ وأي بأس عليهم إن حالفوها وحالفتهم على قتال دولة همجية متوحشة أكبر همها القضاء على العرب والعربية ومحو الدين الإسلامي من عالم الوجود؟»[40].

وامتدح الشيخ علي الريماوي بريطانيا بقصيدة نشرت في ملحق جريدة فلسطين الرسمية التي كان يصدرها الجيش البريطاني في فلسطين، بمناسبة مرور عام على احتلال القدس. كان موضوع المقارنة دومًا الحرية التي تمتع بها العرب في ظل الاحتلال البريطاني، والكبت والاضطهاد الذي عاشوه في ظل الحكم التركي:

وهذا نهار فيه حُلت قيودنا   وقد نشط الإقدام وانطلق الفكر
بريطانيا العظمى وأنت شهيرة   وعندك طبعًا يجمل الحمد والشكر
عهدناك للمظلوم أعظم ناصر   فمن أجل هذا جاءك الفوز والنصر
عهدناك للإسلام أكرم دولة   عهدناك والعمران دينك والبرّ

نشرت صحيفة الكوكب أيضًا قصيدة لإسكندر الخوري البيتجالي، مماثلة

---

(40) محافظة، تاريخ الحركات الفكرية، ص 121 و128-129.

لقصيدة الريماوي، يهجو فيها الأتراك ويرحب بالإنكليز، بعنوان «رويدًا أيها المدفع» نقتطف منها:

بنـي التايمـز قـد فزتـم وبالإنـقــاذ قـد جئـتـم

بـلاد القـدس شرفتـم فـأهـلًا أيـنـمـا بتّـم

وسهلًا فيكم أجمع

من الغريب أن ردة الفعل الفلسطينية على وعد بلفور الصادر في 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917 كانت ضعيفة لأسباب أوردها خليل السكاكيني في مقالة له بعنوان «ماذا فهم العرب من وعد بلفور»، نشرتها جريدة السياسة المصرية في 1 حزيران/ يونيو 1923، كتب فيها: «إن العرب كانوا من الضعف والإعياء لا يستطيعون معهما أن يهتموا بشيء، وأنهم قدروا أن الوعد قد صدر لضرورات حربية اقتضتها أوضاع الحرب العالمية الأولى، فإذا زالت تلك الضرورات سقط الوعد من تلقاء نفسه. وأنهم كانوا يعرفون بوعود بريطانيا للعرب والتي سبقت وعد بلفور، كما توهموا أن الأمة البريطانية أعلى من أن ترضى بمثل هذه الخيانة لقضية العرب. ولذا فلا بد أن تنكر على حكومتها هذه السياسة الخرقاء. واعتقد العرب بقدرتهم على إبطال وعد بلفور متى تنفسوا الصعداء ووقفوا على أقدامهم بعد انتهاء الحرب. كما ذهب بعضهم إلى الظن إلى أن اليهود أعجز من أن ينالوا فلسطين ما دامت الأمة العربية حية واعية، كما تصوروا أن الوعد أقرب إلى الخيال والحلم منه إلى الحقيقة، وأن اليهود متى تابوا إلى رشدهم وأدركوا المصاعب والمتاعب التي ستواجههم في فلسطين وفي غيرها من أقطار الدنيا، تراجعوا وتخلوا عنه. وقدر العرب أيضًا أن فلسطين لن تتسع لليهود، وأن الوطن القومي لا يُشترى بالمال ولا يُنال بالدسائس والدعاية والمؤامرات السياسية».

ما إن شعر العرب بالنشاط اليهودي المنظم في ظل الاحتلال العسكري البريطاني وممالأة الإنكليز لليهود، حتى أسرعوا إلى إنشاء الجمعيات الإسلامية – المسيحية في مدن فلسطين الكبرى، بهدف مقاومة فكرة الوطن القومي اليهودي. وكانت هذه الجمعيات حجر الأساس الذي قامت عليه الحركة الوطنية الفلسطينية التي اتخذت شكلها المنظم بانعقاد المؤتمر العربي الفلسطيني

الأول في القدس في نهاية عام 1919. واتخذ هذا المؤتمر قرارات عدة تحولت ميثاقًا قوميًا لعرب فلسطين، أهمها رفض وعد بلفور، ومقاومة الهجرة اليهودية إلى البلاد، ورفض الانتداب البريطاني والمطالبة بوحدة فلسطين مع سورية، وتسمية فلسطين «سورية الجنوبية»[41].

في 12 حزيران/يونيو 1919، وصلت لجنة كنغ-كرين (King-Crane Commission)، التي أرسلها الرئيس الأميركي وودرو ويلسون من مؤتمر الصلح في باريس للتعرف إلى رغبات شعوب بلاد الشام في مستقبل بلادهم، إلى القدس فارتفعت في شوارع المدينة الشعارات الآتية: «سورية لا تتجزأ» و«نطلب استقلالًا تامًا» و«نحتج على الصهيونية ونرفض هجرة اليهود إلى بلادنا» و«يعيش أميرنا فيصل» و«سورية تمتد من جبال طوروس شمالًا إلى ترعة السويس جنوبًا».

شاركت فلسطين في المؤتمر السوري العام الذي عقد في دمشق في تموز/يوليو 1919، وانعقد المؤتمر الوطني الفلسطيني الثاني في النادي العربي بدمشق في 27 شباط/فبراير 1920، وقرر اعتبار فلسطين جزءًا لا يتجزأ من سورية، والعمل على دفع الخطر الصهيوني عن البلاد السورية، ورفض كل حكومة تتشكل في فلسطين قبل أن تعترف حكومة الاحتلال البريطاني بمطالب الشعب العربي فيها[42].

لجأ عرب فلسطين إلى الكفاح المسلح لمقاومة الغزو الصهيوني والاحتلال البريطاني لبلادهم، بعد أن سُدّت في وجوههم سبل النضال السياسي السلمي أو تضاءل جدواها، وتوافر جو ملائم لممارسة العنف. منذ بداية الاحتلال البريطاني، شعرت فئات واعية من العرب أن لا بدّ من إيقاف بيع الأراضي العربية لليهود، وردع المتعاونين معهم، فألفت جمعية سرية حملت اسم «جمعية الإخاء والعفاف» في القدس في عام 1918، ووضع نصب عينيها تحقيق هذين الهدفين. غير أن السلطات البريطانية كشفت أمرها، واعتقلت بعض أعضائها ونفت بعضهم الآخر. وكان من أعضائها موظفون في بلدية القدس وبعض «قبضايات البلد» أمثال محمود الدباغ والشيخ سعيد الخطيب وحسن جار الله وعبد الرحيم الطوبجي.

---

(41) محافظة، تاريخ الحركات الفكرية، ص 130-131.

(42) المصدر نفسه، ص 118-119.

ألّفت جمعية سرية أخرى حملت اسم «جمعية الفدائية» لمواصلة ما قامت به الجمعية السابقة. وأعدت قوائم بأسماء العرب المتعاونين مع اليهود، وسجلت أماكن سكناهم، وسعت إلى التعاون مع رجال الشرطة العرب، والاتصال ببعض شيوخ العشائر في شرق الأردن، وبسكان القرى المجاورة للقدس، لتأمين السلاح والعتاد لأفرادها وتهيئة الفلاحين للثورة. كان أعضاء هذه الجمعية على اتصال بأعضاء «النادي العربي» و«المنتدى الأدبي» في القدس، يعقدون اجتماعاتهم فيهما. وقد حدد جودت الحلبي، أحد قادة الجمعية الفدائية، أهدافها في خطاب ألقاه في 27 آب/ أغسطس 1919 بقوله: «إن عملنا الرئيسي ينبغي أن يكون ضد اليهود الذين يريدون أخذ أراضينا، لكن إذا ساعدتهم الحكومة فسنكون ضدها أيضًا»[43].

احتدّت الحماسة للكفاح المسلح واللجوء إلى العنف في أوساط الفلاحين، بسبب الضائقة الاقتصادية التي تعرضوا لها في أعقاب الاحتلال البريطاني، ومقاطعة اليهود للأيدي العاملة العربية في مستعمراتهم، ومعارضة القيادة الصهيونية برنامج القروض الزراعية للفلاحين الذي قدمه الحاكم العسكري البريطاني حلًا للضائقة الاقتصادية في البلاد. كان الهدف الصهيوني إفقار الفلاحين العرب تمهيدًا لإجلائهم عن أراضيهم.

أدى تحيز الحاكم العسكري البريطاني لليهود، وفتح أبواب البلاد أمام مزيد من المهاجرين اليهود، وعدم الاستجابة للمطالب العربية، إلى تظاهر أهل القدس في 27 شباط/ فبراير 1920. وبعد ذلك بيومين، هاجمت مجموعتان مسلحتان عربيتان مستعمرتي المطلة وتل حي اليهوديتين في شمال فلسطين، وقتلتا سبعة من سكانهما. نُظّمت تظاهرة عربية ثانية في القدس بعد هذا الحادث بأسبوع، اصطدمت ببعض العناصر اليهودية وأسفرت عن جرح عشرة منهم.

بعد هذه الحوادث، تحرش اليهود بالعرب في 4 نيسان/ أبريل 1920 في أثناء الاحتفال بعيد النبي موسى في القدس. وجرى اشتباك بين الفريقين أسفر عن مقتل أربعة من العرب وجرح 24 منهم، وعن مقتل خمسة من اليهود وجرح 211 منهم. اتسعت أعمال العنف فشملت باقي المدن الفلسطينية الكبرى في ربيع

---

(43) محافظة، الفكر السياسي في فلسطين، ص 105.

ذلك العام، وحدث صراع بين العرب واليهود في يافا في عيد العمال في الأول من أيار/ مايو 1920. وهاجم سكان القرى العربية المجاورة مستعمرة بتاح تكفا القريبة من يافا. ونجم عن ذلك استشهاد 108 وجرح 75 عربيًا، ومقتل 47 وجرح 146 يهوديًا.

مع انتهاء الحكم العسكري المباشر وقيام الحكم المدني بوصول أول مندوب سام لفلسطين وشرق الأردن في تموز/ يوليو 1920، بدأت مرحلة جديدة من النضال السلمي قادته اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني، استمرت حتى عام 1929[44].

خامسًا: عرب فلسطين والبعثة الصهيونية

مع دخول القوات البريطانية إلى فلسطين، أبدى المثقفون الفلسطينيون والسوريون المقيمون في مصر قلقهم وخشيتهم من أن يستغل الصهاينة في فلسطين قسوة الحرب لشراء مساحات واسعة من أراضيها، وطرد سكانها منها بعد انتهاء الحرب. أشار تقرير الاستخبارات العسكرية البريطانية، الصادر في القاهرة في 20 نيسان/ أبريل 1918، إلى أن الضباط البريطانيين في مصر وفلسطين حاولوا التقليل من مخاوف الفلسطينيين والسوريين من دون جدوى[45]. في 20 كانون الأول/ ديسمبر 1917، كتب الجنرال كلايتون (Gilbert Clayton) إلى وزارة الخارجية البريطانية: «إن العرب ما زالوا قلقين ويشعرون أن الحركة الصهيونية تتقدم بسرعة، ما يهدد مصالحهم». وجاء في تقريره الذي أرسله في 14 كانون الثاني/ يناير 1918: «على الرغم من أن مهمة إعادة الحياة الطبيعية في فلسطين والإغاثة العامة، بعد طرد الأتراك منها، يحولان بعد دون الاهتمام الزائد بالشؤون السياسية، فإن السكان المحليين من العرب ما زالوا يظهرون بعض التوتر ضد النشاط الصهيوني، ويخشون أن تكون النتيجة قيام حكومة يهودية في فلسطين»[46].

كانت لجنة الشرق الأوسط التي تكونت في وزارة الحربية في لندن لمعالجة

(44) محافظة، الفكر السياسي في فلسطين، ص 106-107، وفرومكين، ص 358، 360 و362.

(45) *Arab Bulletin* (30 April 1918).

(46) *Arab Bulletin* (27 January 1918).

شؤون فلسطين قررت في اجتماعها المنعقد في 19 كانون الأول/ ديسمبر 1917 إرسال بعثة صهيونية إلى فلسطين برئاسة حاييم وايزمان (Chaim Weizmann) وعضوية ممثل عن الحركة الصهيونية في فرنسا وممثل عن الحركة الصهيونية في إيطاليا والمايجور وليم أورمسبي-غور (Major William Ormsby Gore)، من أجل تقديم مقترحات لأي خطوات يتطلبها تنفيذ وعد بلفور عمليًا. وصلت البعثة إلى يافا ومنها انتقلت إلى القدس، فاستقبلها حاكمها العسكري الكولونيل رونالد ستورز (Ronald Storrs). التقت البعثة بمفتي القدس وبأعيانها العرب، والتقى وايزمان بالأمير فيصل بن الحسين، قائد جيش الثورة العربية الشمالي في معسكر وهيدة قرب العقبة، بحضور الكولونيل بي سي جويس (Col. P. C. Joyce)، أحد ضباط المكتب العربي في القاهرة الملحقين بجيش فيصل، بصفته مترجمًا. جاء في تقرير جويس عن اللقاء أنه كان وديًا ومرضيًا للطرفين اللذين أكدا أن التعاون بين العرب واليهود ضروري لمصلحة الطرفين.

رفض فيصل إصدار بيان يحدد الترتيبات السياسية التالية، قائلًا إن والده هو المعني بذلك. وأكد وايزمان لفيصل أن اليهود لا يريدون إقامة حكومة لهم وإنما يتمنون العمل تحت الحماية البريطانية واستعمار فلسطين وتطويرها، آخذين في الحسبان المصالح العربية المشروعة. رحب فيصل بعرض وايزمان لتمثيل الغايات العربية واليهودية في أميركا. وخلص جويس في تقريره إلى أن الحصيلة العملية لهذا اللقاء ليست أكثر من تعارف بين ممثل الائتلاف اليهودي وممثل العرب، اللذين ربما يكون لهما رأي في تقرير مصير سورية[47].

سادسًا: الوعي السياسي في شرق الأردن

عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، كان التعليم الحديث في شرق الأردن محدودًا جدًا، اقتصر على بعض المدارس الأولية وعلى أربع مدارس ابتدائية في إربد والسلط والكرك ومعان. انتشرت الكتاتيب في البلدات والقرى التي اتخذت المساجد والكنائس مقرًا لها، وكان يدرس في كتاتيب المساجد حفظ القرآن وبعض المعلومات في اللغة العربية والأناشيد الدينية. أما في كتاتيب الكنائس فيدرس الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) وبعض المعلومات

---

(47) *Arab Bulletin* (18 June 1918).

البسيطة في اللغة العربية ومبادئ الحساب. لم تعرف البلاد التعليم الثانوي إلا في دمشق، في مكتب عنبر الذي درس فيه عدد محدد من أبناء شرق الأردن، أو في القدس حيث كان يدرس أبناء الميسورين. وغابت الطباعة والنشر عن البلاد حتى قيام الإمارة الأردنية في عام 1921[48].

لهذه الأسباب، لم يشارك أهل شرق الأردن في النهضة الفكرية العربية قبل قيام إمارتهم؛ إذ عاشوا في حالة من التخلف والجهل نتجت من الفوضى وعدم الاستقرار في الداخل، والعزلة والإهمال اللذين تعرضوا لهما من جانب الدولة العثمانية. فحياة البداوة، وعدم استقرار الفلاحين في قراهم بصورة دائمة، وفقدان الأمن، عوامل حالت دون نشوء المدن في هذه المنطقة، ودون ظهور فئة من المثقفين تعنى بالقضايا الفكرية العامة، وتهتم بشؤون الوطن والمواطن والدولة والأمة. كان هم السكان الأول تأمين لقمة العيش، وتوفير الأمن والحماية اللازمين للنفس والمال والعيال.

إذا استثنينا حفنة من الضباط الأردنيين في الجيش العثماني، أبرزهم الأمير الاي علي خلقي الشرايري ومحمد علي العجلوني ونجيب البطاينة وأديب وهبه والدكتور حنا القسوس الذين انضموا إلى جيش الثورة العربية، باستثناء نجيب البطاينة الذي استشهد في ليبيا في مقاومة الاحتلال الإيطالي، لم يعِ مشايخ القبائل والعشائر ووجهاء القرى، وهم نخبة المجتمع الأردني، أهمية الثورةَ العربية التي وصلت إليهم أصداؤها في نهاية عام 1916. لم يدركوا طبيعة هذا الحدث العظيم في حياة العرب إلا بعد نجاح الثورة وإقامة الأمير فيصل بن الحسين الإدارة العربية في دمشق.

لم يتردد مشايخ القبائل الأردنية في الاستجابة لطلب أحمد جمال باشا، قائد الجيش العثماني الرابع، في إعداد حملة لمواجهة جيش الثورة العربية، وغزو القبائل الأردنية التي أيدت هذا الجيش وانخرطت في صفوفه. وها هو يوجه رسائل إلى مشايخ الكرك في 10 أيلول/ سبتمبر 1917 يشكرهم على «توحيد حركتهم مع الجيش العثماني» وعلى ما أبدوه «من فرط الغيرة والصداقة في استرداد الطفيلة»، وعلى غيرتهم على الدين والدولة. كان سهلًا أن تغيّر القبائل والعشائر ولاءها من

(48) محافظة، تاريخ الأردن، ص 147.

دون عناء أو إغراء، وأن تلتحق بالثورة العربية وبجيشها[49]. فلما استقبل هؤلاء المشايخ ممثل الأمير فيصل، علي بن عريد، انتظروا منه «الإكرامية» المعتادة، فأعلن أمامهم: «إن جريان الذهب يجري مع جريان الدم، وعندما ينقطع جريان الدم ينقطع جريان الذهب».

كان الحسين بن علي، ملك الحجاز، قد أرسل بيانًا إلى «قبائل الشمال» في ربيع الأول 1335هـ الموافق 15 كانون الثاني/ يناير 1917، وقّعه باسم «شريف مكة وأميرها وملك البلاد العربية»، يحثها فيه على الالتحاق بجيش ابنه فيصل. إلا أن الاستجابة لهذا البيان كانت ضعيفة، واقتصرت على فخذ من قبيلة الحويطات بزعامة الشيخ عودة أبو تايه. واستجاب مشايخ القبائل والعشائر الأردنية لدعوة جمال باشا وغزوا القبائل المتعاونة مع جيش الثورة العربية في تموز/ يوليو 1917، بعد تحرير هذا الجيش مدينة العقبة على البحر الأحمر.

ونظرًا إلى تردد هؤلاء المشايخ في ولائهم بين الأتراك والثوار العرب، لم يتوان القائد التركي أحمد جمال باشا في نفي أعداد منهم إلى أضنة في الأناضول في أواخر عام 1917. بينما أنعم على بعض المتعاونين معه بالأموال والأوسمة والألقاب الفخرية[50].

المراجع

1- العربية

كتب

أبو جابر، رؤوف. تاريخ شرقي الأردن واقتصاده خلال القرن التاسع عشر ومنتصف العشرين. عمان: دار ورد للنشر والتوزيع، 2009.

(49) *Arab Bulletin* (3 January 1918), p. 521, and (9 July 1918), pp. 241-242.

(50) مذكرات عودة سلمان القسوس الهلسا، ص 83.

الأسد، ناصر الدين [وآخ.]. **النهضة العربية الكبرى: دراسات وأبحاث**. تقديم وتحرير قاسم محمد صالح وقاسم محمد الدروع. عمان: مديرية التوجيه المعنوي، 1989.

تاريخ الدولة العثمانية. إشراف روبير مانتران؛ ترجمة بشير السباعي. ط 2. القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، 1993. 2 ج.

التميمي، رفيق ومحمد بهجت. **ولاية بيروت**. بيروت: دار لحد خاطر للطباعة والنشر والتوزيع، 1979. 2 ج في 1.

جمال [باشا]، أحمد. **الإيضاحات، عن القضايا الأساسية التي جرى البحث فيها لدى ديوان الحرب العرفي المنشأ في عاليه. الكتاب الثاني**. إعداد وتحقيق محمد السعيدي. بيروت: دار الفارابي، 2013. (المجموعة التاريخية العثمانية العربية، 1908-1918)

______. **مذكرات جمال باشا. الكتاب الأول**. إعداد محمد السعيدي. بيروت: دار الفارابي، 2013. (المجموعة التاريخية العثمانية العربية، 1908-1918)

الخالدي، حسين فخري. **ومضى عهد المجاملات: مذكرات الدكتور حسين فخري الخالدي**. تحقيق رفيق الحسيني. عمان: دار الشروق، 2014. 3 ج.

الروسان، ممدوح عارف. **حروب الثورة العربية الكبرى في الحجاز وبلاد الشام 1916-1918**. إربد: مكتبة الكتاني، 1986.

شقيرات، أحمد صدقي. **تاريخ الإدارة العثمانية في شرق الأردن، 1864-1918**. عمان: آلاء للطباعة والتصميم، 1992.

ضاهر، مسعود. **المشرق العربي المعاصر من البداوة إلى الدولة الحديثة**. بيروت: معهد الإنماء العربي، 1986. (الدراسات التاريخية)

العجلوني، محمد علي. **ذكرياتي عن الثورة العربية الكبرى**. عمان: منشورات مكتب الحرية، 1956.

فرومكين، ديفيد. نهاية الدولة العثمانية وتشكيل الشرق الأوسط. قراءة وتقديم منذر الحايك؛ ترجم النصوص وسيم حسن عبدو. دمشق: دار صفحات للنشر والتوزيع، 2015.

قاسمية، خيرية. الحكومة العربية في دمشق بين 1918-1920. القاهرة: دار المعارف بمصر، 1971. (مكتبة الدراسات التاريخية)

قدري، أحمد. مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى. دمشق: مطابع ابن زيدون، 1956.

كوثراني، وجيه. الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي. ط 2. بيروت: معهد الإنماء العربي، 1978.

محافظة، علي. تاريخ الأردن المعاصر، عهد الإمارة 1921-1946. ط 2. عمان: مركز الكتب الأردني، 1989.

______. تاريخ الحركات الفكرية في عصر النهضة: الحركات الفكرية في عصر النهضة في فلسطين والأردن. بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، 1987.

______. الفكر السياسي في الأردن: وثائق ونصوص 1916-1946. ط 2. عمان: وزارة الثقافة، 2011. 3 ج.

______. الفكر السياسي في فلسطين من نهاية الحكم العثماني حتى نهاية الانتداب البريطاني 1918-1948. ط 2. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002.

مذكرات عودة سلمان القسوس الهلسا (1877-1943) ملحق بها ثلاثة أجزاء من الوثائق والأوراق الأردنية. تحقيق وشرح نايف جورج القسوس وغسان سلامة الشوارب الهلسا. عمان: [د. ن.]، 2006. 4 ج.

موسى، سليمان. لورنس والعرب: وجهة نظر عربية. ط 2 منقحة ومزيدة. عمان: منشورات وزارة الثقافة، 1992.

______. مذكرات الأمير زيد: الحرب في الأردن 1917-1918. ط 3. عمان: دار ورد للنشر والتوزيع، 2011. (الأعمال الكاملة؛ 7)

2- الأجنبية

Books

Gilbert, Martin. *Churchill and the Jews: A Lifelong Friendship.* New York: Henry Holt and Co., 2007.

Lawrence, T. E. *The Legendary Lawrence of Arabia: Seven Pillars of Wisdom.* New York: Laurel Edition, 1962.

________. *Revolt in the Desert.* London: Jonathan Cape, 1927.

Reinharz, Jehuda. *Chaim Weizmann: The Making of a Statesman.* Oxford; New York: Oxford University Press, 1993. (Studies in Jewish History)

Stein, Leonard. *The Balfour Declaration.* Jerusalem: Magnes Press; London: Jewish Chronicle Publications, 1983.

Periodical

Arab Bulletin: 1917-1919.

الفصل العشرون

الأوضاع العامة في القدس في الحرب العالمية الأولى وبعدها - يوميات خليل السكاكيني (1914-1920)

محمد ماجد الحزماوي

أولًا: من هو خليل السكاكيني؟

ولد خليل قسطندي السكاكيني في القدس في عام 1878، في عائلة مسيحية أرثوذكسية. تلقى تعليمه بداية في مدرسة الروم الأرثوذكس، ثم تركها ليلتحق بمدرسة أسستها جمعية CMS، فأنهى فيها مرحلته الابتدائية، ثمّ التحق بمدرسة صهيون الإنكليزية بالقدس، وانتقل منها إلى الكلية الإنكليزية حتى تخرج في عام 1893[1]. تتلمذ السكاكيني في هذه الكلية على يد معلمه نخلة زريق الذي بث فيه وفي جيله حب اللغة العربيّة والروح الوطنيّة، فنشأ مطبوعًا على حب لغته العربيّة، متمكنًا منها ومن آدابها[2].

بعد وفاة والده الذي كان نجارًا في القدس وأحد وجوه الطائفة الأرثوذكسيّة فيها[3]، توجه السكاكيني إلى بريطانيا ثم إلى الولايات المتحدة الأميركية في عام 1907، فأقام في نيويورك، وكانَ عمره آنذاك نحو تسعة وعشرين عامًا. لم يلبث هناك أكثر من ثمانية شهور، عمل خلالها أجيرًا في المصانع ومدرس دروس خصوصية في اللغة العربية لأبناء المهاجرين العرب، إلاّ أنه لم يوفق في عمله فعاد إلى القدس في أيلول/ سبتمبر 1908[4].

بعد عودته إلى القدس، سعى السكاكيني إلى تعريب الكنيسة الأرثوذكسية

---

(1) عبد القادر ياسين، «خليل السكاكيني هذا المثقف الموسوعي الملتزم،» صامد الاقتصادي، العددان 155-156 (حزيران/ يونيو 2009)، ص 122-123.

(2) عيسى الناعوري، خليل السكاكيني أديبًا ومربيًا (عمان: منشورات دار الكرمل، 1985)، ص 21.

(3) سليم تماري، «السكاكيني في نيويورك: الفترة التكوينية في حياة أديب مقدسي، 1907-1908،» مجلة الدراسات الفلسطينية، السنة 14، العدد 56 (خريف 2003)، ص 89.

(4) الناعوري، ص 221.

والحد من سيطرة الرهبان اليونانيين عليها، فانتقد رئاستها الروحية الأجنبية ووصفها بأنها معوجة ومختلفة ينبغي أن تستقيم وتنظم[5]. في عام 1909، أعلن عن تأسيس مدرسته وأطلق عليها اسم «المدرسة الدستورية»، دفعه إلى إنشائها أن مدارس القدس آنذاك كانت حكومية لا تعتني باللغات الأجنبية وتعتمد التعليم والتربية الدينيين، أو أجنبية تبشيرية[6].

تألفت المدرسة الدستورية من بستان وصفوف ابتدائية ثمّ إعدادية، وكان تلامذتها يتخرجون فيها فينتقلون مباشرة إلى الفرع العلمي في الكليّة الأميركية ببيروت[7]. امتازت هذه المدرسة بتلامذتها من مختلف الطوائف من دون تمييز، واهتمت بتنمية عواطفهم وإطلاق حرياتهم، وكانَ التعليم فيها بأحدث الأساليب التي تهدف إلى توسيع مدارك التلامذة والارتقاء بعقولهم[8]. وكانت نظارة المعارف العثمانية تقدم للمدرسة مساعدة مالية سنوية بقيمة 60 ليرة عثمانية[9].

في مطلع عام 1914، شكلت الدولة العثمانيّة في مدينة القدس مجلسًا عرف باسم «قوميسيون المعارف» وعيّن خليل السكاكيني عضوًا فيه. كانت مهمة هذا المجلس مراقبة التعليم في المدارس الابتدائية في لواء القدس، وتعيين المعلمين وعزلهم وتحويلهم من درجة إلى أخرى ونقلهم من مكان إلى آخر والنظر في شكواهم[10].

في عهد الإدارة العسكرية، عيّن السكاكيني عضوًا في مدارس عدة، عرفت

(5) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث: اختبار الانتداب وأسئلة الهوية 1919-1922، تحرير أكرم مسلم (رام الله: مركز خليل السكاكيني الثقافي؛ مؤسسة الدراسات المقدسية، 2006)، ص 152.

(6) المصدر نفسه، ص 200.

(7) المصدر نفسه، ص 198.

(8) المصدر نفسه، ص 43-44.

(9) المصدر نفسه، ص 91. والليرة العثمانية عملة ذهبية عثمانية ضربت في عهد السلطان عبد المجيد في عام 1259هـ/ 1843م بعيار 22 (91605 في الألف) ووزن درهمين و4 قراريط، أي ما يعادل 70216 غرام، منها 60614 غرام ذهب صافٍ و602 غرام نحاس. انظر: سيد محمد السيد محمود، النقود العثمانية تاريخها، تطورها، مشكلاتها (القاهرة: مكتبة الآداب، 2003)، ص 73.

(10) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 85.

باسم «العمدة الشورية المشتركة» وتشكّلت من الرؤساء الروحيين لكل الطوائف ومعتمدي الدول الأجنبية ورئيس بلدية القدس، إضافة إلى عدد من الشخصيات الوطنية: عارف الدجاني وإسماعيل الحسيني وسعيد الحسيني ومحمد الإمام والقس إبراهيم باز وجورج سكك[11]. وبناء على اقتراحه، شكلت الإدارة العسكرية هيئة معارف كان عضوًا فيها، كما عُينت زوجته سلطانة عضوًا في هيئة المعارف لمدارس البنات[12].

عمل السكاكيني في نظارة مدارس الروم الأرثوذكس، غير أنه لم يلبث أن قدم استقالته على الرغم من تقاضيه راتبًا شهريًا لم يتقاضاه أحد من المعلمين قبله، على حد قوله. ولعل سبب الاستقالة ما رآه من «انحطاطهم وسوء نيتهم في مدارسهم»[13].

في عام 1919، عين السكاكيني مديرًا لمدرسة دار المعلمين براتب شهري 20 ليرة، وافتُتحت المدرسة في 28 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، وتسلمت زوجته إدارة المدرسة المنزلية، وحرص على أن يعوّد التلاميذ على أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، فشكل لهم جمعيات عدة، واحدة للمحاضرات وإلقاء القصائد كانت تُعقد بعد ظهر يوم الخميس من كلّ أسبوع، وأخرى إصلاحية لحل المشكلات بين التلامذة من دون تدخل المعلمين، وثالثة إدارية تتولى الاهتمام بشؤون إدارة النزل والمشارفة على الطبخ. كما أنشأ مكتبة جمعت بعض الكتب المهمة ومجلة نصف شهرية عرفت بـ **الجوزاء** كانَ التلامذة يتولون كتابة المقالات فيها[14].

خلال حقبة الإدارة العسكرية، انشغل السكاكيني بالتدريس الخصوصي لموظفي الإدارة لتعليمهم اللغة العربيّة. كان من بين تلامذته مدير المعارف الميجر تدمن، ومساعده اللفتنانت ليك، ومساعد الحاكم العسكري الكولونيل تيلر، ورئيس الجزاء الكابتن لامبرت، ورئيس أطباء الصحة الميجر ويلسون[15].

---

(11) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 205.

(12) المصدر نفسه، ص 98.

(13) المصدر نفسه، ص 169.

(14) المصدر نفسه، ص 207.

(15) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 89.

ولم يقتصر الأمر على الموظفين فحسب، بل علّم أيضًا رجال دين، ومنهم قسيس الكنيسة الإنكليزية[16].

بعد الإعلان عن تأسيس الإدارة المدنية في فلسطين، وتعيين هربرت صموئيل مندوبًا ساميًا على البلاد، استقال السكاكيني من منصبه في دار المعلمين احتجاجًا على هذا التعيين. سافر إلى القاهرة ملبيًا دعوة الجمعية السورية الأرثوذكسية لإدارة القسم العربي في المدرسة العبيدية، وبقي فيها حتى عام 1922، ليعود إلى القدس فيزاول العمل الوطني فيها[17].

بعد انتهاء فترة عمل صموئيل، عاد السكاكيني ليلتحق بإدارة المعارف، فعُيّن مفتشًا للغة العربية فيها، وتمّ اختياره عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق. وفي عام 1938، أسس في القدس كلية النهضة بمشاركة إبراهيم شحادة الخوري ولبيب غلميه وشكري حرامي[18]. وفي أواخر عام 1947، سافر إلى القاهرة، وهناك رشحه طه حسين لعضوية مجمع فؤاد الأول للغة العربية، وصادق المجمع على ترشيحه هذا. بقي مقيمًا في القاهرة حتى وافته المنية في 13 آب/ أغسطس 1953[19].

ثانيًا: يوميات السكاكيني

تعد المذكرات والسير الذاتية واليوميات والمشاهدات مرآة لصاحبها، تعكس الحوادث والأحوال التي مر بها، وتعبر بصورة مباشرة عن الوقائع المعيشة وعما تختزنه من خيارات ومشاعر وأحلام وآمال. كما تعكس «لحظة تقاطع واتصال بين الماضي والحاضر، يجري خلالها تأمل وتفكر وكتابة عن وقائع معيشة وهذه اللحظة هي حاضر من كتب، وماضي من سيكتب. وهذا الماضي هو المستقبل الذي من أجله أو بداعيه كتبت المذكرات[20].

(16) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 152.

(17) ياسين، ص 125.

(18) المصدر نفسه، ص 126.

(19) ياسين، ص 126، والناعوري، ص 36.

(20) وجيه كوثراني، «إشكالات الزمن التاريخي في قراءة المذكرات: مذكرات جمال الدين =

تقدّم المذكرات والسير الذاتية ويوميات التاريخ شهادة من شارك في صنع الحدث. فأصحابها دونوا جوانب حيّة ومهمة من حياتهم، وضّحوا من خلالها مواقفهم وآرائهم من الحوادث. وهم - في تدوينهم - لا يتحدثون عن أنفسهم وتجاربهم فحسب، وإنما تختلط هذه التجارب بالحوادث العامة وبالتجارب التي واكبتها، فجاءت مذكراتهم وسيرهم ويومياتهم تحمل في طياتها معلومات لا تتوافر في المصادر التاريخيّة بأشكالها المختلفة[21]. غير أن اليوميات تختلف عن المذكرات والسير الذاتية. فالمذكرات تعتمد على سرد ماضٍ بعيد أو قريب، يفصلها عن الحدث فترة زمنية قد يتعرض فيها كاتبها للنسيانٌ، علاوة على أن مدونها قد يُسقط بعض الأمور أو التفصيلات فيبقيها في طي الكتمان حمايةً لسمعته الشخصية أو سمعة من حوله.

ربما يصعب على من يكتب عن نفسه أن يتجرد من الأهواء ولا ينساق مع غرور النفس والتعلق بالذات والفخر الفردي القائم على تعداد مآثر الذات وتحاشي الأخطاء والعيوب[22]. أما اليوميات، فتعتمد على تدوين يومي للحدث والحالة، وتقدم صورة يومية من الواقع كما يراها الكاتب ويعيشها. وهذا ما ينطبق على يوميات خليل السكاكيني التي كانَ يدون فيها الحوادث بشكل يومي تقريبًا، مضيفًا إلى الذاكرة الفلسطينيّة غنى جديدًا بما يرفدها به من تفصيلات حيّة لوجود بشري حي في مدينة كانت تتقدم على درب الحداثة في زمن ملتبس[23].

جاءت المحاولة الأولى لنشر يوميات السكاكيني في عام 1955، قامت بها ابنته هاله، تحت عنوان «كذا أنا يا دنيا». وتذكر هاله بأنها ترددت بداية في اختيار عنوان الكتاب، ففكرت أولًا أن تعنونه بـ«**خليل السكاكيني - إنسان إن شاء الله**»، إلا أنها اختارت أخيرًا العنوان السابق لما في هذه الكلمات من التحدي، وهي تعبر عن القوة الهائلة التي كانت في نفس والدها. وذكرت هاله أنه لم يكن يفكر يومًا

= القاسمي ومشاهداته،» في: دراسات في التاريخ الاجتماعي لبلاد الشام: قراءة في السير والسير الذاتية، تحرير عصام نصار وسليم تماري (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2007)، ص 30.

(21) خيرية قاسمية، «المذكرات والسير الذاتية مصدرًا لتاريخ فلسطين في القرن العشرين،» في: دراسات في التاريخ الاجتماعي، ص 46.

(22) المصدر نفسه، ص 45.

(23) محمود شقير، «مجنون سلطانة،» حوليات القدس، العدد 6 (شتاء - ربيع 2008)، ص 22.

في نشر يومياته، بل كانَ غرضه أن تكون كتابًا للأسرة، وكانَ من وقت إلى آخر يستمد من يومياته آراء يضمنها مقالاته وخطبه، فكانت عبارة عن مورد يرجع إليه كلما اقتضت الحاجة[24].

غير أن ما اختارته هاله في كتاب كذا أنا يا دنيا ما هو إلا نزر يسير من يوميات والدها، فبقيت تلك اليوميات مدفونة نحو نصف قرن بعد وفاة كاتبها، ونحو قرن على بداية تدوينها، ثمّ رأت النور في عام 2003، مع إصدار مركز خليل السكاكيني الثقافي ومؤسسة الدراسات المقدسية بمدينة رام الله أول كتب هذه اليوميات. استمر اصدار هذه اليوميات تباعًا حتى عام 2010، عندما صدر الكتاب الثامن والأخير منها مغطيًا الفترة بين عامي 1942 و1952، حين غادر خليل وطنه متجهًا إلى مصر ليبقى فيها حتى وفاته في عام 1953.

ويوميات السكاكيني ترجمة ذاتية له، بصفته أديبًا ومعلمًا ومربيًا ومفكرًا ومؤرخًا ووطنيًا، نأى بنفسه عن النعرات الدينية والطائفية، فكان مثالًا للإنسان المفكر الوطني الغيور المخلص لقضيته ووطنه. غطت هذه اليوميات مساحةً زمنية تزيد على أربعة عقود في مضمونها وحوادثها، دوّن فيها كاتبها كل ما مرت به فلسطين عمومًا والقدس خصوصًا من حوادث وتطورات سياسية واجتماعيّة واقتصادية وثقافيّة كما عاشها وشاهدها كاتبها. تقدّم لنا هذه اليوميات معلومات غنية وقيمة لا تتوافر في المصادر التاريخيّة المختلفة، ما يجعل منها مصدرًا تاريخيًا مهمًا لمن يريد أن يتصدى للكتابة عن تاريخ فلسطين، والقدس تحديدًا، منذ أواخر العهد العثماني حتى نكبة فلسطين في عام 1948. شملت هذه اليوميات تفصيلات سياسية مهمة لا ترد في المصادر التاريخيّة، خصوصًا في فترة الحرب العالمية الأولى وما بعدها (1914-1920). يلخص الأديب المقدسي إسحق موسى الحسيني القيمة العلمية ليوميات السكاكيني بقوله: «دوّن السكاكيني في يومياته هذه الأدوار التي مر فيها، والحوادث التي أثرت في مجرى حياته، وآرائه في السياسة والأدب والاجتماع والدين والتربية، فهو من ناحية سيرة عصامي عمّر زهاء خمس وسبعين سنة مكافحًا في سبيل العيش، ومدافعًا عن كرامة

(24) هالة السكاكيني، كذا أنا يا دنيا: يوميات خليل السكاكيني (القدس: المطبعة التجارية، 1955)، المقدمة.

العقل والخلق والمبادئ السامية، وهو من ناحية ثانية تاريخ للزمن الذي عاش فيه، وعرض مفصل دقيق للحركات السياسية التي تعاقبت على البلاد العربيّة منذ الحكم العثماني إلى ما بعد النكبة، وهو من ناحية ثالثة مجلس نظرات أصلية في شؤون الحياة عامة، وما اصطرع من عقله وقلبه من آراء وعواطف»[25].

ثالثًا: فلسطين عشية الحرب العالمية الأولى

لم تكن فلسطين وحدة إدارية منفصلة ضمن التقسيمات الإدارية التي استحدثتها الدولة العثمانية طوال فترة حكمها البلدان العربيّة، بل كانت تعرف بسورية الجنوبية في تبعيتها الإدارية. وفي أواخر العهد العثماني، قسمت فلسطين ثلاثة سناجق: سنجق عكا وسنجق نابلس وسنجق القدس الذي ألحق مباشرة بالأستانة، وضم أقضية القدس ويافا والخليل وغزة وبئر السبع[26].

وفقًا لقانون الولايات العثمانيّة الصادر في عام 1864، تشكل في مركز كل ولاية مجلس عمومي برئاسة الوالي، يُنتخب أعضاؤه من بين أعضاء مجلس الإدارة في الأقضية، غير أن الدولة ميزت القدس من باقي المناطق والأقسام الإدارية نظرًا إلى مكانتها الدينيّة لدى الطوائف الدينيّة الثلاث، فتشكل فيها مجلس عمومي بلغ عدد أعضائه في عام 1911 اثني عشر عضوًا، كانَ نصيب قضاء القدس من ذلك ثلاثة أعضاء[27]. وكانَ المتصرف رئيسًا للجهاز الإداري في لواء القدس، واتخذ من المدينة مقرًا له، وكانَ يتولى الإشراف على الأمور المالية والمدنية والأمنية، ويساعده عدد من الموظفين الإداريين. كما تشكّل في القدس في عام 1863 مجلس بلدي، تنافست على رئاسته بعض الأسر المقدسيّة كالخالدي والحسيني والعلمي والدجاني[28].

عند نشوب الحرب العالمية الأولى في عام 1914، أعلنت الدولة العثمانيّة -

(25) السكاكيني، المقدمة.

(26) بهجت صبري، فلسطين خلال الحرب العالمية الأولى وما بعدها 1914-1920 (القدس: جمعية الدراسات العربية، 1986)، ص 11.

(27) المصدر نفسه، ص 23.

(28) المصدر نفسه، ص 30.

التي كانَ حاكمها الفعلي جمعية الاتحاد والترقي - انضمامها إلى جانب ألمانيا، خصوصًا بعد توتر العلاقات بين روسيا والدولة العثمانيّة في شأن المعابر المائية في البحر الأسود. وفي إثر ذلك، اتخذت الدولة العثمانيّة عددًا من الإجراءات في المنطقة العربيّة لإحكام سيطرتها عليها وتدعيم سلطتها ونفوذها فيها، بينها عزل القدس عن العالم الخارجي، وحصر اتصالها بدمشق وحدها. ففي 18 أيلول/ سبتمبر 1914، أصدرت الحكومة في القدس أمرًا أغلقت بموجبه مكاتب البريد الأجنبية كلها، ولم يبق إلا البريد العثماني[29] الذي أعلنت إدارته أنها لن تقبل الرسائل إلا إذا كانت مفتوحة ومكتوبة بالعربيّة أو التركيّة أو الألمانية[30]. ولتتجنب الحكومة أزمة المراجعين، أضافت إلى موظفي البريد العثماني عددًا من الموظفين المقدسيين، كانَ بينهم طاهر الحسيني، نجل المفتي كامل الحسيني، وأحمد محمود الحسيني وموسى فيضي العلمي وشريف النشاشيبي ويوسف قاطرجي وعيسى حنا خميس[31].

في مطلع كانون الثاني/ يناير 1915، ألّفت الحكومة لجنة مراقبة البريد في القدس، وحصرت المكاتبة باللغة التركيّة، فكانت الرسائل التي تكتب بالتركية تخضع للمراقبة في بريد القدس، بينما تُرسَل الرسائل المكتوبة بلغة أخرى - حتى لو بالعربيّة - إلى دمشق لمراقبتها، ثم تعود إلى محل إرسالها حتى لو كانت بين القدس وأي مدينة فلسطينية أخرى[32].

عبّر أهالي القدس عن شدّة انتمائهم إلى الدولة العثمانيّة، مُتناسين الخلافات القديمة وسياسة جمعية الاتحاد والترقي في طمس الهوية العربيّة وسياسة التتريك التي حاولت تطبيقها. فكانوا كلّما سمعوا بانتصار للقوات العثمانية، كأن تسيطر على أرض أوروبية أو تدمر سفينة أو تغرق مدرعة، خرجوا إلى شوارع المدينة يزيّنونها ويطوفون في أحيائها، يهزجون الأهازيج الحماسية المعبرة عن فرحهم

(29) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني: النهضة الأرثوذكسية، الحرب العظمى، النفي إلى دمشق (1914-1918)، تحرير أكرم مسلم (رام الله: مركز خليل السكاكيني الثقافي؛ مؤسسة الدراسات المقدسية، 2004)، ص 108.

(30) المصدر نفسه، ص 118.

(31) المصدر نفسه، ص 108.

(32) المصدر نفسه، ص 149.

بهذه الانتصارات[33]. وحين أغرقت المدافع العثمانيّة أربع مدرعات كبيرة للجيش البريطاني في جنق قلعة، ودفعت الأسطول البريطاني إلى الانسحاب من تلك المضائق، أقامت الحكومة احتفالًا عامًا في المدرسة الصلاحية[34]. وحين سمع الأهالي بالدعاية التي تضمنت أسر القوات العثمانيّة ثمانية آلاف جندي بريطاني والاستيلاء على ترعة السويس، خرجوا إلى شوارع المدينة وأطلقوا الرصاص والأسهم النارية ابتهاجًا[35].

رابعًا: الإجراءات العثمانية في القدس خلال فترة الحرب

ازدادت أوضاع أهالي القدس الاقتصادية سوءًا، بعدما نزح إليها سكان بعض المدن الفلسطينيّة تخوفًا من الأسطول البريطاني[36]، وبدأت المدينة تعاني نقصًا في المواد التموينية، وزادت المجاعة حتى فرّ بعض الجنود العثمانيين من ثكناتهم العسكرية بسبب الجوع الشديد، وكان بعضهم يعترض الناس في طريقهم، «يطلبون إحسانهم ويطوفون على البيوت يطلبون أكلًا، وإذا قدم لهم طعام التهموه كأن لهم أيامًا بدون أكل، ويُقال إن الذين يشتغلون في الطرق منهم لا يأكلون غير العدس بدون خبز»[37].

حاولت الحكومة حلّ أزمة نقص التموين بشراء الحبوب من الأهالي وتكليف الأفران صناعة الخبز على حسابها وبيعه إلى الأهالي بموجب تذاكر يحصلون عليها من الحكومة بعد دفع ثمنها. ومنعت الأهالي من إعداد الخبز اليومي في بيوتهم، وفرضت عليهم شراءه من الأفران المخصصة لذلك، للحد من استهلاك القمح[38].

يبدو أن هذا الإجراء لم يكن صارمًا، فيذكر السكاكيني أن دير الروم

(33) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 144-145.
(34) المصدر نفسه، ص 156.
(35) المصدر نفسه، ص 156.
(36) المصدر نفسه، ص 124.
(37) المصدر نفسه، ص 150.
(38) صبري، ص 73.

الأرثوذكس وزّع على أبناء طائفته قمحًا بالدين[39]. وما زاد الطين بلّه وصول أسراب الجراد التي أخذت تأكل الأخضر واليابس. ويصف واصف جوهرية في مذكراته هجمات الجراد على مدينة القدس في عام 1943 بقوله: «غزا الجراد القدس بصورة فظيعة جدًا، فإني أذكر تمامًا والله يشهد أنني عندما كنت نازلًا على سلم البلدية رفعت رأسي إلى السماء مع جميع الناس فلم نستطيع رؤية الشمس قطعيًا فكان الجراد الطيار شبيهًا بالغيوم المتكاثفة في الجو مما حجب نور الشمس عن الأرض بتاتًا»، وقد قضى على جميع المزروعات والأشجار حتى «إنني أذكر بأنه كانَ يأكل قشرة الأرومة والأغصان من كافة الأشجار، ولم يبق عرق أخضر ولا زهرة حتى في بيوت السكن، ثمّ إنه كانَ يدخل البيوت ويهجم بقوة فائقة على ما يجده أمامه وكثيرًا ما يسقط في بواطي العجين وأواني الطعام»[40].

من الإجراءات التي اتخذتها الحكومة لمقاومة الجراد أنها فرضت على كل ذكر من سن اثنتي عشرة سنة وما فوق أن يقدم ثلاثة كيلوغرامات من بيض الجراد المزروع في أراضي البلاد، وكانَ الشخص الذي ليس في مقدوره جمع هذه الكمية يشتري ذلك من الآخرين ويقدمها إلى الحكومة[41]. كما أخذت الأوضاع الصحية تزداد تدهورًا، فانتشرت الأوبئة والأمراض المعدية التي فتكت بالبلاد، كالتيفوس والتيفوئيد والملاريا والجدري[42]، ولم تتوافر طرائق علاج فاعلة، في الوقت الذي قلت فيه الأدوية والعلاج والرعاية الصحية[43].

أغلقت الحكومة دور البريد الأجنبية ومنعت دخول الصحف المصرية وعطلت الصحف المحلية[44]، فلم يبق في المدينة مصادر يستقي الناس الأخبار

(39) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني، ص 114.

(40) القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية: الكتاب الأول من مذكرات الموسيقي واصف جوهرية، 1904-1917، تحرير وتقديم سليم تماري وعصام نصار، ط 2 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية؛ القدس: مؤسسة الدراسات المقدسية، 2003)، ص 190.

(41) المصدر نفسه، ص 185، انظر كذلك: سليم تماري، عام الجراد: الحرب العظمى ومحو الماضي العثماني من فلسطين، يوميات جندي عثماني 1915-1916 (الجزائر: وزارة الثقافة، 2009)، ص 128.

(42) القدس العثمانية، ص 191.

(43) صبري، ص 77.

(44) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني، ص 97.

منها[45] إلا تلغرافات السفارة. ووضعت الحكومة يدها على ممتلكات الرعايا الأجانب من دول الحلفاء، كالمدارس والشركات والبنوك والمتاجر والمؤسسات، واتخذت بعضها مراكز للجيش العثماني[46] أو لدوائر البوليس، كما فعلت مع دار كتسلير الروسي[47]. واستولت على بنك كريدي ليونيه والبنك الإنكليزي وغيرهما من المصارف التي تخص الرعايا الروس والإنكليز والفرنسيين، كما استولت على السكة الحديد بين القدس ويافا[48]، وعلى المستشفيات التابعة لتلك الدول[49]. ودمر الأتراك خلال انسحابهم من المدينة مستشفى العيون الإنكليزي الذي أعيد بناؤه بعد الاحتلال العسكري البريطاني للمدينة، وافتتحه الجنرال إدموند أللنبي في 26 شباط/ فبراير 1919[50].

بين المدارس التي أغلقتها السلطات العثمانيّة كانت مدرسة الفرير التي نُقل إليها المكتب السلطاني، ومدرسة المطران المعروفة (St. Georges)، وانتقل تلامذة هاتين المدرستين إلى المدرسة الدستورية. نصت أوامر إغلاق هذه المدارس بأنه في حال ضاقت مدارس الحكومة أو المدارس الخاصة الوطنية بالطلاب بعد تحويل تلامذة المدارس الأجنبية إليها، تُعطى إحدى المدارس الأجنبية بأدواتها ومقاعدها للمدارس الوطنية أو الحكومية[51].

يروي خليل السكاكيني أنه حاول أن يستغل هذا الأمر ليحافظ على مدرسة المطران التي كانت من أعرق المدارس الأجنبية في القدس، حتى لا تتحول ثكنة عسكرية أو يطلبها الشيخ محمد صالح، صاحب مدرسة روضة المعارف. وعلى الرغم من عدم حاجة المدرسة الدستورية - التي يمتلكها السكاكيني - إلى مدرسة المطران، فإنه قرر طلبها من المتصرف، وكان التقى قبل لقائه بالمتصرف مع القسيس نيك والمستر رينولدز، ورحبا باقتراحه هذا. إلاّ أنه تراجع في ما بعد

(45) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني، ص 123.

(46) صبري، ص 65.

(47) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني، ص 137.

(48) المصدر نفسه، ص 116.

(49) المصدر نفسه، ص 117.

(50) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 86.

(51) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني، ص 135.

خوفًا من أن يوشى به إلى الحكومة العثمانية، فيُقال إن ذلك جاء بناءً على اتفاق بينه وبين الإنكليز، فيُتهم بالتالي بأنه أجنبي النزعة. علاوة على ذلك، ربما تتراجع الحكومة العثمانية عن قرارها السابق، فيشمت به بعضهم على حد قوله، ويعرّض نفسه للسخرية[52].

أرسلت الحكومة قناصل الدول الثلاث الموجودين في يافا مع تراجمتهم إلى القدس أسرى حرب[53]، ولم تسمح لهم بالسفر خارج المدينة[54]. كما أُخلي الرهبان والراهبات الكاثوليك من أديرتهم إلى خارج المدينة واحتجز الرهبان في عمارة نوتردام، بينما حُجزت الراهبات في مكان آخر[55]. وفي ما بعد، أرسل كثير من هؤلاء الراهبات في عربات خاصة إلى دمشق[56].

بعد إعلان الولايات المتحدة الأميركية انخراطها في الحرب إلى جانب الحلفاء، أمهلت الحكومة العثمانيّة في القدس الرعايا الأميركيين أربعًا وعشرين ساعة ليسلموا أنفسهم إلى السلطات العثمانيّة، وإذا لم يلتزموا بذلك فستعتبرهم جواسيس وستعاملهم بأشد الجزاء، كما حذرت الأهالي بأن كل من يخفي أحدًا منهم بقصد أو بغير قصد فسيعامل كجاسوس وستطبق بحقه عقوبة شديدة[57].

عملت الحكومة على بث الحماسة في نفوس أبناء البلاد وإثارة مشاعرهم، من خلال عقد الاجتماعات العامة وإلقاء الخطب الحماسيّة فيها. ففي يوم الأربعاء الموافق 18 تشرين الثاني/نوفمبر 1914، دعت الحكومة إلى اجتماع عام في ساحة الحرم الشريف للاحتجاج على روسيا وإنكلترا وفرنسا وللدعاء للدولة العثمانيّة وحلفائها بالنصر، فأقفلت المحلات التجارية وطاف الشبان المقدسيون في شوارع المدينة رافعين العلم العثماني. وعند وصولهم إلى ساحة الحرم، خطب فيهم مفتي القدس كامل الحسيني وكومندان الموقع الذي ترجم خطابه

(52) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني، ص 137.
(53) المصدر نفسه، ص 116.
(54) المصدر نفسه، ص 116.
(55) المصدر نفسه، ص 117.
(56) المصدر نفسه، ص 138.
(57) المصدر نفسه، ص 184.

الشيخ عبد القادر المظفر. بعد ذلك، توجّه المجتمعون وفي مقدمهم قنصلا ألمانيا والنمسا حتى وصلوا إلى العمارة الروسية «المسكوبية» فارتجل الشيخ المظفر خطبة نعت فيها روسيا بالدولة الظالمة الجائرة الملعونة. بعد ذلك، سار الموكب وتقدمته الموسيقى العسكرية حتى وصل إلى دار القنصل الألماني، حيث ألقى القنصل أمام الحشود خطابًا أشاد فيه بعلاقات الودّ بين الألمان والعثمانيين، ثم شكر عواطف الأمة العثمانيّة نحو الأمة الألمانية وتمنى النصر على الحلفاء[58].

قَدِم من المدينة المنورة موكب العلم النبوي، وكانت تحمل فيه - كما يُعتقد - راية النبي محمد، تقدمه مفتي الشافعية في مكة المكرمة وولداه، وضم ثلة من الفرسان كانوا يهللون. سار الموكب حتى وصل إلى دار راغب النشاشيبي حيث كان باستقباله كبار الشخصيات المقدسية ووجهاء المدينة. ثمّ سار الموكب حتى وصل إلى المسجد الأقصى[59].

1 - الخدمة العسكرية والتجنيد

انضمت الدولة العثمانيّة إلى جانب دول الوسط في الحرب، وأعلنت التعبئة العامة في البلاد لمن هم تحت السلاح، وشكلت لجانًا تتولى الإشراف على تجنيد أبناء البلاد ممن هم في سن الجندية، أو أخذ البدل النقدي منهم في مقابل إعفائهم من الخدمة العسكرية. وبلغت قيمة البدل 43 ليرة عثمانية[60].

فرضت الدولة العثمانيّة قانون أخذ العسكر على الجميع، بغض النظر عن الأديان أو الفئات الاجتماعيّة. يروي السكاكيني أن مناديًا خرج في القدس يدعو الناس من سن الرابعة والعشرين إلى الأربعين من مسلمين ومسيحيين وإسرائيليين، متعلمين وغير متعلمين، مراجعة دائرة أخذ العسكر في مدينة القدس لإثبات وجودهم[61]. ويصف أيضًا حالة الناس لدى مراجعتهم تلك الدائرة وهم مصطفون بقوله: «فلما وصلت هناك وجدت ألوانًا من الناس مزدحمة تنتظر،

---

(58) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني، ص 132.

(59) المصدر نفسه، ص 141.

(60) صبري، ص 60.

(61) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني، ص 150.

فوقفت إلى جانب أتأمل الناس فلم أقرأ على وجوههم إلا علائم الخوف والقلق والاهتمام، وعرفت منهم أن من لا يستنكف من استخدام أي واسطة كانت ليخلص من الخدمة العسكرية، يلفقون الأعذار ويقبلون الأذيال ويلثمون مواطئ الأقدام ويتوسطون زيدًا وبكرًا، لا يملون ولا يخجلون والأعجب أنهم قد ينجحون»[62].

يلاحظ أن الدولة أساءت استخدام هذا القانون، وتمادت في إذلال الأهالي واحتقارهم، عندما أنشأت طوابير للمكلفين كطابور الحمالين أو النقليات الذي تولى نقل أمتعة الجند ولوازمهم من قوت وغيره، من ثكنة عسكرية إلى أخرى، أو من القدس إلى الخليل، أو من الخليل إلى بئر السبع. وكان أفراد هذا الطابور يستخدمون أحيانًا الدواب لنقل تلك اللوازم[63]. ويذكر السكاكيني في يومياته المؤرخة في 8 كانون الثاني/ يناير 1915 أن الحكومة رخّصت للحمالين أن يستخدموا الدواب أو العربات، «وقد شغّلوهم في ذلك اليوم في نقل الحطب والصناديق الفارغة وتنكات الكاز وأكياس الخيش من ثكنة إلى أخرى، وكانَ بعض الأنفار من هذا الطابور يستأجرون من يحمل لهم أحمالهم، وكانَ الكثير منهم يستصعبون هذه الخدمة لأنهم كانوا يشتمون منها رائحة الإذلال، فكانوا يفضلون حمل السلاح والخدمة في ميادين الحرب على هذه المهنة»[64].

لم تكتف الدولة بهذه الفرقة المهينة، بل أنشأت فرقةً أخرى أكثر إهانة وتحقيرًا للأهالي، دعتها بفرقة الزبالين التي تولت الاهتمام بنظافة المدينة، ما دفع بعضهم إلى القول: «ألف سلام على طابور الحمالين وطابور العَمَلة»، حتى صار الذين يؤخذون لهذين الطابورين يشكرون الله بأنهم لم يدعوا لفرقة الزبالين[65].

يذكر السكاكيني أن الحكومة كانت تسلّم كل نفر من أنفار هذه الفرقة مكنسة وقفّة ومجرفة، ويتوزعون على أزقة المدن وطرقها. ويُروى أن أحد أنفار هذه الفرقة ممن كانَ حظه بالعمل في بيت لحم وبيت جالا أخذ وهو يتجول في الطرق

(62) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني، ص 151.
(63) المصدر نفسه، ص 146.
(64) المصدر نفسه، ص 146.
(65) المصدر نفسه، ص157، وتماري، عام الجراد، ص 126-127.

الرئيسة يصيح بالأهالي في بيوتهم: «مين عنده زبالة»، فتفشى شعور بالاستياء من الاستهتار بالمواطنين إلى هذه الدرجة حتى وصل الأمر إلى أن النساء كن ينظرن من نوافذ بيوتهن ويبكين هؤلاء الرجال(66).

لم تكن الحكومة العثمانيّة تتردّد في إعدام من يفر من الجندية، بل كانت تعدمه بطريقة تشمئز منها القلوب ليكون عبرة لغيره. ويصف السكاكيني طريقة إعدام شاب من إحدى قرى يافا فر من الخدمة العسكرية مرتين متتاليتين، فقد «ألبسوه ثوبًا أبيض وربطوه إلى شجرة على طريق مار الياس وأوقفوا أمامه اثني عشر جنديًا ببنادقهم ومن ورائهم ثلاثين جنديًا حتى إذا لم يصبه الصف الأول أعدمه الصف الثاني، وكانَ الجنود كلهم واقفين يشهدون إعدامه ليعتبروا»(67).

فرضت الحكومة على الأهالي إعانات وتكاليف حربية طارئة. وتحت هذا الشعار، ابتزت الحكومة الأهالي وأثقلت كاهلهم بدفع الضرائب، ففرضت ضريبة نسبتها 50 في المئة على الأملاك و25 في المئة على الأرض و25 في المئة على الحيوانات، وأعدت أماكن خاصة لتخزين الأرزاق وكلّ ما يُجمع من تموين من الأهالي في كلّ منطقة(68).

لتنظيم جمع التكاليف الحربية من الأهالي في مدينة القدس، شكّلت الحكومة لجنةً لجمع تلك التكاليف برئاسة صالح العلمي الذي شغل وظيفة الرئيس الأول لـ «شاويشية البلدية»؛ إذ كانت هذه التكاليف تجمع بوساطة دائرة بلدية القدس وتحت إشراف أحد ضباط الجيش. وكان أعضاء هذه اللجنة يدخلون كل محل من المحلات التجارية في المدينة، ويجمعون كميات كبيرة من كل نوع معروض في المحل التجاري. ويصف شاهد عيان، هو واصف جوهرية الذي كانَ مرافقًا لرئيس البلدية آنذاك حسين الحسيني وقد ائتمنه على مفتاح المخزن الذي كانت تجمع فيه التكاليف، الفوضى التي كانت تعمّ عمل لجنة جمع التكاليف الحربيّة وعدم ارتكازها على أسس واضحة ومعقولة فيقول: «الجدير بالذكر أنني كنت استلم مرات عديدة كلسات سيدات ثمّ دوميات وألعاب الأولاد والأطفال وكنت

(66) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني، ص 159.
(67) المصدر نفسه، ص 122.
(68) صبري، ص 60.

أتساءل في نفسي يا إلهي هل من الواجب وجود هذه الأشياء في ساحة القتال»[69].

إضافة إلى هذه التكاليف، فرضت الحكومة ضريبة قيمتها 20 قرشًا على كل شعار يعلّق على المخازن والمحال التجارية، فأزال أصحاب المحال اللوحات المعلقة على محالهم[70]. كما فرض قوميسيون بلدية القدس إعانة على تراجم القنصليات ومستخدميها وبعض التجار تراوح قيمتها بين 4 و10 ليرات عثمانيّة[71]. وفرضت العسكرية على الطائفة الأرثوذكسية ألف مضربية (رداء) للعساكر الموجودين في مدينة القدس، وكانَ ثمن المضربية الواحدة 12 قرشًا[72].

كانَ واضحًا أن الحكومة العثمانيّة غالت في إرهاق الأهالي بدفع إعانات وتكاليف حربية ولوازم العساكر في ظل أوضاع اقتصادية متردّية من دون أدنى مراعاة لأوضاع الأهالي البائسة، ما جعلهم «يضجّون من ثقل هذه التكاليف، ويخشى أن لا يبقى شيئًا بين يدي الناس، نفد الحطب فارتأوا أن يقطعوا أشجار الزيتون في منطقة سعد وسعيد ومحلات أخرى»[73].

تجنّبت الدولة العثمانيّة إثارة الفتن والنعرات الدينيّة بين أصحاب الديانات السماوية الثلاث في مدينة القدس، لكنها حاولت من جهة أخرى تعزيز النازع الديني ضد دول الحلفاء وتشويه صورتها. يروي السكاكيني أنه سمع ذات يوم فلاحًا مسلمًا يخاطب آخر مسيحيًا فيقول له إن الروس يضطهدون المسلمين في بلادهم، ويجبرونهم على عبادة الصليب، وإن المسيحيين في حروب البلقان كانوا

---

(69) القدس العثمانية، ص 188.

(70) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني، ص 118.

(71) المصدر نفسه، ص 125.

(72) المصدر نفسه، ص 102.

(73) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني، ص 110. يصف إحسان الترجمان، الجندي المقدسي الذي كان يخدم في الجيش العثماني في مدينة القدس خلال فترة الحرب العالمية الأولى، اعتداءات العساكر العثمانية على أرض والده المعروفة بكرم الأعرج خارج أسوار مدينة القدس، فيقول: «نزلت على أرضنا العساكر وصارت تكسر أشجار الزيتون وتبيعها وكأنها شيء من مخلفات السلطان أو الدولة ولم تكتف العساكر بأن تقطع أغصان الأشجار بل صارت تتجار بها وتبيع الحطب إلى الفرانة إلى من تشتكي؟ فإذا قلنا للضباط يقولون لا نقدر أن نضبط العساكر، وإذا قلنا لمن هو أعلى منهم يظنون أن ذلك مال من مالهم ولهم الحق بذلك لأن كل شيء يفعله العسكري من الأعمال جائزًا». تماري، عام الجراد، ص 79.

يخطفون النساء المسلمات ويمتهنون حرمتهن وينتهكون أعراضهن ويتلقفون رؤوس الأطفال المسلمين بعد جزها بالسيف ورؤوس الحراب[74].

وروّج أدباء المسلمين ومتنوّروهم أن الفرنسيين يحاولون قتل اللغة العربيّة في مستعمراتهم، ويسيئون معاملة المسلمين، ولا يراعون أحاسيسهم، ويضعون الجنود المسلمين الذين يأخذونهم من هذه المستعمرات قسرًا في مقدم الجيش المحارب ليموتوا دون الفرنسيين، أما الإنكليز فيحاولون القضاء على العالم الإسلامي ونزع كل سلطة منه. ويروجون أيضًا أن ألمانيا اعتنقت الإسلام وأن الإمبراطور الألماني غيّر اسمه إلى محمد وسيؤدي فريضة الحج، حتى وصل الأمر ببعض الفلاحين الذين وفدوا إلى القدس للخدمة العسكرية إلى الهتاف: «غليوم يا خالنا... بسيفك نوخذ ثارنا»[75].

يذكر السكاكيني أن التعصب الديني عند المسلمين ضد المسيحيين الوطنيين تصاعد في مدينة القدس، حتى وصل الأمر إلى تهديد الأطفال المسيحيين والنساء المسيحيات في شوارع المدينة بذبحهم أو طردهم من البلاد، ما يستدل بحسب رأي السكاكيني أن هذا الحديث هو «حديث آبائهم وإخوتهم في البيوت»[76]. غير أننا لا نوافق السكاكيني في رأيه هذا، ولا سيما أنه نفسه - كمسيحي أرثوذكسي - ارتبط وثيقًا بكثير من الشخصيات المقدسية المسلمة والأسر المقدسية، خصوصًا عائلتي الحسيني والنشاشيبي. وكانَ سليم الحسيني، رئيس بلدية القدس، وراغب النشاشيبي من أوثق هذه الشخصيات علاقة بالسكاكيني، فعندما ضاقت عليه الحياة أرسل إليه سليم الحسيني الأرز والطحين والخضروات واللحمة وسائر لوازم البيت[77]. وفي حفل عيد ميلاد ابنه سري للسنة الأولى، حضر عدد من المسلمين لمعايدته، كانَ من بينهم حلمي الحسيني وإبراهيم الحسيني وفخري الحسيني الذي أهداه علبة شوكولاته[78]، علاوة على جلسات السهر التي كانَ السكاكيني يمضيها

(74) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني، ص 120.
(75) المصدر نفسه، ص 120-121.
(76) المصدر نفسه، ص 120.
(77) المصدر نفسه، ص 97.
(78) المصدر نفسه، ص 97.

في دور بعض الشخصيات الإسلامية، كدار إسماعيل الحسيني[79]، فيروي في مذكراته المؤرخة في 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1917 فيقول: «ذهبت في أول المساء بيت إسماعيل بيك الحسيني فشربنا قليلًا من الخمر حتى جاء حسين أفندي الحسيني فشربنا قليلًا، ثمّ ذهبنا إلى بيته واستأنفنا الشرب حتى كدت أضرب رأسي بالحائط»[80]. وعندما فُرض عليه البدل العسكري، قدّم له حسين سليم الحسيني 22 ليرة عثمانيّة، وعرضت عليه آمنة الحسيني، زوجة زكي الداودي، مساعدته في تدبير المبلغ[81]. ويروي السكاكيني أيضًا أنه استدان من جواد ابن إسماعيل الحسيني خمسين قرشًا، ولدى طلب الدائن دينه أمهله السكاكيني بضعة أيام لتدبير المبلغ، وقد وضع إسماعيل الحسيني والد الدائن من ذلك عشرين فرنكًا للسكاكيني ليدفع نصفها لابنه جواد وهو قيمة المبلغ المستدان[82].

ينطبق الأمر ذاته على موقف الحكومة العثمانيّة التي حرصت على عدم إثارة النعرات الطائفية بين الأهالي، والدليل على ذلك منعها المسلمين في القدس من إحياء ذكرى فتح صلاح الدين الأيوبي القدس، وكانَ مقررًا إقامته في المدرسة الصلاحيّة. اتخذت نظارة الداخلية العثمانيّة هذا القرار خوفًا من أداء المسلمين الصلاة في محراب المدرسة على روح صلاح الدين، واعتقادهم أنهم إذا دخلوا المدرسة فسيستخلصونها من المسيحيين. واقتصرت هذه المناسبة على زيارة المسلمين لمقبرة مأمن الله[83] التي دفن فيها الشهداء المسلمون خلال الفتح الصلاحي للمدينة[84].

---

(79) ما يعرف اليوم باسم بيت الشرق أو أورينت هاوس.

(80) يبدو واضحًا من تاريخ هذه الجلسة أنها عقدت بعد صدور وعد بلفور بخمسة عشر يومًا. انظر: المصدر نفسه، ص 168.

(81) المصدر نفسه، ص 158.

(82) المصدر نفسه، ص 181.

(83) مقبرة مأمن الله وتعرف أيضًا بمقبرة ماملا، وهي مقبرة قديمة من أكبر المقابر الإسلامية في مدينة القدس، تقع غرب المدينة على بعد نحو 2 كلم من باب الخليل ودفن فيها عدد كبير من الصحابة والمجاهدين في أثناء الفتح الإسلامي في عام 636م. وقد تعرضت هذه المقبرة إلى اعتداءات متكررة من قبل سلطات الاحتلال الإسرائيلي حيث أنشأت على مساحات واسعة منها بعد هدم الكثير من القبور منشآت ومراكز يهودية مختلفة. انظر: فهمي الأنصاري، مقبرة مأمن الله -ماميلا (رام الله: وزارة الإعلام الفلسطينية، 2010)، ص 5.

(84) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني، ص 109.

2 - الإدارة العسكرية في فلسطين

اجتازت القوات البريطانيّة، بقيادة الجنرال إدموند أللنبي، حدود فلسطين في تشرين الأول/ أكتوبر 1917. وفي 8 كانون الأول/ ديسمبر من العام نفسه، دخلت مدينة القدس، واستمرت العمليات العسكرية البريطانيّة حتى تمكنت من السيطرة على فلسطين في أيلول/ سبتمبر 1918[85].

بعد ذلك، أُعلن عن تشكيل إدارة بلاد العدو الجنوبية المحتلة، وعيّن الجنرال كلايتون الضابط السياسي العام في المكتب العربي في القاهرة مديرًا للإدارة العسكرية، لتنفيذ المخططات البريطانيّة في فلسطين القاضية بإنشاء الوطن القومي اليهودي[86]. أقامت هذه الإدارة مقر قيادتها في القدس، واتخذت في بناية أوغستا فكتوريا الألمانية في جبل سكوبس مكاتب لها[87].

في عهد الإدارة العسكرية بين عامي 1917 و1920، قُسمت فلسطين عدّة ألوية، نُصّب على رأس كلّ لواء حاكم عسكري بريطانيّ يرتبط بالحاكم العسكري في القدس التي كانت مركزًا للواء القدس الذي ضم القدس والخليل[88]. عُيّن الجنرال رونالد ستورز حاكمًا عسكريًا على القدس، كما عُيّن الكولونيل تيلر مساعدًا له.

أنشأت الإدارة العسكرية في القدس دوائر مختلفة، عيّنت على رأس كلّ إدارة موظف بريطاني. وكان بعض الموظفين الإنكليز يتعامل مع الأهالي بطريقة سيئة من دون احترام، ولعل من أبرزهم رئيس محكمة الاستئناف، وهي المحكمة العليا

---

(85) محمد الحزماوي، ملكية الأراضي في فلسطين 1918-1948 (عكا: مؤسسة الأسوار، 1998)، ص 87.

(86) عزت طنوس، الفلسطينيون: ماضٍ مجيد ومستقبل باهر (بيروت: مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، 1982)، ص 87، وكامل محمود خلة، فلسطين والانتداب البريطاني 1922-1939، ط 2 (طرابلس: المنشأة العامة للنشر، 1982)، ص 34.

(87) طنوس، ص 87.

(88) أحمد طربين، فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار: الانتداب البريطاني في خلفية الدولة اليهودية 1922-1939 (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، 1971)، ص 96، والحزماوي، ص 88.

في البلاد وتضم ثلاثة قضاة[89]، وكانَ رئيسها كما وصفه السكاكيني «فظ الأخلاق بذيء اللسان لا يكف نهاره كله عن إهانة أعضاء محكمته»[90]. أما الحاكم العسكري الجنرال ستورز فكان «مكروهًا سيئ السمعة، يقول كثيرًا ولا يفعل شيئًا، فهو أشبه بالحكام الأتراك الذين لم يكونوا يعرفون إلا سياسة التملق... مولع بالنساء منحط الأخلاق، لدرجة أنه لا يستنكف أن يخلو بالمرأة في مكتبه»[91]. وأكد ذلك مساعده تيلر للسكاكيني بقوله: «إنه كذوب يشير بالشيء فإذا كانت النتيجة سيئة ألقى التبعة على غيره، وإذا عمل غيره ممن هم معه عملًا حسنًا انتحله لنفسه. وضعت في مدة تغيب الجنرال موني تقارير كثيرة رفعها هو باسمه»[92]، وأخذ يعمل على بث بذور الخلافات بين الطوائف بل بين أبناء الطائفة الواحدة، فمنذ أن جاء وهو كما يقول السكاكيني «لم يعرف إلا المفتي وبعض أفراد الأسرة الحسينية، لا يصدر إلا عن رأيهم ولا يصدرون إلا عن رأيه»[93]. وفي المسألة الأرثوذكسية، وقف إلى جانب الرهبان اليونان ضد الوطنيين من أبناء البلاد[94].

اتبعت الإدارة العسكرية سياسة التفريق الطائفي، فوقفت إلى جانب المسيحيين واليهود ضد المسلمين. عبّر السكاكيني عن ذلك في لقاء له مع تيلر، وخاطبه قائلًا: «فمنذ احتللتم البلاد اعتز صعاليك المسيحيين واليهود وشحنوا برؤوسهم إلى السحاب، وجعلوا ينظرون إلى وظائفهم الصغيرة إلى مسلمي البلاد نظرة الكبير إلى الصغير، بل نظرة السيد إلى المسود، جعلوا يؤسسون الجمعيات الدينيّة الطائفية وليس في جمعياتهم ما يشتم منه رائحة وطنية، جعلوا يعارضون المسلمين في آمالهم القوميّة، فصار الكاثوليك يرجون مصالح فرنسا، والروم الأرثوذكس مصالح روسيا ومصالح بريطانيا أو على الأقل يعارضون المصلحة الوطنيّة»[95].

منحت الإدارة العسكرية اليهود الوظائف المهمة في الدوائر الحكومية،

---

(89) صبري، ص 151.

(90) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني، ص 147.

(91) المصدر نفسه، ص 97.

(92) المصدر نفسه، ص 94.

(93) المصدر نفسه، ص 108.

(94) المصدر نفسه، ص 65.

(95) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 65.

وسمحت لهم برفع الأعلام الصهيونيّة في احتفالاتهم، وشجعت الفساد الأخلاقي من دون مراعاة العادات والتقاليد الاجتماعية في المجتمع المقدسي. فقد «جعل بعض أصحاب الحوانيت يستخدمون فتيات اليهود في حوانيتهم لاستدعاء إقبال الإنكليز عليهم مما تستوحش منه النفس البشرية»[96].

وضعت الإدارة العسكرية في القدس يدها على كثير من منازل المواطنين من دون أن تدفع أجرتها. وخاطب السكاكيني تيلر مبرزًا سلبيات الإدارة العسكرية فقال له: «أخذتم أشياء كثيرة من حبوب وحيوانات وغيرها ولم تدفعوا ثمنها، كثير من البيوت نهب أثاثها ورياشها وحلي النساء كغنائم حربية... إن بعض ضباطكم يُرتشون»[97].

في الجهة المقابلة، تودّدت شخصيات مقدسيّة إلى الإدارة العسكرية وتقربت إلى مسؤوليها حفاظًا على نفوذها ومصالحها، ولا سيما أن بعض الأسر المقدسيّة كانت خلال العهد العثماني تعتمد على الوظائف التي استمدت منها نفوذها. واعتمدت هذه الأسر على الأوقاف فاعتادت السلطة والنفوذ، ولما خضعت البلاد للحكم العسكري البريطاني خشيت هذه الأسر على نفوذها ومكانتها فأخذت تتقرب من السلطة الجديدة، فآثرت مصلحتها الخاصة على كل مصلحة[98]. يعبر السكاكيني عن ذلك بقوله: «فترى فلانًا فتظنه من سادات البلاد يترفع عن مخالطة الناس ولا يخالط إلا كبار القوم، ذلك السيد لا يستنكف في الخفاء أن يقبل أذيال الحاكم ويلتمس عطاءه أو يزعجه كل يوم في تعيين ابنه أو أحد أقاربه في وظيفة يتمكن فيها من السلب والنهب»[99]. وفي رسالة أرسلها إلى عيسى العيسى في يافا، مؤرخة في 13 تموز/ يوليو 1919، هاجم خليل السكاكيني بعض الفئات المقدسيّة بشدة. ومما قاله فيها: «في البلاد فئة من الناس أشبه من عالم النبات بخضراء الدمن، ومن عالم الحيوانات بالحلم ومن النوامي في جسم الاجتماع بالسرطان أو الدمامل، ومن سائر الموجودات بالنفايات والعفونات ومن الروائح بريح الجورب العرق، ومن الطعوم بالزقوم، ومن المسموعات بشحيج البغال

(96) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 65.
(97) المصدر نفسه، ص 65.
(98) المصدر نفسه، ص 151.
(99) المصدر نفسه، ص 147.

وعواء الذئاب، ومن العيوب بالعمى، ومن الألوان بالبهق، ومن الدهر بالأجيال المظلمة، فئة هي عار الإنسانيّة وغضاضة الفضل ومنقصة الأدب وآفة كلّ فضيلة، فئة لو انتسبت إلى الكلاب لتبرأت منها، فئة كانت الوطنية بالأمس ذنبًا لغيرها، فأصبحت اليوم سلعتها التي بها تتاجر...»[100]. ولعل السكاكيني يقصد في هذه الرسالة الشخصيات المقدسيّة التي أخذت تدافع عن فكرة فلسطين للفلسطينيين، وترفض تبني الوحدة مع سورية، لإبعاد القضية الفلسطينيّة عن محيطها العربي، ولا شك في أن هذه الطروحات أتت بتوجيه من الإدارة العسكرية البريطانيّة، وربما أيضًا من فرنسا التي كانت تظهر العداء للأمير فيصل بن الحسين، وتبيّت النية لاحتلال دمشق.

تصوّر يوميات خليل السكاكيني الوضع الاجتماعي في المجتمع المقدسي بشكل دقيق، فالسكاكيني مقدسي عاش في القدس القديمة، وكانت تربطه علاقات اجتماعية وثيقة ببعض الأسر المسلمة في المدينة، خصوصًا آل الحسيني والنشاشيبي والعلمي، فيصف المسلمين من أبناء المدينة بأنهم يتمسكون بالتقاليد القديمة، فلكل أسرة تقاليدها الخاصة بالتوارث، ومصلحتها مقدمة على كلّ مصلحة، كما أن نفوذها لدى أفرادها مقدم على كلّ نفوذ، «فلا يقول الواحد كلمة أو يخطو خطوة إلا وهو مراعٍ تقاليده قبل كلّ شيء... فإذا كلف أحدٌ أن ينتخب عضوًا لمجلس نيابة أو مجلسٍ بلدي أو هيئة معارف أو جمعية وطنية أو غير ذلك، انتخب كبير أسرته سواءً كانَ يصلح لذلك أو لا». وإذا سئل من الأصدق وطنيّة أو الأرقى أخلاقًا أو الأوسع علمًا والأصح رأيًا، فيذكر أباه أو أخاه أو ابن عمه. والأسرة تنقلب على كلّ جمعية أو هيئة أو حزب لا تضم في عضويتها أحد أفرادها، حتى لو كانَ في الأمر خيرٌ، فلا يكون «الرأي صحيحًا عند أحدهم إلا إذا كانَ هو صاحب الرأي أو أحد أفراد أسرته». ويعطي السكاكيني مثالًا على ذلك العضوية في الجمعية الإسلامية المسيحية في القدس، فالمسلمون منقسمون، وكلّ واحد منهم يمثل أسرته ويحافظ على تقاليدها قبل شيء[101].

يُصدر السكاكيني حُكمًا قاسيًا على المجتمع الإسلامي المقدسي، ومن

(100) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 193.
(101) المصدر نفسه، ص 57.

الأرجح أنه كانَ منفعلًا في ذلك، فيذكر أن مسلمي المدينة لا يثق بعضهم ببعض، وكانوا في العهد العثمانيّ يداهنون الحكومة التركيّة، وسلكوا السبيل نفسه في تعاملهم مع الإنكليز، ولذلك لا يصلح أن يكون أحدهم زعيمًا. كما يتهمهم بأنهم يشاركون أو يُشركون المسيحيين في الجمعيات تزلفًا للحكومة البريطانيّة وللمسيحيين أنفسهم، حتى لا يستعينوا عليهم بالحكومة، وليس من منطلق اعتقادهم أن المسيحيين شركاء لهم في الوطنيّة. ولا ثبات لهم على موقف، «يُراعون في جوابهم شخص السائل لا سؤاله، وفي اجتماعاتهم الخصوصية يقولون شيئًا وفي الاجتماعات العمومية يقولون شيئًا آخر»[102].

في هذا الموضوع، يناقض السكاكيني نفسه في بعض الأحيان، خصوصًا أنه كتب ذلك في أوضاع سياسية حرجة كانت تمر بها القضية الفلسطينية، متمثلة بعقد المؤتمر الفلسطيني الأول في عام 1919، الذي شهد تباينًا واضحًا وخلافًا عميقًا في الرؤى والمواقف السياسية. دوّن السكاكيني هذه الآراء في يومية السبت 25 كانون الثاني/ يناير 1919، ونراه يناقض بهذا الرأي رأيًا سابقًا تجاه المسلمين، دوّنه السبت 1 كانون الأول/ ديسمبر 1917، أي قبل ذلك بنحو عام عندما خرج من السجن في دمشق بجهد ومساع بذلها بعض أصدقائه المسلمين. يقول: «ولا لي هنا من الجهر أني قد جربت أخلاق الناس في هذه البلاد، فلم أجد من أهل الفضل والمروءة غير المسلمين... وإن فتشت وجدت كلّ أصدقائي من المسلمين»[103]. ويشهد كثير من يومياته في حسن العلاقة والمودة بين مسلمي القدس ومسيحييها، خصوصًا مع السكاكيني نفسه الذي كثيرًا ما كان يسهر لياليه في دور المسلمين، وفي داره أيضًا على أنغام عود الموسيقار المقدسي المسيحي الأرثوذكسي واصف جوهرية وأخيه توفيق، بحضور عدد من الشخصيات المسلمة والمسيحية[104]، فضلًا عن المساعدات المالية والعينية التي كانَ يقدمها بعض أعيان المسلمين للسكاكيني. فيذكر في إحدى يومياته أنه استدان من الحاج أمين الحسيني ثماني ليرات دفعها أجرة للبيت[105]. وفي بداية الحرب العالمية

(102) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 58.
(103) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني، ص 185.
(104) المصدر نفسه، ص 58.
(105) المصدر نفسه، ص53.

الأولى، نقصت المواد التموينية في أسواق المدينة وزادت الأوضاع الاقتصادية تردِّيًا وارتفعت أسعار السلع، فيعترف السكاكيني بأنه في بعض الأحيان لم يكن وأسرته يأكلون إلا «الخبز والعنب والسلطة، أما اللحمة فلم تدخل دارنا». وهنا، لم يفكر السكاكيني في طلب المساعدة في هذه الضائقة إلا من أحد أعيان أسرة الحسيني، وهو حسين سليم الحسيني رئيس البلدية[106]، فما كانَ من حسين إلا أن استجاب لطلبه، و«أوصى أحد تجار الطحين الخواجه حنا أن يرسل إلي كيسي طحين، وأوصى أحد باعة الخضرة أن يرسل ما أحتاجه يومًا فيومًا فشكرت فضله وأثنيت على وفائه ومروءته واغتبطت بهذه الصداقة التي لا تثمن»[107].

خامسًا: الجمعية الإسلامية المسيحية في القدس

حرص الفلسطينيون، خصوصًا المقدسيين منهم، على تحقيق التضامن الإسلامي - المسيحي، لأن الحركة الصهيونية لم تميز بين المسلمين والمسيحيين في مخططاتها، فضلًا عن التأكيد للعالم الأوروبي أن للمسيحيين نصيبًا في الدفاع عن مقدساتهم الدينية في فلسطين[108]. وتنفيذًا لهذه الرؤية، أعلن عن تشكيل الجمعية الإسلامية المسيحية في القدس من المفكرين ذوي الوجاهة من المسلمين والمسيحيين في المدينة، غايتها الحفاظ على حقوق أبناء الوطن المادية والأدبية، وترقية شؤونه الزراعيّة والاقتصاديّة والتجاريّة، وإحياء العلم وتهذيب الناشئة الوطنيّة[109]. وتشكلت أول هيئة إدارية للجمعية من أعضاء ممثلين للجمعية الخيرية الإسلامية بالقدس، إضافة إلى ممثلين عن جمعيتي الإخاء الأرثوذكسيّة واللاتين، وممثلين عن أهالي القرى التابعة لمدينة القدس، وبلغ مجموع الأعضاء أربعين عضوًا[110].

---

(106) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني، ص 97.

(107) المصدر نفسه، ص 102.

(108) محسن صالح، التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد 1917-1948، تقديم عمر سليمان الأشقر، ط 2 (الكويت: مكتبة الفلاح، 1989)، ص 100.

(109) بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، 1917-1948، سلسلة الدراسات؛ 57 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1981)، ص 81.

(110) خلة، ص 204. وعن أسماء أعضاء الهيئة الإدارية. انظر: الحوت، ص 849.

ينتقد السكاكيني هذه الجمعية فيعتبرها غير قانونية لأنها في الأصل جمعية طائفية خيرية لا تمثل الرأي العام في مدينة القدس[111]، لا تضم إلا رؤوس الأسر ممن عاشوا في كنف العثمانيين وتربوا على مبادئهم وتخلقوا بأخلاقهم، لذا فلا يمكن أن تكون سياسة هذه الجمعية إلا «سياسة التملق والتزلف فضلًا عن ضعف الرأي وسخافة العقل وقصر النظر»[112].

يمضي السكاكيني في انتقاده الجمعية، فيذكر أن أعضاءها غير متآلفين ولا متحابين، تسودها الطائفية وعدم الثقة. فالأعضاء المسلمون، على حد زعمه، «لا ينظرون إلى المسيحيين إلا بارتياب وعدم الثقة، ولا يتساهلون في اعتبار أحد من المسيحيين إلا إذا كانَ يؤيد جانب إحدى أسرهم»[113]. ويذكر أنه لا يحضر اجتماعات هيئتها الإدارية إلا عدد يراوح بين 10 إلى 11 عضوًا، يجتمعون مرة واحدة في الأسبوع، ويفتتح الأعضاء جلساتهم ويختتمونها من دون قراءة وقائع أو تقرير أمر، ولا يلتزمون بدفع اشتراكاتهم الشهرية، حتى وصل الأمر بأنهم «يضيقون ذرعًا كل شهر بأجرة البواب»[114].

بعد تأسيس هذه الجمعية بفترة وجيزة، وردًا على المؤتمر الذي عقده اليهود في يافا في 18 كانون الأول/ ديسمبر 1918، اتجه الجهد الفلسطيني إلى توحيد الجمعيات الإسلاميّة المسيحية في أنحاء البلاد المختلفة في جمعية واحدة، تتبنى أهدافًا واحدة وبرنامجًا واحدًا، وأسفر هذا الجهد عن تشكيل الجمعية الإسلاميّة المسيحية الفلسطينية التي اتخذت من القدس مركزًا لها[115].

على الرغم من ذلك، بقي السكاكيني متشائمًا من الجمعية، ولا سيما أن الوجوه القائمة عليها لم تتغيّر، وكان معظمها يُحابي السلطة العسكرية البريطانية. ففي اجتماع عقد في منزله، حضره عدد من الوجهاء والأعيان، بينهم الحاج أمين الحسيني ورشدي الإمام وفخري الحسيني والشيخ سعيد الخطيب ومحمد يوسف

(111) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 56.
(112) المصدر نفسه، ص 68.
(113) المصدر نفسه، ص 57.
(114) المصدر نفسه، ص 142.
(115) خلة، ص 205.

الخطيب وعمر الزعبي والدكتور زكي أبو السعود وشكري التاجي، جرى البحث في الثقة بالجمعية الإسلامية المسيحية بالقدس والجمعية الفلسطينية التي تشكلت أخيرًا، وحصل نقاش مستفيض أكد السكاكيني فيه أنه «إذا كانت هاتان الجمعيتان موضع ثقتنا فيجب أن نعمل على مؤازرتهما وتأييد مطالبهما، أما إذا لم تكونا موضع الثقة فيجب العمل على إبطالهما أو على الأقل تلافي ضررهما»[116].

تمدّنا يوميات السكاكيني بمعلومات قيّمة عن الجمعية الإسلامية المسيحية وعلاقتها بالسلطة العسكرية، ما يعزز رأيه في أزمة الثقة بها. إذ طلبت الجمعية من الحاكم العسكري في القدس الجنرال ستورز التصريح لها بتظاهرة احتجاج على الهجرة الصهيونيّة والادعاءات الصهيونيّة في فلسطين. يروي السكاكيني أن هذه الفكرة نشأت خارج إطار الجمعية، وكان أول من اهتم بها كامل الحسيني، مفتي القدس، وموسى كاظم الحسيني، رئيس البلدية، وعارف باشا، وأن ستورز هو الذي أوعز إليهم بذلك، فسافر إلى مصر كيما تجري التظاهرة في أثناء وجوده. تقدمت الجمعية لمساعدة تيلر للقيام بالتظاهرة، إلاّ أن الرأي العام استقر على الخروج بها بعد عودة ستورز، خصوصًا أنهم علموا بأنه هو الذي أوعز بقيامها[117].

على الرغم من ذلك، لم يعترض تيلر على تظاهرة الجمعية الإسلاميّة المسيحية في غياب ستورز، وعبّر عن ذلك في مكتبه خلال لقائه بخليل السكاكيني ويعقوب فراج، وطلب منهما تحديد اليوم وأسماء المسؤولين وتقدير عدد المتظاهرين وأسماء الخطباء وبيان الموضوعات التي سيتكلمون فيها، وتعهد لهما بأنه سيأمر اليهود بأن يلزموا بيوتهم في أثنائها[118].

نتيجة لطلبات تيلر، اعتذرت الجمعية عن عدم القيام بالتظاهرة، ما دفع ستورز بعد عودته من القاهرة إلى اللقاء بالسكاكيني ومطالبته بأن يبذل قصارى جهده لإقناع أعضاء الجمعية بالعدول عن قرارهم. لم يقتنع السكاكيني بذلك، بحسبه، إلا أنه ذهب إلى دار الجمعية والتقى بعارف الداودي ومحمد يوسف العلمي وموسى البديري ولطفي أبو صوان، وأبلغهم بطلب ستورز، فأبلغوه بموقفهم الثابت وهو عدم القيام بالتظاهرة، مبررين ذلك بعجزهم عن تحمل

(116) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 54.
(117) المصدر نفسه، ص 104-105.
(118) المصدر نفسه، ص 107.

مسؤولية ذلك، وعن أخذ الاحتياطات اللازمة في أثناء التظاهرة، وذلك بحسب طلب الحكومة[119].

لم تؤدّ هذه الجمعية دورًا مهمًا على الساحة السياسية الفلسطينيّة إلا عقدها المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول، ورفع صوت الشعب الفلسطيني من خلاله إلى مؤتمر الصلح في باريس، وبسط القضية أمام لجنة كنغ - كرين خلال زيارتها البلاد، أما ما عداهما فقد كانَ عملها دعائيًا له أهمية في مرحلته[120].

ظهرت في القدس جمعيات ونوادٍ أخرى، منها ما حمل طابعًا خيريًا واجتماعيًا، ومنها ما حمل طابعًا سياسيًا. فـ «جمعية تهذيب الفتاة الأرثوذكسية» جمعية خيرية مسيحية، تولت رئاستها كاترين شكري ديب، هدفها تعليم الفتيات المتفوقات أو ممن لم يستطعن الالتحاق بالمدارس بسبب أحوالهن الاقتصادية. تمكنت هذه الجمعية من تعليم كثير من الفتيات في الكلية الإنكليزية وكلية شميدت في القدس[121]. كما أنشأ الأرثوذكس أيضًا «جمعية الإخاء الأرثوذكسية» للاهتمام بمصالح الطائفة[122]. وعلى غرارهم، أنشأ الكاثوليك «الجمعية الكاثوليكية» لرعاية شؤون أبناء الطائفة[123]. وأنشأ المسلمون «جمعية السيدات المسلمات» الخيرية النسائية، وكانت أيضًا ذات طابع اجتماعي خيري[124]، وجمعية «نهضة الفتاة العربيّة» التي كانت تهتم بالتعليم في المدينة[125].

في أوائل حزيران/ يونيو 1918، أسست مجموعة من الشبان المؤمنين بالوحدة العربيّة «النادي العربي»، وكان بينهم الحاج أمين الحسيني ومحمد العفيفي ويوسف يسن وحسن أبو السعود وإبراهيم سعيد الحسيني، وتتلخص أهدافه بهدفين: الوحدة

---

(119) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 117.

(120) الحوت، ص 82.

(121) ألفت محمود فؤاد، «الدور الوطني والاجتماعي للمرأة الفلسطينية،» وماتيل مغنم، «الجذور التاريخية من نضال المرأة الفلسطينية في الحركة الوطنية منذ الانتداب وحتى 1936م،» صامد الاقتصادي، العدد 62 (تموز/ يوليو - آب/ أغسطس 1986)، ص 122 وص 8 على التوالي.

(122) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 96.

(123) المصدر نفسه، ص 105.

(124) مغنم، «الجذور التاريخية،» ص 8، ونبيل علقم، تاريخ نضال المرأة الفلسطينية (البيرة: جمعية أنعاش الأسرة، [د. ت.])، ص 81.

(125) صبري، ص 232.

مع سورية ومكافحة الصهيونيّة[126]. وفي العام نفسه، أُسس «المنتدى الأدبي» وتولى رئاسته جميل الحسيني، وكانت أهدافه تتفق مع أهداف النادي العربي[127]. اهتم الناديان بالعمل الوطني من خلال تمثيل الروايات التاريخيّة وتكريم الشخصيات الوطنية. ففي 18 نيسان/ أبريل 1919، مثّل أعضاء النادي العربي رواية شهداء العرب[128]. كما أقام حفل تكريم في روضة المعارف للشيخ عبد القادر المظفر[129]. وفي 9 أيار/ مايو 1919، احتفل الناديان بذكرى عيد استقلال العرب، أي بإعلان الثورة العربيّة في الحجاز، بناءً على اقتراح تقدّم به خليل السكاكيني إلى الجمعية الإسلامية المسيحية، وكان من بين الحضور الجنرال ستورز وحاشية من الضباط ومعتمدي الدول الأجنبية. افتتح الحفل فخري النشاشيبي، ثمّ تلاه خطيبًا كل من صليبا الجوزي وعزيز الخالدي وحربي الأيوبي. واختتم الحفل بالنشيد الوطني الذي وضعه السكاكيني خلال وجوده في جبل الدروز[130].

يتهم السكاكيني أعضاء هذين الناديين بعدم الاكتراث لحضور الندوات واللقاءات العلمية، فيذكر أن النادي العربي كلفه بإعداد محاضرة عن المتنبي ثائرًا، ولدى إلقائه المحاضرة كانَ الحضور قليلًا اقتصر على عدد من الفلاحين وتلامذة المدارس، ولم يحضر من الجانب الإسلامي إلا من كانَ بيته قريبًا إلى النادي، بينما لم يحضر من الجانب المسيحي إلا ثلاثة أشخاص فقط، ولم يحضر أي من أعضاء المنتدى الأدبي على الرغم من توجيه دعوات رسمية لهم[131].

---

(126) خلة، ص 193، والحوت، ص 86.
(127) الحوت، ص 87.
(128) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 131.
(129) المصدر نفسه، ص 97.
(130) المصدر نفسه، ص 146. وهذه بعض المقاطع من النشيد الوطني السوري الذي أنشده السكاكيني خلال فترة وجوده في السويداء:

أيها المولى العظيم — فخر كل العرب
ملكك الملك الفخيم — ملك جدك النبي
نحو هذا الملك سيروا — قبل فوت الزمن
وعلى الخصم أغيروا — لخلاص الوطن
أن نعش عشنا كراما — أو نمت متنا كراما
همنا نردي اللئاما — همنا نردي اللئام (انظر ص 506 من هذا الكتاب).

(131) المصدر نفسه، ص 159.

تتّضح مما أورده السكاكيني شدة التنافس بين الناديين، خصوصًا أن النادي العربي كان يمثل أسرة الحسيني وأنصارها، بينما كانَ المنتدى الأدبي يمثل أسرة النشاشيبي وحلفاءها. غير أن اللافت كان حضور الفلاحين تلك المحاضرة، وهذا مستهجن، فمن المستبعد أن يكون النادي العربي وزع دعوات على القرى، ولا أعتقد أن هذا الأمر يخطر ببال أعضائه أو هيئته الإدارية، فضلًا عن عدم اكتراث الفلاحين لهذا الأمر في تلك الأوقات، وبالتالي من الممكن أن يأتي وجود هؤلاء الفلاحين على سبيل الصدفة في مدينة القدس قرب مقر النادي، خصوصًا أن الفلاحين كانوا يعتمدون على المدن في بيع منتوجاتهم الحيوانية.

استمر عمل الناديين 4 إلى 5 سنوات على أبعد تقدير، نظرًا إلى تسلّم الحاج أمين الحسيني رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى، والتغيير الجذري الذي طرأ على الحرية السياسية في عشرينيات القرن الماضي. وجنح شبان النادي العربي في ما بعد إلى الحركة الوطنيّة بزعامة الحسيني، بينما جنح معظم شبان المنتدى الأدبي إلى الحركة المعارضة التي تزعمها راغب النشاشيبي[132].

سادسًا: الفلسطينيون ومؤتمر الصلح

انتهت الحرب العالمية الأولى وأعلنت الهدنة بين الدول المتنازعة، وسعت دول الحلفاء المنتصرة إلى تسوية القضايا التي ترتبت عن الحرب، فتقرر عقد مؤتمر للبحث فيها استنادًا إلى الوعود والعهود التي أبرمت خلال الحرب[133].

عقدت الشخصيات الفلسطينية في القدس اجتماعات لوضع القضية الفلسطينية على مائدة المؤتمر. ففي اجتماع عقد في مكتب الكولونيل تيلر، بحضور مفتي القدس كامل الحسيني، ورئيس البلدية سليم الحسيني. نصحهم تيلر بأن يرسلوا وفدًا إلى مؤتمر الصلح من أصحاب المكانة والوجاهة، وأن يكون المفتي بينهم وبعض الشخصيات المسيحية كمتري سلامة أو جرجي الحمصي، وبيّن لهم بأن اليهود يرسلون الوفود إلى الدول الأوروبية المختلفة لإقناع الرأي العام الأوروبي بأنهم يشكّلون أكثرية السكان في فلسطين وبأنهم على وفاق مع العرب ولهم أيضًا حق تاريخي وديني في فلسطين[134].

(132) الحوت، ص 88.

(133) صبري، ص 276.

(134) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 59.

تداعى عدد من الشخصيات لعقد اجتماع في منزل خليل السكاكيني، حضره الحاج أمين الحسيني وجودت القندوس وعزيز الخالدي ومحمد يوسف الخطيب وعمر الزعنّي وعبد الصمد العلمي. واتفق في هذا الاجتماع على أن تعقد جمعيات القدس لقاءً لأعضاء الجمعية العمومية تدعو إليه عددًا كبيرًا من أهالي القدس للبحث في أحوال فلسطين الراهنة، وتم الاتفاق على أن يلازموا أعضاء الجمعية العمومية بشكل متواصل تنشيطًا لهم واستنهاضًا لهممهم، وعلى عقد الحفلات واللقاءات بشكل مستمر لإحياء العاطفة الوطنية وشحذ الأذهان ونشر القصيدة الوطنية المتمثلة بالجامعة العربية. وتنفيذًا لذلك، عُقد اجتماع في 1 شباط/ فبراير 1919، حضره الحاكم العسكري الجنرال ستورز، ونائبه تيلر، وألقيت الخطب والكلمات التي أحدثت، كما يقول السكاكيني، «الدوي الذي نريده»[135]. ورفع المجتمعون إلى الحكومة العسكرية مضبطة باسم الشبيبة، طالبوا فيها بضم فلسطين إلى سورية، واتخاذ الوسائل اللازمة لدرء الخطر الصهيوني عنها. قبل أعضاء الجمعية العمومية هذه المضبطة بالإجماع، على الرغم من أن بعض مندوبي القدس انتقد رفعها باسم فريق من الشبيبة، لا باسم القدس كلّها[136].

في 10 كانون الثاني/يناير 1919، زار عارف الداودي ومحمد يوسف العلمي ومحمد يوسف الخطيب خليل السكاكيني في منزله للاطلاع على رأيه في الأوضاع السياسية، فاقترح عليهم عقد اجتماعات في كل المدن الفلسطينية، ثم مؤتمر عام تُناقش فيه الآراء والتوجهات على اختلافها، وتشكيل هيئة تجوب الأقطار العربية وأوروبا لبسط القضية الفلسطينية والاطلاع على السياسة الخارجية لدول أوروبا، وتفويض الأمير فيصل لتمثيل الفلسطينيين، «فمن يُضاهي الأمير في وطنيته واخلاصه؟ أو الحنكة والاختبار، لو فتشتم البلاد في طولها وعرضها لما وجدتم من يقدر على القيام بأعباء هذه المهمة العظيمة قيام الأمير بها». غير أن فئتين ستعترضان على ذلك، كما يقول السكاكيني: الأولى تضم المسيحيين لأنهم يعتقدون أن الأمير قام بالثورة كأمير مسلم؛ والثانية تضم كثيرًا من المسلمين في سورية وفلسطين لأنهم يعتقدون أن الأمير قام كأمير حجازي. يرد السكاكيني على ذلك بقوله إن الأمير قام كأمير عربي لا يشتغل إلا للجامعة العربيّة[137].

(135) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 66.

(136) المصدر نفسه، ص 68.

(137) المصدر نفسه، ص 41.

في اجتماع في منزل عارف الداودي، رئيس الجمعية الإسلامية المسيحية، وبحضور الحاج أمين الحسيني والدكتور زكي أبو السعود، يذكر السكاكيني أن خطة الجمعية كانت مطالبة مؤتمر الصلح بمنح فلسطين حق اختيار حكومتها على غرار سورية والعراق، كما ورد في بلاغ أعلنته الحكومتان البريطانية والفرنسيّة. يعلق السكاكيني على ذلك بقوله: «كأن الجمعية فهمت من ذلك البلاغ أن فلسطين مستثناه من ذلك الحق، على أن هناك قرائن كثيرة تدل على أنها داخله في حكم سورية، منها أن الحكومتين أرسلتا ذات البلاغ إلى كل مدن فلسطين وقراها، ومنها أن الحلفاء أعلنوا مرارًا أن البلاد التي كانت تحت حكم الأتراك ستحرر»[138].

1- المؤتمر العربي الفلسطيني الأول

وجهت الجمعية العمومية الفلسطينيّة في القدس دعوة إلى مندوبيها في أنحاء فلسطين لعقد مؤتمر وطني عام يبحث في المطالب الفلسطينية في مؤتمر الصلح. افتتح المؤتمر في 27 كانون الثاني/ يناير 1919، واستمرت جلساته حتى 4 شباط/ فبراير، وكانَ برئاسة عارف الدجاني، وانتخب راغب أبو السعود نائبًا له، وعزة دروزه سكرتيرًا[139]. يذكر السكاكيني أن المندوبين الذين حضروا المؤتمر كانوا منقسمين في ثلاثة فرقاء: فريق مخلص وطني حر لا يراعي في ما يطلب ما يمكن وليس ما يجب، وفريق مأجور أو أجنبي النزعة يراعي في ما يطلبه مصلحة الإنكليز أو مصلحة الفرنسيين أو مصلحة اليهود[140]، وكانَ أكثرهم «قصار النظر، ضعفاء الرأي مشكوك في وطنيتهم، إلا نفرًا قليلًا منهم من أصحاب المبادئ الصحيحة والنظرات السديدة والوطنية الصادقة، وأنهم جميعًا منقسمون إلى مذاهب مختلفة»[141].

كانَ الرأي الغالب عند المؤتمرين مطالبة مؤتمر الصلح بحق اختيار الحكومة التي يريدها الفلسطينيون، أسوة بسورية والعراق، بينما كانَ هناك رأي آخر يرى أن تكون فلسطين للفلسطينيين. يعبّر السكاكيني عن ذلك بقوله إن كلا الرأيين

(138) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 48.

(139) صبري، ص 263.

(140) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 53.

(141) المصدر نفسه، ص 57.

فاسد لأنهما يعنيان فصل فلسطين عن الجامعة العربية، فإذا فصلت لا بد من أن يكون مصيرها إما يهوديًا أو تصير إلى حكومة أجنبية بحجة أنها لا تستطيع أن تحكم نفسها بنفسها لتفشي الأمية بين أهلها، وإذا جاء اليهود إلى فلسطين فلا بد من أن تتعاقب الأدوار الآتية: في الدور الأول يكون العلم عربيًا، وفي الدور الثاني يرفع إلى جانب العلم العربي العلم الصهيوني، وفي الثالث يمزج العلمان، وفي الرابع يتحوّل العلم المزدوج إلى علم صهيوني، أما في الدور الخامس والأخير فيضطر السكان الأصليون إلى الجلاء عن البلاد لتصبح يهودية[142]. ولتضييق شقة الخلاف بين المؤتمرين، حضر إلى مقر المؤتمر خليل السكاكيني ومحمد يوسف الخطيب، وكانَ من المقرر أن يرافقهما الحاج أمين الحسيني والدكتور زكي أبو السعود غير أنهما تخلفا عن ذلك، لكن عارف الداودي رئيس المؤتمر تغيب عن الاجتماع، فتم تأجيل النظر في الأمر إلى جلسة أخرى، ومع ذلك جرى نقاش حاد بينهم وبين أعضاء المؤتمر، فاتهم يعقوب فراج ممثل القدس في المؤتمر الجمعية الإسلامية المسيحية أنها قيدتهم في أن لا يتحدثوا إلا في ما يدفع الخطر الصهيوني. كما قال عيسى العيسى، ممثل يافا، إن رأي المقدسيين هو استقلال فلسطين استقلالًا تامًا وأن تحكم نفسها على قاعدة اللامركزية، ورد عليه السكاكيني ومن معه بتأكيد طرح فكرة إنشاء جامعة عربية، ثم النظر بكيفية الحكم، وبينوا أن استقلال فلسطين عن الجامعة العربية واتخاذها اللامركزية قاعدة للحكم يمهدان السبيل للخطر الصهيوني[143].

أقام المؤتمر حفلًا في «لوكندة مرقص»، افتتحها الشيخ راغب الدجاني، وألقى بعده الشيخ سعيد الكرمي مفتي طولكرم ويوسف العيسى من يافا وصلاح الدين الحاج حسن ممثل صفد كلمات شكروا فيها الجنرال ستورز، وطالبوا بريطانيا بالمساعدة على تحرير الأمة العربية[144]. واختتم المؤتمر جلساته يوم السبت 8 شباط/ فبراير 1919، على أن يُعقد مؤتمر ثانٍ بعد ثلاثة شهور في نابلس، كما انتخب وفدان، يذهب الأول إلى باريس، ويتشكل من توفيق حماد من نابلس جبران كزما من الناصرة والشيخ راغب الدجاني من يافا، بينما يذهب الوفد الثاني إلى سورية[145].

(142) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 56.
(143) المصدر نفسه، ص 71.
(144) المصدر نفسه، ص 71.
(145) المصدر نفسه، ص 75.

كان الشقّ واسعًا بين المؤتمرين من جهة والمؤتمرين وأعضاء الجمعية الإسلامية المسيحية من جهة أخرى، ولعل استثناء الشخصيات المقدسية من عضوية الوفد الذي تقرر إرساله إلى باريس دليل واضح على الخلاف الذي نشب حينها. ويتضح ضيق أفق هؤلاء القادة الذين لم يترددوا في محاباة الجانب البريطاني، حتى وصل أمرهم إلى تقديم الشكر إلى الحاكم العسكري، والاعتراف بفضل بريطانيا وطلب مساعدتها، في الوقت الذي لم يكن قد مضى على تصريح بلفور إلا نحو عامين، ما يعكس مدى الجهل السياسي الذي ابتلي فيه هؤلاء القادة.

مهما يكن من أمر، أصدر المؤتمر في جلسته الختامية مجموعةً من القرارات، تمثلت في الآتي:

- التأكيد على أن فلسطين جزء من سورية، مرتبطة بها بروابط قوميّة ودينية ولغوية وطبيعية وجغرافية واقتصادية؛

- رفض التصريح الذي أدلى به جورج بيكو، وزير خارجية فرنسا، وذكر فيه أن لفرنسا حقوق في بلاد الشام مبنية على رغبات السكان؛

- الرغبة في عدم انفصال فلسطين عن سورية العربية المستقلة، وفي أن تكون متحررة من النفوذ والحماية الأجنبيين؛

- الاستناد إلى مبدأ الرئيس الأميركي ويلسون، واعتبار كل وعد أو معاهدة عقدت خلال الحرب لاغية؛

- طلب المساعدة من بريطانيا إذا دعت الحاجة إلى تطوير البلاد، على أن لا ينتقص ذلك من استقلالها أو يؤثر في الوحدة العربية[146].

يبدو واضحًا أن القرارات الأربعة الأولى جاءت تلبيةً لرغبات الكتلة المؤيدة للوحدة العربية وعدم الانفصال عن سورية، بينما جاء القرار الأخير تلبية لرغبات الكتلة المؤيدة للإنكليز[147]. نتيجة لذلك، رفض عارف الداودي الدجاني، رئيس المؤتمر، توقيع القرار المتعلق بإلحاق فلسطين بسورية، وسانده في ذلك شكري

---

(146) الحوت، ص 97.

(147) صبري، ص 264.

الكارمي، ممثل الكاثوليك في المؤتمر، إلا أنه تراجع عن ذلك نظرًا إلى ضغط الجمعية الكاثوليكية عليه، إذ كانت تعتقد أن في هذا الإلحاق خدمة لمصلحة فرنسا. ورفض يعقوب فراج، ممثل القدس، التوقيع انطلاقًا من موقف الجمعية الإسلامية المسيحية - وكان من أعضائها - عدم الموافقة على ذلك القرار، بينما تقرر إرسال كل من راغب الدجاني وعمر الصالح البرغوثي إلى قرية عمواس للحصول على توقيع عبد الحميد أبو غوش[148].

يروي السكاكيني أنه ذهب إلى مقر الجمعية الإسلامية المسيحية، وبرفقته الحاج أمين الحسيني، لإقناع أعضائها بالموافقة على قرارات المؤتمر. ناشدهم الحاج أمين العدول عن فكرة استقلال فلسطين التام وانتهاج اللامركزية في الحكم، فأجابه أحد الأعضاء: «كيف تقبل بعد أن كنا عبيدًا للأتراك أن نكون عبيدًا للسوريين يتحكمون بنا كيف هم يشاؤون؟». وصل الأمر إلى حد أن ممثل الأرثوذكس إبراهيم الشماس قال إن «الإنكليز هم الذين فتحوا هذه البلاد وإن الحكومة الآن هي حكومة إنكليزية»[149].

2- لجنة كنغ - كرين الأميركية

كانَ من بين المبادئ الأربعة عشر التي طرحها الرئيس الأميركي وودرو ويلسون في مؤتمر الصلح مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها، خصوصًا الشعوب التي انفصلت عن الدولة العثمانية. استجابة لهذا المبدأ، تقرر تشكيل لجنة دولية تضم مندوبين عن بريطانيا وفرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة للوقوف على مطالب الشعوب العربيّة ورغباتها. إلا أن بريطانيا وفرنسا وإيطاليا تراجعت عن موقفها، ما دفع ويلسون إلى إرسال لجنة اقتصرت عضويتها على الولايات المتحدة الأميركية وحدها[150]، شُكلت من ستة أعضاء وكانت برئاسة اثنين منهم، هما هنري كنغ وتشارلز كرين، فعُرفت اللجنة باسميهما[151].

(148) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 73.

(149) المصدر نفسه، ص 72.

(150) الحوت، ص 103.

(151) المصدر نفسه، ص 109.

قبل وصول اللجنة إلى القدس، عقدت الشخصيات المقدسية وبعض الشخصيات الفلسطينية اجتماعًا لها في 12 نيسان/ أبريل 1919 للتباحث في المطالب الوطنية التي ينبغي عرضها على اللجنة. عُقد هذا الاجتماع في منزل إسماعيل الحسيني، وبحضور المفتي كامل الحسيني وسعيد الحسيني وموسى كاظم الحسيني والحاج أمين الحسيني وعارف الدجاني وعلي جارالله وإسعاف النشاشيبي ويعقوب فراج وخليل السكاكيني من القدس وراغب الدجاني من يافا وعزت دروزة وحافظ كنعان من نابلس. تمّ الاتفاق في هذا الاجتماع على استقلال سورية ضمن الوحدة العربيّة، وأن تكون فلسطين جزءًا لا ينفك عن سورية، مستقلة استقلالًا داخليًا تختار حكامها من الوطنيين وتسن قوانينها بنفسها بحسب رغبات أهلها وحاجات البلاد. واتفق أيضًا على رفض الهجرة الصهيونية إلى فلسطين مع التأكيد على اعتبار اليهود الأصليين الذين كانوا وطنيين في البلاد قبل الحرب، لهم ما لعرب فلسطين وعليهم ما عليهم[152].

يتضح من الأسماء السابقة غياب الكثير من المدن والمناطق الفلسطينية الأخرى عن هذا الاجتماع ليقتصر على ثلاث مدن فقط، وإن كان تمثيل يافا ونابلس ضئيلًا مقارنة بعدد الحضور من مدينة القدس، والبالغ عددهم عشرة أشخاص، إضافة إلى غياب تمثيل الطوائف المسيحية الأخرى، خصوصًا الكاثوليك، إذ اقتصر تمثيل المسيحيين على اثنين فقط، هما فراج والسكاكيني، وكلاهما من طائفة الأرثوذكس.

عُقدت لقاءات غير رسمية بين بعض الشخصيات المقدسيّة وبعض كبار موظفي الإدارة العسكرية البريطانيّة في القدس. في 15 نيسان/ أبريل 1919، التقى السكاكيني الكولونيل تيلر في مكتبه واقترح عليه تشكيل رأي عام في البلاد قبل مجيء اللجنة، وتعميم الفكرة في سورية، مبيّنًا أن للمقدسيين شروطًا على الدولة المنتدبة، ومستبعدًا الانتداب الفرنسي «لأن فرنسا لا توافق مزاجنا»، أما الشروط التي ذكرها السكاكيني فهي لا صهيونية ولا تجزئة ولا مهاجرة[153].

في اليوم الثاني، أي في 16 نيسان/ أبريل 1919، التقى الكولونيل تيلر في

(152) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 110.

(153) المصدر نفسه، ص 125.

مكتبه براغب النشاشيبي ويعقوب فراج وخليل السكاكيني للبحث في الشروط الفلسطينية، فأبدى موافقته على عرض السكاكيني أن تنتدب الولايات المتحدة بالوكالة على تركيا وأرمينيا، بينما تنتدب بريطانيا على البلدان العربية، أما فرنسا فتنتدب على الأستانة، وبذلك يمنع تقسيم البلاد إلى أجزاء يتولى كل قسم دولة، وترضى الدول الثلاث. وأبدى تيلر استعداده لعرض هذه الفكرة على الرئيس الأميركي ورئيس الوزراء البريطاني[154].

في لقاء ثالث جمع تيلر بإسماعيل الحسيني ويعقوب فراج وخليل السكاكيني في 22 من الشهر نفسه، قدم هؤلاء اقتراحًا بتشكيل ولايات متحدة من البلدان العربية وسورية وفلسطين والعراق والحجاز، تشترك في المسائل العمومية، أي في الجندية والتجارة والتعليم والسكك الحديد، وتستقل كل واحدة في حكم نفسها. وأضاف السكاكيني في هذا الاجتماع اقتراحًا رابعًا، وهو عدم تمتع الدولة المنتدبة بأي امتيازات[155].

وصلت اللجنة مدينة القدس مساء الجمعة في 13 حزيران/ يونيو 1919، فاستقبلها أعضاء النادي العربيّ والمنتدى الأدبي بيافطة علقت على أحد مداخل المدينة كتبوا عليها بخط كبير عبارة «نطلب استقلالًا تامًا - سورية - لا تتجزأ - نحتج على الصهيونية ونرفض مهاجرة اليهود إلى بلادنا - يعيش أميرنا فيصل - الحلفاء أعضاء الحق - سورية تمتد من جبال طوروس شمالًا إلى ترعة السويس جنوبًا». غير أن رفع هذه اليافطة لم يستمر طويلًا، فقد احتجت عليها الحكومة وطلبت إزالتها[156].

في 16 منه، التقت اللجنة بأعضاء الجمعية الإسلاميّة المسيحية، وعقد هذا اللقاء في لوكندة مرقص حيث كان باستقبالهم القنصل الأميركي في القدس وأحد أعضاء اللجنة، وقدموا إلى اللجنة ثلاث مطالب:

- استقلال سورية وفلسطين استقلالًا تامًا؛

---

(154) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 126.

(155) المصدر نفسه، ص 133.

(156) المصدر نفسه، ص 175.

- استقلال فلسطين استقلالًا داخليًا؛

- الاحتجاج على الصهيونية.

استمر الاجتماع ساعة، سألت اللجنة خلاله الأعضاء العرب عن رغبتهم في أن تربطهم علاقة بالعراق والحجاز فأجابوها رافضين هذه العلاقة. وحين سألتهم عن الوصاية أجابوا بأنهم سيقدمون جوابهم عن هذا السؤال في المؤتمر السوري الذي سيعقد بدمشق، كما قالوا إنهم سيقدمون للجنة تعليلًا مكتوبًا لسبب احتجاجهم على الصهيونيّة[157].

في 18 حزيران/ يونيو، التقت اللجنة بممثلين عن النادي العربي والمنتدى الأدبي وجمعية العفاف. مثّل كل نادي سبعة أشخاص، فتحدث باسم النادي العربي الحاج أمين الحسيني، بينما تحدث باسم المنتدى الأدبي محمد يوسف الخطيب. أما جمعية العفاف فتحدث باسمها سعيد الخطيب. قدم هؤلاء للجنة اللائحة نفسها التي أعدها خليل السكاكيني، وتضمنت الشروط الأربعة لقبول الدولة المنتدبة[158].

في اليوم التالي، التقت اللجنة بممثلين عن قرى قضاء القدس، بناءً على اقتراح السكاكيني، لترى اللجنة أهل الريف الذين يمثلون قوة البلاد. خشي بعض الوجهاء المسلمين المقدسيين أن يطلب الفلاحون مطالب تختلف عن مطالب أهل المدن، وكان بعضهم يوهم الحكومة بأن نفوذهم في الريف وأهله قوي، فحاولوا عرقلة هذا اللقاء متذرّعين بأن الفلاحين عبروا عن رأيهم من خلال بيان الجمعية الإسلامية المسيحية. غير أن السكاكيني فوّت عليهم هذه الفرصة، وضرب لأهالي القرى موعدًا مع اللجنة. في أثناء اللقاء، تحدث باسمهم عبد الفتاح درويش من قرية المالحة، فشكر اللجنة وأثنى على الشعب الأميركي واستنجد بالولايات المتحدة لدرء الخطر الصهيوني. ويذكر السكاكيني أنه كانَ للفلاحين تأثير في أعضاء اللجنة، فقال لهم رئيسها: «إن ظواهركم تدل على القوة»[159].

قدم الفلاحون عريضة إلى اللجنة أكدوا فيها المطالب الوطنية بعد مقدمة

(157) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 176-177.

(158) المصدر نفسه، ص 178.

(159) المصدر نفسه، ص 18.

تنضح ألمًا ومعاناة، جاءت بصيغة جواب عن سؤال تصوروا أنه يدور في أذهان الأميركيين، وهو «من أنتم؟»:

«نحن أصحاب البلاد الذين حافظنا على أراضينا أجيالًا طوالًا في الخصب والجدب، في السلم والحرب، في أيام الأمراض والأوبئة، في أيام الظلم والاستبداد. نحن الذين استثمرنا أراضينا أجيالًا طويلة بالفلاحة والزراعة وغرس الأشجار وسقينا تربتنا بعرق جباهنا. نحن الذين يقع علينا عبء الحرب في كل وقت، فمنا يؤخذ الجنود ومنا تجبى الأموال. نحن الذين قاسينا ما لم يقاسه أحد من ظلم الحكام وصبرنا على ما لا يصبر عليه أحد من جوع وعري وفقر وشقاء»[160].

التقت اللجنة كذلك بممثلين عن طائفة الروم الأرثوذكس في القدس، وحاول بعض أبناء هذه الطائفة إقناع الجمعية الأرثوذكسية بأن تطلب من اللجنة الوصاية البريطانية وحفظ حقوق الأقلية. أخذ هؤلاء بتحريض أبناء الطائفة ضد المسلمين والاستقلال الذي سيؤدي إلى استبداد المسلمين بالمسيحيين، وكانَ المحرض الرئيس لذلك متري تادرس الذي حضر من يافا إلى القدس خصيصًا لهذا الأمر، وحرض أبناء الطائفة على تكسير أعلام الأندية العربية، ووصل به الأمر حد دعوة أبناء الطائفة الأرثوذكسية إلى الانشقاق وإعداد مضبطة يطلبون فيها وصاية بريطانيا[161]. وعلى الرغم من البلبلة التي أوقعها تادرس في صفوف الأرثوذكس، التقت الطائفة بأعضاء لجنة كنغ - كرين، ودعم ممثلوها مطالب الجمعية الإسلاميّة المسيحية[162].

أما الوفد الإسلامي فضم تسعة أشخاص، هم راغب النشاشيبي وسعيد الحسيني وفيضي العلمي وعبد المعطي الداودي وياسين أبو السعود وعلي جار الله وزكي نسيبة وعبد القادر طهبوب وشريف النشاشيبي ترجمانًا. وأكد أعضاء الوفد دعمه مطالب الجمعية الإسلامية المسيحية[163].

---

(160) الحوت، ص 111.

(161) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 176.

(162) المصدر نفسه، ص 177.

(163) المصدر نفسه، ص 177.

غادرت اللجنة القدس إلى نابلس، ووضعت تقريرها بعد أن التقت بالشخصيات وممثلي الطوائف والجمعيات في المدن الفلسطينية. تضمن التقرير موافقة الشعب الفلسطيني بالإجماع على استقلال سورية المتحدة، ولم يشذ منه إلا فئة معروفة من الموظفين سارت مع تيار النفوذ السياسي. أما نوع الحكومة التي طالبوا بها فهي حكومة لا علاقة لها بالدين، ولا تُقام على أسس طائفية. أما مسألة الوصاية فأحالوها إلى المؤتمر السوري الذي يمثلهم، ورفض بعض المسلمين - خصوصًا في الجنوب - الوصاية رفضًا باتًا مهما كانَ نوعها. كما بيّن التقرير إجماع المسلمين والمسيحيين على رفض المشروع الصهيوني[164]. وبعدما أنهت اللجنة أعمالها، اتجهت إلى دمشق حيث أعد المؤتمر العربيّ السوري لائحة مطالبه. مثّل فلسطين في هذا المؤتمر 32 شخصًا[165]، وكانَ من أهم القرارات التي اتخذها التأكيد أنه فلسطين جزء من سورية، ورفض فكرة الوطن القومي اليهودي والهجرة الصهيونية.

يروي السكاكيني أن يعقوب فراج، أحد ممثلي القدس في المؤتمر، رفض توقيع اللائحة التي تقرر تقديمها إلى اللجنة الأميركية، متذرّعًا بأن الادعاء بتمثيل المؤتمر السوري سكان البلاد عكس اختلاف المذاهب والنحل بين مسلمين ومسيحيين وسوريين، في حين لم يكن فيه خمسة أو ستة من المسيحيين، ولم يكن فيه من الموسويين أحد، فاعتبر قولهم هذا مخالفًا للحقيقة. كما أن المؤتمر تحامل في تقريره على فرنسا بعبارات تشف عن تحقير، ولم يطلب المؤتمرون إحدى الدول للوصاية وإنما طلبوا الاستقلال، وتنصيب الأمير فيصل ملكًا على البلاد. يرى فراج أن اختصاص المؤتمر هو النظر في أمر الانتداب لا غيره، وعبثًا حاول سعيد الحسيني وراغب النشاشيبي إقناعه بالتوقيع. وحين سمع فراج همس سعيد الحسيني في أذن رئيس المؤتمر بعبارة: «هذا النصراني خائف ممتنع عن التوقيع»، قرر الانسحاب والعودة إلى القدس[166].

---

(164) إبراهيم نجم، أمين عقل وعمر أبو النصر، جهاد فلسطين العربية: أول كتاب بالعربية عن فترة الانتداب البريطاني وبداية الثورة الكبرى سنة 1936 (القدس: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2009)، ص 31.

(165) انظر قائمة الأسماء في: الحوت، ص 851.

(166) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 192.

سابعًا: ثورة العشرين (ثورة النبي موسى)

يُعد موسم النبي موسى في القدس أحد أهم المواسم الدينية المعروفة في فلسطين، كموسم النبي صالح في الرملة، وموسم النبي روبين في يافا، وموسم المنطار في غزة، وموسم النمل في المجدل.

تعود جذور هذه المواسم إلى عهد الظاهر بيبرس، وكانَ الهدف منها حشد أكبر عدد ممكن من المسلمين لمواجهة أي احتمال لسيطرة الفرنجة ثانيًا على الأراضي المقدسة[167]. كان المسلمون يفدون إلى مدينة القدس بأعداد كبيرة من أنحاء البلاد المختلفة لإحياء هذه المناسبة، ثمّ يتجهون بموكب يتقدمه مفتي المدينة نحو مقام النبي موسى الواقع على الطريق المؤدية إلى مدينة أريحا[168]. وكانت الحكومة العثمانية تُبدي اهتمامًا بهذا الموسم وتؤمن القوات الضرورية لحفظ الأمن في أثنائه، فضلًا عن فرقة موسيقية للاحتفاء بالمناسبة[169]، وكانت تنصب مدفعًا في القرب من باب الأسباط يحيي العلم النبوي عند نزوله وصعوده، وتحاط المواكب بالجند والفرسان، وكانَ المحتشدون ينشدون الأهازيج الحماسية التي باتت مألوفة، ومنها «يا عين كوني جبارة» و «يا موت خود السكارى».

بعد الحرب العالمية الأولى، أدخلوا اسم الأمير فيصل والجيش العربي في أهازيجهم كلها، ويصف السكاكيني الموكب الذي كانَ يخرج ليشاهده في باب الأسباط بقوله: «ومما عجبت له أن كلّ واحد من أهل البر (الريف) يعرف تلك الأهازيج ويحسن كلّ ضروب الرقص، ولاحظت أن القرى البعيدة عن المدن أشد رجولية وحماسة من القرى القريبة، بل قد رأيت في أهازيج القرى القريبة ورقصها آثار الضعف والتخنث، فبينما ترى أهل القرى البعيدة أضخم أجسامًا وأقوى أصواتًا وأشد حماسة وأفخم أزياء، ترى أهل القرى القريبة أنحف أجسامًا وأضعف أصواتًا وأقل حماسة، وترى الواحد منهم بعمامة والآخر بعقال والآخر بطربوش والواحد بعباءة والآخر بساكو، وكذلك ترى بينهم اختلافًا كبيرًا في الأحذية فالواحد يلبس الجوارب والأحذية الصفراء والآخر عاري القدمين،

---

(167) صالح، ص 165.

(168) المصدر نفسه، ص165.

(169) خلة، ص 234.

ورأيت في بعض مواكب أهل القرى القريبة واحد مكشوف الرأس وقد فرق شعره كأنه من رجال الصالون وآخر يحمل في يده عصا سوداء مفضضة اليد بدلًا من السيف مما لا يلتئم مع هذه الحفلات والمواكب»[170].

تستمر الاحتفالات في مقام النبي موسى أسبوعًا، فتعود المواكب إلى القدس وتتّجه نحو المسجد الأقصى، وعادة ما يكون يوم العودة الخميس، وفي اليوم التالي المصادف الجمعة العظيمة، يجري الاحتفال الكبير والنهائي بزفة الأعلام، وأهم الأعلام اثنان: علم نابلس وعلم الخليل[171].

انطلقت الشرارة الأولى لثورة موسم النبي موسى في 4 نيسان/ أبريل 1920، شهدها السكاكيني بالعين، إذ كانَ موجودًا في المكان لمشاهدة الموكب برفقة زوجته سلطانة وابنه سري، ولذلك روايته هي الأدق مقارنة بروايات أخرى تناولت هذه الواقعة.

وفقًا لرواية السكاكيني، وقفت الوفود الفلسطينية عند مقر النادي العربي، وأخذ الخطباء يتناوبون الخطابة عن شرفة النادي، وكانَ بينهم خليل بيدس وعبد الفتاح درويش من المالحة. وخلال ذلك، وقع اضطراب في الموكب وأخذ الناس يتراكضون وكانت الحجارة تتساقط على اليهود، ثم سار الموكب من باب الخليل نحو المدينة، وبدأ تكسير زجاج المخازن اليهودية. كان الناس يصيحون «دين محمد قام بالسيف»، وحاول مساعد البوليس البريطاني توقيفهم فهاجموه وأمسكوا بعنان فرسه، «ولو لم تحيطه فرسانة البوليس لكانوا ضربوه، بل رأيت واحدًا ضربه بحجر فلم يصبه»[172].

في أثر هذه الحوادث، تدخلت السلطات العسكرية البريطانية وأعلنت الأحكام العرفية في المدينة وعلقت الإعلانات على الجدران خارج المدينة منعت الناس من الدخول إليها أو الخروج منها إلا بوثيقة من الحاكم العسكري. واعتقل البريطانيون عددًا من الشخصيات المقدسية كعارف العارف وعبد الفتاح

(170) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني، ص 128.

(171) الحوت، ص 212.

(172) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 214.

درويش وسعيد درويش وخليل بيدس وكامل البديري والشيخ حسن أبو السعود، وأخلت سبيلهم بعد يومين بكفالة مفتي القدس ورئيس البلدية وعارف الدجاني ويعقوب فراج[173]. واتهم البريطانيون الحاج أمين الحسيني بالتحريض على الثورة فقرروا اعتقاله، ولما لم يجدوه في منزله بحثوا عنه في منزل أخيه كامل الحسيني مفتي المدينة، ما جعله يحتج على هذا الإجراء ورد الوسام الذي منحته إياه الحكومة[174]. وكانَ منزله تعرض في 9 نيسان/ أبريل لطلقات نارية عدة، وتمّ إلقاء القبض على أحد المعتدين وفر الباقي وكانوا جلهم من اليهود[175].

في أثر هذه الحوادث، شكلت الحكومة لجنة لتقصي الحقائق عرفت باسم لجنة بالين، وظل تقريرها سرًا لم تكشف عنه الحكومة إلا في عام 1968. أنصف التقرير العرب، إذ بين أن الإنكليز يواجهون في فلسطين مواطنين محليين يحرّكهم السخط الشديد بدافع خيبة الأمل والقلق على مصيرهم ومستقبلهم السياسي في ظل سياسة المحاباة البريطانية لليهود. وعزلت الإدارة العسكرية رئيس بلدية القدس موسى كاظم الحسيني من منصبه، وعينت مكانه راغب النشاشيبي، واتهمت الحسيني بأنه كان محرضًا للثورة من خلال خطابه أمام المتظاهرين[176].

(173) يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث، ص 215.

(174) المصدر نفسه، ص 217.

(175) المصدر نفسه، ص 220.

(176) خلة، ص 238.

الفصل الواحد والعشرون

فلسطين في الحرب العالمية الأولى
قراءة نقدية ليوميات الفلسطينيين ومذكراتهم عن الحرب وحوادثها

عوني فارس

تسعى هذه الدراسة إلى تقديم قراءة نقدية لحال فلسطين إبان الحرب العالمية الأولى كما عرضتها يوميات الفلسطينيين ومذكراتهم، وتركز على تحليل التوصيف «الفلسطيني» لواقع سكان فلسطين بين عامي 1914 و1918، وترصد مجموعة العوامل التي ساهمت في تشكيله، وتبين مفرداته الرئيسة وتناقش جملة الحقائق التي تبناها، كما تحاول الإجابة عن تساؤلات أساس.

فما الذي حوته المذكرات واليوميات الفلسطينية عن الحرب العالمية الأولى؟ وهل نحن أمام نصوص متعددة قدمت قراءة واحدة تحوي المقدمات والتفصيلات والمواقف والنتائج نفسها حتى كأنها نص واحد وإن اختلف المؤلفون؟ أم نحن أمام أكثر من قراءة على الرغم من تشابه النصوص؟ وهل حكمت النصوص مواقف قَبْلية ثابتة من مجريات الحرب وفاعليها الرئيسيين؟ ما مدى تأثير الجغرافيا (مدينة كاتب اليوميات أو المذكرات) بخصوصيتها الاجتماعية والدينية ودورها الثقافي وموقفها الفكري ومكانتها الاقتصادية وتركيبتها السكانية في محتويات النصوص؟ كيف أثرت ثقافة الكاتب ووضعه الاقتصادي ومكانته الاجتماعية وموقفه السياسي في النص؟ هل انعكست نتائج الحرب على النصوص، الأمر الذي جعلها تتبنى رواية المنتصر وتتنكر لرواية المهزوم، أم بقيت على مسافة واحدة من طرفي القتال، وعبرت عن رؤية مغايرة ملتزمة بمصالح الفلسطينيين وأهدافهم؟ هل يمكن الحديث عن نصوص «فلسطينية» بالمفهوم الهوياتي أم إننا أمام نصوص «عثمانية» مضطربة بفعل التحولات الكبرى الفكرية والهوياتية التي شهدتها المنطقة أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؟

أولًا: المذكرات واليوميات مصدرًا للتاريخ: ملاحظات أولية

توفر المذكرات واليوميات فرصة للإطلاع على ما «يملكه الأفراد عن الماضي»[1]، اعتمادًا على ما تجود به ذاكرة ناحتيها الذين غالبًا ما يسردون حوادث

(1) كمبرلي كاتز، «بين دورا الخليل وبيت المقدس: يوميات موظف انتدابي،» في: أوراق عائلية: =

مروا بها شخصيًا أو مر بها غيرهم، وتمنحه تعبيرًا مباشرًا عن الوقائع المعيشة، وعما تختزنه من «خيارات وغايات ومشاعر وأحلام وآمال» و«جزء لا يستهان به من الأفكار والأهداف وجزء كبير من النفسيات والأذهان»[2].

تلتصق اليوميات بما هو يومي ومعاش داخل المكان الذي تواجد فيه المؤلف، وغالبًا ما تبدو غضة طرية صادقة في مشاعرها كونها بنْت اللحظة زمانًا ومكانًا، وتكتسب عبر عفويتها تخففًا من الاعتبارات النفسية والاجتماعية فيبدو كاتبها أكثر تحررًا وانطلاقًا[3]. وهي أكثر قدرة على تجاوز إشكاليات كبرى في الكتابة التاريخية مثل هيمنة الأيديولوجيا على النص والحضور الطاغي للتنظير[4]، وتزود المخيلة التاريخية لباحث التاريخ الاجتماعي بما يحتاجه من «التفصيلات التي يصعب أحيانًا استنتاجها عبر العودة إلى المصادر التي تعتبر أساسية مثل الوثائق الحكومية والخطب السياسية وغيرها»[5]، وهي في نهاية المطاف نص تاريخي أملاه شخص غير غريب عن الحدث الذي يكتب عنه[6].

مع ذلك فإنها تقدم إلينا صورة مجتزأة عن الماضي، كونها فعلًا نخبويًا في العادة، يقتصر على فئة معينة من المجتمع، تعتمد الذاكرة التي تعاني الانتقائية

= دراسات في التاريخ الاجتماعي المعاصر لفلسطين، تحرير زكريا محمد [وآخ.]؛ مراجعة صالح عبد الجواد، ط 2 منقحة (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2011)، ص 154.

(2) وجيه كوثراني، «إشكالات الزمن التاريخي في قراءة المذكرات: مذكرات جمال الدين القاسمي ومشاهداته،» في: دراسات في التاريخ الاجتماعي لبلاد الشام: قراءة في السير والسير الذاتية، تحرير عصام نصار وسليم تماري (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2007)، ص 29.

(3) سميح حمودة، «أكاديميا.. يوميات النخبة.. أيام الانتداب،» وجهات نظر، العدد 127 (آب/ أغسطس 2009)، ص 60.

(4) فيصل دراج، «قراءة في مذكرات خليل السكاكيني ونجيب نصار،» في: دراسات في التاريخ الاجتماعي لبلاد الشام، ص 105.

(5) عصام نصار وسليم تماري، «مقدمة: فلسطين وبلاد الشام: السيرة والتاريخ الاجتماعي،» في: دراسات في التاريخ الاجتماعي لبلاد الشام، ص 7.

(6) أوراق عائلية، ص 147.

والضبابية والتعرض للخطأ[7]، الأمر الذي يحرم من يعتمدون عليها من تقديم مقاربة أقرب إلى حقيقة الواقع في زمن اليوميات[8].

أما المذكرات فتبدو أكثر تحررًا من ضغط اللحظة وثقل الواقع الذي تتناوله، كونها تكتب بعد زمن من حدوث الوقائع، وتمنح صاحبها فرصة للعودة إلى ما يعين على استرجاع الحدث وتحليله. كما أن دوافع كتابتها كثيرة، منها ما هو نفسي، إذ يلجأ الكاتب إلى تخفيف العبء عن نفسه عبر سرد جملة من الأعذار والتبريرات لبعض تجاربه الشخصية، أو التأريخ لمرحلته، وتأكيد قيامه بواجبه بحفظ ما هو قابل للاندثار من الوقائع والحوادث[9].

لكن من الضروري الانتباه إلى أنه لا يمكن استرجاع الماضي على حاله عبر مذكرات صانعه، ليس لأن الذاكرة ناقصة فحسب، بل لما يحيط بالكتابة عن تجربة الذات من القيود والمعوّقات، إذ قد يغلب على حوادثها الرأي الشخصي، وربما تكون محكومة باعتبارات معينة تدفع الكاتب إلى حجب بعض الحوادث أو المواقف[10]، وتخضع للأنا وأهوائها التي تجعل «الصدق فيها محاولة لا أمرًا متحققًا»[11].

تبقى المذكرات واليوميات أداة تأريخ مهمة لا يمكن تجاهلها، لا بسبب الاعتراف بها جزءًا من المصادر التاريخية وتصاعد أهميتها للمؤرخين ودارسي التاريخ الاجتماعي فحسب، بل لأهميتها في دراسة التاريخ الفلسطيني المعاصر الذي يعاني فقدان قسم كبير من مصادر التأريخ الأخرى بحكم وقوع فلسطين تحت الاحتلال منذ بدايات القرن الماضي.

---

(7) طريف الخالدي، «ملاحظات تمهيدية،» في: دراسات في التاريخ الاجتماعي لبلاد الشام، ص 12.

(8) أوراق عائلية، ص 145.

(9) خيرية قاسمية، «المذكرات والسير الذاتية مصدرًا لتاريخ فلسطين في القرن العشرين،» في: دراسات في التاريخ الاجتماعي لبلاد الشام، ص 47.

(10) يرى سميح حمودة أن بعض كتّاب المذكرات لجأ إلى تبيض تاريخه من الشوائب، وتقديمه ناصعًا خلافًا للحقيقة، ويدلل على ذلك بشواهد من مذكرات الفلسطينيين. انظر: حمودة، ص 60-65.

(11) المصدر نفسه، ص 46.

ثانيًا: طبيعة المذكرات واليوميات الفلسطينية ومحتوياتها

أصدر فلسطينيون عاشوا في نهاية القرن التاسع عشر وعقودًا من القرن العشرين عددًا من المذكرات واليوميات التي كانت الحرب العالمية الأولى موضوعها الرئيس، أو أحد موضوعاتها. تخلص مراجعة خمسة عشر عنوانًا لمذكرات نخبة من الفلسطينيين الذين عاشوا حوادث الحرب العالمية الأولى واكتووا بنارها، إضافة إلى ثلاثة نصوص ليوميات كتبت إبان الحرب إلى جملة من الملاحظات الأولية، منها: شكلت المذكرات واليوميات الفلسطينية مرجعًا مهمًا للتعرف إلى واقع فلسطين في أثناء الحرب العالمية الأولى، خصوصًا أنها تسلط الضوء على مساحات بكر في روايات الحرب، لا تقتصر على تفصيلات الحرب الكثيرة ومجرياتها مثل المعارك ومآلاتها والمواقف السياسية ونتائجها، بل تغوص - خصوصًا اليوميات - في حياة السكان اليومية، وتبيِّن واقعهم الاجتماعي وأحوالهم الاقتصادية والثقافية وترصد عواطفهم وأحاسيسهم.

تصور هذه المذكرات واليوميات ما مرت به المدن والبلدات والقرى الفلسطينية خلال الحرب، وتقدّر تفصيلات مساهمة السكان الفلسطينيين في الجهد الحربي، سواءً في مرحلة الاستعدادات العثمانية قبيل الحرب أم إبان القتال على الجبهات المختلفة. كما تشرح موقف سكان فلسطين من السياسات العثمانية في تلك الفترة، ونتائج تلك السياسات على حياتهم من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والسياسية، وتقدم بعض المساهمات التحليلية لمواقف الأطراف المتصارعة في الحرب، سواءً من حيث الدافع إلى دخول الحرب أم أسباب اختيار التحالفات، مع التركيز على الموقف العثماني.

ترفد هذه المذكرات واليوميات الباحثين بمواد جديدة تساعد في تجاوز الرواية الرسمية للحرب، سواءً تلك الصادرة عن تركيا، السلطة الرسمية في فلسطين في حينه، أم بريطانيا التي انتزعت فلسطين من تركيا وفرضت سلطتها العسكرية عليها، والتي غالبًا ما تقدم قراءة سياسية وعسكرية للحوادث مع استخدام تقنية الحذف والإضافة بما يخدم تبيض صفحة الدولة من أي أخطاء، فنجد أنفسنا أمام تصور للواقع تشوبه الثغرات.

تساهم هذه المذكرات واليوميات في تعزيز فرصة إعادة قراءة التاريخ العثماني في فلسطين بعيدًا عن وطأة التوجهات القومية للمؤرخين العرب والفلسطينيين الذين حمَّلوا العثمانيين المسؤولية كاملة عما آلت إليه الأمور، وتمنح الدارسين وقودًا إضافيًا لجدل أكاديمي دائر في شأن الحرب وحوادثها ومآلاتها وتداعياتها، لم ينتهِ حتى بعد مئة عام على الحرب.

لكنَّ الرواية التي قدمتها المذكرات واليوميات الفلسطينية عانت إشكاليات عدة، منها قلة اهتمامها بالحرب عنوانًا رئيسًا. فما أولت أغلبية من كتبوا مذكراتهم الحرب انتباهًا كبيرًا لأنها لم تشكل مرحلة مركزية في حياتهم، إذ كانوا حينها صغار السن، كما هو حال بولس فرح[12] وأحمد الشقيري[13] وحنا نقارة[14] وخليل البديري[15] ونجاتي صدقي[16] وغيرهم، أو كانوا موظفين أو جنودًا وضباطًا صغارًا على هامش الحدث، لا يعرفون مما يدور في أروقة الحكم وساحات الدبلوماسية وميادين القتال إلا القليل الذي تجود به بعض الصحف أو سمعوه على ألسنة الجنود والموظفين، وليس لهم دور في صناعة القرار مثل عمر الصالح البرغوثي[17]

(12) بولس فرح (1910-1993): ولد في الناصرة، أحد قادة عصبة التحرر الوطني، عارض قرار التقسيم، مخالفًا قرار العصبة الرسمي، اعتقل في عام 1956، له عدد من المؤلفات.

(13) أحمد أسعد الشقيري (1908-1980): ولد في لبنان، انتقل للعيش في طولكرم ثم عكا إبان الحرب العالمية الأولى. تلقى تعليمه في عكا والقدس والجامعة الأميركية في بيروت، عمل في الصحافة والمحاماة، كما عمل في جامعة الدول العربية، وسفيرًا للسعودية في الأمم المتحدة. ساهم في تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية وكان أول رئيس لها، استقال منها في أعقاب حرب 1967.

(14) حنا ذيب نقارة (1912-1983): ولد في الرامة قرب عكا، درس الحقوق، وعمل محاميًا إبان الانتداب، سجن لدى محاولته العودة إلى حيفا، نشط في الدفاع عن حقوق الفلسطينيين في الداخل.

(15) خليل البديري (1906-1983): ولد في القدس. درس الطب في ألمانيا ومصر وجنيف، شارك في الحركة الوطنية الفلسطينية وسجن إبان الانتداب البريطاني.

(16) نجاتي صدقي (1905-1979): ولد في القدس ودرس في مدارسها، شارك في الحركة الوطنية الفلسطينية إبان الانتداب البريطاني وسجن حينها، ثم فر إلى لبنان وفرنسا وموسكو.

(17) عمر الصالح البرغوثي (1894-1965): ولد في قرية دير غسانة قضاء رام الله. تلقى تعليمه في القدس وبيروت، عمل محاضرًا في معهد الحقوق في القدس، عين في مجلس الأعيان الأردني وانتخب في البرلمان في النصف الأول من خمسينيات القرن الماضي، كما شغل منصب وزير التربية والتعليم.

وخليل السكاكيني[18] وإحسان الترجمان[19] وواصف جوهرية[20] وحسين الخالدي[21] وغيرهم، أو كانوا خارج فلسطين إبان الحرب مثل عارف العارف[22] ومحمد عزة دروزة[23] وعزت طنوس[24] وخليل طوطح[25] وغيرهم[26].

حين وصل هذا النوع من الكتابة إلى فلسطين، لم تتنبه النخب الفلسطينية -

---

(18) خليل السكاكيني (1878-1953): ولد في القدس ودرس في مدارسها، سجنه العثمانيون في أثناء الحرب العالمية الأولى. عمل في الإذاعة الفلسطينية، واشتهر بمساهماته في التعليم في فلسطين، خصوصًا إبان الانتداب، كما كان له دور في الحياة الأدبية والفكرية الفلسطينية والعربية، توفي في القاهرة.

(19) إحسان الترجمان (1893-1917): ولد في القدس لعائلة تجارية ميسورة ودرس في مدارسها، التحق بالجيش العثماني في عام 1914 وخدم في الظاهرية ثم في نابلس والقدس، في مقر أركان القيادة العثمانية. قتل برصاصة أطلقها عليه ضابط في الجيش التركي في لحظات الانسحاب من المدينة.

(20) واصف جوهرية (1897-1973): ولد في القدس ودرس في مدارسها، نبغ في الموسيقى منذ طفولته، اعتاد المشاركة في أحياء حفلات موسيقية يحضرها قادة الجيش العثماني وأعيان القدس إبان الحرب العالمية الأولى، كما مارس هوايته الموسيقية في القدس إبان فترة الانتداب البريطاني. توفي في بيروت.

(21) حسين الخالدي (1894-1962): ولد في القدس ودرس في مدارسها. درس الطب في بيروت، والتحق بالجيش العثماني فشارك في معارك سيناء وغزة وجرح، زاول مهنة الطب في حياته، وكان من الفاعلين في الحركة الوطنية الفلسطينية إبان الانتداب البريطاني، شغل أكثر من منصب وزاري في الأردن.

(22) عارف العارف (1892-1973): ولد في القدس ودرس في القدس واسطنبول، التحق بالجيش العثماني، أسر على يد الروس، عاد إلى القدس واشتغل في الصحافة، تنقل في أكثر من وظيفة رسمية إبان الانتداب، كما عمل في الحكومة الأردنية، له عدد من المؤلفات. توفي في رام الله.

(23) محمد عزة دروزة (1887-1984): ولد في نابلس، عمل موظفًا في دائرة خدمات التلغراف والبريد إبان الحكم العثماني. مارس نشاطًا معارضًا للحكم العثماني، وله مساهماته في الحركة الوطنية الفلسطينية إبان الانتداب البريطاني، وسجن لمدة عام، له عدد من المؤلفات.

(24) عزت طنوس (1896-1972): ولد في نابلس، ودرس الطب في بيروت إبان الحرب العالمية الأولى. مارس الطب في القدس، ساهم في الحركة الوطنية الفلسطينية إبان الانتداب البريطاني، كما شارك في تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية.

(25) خليل طوطح (1886-1955): ولد في رام الله، وتعلم في رام الله والقدس ولبنان والولايات المتحدة. انضم إلى الجيش الأميركي في الحرب العالمية الأولى. درَّس وأدار مدرسة الفرندز في رام الله، توفي في الولايات المتحدة.

(26) أود الإشارة إلى أنني اطلعت على بعض المقالات التي تتناول يوميات جنود عثمانيين شاركوا في الحرب في فلسطين مثل يوميات الجندي سامي يانجين: انظر: Zachary J. Foster, «The Diary of Sami Yengin, 1917-18: The End of Ottoman Rule in Syria,» *Jerusalem Quarterly*: no. 56 (Winter 2013- Spring 2014), pp. 78-94.

القليلة نسبيًا - حينها إلى أهمية تدوين الحوادث يومًا بيوم، أو كتابة المذكرات. وساهم في ذلك أيضًا الابتعاد الزمني عن الحرب العالمية الأولى، واندثار النخبة الفلسطينية التي عاشت هذه الحرب وكانت مقربة إلى مراكز صنع القرار، حيث كان ممكنًا أن تترك أثرًا مكتوبًا على درجة عالية من الأهمية مثل الشيخ أسعد الشقيري[27] وغيره. كما كان انتماء كتّاب المذكرات واليوميات إلى نخبة المدن عاملًا رئيسًا في إظهارها قادرة على تسجيل واقع المدن الفلسطينية وحدها، وعاجزة عن منحنا صورة أوضح عن حال الريف الفلسطيني الذي يشكل في حينه أغلبية سكان فلسطين.

أثر ما أظهرته هذه النخبة من مشاعر ومواقف متباينة تجاه العثمانيين وأعدائهم في خلق التباس في فهم المرحلة، إذ بدت متقلبة بين الحماسة للحرب والخشية منها والتعاطف مع العثمانيين والرغبة في التخلص منهم ومقاومة البريطانيين والترحيب بهم. لا يظهر هذا التباين من كاتب إلى آخر فحسب، كما في نصي إحسان الترجمان وإحسان النمر مثلًا، لكنه وارد في مذكرات السكاكيني[28].

مرت فلسطين بحوادث كبرى لاحقة، رأى فيها الفلسطينيون منعطفات تاريخية أشد تأثيرًا في تاريخ فلسطين المعاصر ومستقبلها من الحرب العالمية الأولى وحوادثها، مثل نكبة 1948 التي لم يكن من تداعياتها ضياع أرشيف ضخم من الأوراق العائلية التي تضم مذكرات ويوميات فلسطينية فحسب، وإنما تحولها عنوانًا أساسًا في النشاط البحثي والفكري الفلسطيني، فكان التركيز على إظهار حوادث سقوط فلسطين بيد القوات الصهيونية بمقدماتها وتفصيلاتها وتداعياتها ماثلًا أمام كل من عاش تلك المرحلة وكتب مذكراته بعدها، حتى لو كان حاضرًا وفاعلًا في مرحلة الحرب العالمية الأولى.

---

(27) أسعد الشقيري (1860-1940): ولد في عكا، درس الشريعة في الأزهر، كان مقربًا إلى السلطة الحاكمة في اسطنبول، انتخب في البرلمان العثماني، وكان مفتيًا للجيش العثماني الرابع. سجنته القوات البريطانية 14 شهرًا. عُرف بمعارضته للحاج أمين الحسيني إبان مرحلة الانتداب.

(28) من المؤرخين الذين تحدثوا عن تباين في المشاعر والمواقف بين سكان فلسطين في تلك المرحلة محسن صالح، وهنالك مع نحا منحى مختلفًا فتحدث عن موقف موحد مؤيد للعثمانيين، مثل صالح عبد الجواد.

أخيرًا تبدو قراءة اليوميات والمذكرات، بإسقاطات اليوم وما تحمله من هويات قُطرية وهموم محلية، مضللة، إذ جاءت الحوادث التي روتها في سياقات هوياتية مختلفة تمامًا، فنحن أقرب إلى أن نكون أمام عثمانيين غاضبين من سلوك دولتهم تجاه مواطنيها، أو مواطنين تأثروا بالفكر القومي وإنجازاته في أوروبا، لكنهم لم يحملوا مشروعًا جديدًا يتطلب انسلاخًا عن الدولة الأم وتحالفًا مع دولة أوروبية قوية.

خضعت المذكرات واليوميات الفلسطينية لجملة تأثيرات أدت دورًا في تشكيلها على النحو الذي صدرت فيه، فكان للعامل الأيديولوجي القومي[29] أثره الواضح في تناول بعض القضايا، خصوصًا الموقف من الدولة العثمانية وسلوكها إبان الحرب وردات فعل العرب عليها، حيث وصفت قسوة الدولة العثمانية في التعامل مع معارضيها العرب أو في تطبيق سياساتها الاقتصادية والحربية كما جاء في مذكرات دروزة[30] وطنوس[31] بالظلم والإرهاب، وتصرفها خارج نطاق القانون والدستور، انطلاقًا من رغبة انتقامية غرائزية في نفوس قادتها.

في المقابل، تبدو الصورة التي رسمها إحسان النمر في مذكراته[32] متخففة من

(29) انظر تقديم عادل مناع ليوميات خليل السكاكيني، في: يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني: النهضة الأرثوذكسية، الحرب العظمى، النفي إلى دمشق (1914-1918)، تحرير أكرم مسلم (رام الله: مركز خليل السكاكيني الثقافي؛ مؤسسة الدراسات المقدسية، 2004)، ص 11-12.

(30) محمد عزة دروزة، خمسة وتسعون عامًا في الحياة: مذكرات وتسجيلات، الجزء الأول، تحقيق علي الجرباوي وحسام الشخشير (القدس: الملتقى الفكري العربي، 1993)، ص 218-286. وانظر أيضًا: مذكرات محمد عزة دروزة: سجل حافل بمسيرة الحركة العربية والقضية الفلسطينية خلال قرن من الزمن 1305هـ-1404هـ 1887م-1984م (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993)، مج 1.

(31) عزت طنوس، الفلسطينيون: ماضٍ مجيد ومستقبل باهر (بيروت: مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، 1982).

(32) إحسان النمر، تاريخ جبل نابلس والبلقاء: عهد تطبيق النظم الحديثة، الجزء الثالث (نابلس: جمعية مطبعة عمال المطابع الحديثة، 1975). لا بد من أن نشير هنا إلى ملاحظتين مهمتين: أولهما أن كتاب إحسان النمر عن تاريخ جبل نابلس والبلقاء ليس كتاب مذكرات، وإنما كتاب تاريخ اعتمد في مجمله على وثائق عائلية ومقابلات شفوية وسجلات المحكمة الشرعية ووثائق رسمية عثمانية، لكنَّه تناول حوادث الحرب العالمية الأولى في فلسطين باعتباره شاهدًا عليها، يروي تفصيلات شارك في صنعها أو رآها أو سمع عنها في حينه. وثانيهما أن إحسان النمر، خلافًا لدروزة وطنوس، عاش في أثناء الحرب في نابلس وخبر ما جرى فيها. =

وطأة الأيديولوجيا وضغط التوجه القومي[33]. فهي تعترف بتنكر الأتراك للمطالب العربية، وبقسوة بعض الإجراءات الحكومية، لكنها ترى أيضًا أن ضرورات المعركة دفعت إلى صرامة حكومية تجاه المعارضين، خصوصًا أولئك الذين رفضوا تنفيذ قرارات الدولة العثمانية أو اتصلوا بالحكومات المعادية لها.

كان للتجربة الشخصية التي خبرها المؤلفون أثرها في توصيفهم الواقع وتقويمهم الحوادث. فعلى الرغم من التقاء نجيب نصار[34] وخليل السكاكيني في الكثير من التوجهات الفكرية والمواقف السياسية[35]، إلا أنهما دوّنا أحوالًا مختلفة لما لقياه من تعامل للدولة العثمانية إبان سجنهما. فشهادة نصار مغايرة للسكاكيني، إذ أشاد الأول بالقضاء العثماني، معتبرًا إياه أقرب إلى الإنصاف والنزاهة، وأقر بتعامل السجانين الأتراك بلطف مع السجناء[36]، في حين أسهب السكاكيني في الحديث عن أحواله الصعبة وخوفه المستمر على مصيره.

هناك عامل الإحباط والبحث عن الخلاص الذي مثلته يوميات إحسان الترجمان، ذلك الجندي المقدسي الساذج الذي قضى أعوام الحرب وهو يلعب بشاربه، وكان أكبر أهدافه - على حد قول سليم تماري - النجاة بجلده من ويلات الحرب والزواج من عشيقته ثريا[37].

في إطار التأثيرات الجغرافية والبيئة والاجتماعية والثقافية، كانت مذكرات

= إحسان آغا النمر (1905-1984): ولد في نابلس لأسرة ثرية، درس في كلية النجاح الوطنية في نابلس، شارك في مقاومة الانتداب البريطاني، وله دور في العمل المؤسساتي في فلسطين. ترك عددًا من المؤلفات.

(33) على الرغم من توجهاته الوطنية وتطلعاته العروبية التي أشار إليها بشارة دوماني.

(34) نجيب نصار (1865-1947): ولد في لبنان، سجنه العثمانيون في الحرب العالمية الأولى. عمل في مجال الزراعة والصيدلة والصحافة، مؤسسة مجلة الكرمل في حيفا في عام 1908، مارس النشاط السياسي إبان الانتداب البريطاني، له عدد من المؤلفات. توفي في الناصرة.

(35) كانا مثقفين عثمانيين حداثيين، وعروبيين نهضويين ووطنيين متحمسين.

(36) نجيب نصار، رواية مفلح الغساني: أو صفحة من صفحات الحرب العالمية (الناصرة: دار الصوت، 1981)، ص 197-198.

(37) سليم تماري، عام الجراد: الحرب العظمى ومحو الماضي العثماني من فلسطين، يوميات جندي مقدسي عثماني 1915-1916 (بيروت: مؤسسة الدراسات المقدسية؛ مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2008)، ص 14-16.

أهل القدس ويومياتهم أكثر نقدًا لسياسات العثمانيين بفعل تأثر كاتبيها بأجواء الحداثة الغربية التي غزت المدينة وخلقت ثقافة متعاطفة مع الرؤية الغربية والحداثة الأوروبية، خصوصًا داخل الأقلية المسيحية، في مقابل المذكرات النابلسية التي اتخذت موقفًا متعاطفًا مع العثمانيين، إذ كانت المدينة أكثر ارتباطًا بما تمثله الدولة العثمانية من نظم اجتماعية ورؤية دينية فكرية وموقف سياسي، خصوصًا أنها أكثر ارتباطًا بالشام ومدنها الرئيسة، مثل دمشق.

ثالثًا: حال فلسطين إبان الحرب العالمية الأولى كما وردت في مذكرات الفلسطينيين

تصور لنا يوميات الفلسطينيين ومذكراتهم حجم التغيرات التي أصابت المجتمع الفلسطيني على مدار سنوات الحرب على الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية المختلفة، وتكشف جانبًا من تفصيلات الحرب وأهوالها، وموقف النخب الفلسطينية السياسية والفكرية منها، وطبيعة المشاركة الفلسطينية فيها. ونظرًا إلى الاهتمام الكبير الذي أولته يوميات الفلسطينيين ومذكراتهم مدينتي القدس ونابلس، ارتأيت أن اتخذهما أنموذجين لما حدث في الحرب من وجهة نظر الفلسطينيين، على أن أشير إلى مدن وتجمعات فلسطينية أخرى ذكرتها يوميات ومذكرات فلسطينية أخرى، لمنح القارئ صورة أوضح لما كان عليه الحال حينها.

1 - القدس إبان الحرب العالمية الأولى

تحظى القدس باهتمام كبير في الأدبيات التي عالجت فلسطين في الحرب العالمية الأولى. فلا تُذكر فلسطين إبان الحرب العظمى إلا وتذكر القدس وأحوالها ولحظة سقوطها بيد البريطانيين وخطاب الجنرال إدموند أللنبي الشهير عند باب الخليل. وكتب أغلب اليوميات والمذكرات الفلسطينية عن الحرب مقدسيون أو أناس عاشوا في القدس، رووا ما جرى فيها خلال تلك الفترة.

يعود هذا الاهتمام إلى أسباب كثيرة، منها مكانة المدينة الدينية ورمزيتها في الصراع الدولي في ذلك الوقت، والاهتمام الفلسطيني الأكاديمي بها وبتاريخها،

والإرث الثقافي الذي خلفه المقدسيون، خصوصًا ما كان مرتبطًا بالفترة العثمانية المتأخرة أو المرحلة الانتدابية.

أ- الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في القدس إبان الحرب

شعر المقدسيون بثقل الأوضاع الاقتصادية منذ الأيام الأولى للحرب، إذ تحمّلوا جزءًا من أعبائها وتكاليفها، وطالتهم الإجراءات الحكومية العسكرية والاقتصادية والإدارية، وعانوا تداعيات هجرة الرعايا الأجانب الذين شكلوا قبل الحرب رافدًا اقتصاديًا مهمًا لهم، ثم هاجمهم الجراد فقضى على محاصيلهم الزراعية.

خزن المقدسيون المواد الغذائية[38]، في حين اتخذت الحكومة تدابير إدارية واقتصادية طارئة[39]، فانتشرت مظاهر التقشف والبساطة في المعيشة واللبس والأكل[40]، ونفدت بعض البضائع من الأسواق كالدخان والسكر والأرز والكاز[41] والخبز والقمح[42] والخضار[43]، وارتفعت الأسعار[44].

(38) القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية: الكتاب الأول من مذكرات الموسيقي واصف جوهرية، 1904-1917، تحرير وتقديم سليم تماري وعصام نصار، ط 2 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية؛ القدس: مؤسسة الدراسات المقدسية، 2003)، ص 171. ويشير إحسان الترجمان في يومياته أن الأغنياء خزنوا في بيوتهم قمحًا يكفي لسنة كاملة، انظر: تماري، ص 287.

(39) يشير أكثر من مصدر في اليوميات والمذكرات إلى قيام المؤسسات الرسمية كالبلدية بمحاولة تنظيم عمليات البيع والشراء في الأسواق والإشراف على توزيع المواد الغذائية على السكان وفقًا لمعايير محددة تحدد كمية للمستهلك، انظر: تماري، ص 287 و319.

(40) يوميات خليل السكاكيني، ص 98.

(41) تماري، ص 130، وانظر أيضًا: Sami Hadawi, «Sodomy, Locusts, and Cholera: A Jerusalem Witness,» *Jerusalem Quarterly*, no. 53 (Winter 2013), p. 20.

(42) تماري، ص 286. ويرد في سيرة نجاتي صدقي ما يشير إلى ذلك أيضًا. انظر: إبراهيم محمد أبو هشهش، نجاتي صدقي: حياته وأدبه، 1905-1979 (القدس: الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية، 1990)، ص 15.

(43) تماري، ص 226.

(44) أعطى إحسان الترجمان أمثلة على ارتفاع أسعار البضائع أواخر عام 1915، حيث أصبح رطل الطحين يساوي 8 غروش والسكر رطله بـ 60 غرشًا والأرز مجيدي ونصف، انظر: المصدر نفسه، ص 283.

يصف السكاكيني في يومياته أوضاع المدينة بعد شهر ونصف من اندلاع الحرب بالقول: «لم يتجاوز مصروفنا اليومي القرشين أو الثلاثة، فقد كانت تمر علينا أيام عدة لا نأكل فيها غير الخبز والعنب أو السلاطة، أما اللحمة فلم تدخل دارنا»[45]. ويعلق في أكثر من موضع على تداعيات الالتزامات التي فرضتها الحكومة على السكان، فيقول: «لا تزال الحكومة تلح في تكليف الأهالي بتدبير لوازم العسكر بحيث جاوز الحد، وأخذ الناس يضجون من ثقل هذه التكاليف، ويخشى أن لا يبقى شيء بين أيدي الناس، نفد الحطب فارتأوا أن يقطعوا أشجار سعد وسعيد، ومحلات وأخرى، يظهر أن الحكومة في مطاليبها أنها لا تعرف حالة البلاد، أو أنها لا تريد أن تفعل ذلك، ومع شدة إلحاحها لم تجمع إلا نحو العُشر من جملة مطاليبها التي كلفت بها الناس»[46].

أما حسين الخالدي الذي عايش تلك الفترة، فيقول: «عرفنا بعض الاشخاص الفلسطينيين من الأثرياء والوجهاء ممن كانوا يملكون إلى وقت قصير مئات الألوف من الجنيهات، يقفون في ذلك الحين على أبواب مطاحن الدقيق ساعات طويلة للحصول على بضعة أرطال من الدقيق لإطعام عائلاتهم، كما عرفنا سيدات مسنات من عائلات معروفة في القدس يقفن في زوايا الطرق والأسواق وعلى وجوههن البرقع يعرضن للبيع بقايا ما يملكن من ثياب ومتاع وأوانٍ نحاسية مقابل دريهمات معدودة يشترين بها بعض حفنات الدقيق لسد رمق الجوع»[47].

زاد غزو الجراد من حدة الأزمة الاقتصادية[48]، إذ أصيبت المحاصيل الزراعية بضرر بالغ، وتكبد المقدسيون تكاليف كبيرة في مواجهته[49]، وعلى الرغم من الجهد الحكومي المضني، وصل الجراد إلى كل مكان في المدينة وعاث فيها

(45) يوميات خليل السكاكيني، ص 97.

(46) المصدر نفسه، ص 110.

(47) مذكرات حسين الخالدي، من محفوظات مؤسسة الدراسات الفلسطينية (مخطوطة)، ص 50.

(48) هنالك اختلاف في تحقيب سنة وصول الجراد إلى فلسطين، إذ ذكر السكاكيني (يوميات خليل السكاكيني، ص 156) بأنه شاهد الجراد مارًا من الشمال إلى الجنوب في 22 آذار/ مارس 1915، في حين يرى واصف جوهرية بأنه شاهده في أواخر صيف 1914.

(49) عن تفصيلات غزو الجراد وتداعياته، انظر: تماري، ص 204-230. انظر أيضًا: Hadawi, pp. 19-20.

فسادًا[50]. ومع استمرار الحرب، انتشرت ظاهرة التسول[51]، واضطرت نساء إلى بيع أعراضهن لتلبية حاجات بيوتهن[52]، كما انتشرت ظاهرة المومسات في المدينة[53].

كان من مظاهر سوء الحال جوع الجنود وعوزهم، يستعطفون الأهالي لإطعامهم، ويجبرونهم أحيانًا على ذلك[54]. أشار السكاكيني إلى ذلك كاتبًا: «الجنود في حالة يرثى لها من رثاثة الثياب وغثاثة المأكل، ويقال إن كثيرين منهم يعترضون الناس في طريقهم، يطلبون إحسانهم ويطوفون على البيوت يطلبون أكلًا، وإذا قدم لهم طعام التهموه كأن لهم أيامًا بدون أكل، ويقال إن الذين يشتغلون في الطرق منهم لا يأكلون غير العدس بدون خبز، وإن كثيرين منهم يفرون من الجوع»[55].

ما زاد من صعوبة الحال هو انتشار الأمراض المعدية كالكوليرا والتيفوس والجدري وغيرها[56]، وذكر سامي هداوي أنه عدّ في أحد الأيام من شرفة منزله أكثر من 97 نعشًا محمولًا إلى المقبرة، ماتوا بسبب المرض[57].

---

(50) تماري، ص 131. هنالك بعض التفصيلات مشابهة عن الجراد وتأثيراته في حياة العامة ذكرها بولس فرح في مذكراته، حيث كان صغيرًا يعيش في بيت متواضع في مدينة الناصرة، انظر: بولس فرح، من العثمانية إلى الدولة العبرية، الصوت؛ 19 (الناصرة: جمعية لنشر الثقافة وتعميق الوعي الفلسطيني، 1985)، ص 21.

(51) عن قصص التسول انظر: تماري، ص 278.

(52) المصدر نفسه، ص 278.

(53) المصدر نفسه، ص 158 و190.

(54) يذكر سامي هداوي أنه في إحدى المرات، قام أحد الجنود بانتزاع رغيف الخبز من يده، فعاد إلى منزله خالي الوفاض باكيًا، انظر: Hadawi, p. 25.

(55) يوميات خليل السكاكيني، ص 159. من المهم هنا الانتباه إلى أن هذه الحالة انتشرت في معظم مدن فلسطين، فيذكر أحمد الشقيري في يومياته في عكا قصة عن إطعامه الجند الجوعى، انظر: أحمد الشقيري، أربعون عامًا في الحياة العربية والدولية: مذكرات أحمد الشقيري (بيروت: دار العودة، 1973)، ص 54-55. ويذكر بولس فرح قصصًا من هذا القبيل، انظر: فرح، ص 24.

(56) يثبت إحسان الترجمان في يومياته حدوث حالات وفاة في القدس بسبب الأمراض التي انتشرت بين الناس، ويرى أن الحكومة ضاعفت من جهدها من أجل مواجهة الأمراض المعدية، وكانت تنقل المرضى إلى المستشفيات، إلا أنها كانت تعاني نقصًا في الأطباء والممرضين والمعدات والأدوية اللازمة للعلاج. انظر: تماري، ص 131-132 و201-202.

(57) Hadawi. p. 22.

على الرغم من الحالة الاقتصادية السيئة التي وصلتها القدس، نقل إلينا المقدسيون مشاهد لحيوية المجتمع وتفاعله، بينت جهدًا حكوميًا وأهليًا لتحسين أوضاع المدينة بتأسيس جمعيات تُعنى بتقديم الخدمات إلى المدينة، مثل جمعية الهلال الأحمر التي أسست في عام 1915[58]، وتنفيذ البلدية عدد من الحملات والمشروعات مثل حملة النظافة في الأحياء ومشروعات توسيع الشوارع[59]، وفتح المدارس ومراقبة المؤسسات العامة ومعالجة الأمراض السارية[60].

تحدث المقدسيون أيضًا عن استمرار مظاهر الترفيه، فامتدت الحفلات الموسيقية حتى الصباح، شُربت فيها الخمور ورقصت فيها الغانيات وشارك فيها قادة الجيش وكبار الموظفين وبعض أعيان المدينة[61]، وأرخوا لبعض النشاط الرياضي الذي مارسه بعض شباب القدس في وقت الحرب[62].

ب- الأعمال الحربية في القدس

بدأ المقدسيون يتنبهون إلى أجواء الحرب حين وفد إلى مدينتهم عدد من الضباط العثمانيين في أوائل عام 1914، واستأجروا بيوتًا في أحيائها، وأقاموا علاقات اجتماعية حسنة مع أهاليها[63]. كما تأكد المقدسيون حينها أن دخول العثمانيين الحرب وشيك بفعل تصرفات بعض القناصل الأجانب[64].

---

(58) عن الجمعية وأعضائها ونشاطها، انظر: القدس العثمانية، ص 200.

(59) تماري، ص 174، 198 و202.

(60) يوميات خليل السكاكيني، ص 189.

(61) تزخر مذكرات واصف جوهرية بقصص من هذا القبيل، وكذا في يوميات إحسان الترجمان، وفي أوضاع أقل بذخًا يصف السكاكيني سهرات قضى فيها ليالي كثيرة مع ندمائه يشرب الخمر، خصوصًا في عام 1917.

(62) يذكر عاصم الخالدي في مذكراته أن قريبه فؤاد عبد الغني محي الدين كان يمارس رياضة ركوب الخيل في حي المصرارة إبان الحرب العالمية الأولى، للمزيد من التفصيلات عن الموضوع، انظر: عاصم الخالدي، ذكريات من باب السلسلة (رام الله: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2013)، ص 170. وفي السياق نفسه، يذكر محمد عزة دروزة أنه كان في وظيفة الاحتياط في طبريا في عام 1915 وزاره والده هناك، وكانا يذهبان للاستحمام في حمامات طبريا، وأن الناس كانوا يذهبون إليها بشكل اعتيادي. لمزيد من التفصيلات، انظر: دروزة، خمسة وتسعون عامًا، ص 250.

(63) القدس العثمانية، ص 160.

(64) يوميات خليل السكاكيني، ص 115.

يذكر واصف جوهرية أن الحكومة وزعت في نيسان/ أبريل 1914 مكاتيب مختومة على مخاتير المدن والقرى، لا تُفتح إلا بإذن الحكومة. وبعد شهرين أعلنت الحكومة مرسومًا بفتحها في المسجد الأقصى في يوم الجمعة[65]، وتبين أنها إعلان بدخول العثمانيين الحرب[66].

رافق ذلك إقالة رئيس البلدية المقدسي ووضع تركي مكانه، وإغلاق المؤسسات الأجنبية التابعة للدول المعادية وإخراج سفرائهم من البلاد وإغلاق البنوك، ووضع اليد على بعض المدارس، وإلغاء الامتيازات الأجنبية[67]، والاستيلاء على المستشفيات، وأخلاء الرهبان الكاثوليك أديرتهم الواقعة في خارج المدينة[68].

كما استولت الحكومة على أبنية يملكها مسيحيون، منها عمارة على جبل صهيون استعملها الجيش العثماني دائرة صحة وسكن للجيش، وعمارة المسكوبية[69] وعمارة نوتردام دي فرانس في مقابل باب الحديد استخدمت مقرًا للجيش[70]. وفرضت الحكومة مجموعة من القوانين الجديدة التي تتعلق بإدارة الحياة اليومية، منها أوقات تحديد ساعات العودة إلى البيوت[71]. وبدأ الناس يشاهدون الطوابير العسكرية بين الفينة والأخرى تسير في شوارع المدينة باتجاه مناطق القتال[72]، كما شاهدوا قادة الجيش في أثناء زياراتهم المتكررة إلى المدينة، أمثال أنور باشا وجمال باشا وغيرهما[73].

---

(65) يؤكد عزة دروزة في مذكراته أنه تم إعلان النفير العام في أوائل آب/ أغسطس 1914، انظر: دروزة، خمسة وتسعون عامًا، ص 219.

(66) القدس العثمانية، ص 161.

(67) المصدر نفسه، ص 163-165، انظر أيضًا: يوميات خليل السكاكيني، ص 108.

(68) يوميات خليل السكاكيني، ص 116.

(69) القدس العثمانية، ص 190-194.

(70) المصدر نفسه، ص 201.

(71) يوميات خليل السكاكيني، ص 117، لم تقتصر هذه الأوامر على المقدسيين وحدهم، فقد ذكر إحسان الترجمان أن الأوامر صدرت للعساكر بمنع مرورهم في الطرقات بعد المغرب، انظر: تماري، ص 203.

(72) استرعى منظر الطوابير العسكرية القادمة إلى القدس والخارجة منها انتباه كل من كتبوا يومياتهم، على سبيل المثال، انظر ما كتبه خليل طواطح عن الموضوع في: Thomas M. Ricks, *Turbulent Times in Palestine: The Diaries of Khalil Totah, 1886-1955* (Jerusalem: The Institute for Palestine Studies and Passia, 2009), p. 151.

(73) يورد خليل السكاكيني في يومياته بعضًا من تفصيلات زيارة جمال باشا إلى القدس وفاعليات الزيارة، انظر: يوميات خليل السكاكيني، ص 139-140، وانظر أيضًا: القدس العثمانية، ص 232.

تظهر اليوميات والمذكرات المقدسية أن بعض إجراءات الحكومة أصابت الناس بالهلع، كتكرار مشاهد الاستدعاءات إلى التحقيق[74]، والاعتقال بحجة مخالفة أوامر الحكومة[75]، وشنق بعض المواطنين[76] وتعليق أجسادهم أمام الناس بحجة الهرب من التجنيد[77]، ومراقبة الناس[78].

ج- سقوط القدس

تشير اليوميات والمذكرات إلى حدوث معارك طاحنة في القرى المحيطة بالقدس، خصوصًا النبي صموئيل[79]، وتذكر أن بعض قرى القدس أخليت من سكانها، مثل عين كارم التي وصل جل سكانها إلى مدينة القدس[80]. كما استقبلت المدينة فلسطينيين من مناطق أخرى مثل يافا[81].

قلما يشار إلى أعمال حربية حصلت داخل أسوار المدينة باستثناء حوادث متفرقة، فيذكر السكاكيني سقوط أول قنبلة قرب منزل على أفندي جار الله، وقنابل أخرى في اليوم نفسه على ذات المحل[82]، ومقتل مقدسيَّيْن بفعل المعركة الجوية[83]، ووصول عدد من جرحى المعارك والقصف إلى مستشفيات المدينة[84].

سيطر جو من الهلع على المدينة قبيل سقوطها، وصفه جوهرية بالآتي:

---

(74) يوميات خليل السكاكيني، ص 135 و139.

(75) تماري، ص 127.

(76) يوميات خليل السكاكيني، ص 122.

(77) القدس العثمانية، ص 163. ولا بد من الإشارة هنا إلى استفراد عزت طنوس برواية إعدام 12 وطنيًا في القدس دفعة واحدة، انظر: طنوس، ص 26. أما بخصوص الفرار فهنالك ذكر في أكثر من يومية من يوميات الفلسطينيين بأن بعض المكلفين كان يفر، على سبيل المثال، انظر: Ricks, pp. 80 and 153.

(78) يوميات خليل السكاكيني، ص 159.

(79) القدس العثمانية، ص 253.

(80) يوميات خليل السكاكيني، ص 188.

(81) المصدر نفسه، ص 123.

(82) المصدر نفسه، ص 179.

(83) المصدر نفسه، ص 183.

(84) المصدر نفسه، ص 175.

«كانت ليلة مخيفة بالقدس وبدأ انسحاب الجيش التركي والألماني ليلًا وكانت الجنود التركية تنهب ما استطاعت مما تجده بين أيديها، وقد هجم بعضهم على البيوت بصورة فظيعة والأهالي يقدمون الطعام ليتخلصوا من شرهم وقد أطعمنا جملة من الجنود التركية، اشتدت أصوات ضرب المدافع على القدس وقراها وكنا نستمع إلى أصوات المدافع من باب الواد وكانت مدافع بريطانيا ولكن من كان يعلم أن هذه الليلة هي الليلة الأخيرة للأتراك؟ بقينا سهرانين ولم يجسر أحدًا على فتح الأبواب أو النوافذ وزادت الحالة سوء لعند فجر السبت الواقع 8 كانون الأول 1917»[85].

كان أمام العثمانيين خياران لا ثالث لهما: تسليم المدينة أو إخلاء السكان منها والدفاع عنها[86]. كان رأي العثمانيين الدفاع عن المدينة خلافًا لرأي حلفائهم الألمان، ويبدو أن الأمر حُسم أخيرًا لمصلحة تسليم المدينة[87].

بحسب جوهرية، عُقد اجتماع تاريخي في ليلة 8-9 كانون الأول/ ديسمبر 1917 في عمارة السان جورج البريطانية، ضم كبار موظفي الدولة وفي مقدمهم متصرف القدس عزت بيك مع أعيان المدينة ووجهائها من الطوائف المختلفة، حيث أصدر المتصرف قرارًا بإعادة تعيين حسين أفندي الحسيني رئيسًا للبلدية، وتسليمه تفويضًا رسميًا لتسليم المدينة للبريطانيين. ونص التفويض على الآتي: «نظرًا إلى شدة حصار المدينة وما يلقاه هذا البلد الأمين من مدافعكم الثقيلة، وخوفًا من تأثير هذه القنابل الفتاكة على الأماكن المقدسة، نضطر مرغمين على تسليمكم البلد بواسطة حسين بك الحسيني رئيس بلدية القدس آملين أن تحافظوا

---

(85) القدس العثمانية، ص 254.

(86) كان إخلاء المدن الفلسطينية من سكانها مع اقتراب العدو منها أو نتيجة شدة القصف عليها واحدة من مشاهد الحرب المؤلمة، وتعد غزة من النماذج القاسية التي تم فيها إخلاء السكان من أحيائها بأمر من متصرف القدس لتحويلها مركزًا حربيًا. استولى الجيش على ممتلكاتهم وهدمت بيوتهم ولم يبق فيها حجر على حجر. للمزيد من التفصيلات عن هذا الموضوع، انظر: عثمان مصطفى الطباع، **إتحاف الأعزة في تاريخ غزة**، تحقيق ودراسة عبد اللطيف زكي أبو هاشم، 4 مج (غزة: دار اليازجي، 1999)، مج 1، ص 313-314.

(87) عمر الصالح البرغوثي، **المراحل** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2001)، ص 199-200. لا بد من الإشارة هنا إلى أن على الرغم من الانتقادات الشديدة التي وجهتها المذكرات واليوميات الفلسطينية لقرار العثمانيين الدخول في الحرب، كما أوضح ذلك السكاكيني والترجمان، فإنها أقرت بحكمة قرار الانسحاب من المدينة كما عند حسين الخالدي وعزت طنوس وغيرهما.

على القدس كما حافظنا عليها مدة تقرب من الخمس ماية سنة». وسلم المتصرف عربته الخاصة وسائقها ومحافظ البوليس القومسير إسحاق العسلي لخدمة حسين بيك لإجراء تسليم المدينة عند الصباح، وشرعت قوة الجيش وباقي الموظفين الأتراك في الدوائر الرسمية المختلفة بالانسحاب ليلًا سالكين طريق القدس - الشيخ جراح - نابلس[88].

2- مدينة نابلس

تبوّأت مدينة نابلس مكانة اقتصادية واجتماعية مرموقة بين المدن الفلسطينية في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين[89]. تظهر مذكرات إحسان النمر عن نابلس إبان الحرب العالمية الأولى ولاءها للحكم المركزي في اسطنبول، وسبب ذلك في الأساس طبيعة المدينة واشتهارها بالتجارة وببعض الصناعات، وبارتباطها بعلاقات تاريخية مع مدن الشام والسلطة المركزية فيها، وكثرة علماء الشريعة واتباع الطرق الصوفية فيها، وهؤلاء مناصرون في الأغلب للدولة وسياساتها. كما تتميز نابلس بأنها مدينة متجانسة سكانيًا بأغلبية مسلمة سنية، وأقلية صغيرة من المسيحيين والسمرة، لذا لم تكن محط اهتمام الإرساليات التبشيرية التي ساهم نشاطها في تعزيز الروح القومية والنزعات المعارضة للدولة العثمانية.

استقبلت نابلس إعلان النفير العام بأجواء احتفالية، فجابت التظاهرات شوارعها طوال اليوم، وأمل السكان في إمكان استعادة الدولة العثمانية هيبتها وأراضيها في مصر وطرابلس وولايات المغرب.

يصف النمر هذه الأجواء قائلًا: «أعلن الجهاد الإسلامي بحماس عظيم في نابلس وقد قاموا بمظاهرات حماسية بالغة، فأتوا بجمل كبير إلى قصر آل النمر الكبير ووضعوا عليه السجاد الفاخر وقد زركشوا رأسه ورقبته وأصبح كجمل المحمل، وقد اعتلاه شيخ الشباب سليم قندح المصري وبيده السيف فكان يبدأ مديحًا ودعاءً إسلاميًا والجميع يردون عليه»[90].

---

(88) القدس العثمانية، ص 256.

(89) عن مكانة مدينة نابلس، انظر: بشارة دوماني، إعادة اكتشاف فلسطين: أهالي جبل نابلس 1700-1900، ترجمة حسني زينة، سلسلة المدن الفلسطينية؛ 3 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1998).

(90) النمر، ص 132.

بدأ التسجيل للجندية في اليوم التالي[91]، وكان في نابلس مركزان للتجنيد، واحد لأهل المدينة وقراها وآخر لقرى قضاء جماعين[92]. وأخذت طوابير العسكر تخرج من نابلس إلى القدس ومناطق أخرى تباعًا[93].

عانت نابلس إبان الحرب الغلاء وقلة الغذاء ونقص الحاجيات، كالكاز والقمح والأرز[94]، وزاد من الأمر سوءًا عجز الحكومة عن تنظيم التموين وانتشار السوق السوداء[95].

واجه الناس بعض المصاعب الإضافية، خصوصًا التجار الذين فرض عليهم التعامل بأوراق نقدية فقدت قيمتها، وحاول الجيش فرض ذلك عليهم بالقوة[96]، كما تفاقمت الأوضاع مع زحف الجراد على المدينة[97]. لكن بعض الامتيازات التي منحتها الحكومة للموظفين مكّنهم من مواجهة الصعاب الاقتصادية، وهذا ما دفع عزة دروزة إلى القول عن أخيه في نابلس الذي كان موظفًا في البريد في جنين في عام 1917: «ما يأخذه أخي في نابلس يكفي جميع الأسرة»[98]. وتفشت الأمراض المعدية في نابلس في أثناء الحرب، مثل التيفوس والكوليرا والملاريا. وبحسب النمر، «كانت هذه الأمراض تحصد الناس حصدًا»[99]. مع ذلك بدت نابلس أفضل حالًا من مدن فلسطينية أخرى، فكانت محط أنظار المهاجرين بعيدًا عن ساحات القتال، فوصلوها من غزة ويافا والرملة، واستقبلهم أهل المدينة بحفاوة، فعاشوا في بيوت عامرة. قام هؤلاء باستثمار ما أخذوه معهم من مال في

(91) النمر، ص 132.

(92) مذكرات محمد عزة دروزة، ص 217.

(93) كثيرًا ما يذكر خليل السكاكيني في يومياته قدوم طوابير عسكرية إلى القدس قادمة من نابلس. على سبيل المثال، انظر: يوميات خليل السكاكيني، ص 119.

(94) لم يقتصر ذلك على القدس ونابلس إنما عم مناطق أخرى من فلسطين. فعلى سبيل المثال، يتحدث أحمد الشقيري في مذكراته حيث عاش جزءًا من سنوات الحرب في طولكرم عن انقطاع هذه السلع. انظر: الشقيري، ص 54.

(95) النمر، ص 133.

(96) المصدر نفسه، ص 137.

(97) دروزة، خمسة وتسعون عامًا، ص 135-136.

(98) المصدر نفسه، ص 292.

(99) النمر، ص 138.

أسواق نابلس ففتحوا الحوانيت وعملوا في شتى الأعمال والمصالح، «وساعدتهم الحكومة بأقصى ما تستطيع، واستقبلهم إخوانهم في نابلس استقبالًا حسنًا»[100].

أ- تنكر العثمانيين لمطالب السكان

شارك شبان المدينة في الجيش العثماني في أكثر من جبهة، ويبدو أن بعضهم أُسر في القتال إبان حملة قناة السويس أو في معارك غزة. يشير إحسان الترجمان في يومياته إلى أن طائرة إنكليزية رمت مناشير على غزة فيها 70 اسمًا لأسرى جلهم من نابلس، وعندما سمع أهل نابلس بالخبر فرحوا لبقاء أولادهم على قيد الحياة[101]. ومع اشتداد القتال، نزح عدد من الريفيين من قرى نابلس، وابتعد بعضهم فنزل في حوران[102].

اتخذت الحكومة إجراءات صارمة بحق بعض أهل نابلس من معارضي الحكم العثماني[103]، فأعدم سليم الأحمد عبد الهادي ومحمد الشنطي، ومات عبد الغني عبد الهادي وعبد الحفيظ المحمود الحسن القلقيلي رعبًا قبل إعدامهم، واختفى الحاج حسن أفندي حماد فنجا، وعُفي عن الشيخ نمر الداري وكامل أفندي هاشم وإبراهيم أفندي القاسم عبد الهادي وغيرهم، وتم نفيهم إلى الأناضول. كما نفت الحكومة آخرين بحجة معارضة سياستها الاقتصادية في أثناء الحرب، مثل الحاج عبد السلام القمحاوي والسيد عمر غزال[104].

حظيت نابلس باهتمام كبير من بعض الوجهاء والشخصيات العربية، إذ زارها في أثناء الحرب الأمير شكيب أرسلان والأمير فيصل ووجهاء من الشام[105]،

---

(100) النمر، ص 135.

(101) تماري، ص 167.

(102) النمر، ص 138.

(103) على الرغم من إقرار إحسان النمر بقساوة الأحكام الصادر بحق المعارضين من أهل نابلس، يثبت في مذكراته ضلوع بعضهم بالاتصال مع السفارات الأجنبية بهدف المساس بالحكومة العثمانية، ويؤكد من خلال رواية حسن حماد أن الأسماء التي ضبطها العثمانيون داخل القنصلية الفرنسية صحيحة. للمزيد من التفصيلات عن الموضوع، انظر: المصدر نفسه، ص 135-136.

(104) المصدر نفسه، ص 136-137.

(105) المصدر نفسه، ص 134.

ويبدو أن أثر هذه الزيارات كان واضحًا في تأليب السكان على الحكومة، فزاد عدد الفارين من الجيش العثماني[106]، وأصبح النابلسيون في الجيش عشرة ضباط وعشرين جنديًا فقط، وقامت الحكومة بإعدام عدد من الفارين[107].

زاد البرود في علاقة أهل نابلس بالحكومة العثمانية بسبب اللغة الاستعلائية التي اعتاد المسؤولون العثمانيون استخدامها، فكانوا يتداولون مصطلحات تسيء للعرب كأمة مثل «بيس عرب» و«بيس ملت»، أي العربي القذر والأمة القذرة[108].

ب- سقوط المدينة

أدرك العثمانيون أنهم أخطأوا التصرف مع سكان نابلس، فحاولوا التفاهم معهم. يروي إحسان النمر أن فوزي باشا اجتمع مع وجهاء لواء نابلس ودعاهم إلى تجديد الحماسة للجهاد، خصوصًا مع انكشاف نوايا الحلفاء بعد الثورة الروسية. تمت اجتماعات أخرى في الجامع الكبير، فوافق الوجهاء على مطالب الحكومة، وسارت التظاهرات في شوارع نابلس تأييدًا للجيش، وعاد كثير من الفارين إلى الجيش من جديد، وتم تشكيل فيلق جديد يدعى فيلق المجاهدين وهو من أهل نابلس[109].

تعرضت نابلس في أواخر الحرب للقصف من الطائرات الإنكليزية كونها مقرًا للجبهة الوسطى والقيادة العامة وأركان الحرب، ووجهت هذه الطائرات بثلاث طائرات ألمانية وعدد من المدافع. ويؤكد إحسان النمر سقوط طائرتين بريطانيتين ووقوع طيار إنكليزي في الأسر[110].

مع اشتداد القصف، قرر الجيش العثماني إخلاء نابلس من أهلها؛ فامتنع الأهالي خشية أن يحدث لهم ما حدث لأهل غزة. وفي ليلة 19 أيلول/ سبتمبر 1918، انسحب الجيش العثماني ودخل الجيش البريطاني إلى نابلس. عبر

(106) هنالك بعض الشهادات لجنود عثمانيين فر أفراد وحدتهم في أثناء القتال في فلسطين، وتظهر الشهادات تصاعد وتيرة الفرار، خصوصًا في الشهور الأخيرة من الحرب. تقدر بعض المصادر نسبة الفارين من الجيش بالثلث. للمزيد من التفصيلات عن الموضوع، انظر: Foster, pp. 86-87.

(107) النمر، ص 137.

(108) المصدر نفسه، ص 143.

(109) المصدر نفسه، ص 143-144.

(110) المصدر نفسه، ص 142-143.

إحسان النمر عن مشاعر الحسرة في تلك الليلة فقال: «أجهشنا بالبكاء ولم ننم حتى الصباح»[111].

خاتمة

شكلت اليوميات والمذكرات الفلسطينية مصدرًا مهمًا في التعرف إلى واقع فلسطين إبان الحرب العالمية الأولى، وزادت هذه الأهمية بعد حدوث النكبة وضياع عدد كبير من وثائق الفلسطينيين وأوراقهم. واعتمد عليها كثير من المؤرخين في نسج روايتهم وما تحويه من تفصيلات ومواقف وآراء عن تلك المرحلة.

لما كان الجهد البحثي عن الحرب عملًا مستمرًا حتى وقتنا الحالي، في أكثر من مكان في هذا العالم، فإن كثيرًا من مسلمات تلك الفترة تصدع بفعل جديد الأبحاث والدراسات. من هنا، كان لا بد من إعادة قراءة اليوميات والمذكرات الفلسطينية بعين الناقد. وفي ضوء ما استجد من نتائج، لعل ذلك يفضي إلى فهم أعمق لما نحته الفلسطينيون عن تجربتهم في تلك المرحلة، وهذا ما حاولت الدراسة فعله.

لعل أهم نتيجة وصلتها هذه الدراسة هي أن المذكرات واليوميات غنية بما قدمته من وصف، لكنها غير كافية لفهم الحوادث وقراءة الحرب كما عايشها الفلسطينيون. إذ أصابها ما يصيب المذكرات واليوميات من خلل وثغرات، ولا شك في أن اختزال المرحلة إلى ما روته المذكرات واليوميات يوصلنا إلى نتيجة مغايرة لبعض ما بات مؤكدًا بفعل الوثائق الرسمية والدراسات الحديثة، أنها حقائق الحرب.

---

(111) النمر، ص 147.

المراجع

1- العربية

كتب

أبو هشهش، إبراهيم محمد. **نجاتي صدقي: حياته وأدبه، 1905-1979**. القدس: الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية، 1990.

أوراق عائلية: دراسات في التاريخ الاجتماعي المعاصر لفلسطين. تحرير زكريا محمد [وآخ.]؛ مراجعة صالح عبد الجواد. ط 2 منقحة. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2011.

البرغوثي، عمر الصالح. **المراحل**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2001.

تماري، سليم. **عام الجراد: الحرب العظمى ومحو الماضي العثماني من فلسطين، يوميات جندي مقدسي عثماني 1915-1916**. بيروت: مؤسسة الدراسات المقدسية؛ مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2008.

الخالدي، عاصم. **ذكريات من باب السلسلة**. رام الله: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2013.

دراسات في التاريخ الاجتماعي لبلاد الشام: قراءة في السير والسير الذاتية. تحرير عصام نصار وسليم تماري. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2007.

دروزة، محمد عزة. خمسة وتسعون عامًا في الحياة: مذكرات وتسجيلات، الجزء الأول. تحقيق علي الجرباوي وحسام الشخشير. القدس: الملتقى الفكري العربي، 1993.

دوماني، بشارة. إعادة اكتشاف فلسطين: أهالي جبل نابلس 1700-1900. ترجمة حسني زينة. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1998. (سلسلة المدن الفلسطينية؛ 3)

الشقيري، أحمد. أربعون عامًا في الحياة العربية والدولية: مذكرات أحمد الشقيري. بيروت: دار العودة، 1973.

الطباع، عثمان مصطفى. إتحاف الأعزة في تاريخ غزة. تحقيق ودراسة عبد اللطيف زكي أبو هاشم. غزة: دار اليازجي، 1999. 4 مج.

طنوس، عزت. الفلسطينيون: ماض مجيد ومستقبل باهر. بيروت: مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، 1982.

فرح، بولس. من العثمانية إلى الدولة العبرية. الناصرة: جمعية لنشر الثقافة وتعميق الوعي الفلسطيني، 1985. (الصوت؛ 19)

القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية: الكتاب الأول من مذكرات الموسيقي واصف جوهرية، 1904-1917. تحرير وتقديم سليم تماري وعصام نصار. ط 2. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية؛ القدس: مؤسسة الدراسات المقدسية، 2003.

مذكرات محمد عزة دروزة: سجل حافل بمسيرة الحركة العربية والقضية الفلسطينية خلال قرن من الزمن 1305هـ-1404هـ 1887م-1984م. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993.

نصار، نجيب. رواية مفلح الغساني: أو صفحة من صفحات الحرب العالمية. الناصرة: دار الصوت، 1981.

النمر، إحسان. تاريخ جبل نابلس والبلقاء: عهد تطبيق النظم الحديثة، الجزء الثالث. نابلس: جمعية مطبعة عمال المطابع الحديثة، 1975.

يوميات خليل السكاكيني: يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثاني: النهضة الأرثوذكسية، الحرب العظمى، النفي إلى دمشق (1914-1918). تحرير أكرم مسلم. رام الله: مركز خليل السكاكيني الثقافي؛ مؤسسة الدراسات المقدسية، 2004.

دوريات

حمودة، سميح. «أكاديميا.. يوميات النخبة.. أيام الانتداب.» **وجهات نظر**: العدد 127، آب/ أغسطس 2009.

مخطوطة

مذكرات حسين الخالدي. من محفوظات مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

2- الأجنبية

Book

Ricks, Thomas M. *Turbulent Times in Palestine: The Diaries of Khalil Totah, 1886-1955.* Jerusalem: The Institute for Palestine Studies and Passia, 2009.

Periodicals

Foster, Zachary J. «The Diary of Sami Yengin, 1917-18: The End of Ottoman Rule in Syria.» *Jerusalem Quarterly*: no. 56, Winter 2013 - Spring 2014.

Hadawi, Sami. «Sodomy, Locusts, and Cholera: A Jerusalem Witness.» *Jerusalem Quarterly*: no. 53, Winter 2013.

الفصل الثاني والعشرون

أهالي شرق الأردن والحرب الكبرى

مهند مبيضين

مع استعادة الكتابة عن تاريخ الحرب العالمية الأولى، وموقف العرب منها، تأخذ الكتابة عن تاريخ الأردن طبيعة خاصة بها، ذلك أن التاريخ الحديث للدولة الأردنية قُدّم طوال مئة عام ملحقًا بتاريخ الثورة العربية، أو هكذا قدمته الأعمال التاريخية، وهنا يصبح البحث عن تاريخ حديث للأردن مستقل، أو مغاير للتدوين المعتمد، أمرًا ملحًا، خصوصًا أن الصراع مع الأتراك بدأ في شرق الأردن قبيل اندلاع الحرب العالمية بثلاثة أعوام، وقبل الثورة العربية بستة أعوام. وهنا، ربما يولد تاريخ وطني في الأردن، متصل بحدث سابق على تأسيس إمارة شرق الأردن، ومغاير للمعالجة التي حدثت في الكتابة التاريخية وهمشت مواقف أهالي شرق الأردن من الثورة العربية، وأظهرتها مؤيدة لها منذ انطلاقتها.

لا تسعى هذه الدراسة إلى استنبات تاريخ جديد للأردن، فالإشكالية التي تبحثها تكمن في محاولة الكشف عن طبيعة موقف أهالي شرق الأردن من الحرب العالمية الأولى، ودخول الدولة العثمانية فيها إلى جانب دول الوسط، وانسجام موقفهم مع الموقف العام في بلاد الشام، وفي طبيعة الاستجابة والمشاركة. كما تبحث في أثر أحوال ما قبل الحرب في موقف الناس، وفي نظرتهم إلى علاقتهم بالدولة العثمانية أو بـ «الوطن المقدس» الذي يجب الدفاع عنه في حروبه مع أعدائه، كما جاء في برقيات تلك الحقبة التي سبقت إعلان الحرب وأدبياتها.

تحاول هذه الدراسة الكشف عن موقف السكان والزعماء المحليين (مشايخ القبائل) والنخب والأفندية والعسكر من الثورة العربية ومن مسألة الانضمام إليها. فهل كان تأييدهم عامًا أم تأخر حتى تيقنوا من زوال الدولة العثمانية وانقضاء حكمها؟ هل قامت مقاومة بوجه الثورة العربية؟ كيف تأثرت المنطقة بوصول الأمير/ الملك فيصل إلى دمشق في تشرين الأول/ أكتوبر 1918 وإعلانه الحكومة العربية؟ وما طبيعة موقفهم من مؤتمر الصلح في عام 1919، كيف كان الموقف العام بعد معركة ميسلون في 24 تموز/ يوليو 1920؟ وما المؤثرات التي أدت إلى صوغه وتشكله؟

أولًا: سنوات ما قبل الحرب

حتى قيام الحرب العالمية الأولى في عام 1914، تبع شرق الأردن لوائيين من ألوية الإدارة العثمانية في ولاية سورية. ففي عام 1894، أصبحت متصرفية الكرك لواءً تابعًا لولاية سورية وضم ثلاثة أقضية: معان والسلط والطفيلة. تبع قضاء عجلون، أو المنطقة الممتدة من شمال نهر الزرقاء إلى درعا، لواء حوران منذ عام 1868[1]، وعانت هذه المنطقة عدم الاستقرار إبان فترة حكم محمد علي باشا وفي حقبة التنظيمات العثمانية. بقيت التغييرات في التقسيمات الإدارية حتى عام 1894، وبعدها استمر الوضع حتى نهاية العهد العثماني في عام 1918[2].

تأثر موقف أهالي منطقة شرق الأردن، من الدولة العثمانية عشية الحرب العالمية الأولى، ودعوة السلطان العثماني إلى «الجهاد المقدس» منذ انضمامها في تشرين الثاني/ نوفمبر 1914 إلى دول الوسط (ألمانيا والنمسا وهنغاريا وبلغاريا) ضد دول الوفاق[3]، بحدثين محليين مهمين، كان لهما أثر بالغ في موقف أهالي شرق الأردن، خصوصًا في القسم الجنوبي منها، إذ شهدت المنطقة ثورات وهبّات محلية بين عامي 1905 و1910 راح ضحيتها كثير من القتلى، واستخدمت الدولة

---

(1) عن لواء الكرك الذي كان يضم جل مناطق شرق الأردن في العهد العثماني، انظر: محمد رضا الصبان، «لواء الكرك،» القبلة، 25/ 4/ 1918، وجورج طريف داود، السلط وجوارها خلال الفترة (1864-1921 م) (عمان: منشورات جامعة آل البيت؛ بنك الأعمال، 1994)، ص 95.

(2) في عام 1870، شكلت الدولة قضاءً جديدًا في معان وألحقته بلواء البلقاء، وفي عام 1874 ألحق قضاء معان بلواء الشام، لكنها في عام 1877 عادت وألحقته بلواء البلقاء من جديد، وضم لواء البلقاء في عام 1880 أقضية السلط والكرك ومعان وناحية الجيزة واستقر الحال حتى عام 1887، عندما فصلت ولاية بيروت عن سورية وأنشئت ولاية بيروت وأُلحق بها لواء البلقاء. وبعد عام ألحق قضاء السلط بلواء حوران. وفي عام 1894، تبعت السلط ومعان والطفيلة قضاء الكرك التابع لولاية سورية. للمزيد، انظر: سالنامة دولت علية عثمانية (1312هـ/ 1894م-1895م)، ص 225؛ سالنامة ولاية سورية (1298هـ/ 1880م)، ص 234 و241، وسالنامة دولة علية عثمانية (1294هـ/ 1877م)، ص 489، وانظر: يوسف الحكيم، سورية والعهد العثماني (بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1966)، ص 51.

(3) عن الدعاية للحرب باسم الإسلام ودعوات الجهاد، انظر: عبد الرؤوف سنو، «الإسلام في الدعاية الألمانية في المشرق العربي خلال الحرب العالمية الأولى: الأهداف والوسائل والنتائج وردود الفعل المحلية،» في: محمد مخزوم وأحمد حطيط، تنسيق، بحوث تاريخية مهداة إلى منير إسماعيل (بيروت: دار النشر للسياسة والتاريخ، 2002)، ص 179-254.

العثمانية في قمع تلك الثورات المحلية أسلوبًا قاسيًا تراوح بين القتل والنفي، ما انعكس على مواقف السكان والزعماء المحليين منها في ما بعد.

كانت حركة العصيان الأولى في منطقة الشوبك في عام 1905 حين حاول رجال الحامية العثمانية تسخير نساء البلدة لنقل الماء من الينابيع إلى مقرهم. وبعد قمعها، نكل العثمانيون بالأهالي وقتلوا عددًا كبيرًا منهم[4]. وفي عام 1910، وتزامنًا مع ثورة الدروز في حوران، خرج أهالي الكرك في ثورة جديدة سميت «بالهبة»، كان سببها السخط على السلطة العثمانية بسبب سياستها في تطبيق الإصلاحات الإدارية التي طمحت إلى تقوية الحكم المركزي واتباع سياسة التتريك، والتعسف في الجباية وإحصاء النفوس[5].

لم تكن تلك الثورة معزولة عن محيطها، وجاء في تعليق مفتي الخليل على رسالة شيخ الكرك صالح المجالي التي أرسلها إلى والي دمشق، وتتضمن استفسار أهالي الكرك عن حقيقة إصلاحات الدولة العثمانية، ما يأتي: «وبعد، ذلك الأمر لمن له الأمر، وعند وصوله حررت له أن هذه الإشاعة صحيحة، وأن هاتيك الجهات صارت تبعًا للشام فإياكم أن تخرجوا عن الطاعة، وابذلوا الجهد للدولة في الخدمة الصادقة ولا تخالفوا أوامرها بحالة من الأحوال، وبذلك يصير لكم أعلى الشأن وتكونوا قد أطعتم أوامر مولانا أمير المؤمنين... إلخ»[6].

قمعت الدولة العثمانية ثورة الكرك بمساعدة قوة من الشركس المتطوعين، بقيادة الأميرالي ميرزا وصفي (1850-1932)[7]، وصلت الكرك وفكت

---

(4) منيب الماضي وسليمان موسى، تاريخ الأردن في القرن العشرين، 1900-1959، ط 2 (عمان: مكتبة المحتسب، 1988)، ص 16.

(5) عن ثورة الكرك انظر: مذكرات عودة سلمان القسوس الهلسا وملحق بها مجموعة وثائق وأوراق أردنية، تحقيق جورج هلسا وغسان الشوارب الهلسا، 4 ج (عمان: منشورات ديوان عشيرة الهلسا، 2011)، ج 2، ص 48-74؛ وانظر: نوفان رجا السوارية ومحمد سالم الطراونة، إضاءات جديدة على ثورة الكرك (عمان: دار رند للنشر والتوزيع، 1999)، ص 22.

(6) انظر نص الوثيقة في: السوارية والطراونة، ص 23.

(7) وُلد في شمال القفقاس، التحق بالخدمة العسكرية في عام 1872، وشكّل فرقة عسكرية شركسية خاض بها معارك عدة، ثم شكل فرقة من المقاتلين الاحتياط شاركت إلى جانب القوات العثمانية النظامية بقمع ثورة الكرك في عام 1910، كما شارك في حرب السويس ضد الحلفاء ومعارك غزة، وكان في مقدم =

حصار الثوار عن الحامية العثمانية، ورتبت غرامات على العشائر للتعويض عن الأضرار التي تحققت[8]. ونقلت الصحافة في القاهرة ودمشق وبيروت ونيويورك أخبارها وآثارها التي تركتها على المنطقة[9]. وحوكم المعتقلون من قادة الثورة في دمشق بالإعدام والسجن، وبعدها، كتب نائب الكرك في مجلس المبعوثان توفيق المجالي[10] في الصحافة محاولًا توضيح الأوضاع في عموم مدن شرق الأردن، ومنها الكرك والسلط والطفيلة ومعان، مبينًا ما تتطلبه تلك البلاد من إصلاحات عاجلة[11]، وأهمية عمران الكرك وإسكان أهاليها «لتستفيد الحكومة من وارداتها». لكن عمران لواء الكرك، كما يراه المجالي، إضافة إلى «ترقي أهله وإسكان عربانه الرحالة وإزالة التوحش والجهل من أهليه واستفادة الحكومة من ذلك» كان متوقفًا على سبع مواد حددها المجالي: «أولًا: إصلاح التعليم والتوسع في فتح مكاتب رشدية وإعدادية، في كل من الكرك وقضاء الطفيلة وقضاء السلط وقضاء معان، وثانيًا: المباشرة بتحسين الطريق بين الكرك والقطرانة، وثالثًا: إعادة إعمار بيوت الكرك التي تهدمت في ثورتها، ورابعًا: إيصال مياه عين ساره إلى قصبة المدينة، وخامسًا: ترميم المكتب الذي أنشئ بسبعة آلاف ليرة عثمانية من الأهالي، وسادسًا: تعليم الأهالي أصول الزراعة وشراء الآلات الحديثة لها،

= الذين جهزوا فرقة من الشركس قرب تبوك لمقاومة الثورة العربية وجيشها، لكن قوات الأمير فيصل هزمتهم «وانتهت المواجهة بمحو خيالة الشركس» بحسب ما تشير إليه جريدة القبلة. ومع انتصار الثورة وانتهاء الحكم العثماني، قبل ميرزا باشا بالواقع الجديد ثمّ كان في مقدم مستقبلي الأمير عبد الله الأول بن الحسين عند قدومه أميرًا إلى الأردن لتأسيس إمارة شرق الأردن في عام 1921. انظر: القبلة، 7/ 10/ 1917، ص 2، وفيصل حبطوش خوت أبزاخ، أعلام الشراكسة (عمان: مؤسسة خوست للإعلان، 2007)، ص 39.

(8) عن أسماء العشائر التي غرمت، انظر: مذكرات عودة سلمان القسوس، ج 2، ص 259.

(9) انظر عن ثورة الكرك في الصحف التالية:

«ثورة العرب: القبائل ثائرة على الدولة،» الهدى (نيويورك)، 15/ 12/ 1910، ص 1؛ «ثورة العرب: العرب ينكلون بالجنود ويأسرون منهم 16 مدفعيًا،» الهدى (نيويورك)، 16/ 12/ 1910، ص 1؛ «أول ساعة ثورة الكرك،» الأخبار (القاهرة)، 18/ 12/ 1910، ص 1، وتوفيق المجالي، «بعد حادثة الكرك كتاب مفتوح لفخامة الصدر الأعظم حسين حلمي باشا،» المؤيد، 25/ 2/ 1912، ص 1. وقد نشر المقالة أيضًا في: المقتبس، 29/ 2/ 1912.

(10) الأرشيف العثماني دوسيه 82، وثيقة رقم 8138 تاريخ 12 كانون الثاني/ يناير 1324، وهذه الوثيقة عن انتخاب توفيق بيك مبعوثان بدلًا من أخيه قدر. يشكر الباحث، الزميل حمد العنقري الباحث في دارة الملك عبد العزيز على توفير وثائق توفيق المجالي من الأرشيف العثماني.

(11) المقتبس، 23/ 9/ 1911.

وسابعًا: إنفاذ معلمي مكاتب الكرك وهم في حاضرة الولاية تاركين المكاتب والأولاد داشره»[12].

بعد حل مجلس المبعوثان، صار توفيق المجالي مطلوبًا بسبب انتسابه إلى حزب اللامركزية المعارض لسياسة الاتحادين، ولكونه اعتُبر من الذين لهم يد في «المسألة الكركية»، كما عبر عن ذلك شكري العسلي في دفاعه عنه[13]. وفي أثناء عودته بحرًا، لجأ إلى مصر وبقي فيها حتى أصدرت الدولة العثمانية عفوًا عامًا عن سجناء الكرك وجبل الدروز وحوران، لكنها استمرت في طلب القبض على زعيم ثورة الكرك قدر المجالي، وتعقبته، ولم تفلح، فأصدرت عفوًا آخر في عام 1912 عن جميع المخالفات والجرائم التي وقعت قبل تاريخ العفو الذي شمل الشيخ قدر المجالي، فعاد إلى الكرك[14].

على الرغم من سوء علاقة الدولة بالرعايا، وشكواهم المستمرة من سوء الإدارة والفوضى وانعدام الأمن، ضغطت على الأهالي كي لا يُنتخب توفيق المجالي في الدورة الثانية لانتخابات المبعوثان في عام 1912[15]، إلا أن مبعوثان الكرك الذي رشح بدلًا من توفيق المجالي، وهو عبد الوهاب أفندي الإنكليزي، زار المدينة ونقل معاناتها ووضّح أحوال أهلها فقال: «قد هجر البيوت أهلها وأصبحت دورهم مهدمة قفر..»[16].

قبل الأهالي بالأمر الواقع، ووقفوا إلى جانب الدولة في حرب البلقان

---

(12) المقتبس، 23/ 9/ 1911.

(13) يقول شكري العسلي: «اتهم بعضهم توفيق بك بأن له يد في المسألة الكركية على أنه كان يوم حدوثها في الأستانة،.... وهنا اطمئن الذين يريدون الحكم على توفيق بك المجالي أن حكمهم لا يمنع توفيق بك من النيابة لا ريب عندي بأن أهالي الكرك والطفيلة والسلط ومعان لا يتأخرون عن انتخاب مبعوثهم السابق». انظر: شكري العسلي، «توفيق بك المجالي،» المقتبس، 22/ 2/ 1911.

(14) الماضي وموسى، ص 26.

(15) المقتبس، 14/ 3/ 1912، ص 3. «كان من المأمول أن ينتخب توفيق بك المجالي نائبًا للمرة الثانية عن الكرك، إلا أنه اتصل بنا أن بعض عمال الحكومة ضغطوا على الأهلين هناك مما جعلهم يرون أنه يصعب عليهم انتخاب السابق. وعلى هذا، قرر حزب الحرية ترشيح عبد الوهاب أفندي الإنكليزي فرشح نفسه مقدمًا العرائض اللازمة للمراجع الإيجابية فنأمل من إخواننا الكركيين أن يضعوا ثقتهم به..».

(16) عبد الوهاب أفندي، «يوم في الكرك،» المقتبس، 11/ 4/ 1912، ص 2.

1912-1913[17]، إذ أوردت جريدة المقتبس البرقية التي أرسلها أهالي الكرك إلى والي دمشق وقائد الفيلق، جاء فيها: «نعرض أن عامة أهالي الكرك وعربانها مستعدون ليفدوا أرواحهم في سبيل الدفاع عن وطننا العثماني المقدس لينالوا شرف الشهادة أمام دول البلقان الذين يريدون حرب دولتنا العثمانية الأبدية القرار، وهم على عزم قطعي وصميم.. شيخ مشايخ الكرك رفيفان المجالي، وباسم عموم الأهالي والعشائر مبعوث الكرك السابق توفيق المجالي»[18].

لا يمكن فصل هذا العزم على الدفاع عن الوطن المقدس، الذي تشير إليه جريدة المقتبس، عن العقوبات الصارمة التي تلقتها المنطقة بعد ثورة عام 1910، والتي لا نجد إشارة إليها في مداخلات توفيق المجالي أمام مجلس المبعوثان[19]، بل نجده يؤكد طاعته للسلطان العثماني وولاءه له. ربما أتى لذلك الموقف تأثرًا بسياسة احتواء العرب، بعد عفو عام 1912 عن ثوار حوران والكرك، وتعبيرًا عن رؤية أهالي شرق الأردن للعلاقة مع الدولة العثمانية والاستعداد في الدفاع عنها، وهذا ما يشير إلى حضور الرابطة الإسلامية تجاه السلطنة العثمانية.

على الرغم من التضحيات التي قدمها أهالي البلاد الأردنية دعمًا للدولة العثمانية في حروبها، ساءت أحوالهم أكثر، واستمرت القسوة في أعمال الجباية والتفتيش حتى قيام الحرب العالمية الأولى، واشتكى الناس من المعاملات المنافية للقانون، خصوصًا في تجنيد أبناء البلاد في صفوف الجيش العثماني، مقارنة بالأعداد التي تؤخذ من باقي أقضية حوران[20].

تشير الصحف إلى شكوى أهالي عجلون من تدخل الاتحاديين في الانتخابات، وفي فرض الرسوم على الدخان[21]، ومن تنفيذ أعمال الجباية، وكان من أشهر منفذي هذه الأعمال ميرزا وصفي الذي يلقب، بحسب الوثائق، بقائد القوة السيارة وقائد المفرزة المتجولة قبيل نشوب الحرب[22]. بقيت الصحافة تشير

(17) دارت حرب البلقان بين الدولة العثمانية واتحاد البلقان الذي تألف من بلغاريا وصربيا واليونان والجبل الأسود، في تشرين الأول/ أكتوبر 1912 وانتهت في 30 أيار/ مايو 1913.

(18) المقتبس، 12/ 10/ 1912، ص 2.

(19) الأرشيف العثماني، دوسيه رقم 49، وثيقة 13، تاريخ 3/ 3/ 1333.

(20) «شكوى العجلونيين،» المقتبس، 2/ 3/ 1912.

(21) المقتبس، 14/ 10/ 1912، ص 3.

(22) مجموعة ميرزا وصفي، المكتبة الوطنية، الوثائق رقم: م.و/ 1/ 43. 18 ذي الحجة 1314هـ

إلى فقدان الأمن ونهب الممتلكات[23]، وتعقب الدولة للأشقياء من البدو[24] حتى اندلعت الحرب، وحاولت الدولة إعادة الأمن بتجديد علاقاتها بمشايخ القبائل والعفو عن خصومها أو بإرسال رجال إدارة صارمين[25]. وأكدت جريدة الأخبار التي كانت تصدر في القاهرة، استتباب الأمن في الكرك وتحدثت عن جر المياه إلى القصبة من منطقة السيل، وخلو اللواء من أي حوادث تذكر[26]. لعل هذا ما ساعد في تنظيم انتخابات بلدية في تشرين الثاني/ نوفمبر 1913، بحضور الهيئة التفتيشية المكونة من نائب الشرع الشريف والمتصرف والمفتي[27].

ساهمت هذه الإجراءات والعمليات التي كانت تقوم بها الدولة لمحاربة الفوضى في تمتين الرابطة العثمانية لدى السكان. فالتشدد في الجباية وفرض الرسوم لم يقد الناس إلى مخالفة أمر السلطان العثماني والتمرد عليه، ولعل هذا ما ساهم في استجابتهم للدعوة إلى الجهاد، إقبالهم على الدفاع عن الدولة العثمانية مع قيام الحرب العالمية الأولى.

ثانيًا: إعلان الحرب والدعوة إلى الجهاد

مع انطلاق شرارة الحرب في تموز/ يوليو 1914، دخلت المنطقة في حالة جديدة من العلاقة مع السلطنة العثمانية التي التحقت بالحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا، بعد نحو شهرين من محاولتها الوقوف على الحياد، وحاولت إثارة الحماسة الإسلامية في الشعوب العربية والإسلامية، فأعلن السلطان في بيان وجهه إلى القوات الحربية في 12 تشرين الثاني/ نوفمبر 1914 أن السلطنة العثمانية أكرهت على حمل السلاح، لأن ملايين المسلمين يخضعون لظلم

---

(23) كتب أحد تجار القدس عثمان أفندي النمر يقول إنه «تجول في جميع قضاء السلط.. وقد كان يسمع عن فقدان الأمن والتعدي والنهب الذي يحصل دومًا..» انظر: جريدة فلسطين، 16/ 10/ 1913، ص 4.

(24) «مطاردة درداح البخيت من بني صخر من قبل متصرف الكرك،» المقتبس، 11/ 10/ 2013.

(25) تقول جريدة فلسطين من حسن حظ قضاء السلط أن رزق بقومندان جاندرمه جدي يدعى سعد الدين بك، وأظهر حزم الحكومة «وقبض على الفارين من وجهها ونظم المفرزات السيارة وأظهر مهارة وشجاعة يثني عليها الأهالي... المصدر نفسه.

(26) الأخبار (القاهرة)، 14/ 9/ 1913، ص 2.

(27) المقتبس، 30/ 11/ 1913، ص 2.

بريطانيا وفرنسا وروسيا واستبدادها، ومن أجل هذا تعلن ضد هذه الدول جهادًا مقدسًا يتوقف على نجاحه مستقبل المسلمين ورفاهيتهم. وقال السلطان في بيانه: «إننا نأمل بعون الله وتأييده الانتصار في المعركة التي بدأناها بالاتحاد والتحالف مع ألمانيا والنمسا للقضاء على أعداء الإسلام»[28].

لم يكن الموقف العام من دعوة السلطان إلى الجهاد في شرق الأردن مختلفًا عن الموقف العام في بلاد الشام. وتؤكد المصادر أن الدعوة إلى التعبئة العامة وإطلاق النفير العام بدعوة «كافة أصناف المكلفين بالجندية إلى حمل السلاح»[29]، تحت شعار واجب الدفاع عن الإسلام ودولة الخلافة، وجدت أذنًا صاغية لدى زعماء ومشايخ العشائر التي كانت تابعة للواء حوران، فلبى مشايخ ووجهاء الشمال دعوة السلطان العثماني إلى الجهاد المقدس ضد بريطانيا وفرنسا. وفي 13 تشرين الثاني/ نوفمبر 1914، عقد زعماء حوران اجتماعًا في سرايا درعا الحكومية، حضره من الزعماء والمشايخ الأردنيين فواز بركات الزعبي وعكاش سالم ذياب السلامات وقاسم الشرع وطالب الشرع وكايد المفلح العبيدات وسليمان السودي الروسان ومحمود فنيش النصيرات وشحادة التل وعبد القادر التل ومنصور القاضي وغيرهم من زعماء قرى الشمال الأردني وبلداته، وكانت نتيجة اللقاء التطوع في القتال دفاعًا عن الخلافة الإسلامية التي أصبحت في خطر إذا تمكنت بريطانيا وفرنسا من هزيمة السلطنة العثمانية[30].

تمدنا مذكرات عودة القسوس بمعلومات عن أثر إعلان الحرب في وضع الأهالي الاقتصادي[31]، والتدابير العسكرية والإدارية في الكرك. فهو يشير إلى أن الحكومة شكلت ثلاث قيادات فيها، وكان عودة القسوس يرئس واحدة منها،

---

(28) انظر في شأن المواقف الغربية من هذا الإعلان وردود النخب العربية عليه، في: محمد علي الغتيت، الغرب والشرق: من الحروب الصليبية إلى حرب السويس: الصراع بين الشرق والغرب، من الشرق والغرب (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، [د. ت.])، ج 2، ص 219-220.

(29) مذكرات عودة سلمان القسوس، ص 82.

(30) أحمد عطا الله الزعبي، صور مشرقة من نضال حوران (دمشق: مطابع الإدارة السياسية، 1991)، ص 25.

(31) يشير القسوس إلى أن الدولة منعت التعامل بالعملة وأصدرت ورق «بنقوط» بنك نوت، خاص بالخزينة، وحرمت التعامل بالذهب، وأرغمت الناس على استبداله، وصادرت في الكرك أنواع المونة والمواد كلها التي تلزم الجيش، وصادرت الحبوب. انظر: مذكرات عودة سلمان القسوس، ص 83.

ورفيفان المجالي واحدة، وكانت الثالثة بقيادة قائد الدرك العثماني. تبع ذلك مصادرة الحكومة الأرزاق لأرسالها إلى الجيش العثماني. ويشير القسوس إلى اعتقال أخية الدكتور حنا القسوس حين جاء الكرك من حيفا، واتهم بأنه جاسوس بريطاني. وعلى الرغم من سفر عودة إلى دمشق ورفع التهمة عن أخيه الطبيب، عادت السلطة العثمانية وأصدرت أمرًا بلزوم تجنيد حنا القسوس الهلسا في الجيش برتبة يوزباشي، فالتحق بالجيش العثماني واستمر فيه حتى سقطت نابلس «ووقع أسيرًا في قبضة الجنود الإنكليز..»[32].

تشير وثائق وأوراق الأميرالي ميرزا وصفي باشا[33] إلى أنه قام بمهمات عدة في سبيل جمع المتطوعين للحرب وتسليحهم في مناطق عمان والسلط والرصيفة ووادي السير وناعور، خصوصًا من الشركس[34]، ويعتبر ميرزا وصفي من القادة الشركس الملتحقين بالجيش الرابع، وكان من القادة الذين خاضوا معارك عدة في صفوف الجيش العثماني[35].

ثالثًا: أهالي شرق الأردن وحملة السويس

بعد عشرة أيام على دخول السلطنة العثمانية الحرب، تقلد جمال باشا السفاح قيادة الجيش الرابع في سورية، محتفظًا في الآن نفسه بمنصب وزير البحرية، وغادر اسطنبول في 21 تشرين الثاني/ نوفمبر 1914، ليصل إلى دمشق في 5 كانون الأول/ ديسمبر، وليقود حملة السويس ضد الجيش البريطاني[36]، التي تطوع

(32) مذكرات عودة سلمان القسوس، ص 83.

(33) عرّف سابقًا، انظر الهامش (7) ص 595-596 من هذا الكتاب.

(34) مجموعة ميرزا وصفي، المكتبة الوطنية، وثيقة رقم م.و/ 4/ 38-40.

(35) وثيقة استدعاء ميرزا وصفي إلى قيادة الجيش الرابع بتاريخ 2/ 4/ 1331هـ. وثيقة رقم مزو/ 4/ 18، المكتبة الوطنية.

(36) كان الأتراك يأملون في هذه الحرب أن يتمكنوا من إحضار قواتهم الضاربة في سورية التي تتكون من 65 ألف جندي، فيما كان لبريطانيا في أواخر عام 1914 في مصر الفرقتان العاشرة والحادية عشرة الهنديتان والفرقة 42 من الجيش الاحتياطي وقوات اليومانري والفرقة الأسترالية النيوزلندية ومجموع تلك القوات 70000، بخلاف 22000 من القوات المصرية والسودانية. عن العمليات العسكرية في حرب السويس، انظر: إ. كيرزي، العمليات الحربية في مصر وفلسطين من أغسطس 1914 إلى أكتوبر 1918، ترجمة محمد علي فهمي وأحمد الأرفلي (القاهرة: دار الكتاب العربي، 1952)، ص 10.

فيها عدد من مشايخ شمال الأردن، ومنهم الشيخ فواز البركات الزعبي، وشارك فيها من الضباط الأردنيين كل من القائم مقام علي خلقي الشرايري ومحمد علي العجلوني وخلف محمد التل (قائد سرية الإمداد والتموين في حملة السويس) والقائد محمد جلال القطب، والنقيب محمد مريود المهيدات وغيرهم.

تتيح مذكرات محمد علي العجلوني، أحد ضباط الجيش العثماني الرابع في حرب السويس، الاطلاع على أوضاع تلك الحرب ودور الجنود العرب فيها والتحديات التي واجهوها[37]. وهو حين يروي رحلته مع الجيش الرابع، وهروبه إلى ميدان الثورة العربية والالتحاق بجيش الأمير فيصل بن الحسين في العقبة، يذكر عددًا من أسماء أبناء العشائر الأردنية الذين كانوا ضمن الجيش الرابع في حملة السويس، ومنهم ضابط الاحتياط توفيق إفرام من إربد، وكان يرافق المستشار الألماني المرافق للجيش الرابع[38]. طلب العجلوني من إفرام التوسط له كي يُعيّن في مفارز النقل التي ترسل إلى قناة السويس[39]، فتحقق له ذلك، فانتقل إلى القدس في خدمة النقل والتموين ضمن حملة السويس. هناك، التقى الملازم أول علي العجلوني، وهو من أبناء قريته التابعة آنذاك لمدينة عجلون، ويصفه صاحب المذكرات بقوله: «كلمته نافذه عند مفتش المنزل وبعض كبار القادة ومسؤوليات وظيفته تعادل مسؤوليات وظيفة ضابط برتبة كبيرة»[40]. ومن الأردنيين الذين كانوا في حملة السويس، يذكر العجلوني أيضًا الضابط خلف التل من إربد الذي ترقى إلى رتبة أعلى بموافقة وزارة الحربية في اسطنبول بسبب جهده في الحرب، ومشاركته في إدارة مهمات عسكرية سميت «إعمالات خانه»[41]، إلى جانب صاحب المذكرات. وخلف التل واحد من الضباط الذين مدح جمال باشا السفاح

---

(37) محمد علي العجلوني، ذكرياتي عن الثورة العربية الكبرى (عمان: منشورات مكتب الحرية، 1956)، ص 20-23. يصف العجلوني مشاهد الشنق التي قام بها جمال باشا السفاح للأحرار العرب في بعلبك وبيروت، ويبين كيف وضعت القيادة العسكرية جواسيس لمراقبة الضباط العرب الذين تم نقلهم إلى الأناضول ليتولوا قيادة مفارز النقل للوحدات النمساوية وهي في طريقها من أوروبا إلى قناة السويس، وكيف اجتمع الضباط العرب في طرسوس بالأسر العربية المبعدة إلى الأناضول.

(38) المصدر نفسه، ص 24.

(39) المصدر نفسه، ص 25.

(40) المصدر نفسه، ص 25.

(41) المصدر نفسه، ص 26.

انضباطهم والتزامهم إمداد الجيش الرابع بالسويس في مذكراته قائلًا: «لكن مسألة المسائل التي تعتبر على جانب عظيم من الأهمية هي أنه لم تحدث حادثة فرار واحدة بين القوة العربية الذين تكونت منها وحدة المؤونة والإمداد»، وكان خلف التل هو قائد تلك الوحدة خلال الحملة على السويس[42]. ويشير العجلوني إلى أنه قبل فراره من الجيش الرابع ليلتحق بالأمير فيصل بن الحسين، أمضى قرابة شهر في أعمال الإمداد والتموين لجيش الحملة، وذلك بجمع الحبوب ونقلها من السلط، وجمع السكر والأرز وبعض المؤن المدخرة ونقلها من يافا إلى القدس[43].

من الأردنيين الذين ساهموا في قيادة الحملة أيضًا اللواء علي خلقي الشرايري، المتزوج من ابنة الجنرال شكري باشا، قائد عام الجيش العثماني. كان علي خلقي آنذاك من دعاة تعزيز الوحدة العثمانية العربية، وطالب بتحقيق الحقوق العربية ضمن الدولة العثمانية، وكان من مؤسسي جمعية العهد في دمشق[44]. كان معظم الجنود العرب الذين عبروا قناة السويس بقيادة علي خلقي الشرايري، لكن على الرغم من حشد جمال باشا لاسترداد السويس، فقد خسر المعركة ومنيت الحملة بالفشل في معركة رمانة على ضفاف قناة السويس في 3 شباط/ فبراير 1915، حيث سقط 1500 جندي عثماني قتلى بنيران مدفعية البوارج البريطانية والفرنسية في القناة. يصف محمد كرد علي الحملة بقوله إن الفرقتين اللتين حشدهما جمال باشا على القناة قد نصبتا الجسور عند الإسماعيلية، لكن ستة طرادات إنكليزية فتحت النار وأغرقت الجسور وقتلت 192 رجلًا، وجرحت 381، وأسرت 727. نُقل علي خلقي الشرايري إلى العراق لقيادة الفرقة 17 العثمانية، وبقي فيها حتى صدر قرار نقله بتاريخ 1 آذار/ مارس 1916 ليتولى مهمة الحاكم العسكري في مكة المكرمة[45].

لم تقتصر مساهمة الأردنيين في أعمال حرب السويس، أو ما سمي بالترعة، بين 28 كانون الثاني/ يناير و3 شباط/ فبراير 1915 على مشاركة عدد من أبناء الضباط والعسكر في الحرب، وتشير أوراق عودة القسوس ووثائقه إلى قرار

(42) أحمد جمال [باشا]، مذكرات جمال باشا، تعريب علي أحمد شكري (القاهرة: مكتبة الهلال، 1923)، ص 246-280.

(43) جمال [باشا]، ص 26.

(44) محمود عبيدات، الدور الأردني في النضال العربي السوري 1908-1946: النضال المشترك (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1997)، ص 122.

(45) المصدر نفسه، ص 121.

مجلس إدارة ولاية الشام، المستند إلى تبليغ من قيادة الجيش الرابع ويقضي بجمع 26500 ليرة عثمانية في الشام على شكل إعانة لإقامة مستشفيات وطنية تتسع لـ 2500 سرير مع التجهيزات كلها لأجل الحملة على مصر، في مدة أقصاها الأول من كانون الأول/ ديسمبر 1914، وفُرض مبلغ 4500 ليرة على لواء الكرك، وزّع على النحو الآتي: 2200 ليرة على قضاء السلط، و550 ليرة على قضاء معان، و700 على قضاء الطفيلة، وألف ليرة على مركز اللواء وهو مدينة الكرك. وشكلت لجنة لتحصيل الأموال من أعضاء مجلس إدارة اللواء، وهم حسين الطراونه وعودة القسوس ورفيفان المجالي وعطالله السحيمات وسلامه المعايطة وقدر المجالي(46). ولا تشير المصادر إذا جمعت هذه اللجنة الأموال أم لا.

تظهر أوراق ميرزا وصفي تغيرًا في موقفه بعد خسارة حرب السويس، مشيرةً إلى رسالة من قائم مقام قائد الفرقة 48 في الجيش الهمايوني بتاريخ 22 تشرين الثاني/ نوفمبر 1915 وموجهة إلى ميزرا وصفي وفيها: «نظرًا إلى امتناعكم عن تنفيذ أوامر قيادة الجيش الهمايوني الرابع التي طلبت إعلامها عن عدد المتطوعين الشركس، وإصراركم على هذا الامتناع، قررت قيادة الجيش الهمايوني الرابع إلحاق قيادة فرسان الشركس المتطوعين بقيادة الفرقة 48». ومع أن الوثيقة تشير إلى مخالفة ميرزا وصفي رجل الأتراك في المهمات العقابية والجباية في شرق الأردن، وربما كان ذلك بسبب خسارتهم الفادحة في حرب السويس، إلا أن تقدم ميرزا وصفي لاحقًا لمحاربة جيش فيصل بن الحسين في منطقة تبوك تؤكد عودته عن موقفه الذي اتخذه وأشارت إليه الوثيقة(47).

رابعًا: دعوة القبائل إلى الالتحاق بالثورة العربية

انعكست خسارة جمال باشا على علاقته بالعرب. فلما عاد إلى دمشق، بدأ يحقق بتهم الخيانة، وألّف ديوانًا عرفيًا في مدينة عاليه، لبنان(48)، وبدأت أحكامه

(46) مذكرات عودة سلمان القسوس، ج 1، ص 153.

(47) أوراق ميرزا وصفي، المكتبة الوطنية، وثيقة رقم مو/ 4/ 1. 13/ 12/ 1333 عثماني. وانظر في شأن محاربته لجيش فيصل في: القبلة، 7/ 10/ 1917، ص 2.

(48) عن محاكمات جمال باشا للأحرار العرب في عاليه، انظر: تحسين علي، مذكرات تحسين علي، 1890-1970، تقديم ومراجعة صالح محمد العابد (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2004)، ص 26.

بإعدام الأحرار العرب[49]. أحدث قتل الأحرار العرب ونفي عدد منهم وتعقبهم، أثرًا مباشرًا في النخب العربية في الجمعيات الأدبية والأحزاب السياسية، وغيرت تلك الأعمال الموقف العام من الدولة العثمانية في بلاد الشام عمومًا، لكن المسألة لم تصل إلى درجة العصيان العام أو الخروج على طاعة السلطان[50]. ومع إعلان الشريف حسين بن علي الثورة على الأتراك في 10 حزيران/ يونيو 1916 في سائر مدن الحجاز، كانت المنطقة الشمالية الجزء الأهم في سير الثورة بغية الوصول إلى دمشق. كان فيصل بن الحسين قائد الجيوش الشمالية قد وصل إلى منطقة «الوجه» واحتلها بتاريخ 23 كانون الثاني/ يناير 1917، وعُرف الجيش الذي يقوده منذ ذلك التاريخ بالجيش الشمالي، تمييزًا له من الجيوش الأخرى التي بقيت في المدينة المنورة. من هناك، بدأت الاتصالات بالزعامات والعشائر الأردنية[51]. وبحسب جريدة القبلة، قام بإصلاح مينائها وأسس حكومة عربية هاشمية فيها ونظم التجارة مع جدة[52].

لم تكن استجابة عشائر الأردن على نسق واحد، وليس صحيحًا قول بعض المؤرخين إن الثورة لم تلق مقاومة أو عدم ترحيب[53]. لكن مع مرور الوقت، وبتقدم جيش الثورة وتراجع الجيش العثماني وتلقيه الخسائر، ومع تيقن مشايخ بعض القبائل من أن الحكم العثماني سائر إلى أفول، تغير موقفهم، فحقق فيصل بن الحسين هدفه بجمع كلمة القبائل حولهن بمراحل تتفق مع تقدم جيوشه.

في بداية الثورة، أرسل الأمير فيصل من يبشر بدعوته إلى التخلص من النير العثماني في صفوف العشائر الأردنية، خصوصًا عشيرة الحويطات لما لها من أهمية بسبب سيطرتها على طريق العقبة - معان - وادي السرحان التي يتحتم على

---

(49) محمد كرد علي، خطط الشام، 6 ج (دمشق: مطبعة الترقي، 1925)، ج 3، ص 136-138.

(50) عن أثر سياسة جمال باشا في العلاقات بين العرب والأتراك، انظر: كرد علي، ج 3، ص 139-141.

(51) الماضي وموسى، ص 32، وعبيدات، ص 117.

(52) القبلة، 4/ 2/ 1917، ص 3.

(53) انظر: محمد عبد القادر خريسات، الأردنيون والقضايا الوطنية والقومية: دراسة في الموقف الشعبي الأردني 1918-1929 (عمان: منشورات الجامعة الأردنية، 1992)، وانظر كذلك: عبيدات، ص 106.

الجيش عبورها باتجاه دمشق. كما راسل مشايخ بني صخر والشعلان ومشايخ الكرك وعرب الروله ومشايخ الشمال الأردني وحوران وجبل العرب[54].

بدأ الاتصال المباشر بين فيصل بن الحسين، عندما سار عودة أبو تايه ومعه رجال قبيلته إلى الوجه، والتقوا بفيصل، في الخامس من نيسان/ أبريل 1917[55]. تعهد عودة بقيادة رجال قبيلته والالتحاق بالثورة، فانطلق مغادرًا الوجه في 9 أيار/ مايو 1917 بحملة لا يزيد عدد أفرادها على خمسين رجلًا، مؤلفة من زعماء الحويطات ومنهم زعل بن مطلق أبو تايه ومحمد بن دحيلان والشريف ناصر[56] الذي اختير ليمثل الأمير فيصل وعقد الاتفاقات مع رجال القبائل باسمه، وإدارة الشؤون المالية للحملة. ضمت الحملة كذلك نسيب البكري[57] كي يتصل بأهل سورية وجبل الدروز ويمهد للثورة، والكابتن لورنس ليعمل على نسف السكة الحديد بالمتفجرات، والرئيس زكي الدروبي وخمسة وثلاثين من رجال العقيلات[58].

حاول العثمانيون نسف جسور التقارب بين فيصل والعشائر، فنفى والي دمشق عددًا كبيرًا من العائلات والزعماء في محاولة استباقية لدرء خطر الثورة ومنع الالتحاق بها. ويرد في جريدة القبلة: «قبضت متغلبة الطورانيين في دمشق في المدة الأخيرة على مائة وخمسين من الأعيان الأفاضل. وسجنهم في (خان الباشا) المجاور لمدرسة الصنائع... ونفوا إلى الأناضول مئات العائلات التي

---

(54) الماضي وموسى، ص 32.

(55) سليمان موسى، **الحركة العربية: سيرة المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة، 1908-1924** (بيروت: دار النهار، [1970])، ص 300-301.

(56) الشريف ناصر بن علي أبو سيف، من الأشراف الحسينية وهو شقيق الشريف شحات أمير المدينة من قبل الملك حسين بن علي. انظر: الماضي وموسى، ص 34.

(57) نسيب بن عطاء باشا البكري (1888-1966). ولد وتوفي في دمشق. تعلم في المدرسة السلطانية في بيروت (1912) ودخل في جمعية «العربية الفتاة»، واستضاف الشريف فيصل بن الحسين في داره في دمشق عند مروره بها آتيًا من اسطنبول في عام 1916. وفي داره أقسم الشريف يمين الإخلاص لجمعية الفتاة. ورحل بأسرته مع الشريف. قبيل إعلان الثورة في الحجاز. ولازمه مستشارًا له. انظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، 8 ج، ط 6 (بيروت: دار العلم للملايين، 1984)، ج 8، ص 19.

(58) الماضي وموسى، ص 34.

يعرف محدثنا أسماء معظمها، ونفوا قبل ذلك الأمير فؤاد أرسلان وعائلات خليل زينه وبيت الكيلاني وتوفيق الصباغ... ونفوا عائلة المجالي من الكرك وكثيرًا من الأعيان الحورانيين لا يذكر محدثنا أسماءهم»[59].

قبيل وصول فيصل بن الحسين وجيشه إلى العقبة والاستيلاء عليها، شعر جمال باشا السفاح بالخسارة التي حققها انضمام عودة أبو تايه إلى معسكر فيصل، فحاول التقرب إليه ليحول بينه وبين فيصل. بعث إليه برسالة نشرتها جريدة **القبلة**، جاء فيها: «قد بلغني أنك تواطأت واتفقت مع الشريف ناصر وعاونت الأنذال وأنزلتهم في بيتك ورحبت بهم وغرك ما بأيديهم، الأمر الذي لا يصدر من رجل محب للإسلام ولدينه وخليفته، فإذا كنت فعلت ذلك عن جهل منك وأتيت إلي طائعًا معتذرًا فإني عفوت عنك، وإذا كنت فعلته لتقف على حقيقة مقصد هؤلاء الخونة أو لتقبض عليهم خدمة للدولة الإسلامية فإني أكافئك على عملك هذا، وأجعلك ممتازًا بين مشايخ العرب والعشائر، ولقد استغربت جدًا تأخرك عن الحضور إلى مركز القيادة إلى الآن... وعدم حضورك إلى الآن جعلني أشك بصداقتك».

ردّ عليه أبو تايه بقوله: «أما بعد... منذ نيف وأربع مئة وعشرين سنة رضينا بحكمكم كل هذه القرون حبًا بجمع كلمة المسلمين، أما الآن وقد تبرأتم من الدين الإسلامي الذي تشرف أجدادكم القاطنون وراء النهر باعتناقه بفضل أجدادنا العظام الفاتحين، ودستم تعاليمه وشرائعه كما هو ثابت في كتابكم... وقد نكثتم العهود التي قطعتموها لأعاظم رجالنا، فاستدرجتموهم إلى الديوان العرفي [أنواع الحيل والدسائس واتهمتموهم بأنواع التهم الباطلة وقتلتموهم ظلمًا وعدوانًا فكل هذه الفظائع حملت جلالة ملكنا المعظم على طردكم من بلادنا... وخلاصة القول إننا مستعدون لحقن الدماء خدمة للإنسانية شرط أن تأخذوا جنودكم وتجلوا عن بلادنا العربية»[60].

كان لعودة أبو تايه السبق في الالتحاق بجيش فيصل، وبدا لهذا الزعيم البدوي الثائر المتحكم بمنطقة واسعة الامتداد، الأثر الكبير في تحقيق انتصارات

---

(59) **القبلة**، 11/ 12/ 1916، ص 2-3.

(60) **القبلة**، 19/ 11/ 1917، ص 1.

الثورة، كما يقول محمد كرد علي. فهو يعلق على دور عودة أبو تايه بالقول: «في تموز 1917 فتحت العقبة، أي بعد أحد عشر شهرًا من ثورة صاحب الحجاز على الترك، بمعاونة عودة أبي تايه، من مشايخ الحويطات ومن شجعان العرب، وقد أبلى بلاءً ليس بعده بلاء في هذه الواقعة وفي أكثر الوقائع التي اشتبك فيها الجيش العربي مع الجيش العثماني وكان له الفضل بإسقاط الطفيلة وأبي الأسل والكويرة/ القويرة...»[61].

مثّل سقوط العقبة بيد جيش الثورة نقطة تحول في مسيرة الثورة واكتمالها[62]. في أيلول/ سبتمبر 1917، نظم فيصل الإدارة المحلية فيها، وبحسب القبلة، «صدرت الإرادة السنية الملوكية بتعيين حضرة الفاضل فائز الغصين وكيلًا للقائمقامية والشيخ محمد كامل شيمة قاضيًا في محكمتها الشرعية والشيخ محمد الأسد مأمورًا للرسوم»[63]. وفي 3 تشرين الثاني/ نوفمبر، أبحر الأمير زيد بن الحسين من ثغر الوجه إلى العقبة (مقر الجيش الشمالي) ومعه 1500 مقاتل نظامي وغيرهم من غير النظاميين. ومنذ وصوله، تولى مسؤولية القيادة إلى جانب أخيه فيصل[64]، ومن ثم توالت المعارك على الأرض الأردنية، وجاء الزحف الأول نحو منطقة القويرة[65].

كان لا بدّ للأمير فيصل من تأمين مسير الجيوش وتقدمها إلى الشمال، وهذا الأمر لم يكن ليتم من دون تعاون مشايخ الكرك الذين بدأ بمراسلتهم، لإدراكه أهمية انحياز مشايخ الأردن إلى صفه. لذلك، حملت الرسائل الكثير من عبارات الثناء والمديح للمشايخ على إحساسهم القومي وانتمائهم إلى القضية العربية، علمًا أن جمال باشا السفاح حاول استدراك الموقف فاستدعى مجموعة من زعماء الكرك وبني صخر إلى دمشق، محاولًا ثنيهم عن تأييد فيصل بن الحسين. وهذا يؤكد أن الأتراك لم يقفوا موقف المتفرج إزاء اتصالات قادة الثورة العربية

(61) كرد علي، ج 3، ص 150.
(62) عبيدات، ص 106.
(63) القبلة، 13/ 9/ 1917.
(64) القبلة، 22/ 2/ 1918، ص 2.
(65) سليمان موسى، مذكرات الأمير زيد: الحرب في الأردن 1917-1918، ط 2 (عمان: مركز الكتب الأردني، 1990)، ص 19، وعبيدات، ص 106.

بأهالي شرق الأردن، وتشير مذكرات عودة القسوس إلى تحول في سياسة جمال باشا السفاح تجاه العرب في شرق الأردن، إذ اتبع سياسة كسب الودّ مع مشايخ القبائل، «وأخذ بدوره يستدعي المشايخ ويغدق عليهم من الملبوسات والأموال والأوسمة والألقاب، ويركبونهم بالقطار مجانًا ويخطبون فيهم ناصحين لهم عدم الالتحاق بفيصل»[66].

يقول عودة القسوس إنه زار دمشق في أيار/ مايو 1917 لمصالح خاصة، لكن متصرف الشام كلفه بلقاء الوالي تحسين بيك. في اللقاء الثاني مع الوالي، طُلب من عوده أن يحثّ المسيحيين في الكرك على الاستمرار في الإخلاص للحكومة العثمانية ولزوم الدفاع عن الوطن[67]. يذكر عودة القسوس أيضًا أن السلطات العثمانية أرادت قطع الطريق على إمكان التقاء المصالح بين فيصل ومشايخ قبائل الكرك والبلقاء، خصوصًا بني صخر والعدوان، بتجهيز غزوة على معسكر فيصل بن الحسين في العقبة، «فأرسلت الرسائل إلى عدد من مشايخ الكرك، وعلى رأسهم قدر المجالي وبعض مشايخ بني صخر بغية تشويق الأهالي للنهوض بهذه الغزوة»، وعلى أن تشترك في هذه الغزوة القوات العسكرية من خيالة ومشاة وطيارات، «وتشترك بها عشائر الرولة وبني صخر... لتأديب القبائل العربان الباغية.... وقهر الشريف حسين...»[68].

لقيت دعوة القائد العثماني محمد جمال باشا في معان والمتصرف في الكرك استجابة عند القبائل والمشايخ، وخرجت الحملة العسكرية بنحو 500 فارس، منهم 80 مسيحيًا من الكرك. وفي 7 تموز/ يوليو 1917 مشت الحملة إلى الطفيلة فالشوبك فأرض نجل حيث مضارب عشيرة الحويطات. وبعد أن وصلت معان، مشى رجالها في تظاهرة كبرى، «وأرسل القائد جمال باشا ضابطًا لتسجيل اسم كل شيخ وجماعته لأجل توزيع الرواتب والإعاشة»[69].

يبين القسوس في مذكراته أن بعد الانطلاق للغزو، بأمر من جمال باشا

(66) مذكرات عودة سلمان القسوس، ص 84.

(67) المصدر نفسه، ص 85.

(68) المصدر نفسه، ص 86.

(69) المصدر نفسه، ص 87.

قائد الجيش العثماني في معان، في 17 تموز/ يوليو 1917، لوحظ تأخر بعض مشايخ الكرك عن التقدم، أمثال قدر المجالي وحسين الطراونة ومتري الزريقات (نصراني) وإسحق المدانات (نصراني)، وسارت باقي الخيول، وعند منتصف الليل وصلت القوات الغازية إلى موقع وهيدة. وفي الصباح، كانت أغلبية المقاتلين من أهالي الكرك، ولم يشترك أحد من عرب الروله ولا من البلقاء ولا من جنود الحكومة، فاجتمع مشايخ الغزو وتشاوروا وقرروا أن ما تمّ زجهم فيه هو مكيدة عثمانية للفتك بهم وتوطيد العداء بينهم وبين الثوار العرب والأمير فيصل كي لا يشتركوا بالثورة. وبناءً عليه، قرروا عدم التوسع في الغارات، وكان الالتحام في منطقة القويرة لثلاث ساعات، وغنموا بعض المواشي والخيل والسمن والدراهم، ثم عادوا إلى معان في اليوم نفسه[70].

بعد غزوة القويرة، خشي جمال باشا السفاح من التقاء مصالح مشايخ وقبائل الأردن مع مصالح الأمير فيصل ضد الحكم العثماني، فاستدعى عددًا من زعماء العشائر الأردنية لثنيهم عن الاتصال بقوات الأمير فيصل، وكان عددهم نحو ثلاثين شيخًا، ومنهم قدر المجالي والشيخ حتمل بن زبن. تم استقبالهم ضيوفًا على حساب الحكومة، ونزلوا في فندق «داماس بالاس»، ويذكر عودة القسوس أن الأوامر صدرت إلى أحد أفراد البوليس بمرافقه قدر المجالي ليل نهار، بحجة احترام الحكومة له. وبعد عشرين يومًا، وزعت الحكومة أوسمة ومكافأة نقدية على أعضاء الوفد، وأوعزت إليهم بالعودة إلى الكرك. لم يبق في الشام إلا قدر المجالي وتركي بن حيدر الزبن وعبطان الفايز وشهاب الفقير وحسين الطراونه ورفيفان المجالي وسلامة المعايطة. وذات ليلة، قبض العثمانيون على قدر المجالي وتركي بن حيدر الزبن وعبطان الفايز وشهاب الفقير، وأرسلوهم بعربة إلى دائرة البوليس بتهمة الاتصال بالأمير فيصل. أخلي سبيلهم لاحقًا، لكن الشيخ قدر مات مسمومًا كما قال الشيخ تركي بن حيدر الزبن، مرافق قدر[71].

في رسالة ثالثة موجهة إلى حسين الطراونة، قال متصرف الكرك إن مشايخ الصخور والبلقاء والعدوان توجهوا إلى جمال باشا (الصغير) في السلط طالبين

(70) مذكرات عودة سلمان القسوس، ص 88. وانظر للمزيد: الماضي وموسى، ص 54-55، وموسى، مذكرات الأمير زيد، ص 74 وما بعدها.

(71) مذكرات عودة سلمان القسوس، ص 89، والماضي وموسى، ص 26.

منه المشاركة في ملاحقة العدو. طُلب من أهل الكرك أن لا «يحرموا من هذا الفخر العظيم». وبسبب تردد بعض المشايخ في تحقيق المطالب العثمانية ومقاومة جيش الثورة، نفت السلطات العثمانية عددًا كبيرًا منهم: عبد الفاتح أبو النصر ومحمد الدحيلان وناصر دغيثر من مشايخ العقيلات، وعضون الزبن وعلي أبو فتنة وزعل أبو تايه ومحمد أبو تايه ابن الشيخ عوده، وتركي المفلح ورفيفان المجالي وحامد الشراري وحسين كريشان وخليل الحسنات وزعل المجالي وتوفيق المجالي وعطالله الطراونه وعطالله السحيمات ومحمود الروسان وأحمد الروسان. ويلاحظ أن بين هؤلاء ضباطًا ومشايخ من المناطق المختلفة[72].

لتعزيز دور المشايخ والزعماء المحليين في شرق الأردن، وبعد تقدمه من العقبة باتجاه الشمال، راسل فيصل بن الحسين أخاه زيد في 24 كانون الثاني/ يناير 1918 يطلب منه التعاون مع عودة أبو تايه واستشارته في الأمور جميعها، وأن لا يخفي عليه شيئًا لأنه «صديق من الروح»[73].

في إثر الانتصارات التي حققتها جيوش الثورة العربية في العقبة والطفيلة[74]، أنذر عودة أبو تايه متصرف الكرك العثماني ودعاه إلى مغادرة الأرض العربية «لأننا نريد لنا؟!»[75]. كما وجه قائد المفرزة الشمالية علي بن عريد الحارثي رسالة إلى الشيخ حسين الطراونة في الكرك أخبره فيها عن الانتصارات التي حققها الشريف زيد على الأتراك، وعن استيلاء قوات الثورة العربية على مدافع العثمانيين ورشاشاتهم، واستيلاء الإنكليز على السلط، وقطع السكة الحديد بين درعا وعمان. في نهاية الرسالة، طلب الحارثي من الطراونة ضبط الأرزاق والأسلحة والاحتفاظ

---

(72) عبيدات، ص 115.

(73) سليمان موسى، صور من البطولة، منشورات وزارة الثقافة والتراث القومي؛ 5، ط 2 (عمان: وزارة الثقافة والتراث القومي، 1988)، ص 87، والمراسلات التاريخية، 1914-1918: الثورة العربية الكبرى، أعدها وحققها وكتب حواشيها وترجم بعضها سليمان موسى (عمان: سليمان موسى، 1973)، ج 1، ص 169-170.

(74) القبلة، 17/ 2/ 1918، ص 2، وعن الطفيلة، تقول جريدة القبلة وردت في صباح اليوم من سمو الأمير فيصل البرقية الآتية: استولت إحدى سرايا المقدمات على موقع طفيلة وأسرت من بقي من حاميتها وقدره ثمانون شخصًا. والطفيلة هي مركز قائمقامية تابعة للواء الكرك التابع لولاية الشام.

(75) علي محافظة، الفكر السياسي في الأردن: وثائق ونصوص، 1916-1946، 2 ج (عمان: مركز الكتب الأردني، 1990)، ج 1، ص 60-61.

بها إلى حين وصوله إلى الكرك التي عُين عليها أميرًا[76]. أما عمان والسلط فأغارت عليهما قوات الحلفاء أكثر من مرة، وحاولت الاعتماد على عرب الصقر في تحدي الجيوش العثمانية المرابطة حولها، التي استطاعت تحسين موقعها الدفاعي وتأخير قوات الحلفاء عن عبور نهر الأردن، فبلغ عدد قواتهم 4000 آلاف جندي ومعهم 15 مدفعًا واحتفظوا بمواقعهم، لكن تلك القبائل لم تقم بما طلب منها[77]، وفشلت الغارة البريطانية الأولى على عمان في 30 آذار/ مارس 1918[78].

بعد سقوط الكرك بيد جيش الأمير فيصل في 6 نيسان/ أبريل 1918[79]، كان على الأمير فيصل أن يجدد رسائله مع شيخ مشايخها. وفي محاولة منه لترغيب مشايخ الكرك وتثمين مواقفهم وميولهم القومية، كتب في 26 آب/ أغسطس 1918 - بوصفه ابن ملك العرب وقائد الجيوش الشمالية - إلى الشيخ الطراونه والشيخ حسين رسالة جاء فيها: «المكرم الشيخ حسين الطراونه، حفظه الله، بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.... ما يأتينا من أخبار جهتكم يجعلنا مسرورين لما أنتم مبديه من الحسيّات، ولذا حرر...»[80].

استمرت المقاومة العثمانية في دفاعها عن عمان والسلط حتى أيلول/ سبتمبر 1918، حين استولت الفرقة النيوزلندية والاسترالية في الجيش البريطاني على عمان[81]. وفي 27 أيلول/ سبتمبر 1918، انسحب الجيش العثماني المرابط في شمال الأردن. ولعل ذلك ساهم في تغير مواقف مشايخ القبائل، إذ أبرق رجالات

---

(76) وثيقة غير منشورة، مركز الوثائق، الجامعة الأردنية، غير مرقمة. ولمزيد من التفصيلات عن مشاركة أهالي شرق الأردن في الثورة العربية، انظر: حكمت ياسين، السياسة الفرنسية تجاه الثورة العربية الكبرى (1916-1920) (تونس: الدار التونسية للنشر، 1981)، ص 76 و192-195؛ موسى، الحركة العربية، ص 300 وما بعدها، وممدوح عارف الروسان، حروب الثورة العربية الكبرى في الحجاز وبلاد الشام (1916-1918) (عمان: كتبة الكتاني، 1986).

(77) اعتمدت الخطة البريطانية في العبور إلى شرق الأردن على التعاون مع عرب الصقر في منطقة الأغوار والاستيلاء على السلط وقطع مواصلات الفرقة العثمانية المعزولة في شونة نمرين، لكن قبيلة بني الصقر كما يقول كيرزي «لم تسفر عن نتيجة مادية وفشلوا في تحقيق ما وعدوا به..» انظر: كيرزي، ص 52.

(78) أطلقت مجلة الحرب العظمى على معركة عمان، مسمى معركة الأردن الأولى، انظر: الحرب العظمى: مجموعة تاريخية مصورة تبحث في التاريخ، العدد 46 (1914-1918)، ص 18.

(79) القبلة، 8/ 4/ 1918، ص 2.

(80) وثيقة، م خ/ 72/ 45 مجموعة حسين الطراونة، المكتبة الوطنية.

(81) عن العمليات والغارات العسكرية البريطانية على عمان والسلط، انظر: كيرزي، ص 48-56.

الكرك إلى الأمير فيصل بن الحسين يؤيدونه، ورد عليهم فيصل بن الحسين ببرقية مماثلة مؤرخة في 1 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918 جاء فيها: «بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أخذنا كتابكم وسررنا بما أبديتموه من الغيرة القومية والحميّة العربية التي فطرتم عليها، وأظهرتموها الآن إلى حيز العمل، فنشكر همتكم وصدق عزيمتكم والسلام عليكم»(82). المشايخ الذين ورد ذكرهم في الرسالة هم الشيخ حسين، شيخ مشايخ الطراونه، الشيخ عطالله السحيمات، الشيخ محمد شيخ عشيرة الطراونه، الشيخ حامد شيخ عشيرة الصعوب، الشيخ عطالله بن محمد شيخ عشيرة النوايسه، الشيخ إسماعيل شيخ عشيرة المبيضين، والشيخ فارس شيخ عشيرة البطوش، والشيخ نجم بن وادي شيخ عشيرة الخريشه(83).

تكشف الوثائق أن تأخير ترحيب مشايخ الكرك والبلقاء بالثورة، الذي انتظره الأمير فيصل طويلًا، والناتج من الضغط العثماني على الوجهاء والمشايخ وتهديدهم ونفيهم ودفعهم إلى مقاومة الثورة في غزوة القويرة، لم يكن حكرًا على زعماء القبائل المسلمة فحسب، فنصارى البلاد بادلوا الأمير فيصل الموقف نفسه، وهذا ما تشير إليه الرسالة الجوابية التي أرسلها الأمير فيصل بن الحسين في 1 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918 إلى مأمور إجراء تنفيذ محكمة الكرك الزعيم عودة القسوس(84).

في أثناء معارك الجيش الشمالي على أرض الأردن، في العقبة ووادي موسى والطفيلة(85)، وبعد السيطرة على عمان والسلط، استمر تقدم جيش الثورة وصولًا إلى دمشق التي دخلها فيصل بن الحسين في 28 أيلول/ سبتمبر 1918.

---

(82) انظر وثيقة، رقم م خ/ 72/ 47، بتاريخ 1 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918. مجموعة حسين باشا الطراونة، أرشيف المكتبة الوطنية الأردنية، مكتوب من الملك فيصل قائد الجيوش العربية الشمالية إلى حضرات ورفقائهم الكرام...».

(83) المصدر نفسه.

(84) وثيقة غير منشورة، مركز الوثائق، الجامعة الأردنية، غير مرقمة. وقد حملت توقيع قائد الجيوش العربية الشمالية، فيصل بن الحسين.

(85) العجلوني، ص 73، وعن معارك الجيش الشمالي واحتلاله قلعة القطرانه، انظر: القبلة، 3/ 8/ 1917، ص 2، وعن الاستيلاء على وادي موسى وتفصيل ما حدث في معركتها، انظر: القبلة: 13/ 9/ 1917، ص 2؛ و15/ 11/ 1917. وعن الاستلاء على أبو اللسن، انظر: القبلة، 7/ 2/ 1918. وعن تأثير سقوط أبو اللسن، انظر: القبلة، 15/ 2/ 1918، ص 2، والحرب العظمى: مجموعة تاريخية مصورة تبحث في التاريخ، العدد 32 (1914-1918)، ص 15، 19-20 و22-23، والعدد 35 (1914-1918)، ص 2 و11.

بعد عرض موقف مشايخ ونخب الأردن التقليدية من الثورة العربية، السؤال المطروح: هل كان موقف زعماء شرق الأردن من الثورة والحرب متفقًا مع الموقف العام لنخب سورية وأعيانها؟ خصوصًا أنه عشية دخول الدولة العثمانية الحرب، قررت جمعية العربية الفتاة الآتي: «ينتج عن دخول السلطنة العثمانية الحرب أن مصير الأجزاء العربية في الدولة العثمانية بات مهددًا بخطر شديد، فيجب بذل أقصى جهد لضمان تحريرها واستقلالها، وقد تقرر أنه في حالة ظهور مطامع أوروبية في هذه الأجزاء ينبغي على الجمعية أن تعمل إلى جانب السلطنة العثمانية في سبيل مقاومة النفوذ الأجنبي مهما كان نوع شكله»(86).

الموقف الأردني كان واضحًا في التحاق الزعماء والمشايخ بجيش الثورة والتفافهم حول فيصل بن الحسين، وقبولهم بحكم الدولة الفيصلية، لكن هذا الموقف سينسجم مع موقف جمعية العربية الفتاة حين يكون عنوان الحركة الوطنية بعد انقضاء دولة فيصل التحذير من تقسيم المنطقة والمطالبة بحكم عربي لبلادهم، ودولة تتجاوز حدود منطقتهم، وسيبرز موقفهم أكثر انسجامًا مع مبادئ الأحرار العرب في المعارضة الوطنية التي تشكلت في حقبة الإمارة (1920-1946) وكان عنوانها رفض الانتداب البريطاني ورفض الوصاية الأجنبية ووعد بلفور.

خامسًا: رفض الاحتلال والتقسيم في مؤتمر الصلح

بعد إخراج العثمانيين من الأردن وبلاد الشام، وإعلان الحكومة العربية الفيصلية في تشرين الأول/أكتوبر 1918، عيّن فيصل بن الحسين حكامًا عسكريين في شرق الأردن الذي كان جزءًا من الإقليم الجنوبي للدولة العربية، وكانت الإدارة العسكرية بقيادة جعفر باشا العسكري في المناطق التي يسميها محمد العجلوني مشارف الشام أو شرق الأردن(87). بدأت الإجراءات والترتيبات

---

(86) عبيدات، ص 74.

(87) يشير محمد العجلوني إلى وجود دعاية لفرنسا في الكرك، لكنه وأدها وحاسب الذين قاموا بها. وأقام العجلوني وقيادته في الكرك فيما نزل جعفر باشا العسكري في بيت توفيق المجالي ليشرف على إدارة لواء الكرك، وبعد أن انتقلوا إلى عمان نزل العسكري في بيت دار المفتي وهو من زعماء الشركس، واتخذ له مكتبًا في إحدى بنايات منطقة المحطة. انظر: مذكرات عودة سلمان القسوس، ص 75-77.

الإدارية، وابتهج الناس لهذا الإجراء، وأقسم المواطنون يمين الإخلاص للعلم العربي والحكومة العربية[88]. وتشير الصحافة إلى مجموعة من القرارات الخاصة بترتيب الأوضاع بعد جلاء قوات الحلفاء، في بلدة مأدبا والكرك خصوصًا، حيث أعيدت الأراضي إلى المسيحيين من أهلها، بعدما استولت عليها قبائل البدو عنوة خلال الحرب، كما تمّ استحداث لواء البلقاء وكانت مدينة السلط مركزًا له[89].

شارك أهالي شرق الأردن بممثلين عنهم في المؤتمر السوري العام بين أواخر حزيران/ يونيو 1919 وأواخر تموز/ يوليو 1920. أكد هذا المؤتمر في بياناته وجلساته استقلال البلاد السورية[90]، وأعلن المشاركون فيه التزامهم الدولة السورية الملكية المدنية النيابية. ولما كان فيصل بن الحسين يُمثل العرب في مؤتمر الصلح في باريس في عام 1919، لم يترك أهالي شرق الأردن المؤتمر من دون التنديد بأي خطوة من شأنها تقسيم البلدان العربية، إذ أحسوا بأن واقعًا جديدًا سيفرض على المنطقة، وذلك في برقية موجهة إلى الأمير فيصل في باريس والمراجع العليا في دمشق، وقعها مشايخ عجلون في 10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، تُظهر جليًا مخاوف الأردنيين من تقسيم البلدان العربية وإخضاعها للاحتلال الأجنبي، وجاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم. قال تعالى: ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه**﴾. إن توافر الإشاعات عن تقسيم البلاد قد جعلنا في هياج عظيم نحن عشائر عجلون ومشايخه، وجميع أهاليه على اختلاف الملل، نحتج بكل قوانا على أقل تقسيم يمس البلاد العربية، ونحن متهيئون للدفاع. لنا أسوة بالأمم المتحررة، وكأمة لها حظ من النصر الأخير نؤكد طلب استقلالنا المطلق، وندافع حتى نلقى الله. تكرموا بإبلاغ عواطفنا إلى مؤتمر الحلفاء، الأهلون في هياج عظيم، عشرات الألوف في عجلون ينتظرون الجواب...المشايخ: كايد المفلح، سعيد العلي، ناجي العزام، شيخ فالح، شيخ

---

(88) المصدر نفسه، ص 115.

(89) البشير، 13/ 12/ 1919، ص 3-4، وعن مشكلة الأراضي التي استولت عليها قبائل بني صخر وأعادتها، انظر: البشير، 28/ 10/ 1919، ص 3.

(90) علي، مذكرات تحسين علي، ص 86-89. وقد مثل الأردن في المؤتمر عدد من الوجهاء والمشايخ ومنهم: سعيد أبو ناجي وسعيد الصليبي وعبد الرحمن ارشيدات وسليمان السودي وخليل التلهوني وعيسى المدانات والشيخ علي الكايد.

بشير، شيخ علي. مشايخ عجلون: كليب اليوسف، شيخ سليمان النوري، شيخ إبراهيم، رئيس بلدية عجلون مصطفى حجازي. مشايخ: راشد الخزاعي، محمود الفنيش، شيخ شلاش، شيخ محمد أمين»[91].

تشير الصحافة إلى أن الأمير فيصل كان يعوّل على موقف داعم من مشايخ القبائل، فعين الشيخ ماجد العدوان زعيمًا لعشائر الأردن لجمع كلمتهم ضد الفرنسيين قبيل معركة ميسلون، وهذا ما أثار بعض مشايخ القبائل الأخرى ضد هذا الموقف، ما يشير إلى التباس في مواقفهم بعضهم من بعض، ما أدى إلى إضعاف دورهم في محاربة الفرنسيين[92]. كانت مساهمتهم محدودة، فيذكر العجلوني في مذكراته أن سلطان باشا العدوان قدم إلى ميسلون على رأس نجدة من عشائر الأردن، إضافة إلى قوة أخرى من شراكسة الأردن بزعامة ميرزا بيك[93]. يفصل العجلوني في طبيعة الدور الذي أداه مع يوسف العظمة في الاستعداد للمعركة والمواجهة خلالها، ويروي الخسارة الفادحة، والمقاومة التي أبداها الجنود[94].

سادسًا: مؤتمر أم قيس والدعوة إلى حكم عربي

بعد انتهاء الحكم الفيصلي في دمشق عقب معركة ميسلون في 24 تموز/ يوليو 1920، عاش شرق الأردن فراغًا سياسيًا لنحو شهر، فاضطرت بريطانيا إلى التدخل في 21 آب/ أغسطس 1920 عندما اجتمع المندوب السامي هربرت صموئيل بزعماء شرق الأردن (زعماء الكرك وعمان وعجلون والسلط والطفيلة في السلط)[95]، وخلص المجتمعون إلى تأسيس حكومات محلية في الكرك

(91) انظر نص البرقية في: أوراق أكرم زعيتر، المكتبة الوطنية، وثيقة غير منشورة، ومفلح العدوان، «قَم: المؤتمر.. وسيرة الغائبين (2)،» الرأي، 1/ 10/ 2013.

(92) جاء في خبر جريدة البشير وكتب إلى لسان العرب من عمان أن حكومة فيصل كانت قد عينت الشيخ ماجد العدوان زعيمًا وانتدبته لجمع العشائر ضد الفرنسيين، إلا أن مثقال باشا الفايز زعيم بني صخر والشيخ مشهور رئيس مشايخها جمعا قبائل الأديات والدعجة وبني حسن والمحارمة والشرارات والحويطات وزوداهم بالنصائح المؤثرة فاخلدوا إلى السكينة..» انظر: البشير، 17/ 8/ 1920، ص 4.

(93) العجلوني، ص 99.

(94) المصدر نفسه، ص 101-103.

(95) يقول الزركلي إن القبائل الأردنية راسلت هربرت صموئيل في القدس، خشية أن تقع البلاد بيد فرنسا، وأن هربرت عند التقاهم أكد لهم أن فرنسا لن تحتل بلادهم، خير الدين الزركلي، عامان في عمان: مذكرات عامين في عاصمة شرق الأردن 1921-1923 (عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2009)، ص 78.

وإربد وعجلون وجرش والسلط، واتفقوا مع المندوب السامي على حضور 4 إلى 5 ضباط سياسيين بريطانيين لمساعدة تلك الحكومات، شرط أن تأتمر بمشورتهم[96]. وكان زعماء هذه الحكومات من وجهاء أو مشايخ العشائر[97].

استمرت الحكومات المحلية نحو ثمانية شهور، بين أيلول/ سبتمبر 1920 ونيسان/ أبريل 1921[98]، لكنها بقيت جهوية عديمة التقدم، كما لم يكن واضحًا آنذاك ما يجب أن تكون عليه الصورة في شرق الأردن، ولعل بريطانيا أرادت إيجادها لاختبار قوة القبائل أو إقناعهم بعجزهم عن التوحد لحين تسوية أمور المنطقة نهائيًا. ولم تكن المدن في شرق الأردن تقر باحتلال الشام من قبل فرنسا، ونشطت التظاهرات، وقام رئيس بلدية عمان سعيد خير باستلام التلغرافات والتحارير من حوران، «يبشر بانكسار الفرنسيين وذبحهم وجلاء بواقيهم من الشام، ويبث الرسائل في البلقاء لاستنهاض الهمم، وجرت في عمان بعض المظاهرات انتصارًا لأهالي حوران»[99].

يرى الناظر إلى زعماء الحكومات أنهم كانوا من الذين ثاروا على الأتراك وشاركوا في ثورة العرب الكبرى[100]. فبريطانيا أرادت مكافأتهم والحد من نزعتهم الثورية وبالتالي إقرار واقع جديد يمكّنها من تنفيذ وعد بلفور، لكنها

---

(96) علي محافظة، تاريخ الأردن المعاصر، عهد الإمارة 1921-1946، ط 2 (عمان: مركز الكتب الأردني، 1989)، ص 19، سليمان موسى، تأسيس الإمارة الأردنية، 1921-1925: دراسة وثائقية شاملة بمناسبة مرور خمسين سنة على تأسيس الدولة الأردنية (عمان: مكتبة المحتسب، 1971)، ص 11؛ يذكر محمد علي العجلوني أنه حين عاد إلى شرق الأردن، التقى الميجر سمرست وهو الضابط البريطاني الذي كان مكلفًا بمساعدة حكومة عجلون. العجلوني، ص 103.

(97) محافظة، تاريخ الأردن، ص 16-19.

(98) انظر تقرير البشير عن الحكومات المحلية. انظر: البشير، 23/ 9/ 1920، ص 4، وتعلق البشير على حوادث النهب والفوضى: «فإن بقي البريطانيون مصرين على عدم إرسال قوة مسلحة للبلاد لحفظ الأمن فيها أكلت الناس بعضها بعضًا عن قريب».

(99) البشير، 23/ 9/ 1920، ص 4.

(100) هؤلاء الزعماء هم: مظهر أرسلان زعيم حكومة البلقاء، ورفيفان المجالي رئيس حكومة، وعلي خلقي الشرايري رئيس حكومة إربد، والشيخ ناصر الفواز الزعبي رئيس حكومة الرمثا والشيخ ناجي العزام رئيس حكومة الوسطية، والشيخ راشد الخزاعي رئيس حكومة عجلون والشيخ كليب الشريدة رئيس حكومة دير أبي يوسف.

اكتشفت - على ما يبدو - أن النزعة القبلية والجهوية ستعمق الخلاف في المنطقة الواقعة شرق الأردن وتحيلها إلى أرض مقاومة لأطماعها، فالتقى عسكريون قاتلوا مع الملك فيصل، واتفقوا على خطة تمهد لقدوم الأمير عبد الله بن الحسين «إلى بلاد الأردن»[101].

بعد ذلك، بادر أهالي وزعماء الشمال الأردني في 2 أيلول/ سبتمبر 1920 إلى عقد مؤتمر «أم قيس» الذي عبر عن موقف حاسم في مسألة تكوين الهوية الوطنية الأردنية قبيل تأسيس الإمارة. ففيه رفض أهالي شرق الأردن الانتداب وطالبوا بتشكيل حكومة عربية وطنية مستقلة مكونة من لوائي السلط والكرك وقضائي عجلون وجرش، وضم لواء حوران وقضاء القنيطرة، وتمنى الأهالي ضم قضائي مرجعيون وصور إلى الحكومة في المستقبل، كما رفضوا وعد بلفور[102].

بدت مطالب الأهالي في مؤتمر أم قيس واضحة، وهذا الوعي الذي بدا متأثرًا بمطالب الحركة العربية الاستقلالية في دمشق والجمعيات العربية السرية سيتطور ويعبر عن هويته بشكل أفضل في المرحلة التالية، أي في حقبة الإمارة، من خلال مقاومة الانتداب البريطاني، ورفض سياسة الأمير عبد الله في التقرب من بريطانيا والتعامل مع الحركة الصهيونية.

خاتمة

من خلال عرض الأحوال العامة في الأردن قبيل الحرب العالمية وخلالها، يبدو جليًا أن الأردنيين استمروا بتقديم فروض الولاء والطاعة للدولة العثمانية في مواجهة أعدائها، على الرغم من سوء علاقتهم بالإدارة العثمانية وقيام هبّات محلية وحركات عصيان. ولهذا شاركوا في حروبها ودعموا جيشها وخدموا فيه واستجابوا لدعوة السلطان العثماني إلى الجهاد المقدس، وشاركوا في حرب

---

(101) العجلوني، ص 104. وكان من هؤلاء الضباط محمد علي العجلوني وأحمد مريود وخلف التل وأحمد التل. ويشير العجلوني إلى أنه ذهب ورفاقه إلى السلط وإربد وتواصلوا مع شيوخ بني صخر وأقنعوهم بضرورة قدوم الأمير عبد الله، أما الكرك فلم يذهبوا إليها، «لأن متصرفي الكرك والبلقاء أنذروا سمو الأمير بعدم الموافقة على دخوله شرق الأردن».

(102) انظر بتوسع عن مؤتمر أم قيس: محافظة، تاريخ الأردن، ص 18.

السويس، أي كان العلاقة بينهم وبين الدولة العثمانية مستمرة، واعتبروها وطنًا مقدسًا يجب الدفاع عنه.

مع انطلاق الثورة العربية في حزيران/ يونيو 1916، تباينت مواقف القوى الوطنية الأردنية منها، فعلى الرغم من تأييد محدود لقيته من قبائل الجنوب بزعامة الشيخ عودة أبو تايه الذي حسم موقفه الداعم للثورة العربية مبكرًا، فإن الالتحاق العام بالثورة تأخر حتى جلاء الجيش العثماني عن شمال الأردن في أيلول/ سبتمبر 1918. قبل ذلك، في تموز/ يوليو 1917، استطاعت الدولة العثمانية الضغط على بعض القبائل لمواجهة الثورة ومعارضتها وشن غارة عليها قرب العقبة في منطقة القويرة.

أما النخب العسكرية الأردنية التي شاركت في صفوف الجيش العثماني، فكانت سابقة على مشايخ القبائل، إذ التحق قسم كبير منها بجيش الثورة الشمالي بقيادة الأمير فيصل بن الحسين قبيل وصوله إلى العقبة، بسبب اتصالها بالجمعيات العربية في دمشق ومعرفتها بواقع الدولة وتقديرها للموقف العسكري.

في زمن الدولة العربية، التزم سكان شرق الأردن الحكم الفيصلي ووالوه، ومع انعقاد مؤتمر الصلح في عام 1919 حذروا من تقسيم البلدان العربية، وشاركوا في جيش يوسف العظمة في مواجهة الجيوش الفرنسية في ميسلون، ثم صاغوا رؤيتهم للمرحلة التالية وطالبوا بحكم عربي.

أظهرت الدراسة تغيرًا في مواقف السلطة العثمانية من زعماء القبائل والعشائر بعد حرب السويس، إذ اتبعت الدولة العثمانية سياسة الاحتواء والاستقطاب تارة، والتهديد بالنفي والاعتقال طورًا، كي تُحدّ من التفاف هؤلاء حول الثورة العربية والتحاقهم بها.

الفصل الثالث والعشرون

موقف أهل سنجق بيت المقدس
من نهاية الدولة العثمانية وبداية الاحتلال البريطاني
كما تعكسه الوثائق السرية البريطانية
1917-1918

محسن محمد صالح

احتلت القوات البريطانية المناطق التي تتبع سنجق بيت المقدس بحسب التقسيم الإداري العثماني، في إثر الحملة العسكرية التي قادها الجنرال إدموند أللنبي بدءًا من تشرين الأول/ أكتوبر 1917، وانتهاءً باحتلال القدس في 9 كانون الأول/ ديسمبر 1917[1].

تغطي هذه الدراسة السنة الأخيرة من الحرب العالمية الأولى، أو الفترة بين احتلال سنجق بيت المقدس وبدء الحملة الثانية الكبرى للقوات البريطانية لاحتلال باقي شمال فلسطين وسورية والأردن ولبنان، التي بدأت في منتصف أيلول/ سبتمبر 1918، وانتهت في آخر تشرين الأول/ أكتوبر 1918[2].

ماذا كانت مشاعر الناس وهم يرون نهاية الدولة العثمانية التي ألفوها خلال القرون الأربعة الماضية، وكيف استقبلوا بداية الاحتلال البريطاني؟

أشارت بعض الكتابات إلى مواقف الناس ومشاعرهم في تلك الفترة، وإن لم تُفرد لها مباحث خاصة، فتحدث عنها كامل خلة عائدًا إلى الجرائد والمجلات العربية المنشورة في تلك الفترة[3]، ولفتت إليها دورين إنغرامز (Doreen Ingrams) من خلال التركيز على وثائق الخارجية البريطانية[4]. أما في هذه الدراسة فنسلط الضوء على الموضوع من خلال دراسة وثائق الاستخبارات العسكرية البريطانية

---

(1) Edmund Henry Hynman [et al.], *A Brief Record of the Advance of the Egyptian Expeditionary Force under the Command of General Sir Edmund H. H. Allenby, G.C.B., G.C.M.G.: July 1917 to October 1918*, cdl; Americana, 2nd ed. (London: H. M. Stationery Office, 1919), pp. 2-10.

(2) المصدر نفسه، ص 28-34.

(3) كامل محمود خلة، فلسطين والانتداب البريطاني 1922-1939، ط 2 (طرابلس الغرب: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، 1982)، ص 105-106، 177-178، و194-203.

(4) *Palestine Papers, 1917-1922: Seeds of Conflict*, Compiled and Annotated by Doreen Ingrams (London: J. Murray, 1972).

المحفوظة في ملفات وزارة الحرب البريطانية ((War Office (W.O.)) والموجودة في دار الوثائق البريطانية، لندن ((Public Record Office (P.R.O.)).

تنبع أهمية هذه الوثائق من أن مناطق سنجق بيت المقدس رزحت في تلك الفترة تحت الحكم العسكري البريطاني، وتولى إدارتها حكام عسكريون. وتزداد أهمية هذه الوثائق إذا علمنا أنها كانت تكتب على شكل تقارير يومية، يكتبها ضباط الاستخبارات الموزعين على مناطق السنجق، وبالتالي أمكن لها أن تعايش الحوادث وأن توفر تفصيلات تفتقر إليها مصادر أخرى. وعلى الرغم من أن هذه التقارير تتحدث عن موضوعات شتى، إلا أننا نستطيع أن نجد في ثناياها إشارات وأخبارًا ومواقف متنوعة عن الموضوع الذي نحن بصدد دراسته.

لكن يجب التنبه إلى أن هذه التقارير لا تعكس دائمًا وبدقة مشاعر الناس ومواقفهم، وإنما تعكس في أحيان كثيرة الرؤية البريطانية للأمور، أو الصورة التي أرادت الاستخبارات أن تظهرها، أو الشعور الذي ذكره الناس للبريطانيين أو عملائهم، وهو شعور يحتمل المجاملة أو المبالغة، خصوصًا في أحوال الحرب وعدم الاستقرار. لكنها، على أي حال، تتضمن الكثير من الصحة وتضيء إحدى زوايا الموضوع، لتتكامل من خلال الدراسة النقدية المقارنة مع الزوايا التي سبق وأن أضاءتها المصادر الأخرى.

تنقسم هذه الدراسة جزأين: **الأول**، مواقف أهل سنجق بيت المقدس ومشاعرهم، حيث سنقدم دراسة وصفية مسحية لمواقف المناطق المختلفة؛ والثاني، العوامل التي أثرت في مواقف الناس ومشاعرهم. سنحاول استنباط هذه العوامل من خلال الحوادث والمواقف التي عكستها هذه التقارير، وهي بالطبع عوامل لم تشر إليها التقارير بشكل مرتب أو منفصل، وإنما هو اجتهاد الباحث من خلال مطالعة النصوص واستقرائها ومقارنتها.

أولًا: مواقف أهل سنجق بيت المقدس ومشاعرهم

أول ما تجدر الإشارة إليه هو أننا ندرس فترة تحول، تعكس أوضاعًا قلقة غير مستقرة، وتجاذبت الناس ومشاعرهم فيها أحوال متقلبة. فالحرب ما زالت قائمة، ولم تحسم نتيجتها بعد، فظلّ الدولة العثمانية لا يزال موجودًا في معظم بلاد الشام، والقوات البريطانية لم تكسب عمليًا إلا جنوب فلسطين (سنجق بيت المقدس).

وفي الوقت الذي كانت فيه أخبار التحالف البريطاني والثورة العربية تثير الآمال الكبار بمستقبل مشرق، كانت «شائعات» الاتفاقات البريطانية - الفرنسية والعهود البريطانية للصهيونية تثير هلعًا من غدٍ مظلم.

علينا ألا نستغرب إذا وجدنا نوعًا من التضارب والتناقض في هذه التقارير، لأن وضعها في سياقها التاريخي يعكس تقلب مشاعر الناس تجاه حوادث متسارعة وعوامل شدّ وجذب مختلفة، وليس بالضرورة تضارب هذه التقارير.

أشار تقرير الحاكم العسكري إلى أن احتلال القوات البريطانية القدس كان يحظى بشعبية استثنائية، لكنه يعترف بأن شعبية البريطانيين تضاءلت بعدها لأسباب اقتصادية، وبسبب خوف الناس من سياسة بريطانيا تجاه اليهود[5]. ولاحظ ضابط استخبارات القدس أن مسلمي المدينة أظهروا سلوكًا وديًا أفضل عندما تمّ تعيين أناس من بني دينهم في الوظائف الرسمية[6]. وتركت زيارة أللنبي، القائد العام للقوات البريطانية في المنطقة، إلى مفتي القدس كامل الحسيني أثرًا ممتازًا جدًا بحسب رأي حاكم القدس، بل وخففت أيضًا من مخاوف المسلمين تجاه اليهود[7]. غير أن قدوم البعثة الصهيونية في نيسان/ أبريل 1918 جدد هذه المخاوف. ونقل عن ضابط استخبارات القدس في 17 حزيران/ يونيو 1918 أن الشعور العام في القرى ليس وديًا جدًا، مشيرًا إلى أن المسألة الصهيونية هي السبب الرئيس لعدم الثقة عند المسلمين والمسيحيين[8]. وعندما حُسمت المعارك في شمال فلسطين والأردن لمصلحة البريطانيين، شعر الناس باقتراب إنشاء الدولة العربية بقيادة الشريف حسين، فقامت وفود كل الطوائف في القدس في 28 أيلول/ سبتمبر، بمن فيها رئيس البلدية والمفتي الأكبر وقادة الطوائف الدينية، بتقديم «أخلص التهاني للنجاحات الأخيرة للقوات البريطانية في فلسطين، وعبرت عن سعادتها بوجودها تحت حكم بريطانيا العظمى الرحيم»، على حدّ تعبير التقرير، وطلبوا نقل مشاعرهم إلى ملك بريطانيا[9].

---

(5) Intelligence Summary (War Diary), By General Headquarters [G.H.Q.], Egyptian Expeditionary Force [E.E.F)], Intelligence, 29 January 1918, p. 20, W.O. 157/723.

(6) Intelligence Summary, 6 March 1918, p. 17, W.O. 157/725.

(7) Intelligence Summary, 19 March 1918, p. 43, W.O. 157/725.

(8) Intelligence Summary, 17 June 1918, p. 17, W.O. 157/728.

(9) Intelligence Summary, 28 September 1918, p. 5, W.O. 157/731.

في يافا، ثاني أكبر مدن فلسطين بعد القدس، كانت المشاعر تجاه البريطانيين أكثر تحفظًا، ربما لملاصقتها تل أبيب التي أصبحت منطقة تركز ونمو يهوديين، وبالتالي شعر سكانها بشكل أكبر بالخطر الصهيوني، ولقربها أيضًا من خط المواجهة مع الأتراك. تعترف التقارير أن مشاعر الناس قلقة جدًا بسبب المعاملة التفضيلية لليهود(10)، وأن هناك خطابًا معاديًا للبريطانيين بشكل محدود في بعض القرى(11)، وأن مشاعر قوية معادية للبريطانيين استمرت في الظهور وسط المتعلمين وأنصاف المتعلمين(12). وفي أيار/مايو 1918، اعترف التقرير بأن الشعور العام عند المسلمين والمسيحيين تجاه البريطانيين لا يتحسن(13)، وأن قدرًا كبيرًا من عدم الرضا قد حدث بسبب إخلاء منطقة الحرب من السكان، وأن هناك حديثًا ضدّ بريطانيا يأتي بشكل مستمر من القرى، إلا أنه يدعي أن أغلبية الفلاحين ليست مع الأتراك ولا البريطانيين، لكن المخاتير والرجال الأكثر تأثيرًا يفضلون بشكل عام الحكم السابق(14).

في الخليل، يذكر تقرير وارد في 2 كانون الثاني/يناير 1918 أن 60 في المئة يؤيدون التحالف (Pro–Ally) وأن 35 في المئة من دون ميول سياسية(15). ويبدو من التقرير اعتراف ضمني بأن التأييد هو للتحالف، وليس بالضرورة لبريطانيا ذاتها، وأهم عنصر في هذا التحالف بالنسبة إلى السكان هو الثورة العربية الكبرى. وبعد أربعة شهور، يدّعي التقرير أن الشعور العام تجاه الأتراك يتسم بالعصبية والخوف من عودتهم، وأن أغلبية الناس تؤيد البريطانيين(16). وفي إحدى اليوميات، حاول ضابط الاستخبارات في الخليل تقديم تفسير مبني على رؤية اجتماعية طبقية لمشاعر الناس، فقال إن الرأي العام أكثر ميلًا إلى البريطانيين عند الطبقات الفقيرة منها عند العائلات الغنية. فهذه لا تحب الحكم البريطاني، إلا أنها لا تزال تميل إلى الصمت بسبب خوفها من عودة الاحتلال التركي(17).

(10) Intelligence Summary, 24 February 1918, p. 42, W.O. 157/724.
(11) Intelligence Summary, 27 March 1918, p. 62, W.O. 157/725.
(12) Intelligence Summary, 3 April 1918, p. 6, W.O. 157/726.
(13) Intelligence Summary, 9 May 1918, p. 13, W.O. 157/727.
(14) Intelligence Summary, 16 May 1918, p. 25, W.O. 157/727.
(15) Intelligence Summary, 2 January 1918, p. 2, W.O. 157/723.
(16) Intelligence Summary, 16 May 1918, p. 24, W.O. 157/727.
(17) Intelligence Summary, 8 July 1918, p. 9, W.O. 157/729.

في منطقة رام الله، رفع ضابط الاستخبارات فيها تقريرًا في 19 شباط/ فبراير قال فيه إن سكانها الذين ترتفع نسبة المسيحيين بينهم يتعاملون بشكل ودّي مع البريطانيين، وأنهم راضون تمامًا[18]. أما بلدة البيرة المجاورة لرام الله فلاحظ الضابط هناك أن سكانها مسلمون، وأنهم بلا شك مؤيدون للأتراك[19]. وهو هنا يعيد الأمر إلى خلفية دينية.

في منطقة بيت لحم، كان هناك اختلاف بين الناس. ففي المدينة ذاتها، تذكر اليوميات أن أغلبية السكان من النصارى، وأنها ودّية مع البريطانيين، وأن الناس راضين «ويباركون الاحتلال البريطاني»، وأن النصارى يتبنون سلوكًا حماسيًا بشكل عام تجاه البريطانيين[20]. ولاحظت اليوميات أنه حتى في 14 أيار/ مايو، ما زال شعور المسلمين في بيت لحم معاديًا للبريطانيين[21].

في ما يتعلق بالقبائل العربية المقيمة في جوار بيت لحم، تتحدث التقارير عن التعامرة بالكثير من التشكك والامتعاض. وأشارت أولى التقارير عنهم أنهم ليسوا أهلًا للثقة، وأن هناك على أي حال جهدًا يبذل للتأثير فيهم من خلال إشعارهم بفائدة وجودهم تحت الحماية البريطانية[22]. لكن ضابط الاستخبارات ما لبث أن عبّر عن غضبه، فادّعى أن التعامرة مجردين من المبادئ الخلقية، مستعدين للتعامل مع الأتراك ومع الإنكليز بحسب الثمن المعروض عليهم[23]. يضيف - في تقرير آخر - أن التعامرة مخادعون وليسوا موضع ثقة[24]. إن التعبيرات القاسية التي استخدمها ضابط الاستخبارات ضدّ التعامرة لا تعطي وصفًا صحيحًا، لكنها تعبر بشكل أدق عن حالة الانزعاج البريطاني منهم، وهي في هذه الحالة قد تكون «شهادة حسن سلوك» للتعامرة عند الأتراك.

---

(18) Intelligence Summary, 19 February 1918, p. 32, W.O. 157/724.

(19) Intelligence Summary, 27 February 1918, p. 53, W.O. 157/724.

(20) Intelligence Summary, 5 February 1918, p. 4, W.O. 157/724, and 5 March 1918, p. 13, W.O. 157/725.

(21) Intelligence Summary, 14 May 1918, p. 20, W.O. 157/727.

(22) Intelligence Summary, 5 February 1918, p. 4, W.O. 157/724.

(23) Intelligence Summary, 25 February 1918, p. 44, W.O. 157/724.

(24) Intelligence Summary, 1 March 1918, p. 1, W.O. 157/725.

في نظرة عامة إلى القبائل العربية في منطقة البحر الميت المجاورة لمدن القدس وبيت لحم والخليل، تقول إحدى المذكرات أن سلوكها ودّي، باستثناء قبيلة السواحرة، وإن العرب سعداء بتقدم القوات البريطانية، لكنه يعترف: «إذا انسحبنا، من المرجح أن يكون سلوكهم ودّيًا مع الأتراك»[25]. وهذا اعتراف معناه أن السلوك الودي تجاه البريطانيين اقتضته أحوال الاحتلال القائمة الطارئة، وليس موقفًا يعبر بعمق عن حقيقة المشاعر الداخلية للسكان.

في غزة، ذكرت اليوميات أن تصرف سكان غزة تجاه القوات استمر جيدًا[26]، وأنه ودّي تجاه البريطانيين ومعادٍ للأتراك[27]، وأن 90 في المئة من الرأي العام في منطقة غزة «سعيد بالاحتلال البريطاني»[28].

في المجدل، أشارت اليوميات إلى حماسة الناس للبريطانيين، فذكرت أن الأغلبية الكبرى من السكان تُظهر بشكل صادق سعادتها بالاحتلال البريطاني[29]، وأن 90 في المئة من سكان المجدل يرحبون بالبريطانيين[30]. ونقل ضابط استخبارات المجدل عن أحد السكان قوله له إن كثرة الأمطار وأجواء المناخ الممتازة هذا العام دليل على موافقة العناية الإلهية على الاحتلال البريطاني[31]!! وبلغ من المجاملة للبريطانيين أن السكان نقلوا رغبتهم بألا يُعين في الإدارة موظفين من الإدارة التركية السابقة، ورفعوا عريضة في هذا الشأن، تضمنت أن يتم إحضار القاضي الديني المعين من القاهرة!! وأشار التقرير إلى أن غياب التعصب الديني والسلوك الودي تجاه بريطانيا وجد دليلًا من حقيقة أن تاجرًا بارزًا في المدينة دعا الحاكم العسكري للمجدل إلى حضور الاحتفال الديني في المسجد[32].

يبدو أن ما ينطبق على المجدل لم ينطبق على قراها المجاورة. إذ اعترفت

(25) Memorandum, December Diary 1917, p. 7, W.O. 157/722.
(26) Intelligence Summary, 25 January 1918, p. 16, W.O. 157/723.
(27) Intelligence Summary, 19 February 1918, p. 30, W.O. 157/724.
(28) Intelligence Summary, 15 January 1918, p. 11, W.O. 157/723.
(29) Intelligence Summary, 11 January 1918, p. 7, W.O. 157/723.
(30) Intelligence Summary, 24 January 1918, p. 16, W.O. 157/723.
(31) Intelligence Summary, 12 February 1918, p. 17, W.O. 157/724.
(32) Intelligence Summary, 22 February 1918, p. 38, W.O. 157/724.

اليوميات بوقوع حوادث ذات طبيعة معادية، وأشارت بأصابع الاتهام إلى البدو في أحد الأحيان، وفي مواضع أخرى تحدثت بغضب عن قرية «يبنة» حيث وقع قربها حادث إعاقة على الخط الحديدي. وأشارت إلى أن لهذه القرية سمعة سيئة، ولها إساءات سابقة[33]. وليس من المستبعد - في رأينا - أن هذه الحوادث ربما عبرت عن حالة العداء تجاه البريطانيين، ولم تكن مجرد حوادث سلب ونهب عادية. ونقل عن مخاتير قرية السوافير الشرقية يخبرون القرويين أن الأتراك سيعودون قريبًا، وألا يلقوا اهتمامًا للأمر بتسليم أسلحتهم[34].

في منطقة بئر السبع حيث تكثر القبائل العربية البدوية، مال السلوك العام إلى تجنب الاحتكاك بالبريطانيين[35]، أي تبنى هؤلاء البدو نوعًا من السلوك الودي السلبي. وكان هناك شعور أن الاحتلال البريطاني موقت، وبالتالي كانوا يرغبون في أن يتركوهم وشأنهم[36]. وعندما بدأت القوات البريطانية تجمع الأسلحة ومصادرتها، أثار ذلك امتعاض البدو واستفز عداءهم[37]، نظرًا إلى أهمية السلاح الحيوية في الحياة البدوية. ونقلوا للحكومة اعتراضهم على ذلك وأن الحكومة «تعاملهم كالنساء»[38].

حاولت تقارير الاستخبارات تصنيف مشاعر القبائل تجاه البريطانيين، فذكرت أن «التياها» على صلة ودّية بالإدارة البريطانية، وأن أغلبية «الترابين» ودّيين، وأن «الجبارات» راضون إلى حدّ معقول بالإدارة البريطانية، أما «الحناجرة» فليسوا ودّيين كثيرًا[39]. وقال تقرير للاستخبارات إن قبيلة العزازمة انعزلت جانبًا، «وتجاهل مشايخها دعوتنا لهم»، وأن العملاء يخبرون عن وجود حديث عدائي بينهم ضدّ البريطانيين، لكنهم ليسوا معادين بشكل مكشوف. وذكر أن عدد العزازمة يبلغ 3500 شخص، وأنهم مشككون في الأوروبيين لدرجة العداء، وأن

---

(33) Intelligence Summary, 5 April 1918, p. 11, W.O. 157/726.

(34) Intelligence Summary, 5 April 1918, p. 11, W.O. 157/726.

(35) Intelligence Summary, 13 January 1918, p. 10, W.O. 157/723.

(36) Intelligence Summary, 26 February 1918, p. 48, W.O. 157/724.

(37) Intelligence Summary, 18 February 1918, p. 29, W.O. 157/724.

(38) Intelligence Summary, 14 May 1918, p. 21, W.O. 157/726.

(39) Intelligence Summary, 9 April 1918, p. 17, W.O. 157/726.

شيخهم عم سالم بن سعيد معاد جدًا للبريطانيين، وسعى إلى التأثير في الشريف حسين ضدّ البريطانيين[40]. ووصف العزازمة بأنهم الأكثر في عدم الودية والتشكك وسط القبائل[41]. لكنه ما يلبث بعد عشرة أيام أن يذكر أن سلوك العزازمة أصبح وديًا[42]. ثم يعود بعد ذلك بشهر للاعتراف بأن العزازمة لا يحبون أي حكومة تركية أو بريطانية[43].

تحدثت التقارير في 20 كانون الثاني/ يناير 1918 عن معسكرات ضخمة تضم قبائل شتى تجمعت إلى الشرق من بئر السبع على طول وادي الملح وإلى الشمال منه، وذكرت بأن هؤلاء الرجال مسلحون بكميات كبيرة من البنادق التركية والبريطانية، ويظهر أن هناك «حجمًا كبيرًا من الشعور المعادي للبريطانيين وسط هذه القبائل»[44]. ويبدو أن السلطات البريطانية لم تستطع أن تفرض هيبتها على البدو حتى شباط/ فبراير 1918، إذ تعترف إحدى التقارير بأن ستة من البدو هاجموا اثنين من السباهي (مجندين هنود في الجيش البريطاني)، وصادروا بغليهما[45].

يشير العرض السابق للمناطق إلى نوع من تداخل المشاعر، وإلى أشكال متباينة من السلوك تجاه العثمانيين والبريطانيين في أجواء وأحوال غير مستقرة.

ثانيًا: العوامل المؤثرة في مواقف الناس ومشاعرهم

1- الثورة العربية الكبرى

لا شك في أن الثورة العربية التي أعلنها الشريف حسين بن علي في حزيران/ يونيو 1916 كانت إحدى العوامل الحاسمة في تحديد موقف الناس من الحكم

(40) Intelligence Summary, 26 February 1918, pp. 48–49, W.O. 157/724.

(41) Intelligence Summary, 1 March 1918, p. 1, W.O. 157/725.

(42) Intelligence Summary, 11 March 1918, p. 30, W.O. 157/725.

(43) Intelligence Summary, 9 April 1918, p. 17, W.O. 157/726.

(44) Intelligence Summary, 20 January 1918, p. 20, W.O. 157/723.

(45) Intelligence Summary, 2 February 1918, p. 1, W.O. 157/724.

العثماني، وفي طريقة استقبالهم الاحتلال البريطاني. وإذا تتبعنا مواقف الناس في أثناء الحرب العالمية الأولى (1914-1918)، نستطيع أن نلمس فرقًا كبيرًا قبل قيام الثورة وبعد قيامها.

كان الجو العام يتجه نحو تأييد العثمانيين في حربهم ضدّ بريطانيا وحلفائها. وجرت حملات تعبئة كبيرة داخل فلسطين لدعم العثمانيين، واستُقبل الجيش العثماني بحفاوة كبيرة، وتطوع الكثيرون في الحملة العثمانية ضدّ البريطانيين في مصر، وذهب وفد من علماء فلسطين إلى اسطنبول لتهنئة العثمانيين بانتصاراتهم في جناق قلعة في عام 1915[46].

غير أن إصرار حكومة «الاتحاد والترقي» على تجاهل مطالب العرب، وتنكرها لوعودها التي قطعتها، وتعيينها جمال باشا الذي نكّل بكثير من قادة العرب ورموزهم، واستمرارها في سياسة علمنة الدولة بتغييب هويتها الإسلامية، أفقد المسلمين من القوميات الأخرى أهم عناصر وأسباب حب الدولة العثمانية والولاء لها[47].

كان لتحالف الشريف حسين مع البريطانيين تأثير كبير في قطاعات واسعة من أبناء فلسطين الذي رأوا في البريطانيين حلفاء لهم، يقدمون الدعم في سبيل إنشاء الدولة العربية. اعترفت التقارير البريطانية في تلك الفترة أنه تمّ تشجيع مثل

---

(46) انظر مثلًا في كتابات ومذكرات شخصيات عاصرت تلك الفترة: خليل السكاكيني، كذا أنا يا دنيا، سلسلة إحياء التراث الثقافي الفلسطيني، ط 2 (دمشق: الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، 1982)، ص 84-85؛ وعجاج نويهض، رجال من فلسطين ما بين بداية القرن حتى عام 1948 (بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، 1981)، ص 36، 157، 246 و250؛ وأحمد الشقيري، أربعون عامًا في الحياة العربية والدولية (بيروت: دار النهار للنشر، 1969)، ص 25، ومحمد عزة دروزة، نشأة الحركة العربية الحديثة: انبعاثها ومظاهرها وسيرها في زمن الدولة العثمانية إلى أوائل الحرب العالمية الأولى (بيروت: المكتبة العصرية، [د. ت.])، ص 344.

(47) تعرضت الكثير من الكتابات والدراسات لهذا الأمر، انظر مثلًا: ثورة العرب ضد الأتراك: مقدماتها، أسبابها، نتائجها، بقلم أحد أعضاء الجمعيات السرية العربية، حققه وقدم له عصام محمد شبارو (بيروت: دار مصباح الفكر، 1987)؛ دروزة، ص 336-339، وانظر: George Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement* (Beirut: Libraririe du Liban, 1969), and بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين 1917-1948، سلسلة الدراسات؛ 57 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1981)، ص 24-46.

هذه المشاعر، فيذكر تقرير لجنة بالين (Palin) مثلًا أن الخيال العربي كان مشتعلًا برؤية إمبراطورية عربية تحت حكم شريف مكة، وأن عرب فلسطين، بمن فيهم المسيحيين، كانوا يحلمون بذلك. ويعترف التقرير بأن النتيجة كانت تحوُّل المشاعر عن الولاء للأتراك نحو شعور ودِّي تجاه «الاحتلال البريطاني»، ويضيف أن هذا الشعور تمّ تشجيعه بكل سبل الدعاية الممكنة التي انتهجتها وزارة الحرب البريطانية، وأن الانطباع الأولي لدى العرب كان أن البريطانيين يقومون بإنشاء دولة عربية تتضمن فلسطين، وأن سياسة الحلفاء المعلنة المؤيدة لتقرير المصير للشعوب الصغيرة شجعت الفلسطينيين على «الظن» بأنه سيسمح لهم بالاتحاد مع الدولة العربية الكبرى[48]. ألقت الطائرات الحربية البريطانية نفسها مناشير على فلسطين باسم الشريف حسين، ومما ورد فيها: «... هلموا للانضمام إلينا نحن الذين نجاهد لأجل الدين وحرية العرب، حتى تصبح المملكة العربية كما كانت في عهد أسلافكم»[49].

على الرغم من انتشار «شائعات» في فلسطين في تلك الفترة تتناول وعد بلفور لليهود واتفاقات سايكس - بيكو بين فرنسا وبريطانيا، إلا أن تأكيدات بريطانيا ووعودها التي استمرت في الصدور طوال عام 1918 (كان أبرزها تأكيدات ديفيد هوغارث في شباط/ فبراير 1918، والتصريح البريطاني للسوريين السبعة في حزيران/ يونيو 1916، والتصريح الأنكلو - فرنسي في تشرين الثاني/ نوفمبر 1918) كانت تحمل وعودًا بالحرية والاستقلال وقيام حكومات وطنية بحسب رغائب السكان[50]. ساهم ذلك في استمرار حالة التأييد والسلوك والودي تجاه البريطانيين، وفي شلِّ أي استراتيجيا لتحرك عربي فاعل معادٍ للبريطانيين، وتحويل الناس إلى حالة من الترقب بانتظار انتهاء الحرب وتقرير مصير فلسطين.

---

(48) «Report of the Court of Inquiry Convened by Order of his Excellency the High Commissioner and Commander in Chief (Egypt),» Dated 12 April 1920, Submitted by the Court in 1 July 1920, Secret, p. 7, F.O. 371/5121.

لجنة بالين هي لجنة عسكرية عرفت باسم رئيسها اللواء بالين (P.C. Palin)، شكلها الجنرال أللنبي للتحقيق في انتفاضة موسم النبي موسى التي اندلعت في 4 نيسان/ أبريل 1920.

(49) ملف وثائق فلسطين: مجموعة وثائق وأوراق خاصة بالقضية الفلسطينية، الجزء الأول: من عام 637 الى عام 1949 (القاهرة: وزارة الإرشاد القومي، الهيئة العامة للاستعلامات، 1969)، ص 167.

(50) انظر: الحوت، ص 67-74، وعبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ط 10 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1990)، ص 73-84.

تعكس تقارير الاستخبارات البريطانية جانبًا من حالة التأييد للثورة العربية الكبرى، فتنقل عن عربي مسيحي، كان ضابطًا طبيبًا في الجيش العثماني، قُبض عليه في الأول من أيار/ مايو 1918، قوله إن المسلمين العرب متشوّقون ليروا استعادة الخلافة العربية(51). ويذكر تقرير أعدته الاستخبارات في 10 أيار/ مايو 1918 أن العرب يميلون إلى ملك الحجاز باعتباره رأس دينهم، ويتوقعون أن يقوم بتشكيل حكومة عربية في سورية(52). وينقل ضابط استخبارات المجدل عن الهاربين من الجندية قولهم إن الأتراك يردون الانتصار البريطاني في فلسطين إلى مساعدة الشريف حسين(53).

تؤكد تقارير الاستخبارات البريطانية التي نركز عليها في هذه الدراسة وجود حالات هرب واسعة وسط الفلسطينيين من الجيش العثماني، كما تشير إلى انضمام أعداد لا بأس بها منهم إلى قوات الثورة العربية الكبرى، ما يؤكد قوة تأثير هذا العامل في أبناء فلسطين. فيشير تقرير الاستخبارات العسكرية البريطانية في 2 كانون الثاني/ يناير 1918 أن عدد الهاربين من الجندية في منطقة الخليل خمسة آلاف رجل(54)، وفي تقرير آخر أن عدد الهاربين من الجندية في منطقة المجدل 2882 هاربًا، منهم 791 مقاتلًا(55).

في تقرير كتبه ضابط استخبارات يافا في الأول من آذار/ مارس يقول إن عدد الهاربين من الجندية المسجلين لديه هو 1947 رجلًا(56). وبالطبع، هناك أعداد كبيرة أخرى في مناطق تتبع سنجق بيت المقدس، مثل القدس وغزة وبئر السبع وبيت لحم ورام الله. ولو أردنا إعطاء تقرير للهاربين من الجندية من أبناء سنجق بيت المقدس - بناءً على الأمثلة المعروفة لدينا في بعض المناطق - لربما زاد العدد على 15 ألف رجل.

---

(51) Intelligence Summary, 13 May 1918, p. 20, W.O. 157/726.

(52) Political and Economic Intelligence Summary, General Headquarters [G.H.Q.] and Egyptian Expeditionary Force [E.E.F)], 10 May 1918, p. 2, W.O. 157/727.

(53) *Political, Economic and Financial Intelligence Bulletin* (5 April 1918), p. 2, W.O. 157/726.

(54) Intelligence Summary, 2 January 1918, p. 3, W.O. 157/723.

(55) Intelligence Summary, 12 February 1918, p. 17, W.O. 157/724.

(56) Intelligence Summary, 1 March 1918, p. 2, W.O. 157/725.

من ناحية أخرى، نشط دعاة الثورة العربية الكبرى في تجنيد أبناء سنجق بيت المقدس للانضمام إلى الثورة، وأنشأوا في حزيران/ يونيو 1918 مكتبًا رسميًا للتطوع بتشجيع بريطاني(57). وتشير تقارير الاستخبارات البريطانية بين آن وآخر إلى تطور أعداد المنضمين إلى الثورة، فتذكر مثلًا أنه حتى 27 تموز/ يوليو 1918، وصل عدد المجندين في جيش الشريف في القدس إلى 534 مجندًا(58)، وتمّ تجنيد 160 متطوعًا حتى 4 آب/ أغسطس في يافا(59). وبحسب ما يشير جورج أنطونيوس، فإن عدد المتطوعين في جيش الشريف بلغ ألفين(60)، وهو رقم معقول نسبيًا مقارنة بالأرقام التي أشارت إليها الاستخبارات البريطانية في مناطق وأوقات مختلفة.

نستنتج من ذلك أن الثورة العربية حققت نجاحًا لا يستهان به وسط الفلسطينيين المجندين في الجيش العثماني. لذلك، فمن باب أولى أن تكون قد حققت شعبية واسعة وسط الفلسطينيين أنفسهم الموجودين تحت الاحتلال البريطاني، والبعيدين عن أجواء الهيمنة والضبط والملاحقة العثمانية.

من جهة أخرى، نلاحظ أن أعدادًا كبيرة من الهاربين من الجندية فضلت عدم الانضمام الفعلي إلى الجيش الشريفي، ورغبت في أن تُترك وشأنها، وأن تعود إلى ممارسة حياتها المعتادة في قراها ومدنها. ولعلنا نستطيع تفسير ذلك بالتذكير بأن التجنيد في الجيش العثماني كان إجباريًا، بينما التجنيد في جيش الشريف كان اختياريًا، وبأحوال المعاناة الاقتصادية نتيجة الحرب، وبإمكانات الاستيعاب، وبحالة عدم الاطمئنان إلى الوعود البريطانية التي غزت نفوس كثيرين، وما أصبحوا يرونه بأعينهم من إعطاء مزايا لليهود. لذلك، تذكر هذه التقارير أن جهد التجنيد في جيش الشريف لم يكن ناجحًا جدًا، وواجه عدم استجابة في بعض الأحيان. ونقلت عن عدد من المسلمين قولهم «إنهم لا يعرفون لماذا يجب أن يقاتلوا حتى يعطوا فلسطين لليهود»(61).

---

(57) Intelligence Summary, June 1918, W.O. 157/728.

(58) Intelligence Summary, 24 July 1918, p. 2, W.O. 157/729.

(59) Intelligence Summary, 7 August 1918, p. 6, W.O. 157/730.

(60) Antonius, p. 230.

(61) Intelligence Summary, 1 June 1918, p. 1, W.O. 157/728.

ربما نستطيع القول إن الثورة العربية كانت عاملًا مهمًا في إضعاف العثمانيين وتحييد أبناء سنجق بيت المقدس، إلا أنها لم تكن عاملًا فاعلًا في تجنيد أعداد كبيرة منهم، بسبب المخاوف التي كانت تجد صداها لديهم. في المقابل، تبين هذه التقارير انزعاج أبناء سنجق بيت المقدس من الشكل الذي تتم به الأمور، فينقل تقرير في 13 آذار/ مارس 1918 أن المسلمين مصابون، إلى حدٍّ ما، بخيبة أمل من الطريقة التي تطورت فيها الحركة العربية حتى الآن: «توقعوا أن تصبح الحركة العربية حركة مستقلة لخدمة الإسلام على الرغم من دعم بريطانيا العظمى لها. ويظهر أنهم فوجئوا بأن الشريف لم يدخل القدس ولم يصلِّ في مسجد عمر [المسجد الأقصى]. بدأوا يشعرون أن إنكلترا حرّضت الحركة العربية لمصلحتها الخاصة». ومع ذلك يضيف التقرير أن «بعضهم يصرح أنه إذا كانت الخلافة ستُمنح للشريف فإن ذلك سيعوّض خسارة المكانة والهيبة التي لحقت بالإسلام»(62).

يبدو أن مسلمي يافا كانوا أكثر وضوحًا في التعبير عن مخاوفهم، إذ يذكر تقرير أن أغلبيتهم تنظر إلى ملك الحجاز باعتباره رئيسًا صوريًا، وتظن في الحقيقة أن بريطانيا العظمى هي التي تقوم بحملة الحجاز(63).

2- العامل الديني

لا يمكن تجاهل العامل الديني لدى السكان في تحديد مواقفهم من العثمانيين والبريطانيين، خصوصًا أن التدين كان عميقًا في النفوس في تلك الفترة. رأينا أن جانبًا كبيرًا من تأييد السكان للثورة الكبرى قام على أسس دينية. ويبدو لنا أن العامل الديني استخدم بشكل فاعل من الطرف المؤيد للعثمانيين ومن الطرف المؤيد للثورة العربية وحلفائها، وذلك في سبيل تأكيد الشرعية وتجميع الأنصار. لعل هذا التعارض أدى إلى أن يكون تأثير العامل الديني متعادلًا، ولم يكن أمرًا حاسمًا لكسب المؤيدين عند أي طرف من الأطراف. فبينما لجأ العثمانيون إلى حشد الأنصار على أساس دعم الخلافة الإسلامية وسلطان المسلمين، وحماية بلاد الإسلام من الكفار، لجأ أنصار الثورة العربية إلى الطعن في حقيقة الالتزام الديني لقادة «الاتحاد والترقي» وإبراز انحرافاتهم، والتأكيد على أحقية العرب

(62) Intelligence Summary, 13 March 1918, p. 33, W.O. 157/725.

(63) Intelligence Summary, 24 April 1918, p. 40, W.O. 157/726.

بإقامة الخلافة تحت قيادة زعيم حزب عربي من السلالة النبوية، وعلى جواز التحالف مع البريطانيين - كما تحالف الأتراك مع الألمان - الذين أعطوا العهود والمواثيق بإقامة الحكم العربي.

من خلال دراسة الوثائق البريطانية، ظهر واضحًا أن بريطانيا أدركت قيمة العامل الديني في حربها مع العثمانيين. وأشارت الوثائق إلى أن من أبرز أهداف تحالف بريطانيا مع الشريف حسين إلغاء التأثير الديني لنداء الجهاد الذي أصدره الخليفة العثماني، وعدم تحويل الحرب بين الدولة العثمانية ضدّ البريطانيين إلى حرب دينية تؤدي إلى إثارة المسلمين، لا في الدولة العثمانية فحسب، لكن في البلاد التي يسيطر عليها الاستعمار البريطاني كمصر والسودان والهند وجنوب الجزيرة العربية. ويؤدي قيام ثورة عربية تحت قيادة تتمتع باحترام المسلمين دينيًا وتاريخيًا إلى كسر الروح المعنوية التركية[64]، ويعطي مسحة من «الصدقية» لبريطانيا التي ستظهر بمظهر الحليف المنقذ، لا العدو المحتل.

إن الأنشودة التي كان يغنيها مؤيدو الثورة العربية في فلسطين، والتي تتضمن بيتًا يقول:

فيصل يا ابن الرسول　　　خلِّص بلاد الإسلام[65]

تقدم أنموذجًا لحقيقة الفهم الشعبي المؤيد للثورة، ومفاده أن ما تقوم به هذه الثورة هو خدمة الإسلام وأرض الإسلام، وأن البريطانيين «أداة» بيد الثورة، لا العكس.

تشير الوثائق إلى حالة الشد والإرباك التي عاشها أبناء فلسطين في تلك الفترة. فعلى الرغم من وجود نسبة كبيرة مؤيدة للثورة العربية وحلفائها، إلا أنها كانت تأسف للكارثة التي يرون أنها ألمّت بالإسلام بسبب هزائم الأتراك في الميدان، «هذا الشعور لم يظهر بشكل أكثر فاعلية، ولم يزد على الأسف، لأنهم يرون أن الحكومة التركية كانت سيئة بشكل مؤسف، فتزامنت معها المصيبة التي حلت

---

(64) انظر: Summary of «Historical Documents from the Outbreak of War between Great Britain and Turkey 1914 to the Outbreak of the Revolt of the Sharif of Mecca in June 1916,» Prepared by «The Arab Bureau», Cairo, 29 November 1916, p. 1, W.O. 158/624.

وانظر: الكيالي، ص 72.

(65) إميل الغوري، فلسطين عبر ستين عامًا، 2 ج (بيروت: دار النهار للنشر، 1973)، ص 24.

بالإسلام»[66]. وربما أمكننا تشبيه هذه الحالة بحالة الأم مع ابنها العاق: مهما بلغ به السوء يبقى ابنًا تميل بعاطفتها نحوه، وتتعلق بأمل عودته إلى حضنها، بينما تأمل خيرًا من ابنها الآخر الذي اقترب قدومه، بعد طول غياب، لكنها تتوجس خيفة من سلوكه المستقبلي معها، ومن أصدقائه الغرباء.

وجدت حالة الشد هذه بين الطرفين طريقها إلى منابر المساجد في خطب الجمعة، فخطباء المساجد في يافا كانوا يدعون في صلاة الجمعة «لسلطان المسلمين» من دون تحديد اسم السلطان. وهذا أنموذج لحالة التعادل و«اللا قرار»، حيث يفهم منه السلطان العثماني أو السلطان المرتقب «الشريف حسين». ومن الطريف الإشارة إلى أن هذه الوثائق تحدثت أيضًا عن حالة الارتباك نفسها في مساجد بغداد بعد الاحتلال البريطاني، فبعضها بقي يدعو للخليفة العثماني، وبعض أقل للشريف حسين، بينما كانت أغلبية المساجد تدعو لخليفة المسلمين من دون تحديد اسمه. وجدت السلطات البريطانية في فلسطين أنه ما دام السلطان العثماني لا يُذكر بالاسم في الدعاء، فمن الأفضل ترك الشأن لتقدير الأئمة المعنيين، «لأن تحديد أمر ما سيثير الاستياء»[67].

راعت السلطات البريطانية الأحوال الدينية في المناطق المحتلة، وبعضًا من حساسيات المسلمين، فجعلت حراسة المسجد الأقصى مثلًا من مسؤولية الهنود المسلمين المجندين في الجيش البريطاني[68]. وحرصت على تحسين العلاقة بمفتي القدس، ونجحت في ذلك إلى حدٍّ كبير. وقام القائد العام للقوات البريطانية بنفسه بزيارة المفتي بحضور اثنين من زعماء المسلمين. وأشار تقرير ستورز، الحاكم العسكري للقدس، أن هذه الزيارة أحدثت أثرًا عميقًا جدًا وممتازًا في المفتي، وساهمت في التخفيف من حدة مخاوف زعماء المسلمين الثلاثة من الصهيونية. وأضاف حاكم القدس أن أللنبي وعد بإحضار مهندس معماري للمسجد الأقصى، وادعى أن هذا أقنع المفتي ومن معه بأن السلطات العسكرية البريطانية «تضع في الحقيقة مصلحة الإسلام في القلب»[69]. وبغض النظر عن

(66) Intelligence Summary, 12 March 1918, p. 33, W.O. 157/725.

(67) Intelligence Summary, 26 June 1918, p. 30, W.O. 157/728.

(68) Intelligence Summary, 6 April 1918, p. 13, W.O. 157/726.

(69) Intelligence Summary, 19 March 1918, p. 43, W.O. 157/725.

مدى صدقية ودقة الحاكم العسكري للقدس، يظهر أن العامل الديني كان عنصرًا مقدرًا لديهم، واستطاعت السلطات العسكرية المحافظة على علاقتها الودية مع مفتي القدس الذي قام من جهته بمجاملتهم، فشارك في التهنئة بعيد ميلاد ملك بريطانيا[70]، وبافتتاح الجامعة العبرية في القدس[71]، وبتهنئة القوات العسكرية بمناسبة إتمام احتلالها لباقي فلسطين وسورية[72]. منحته السلطات البريطانية وسامًا (وسام القديسين ميخائيل وجورج (C.M.G))[73]. ولا شكّ في أن مثل هذه السياسات وانعكاساتها الإيجابية على عدد من علماء المسلمين، بمن فيهم المفتي، ساهمت في إضعاف حالة العداء الديني المكشوف ضدّ البريطانيين.

3- المشروع الصهيوني

يعدُّ المشروع الصهيوني لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين أحد أهم العوامل المحددة لموقف أبناء سنجق بيت المقدس. وبقدر ما كان هناك آمال كبيرة معلقة على إنشاء مملكة عربية برئاسة الشريف حسين، كان هناك مخاوف من حقيقة النوايا البريطانية وإمكان تسليم فلسطين لليهود. حرصت السلطات البريطانية على إخفاء نواياها تجاه فلسطين في تلك الفترة، وسلكت الحركة الصهيونية سلوكًا مماثلًا. أرسل حاييم وايزمن، زعيم الحركة الصهيونية، في شباط/ فبراير 1918 إلى اللجنة اليهودية في يافا يخبرها بقدوم البعثة الصهيونية، ويذكر أنها تسعى إلى تحقيق سبعة أهداف، أحدها المساعدة في إنشاء علاقة صداقة مع العرب والمجتمعات غير اليهودية. وحذر وايزمن في رسالته بأن أي احتكاك بين اليهود وغيرهم في فلسطين «سيكون خطرًا جدًا على خططنا». وقال: «عليكم أن تستخدموا أقصى ما تستطيعون من جهد لمنع أن تؤدي حماسته اليهود إلى تبني سلوك قد يؤدي إلى إثارة الخوف والشك بين السكان المحليين»[74].

---

(70) Intelligence Summary, 13 June 1918, p. 12, W.O. 157/728.

(71) انظر: Intelligence Summary, 25 July 1918, p. 29, W.O. 157/729, and Norman Bentwich, *England in Palestine* (London: Kegan Paul Trench, Turbner & Co., 1932), p. 30.

(72) Intelligence Summary, 28 July 1918, p. 5, W.O. 157/731.

(73) انظر: General Headquarters [G.H.Q.], Egypt to W.O., 12 April 1920, Secret, F.O. 371/5117. وانظر: نويهض، ص 332.

(74) Intelligence Summary, 16 February 1918, p. 27, W.O. 157/724.

على الرغم من ذلك، شكك الناس في نوايا البريطانيين، وعبروا عن حالة عداء مبكر ومكشوف تجاه المشروع الصهيوني. اعترف حاكم القدس العسكري في 29 كانون الثاني/ يناير 1918 أن من أسباب تضاؤل شعبية بريطانيا في المدينة «ضيق المسلمين من سياسة الحكومة المقترحة تجاه اليهود»(75). وفي رام الله نقل تقرير للاستخبارات في 2 نيسان/ أبريل 1918 أن الموضوع الأساس للحوار هو المسألة اليهودية، وأن كل المسلمين والنصارى يعارضون بقوة مجيء اليهود بأعداد كبيرة إلى فلسطين، وهم مقتنعون بأن اليهود بدأوا شراء الأراضي من خلال عملاء محليين. ويضيف أن أهل رام الله «جهزوا أنفسهم لبذل كل جهدهم لإعاقة الهجرة اليهودية»(76).

لم يفلح جهد البعثة الصهيونية التي وصلت فلسطين في نيسان/ أبريل 1918 بقيادة وايزمن نفسه في تهدئة مخاوف السكان. وعلى الرغم من لقاءاتها المتعددة التي اتخذت طابع المجاملة، مع قادة المجتمع المحلي، إلا أن الحالة الشعبية استمرت على عدائها ونفورها. فتشير التقارير إلى اهتمام متزايد بمتابعة نشاط البعثة الصهيونية، وتنقل أن الرأي العام استمر في حالة انزعاج من هذه البعثة، وأن الشعور العام في يافا تجاه الإدارة البريطانية لا يتحسن بسبب اعتقادهم أن هناك معاملة تفضيلية لليهود(77). يعترف تقرير وارد من الاستخبارات في يافا بأن لقاء وايزمن بممثلي الجمعية الإسلامية المسيحية في مكتب الحاكم العسكري في 8 أيار/ مايو لم ينجح في طمأنة المسلمين والمسيحيين، بل «أعطى أثرًا عكسيًا»(78).

أدرك السكان خطورة الإمكانات التي تملكها الحركة الصهيونية، ولاحظوا بقلق اشتراك أحد أفراد عائلة روتشيلد في البعثة، ما أعطى انطباعًا بأن الفكرة الصهيونية مدعومة بثروة أسطورية. وعلق ضابط استخبارات رام الله بأنه على الرغم من أن الناس «سيقاومون الهجرة الصهيونية بعنف، فإنهم يخشون من أن يفوز المال في النهاية»(79).

---

(75) Intelligence Summary, 29 January 1918, p. 20, W.O. 157/723.

(76) Intelligence Summary, 2 April 1918, p. 3, W.O. 157/726.

(77) Intelligence Summary, 24 April 1918, p. 40; 30 April 1918, p. 44, W.O. 157/726, and 9 May 1918, p. 13, W.O. 157/727.

(78) Intelligence Summary, 16 May 1918, p. 25, W.O. 157/727.

(79) Intelligence Summary, 18 April 1918, p. 33, W.O. 157/726.

ما يلفت في هذه التقارير هو أنها تكشف لنا ردات فعل معارضة أو معادية لبريطانيا في فترة مبكرة بسبب المشروع الصهيوني، وحتى قبل قدوم البعثة الصهيونية.

4- الدعاية

شكلت الدعاية البريطانية والدعاية العثمانية أحد عناصر التأثير في السكان التي أشارت إليها تقارير الاستخبارات. وفي سنجق بيت المقدس، استفادت السلطات البريطانية من احتلالها المنطقة في بث دعايتها المنظمة ضدّ العثمانيين. ففضلًا عن تشديدها المستمر على التحالف مع الثورة العربية، وسعيها إلى تحقيق حرية الناس وسعادتهم، لجأت إلى استقدام وفد من أبناء بلاد الشام المقيمين في مصر المؤيدين لبريطانيا، مثل سليمان ناصيف وفارس نمر وغيرهما. حاول هؤلاء تهدئة مخاوف السكان تجاه بريطانيا والمشروع الصهيوني، وذكر سليمان ناصيف في اجتماعه بالزعماء العرب في المنطقة أن لا ضرورة للخوف، لأن البريطانيين سيعتنون بشؤونهم[80]. وأشار التقرير إلى أن جهد هذا الوفد ساهم في التخفيف من مخاوف المسيحيين والمسلمين تجاه النشاط الصهيوني[81]، ويبدو أن ذلك ما كان ليتحقق لولا المعلومات المضللة التي أدلى بها هؤلاء الذين استقبلهم بعض السكان بشيء من الثقة والتصديق لأنهم عرب من بني جلدتهم. في أي حال، يظهر أن أثر هؤلاء كان محدودًا وموقتًا.

لجأت السلطات البريطانية إلى وسائل متنوعة لإيصال دعايتها إلى السكان المحليين، وراعت فيها الوصول إلى أكبر قدر من المتعلمين وغير المتعلمين. فكانت تصدر «ملصقًا» بعنوان «حقيقة»، وتعدُّه أفضل طريقة للوصول إلى غير المتعلمين. وقامت باستخدام الصحافة المصرية الموالية وسيلة عادية للدعاية، وسادت قناعة لدى السلطات بأن الدعاية «تحصل على صدقية أعلى إذا ظهرت في الصحافة العادية التي تحصل دائمًا على صدقية عظيمة في الشرق». فمثلًا، كانت صحيفة المقطم المصرية، المقربة إلى دار المعتمد البريطاني، إحدى الوسائل،

---

(80) Intelligence Summary, 23 May 1918, p. 35, W.O. 157/727.

(81) Intelligence Summary, 26 May 1918, p. 39, W.O. 157/727.

ولاحظت السلطات أن المتحدثين بالعربية من مسلمين ونصارى يقرأونها بانتباه شديد. أما اللطائف، فباستخدامها الوسائل التوضيحية تغدو «وسيلة جيدة لنشر دعايتنا العربية فتصل إلى عدد كبير من العامة». أضاف تقرير في شأن الدعاية البريطانية في فلسطين أن صحفًا أخرى مثل الكوكب المصرية، والقبلة (الصادرة في الحجاز) يرحب بهما المسلمون المتدينون، كما يرحب بهما في المناطق المهتمة اهتمامًا لصيقًا بالحركة العربية[82].

وفرت السلطات البريطانية أماكن لقراءة الصحف التي تخدم الدعاية البريطانية في عدد من المدن. ففي القدس، وفرت غرفتين للقراءة، كما زودت تسعة مقاهي ومحلات حلاقة بالصحف والنشرات ووسائل الدعاية وتقارير وكالة رويترز، وعرضت السينما الوحيدة في المدينة أفلامًا دعائية. كما فتحت غرفة قراءة في يافا والرملة وبيت لحم وبيت جالا والخليل. أما في بئر السبع، فكانت الدعاية توضع في محل يتردد عليه بانتظام المشايخ وأبناء القبائل المجاورة. ورأت السلطات البريطانية أن لا قيمة لإنشاء غرف قراءة في مناطق عسقلان والمجدل وغزة وخانيونس، فمعظم السكان - بحسب تقديرها - غير متعلم واهتمامه محلي.

لتجاوز هذه المشكلة، لجأت السلطات البريطانية إلى مخاتير هذه المناطق ليتولوا أمر الدعاية، فيأتي كل مختار أسبوعيًا ليأخذ بعض الصحف التوضيحية ومواد أخرى مناسبة، ويتم تعليق نشرة الأخبار اليومية في الأسواق. واستخدمت السلطات الأسلوب نفسه في قرى المناطق الأخرى - حيث تغلب الأمية - مثل يافا ورام الله. وأولت السلطات منطقة الخليل اهتمامًا خاصًا، إذ ذكرت أنها «مركز المسلمين المتعصبين جدًا، وهي مركز مهم جدًا لدعايتنا»، فكلفت شخصًا بالقراءة لغير المتعلمين، ووضعت وسائل دعائية في كل المراكز الحكومية المحلية وعدد من المقاهي ومحلات الحلاقة، وتمّ تزويد أشخاص مثل مفتي المدينة وغيره بالنشرات[83].

هكذا، حاولت السلطات البريطانية أن تملأ الأجواء بدعايتها، من خلال

---

(82) «Report on Propaganda in Occupied Palestine during the Month of April 1918,» p. 1, W.O. 157/726.

(83) «Report on Propaganda in Occupied Palestine during the Month of April 1918,» pp. 2-3, W.O. 157/726.

أساليب عمل منهجية منظمة لتصل إلى كل مواطن في سنجق بيت المقدس. وبالتالي، لا عجب أن نعد الدعاية أحد الوسائل المهمة في التأثير في توجهات الناس في تلك الفترة.

أما السلطات العثمانية فحاولت من جهتها تحقيق تأثير في الناس من خلال أنصارها. وذكر تقرير للاستخبارات البريطانية، نقلًا عن أحد المثقفين الأرمن الهاربين من الجندية، أنه يمكن تقسيم الدعاية العثمانية قسمين: الأول مبني على الفكرة الإسلامية، والثاني اقتصادي. أما الأول، فإنهم يجهدون أنفسهم لإثبات أن دول الحلفاء أخضعت أكثر من 200 مليون مسلم في آسيا وأفريقيا، ولم يكتفوا بذلك، وإنما يريدون تدمير الإمبراطورية الإسلامية الوحيدة (الدولة العثمانية)، وأن السلطان هو خليفة المسلمين وممثل الرسول، وأن تركيا لا تقاتل من أجل وجودها فحسب، لكن من أجل الخلافة والإسلام. أما الألمان فهم حلفاء موثوقون للمسلمين، وعلى جميع المسلمين الصادقين أن يقفوا مع تركيا وحلفائها. في الجانب الاقتصادي، يقولون إن العالم خاضع للتأثير الاقتصادي لدول الحلفاء، وإن بريطانيا تقاتل من أجل مصالحها، وترغب في جعل المحيط الهندي بحيرة بريطانية، وإذا حقق الحلفاء ما يريدون فسوف ينتهي الإسلام. ويذكر أن هذه هي الدعاية المعتادة وسط الدوائر الاجتماعية العالية والمثقفة، أما الدعاية وسط الفئات الأدنى من بسطاء وغير متعلمين فإن أساس الطرح هو أن جميع الأوروبيين، بمن فيهم الألمان، كفار، ومع ذلك فإن القادة الأتراك يقودونهم بصبر للاستفادة من نشاط المسيحيين الألمان، ويقولون إنهم الآن يستفيدون من هؤلاء الكفار، لكن هذا أمر موقت، وبعد الحرب فإنهم سيَكْنِسون جميع الكفار خارج تركيا[84].

هكذا، نجد العثمانيين قد ركزوا في طرحهم في المناطق العربية على الجانب الديني وفكرة الخلافة وحماية الإسلام، إذ إن الإسلام هو الذي يجمعهم مع العرب، وإليه كانت تستند شرعية حكمهم، على الرغم من أن قادة «الاتحاد والترقي» المتحكمين في الدولة كانوا بعيدين عن التزام السلوك الديني، بل تبنوا سياسة قومية علمانية أنتجت ردات فعل معاكسة من العرب وغيرهم.

---

(84) Intelligence Summary, 8 April 1918, pp. 4–5, W.O. 157/726.

تشير التقارير البريطانية إلى أن السلطات العثمانية لديها قسم خاص «بالخدمات السياسية السرية» في سورية، وأن جمال باشا ينفق لهذا الغرض 24 ألف جنيه ذهبًا شهريًا، وأن رئيس هذه الخدمة هو عبد الحميد بيك سعيد من مصر، وأن أغلب عناصر هذه الخدمة من المصريين، إضافة إلى قلة من الطرابلسيين (ليبيا) والكريتيين والتونسيين واليهود، والسوريين العرب. أما سبب تفضيل المصريين ومواطني شمال أفريقيا فلأنهم غرباء في سورية، وليس لهم أعداء وغير متحزبين[85].

من الوسائل التي لجأ إليها الأتراك نشر تقارير تشيع أن البريطانيين في المناطق المحتلة (سنجق بيت المقدس) يسرقون القمح ويغتصبون النساء ويقتلون السجناء، وتخبر السكان أنه من الأفضل «إعطاء قمحهم للأتراك المسلمين بدلًا من حفظها للكفار البريطانيين لينهبوها»، وقد وجدت هذه التقارير قبولًا لدى السكان[86].

في أواخر شباط/ فبراير 1918، شاع في يافا أن أنور باشا أمر بإرسال عَلَم الرسول من اسطنبول في جولة في سورية للتأثير في السكان العرب «من أجل القيام بواجبهم تجاه دينهم، ولإحياء فكرة الحرب المقدسة»[87].

يبدو أن السلطات البريطانية راقبت بحذر احتمالات انتشار الدعاية المضادة لبريطانيا عن طريق الحركة الوطنية في مصر. ورصد أحد تقاريرها في 28 آذار/ مارس 1918 انتشار شائعات في جنوب فلسطين تقول إن سبب منع الناس من الذهاب إلى مصر هو خوف السلطات البريطانية من أن يقوم الوطنيون المصريون بتعبئة الناس ضدّ بريطانيا[88]. وذكر ضابط استخبارات القدس في تقرير رفعه في 24 آب/ أغسطس 1918 أن رسائل جاءت من المسلمين والنصارى العرب في مصر تدعو عرب فلسطين إلى توحيد قواهم ضدّ الخطر الصهيوني المشترك، وإلى

(85) Intelligence Summary, 7 March 1918, p. 19 W.O. 157/725.

(86) Intelligence Summary, 19 February 1918, p. 30, W.O. 157/724.

(87) Intelligence Summary, 27 February 1918, p. 50, W.O. 157/724.

(88) Intelligence Summary, 28 March 1918, p. 54, W.O. 157/725.

تشكيل جمعيات تكافلية، وألا يبيعوا أرضهم لليهود[89]. كما وجدت السلطات البريطانية في المصريين العاملين ضمن الحملة البريطانية في فلسطين عنصرًا محتملًا للتعبئة المضادة.

كان هناك أعداد كبيرة من المصريين استفاد منها الجيش البريطاني في أشغال السكك الحديد والطرق والبناء والنقل والأمن الداخلي، وصل مجموعها إلى 128950 شخصًا[90]. ونقل تقرير لضابط استخبارات القدس أيضًا في 11 تموز/ يوليو 1918 أن أحد أفراد الشرطة المصريين اقترب من امرأة آتية من بيت لحم تبيع الفواكه والخضار، وسألها إن كانت مسلمة، فقالت نعم، فأخبرها أن جميع المصريين يكرهون الإنكليز، وأنهم أُجبروا على القتال، وأن البريطانيين لا يثقون بهم، وأن رجال الشرطة المصريين لم يُسلَّموا مسدسات كرجال الشرطة البريطانيين. وقال الشرطي المصري إن القوة بيد البريطانيين الآن، لكن المصريين والأتراك سيحققون قوتهم الذاتية يومًا ما. فأرسلت السلطات البريطانية أحد عملائها الذي سمع الكلام نفسه من الشرطي[91]. ونقل أحد العملاء عن شرطي مصري آخر قوله إنه يأمل أن ينتصر الأتراك، وأنه لا توجد خدمة تطوعية من المصريين وأن جميع المصريين يقومون بالعمل مثل المساجين، وأن الإنكليز أخذوا الرجال من القرى المصرية، وأحضروهم إلى مراكز التجنيد وأيديهم مقيدة[92]. يبدو لنا أن أنموذجي الشرطة المصريين العاملين مع القوات البريطانية يمثلان شريحة من المشاعر الوطنية المصرية التي تأججت في تلك الفترة وتكللت بثورة 1919. لكنهما لا يعطيان مؤشرات واضحة عن أي عمل منظم لتأجيج مشاعر الفلسطينيين. كان تعبيرهما عن مشاعرهما بطريقة بسيطة مكشوفة، وكان يكفيهما للحديث مجرد معرفة أن الشخص الآخر مسلم.

هكذا، حاول الطرفان العثماني والبريطاني وأنصارهما شدّ الناس، كلّ نحوه، واستمرت حال التنازع هذه حتى نهاية الحرب العالمية.

---

(89) Intelligence Summary, 24 August 1918, p. 15, W.O. 157/730.

(90) Hynman [et al.], p. 25 and 94.

(91) Intelligence Summary, 11 July 1918, p. 12, W.O. 157/729.

(92) المصدر نفسه.

5- أجواء الحرب

يمكن اعتبار أجواء الحرب العالمية السائدة في عام 1918 أحد العوامل المؤثرة في موقف الناس في تلك الفترة. كان الناس يعانون عدم الاستقرار والخوف وفقدان الأمان. فمن جهة، كانوا يتعاملون مع الأوضاع باعتبارها أوضاعًا موقتة يمكن أن تتغير في أي لحظة سياسيًا أو عسكريًا، لمصلحة أي من الطرفين العثماني أو البريطاني. من جهة أخرى، فإن وضعهم تحت الحكم العسكري البريطاني، الذي لم تكن تحكمه ضوابط أو قوانين محددة في أثناء الحرب، جعلهم أكثر حذرًا في التعبير عن آرائهم ومشاعرهم خشية الانتقام أو العقاب أو الاتهام «بالعمالة»... لذلك، لم يكن بعيدًا عن الحقيقة أن يعترف حاكم القدس العسكري أن «كلمته كانت هي القانون»(93)!! وبالنسبة إلى عموم الناس، يعتمد التصريح بحقيقة مشاعرهم كثيرًا على حالة الأمان التي يشعرون بها، لذلك ربما رغب كثيرون في أن يُتركوا وشأنهم حتى تنجلي الأمور.

ذكر أحد التقارير الواردة من يافا في 29 كانون الثاني/ يناير 1918 أن عددًا من الناس سُمع يتحدث في السياسة ويعلق بشكل غير محبذ على الوضع العسكري، «فتم إنذارهم لأن مثل هذه التصرفات لا ينصح بها في الوقت الحالي. وأعطى الإنذار التأثير المطلوب»(94).

من مظاهر حالة اللاستقرار التي فرضتها الحرب، والتي وجدت انعكاساتها على موقف الناس وسلوكهم تلك شائعات التي كانت تؤكد أن فلسطين ستعود إلى الأتراك بقوة السلاح أو كأحد شروط السلام، وهي شائعات كانت تؤكدها أوساط المتعلمين وأنصاف المتعلمين في يافا، وهؤلاء أظهروا بالتالي مشاعر قوية معادية للبريطانيين(95). كما شاع في غزة أن الاحتلال البريطاني إجراء عسكري موقت، وأن فلسطين ستعود إلى سادتها السابقين بعد إعلان السلام(96). دفعت مثل هذه المشاعر مخاتير قرية السوافير الشرقية قرب المجدل إلى إخبار القرويين

(93) Ronald Storrs, *Orientations* (London: I. Nicholson & Watson, 1937), p. 372.

(94) Intelligence Summary, 29 January 1918, p. 19, W.O. 157/723.

(95) Intelligence Summary, 3 April 1918, p. 6, W.O. 157/726.

(96) Intelligence Summary, 25 January 1918, p. 16, W.O. 157/723.

في نيسان/ أبريل 1918 ألا يلقوا بالًا للأوامر البريطانية بتسليم أسلحتهم، لأن الأتراك سيعودون قريبًا[97].

اعترف تقرير استخباري من بيت لحم أن السكان يشعرون أنهم لم يتخلصوا تمامًا من الأتراك، خصوصًا أنهم لا يزالون يسمعون أصوات البنادق والقنابل بقربهم، وأن هذه الحالة «العصبية» أشد وضوحًا وسط البدو واللاجئين الذين عندما يعودون إلى قراهم يظهرون قدرًا كبيرًا من الضجر، ويمتنعون عن إعطاء المعلومات[98].

كانت تحركات القوات العسكرية وتنقلاتها وتعاملها مع محاصيل الناس وممتلكاتهم من العوامل المثيرة للقلق، حيث تعددت الشكاوى من تدمير القوات العسكرية ممتلكات الناس وسرقة محاصيلهم من دون داعٍ. كما اتهم جنود القوات البريطانية بدخول القرى وأخذ أبواب المنازل وسقُوفها لاستخدامها خشب وقود[99]. كما أن أسلوب إخلاء القرى في مناطق المواجهة الحربية سبب قدرًا كبيرًا من عدم الرضا[100]. ففي مناطق يافا مثلًا انتشر الحديث ضدّ بريطانيا بين القرويين الذين أخليت قراهم، إذ شعروا بمحاباة البريطانيين ليهود مستعمرة ملبس الذين سمح لهم بالبقاء ورعاية محاصيلهم، بينما لم يسمح للقرويين العرب بذلك[101].

من جهة أخرى، غالبًا ما يكون السلوك الأخلاقي للجنود في أوقات الحرب مدعاة قلق، خصوصًا في بيئة مسلمة ومحافظة كبيئة فلسطين. أشارت التقارير إلى تلقي شكاوى عدة من السلوك السيئ للجنود، خصوصًا تجاه النساء[102]. ونقلت التقارير أن أحد جنود الكتيبة الفرنسية حاول طرق كل الأبواب في أحد شوارع يافا باحثًا عن وسيلة لقضاء شهوته، وأنه عندما شقّ له أحد السكان باب داره حاول

(97) Intelligence Summary, 5 April 1918, p. 11, W.O. 157/726.

(98) Intelligence Summary, 5 February 1918, p. 4, W.O. 157/724.

(99) Intelligence Summary, 25 January 1918, p. 16, W.O. 157/723; 3 April 1918, p. 6, and 24 April 1918, p. 40, W.O. 157/726.

(100) Intelligence Summary, 16 May 1918, p. 25, W.O. 157/727.

(101) Intelligence Summary, 9 May 1918, p. 13, W.O. 157/727.

(102) Intelligence Summary, 3 April 1918, p. 6, W.O. 157/726.

الجندي الاقتحام فمنعه صاحب البيت فأطلق الجندي النار عليه وقتله؛ واسم صاحب البيت أحمد خالد[103]. وتحدث إميل الغوري في مذكراته عن حوادث مشابهة تكرر فيها سلوك الجنود البريطانيين المشين، وكيف كان ذلك سببًا في كره الناس للبريطانيين[104].

انعكست أحوال الحرب على طبيعة المعلومات التي يتلقاها البريطانيون، وكان من أمثلة ذلك ورود تقارير عن قصص غير صادقة أو غير كاملة يدلي بها الهاربون من الجندية عند التحقيق معهم. وعللت الاستخبارات ذلك بأنه يعود غالبًا إلى الخوف من أن يتم تجنيدهم في الجيش البريطاني، أو سيؤخذون بعيدًا عن عائلاتهم إلى مصر[105]. لذا، من غير المستبعد أن البريطانيين كانوا يسمعون من هؤلاء وغيرهم ما يظنون أنه يفرح البريطانيين ويسرُّهم، وليس بالضرورة ما يُعرِّفهم الحقيقة. وهذا ما يجعلنا أكثر حذرًا عند تفحص التقارير البريطانية في تلك الأثناء.

ما تجدر ملاحظته أن أي حالة من الشعور بالاستقرار والأمان كانت تنعكس إيجابًا على مشاعر الناس الذين أرهقتهم الحرب وتاقوا إلى نهايتها. وفي هذه الحال، لا تعني مشاعر الرضا أو الانزعاج بالضرورة تأييد الآتين ولا لعنَ الذاهبين، وإنما هو تعبير يوافق حاجات الناس، خصوصًا البسطاء والعامة. ومن المظاهر التي وجدت قبولًا لدى الناس اقتراح تشكيل قوة شرطة محلية[106]، وازدياد الشعور بالأمان[107]، واتجاه السلطات البريطانية لإقرار عدد من الإجراءات الإدارية، بينها ترتيب الصلة بمخاتير القرى ومتابعتهم في أداء مسؤولياتهم، ما جعلهم أكثر جدية في متابعة أعمالهم[108]. وكان لتعيين قاض وإعادة فتح محكمة الصلح في يافا، واعتماد البريطانيين نظام القضاء العثماني القديم أثر محبب جدًا[109]. كما لم تفت الناس في منطقة المجدل أن يعبروا عن ارتياحهم لأن البريطانيين لا يأخذون

(103) Intelligence Summary, 5 February 1918, p. 5, W.O. 157/724.

(104) الغوري، ص 32-33.

(105) Intelligence Summary, 25 January 1918, p. 16, W.O. 157/723.

(106) Intelligence Summary, 5 March 1918, p. 12, W.O. 157/725.

(107) Intelligence Summary, 19 March 1918, p. 52, W.O. 157/725.

(108) Intelligence Summary, 12 February 1918, p. 17, W.O. 157/724.

(109) Intelligence Summary, 11 February 1918, p. 14, W.O. 157/724.

الرشاوى، وهي الآفة التي كانت منتشرة قبل ذلك في أواخر العهد العثماني[110].

6- الأوضاع الاقتصادية

نلحظ في مواقع عدة من التقارير البريطانية ربطًا بين رضا الناس أو انزعاجهم، وتبدل الأحوال الاقتصادية، لكن الربط الذي تشير إليه التقارير، سلبًا أو إيجابًا، ينبغي ألا يُفهم منه أن السكان بنوا تأييدهم للبريطانيين أو العثمانيين على أساس تحسن أحوالهم الاقتصادية أو تراجعها. فمهما تحسنت الأوضاع تحت حكم استعماري يحرم الناس من حرياتهم السياسية وأمانيهم القومية والدينية، فإنه سيبقى استعمارًا بغيضًا. وهذا ما أثبته العرب في فلسطين في ما بعد، ولا عبرة هنا ببعض الحالات الشاذة المنتفعة من الأوضاع.

المعيار الاقتصادي يأتي هنا تابعًا لقناعات سابقة تجاه العثمانيين أو البريطانيين، فإذا قام البريطانيون بتحسين بعض الأوضاع، فإن ذلك سيرفع من أسهمهم وسط أولئك الذين يرون فيهم حلفاء، والذين يأملون أن تصدق بريطانيا في تحالفها مع الثورة العربية، بينما سيستغل مؤيدو الحكم العثماني أي تراجع في الأوضاع ليدللوا على صدق رؤاهم وتحليلاتهم. أما بسطاء الناس والمترددون فسيعيشون حالة «حراك» مواقف بين طرف وآخر، باختلاف الأوضاع.

أشارت التقارير البريطانية إلى ازدياد شعبية البريطانيين في المجدل بسبب مساعدة السلطات للسكان في الحصول على البذور والقمح والماشية[111]. كما أبدى السكان العرب في يافا ارتياحًا كبيرًا لاتخاذ السلطات العسكرية إجراءات بعدم السماح ببيع الأراضي أو نقلها في تلك الفترة[112]. وفي بيت لحم، ربط أحد التقارير بين رضا الناس وازدهار التجارة هناك، وتحدث عن توافر كثير من فرص العمل، وأشار التقرير إلى أنه يجري تشغيل كثير من الأطفال في أعمال الطرق أو الزراعة، وأن حضورهم ضعيف في المدارس[113].

(110) Intelligence Summary, 28 March 1918, p. 53, W.O. 157/725.

(111) Intelligence Summary, 24 January 1918, p. 15, W.O. 157/723.

(112) Intelligence Summary, 24 April 1918, p. 40, W.O. 157/726.

(113) Intelligence Summary, 5 March 1918, p. 13, W.O. 157/725.

من جهة أخرى، كان بعض الأحوال والإجراءات الاقتصادية سببًا في انزعاج السكان وضيقهم من البريطانيين، حيث عانى موظفو الحكومة العثمانية السابقون من الأوضاع الجديدة وعبروا عن حالة من عدم الرضا في يافا «لأنهم مفلسون تقريبًا، وفرص العمل ضعيفة»(114).

اعترف تقرير حاكم القدس العسكري بتضاؤل شعبية البريطانيين في المدينة في أواخر كانون الثاني/ يناير 1918 بسبب الأوضاع الاقتصادية، وعدم اعتراف السلطات البريطانية بأوراق العملة التركية، والتأخر في قبول الفضة التركية وتثبيت قيمتها، ونقص قطع النقود الصغيرة، وصعوبة توفير الطعام والتموين(115). وفي تقرير آخر من القدس، نقل أحد الأرمن الموثوقين من البريطانيين أن المسلمين في المناطق المحتلة (سنجق بيت المقدس) مصابون بخيبة أمل تجاه الإدارة البريطانية بسبب الغلاء الفاحش، وأشار إلى عدم رضاهم لأن الإدارة البريطانية تطالبهم بمتأخرات الضرائب(116).

كانت المعاملة الاقتصادية التفضيلية لليهود أحد العناصر المؤثرة في عدم تأييد الناس للبريطانيين. نقل أحد التقارير في أيار/ مايو 1918 أن الشعور العام وسط المسلمين والمسيحيين في يافا هو عدم الرضا عن الحكم البريطاني بسبب ما يعتقدون أنه المعاملة التفضيلية لليهود، وبسبب الدعم الذي قُدِّم إليهم، والتسهيلات الكبيرة التي حصلوا عليها. ومن ذلك حصول اليهود على إذن بتصدير البضائع، وتفضيلهم في الصفقات لدى الإدارة العسكرية البريطانية، وفي حصص العقود مع الجيش، وفي العمل في إدارات الحكم. كما أنهم مفضلون في توزيع الدقيق، واستئجار الخيول والبغال لأغراض الزراعة(117).

ليس في الوثائق إشارات كثيرة إلى انعكاسات السياسات الاقتصادية العثمانية على الناس في المنطقة، غير أن تقريرًا واردًا من المجدل في 11 كانون الثاني/ يناير 1918 يقول إن سكان فلسطين بشكل عام كانوا يعاملون بشكل جيد من الأتراك، وأن الشكوى الرئيسة ضدّ الأتراك كانت في طلبهم للإمدادات من الأنواع كلها، حيث تدفع

(114) Intelligence Summary, 29 January 1918, p. 19, W.O. 157/723.

(115) Intelligence Summary, 29 January 1918, p. 20, W.O. 157/723.

(116) Intelligence Summary, 31 March 1918, p. 56, W.O. 157/725.

(117) Intelligence Summary, 9 May 1918, p. 13, W.O. 157/727.

قيمتها بأموال ورقية[118]. وأعطى تقرير ثانٍ صورة أكثر سلبية، ناقلًا عن سجين حرب أرمني كان يعمل طبيبًا في الجيش العثماني قوله إن هناك شعورًا من العداء المتبادل بين العرب والأتراك، وإنه رأى في إحدى المناسبات بعض الجنود الأتراك يحملون أبواب البيوت من أريحا فسألهم إن كانوا استولوا على هذه الأشياء من الإنكليز، فقالوا: لا، بل من الناس الذين هم أشد عداوة لنا من الإنكليز، أي العرب[119]. وإذا كان لنا أن نقبل رواية الطبيب الأرمني، فينبغي عدم اعتبار الحادثة أنموذجًا للسلوك المعتاد للعثمانيين، ولا للموقف المعتاد للعرب خلال فترة الحرب، وإنما ينبغي مراعاة التطور التاريخي للحوادث. فمع الاتجاه نحو نهاية الحرب العالمية الأولى، وتقدم الثورة العربية والبريطانيين، توسعت قطاعات الناس التي تميل بشكل أكبر إلى معاداة الأتراك أملًا في قدوم بديل عربي أفضل.

خاتمة

تزوّدنا تقارير الاستخبارات العسكرية البريطانية بتفصيلات نكاد لا نجدها في أي مصادر أخرى، وتعيننا على فهم حقيقة أحوال الناس ومشاعرهم في تلك الفترة. وعلى الرغم من أن هذه التقارير حاولت إظهار تأييد قطاعات كبيرة من الناس للاحتلال البريطاني، إلا أن قرائن كثيرة تثبت أن ذلك التأييد كان مرتبطًا بالتحالف مع الثورة العربية الكبرى، وبالوعود المقطوعة للعرب بإنشاء دولة عربية بزعامة الشريف حسين. وتعكس هذه التقارير قدرًا لا يستهان به من التشكك في نوايا البريطانيين، والعداء المبكر للصهيونية، وتبرز وجود قطاعات أخرى من الناس تؤيد العثمانيين، وتأسف على ضياع حكمهم.

نستطيع أن نستشف من دراستنا هذه التقارير مدى تنازع مشاعر الناس وتداخلها، وحالة الشد المربك بين الطرفين العثماني والبريطاني المتحالف مع الثورة العربية. كما نلاحظ دخول عوامل دينية وقومية واقتصادية، وعوامل مرتبطة بأجواء الحرب والدعاية، في التأثير في مشاعر الناس وسلوكهم تجاه العثمانيين والبريطانيين.

على أي حال، تفيد الدراسة النقدية لهذه التقارير في استكمال الصورة التي رسمتها المصادر الأخرى عن مواقف الناس ومشاعرهم.

(118) Intelligence Summary, 11 January 1918, p. 7, W.O. 157/723.

(119) Intelligence Summary, 11 March 1918, pp. 28-29, W.O. 157/725.

الفصل الرابع والعشرون

الحملة البريطانية على العراق (1914-1918)
الدوافع والتداعيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية

عبد الوهاب القصاب

أولًا: الأهداف البريطانية من غزو العراق واحتلاله

لم تتيقن بريطانيا من أهدافها النهائية في العراق، ولم تكن هناك نيات ولا خطط بريطانية للتدخل في العراق (التركي) عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى[1]. كانت بريطانيا تواقةً فعلًا لبقاء العثمانيين على الحياد، ما كان سيتيح لها مرونة أكبر في التعامل مع شؤون الحرب في الجبهة الرئيسة التي نشبت فيها، أي الجبهة الأوروبية، وكان هذا سيوفر عليها خسائر فادحة اضطرت إلى تحملها نتيجة فتح جبهة العراق، وجبهة فلسطين[2]. لكن هذا لا يعني أن اتفاقًا تم في شأن أهمية العراق، أو بلاد ما بين النهرين كما تعارف البريطانيون على تسميته، بالنسبة إلى المصالح الإمبراطورية البريطانية، لو حصل أمر أدى إلى تقسيم الدولة العثمانية[3].

من هنا، استعرت المنافسة البريطانية - الألمانية حين منحت الإمبراطورية العثمانية ألمانيا خط سكة حديد بغداد - برلين وامتداداته إلى البصرة والكويت على رأس الخليج العربي. ومن نافل القول إن أمن الهند وما تمثله للإمبراطورية البريطانية يقف على رأس أولويات المصالح البريطانية، وبهذا سيكون هذا الأمن أول ما يحكم السياسة البريطانية حيال أي منطقة في العالم، تحس بأنها تؤثر في هذه المصالح سلبًا.

---

(1) James D. Scudieri, «Iraq 2003, and Mesopotamia 1914-18: A Comparative Analysis in Ends and Means» (Report, US Army War College, Carlisle Barracks, Pennsylvania, 3 May 2004), pp. 2-6.

(2) للتعرف إلى المزيد عن النوايا البريطانية في شأن (العراق التركي) والغموض الذي شاب السياسة البريطانية تجاه العراق، انظر: Victor H. Rothwell, «V. Mesopotamia in the British War Aims, 1914-1918,» *The Historical Journal*, vol. 13, no. 2 (June 1970), pp. 282-283.

انظر أيضًا المراسلات بين رمبولد وبلفور في: Foreign Office [F.O.], 371/3399, no. 48753.

(3) المصدر نفسه، ص 273.

بعد تزايد أهمية النفط بالنسبة إلى البحرية البريطانية التي بدأت برنامجًا لتحديث سفنها الحربية، اتخذت وزارة لويد جورج (1916-1922) التي كان ونستون تشرشل يؤدي فيها مهمات وزير البحرية قرارًا بالتحول من الفحم لتوليد الطاقة اللازمة لتسيير هذه السفن إلى النفط المكتشف حديثًا والأقل تلويثًا والأكثر كفاءة. كانت مصافي عبادان وحقول نفط عربستان الوحيدة المنتجة للنفط في الشرق الأوسط، فكان تأمينها وحمايتها على رأس أولويات التخطيط الاستراتيجي البريطاني. من هنا، كانت فكرة تأمين رأس الخليج العربي وإرسال قوة بريطانية لحماية منشآت نفط عربستان من أولى مهمات العمليات العسكرية المتوقعة في المنطقة، وأرسلت الأدميرالية البريطانية الطراد سبيغل (Spiegel) الراسي في المحمرة منذ اندلعت الحرب في آب/ أغسطس 1914، وقبل دخول الدولة العثمانية الحرب رسميًا في تشرين الثاني/ نوفمبر من العام نفسه[4].

كان الجدل واسعًا بين أصحاب القرار البريطاني (هاردنغ نائب الملك في الهند، الذي خلف اللورد كرزون الدبلوماسي الرفيع في منصبه، والأدميرالية، ووزارة المستعمرات، ووزارة الحرب، ووزارة الخارجية) في شأن الحاجة إلى احتلال البصرة، والفوائد والمزايا والمخاطر التي ستنتج من ذلك.

لا ريب في أن حكومة الهند ممثلة بنائب الملك هاردنغ كانت على رأس الدافعين إلى احتلال البصرة وإلحاقها بالهند، أو اعتبارها من مستعمرات التاج البريطاني[5]، بل هناك فرضية نوقشت تقضي بإعادة ما سمي بالعراق التركي (الولايات الثلاث) إلى تركيا في حال عقد صلح منفرد معها في مقابل منح هذه الولايات درجة من الحكم الذاتي، مع احتفاظ بريطانيا بالسيطرة الكاملة على البصرة - المدينة، أو المدينة والولاية[6].

يلاحظ المرء كثيرًا من الغموض وغياب اليقين في تطور الأهداف البريطانية في سياستها حيال الإمبراطورية العثمانية، ما يعزز رأينا الوارد في صدر هذه الدراسة

(4) شكري محمود نديم، حرب العراق 1914-1918: دراسة علمية، ط 4 (بغداد: شركة النبراس للنشر والتوزيع، 1964)، ص 9-17.

(5) S. A. Cohen, «The Genesis of the British Campaign in Mesopotamia, 1914,» *Middle Eastern Studies*, vol. 12, no. 2 (May 1976), pp. 119-132.

(6) Rothwell, pp. 273-294.

بأن بريطانيا لم تود أن تعلن الدولة العثمانية الحرب عليها، أو أن تدخل الحرب أصلًا، بل ودت لو أنها احتفظت بحيادها المسلح المعلن غداة إعلان الحرب العالمية الأولى في 27 تموز/ يوليو 1914. أثبتت حوادث الأيام التضارب الكبير بين الأهداف البريطانية في العراق وفي بلاد الشام، والتضارب بين خطط حكومة الهند برئاسة هاردنغ ووزارة المستعمرات ووزارة الحرب ووزارة الخارجية التي انتجت ما سمي «تفاهمات الحسين - مكماهون»، ثم وعد بلفور غداة احتلال القدس. وهذا كله يدفع المحلل إلى الشك في النيات البريطانية ومدياتها ومراميها وأهدافها الحقيقية. وهناك عامل ثالث يُضاف إلى الأهداف البريطانية لغزو العراق، هو تأمين قناة السويس التي أصبحت عصب الاتصال الرئيس مع الهند، الجوهرة الأغنى في التاج البريطاني والأكثر ريعًا.

أشارت نتيجة المناقشات في كواليس السياسة والحرب، سواءً في حكومة الهند في سيملا أم في وزارة المستعمرات البريطانية في لندن، إلى أهمية الخليج العربي بالنسبة إلى المصالح البريطانية في الهند. فضمان إدامة هذه المصالح يقتضي وجود قوات مسلحة قادرة على التحرك ما أن يُتخذ القرار حينما يتطور الموقف الدولي إلى إعلان حرب. ولهذا السبب، خصص اللورد هاردنغ، نائب الملك في الهند، فرقة المشاة الهندية السادسة، بقيادة الجنرال باريت، لحماية المصالح البريطانية في رأس الخليج، وكان في مقدمها حماية مصافي عبادان، وحقول النفط وخطوط الأنابيب المغذية لها، التي تقع كلها ضمن أراضي إمارة عربستان[7].

ثانيًا: الأهداف العثمانية من الحرب

لفّ الغموض الأهداف البريطانية من غزو العراق، ولم تتوحد النظرة حياله، وازدادت وطأة هذا الغموض في الحالة العثمانية، خصوصًا أن آخر شيء كانت الدولة العثمانية تحتاج إليه في أوضاعها بعد الحرب البلقانية هو دخولها في حرب جديدة. وشهدت الأعوام القليلة التي سبقت الحرب فقدانها طرابلس وألبانيا وسالونيك (فقدانها إطلالتها على الأدرياتيكي) وقبرص (استولت عليها بريطانيا)

---

(7) نديم، ص 12.

وجزر الدوديكانيز (استولت عليها إيطاليا). من هنا، نشأ صراع بين الأغلبية في مجلس الوزراء التي كانت تدعو إلى التزام الحياد المسلح وأقلية من الضباط الذين كانوا يدفعون باتجاه إعلان الحرب، وفي مقدمهم أنور باشا وجمال باشا وطلعت باشا.

بعد اندلاع الحرب، أعلنت الدولة العثمانية حال الحياد المسلح بين المتخاصمين، والنفير (سفربرلك) في الداخل، فصادرت ما بأيدي الناس من وسائل تنقل وإعاشة وإنتاج بحجة إسناد النفير، كما جندت الشبان بين 18 و45 عامًا في الحرب، وكانت حصة بغداد وحدها نحو عشرة آلاف شاب أرسلوا إلى جبهة القفقاس، فقضوا في ثلوجها ولم يعد منهم إلا نفر قليل.

ثالثًا: الاحتلال البريطاني للعراق (1914-1918) وتداعياته

لم ينتج احتلال العراق من تلك العملية المرتجلة التي نفذها لواء مظلي في منطقة الفاو في 6 تشرين الثاني/ نوفمبر 1914، بإمرة العميد ديلامين، المؤلف من اللواء السادس عشر المختلط الذي كان قوامه 5100 مقاتل موزعين على 3 أفواج هندية وفوج بريطاني ولواء مدفعية جبلية (12 مدفعًا) وسرية هندسة وإسناد طبي ميداني ووحدات اتصالات وإسناد لوجستي. فبعد إعلان الحرب على الدولة العثمانية، صدرت الأوامر لهذه القوة بالإنزال في الفاو على رأس الخليج العربي بعد أن كانت الأوامر السابقة الموجهة إلى الجنرال ديلامين تقضي بالإنزال في جزيرة الخضر (عبادان) غير التابعة للسيادة التركية، تجنبًا لإثارة تركيا قبل دخولها الحرب. نفذ ديلامين الإنزال في الفاو بنجاح، بإسناد مدفعي من المدمرة أودن والطراد سبيغل الراسي في المحمرة.

استمرت الحرب على العراق زهاء أربعة أعوام، بين تشرين الثاني/ نوفمبر 1914 وتشرين الثاني/ نوفمبر 1918، حيث وقعت الهدنة قبل أن تتمكن القوات البريطانية من احتلال العراق بالكامل حيث كانت القوات البريطانية على بعد حوالى عشرين كيلومترًا جنوب الموصل التي احتُلت بعد الهدنة حيث طلب القائد البريطاني من القائد التركي إخلائها.

منيت القوات البريطانية بهزيمة كبيرة في إثر فشل حملتها الأولى لاحتلال

بغداد، وأُجبرت على الاستسلام يوم 29 نيسان/ أبريل 1916 بعد 147 يومًا من الحصار، وفشل عمليات فك الحصار التي سيّرها البريطانيون. لكن بريطانيا نجحت باحتلال بغداد في 11 آذار/ مارس 1917، ودخل قائد قواتها الجنرال مود المدينة ووجه إلى العراقيين منشورًا قال فيه إنهم جاءوا محررين لا فاتحين(8).

1- دور المرجعيات الدينية من الاحتلال

نتيجة الغزو البريطاني للعراق، صدرت فتاوى من المراجع الشيعية تجيز الجهاد، حتى إن بعض هذه المراجع كالسيد الحبوبي التحق فعليًا بالجهاد، وساهم في معركة الشعيبة. كما جاهد القادة القبليون الأكراد ضد البريطانيين، في معركة الشعيبة نفسها أيضًا. وانطلاقًا من هذا الموقف، أيد القادة الدينيون ترشيح أحد أبناء الشريف حسين لعرش العراق، واشترط بعضها كالشيخ الخالصي أن يكون الملك ملكًا دستوريًا منقطعًا عن سلطة الغير، ما يعني رفض الانتداب. كذلك كان دور القادة الدينيين الشيعة والسنة واضحًا في ثورة العشرين. أنتجت هذا المواقف تلاحمًا سنيًا شيعيًا لم يشهده البلد سابقًا، في ظاهرة جديرة بالدراسة، وذلك على شاكلة تلاحم المسلمين والأقباط في مصر إبان ثورة 1919.

2- أثر ثورة العشرين في قيام الدولة الحديثة في العراق

انقلب الوضع في العراق رأسًا على عقب بعد الاحتلال، إذ تبلورت الحركات الثورية الرافضة الاحتلال، كثورة النجف (1916)، وغليان المشاعر كالغارة التي نفذها الضباط العراقيون على تلعفر (جميل المدفعي)، ومقتل الكولونيل

---

(8) كتب كثيرون عن الحملة البريطانية على العراق، منهم بريطانيون وقادة عسكريون ومؤرخون عسكريون، يأتي في طليعتهم البريغادير جنرال الذي ألف كتاب حملة ما بين النهرين 1914-1918 في جزئين. وكتب من العراقيين الفريق الأول الركن طه الهاشمي كتابًا مهمًا عنوانه حرب العراق، وكتب الفريق الركن محمد أمين العمري كتابًا بالعنوان نفسه من ثلاثة أجزاء، وكتب العميد الركن الدكتور شكري محمود نديم كتابًا بالعنوان نفسه أيضًا، وكان مادة تدريس التاريخ للسنة الأولى في الكلية العسكرية العراقية. ومن الأتراك، كتب المقدم الركن محمد أمين بك ثلاثة كتب عن حرب العراق واحتلال بغداد، وكتاب عن الحرب العالمية الأولى من وجهة النظر العثمانية، عنوانه حرب عموميه ده عثمانلي جبهتلري وقايعي. وكتب المقدم الركن محمد مقبل بك كتابًا عنوانه عراق سفري، ونشر العقيد الركن صالح مايا قوشو مذكرات الجنرال درغوج باشا بعنوان درغولج باشا خاطراتي، وكتب اللواء الركن شكري قناديلي مذكراته عراق محاربه لرندة أو جنجي بيادة الآيي خاطره لري.

لجمن بيد الشيخ ضاري المحمود وولديه خميس وسليمان (والد الشيخ حارث الضاري)، وثورة الشيخ محمود الحفيد في السليمانية (1919). قاد هذا كله إلى اندلاع ثورة العشرين التي كبدت البريطانيين خسائر فادحة، وأبلغت البريطانيين أنهم لن يتمكنوا من استعمار العراق. قرر البريطانيون تأسيس كيان سياسي جديد في الولايات العثمانية الثلاث (بغداد والموصل والبصرة) المعروفة في الأدبيات البريطانية بالعراق التركي، وفي الأدبيات العثمانية بـ «الخطة العراقية»، علمًا أن العراق كان ضمن الأراضي التي وعدت بريطانيا الشريف الحسين بن علي أن تكون ضمن المملكة العربية تحت تاجه، وفق اتفاقات الحسين – ماكماهون.

في أثناء الحرب العالمية الأولى، حُكم العراق عسكريًا بشكل مباشر، كان يتولى فيه القائد العام مهمات الحاكم العسكري العام يعاونه مكتب مدني يضم خبراء في الشأن العراقي تولى متابعة الأمور المدنية والعلاقة بين القيادة العسكرية والمواطنين، وكان مكتب السكرتير الشرقي من المكاتب التي يعول عليها كثيرًا في إدارة علاقة السكان بالسلطة المحتلة. برزت مجموعة من الضباط والخبراء البريطانيين ساهمت كثيرًا في بناء كيان العراق الحديث/ فيها السير بيرسي زاخريا كوكس الذي شغل منصب المندوب السامي بعد تأسيس الدولة العراقية الحديثة في عام 1921، وجيرترود بيل والعقيد ليجمن وغلوب الذي انتقل بعد ذلك لخدمة إمارة شرق الأردن، وسانت جون فيلبي الذي التحق بابن سعود وأضحى من أقرب مستشاريه، والميجر أدموندز صاحب كتاب كردٌ وتركٌ وعرب الذي كان حاكمًا سياسيًا في كركوك ثم مستشارًا لوزير الداخلية العراقي. وبعد فرض الانتداب بقرار عصبة الأمم، انتقل هؤلاء الضباط من الحكم المباشر إلى الاستشاري، وتضاءل عددهم شيئًا فشيئًا حتى حل محلهم عراقيون تم إعدادهم بعد قيام كيان الدولة الحديث.

تمثل ثورة العشرين في العراق (30 حزيران/ يونيو 1920) ظاهرة فريدة في التاريخ نضال الشعب العراقي. فهي الثورة التي أجمعت قوى المجتمع العراقي في الريف والمدينة، في الشمال والجنوب، على القيام بشكل موحد ضد قوى الاحتلال البريطاني. كما هي أول مرة تشارك فيها المؤسسة الدينية، فعليًا، في الثورة عن طريق الفتيا. نتجت هذه الثورة من حلف غير معلن بين قوى الفلاحين في الأرياف التي استفزتها الصرامة التي تتعامل بها قوى الاحتلال معها، وقوى

المدينة التي تشربت بالمبادئ الجديدة الخاصة بالحرية والاستقلال والديمقراطية التي شكلت دافعًا مهمًا لها للثورة على الأساليب الجديدة التي أدخلتها قوى الاحتلال من جهة، وإخلاف هذه القوى بوعود قطعتها للأراضي المفتوحة بالحرية والاستقلال، كما جاء في منشور الجنرال ألفريد مود غداة دخوله بغداد، ومراسلات الحسين - ماكماهون في شأن منح العرب حريتهم وإقامة دولتهم الموحدة تحت تاج الملك الحسين بن علي بعد انتصار الحلفاء.

ثمة ميزة مهمة في هذا كله، وهي وحدة العراقيين، سُنّة وشيعة وعرب وأكراد، في هبتهم بوجه الاحتلال. وليست هذه الظاهرة خاصة بالعراق وحده، بل نجد شبيهًا لها في الوحدة الشعبية الإسلامية - القبطية التي أبرزتها ثورة 1919 في مصر. فهل من أثر دافع مثلته ثورة 1919، خصوصًا إن التبادل الثقافي ووصول المطبوعات المصرية إلى العراق كان أمرًا واقعًا واضح التأثير في المناخ الثقافي والاجتماعي العراقي.

لم تكن ثورة العشرين تمرد فلاحين ولا عصيانًا مدنيًا فحسب، بل كانت ثورة قامت لأجل هدف واحد واضح لا لبس فيه: الحرية والاستقلال. كبّدت هذه الثورة الاحتلال البريطاني خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، في وقت عانت فيه الخزينة البريطانية تداعيات الحرب العالمية الأولى التي كانت وضعت أوزارها توًا، لذلك سارعت بريطانيا بعد إخمادها الثورة إلى إعادة النظر في المسألة العراقية، ورسم سيناريوات متعددة لحلها، لعل أنجعها هو تشكيل نمط من الحكم الأهلي في العراقي يلبي بعض طموحات العراقيين، وعرض المسألة على عصبة الأمم لتقرر شكل الكيان الذي سينشأ في العراق.

بادرت بريطانيا باستبعاد وكيل الحاكم السياسي العام البريطاني السير آرنولد ويلسون الذي تولى الحكم إبان الثورة، وذلك بعد تعيين الحاكم السياسي السابق السير بيرسي زاخريا كوكس وزيرًا مفوضًا في طهران. كان الضابط ويلسون شابًا فذًا، نجح في العراق بتشكيل نظام إداري وقضائي ممتاز، قياسًا على ما كان عليه الوضع في فترة الحكم العثماني، لكن مشكلته كانت أنه لم يعرف المجتمع العراقي المعرفة التي كسبها المستعرب بيرسي كوكس، الذي بقي في المنطقة زمنًا طويلًا. حكم ويلسون بطريقة الوصاية على ولد لم يبلغ أشده، فرأى أن

أمام العراقيين طريق طويلة ليتمكنوا من حكم أنفسهم بأنفسهم، لذا حكم بطريقة الحكم البريطانية للهند، فكان مخلصًا للمدرسة الهندية البريطانية في توخي الحزم والصرامة في إدارة العراق[9].

أعيد كوكس من طهران ليعين من جديد حاكمًا مدنيًا عامًا على العراق، فباشر في إزالة آثار ثورة العشرين، وفي الانتقال إلى نظام حكم تحت قيادته يلبي طموحات العراقيين من جهة ويحفظ (وهو الأهم) المصالح البريطانية بأقل خسائر ممكنة.

حكمت وجهتا نظر السياسة البريطانية حيال العراق: وجهة نظر المدرسة الهندية البريطانية التي كان ينفذها ويلسون؛ ووجهة نظر لندن (وزارة المستعمرات) المقيدة بوعود قطعها البريطانيون للعرب، وكان توماس إدوارد لورانس أحد أهم الدافعين لها والمدافعين عنها. وقعت السياسة البريطانية في حيرة من أمرها بين هاتين السياستين، لكن ثورة العشرين دفعت الحكومة البريطانية إلى أن تحزم أمرها، وتحول القضية العراقية إلى وزارة المستعمرات، وتعيد انتداب كوكس حاكمًا مدنيًا عامًا في العراق لتنفيذ السياسة الجديدة[10].

عُقد مؤتمر القاهرة لتقرير شكل الكيان السياسي الجديد في العراق، وشكل نظام الحكم الذي سيتم تبنيه، رئسه ونستون تشرشل، وزير المستعمرات البريطاني، ومثل العراق فيه الحاكم المدني العام البريطاني السير بيرسي كوكس، والسكرتيرة الشرقية للحاكم البريطاني العام جيرترود بيل، كما حضر من العراقيين الفريق جعفر باشا العسكري، وزير الدفاع في الحكومة التي شكلها البريطانيون برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب. تقرر في هذا المؤتمر العمل على ترشيح الأمير فيصل بن الحسين ملكًا على العراق، وتعهد تشرشل أن تدعم الحكومة البريطانية هذا الترشيح إن حظي بموافقة الشعب العراقي. وفي استفتاء عام، اختار العراقيون فيصل الأول ملكًا دستوريًا عليهم، فتوج رسميًا في 23 آب/ أغسطس 1921، ليدخل العراق مرحلة جديدة في حياته كمملكة دستورية تحت الانتداب البريطاني.

---

(9) Arnold T. Wilson, *Loyalties: Mesopotamia: A Personal and Historical Record* (London: Oxford University Press, 1936), pp. 133-137.

(10) فيليب ويلارد آيرلند، العراق: دراسة في تطوره السياسي، ترجمة جعفر خياط (بيروت: دار الكشاف، 1949)، ص 98-103.

بذل الملك فيصل الأول جهدًا جبارًا في ترصين البناء، وإظهار العراق بلدًا مستقلًا، مخففًا آثار الانتداب المفروض عليه إلى المستوى الأدنى، فنجح في بناء علاقات عمل مع كوكس وخلفه السير هنري دوبس الذي خفض زمن سريان المعاهدة العراقية - البريطانية من عشرين عامًا إلى أربعة أعوام، يتم التفاوض في نهايتها لعقد معاهدة تُدخل العراق في عصبة الأمم، كأول بلد عربي في العصبة، قبل دخول مصر بأربعة أعوام[11].

3- المجتمع العراقي بعد الاحتلال وفرض الانتداب

عاش العراق فترة انتقالية كبيرة بين ما يمكن وصفه بـ «عالم ما بعد القرون الوسطى» (فترة الإصلاحات العثمانية) إلى «عالم القرن العشرين»، بكل الإنجازات المحققة على صعيد العلاقات السياسية وفلسفة الحكم وأسس بناء الدولة. وشهدت الحياة السياسية ميلًا إلى التشبه بنظام الحكم الليبرالي البريطاني، فاستندت فلسفة نظام الحكم إلى الفصل بين السلطات الثلاث، ومسؤولية الحكومة أمام مجلس النواب، وتألف البرلمان من مجلسين: أحدهما للنواب بالانتخاب على درجتين، والآخر للأعيان بالتعيين.

أقر المجلس التأسيسي في عام 1924 دستور البلاد، وسمي «القانون الأساسي». كما أصدر قانون الجنسية الذي اعتبر كل عثماني سكن العراق بين تاريخ التتويج (23 آب/ أغسطس 1923) وتاريخ تشريع القانون (1924) عراقيًا، وفتح باب التجنس أمام الذين سبق واختاروا الرعوية الإيرانية تهربًا من قانون التجنيد العثماني أو لأسباب أخرى. سرى الأمر نفسه على أتباع الرعوية الهندية البريطانية الذين جاءوا مع قوات الاحتلال.

حُسم أمر عائدية ولاية الموصل للعراق بقرار عصبة الأمم، واكتمل نصاب ولايات الخطة العراقية العثمانية الثلاث مكونة بلدًا قسم أربعة عشر لواءً، وقسمت الألوية أقضية، وقسمت الأقضية نواحي وفق النظام الإداري العثماني. وحصل العراق على استقلاله الناجز في عام 1932، وكان أول بلد عربي يدخل عصبة الأمم بعد تحرره من الانتداب.

(11) أحمد مختار بابان، مذكرات أحمد مختار بابان آخر رئيس للوزراء في العهد الملكي في العراق، إعداد وتقديم كمال مظهر أحمد، ط 2 (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2013)، ص 31.

4- تطور الحياة المدنية بعد الاحتلال البريطاني

تطورت الحياة المدنية في العراق بصورة خطرة غير متوقعة، بسبب اختلاف فلسفة نظام الحكم البريطاني ونظرته إلى سكان العراق المحتل. كان هدف حزمة الإصلاحات التي خطط البريطانيون لإدخالها إلى العراق قطع الصلة بالماضي العثماني، وإخضاع الشعب العراقي لقواعد جديدة في تصرفه اليومي، وفي علاقته بالسلطة الحكومية، وعلاقة مكوناته بعضها ببعض.

مع ذلك، فإن نظرةً إلى التطورات المتسارعة التي شهدتها بغداد مثلًا بعد الاحتلال تبيّن لنا مقدار الهزة الاجتماعية التي تعرضت لها. كان للأموال الطائلة التي صرفتها بريطانيا لتحسين البنى التحتية في البلد ولتحسين طرق المواصلات انعكاسات كبيرة على نوعية الحياة التي بدأت تشهد تطورات لا بأس بها. وعرفت الحياة الاجتماعية المحافظة شيئًا من الانفتاح نتيجة إدخال المحتلين عاداتهم المتحررة، فقلّدتهم فئات في المجتمع، حيث دخلت دور العرض السينمائي إلى الحياة الاجتماعية، ومثلها صالات اللهو والرقص ومحلات بيع الخمور وأماكن شربها، وهي أمور واجهت مقاومة من المحافظين الذين تزعمهم رجال الدين. لكن تيار التحديث والعصرنة كان أقوى.

تطورت حركة السفر والتنقل بعد أن أتيح للمواطنين السفر بالقطارات، وزاد عدد المدارس وإقبال الناس على إرسال أولادهم للدراسة بعدما تبين لهم أنها الطريقة الوحيدة التي تضمن لأولادهم مصدر عيش كريم كموظفين أو عاملين في الحكومة. ونشأت بعض الصناعات الخدمية والحرف المساعدة كتصليح الأجهزة الميكانيكية والكهربائية وصيانتها. كان هذا الحراك الاجتماعي مسؤولًا عن نشوء حس اجتماعي وسياسي متقدم، انعكس في تشكيل الأحزاب والجمعيات.

5- تغييرات اجتماعية وسياسية واقتصادية هائلة

مثَّلَ انتخاب فيصل الأول ملكًا على العراق انتقالًا جذريًا في نمط الحكم في بلد يعد حاضنة الحضارة الإنسانية الأولى ويعاني تداعيات التخلف كلها. فلا كفاءات كافية لإدارة الدولة ما عدا الضباط العراقيين من قدامى الجيش العثماني الذين شاركوا في الثورة العربية الكبرى. وكان على البريطانيين الذين تحولوا إلى

وصاة على مستقبل البلد الجديد، إعداد العراق ليأخذ مصيره بنفسه، بالعمل على تأهيل كوادره من العدم تقريبًا. لذلك عين مستشارون بريطانيون لكل مستوى إداري أو سياسي في الحكومة العراقية، وهو أمر أثقل كاهل ميزانية البلد المحدودة من جهة، وجعل هؤلاء المستشارين يتعسفون في فرض وجهات نظرهم، ويسرفون في عرض قدراتهم وصلاحياتهم من جهة ثانية.

أوجد السلوك البريطاني المزدوج المعروف بتأليب قطاعات المجتمعات المستعمرة بعضها على بعض شروخًا ومراكز قوى في المجتمع العراقي، فتحزب مشايخ العشائر ووجهاء المدن ورجال الدين فئات ضد أخرى، ما صعّب مهمة ترصين لحمة المجتمع الوليد.

من أهم أسباب المشكلات التي واجهتها الدولة الوليدة قضية عائدية ولاية الموصل التي طالبت بها تركيا الكمالية بحجة أن الولاية لم تكن محتلة عندما أعلنت الهدنة في تشرين الثاني/ نوفمبر 1918. قضت هذه القضية مضاجع الحكومات المتتالية، حتى حسمت عصبة الأمم الأمر وقررت أن الموصل عراقية في عام 1926. كما كان تشريع الدستور هو الآخر من المشكلات الكبيرة التي جابهت أولي الأمر، إضافة إلى علاقة البلاط بدار الاعتماد وقضية صلاحيات الملك.

على الصعيد الخارجي، أزعج تلكؤ إيران في الاعتراف بالكيان الجديد الحكومات المتتالية حتى حُسم أخيرًا في نهاية عشرينيات القرن الماضي. وفي الوقت نفسه، كان تهديد الوهابيين وغزواتهم المتتالية من القضايا التي عانت الحكومات العراقية والجيش البريطاني آثارها، ما تطلب تدخلًا على مستوى عالٍ ولأكثر من مرة من أجل حل هذا الإشكال.

مهما قيل في الدوافع الاستعمارية والإمبريالية التي دفعت بريطانيا إلى احتلال العراق لأهميته الفائقة في استراتيجيتها بالسيطرة على طريق الهند، والاستفادة من الثروات الجديدة المستنبطة في العراق وأهمها النفط، فإن الاحتكاك العراقي المباشر بالبريطانيين كمحتلين ومنتدبين فتح الأبواب أمام البلد كي يتفاعل مع معطيات القرن العشرين الجديدة، فتحول بالتالي من منطقة نائية في السلطنة العثمانية إلى بلد يشق طريقه في مسارات التقدم.

في الأعوام التالية لتشكيل الحكم الملكي في العراق، تراكمت الإنجازات المدنية، إذ تضاعف عدد المدارس خلال ثلاثة أعوام من الحكم الوطني، وأصبح عددها 19 مدرسة رسمية و23 مدرسة أهلية في بغداد بعدما كانت خمسة مدارس فقط إبان الحكم العثماني. كما كان عدد المدارس في الموصل 13 مدرسة، ما يشير إلى تنامي مستوى التعليم بشكل متسارع[12].

(12) فخري الزبيدي، بغداد من 1900 حتى سنة 1934: الجامع من المفيد والظريف (بغداد: دار الحرية للطباعة، 1989)، ج 1، ص 190-191.

فهرس عام

- ج -

- ر -